المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر للشيخ
الامام والعلامة الهمام ضياء الدين
أبي الفتح نصر الله بن محمد بن
محمد بن عبد الكريم
الموصلي الشافعي
رحمه الله
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله ربنا أن يبلغنا من الحمد ما هو أهله وأن يعلمنا من البيان ما يقصر عنه مزية الفضل وأصله وحكمة الخطاب وفصله ونرغب إليه أن يوفقنا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذي هو أفصح من نطق بالضاد ونسخ هديه شريعة كل هاد وعلى آله وصحبه الذين منهم من سبق وبدر ومنهم من صابر وصبر ومنهم من آوى ونصر (وبعد) فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام وقد ألف الناس فيه كتبا وجلبوا ذهبا وحطبا وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وشينه وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا وأجدى محصولا وكتاب سر الفصاحة وإن نبه فيه على نكت منيرة فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى ذكره ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها وسيرد بيان ذلك كله في مواضع من هذا

الكتاب ان شاء الله تعالى على أنّ كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشورا وتركا اللبابا وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم ولم أجد أحدا ممن تقدمنى تعرض لذكر شئ منها وهى اذا عدّت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره واذا نظر الى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره وقد أوردتها ههنا وشفعتها بضروب أخر مدونة فى الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته وأضفت اليها ما أضفته وهدانى الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وانما هى متبعة وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا وعلى غيره من الكتب (وقد بنيته) على مقدمة ومقالتين (فالمقدمة) تشتمل على أصول علم البيان (والمقالتان) تشتملان على فروعه فالأولى فى الصناعة اللفظية والثانية فى الصناعة المعنوية ولا أدّعى فيما ألفته من ذلك فضيلة الاحسان ولا السلامة من سبق اللسان فانّ الفاضل من تعدّ سقطاته وتحصى غلطاته ويسئ بالاحسان ظنا لا كمن هو بابنه وشعره مفتون واذا تركت الهوى قلت انّ هذا الكتاب بديع فى اغرابه وليس له صاحب فى الكتب فيقال انه من أخدانه أو من أترابه فهو مفرد بين أصحابه ومع هذا فانى أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه وحمت حول حماه ولم أقع فيه اذ الغرض انما هو الحصول على تعليم الكلام الذى به انتظام العقود وترصيع وتجلب العقول فتخدع وذلك شئ تحيل عليه الخواطر لا تنطق به الدفاتر (واعلم) أيها الناظر فى كتابى أنّ مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك أستاذا واذا ما أنت عما تنتفع به فى فنه قيل لك هذا فانّ الدربة والادمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك واستنبط بادمانك ما أخطاك وما مثلى فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به وليس عليه أن يخلق لك قلبا فانّ حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان غايته * ما كل ماشية بالرحل شملال

ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول أما مقدمة الكتاب فانها تشتمل على عشرة فصول

(الفصـــــل الاول) في موضوع علم البيان. موضوع كل علم هو الشيء الذي
يسأل فيه عن احواله التي تعرض لذاته فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين
والفقيه يسأل عن أحوالها التي تعرض لها من الفرض والنفل والحلال والحرام
والندب والمباح وغير ذلك وموضوع الطب هو بدن الانسان والطبيب يسأل
عن أحواله التي تعرض له من صحته وسقمه وموضوع الحساب هو الاعداد
والحاسب يسأل عن أحوالها التي تعرض لها من الضرب والقسمة والنسبة
وغير ذلك وموضوع النحو هو الالفاظ والمعاني والنحوي يسأل عن أحوالهما
في الدلالة من جهة الاوضاع اللغوية وكذلك يجري الحكم في كل علم من العلوم
وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه ولم يختلط بغيره وعلى هذا فموضوع علم البيان
هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو
والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الالفاظ على المعاني من جهة الوضع
اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي
دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء
النحو والاعراب ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم
مواقع اعرابه ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن ههنا
غلط مفسرو الاشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية
وتبيين مواضع الاعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة

(الفصـــــل الثاني) في آلات علم البيان وأدواته. اعلم أن صناعة تأليف
الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة وقد قيل ينبغي للكاتب أن
يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقول فلان
النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة
فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن وملاك هذا
كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغني تلك الآلات شيأ ومثال ذلك
كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها ألا ترى أنه اذا لم يكن
في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيأ وكثيرا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع
في تعلم العلوم حتى ان بعض الناس يكون له نفاذ في تعلم علم مشكل المسلك صعب
المأخذ فاذا كلف تعلم ما هو دونه من سهل العلوم نكص على عقبيه ولم يكن له فيه

نفاذ وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون الهجاء
أو في الهجاء دون المديح أو يجيد في المراثي دون التهاني أو في التهاني دون
المراثي وكذلك صاحب الطبع في المنثور هذا ابن الحريري صاحب المقامات قد
كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحدا في فنه فلما حضر ببغداد ووقف
على مقاماته قيل هذا يستصلح لكتابة الانشاء في ديوان الخلافة ويحسن أثره فيه
فأحضر وكلف كتابة كتاب فأفحم ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة فقال فيه بعضهم

شيخ لنا من ربيعة الفرس * ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان وقد * ألجمه في بغداد بالخرس

وهذا مما يعجب منه وسئلت عن ذلك فقلت لا عجب لأن المقامات مدارها
جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص وأما المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له لأن
المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام وهي متجددة على عدد الأنفاس
ألا ترى أنه إذا خطب الكاتب المفلق عن دولة من الدول الواسعة التي يكون
لسلطانها سيف مشهور وسعي مذكور ومكث على ذلك برهة يسيرة لا تبلغ
عشر سنين فإنه يدون عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء كل جزء منها
أكبر من مقامات الحريري حجما لأنه إذا كتب في كل يوم كتابا واحدا
اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار إليها وإذا نخلت وغربلت واختير
الأجود منها إذ لا تكون كلها جيدة فيخلص منها النصف وهو خمسة أجزاء والله يعلم
ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب وما احتملت في ضمنها من المعاني المبتدعة
على أن الحريري قد كتب في أثناء مقاماته رقاعا في مواضع عدة فجاء بها منحطة
عن كلامه في حكاية المقامات لا بل جاء بالغث البارد الذي لا نسبة له إلى باقي كلامه
فيها وله أيضا كتابة أشياء خارجة عن المقامات وإذا وقف عليها أقسم أن قائل
هذه ليس قائل هذه لما بينهما من التفاوت البعيد وبلغني عن الشيخ أبي محمد أحمد
ابن الخشاب النحوي رحمه الله أنه كان يقول ابن الحريري رجل مقامات أي
أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها وإن أتى بغيرها لا يقول شيئا فانظر أيها
المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ومن أجل
ذلك قيل شيئان لا نهاية لهما البيان والجمال * وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى
في الانسان طبعا قابلا لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات

(النوع الاول) معرفة علم العربية من النحو والتصريف (النوع الثاني) معرفة ما يحتاج اليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب (النوع الثالث) معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام فان ذلك يجري مجرى الامثال أيضا (النوع الرابع) الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظوم منه والمنثور والتحفظ للكثير منه (النوع الخامس) معرفة الاحكام السلطانية الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك (النوع السادس) حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وادراجه في مطاوي كلامه (النوع السابع) حفظ ما يحتاج اليه من الاخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال (النوع الثامن) وهو مختص بالناظم دون الناثر وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر ● ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الانواع ليعلم أن معرفته مما تمس الحاجة اليه فنقول أما علم النحو فانه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط وهو أول ما ينبغي اتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرة اللحن ومع هذا فانه وان احتيج اليه في بعض الكلام دون بعض لضرورة الافهام فان الواضع لم يخص منه شيأ بالوضع بل جعل الوضع عاما والا فاذا نظرنا الى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج اليه في افهام المعاني ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له قوم باثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شئ وكذلك الشرط لو قلت ان تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوما والفضلات كلها تجري هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء فاذا قلت جاء زيد راكب وما في السماء قدر راحة سحاب وقام القوم الا زيد فلزمت السكون في ذلك كله ولم تبين اعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد وهكذا يقال في المجرورات وفي المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه وفي المبتدا والخبر وغير ذلك من أقسام أخر لا حاجة الى ذكرها لكن قد خرج عن هذه الامثلة ما لا يفهم الا بقيود تقيده وانما يقع ذلك في الذي تدل صيغته الواحدة على معاني مختلفة ولنضرب لذلك مثالا نوضحه فنقول اعلم أن من أقسام الفاعل

إذ المعقول مالا يفهم تم الا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل فانه اذا لم يكن
ثم علامة تبين أحدهما من الآخر والأشكل الامر كقولك ضرب زيد عمرو
ويكون زيد هو المضروب فانك اذا لم تنصب زيدا وترفع عمرا والا لا يفهم ما أردت
وعلى هذا ورد قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وكذلك لو قال قائل
ما أحسن زيد ولم يبين الاعراب في ذلك لما علم ما غرضه منه اذ يحتمل أن يريد به
التعجب من حسنه أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن ويحتمل أن
يريد به الاخبار بنفي الاحسان عنه ولو بين الاعراب في ذلك فقال ما أحسن زيدا
وما أحسن زيد وما أحسن زيد علم غرضه وفهم معنى كلامه لانفراد كل قسم
من هذه الاقسام الثلاثة بما يعرف به من الاعراب فوجب حينئذ بذلك معرفة
الصواب كان ضابطا لمعاني الكلام حافظا لها من الاختلاف * وأول من تكلم
في النحو أبو الاسود الدؤلي وسبب ذلك أنه دخل على ابنته بالبصرة فقالت له يا أبت
ما أشد الحر متعجبة ورفعت أشد فظنها مستفهمة فقال شهر ناجر فقالت
يا أبت انما أخبرتك ولم أسألك فأتى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال يا أمير
المؤمنين ذهبت لغة العرب ويوشك ان تطاول عليها زمان أن تضمحل فقال له
وما ذاك فأخبره خبر ابنته فقال هلم صحيفة ثم أملى عليه الكلام لا يخرج عن اسم
وفعل وحرف جاء لمعنى ثم رسم له رسوما فنقلها النحويون في كتبهم وقيل ان
أبا الاسود دخل على زياد ابن أبيه بالبصرة فقال انى أرى العرب قد خالطت العجم
وتغيرت ألسنتها أفتأذن لى أن أضع ما يقيمون به كلامهم فقال لا فقام من عنده
ودخل عليه رجل فقال أيها الامير مات أبانا وخلف بنون فقال زياد مات أبانا
وخلف بنون مه ردوا على أبا الاسود فردوه فقال له اصنع ما كنت نهيتك عنه
فوضع شيئا ثم جاء بعده ميمون الاقرن فزاد عليه ثم جاء بعده عنبسة بن معدان
المهرى فزاد عليه ثم جاء بعده عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي وأبو عمرو
ابن العلاء فزادا عليه ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الازدي وتتابع الناس
واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك فهذا ما بلغني من أمر النحو
في أول وضعه وكذلك العلوم كلها يوضع منها في مبادى أمرها شيء يسير ثم يزاد
بالتدريج الى أن يستكمل آخرا (فان قيل) أما علم النحو فلم البك أنه يجب
معرفته لكن التصريف لا حاجة اليه لان التصريف انما هو معرفة أصل

الكلمة وزيادتها وحذفها وابدالها وهذا لا يضر جهله ولا تنفع معرفته ولنضرب
لذلك مثالا كيف اتفق فنقول اذا قال القائل رأيت سرداحا لا يلزمه أن يعرف
الالف فى هذه الكلمة زائدة هى أم أصلية لان العرب لم تنطق بها الا كذلك
ولو قالت سرداح بغير ألف لما جاز لاحد أن يزيد الالف فيها من عنده فيقول
سرداحا فعلم بهذا أنه انما ينطق بالالفاظ كما سمعت عن العرب من غير زيادة فيها ولا
نقص وليس يلزم بعد ذلك أن يعلم أصلها ولا زيادتها الا ان ذلك أمر خارج تقتضيه
صناعة تأليف الكلام (فالجواب) عن ذلك أنا نقول اعلم أنا لم نجعل معرفة
التصريف كمعرفة الفصول لان الكاتب أو الشاعر اذا كان عارفا بالمعانى مختارا
لها قادرا على الالفاظ مجيدا فيها ولم يكن عارفا بعلم الفصول فانه يفسد ما يصوغه
من الكلام ويختل عليه ما يقصده من المعانى كما أريناك فى ذلك المثال المتقدم
وأما التصريف فانه اذا لم يكن عارفا به لم تفسد عليه معانى كلامه وانما تفسد
عليه الاوضاع وان كانت المعانى صحيحة وسيأتى بيان ذلك فى تحرير الجواب
فنقول أما قولك ان التصريف لا حاجة اليه واستدلالك بما ذكرته من المثال
المضروب فان ذلك لا يستمر لك الكلام فيه ألا ترى أنك مثلت كلامك فى لفظة
سرداح وقلت انه لا يحتاج الى معرفة الالف زائدة هى أم أصل لانها انما نقلت
عن العرب على ما هى عليه من غير زيادة ولا نقص وهذا لا يطرد الا فيما هذا سبيله
من نقل الالفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال فأما اذا أريد تصغيرها
أو جمعها والنسبة اليها فانه اذا لم يعرف الاصل فى حروف الكلمة وزيادتها
وحذفها وابدالها يضل حينئذ عن السبيل وينشأ من ذلك مجال للعائب
والطاعن ألا ترى أنه اذا قيل للنحوى وكان جاهلا بعلم التصريف كيف تصغر لفظة
اضطراب فانه يقول ضطيرب ولا يلام على جهله بذلك لان الذى تقتضيه صناعة
النحو قد أتى به وذلك أن النحاة يقولون اذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها
حرف زائد أو لم يكن حذفته نحو قولهم فى منطلق مطيلق وفى جحمرش جحيمر
فلفظة منطلق على خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون الا أن الميم
زيدت فيها لمعنى فلذلك لم تحذف وحذفت النون وأما لفظة جحمرش فخماسية
لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا ولم يعلم النحوى أن علماء العربية انما قالوا
ذلك مهملا اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف لانه لا يلزمهم أن يقولوا

فى كتب النحو أكثر مما قالوا وليس عليهم أن يذكروا فى باب من أبواب النحو شيأ
من التصريف لان كلا من النحو والتصريف علم منفرد برأسه غير أن أحدهما
مرتبط بالآخر ومحتاج اليه وانما قلت ان النحوى اذا سئل عن تصغير لفظة
اضطراب يقول ضطيرب لانه لا يخلو اما أن يحذف من لفظة اضطراب الالف
أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء وهذه الحروف المذكورة غير الالف ليست من
حروف الزيادة فلا تحذف بل الاولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الذى
ليس بزائد فلذلك قلنا ان النحوى يصغر لفظة اضطراب على ضطيرب فيحذف
الالف التى هى حرف زائد دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة واما أن يعلم أن
الطاء فى اضطراب مبدلة من تاء وانه اذا أريد تصغيرها ترد الى الاصل الذى كانت
عليه وهو التاء فيقال ضتيرب فان هذا لا يعلمه الا التصريفى وتكليف النحوى
الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه علم ما لا يعلمه فثبت بما ذكرناه انه يحتاج
الى علم التصريف لئلا يغلط فى مثل هذا (ومن العجب) أن يقال انه لا يحتاج الى
معرفة التصريف ألم تعلم أن نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا
وأفخمهم شأنا قال فى معايش معائش بالهمز ولم يعلم الاصل فى ذلك فأوخذ عليه
وعيب من أجله ومن جملة من عابه أبو عثمان المازنى فقال فى كتابه فى التصريف
ان نافعا لم يدر ما العربية وكثيرا ما يقع أولوا العلم فى مثل هذه المواضع فكيف
الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها واذا لم يعلم حقيقة الامر فى ذلك
لم يغلط فيما أوجب قدحا ولا طعنا وهذه لفظة معايش لا يجوز همزها باجماع من
علماء العربية لان الياء فيها ليست مبدلة من همزة وانما الياء التى تبدل من الهمزة
فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف
واحد ولا تكون عينا فى وسفائن وفى هذا الموضع غلط نافع رحمة الله عليه لانه
لا شك اعتقد أن معيشة بوزن فعيلة وجمع فعيلة هو على فعائل ولم يتنبه الى أن
الاصل فى معيشة معيشة على وزن مفعلة وذلك لان أصل هذه الكلمة من عاش
التى أصلها عيش على وزن فعل ويلزم مضارع فعل المعتل العين يفعل لتصح الياء
فهو يعيش ثم تنقل حركة العين الى الفاء فتصير يعيش ثم يبنى من يعيش مفعول
فيقال معيوش به كما يقال مسيور به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال معيش به كما
يقال مسير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير معيشة ومع هذا فلا ينبغى لصاحب هذه

قوله لان الياء ليست الخ الظاهر أن يقول لان المد فى مفرده غير زائد كما قال ابن مالك والمد زيد ثالثا فى الواحد * همزا يرى فى مثل كالقلائد اهـ

الصناعة من النظم والنثر أن يجهل من علم العربية ما يخفى عليه بإهماله اللحن الخفي فإن اللحن الظاهر قد كثرت مفاوضات الناس فيه حتى صار يعلمه غير النحوي ولا شك أن قلة المبالاة بالأمر واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فيما لا يشعر أنه وقع فيه فيجهل بما يكون عالمًا به ألا ترى أن أبا نواس كان معدودًا في طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه فقال في صفة الخمر

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ٭ حصباء درّ على أرض من الذهب

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس فإنه من ظواهر علم العربية وليس من غوامضه في شيء لأنه أمر نقلي يحمل ناقله فيه على النقل من غير تصرف وقول أبي نواس صغرى وكبرى غير جائز فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فعلى التي لا أفعل لها نحو حبلى إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة وههنا قد عريت عن الإضافة وعن الألف واللام فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته وقد غلط أبو تمام في قوله

بالقائم الثامن المستخلف اطّأدت ٭ قواعد الملك ممتدًّا لها الطول

ألا ترى أنه قال اطّأدت والصواب اتّطدت لأن التاء تبدل من الواو في موضعين أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع لأنك إذا بنيت افتعل من الوعد قلت اتّعد ومثله ما ورد في هذا البيت فإنه من وطد يطد كما يقال وعد يعد فإذا بني منه افتعل قيل اتّطد ولا يقال اطّأد وأما غير المقيس فقولهم في وجاه تجاه وقالوا تكلان وأصله الواو لأنه من وكل يكل فأبدلت الواو تاء للاستحسان فهذه الأمثلة قد أشرت إليها ليعلم مكان العائدة في أمثالها وتبرّق على أني لم أجد أحدًا من الشعراء المفلقين سلم من مثل ذلك فإما أن يكون لحنًا يدل على جهله بمواقع الإعراب وإما أن يكون أخطأ في تصريف الكلمة ولا أعني بالشعراء من هو قريب عهد بزماننا بل أعني بالشعراء من تقدم زمانه كالمتنبي ومن كان قبله كالبحتري ومن تقدمه كأبي تمام ومن سبقه كأبي نواس والمعصوم من عصمه الله تعالى على أن الخطأ في التصريف أندر وقوعًا من الخطأ في النحو لأنه قلما يقع له كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال والنقل في حروفها وأما النحو فإنه يقع الخطأ فيه كثيرًا حتى إنه ليشذ في ظاهره في بعض الأحوال فكيف خافيه كقول أبي نواس في الأمين محمد رحمه الله

يا خيرَ من كان ومن يكون • الا النبيّ الطاهر الميمون

فرفع في الاستثناء من الموجب وهذا من ظواهر النحو وليس من شأنه في شيء وكذلك قال أبو الطيب المتنبي

أرأيت همة ناقتي في ناقة • نقلت يدا سرحا وخفا مجمرا

تركت دخان الرمث في أوطانها • طلبا لقوم يوقدون العنبرا

وتكرمت ركباتها عن مبرك • تقعان فيه وليس مسكا اذفرا

فجمع في حال التثنية لأن الناقة ليس لها الا ركبتان فقال ركبات وهذا من أظهر ظواهر النحو وقد خفي على مثل المتنبي ومع هذا فينبغي لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه لانه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ما جرى مجراهما وانما غرضه ايراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة ولهذا لم يكن اللحن قادحا في حسن الكلام لانه اذا قيل جاء زيد راكب ان لم يكن حسنا الا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا في حسن الكلام وليس كذلك فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر اقامة اعراب كلماته وانما الغرض أمر وراء ذلك وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من الكلام المنثور وأما الادغام فلا حاجة اليه لكاتب لكن الشاعر ربما احتاج اليه لانه قد يضطر في بعض الاحوال الى ادغام حرف والى فك ادغام من أجل اقامة الميزان الشعري (النوع الثاني) وهو قولنا انه يحتاج الى معرفة اللغة مما تداول استعماله فسنرد بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة والكلام على جيدها ورديئها في المقالة المختصة بالصناعة اللفظية ويفتقر أيضا مؤلف الكلام الى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر ليجد اذا ضاق به موضع في كلامه بايراد بعض الالفاظ فيه العدول عنه الى غيره مما هو في معناه وهذه الاسماء تسمى المترادفة وهي اتحاد المسمى واختلاف أسمائه كقولنا الخمر والراح والمدام فان المسمى بهذه الاسماء شيء واحد وأسماؤه كثيرة وكذلك يحتاج الى معرفة الاسماء المشتركة ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه وهي اتحاد الاسم واختلاف المسميات كالعين فانها تطلق على العين الناظرة وعلى

ينبوع الماء وعلى المطر وغيره الا أن المشترك كثير فيفتقر الاستعمال الى قرينة تخصصه بما يكى لا تكون مبهمة لانا اذا قلنا عين ثم سكتنا وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بازاء هذا الاسم واذا قرنا اليه قرينة تخصه زال ذلك الابهام بأن تقول عين حسناء أو عين نضاخة أو ملئة أو غير ذلك ه وهذا موضع للعلماء فيه مجاذبات جدلية (فنهم) من ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقة في المعنيين جميعا ويقول ان ذلك يخل بفائدة وضع اللغة لان اللغة انما هي وضع الالفاظ في دلالتها على المعاني أي وضع الاسماء على المسميات لتكون مبينة عنها عند اطلاق اللفظ والاشتراك لا بيان فيه وانما هو ضد البيان لكن طريق البيان أن يجعل أحد المعنيين في اللفظ المشترك حقيقة والآخر مجازا فاذا قلنا هذه كلمة وأطلقنا القول فهم منه اللفظة الواحدة واذا قيدناه فقلنا هذه كلمة شاعر فهم منه القصيدة المقصدة من الشعر وهي مجموع كلمات كثيرة ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا البتة هذا خلاصة ما ذهب اليه من ينكر وقوع اللفظ المشترك في المعنيين حقيقة وفي ذلك ما فيه وسأبين ما يدخل له من الخلل فأقول في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكرى ولم يكن لاحد فيه قول من قبلي وهو انما قولك ان فائدة وضع اللغة انما هو البيان عند اطلاق اللفظ واللفظ المشترك يخل بهذه الفائدة فهذا غير مسلم بل فائدة وضع اللغة هو البيان والتحسين (أما البيان) فقد وفى الاسماء المتباينة التي هي كل اسم واحد دل على مسمى واحد فاذا أطلق اللفظ في هذه الاسماء كان بينا مفهوما لا يحتاج الى قرينة ولو لم يضع الواضع من الاسماء شيأ غيرها لكان كافيا في البيان (وأما التحسين) فان الواضع لهذه اللغة العربية التي هي أحسن اللغات نظر الى ما يحتاج اليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر ورأى أن من مهمات ذلك التجنيس ولا يقوم به الا الاسماء المشتركة التي هي كل اسم واحد دل على مسميين فصاعدا فوضعها من أجل ذلك وهذا الموضع يتجاذبه جانبان يترجح أحدهما على الآخر وبيانه أن التحسين يقضي بوضع الاسماء المشتركة ووضعها يذهب بفائدة البيان عند اطلاق اللفظ وعلى هذا فان وضعها الواضع ذهب بفائدة البيان وان لم يضع ذهب بفائدة التحسين لكنه ان وضع

استدرك ماذهب من فائدة البيان بالقرينة وان لم يضع لم يستدرك ماذهب
من فائدة التصغير فترجح جانب الوضع فوضع (فان قيل) فلم لا تنسب
الاسماء المشتركة الى اختلاف القبائل لا الى واضع واحد (قلت) في الجواب
هذا انه ضعيف لا حاجة اليه وهو مدفوع من وجهين أحدهما ما قدمت القول فيه
من الترجيح الذي سوغ للواضع أن يضع والآخر أنا نرى أنه قد ورد من الجموع
ما يقع على مسميين اثنين كقولهم كعاب جمع كعب الذي هو كعب الرجل وجمع
كعبة وهي البنية المعروفة واذا أطلقنا اللفظ فقلنا كعاب من غير قرينة لا يدرى
ما المراد بذلك أكعب الرجل أم البنية المعروفة وكذلك ورد واحد وجمع على وزن
واحد كقولهم راح اسم للخمر وراح جمع راحة وهي الكف وكقولهم عقاب
وهو الجزاء على الذنب وجمع عقبة أيضا وفي اللغة من هذا شئ كثير وقد علم
بالاجماع من علماء العربية أنه لم يجر فيه خلاف بين القبائل فاتضح بهذا أن
الاسماء المشتركة من واضع واحد (فان قلت) ان الواضع انما وضع المفرد
من الالفاظ والجمع وضعه غيره (قلت) في الجواب ان الذي وضع المفرد هو
الذي وضع الجمع لان من قواعد وضع اللغة أن يوضع المفرد والجمع والمذكر
والمؤنث والمصغر والمكبر والمصادر وأسماء الفاعلين وما يجري هذا المجرى واذا
أخل بشئ من ذلك كان قد أخل بقاعدة من قواعد وضع اللغة ثم لو سلمت اليك
أن واضع الجمع غير واضع المفرد لكان ذلك قدحا في الواضع الثاني اذ جاء بالابهام
عند اطلاق اللفظ لانه جمع كعبة التي هي البنية وكعب الرجل على كعاب وهذا
لفظ مشترك مبهم عند الاطلاق ولا فرق بين أن يضعه الواضع الاول أو واضع ثان
فان الابهام حاصل منه * وكان فاوضني بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة
البقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقال ان لون البقرة كان أسود والاصفر
هو الاسود فأنكرت عليه هذا القول فأخذ يجادل مجادلة غير عارف ويعزو
ذلك الى تفسير النقاش وتفسير البلاذري فقلت له اعلم أن هذا الاسم الذي هو
الاصفر لا يخلو في دلالته على الاسود من وجهين اما أنه من الاسماء المتباينة
التي يدل كل اسم منها على مسمى واحد كالانسان والاسد والفرس وغير ذلك
واما أنه من الاسماء المشتركة التي يدل الاسم منها على مسميين فصاعدا ولا يجوز
أن يكون من الاسماء المتباينة لانا نراه متضادا بين لونين أحدهما هذا اللون

الزعفرانى الشكل والآخر اللون المظلم الشكل وعلى هذا فانه يكون من الاسماء المشتركة واذا كان من الاسماء المشتركة فلابد له من قرينة تخصصه باللون الزعفرانى دون اللون المظلم لان الله تعالى قال صفراء فاقع لونها والفاقع من صفات اللون الزعفرانى خاصة لانه قد ورد للالوان صفات متعددة لكل لون منها صفة فقيل أبيض يقق وأسود حالك وأحمر قان وأصفر فاقع ولم يقل أسود فاقع ولا أصفر حالك فعلم حينئذ أن لون البقرة لم يكن أسود وانما كان أصفر فلما تحقق عند ذلك الفقيه ما أشرت اليه أذعن بالتسليم (وأما النوع الثالث) فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التى وردت فى حوادث خاصة بأقوام وقولى هذا لا يقتضى كل الامثال الواردة عنهم فان منها ما لا يحسن استعماله كما أن من ألفاظهم أيضا ما لا يحسن استعماله وكنت جردت من كتاب الامثال للميدانى أوراقا خفيفة تشتمل على الحسن من الامثال الذى يدخل فى باب الاستعمال وسبيل المتصدى لهذا الفن أن يسلك ما سلكته وليعلم أن الحاجة اليها شديدة وذلك أن العرب لم تضع الامثال الا لاسباب أوجبتها وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لامر من الامور عندهم كالعلامة التى يعرف بها الشئ وليس فى كلامهم أوجز منها ولا أشد اختصارا وسبب ذلك ما أذكره لك لتكون من معرفته على يقين (فأقول) قد جاء عن العرب من جملة أمثالهم ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر وهو مثل يضرب للامر الظاهر المشهور والاصل فيه كما قال المفضل بن محمد انه بلغنا أن بنى ثعلبة بن سعد بن ضبة فى الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر فقالت طائفة تطلع الشمس والقمر يرى وقالت طائفة يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس فتراضوا برجل جعلوه حكما فقال واحد منهم ان قومى يبغون على فقال الحكم ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر فذهبت مثلا ومن المعلوم أن قول القائل ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر اذا أخذ على حقيقته من غير نظر الى القرائن المنوطة به والاسباب التى قيل من أجلها لا يعطى من المعنى ما قد أعطاه المثل وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم وحيث كان الامر كذلك جاز ايراد هذه الالفاظ فى التعبير عن المعنى المراد ولولا تلك المقدمات المعلومة والاسباب المعروفة لما فهم

من قول القائل ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ماذكرناه من المعنى المقصود بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد لان البغي هو الظلم والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا فكان يصير معنى المثل ان كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر وهذا كلام مختل المعنى ليس بمستقيم فلما كانت الامثال كالرموز والاشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحا صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا ومن أجل ذلك قيل في حد المثل انه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الاخلال بمعرفتها (وأما أيام العرب) فانها تتنوع وتتشعب فمنها أيام نفار ومنها أيام محاربة ومنها أيام منافرة ومنها غير ذلك ولا يخلو الناظم والناثر من الاتصاب لوصف يوم يمر به في بعض الاحوال شبيها بيوم من تلك الايام ومماثلا له فاذا جاء بذكر بعض تلك الايام المناسبة لمراده الموافقة له وقاس عليه يومه فانه يكون في غاية الحسن والرونق هذا لاخفاء به (وأما الوقائع) التي وردت في حوادث خاصة بأقوام فانها كالامثال في الاستشهاد بها وسأبين لك نبذة منها حتى تعلم مقدار الفائدة بها فمن ذلك أنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث بيعة الحديبية تحت الشجرة وكان أرسل عثمان رضي الله تعالى عنه الى مكة في حاجة عرضت له ولم يحضر البيعة فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الشمال على اليمين وقال هذه عن عثمان وشمالي خير من يمينه وقد استعملت أنا هذا في جملة كتاب فقلت ولا يعد البر برا حتى يلحق الغيب بالحضور ويصل من لم يصله بجزاء ولا شكور فربة الغائب بالشاهد من كرم الاحسان ولهذا نابت شمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين عثمان ومن ذلك أنه ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استدعى أبا موسى الاشعري ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثي فمضى الى يرفأ مولى عمر وسأله عما يروح عنده وينفق عليه فأشار الى خشونة العيش فمضى ولبس جبة صوف وعمامة دسماء وخفا مطابقا وحضر بين يديه في جملة العمال فقرب عمر نظره وصعده فلم يقع الا عليه فأدناه وسأله عن حاله ثم أوصى أبا موسى الاشعري به وقد استعملت أنا هذا في جملة تقليد لبعض الولاة من ديوان الخلافة فقلت واذا استعنت بأحد على عملك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بما عرفته من مبدا حاله فان الاحوال تنتقل بتنقل الاجساد واياك أن تخدع

يرفأ كيمنع غلام في القاموس

بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب الربيع بن زياد فانظر كيف فعلت في هاتين
القصتين وكيف أوردتهما في الغرض الذي قصدته وامض أنت على هذا النهج
فانه من محاسن هذه الصنعة وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم بن على
البيساني رحمه الله عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الى ديوان
الخلافة ببغداد في سنة احدى وسبعين وخمسمائة وضمنه ما أبلاه في خدمة الدولة
من فتح الديار المصرية ومحو الدولة العلوية واقامة الدعوة العباسية وشرح فيه
ما قاساه في الفتح من الاهوال ولما تأملته وجدته كتابا حسنا قد وفى فيه
الخطابة حقها الا أنه أخل بشيء واحد وهو أن مصر لم تفتح الا بعد أن قصدت من
الشام ثلاث مرات وكان الفتح في المرة الثالثة وهذا نظير فتح النبي صلى الله
عليه وسلم مكة فانه قصدها عام الحديبية ثم سار اليها في عمرة القضاء ثم سار اليها
عام الفتح ففتحها وقد سألني بعض الاخوان أن أنشئ في ذلك كتابا الى ديوان
الخلافة معارضا للكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن على رحمه الله فأجبته الى
سؤاله وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله فقلت ومن جملتها
ما فعله الخادم في الدولة المصرية وقد قام بها منبر وسرير وقالت منا أمير ومنكم
أمير فرد الدعوة العباسية الى معادها وأذكر المنابر ما نسيته بها من زهو أعوادها
وكانت أخرجت منها اخراج النبي صلى الله عليه وسلم من قريته وتقذف الشيطان
على حقها بباطله وعلى صدقها بفريته ثم طارت بها الليالى على السجل للكتاب وكثر
عليها مرور الدهر حتى نسى لها عدد السنين والحساب ولم يعدها الى وطنها حتى
تغربت لها الارواح عن أوطانها وسهرت لها أجفان السيوف مع العيون عن
اجفانها وتطاردت الآراء في تسهيل أمرها قبل مطاردة أقرانها وحتى
تقضت منها قربات ثلاث كلها ذوات غروب وكل خاطب من خطوبها ذو خطوب
الى أن تمخض ليلها عن صبحه وأصبحت في الاسلام كعام حديبيته وعمرة قضائه
وعام فتحه وفي ذكر أخبارها ما يطبع الاسنة في رؤس الاقلام ويرهب سامعها
ولم ينله شيء من مكروهها سوى الكلام ويومها للدولة هو اليوم الذي أرخ فيه
معاد نصرها ومبعاد بشرها فاذا عدت لياليها السالفة كانت كسائر الليالى وهذه
ليلة قدرها فهذا فصل من فصول الكتاب فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصرى
وفتح مكة وذكرت أيضا حديث الحباب بن المنذر الانصاري حيث قال بعد وفاة

النبي صلى الله عليه وسلم منا أمير ومنكم أمير وذلك لما حضر أبو بكر وعمر
وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة والقصة مشهورة
فقال الحباب بن المنذر منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر رضي الله عنه بل نحن
الامراء وأنتم الوزراء وهذا الذي ذكرته هو نكتة هذا الفصل التي عليها المعول
ومركز الدائرة عليه يدور (وعجبت) من عبد الرحيم بن علي البيساني مع تقدمه
في فن الكتابة كيف فاته أن يأتي به في الكتاب الذي كتبه وكذلك وجدت لابن
زياد البغدادي كتابا كتبه الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم
ذكره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وضمنه فصولا تشتمل على أمور أنكرت
عليه من ديوان الخلافة فمن تلك الامور التي أنكرت عليه أنه تلقب بالملك
الناصر وذلك لقب هو لأمير المؤمنين خاصة فانه الامام الناصر لدين الله فلما
وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتابا حسنا قد أجاد فيه كل الاجادة ولم أجد فيه
مغمزا الا في هذا الفصل الذي يتضمن حديث اللقب فانه لم يأت بكلام يناسب
باقي الفصول المذكورة بل أتى فيه بكلام فيه غثاثة كقوله ما يستصلح
المولى فهو على عبده حرام وشبها من هذا النسق وكان الاليق والاحسن أن يجيء
بجمعة فيها روح ويذكر كلاما فيه ذلاقة ورشاقة * وحضر عندي في بعض الايام
بعض اخواني وجرى حديث ذلك فسألني عما كان ينبغي أن يكتب [illegible]
الفصل فذكرت ما عندي وهو قد علم أن للانبياء والخلفاء خصائص يختصون
بها على حكم الانفراد وليس لاحد من الناس أن يشاركهم فيها [illegible]
الانداد وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في أشياء نص عليها بحكمه
ومن جملتها أنه نهى غيره أن يجمع بين كنيته وبين اسمه وهذا سوغ لامير
المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا وعلى غيره محظورا وقد وسم نفسه
بسمة نزلت عليه من السماء وتميزت به من بين المسميات والاسماء ثم استمرت عليها
الايام حتى خوطب بها من الحاضر والباد ورفعها الخطباء على المنابر في أيام
الجمع ومواسم الاعياد وقد شاركته أنت فيها غير مراقب لمزية التعظيم
ولا فارق بين فسحة التحليل وحرج التحريم والشرع والادب يحكمان عليك
بأن تأتي بما فرط منك بالمتاب ولا تخرج فيه الى التقريع الذي هو أشد العتاب
ومثلك من عرف الحق فأمسكه بيده ونبه اغفال أمسه باستئناف التيقظ في غده

والله تعالى رفع المؤاخذة عن أمتى النبى خطأ الاعداء وقبل التوبة عن أخذ على نفسه بالاخلاص عهدا * فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوى وجعلته شاهدا على هذا الموضع ولا يمكن أن يحتج فى مثل ذلك الا بمثل هذا الاحتجاج وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتى به مع أنه كان كاتبا مفلقا أوتندى كتابته ولم أجد فى متأخرى العراقيين من عاثله فى هذا الفن (وأما النوع الرابع) وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور فان فى ذلك فوائد جمة لانه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ويعرف به مقاصد كل فريق منهم والى أين ترامت به صنعته فى ذلك فان هذه الاشياء مما تشحذ القريحة وتذكى الفطنة واذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى ذكرت وتعب فى استخراجها كالشىء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد وأيضا فانه اذا كان مطلعا على المعانى المسبوق اليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق اليه ومن المعلوم أن خواطر الناس وان كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فان بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه الا بشىء يسير وكثيرا ما تتساوى القرائح والافكار فى الاتيان بالمعانى حتى ان بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الاول وهذا الذى يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر وسيأتى لذلك باب مفرد فى آخر كتابنا هذا ان شاء الله تعالى (وأما النوع الخامس) وهو معرفة الاحكام السلطانية من الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك فانما أوجبنا معرفتها والاحاطة بها لما يحتاج اليه الكاتب فى تقليدات الملوك والامراء والقضاة والمحتسبين ومن يجرى مجراهم وأيضا فانه قد يحدث فى الامامة حادث فى بعض الاوقات بأن يموت الامام القائم بأمر المسلمين ثم يتولى من بعده من لم تكمل فيه شرائط الامامة أو يكون كامل الشرائط غير أن الامام الذى كان قبله عهد بها الى آخر غيره وهو ناقص الشرائط أو يكون قد تنازع الامامة اثنان أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا اماما وهم غير كاملى الشرائط التى تجب أن توجد فيهم أو يكون أمر غير ما ذكرناه فتختلف الاطراف فى ذلك و ينتصب ملك من الملوك عناية بالامام الذى قد قام للمسلمين فيأمر كاتبه أن يكتب كتابا فى أمره الى الاطراف المخالفة له واذا لم يكن الكاتب

عند ذلك عارفا بالحكم فى هذه الحوادث واختلاف أقوال العلماء فيها وماهو رخصة فى ذلك وماليس برخصة لا يكتب كتابا ينتفع به ولسنا نعنى بهذا القول أن يكون الكتاب مقصورا على فقه محض فقط لا مالو أردنا ذلك لما كنا نحتاج فيه الى كتب كتاب بلاغى بل كنا نقتصر على ارسال مصنف من مصنفات الفقه عوضا عن الكتاب وانما قصدنا أن يكون الكتاب الذى يكتب فى هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحة فى موضع والمناقشة فى موضع مشحونا ذلك بالنكت الشرعية المبرزة فى قوالب البلاغة والفصاحة كما فعل الكاتب الصابى فى الكتاب الذى كتبه عن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الى الامام الطائع لما خلع المطيع فانه من محاسن الكتب التى تكتب فى هذا الفن (وأما النوع السادس) وهو حفظ القرآن الكريم فان صاحب هذه الصناعة ينبغى له أن يكون عارفا بذلك لان فيه فوائد كثيرة منها أنه يضمن كلامه بالآيات فى أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق ومنها أنه اذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة فى تأليف القرآن اتخذه بحرا يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوى كلامه كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة فى استعمال أفانين الكلام فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه واشاراته فانه تجارة لن تبور ومنبع لا يغور وكنز يرجع اليه وذخر يعول عليه (وأما النوع السابع) وهو حفظ الاخبار النبوية مما يحتاج الى استعماله فان الامر فى ذلك يجرى مجرى القرآن الكريم وقد تقدم القول عليه فاعرفه (وأما النوع الثامن) وهو ما يختص بالناظم دون الناثر وذلك معرفة العروض وما يجوز فيه من الزحاف وما لا يجوز فان الشاعر محتاج اليه ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه فان النظم مبنى على الذوق ولو نظم بتقطيع الافاعيل لجاء شعره متكلفا غير مرضى وانما أريد للشاعر معرفة العروض لان الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات ويكون ذلك جائزا فى العروض وقد ورد للعرب مثله فاذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز وكذلك أيضا يحتاج الشاعر الى العلم بالقوافى والحركات ليعلم الروى والردف وما يصح من ذلك

وما لا يصح فاذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات وكان ذا طبع مجيب وقريحة مواتية فعليه بالنظر في كتابنا هذا والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالاصل لما يحتاج اليه الخطيب والشاعر ومعرفته ضرورية لابد منها وههنا أشياء أخر هي كالتوابع والروادف وبالجملة فان صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة فما ظنك بما فوق هذا والسبب في ذلك أنه مؤهل لان يهيم في كل واد فيحتاج أن يتعلق بكل فن

(الفصل الثالث في الحكم على المعاني) وفائدة هذا الفصل الاحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها وصاحب هذه الصناعة مفتقر الى هذا الفصل والذي يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة لاسيما مفسري الاشعار فانهم به أعنى ✱ واعلم أن الاصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب الى التأويل يفتقر الى دليل كقوله تعالى وثيابك فطهر فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس ومن تأول ذهب الى أن المراد هو القلب لا الملبوس وهذا لابد له من دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ وكذلك ما ورد عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال اذا أردت أن تصلي فادخل بيتك وأغلق بابك فالظاهر من هذا هو البيت والباب ومن تأول ذهب الى أنه أراد ألا تجمع عليك همّ قلبك وتمنع أن يخطر به سوى أمر الصلاة فعبر عن القلب بالبيت وعن منع الخواطر التي تخطر له باغلاق الباب وهذا يحتاج الى دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف والمعنى المعدول عن ظاهره الى التأويل يقع فيه الخلاف اذ باب التأويل غير محصور والعلماء متفاوتون في هذا فانه قد يأخذ بعضهم وجها ضعيفا من التأويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من الوجوه القوية فان السيف بضاربه

ان السيوف مع الذين قلوبهم ✱ كقلوبهن اذا التقى الجمعان

تلقى الحسام على جراءة حده ✱ مثل الجبان بكف كل جبان

وذهب بعضهم في الفرق بين التفسير والتأويل الى شئ غير مرضي فقال التفسير

بيان وضع اللفظ حقيقة كتفسير الصراط بالطريق والتأويل اظهار باطن اللفظ كقوله تعالى إن ربك لبالمرصاد فتفسيره من الرصد يقال رصدته اذا رقبته وتأويله تحذير العباد من تعدى حدود الله ومخالفة أوامره والذى عندى فى ذلك أنه أصاب فى الآخر ولم يصب فى الاول لان قوله التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة لا مستند لجوازه بل التفسير يطلق على بيان وضع اللفظ حقيقة ومجازا لانه من الفسر وهو الكشف كتفسير الرصد فى الآية المشار اليها بالرقبة وتفسيره بالتحذير من تعدى حدود الله ومخالفة أوامره وأما التأويل فانه أحد قسمى التفسير وذاك أنه رجوع عن ظاهر اللفظ وهو مشتق من الاول وهو الرجوع يقال آل يؤل اذا رجع وعلى هذا فان التأويل خاص والتفسير عام فكل تأويل تفسير وليس كل تفسير تأويلا ولهذا يقال تفسير القرآن ومن تفسيره ظاهر وباطن وهذا الفصل الذى نحن بصدد ذكره ههنا يرجع أكثره الى التأويل لانه أدق ولا يعلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام اما أن يفهم منه شئ واحد لا يحتمل غيره واما أن يفهم منه الشئ وغيره وتلك الغيرية اما أن تكون ضدا أو لا تكون ضدا وليس لنا قسم رابع فالاول يقع عليه أكثر الاشعار ولا يجرى فى الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين وأما القسم الثانى فانه قليل الوقوع جدا وهو من أظرف التأويلات المعنوية لان دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده فمما جاء منه قول النبى صلى الله عليه وسلم صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى غيره من المساجد الا المسجد الحرام فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدان أحدهما أن المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والآخر أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من المسجد الحرام أى ان صلاة واحدة فيه لا تفضل ألف صلاة فى المسجد الحرام بل تفضل ما دونها بخلاف المساجد الباقية فان ألف صلاة فيها تقصر عن صلاة واحدة فيه وكذلك جاء قول النبى صلى الله عليه وسلم أيضا من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت وهذا يشتمل على معنيين ضدين أحدهما أن المراد به اذا لم تفعل فعلا تستحى منه فافعل ما شئت والآخر أن المراد به اذا لم يكن لك حياء يزعك عن فعل ما يستحى منه فافعل ما شئت وهذان معنيان ضدان أحدهما مدح والآخر ذم ومثله

وورد في الحديث النبوي أيضا وذلك أنه ذكر شريح الحضرمي عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال لا يتوسد القرآن وهذا يحتمل مدحا وذما أما المدح فالمراد به أنه لا ينام الليل عن القرآن فيكون القرآن متوسدا معه لم يتهجد به وأما الذم فالمراد به أنه لا يحفظ من القرآن شيئا فاذا نام لم يتوسد معه القرآن وهذان التأويلان من الاضداد وكثيرا ما يرد أمثال ذلك في الاحاديث النبوية ويجري على هذا النهج من الشعر قول أبي الطيب في قصيدة يمدح بها كافورا

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا * لمن بات في نعمائه يتقلب

وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم والآخر أن المنعم يحسد المنعم عليه وكذلك ورد قوله أيضا من قصيدة يمدحه

فان نلت ما أملت منك فربما * شربت بماء يعجز الطير ورده

فان هذا البيت يحتمل مدحا وذما واذا أخذ بمفرده من غير نظر الى ما قبله فانه يكون بالذم أولى منه بالمدح لانه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ وصدر البيت مفتتح بان الشرطية وقد أجيب بلفظة رب التي معناها التقليل أي لست من نوالك على يقين فان نلته فربما وصلت الى مورد لا يصل اليه الطير لبعده واذا نظر الى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله وكثيرا ما كان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره كقوله من قصيدة أولها

عدوك مذموم بكل لسان * ولو كان من أعدائك القمران
ولله سر في علاك وانما * كلام العدا ضرب من الهذيان

ثم قال

فمالك تعنى بالاسنة والقنا * وجدك طعان بغير سنان

فان هذا بالذم أشبه منه بالمدح لانه يقول لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك بل بجد وسعادة وهذا لا فضل فيه لان السعادة تنال الخامل والجاهل ومن لا يستحقها وأكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا القسم في قصائده الكافوريات (وحكي) أبو الفتح بن جني قال قرأت على أبي الطيب ديوانه الى أن وصلت الى قصيدته التي أولها * أغالب فيك الشوق والشوق أغلب * فأتيت منها على هذا البيت وهو

وما طربي لما رأيتك بدعة * لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت له يا أبا الطيب لم ترد على أن جعلته أبا زنة فضحك لقولي وهذا القسم

من الكلام يسمى الموجه أى له وجهان وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه . وأما القسم الثالث فانه يكون أكثر وقوعا من القسم الثانى وهو واسطة بين طرفين لان القسم الاول كثير الوقوع والقسم الثانى قليل الوقوع وهذا القسم الثالث وسط بينهما فمما جاء منه قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم فان هذا له وجهان من التأويل أحدهما القتل الحقيقى الذى هو معروف والآخر هو القتل المجازى وهو الاكباب على المعاصى فان الانسان اذا أكب على المعاصى قتل نفسه فى الآخرة ومن ذلك ما ورد فى قصة ابراهيم وذبح ولده عليهما السلام فقال الله تعالى حكاية عنه وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده وقد يكون استئنافا بذكره بعد ذكر اسمعيل عليه السلام وذبحه والتأويل متجاذب بين هذين الامرين ولا دليل على الاختصاص بأحدهما ولم يرد فى القرآن ما يدل على أن الذبيح اسمعيل ولا اسحق عليهما السلام وكذلك لم يرد فى الاخبار التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما ما روى عنه أنه قال أنا ابن الذبيحين فخارج عن الاخبار الصحيحة وفى التوراة ان اسحق عليه السلام هو الذبيح ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لازواجه أطولكن يدا أسرعكن لحوقا بى فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن حتى ينظرن أيتهن أطول يدا ثم كانت زينب أسرعهن لحوقا به وكانت كثيرة الصدقة فعلن حينئذ أنه لم يرد الجارحة وانما أراد الصدقة فهذا القول يدل على المعنيين المشار اليهما ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فلم يقل لشئ فعلته لم فعلته ولا لشئ لم أفعله لم لا فعلته وهذا القول يحتمل وجهين من التأويل أحدهما وصف

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على جفاء من يصحبه والآخر أنه وصف
نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الاعمال كأنه متيقظ لما في نفس رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيفعله من غير حاجة الى استئذانه ومن ذلك ما ورد
في الادعية النبوية فانه صلى الله عليه وسلم دعا على رجل من المشركين فقال اللهم
اقطع أثره وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل الاول أنه دعا عليه بالزمانة لانه
اذا زمن لا يستطيع أن يمشي على الارض فينقطع حينئذ أثره الوجه الثاني أنه
دعا عليه بأن لا يكون له نسل من بعده ولا عقب الوجه الثالث أنه دعا عليه بأن
لا يكون له أثر من الآثار مطلقا وهو أن لا يفعل فعلا يبقى أثره من بعده كائنا
ما كان من عقب أو بناء أو غراس أو غير ذلك وظفرت الحرورية برجل فقالوا له
ابرأ من علي وعثمان فقال انا من علي ومن عثمان أبرأ فهذا يدل على معنيين
أحدهما أنه برئ من عثمان وحده والآخر أنه برئ منهما جميعا والرجل لم يرد
الا الوجه الاول ومن ذلك ما يحكى عن عبد المسيح بن بقيلة لما نزل بهم خالد
ابن الوليد على الحيرة وذلك أنه خرج اليه عبد المسيح بن بقيلة فلما مثل بين يديه
قال أنعم صباحا أيها الملك فقال له خالد قد أغنانا الله عن تحيتك هذه بالسلام
عليكم ثم قال له من أين أقصى أثرك قال من ظهر أبي قال فمن أين خرجت قال
من بطن أمي قال فعلام أنت قال على الارض قال ففيم أنت قال في ثيابي قال
ابن كم أنت قال ابن رجل واحد قال خالد ما رأيت كاليوم قط أنا أسأله عن الشئ
وهو ينحو في غيره وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن وهو يصلح أن يكون
جوابا لخالد عما سأل ويصلح أن يكون جوابا لغيره مما ذكره عبد المسيح بن بقيلة
وقد ورد في التوراة أن لا يؤكل الجدي بلبن أمه وهذا يحتمل التحريم في وجهين
أحدهما ما دل عليه ظاهر لفظه وهو تحريم لحم الجدي بلبن أمه خاصة واذا أكل
بلبن غير أمه جاز ذلك ولم يكن حراما وهذا الا يأخذ به أحد من اليهود
والوجه الآخر وهو الذي يؤخذ به عند اليهود جميعهم أن أكل اللحم باللبن حرام
كائنا ما كان من اللحوم الا طائفة منهم يسمون القرائين فانهم تأولوا فأكلوا
لحم الطير باللبن وقالوا انما حرم اللحم باللبن من اللحوم ذوات الالبان والطير
من ذوات البيض لا من ذوات الالبان ومما يجري على هذا النهج ما يحكى
عن افلاطون أنه قال ترك الداء دواء فذهب بعض الاطباء أنه أراد لطف

المزاج وانتهى الى غاية لا يحتمل الدواء فتركه حينئذ والاضراب عنه دواء وذهب آخرون الى أنه أراد بالترك الوضع أى وضع الدواء على الداء دواء يشير بذلك الى حذق الطبيب فى أوقات علاجه ومثله فى الشعر قول الفرزدق

إذا جعفر مرّت على هضبة الحمى * فقد أخذت الأحياء منها قبورها

وهذا يدل على معنيين أحدهما ذم الاحياء والآخر ذم الاموات أما ذم الاحياء فهو أنهم خذلوا الاموات يريد أنهم تلاقوا قتالهم وقوما آخرين من الاحياء منهم وأسارهم أو أنهم استنجدوهم فلم ينجدوهم وأما ذم الاموات فهو أن لهم مخازى وفضائح توجب عارا وشنارا فهم يعدون بها الاحياء ويلامون بهم وعلى هذا ورد قول أبى تمام

بالشعر طول اذا اصطكت قصائده * فى معشر وبه عن معشر قصر

فهذا البيت يحتمل تأويلين أحدهما أن الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك يريد بذلك ان مآثره كثيرة وما ثر غيره قليلة والآخر أن الشعر يكون ذا نشر ونباهة بمدحك وذا خمول بمدح غيرك فالطول يفهم منها ضد القصر ويفهم منها الفخر من قولنا طال فلان على فلان أى فخر عليه (ومما) ينتظم بهذا السلك قول أبى كبير الهذلى

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التأويل أحدهما أنه أراد بسعى الدهر سرعة تقضى الاوقات مدة الوصال فلما انقضى الوصل عاد الدهر الى حالته فى السكون والبطء والآخر أنه أراد بسعى الدهر سعى أهل الدهر بالنمائم والوشايات فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية وهذا من باب وضع المضاف اليه مكان المضاف كقوله تعالى واسأل القرية أى أهل القرية * ومن الدقيق المعنى فى هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة من جملة قصيدته التى أولها أوه بديل من قولتى واها فقال

لو فطنت خيله لنائله * لم يرضها أن تراه يرضاها

وهذا يستنبط منه معنيان غيران أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه لان عطاياه أنفس منها والآخر أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك لانه تكره خروجها

من ملكه وهذان الوجهان أكثر ما واغاالمذكور منهما أحدهما وهو
الذى أشرت اليه من الكلام على المعانى وتأويلاتها كاف لمن عنده ذوق وله
قدرة على حلها على أشباهها ونظائرها

(الفصل الرابع) فى الترجيح بين المعانى وهذا الفصل هو ميزان الخواطر
الذى يوزن به نقد درهمها ودينارها بل المحك الذى يعلم منه مقدار عيارها
ولا يزن به الاذو فكرة منتقدة ولمحة منتقدة فليس كل من حمل ميزانا سمى صرافا
ولا كل من وزن به سمى عرافا والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهى
أن هناك يرجح بين دليلى الخصمين فى حكم شرعى وههنا يرجح بين جانبي فصاحة
وبلاغة فى ألفاظ ومعان خطابية وبيان ذلك أن صاحب الترجيح الفقهى
يرجح بين خبر التواتر مثلا وبين خبر الآحاد أو بين المسند والمرسل أو ما جرى هذا
المجرى وهذا لا يعترض اليه صاحب علم البيان لانه ليس من شأنه ولكن الذى هو
من شأنه أن يرجح بين حقيقة ومجاز أو بين حقيقتين أو بين مجازين ويكون ناظرا
فى ذلك كله الى الصناعة الخطابية وربما اتفق هو وصاحب الترجيح الفقهى
فى بعض المواضع كالترجيح بين عام وخاص أو ما شابه ذلك * وكما قد قدمنا القول
فى الحكم على المعانى واقسامها ولنبين فى هذا الفصل مواضع الترجيح بين
وجوه تأويلاتها فنقول (أما القسم الاول) من المعانى فلا تعلق للترجيح به
اذ ما دل عليه ظاهر لفظه ولا يحتمل الا وجها واحدا فليس من هذا الباب فى شئ
والترجيح انما يقع بين معنيين يدل عليهما لفظ واحد ولا يخلو الترجيح بينهما من
ثلاثة أقسام اما أن يكون اللفظ حقيقة فى أحدهما مجازا فى الآخر
أو حقيقة فيهما جميعا أو مجازا فيهما جميعا وليس لنا قسم رابع والترجيح
بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج الى نظر وأما الترجيح بين الحقيقة والمجاز
فانه يعلم ببديهة النظر لمكان الاختلاف بينهما والشيآن المختلفان يظهر الفرق
بينهما بخلاف ما يظهر بين الشيئين المشتبهين فمثال الحقيقة والمجاز قوله تعالى
ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم
وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون فالجلود ههنا تفسر حقيقة ومجازا أما
الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة وهذا
هو المانع البلاغى الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة لما فيه من لطف الكناية

عن المكنى عنه وقديسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز عن غير الجانب البلاغى ويقال ما بيان هذا الترجيح فيقال طريقه لفظ الجلود عام فلا يخلو اما أن يراد به الجلود مطلقا أو يراد به الجوارح التى هى أدوات الاعمال تامة ولا يجوز أن يراد به الجلود على الاطلاق لان شهادة غير الجوارح التى هى الفاعلة شهادة باطلة اذ هى شهادة غير شاهد والشهادة هنا يراد بها الاقرار فتقول اليد انا فعلت كذا وكذا وتقول الرجل أنا مشيت الى كذا وكذا وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقرة بأعمالها فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح واذا أريد به الجوارح فلا يخلو اما أن يراد به الكل أو البعض فان أريد به الكل دخل تحته السمع والبصر ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة وان أريد به البعض فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح لامرين أحدهما أن الجوارح كلها قد ذكرت فى القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ماعدا الفرج فكان حمل الجلد عليه أولى ليستكمل ذكر الجميع . الآخر أنه ليس فى الجوارح ما يكره التصريح بذكره الا الفرج فكنى عنه بالجلد لانه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته (فان قيل) ان تخصيص السمع والبصر بالذكر من باب التفصيل كقوله تعالى فاكهة ونخل ورمان والنخل والرمان من الفاكهة (قلت) فى الجواب هذا القول عليك لا لك لان النخل والرمان انما ذكرا لتفضيلهما فى الشكل أو فى الطعم والفضيلة ههنا فى ذكر الشهادة انما هى تعظيم لأمر المعصية وغير السمع والبصر أعظم فى المعصية لان معصية السمع انما تكون فى سماع غيبة أو فى سماع صوت مزمار أو وتر وما جرى هذا المجرى ومعصية البصر انما تكون فى النظر الى محرم وكلتا المعصيتين لاحد فيها وأما المعاصى التى توجد من غير السمع والبصر فأعظم لان معصية اليد توجب القطع ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم وهذا أعظم فكان ينبغى أن تخص بالذكر دون السمع والبصر واذا ثبت فساد ما ذهبت اليه فلم يكن المراد بالجلود الا الفروج خاصة (وأما مثال المعنيين) اذا كانا حقيقيين فقول النبى صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق فى خبايا الارض والخبايا جمع خبية وهو كل ما خبئ .كائنا ما كان وهذا يدل على معنيين حقيقيين أحدهما الكنوز المخبوءة فى بطون الارض والآخر الحرث والغراس وجانب الحرث والغراس أرجح لان مواضع الكنوز

لانه لم حتى تلقس والنبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر بذلك لانه شئ مجهول غير معلوم فبقي المراد بخبايا الارض ما يحرث ويغرس وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم اذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال وهذا الحديث مرخص في ترك صلاة الجماعة بسبب المطر وله تأويلان أحدهما أنه أراد نعال الارض وهو ما غلظ منها والآخر أنه أراد الاحذية والوجه هو الثاني لظهوره في الدلالة على المعنى وأكثر العلماء عليه ولو كان المراد به ما غلظ من الارض لخرج من هذا الحكم كل بلد تكون أرضه سهلة لا غلظ فيها (وأما مثال المعنيين المجازيين) فقول أبي تمام

قد بلونا أبا سعيد حديثا ٭ وبلونا أبا سعيد قديما

ووردناه ساحلا وقليبا ٭ ورعيناه بارضا وجميما

فعلمنا ان ليس الا بشق الا نفس صار الكريم يدعى كريما

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب والآخر أنه أراد بهما السبب وغير السبب فان الساحل لا يحتاج في وروده الى سبب والقليب يحتاج في وروده الى سبب وكلا هذين المعنيين مجاز فان حقيقة الساحل والقليب غيرهما والوجه هو الثاني لانه أدل على بلاغة القائل ومدح المقول فيه أما بلاغة القائل فالسلامة من هجنة التكرير بالمطابقة بين صدر البيت وعجزه فان عجزه يدل على القليل والكثير لان البارض هو أول النبت حين يبدو فاذا كثر وتكاثف سمي جميما فكأنه قال أخذنا منه تبرعا ومسئلة وقليلا وكثيرا وأما مدح المقول فيه فلتعدد مدحه لانه الاربع في تبرعه وسؤاله واكثاره واقلاله وما في معاناة هذه الاحوال من المشاق فهذا ما يتعلق بالترجيح البلاغي بين الحقيقة والحقيقة وبين المجاز والمجاز وبين الحقيقة والمجاز (وههنا) ترجيح آخر لا يتعلق بما أشرنا اليه اذ هو خارج عما تقتضيه المعاني الخطابية من جهة الفصاحة والبلاغة وذلك أن يرجح بين معنيين أحدهما تام والآخر مقدر أو يكون أحدهما مناسبا لمعنى تقدمه أو تأخر عنه والآخر غير مناسب أو بأن يتطرق الترجيح بينهما الى شئ خارج عن اللفظ فمثال المعنيين المشار اليهما أن المعنى التام هو الذي يدل عليه لفظه ولا يتعداه وأما المقدر فهو الذي لا يدل عليه لفظه بل يستدل عليه بقرينة أخرى وتلك القرينة قد تكون من توابعه وقد لا تكون (فمما) جاء

من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في سائمة الغنم زكاة فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان أحدهما تام والآخر مقدر فالتام دلالته على وجوب الزكاة في السائمة لا غير والمقدر دلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة الا أنه ليس مفهوما من نفس اللفظ بل من قرينة أخرى هي كالتابعة له وهي أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لا زكاة فيها وللفقهاء في ذلك مجاذبات جدلية يطول الكلام فيها وليس هذا موضعها والذي يترجح عندي هو القول بفحوى المعنى المقدر وهو الذي يسميه الفقهاء مفهوم الخطاب وله في الشعر أشباه ونظائر (فما) ورد من ذلك شعرا قول جري بن كليب الفقعسي من شعراء الحماسة وقد خطب اليه ابن كوز ابنته فرده .

تبغي ابن كوز والسفاهة كاسمها ٭ ليستادمنا ان شتونا لياليا
فلا تطلبنها يا ابن كوز فانه ٭ غذا الناس مذ قام النبي الجواريا

وهذا البيت الثاني يشتمل على المعنيين التام والمقدر أما التام فان ابن كوز سأل أبا هذه الجارية أن يزوجه اياها في سنة والسنة الجدب فرده وقال قد غذا الناس البنات مذ قام النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أيضا أغذو هذه ولولا ذلك لوأدتها كما كانت الجاهلية تفعل وفيه وجه آخر وهو أنهم كانوا يئدون البنات قبل الاسلام فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك فقوله غذا الناس مذ قام النبي الجواريا أي في النساء كثرة فتزوج بعضهن وخل ابنتي وهذان المعنيان هما اللذان دل عليهما ظاهر اللفظ وأما المعنى المقدر الذي يعلم من مفهوم الكلام فانه يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر باحياء البنات ونهى عن الوأد ولو أنكحتكها لكنت قد وأدتها اذ لا فرق بين انكاحك اياها وبين وأدها وهذا ذم للمخاطب وهو معنى دقيق ومجيء المعاني المستخرجة من المفهوم قليل في الشعر (وأما) ما يستدل عليه بقرينة ليست من توابعه فان دلالته أدق من الاول وألطف مأخذا فمما ورد منه قول النبي صلى الله عليه وسلم من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين فهذا يستخرج منه المعنيان المشار اليهما فالتام منهما يدل على أنه من جعل قاضيا فقد عرض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين وأما المقدر فانه يدل على أنه من جعل قاضيا فقد أمر بمفارقة هواه وهذا لا يدل عليه اللفظ بنفسه بل يستدل عليه بقرينة أخرى ولكنها ليست من توابعه

ووجه ذلك أن لفظ الحديث عام يشمل القضاة على الاطلاق ولا يخلو إما أن يراد
به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة
لانه ليس كل قاض معذبا في الآخرة بل المعذب منهم قضاة السوء فوضح بهذا أن
المراد بالحديث عذاب الدنيا وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذاب صورة
أو معنى ولا يجوز أن يكون صورة لانا نرى الانسان اذا يجعل قاضيا لا يذبح
ولا يناله شئ من ذلك فبقي أن يكون المراد به عذابا معنويا وهو الذبح المجازي
غير الحقيقي ويقوي ذلك ان نفس الانسان مركبة على حب هواها فاذا جعل
قاضيا فقد أمر بترك ما جبل على حبه من الامتناع عن الرشوة والحكم لصديقه
على عدوه ورفع الحجاب بينه وبين الناس والجلوس للحكم في أوقات راحته
وغير ذلك من الاشياء المكروهة التي تشق على النفس وتجد لها ألما مبرحا
والذبح هو قطع الحلقوم والالم حاصل به وهو كالذبح الحقيقي بل أشد منه لان ألم
الذبح الحقيقي يكون لحظة واحدة ثم ينقضي ويزول وألم قطع النفس عن هواها
يدوم ولا ينقضي وهو أشد العذاب قال الله تعالى في عذاب أهل النار وحيل بينهم
وبين ما يشتهون وقال في نعيم أهل الجنة وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين
وكثيرا ما رأينا وسمعنا من حمله حب الشئ على اتلاف نفسه في طلبه وركوب
الاهوال من أجله فاذا امتنع عنه مع حبه اياه فقد ذبح نفسه أي قطعها عنه
كما يقطع الذابح حلق الذبيحة ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم انتقلنا عن
الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فسمى جهاد الكفار الجهاد الاصغر وجهاد
النفس الجهاد الاكبر فكما أن مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيف فكذلك
قطعها عن هواها ذبح بغير سكين وهذا موضع غامض والترجيح فيه مختص
بالوجه الآخر لاشتماله على المعنى المقصود وهو المراد من القضاة على الاطلاق
(وأما) مثال المعنيين اذا كان أحدهما مناسبا لمعنى تقدمه أو لمعنى تأخر عنه
والآخر غير مناسب فالاول وهو ما كان مناسبا لمعنى تقدمه كقوله تعالى لا تجعلوا
دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا فالدعاء ههنا يدل على معنيين أحدهما
النهي أن يدعى الرسول باسمه فيقال يا محمد كما يدعو بعضهم بعضا بأسمائهم
وانما يقال له يا رسول الله أو يا نبي الله الآخر النهي أن يجعلوا حضورهم عنده
اذا دعاهم لامر من الامور كحضور بعضهم عند بعض بل يتأدبون معه بأن

لا يفارقوا مجلسه الا باذنه وهذا الوجه هو المراد لمناسبة معنى الآية التي قبله
وهو قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر
جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه وأما الثاني وهو ما كان مناسب المعنى تأخر عنه
كقوله تعالى والتين والزيتون وطور سينين فالتين والزيتون هما هذا الشجر
المعروف وهما اسما جبلين أيضا وتأويلهما بالجبلين أولى للمناسبة بينهما وبين
ما أتى بعدهما من ذكر الجبل الذي هو الطور وعلى هذا ورد قول الشاعر
في أبيات الحماسة

ولو كنت مولى قيس عيلان لم تجد ۞ على لانسان من الناس درهما
ولكنني مولى قضاعة كلها ۞ فلست أبالي أن أدين وتغرما

فاذا نظرنا الى البيت الاول وجدناه يحتمل مدحا وذما أى أنهم كانوا يقضون عنه
بعطائهم أن يدين أو أنه كان يخاف الدين حذرا أن لا يقوموا عنه بوفائه لكن البيت
الثاني حقق أن الاول ذم وليس بمدح فهذا المعنى لا يتحقق فهمه الا بآخره
وأما الذي يكون الترجيح فيه بسبب شئ خارج عن مفهوم اللفظ فقوله تعالى
وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم فهذا مستنبط منه معنيان
أحدهما أن الله يعلم السر والجهر في السموات والارض وفي ذلك تقديم
وتأخير أى يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الارض الآخر أنه في السموات
وأنه يعلم السر والجهر في الارض من بني آدم لان الوقف يكون على السموات
ثم يستأنف الكلام فيقول يعلم سركم وجهركم في الارض الا أن هذا يمنع منه
اعتقاد التجسيم وذلك شئ خارج عن مفهوم اللفظ

(الفصل الخامس في جوامع الكلم) قال النبي صلى الله عليه وسلم
أوتيت جوامع الكلم فالكلم جمع كلمة والجوامع جمع جامعة والجامعة اسم
فاعل من جمعت فهي جامعة كما يقال في المذكر جمع فهو جامع والمراد بذلك أنه
صلى الله عليه وسلم أوتي الكلم الجوامع للمعاني وهو عندي ينقسم قسمين
القسم الاول منهما هو ما استخرجته ونبهت عليه ولم يكن لأحد فيه قول سابق
وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل
في مكانها (فمن ذلك) ما يأتي على حكم المجاز ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة
أما ما يأتي على حكم المجازية فقوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين الآن حمي الوطيس

وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه لقلنا استعرت الحرب لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه حمي الوطيس والفرق بينهما أن الوطيس هو التنور وهو موطن الوقود ومجتمع النار وذلك يخيل الى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها وهذا لا يوجد في قولنا استعرت الحرب أو ما يجري مجراه وكذلك قال صلى الله عليه وسلم بعثت في نفس الساعة فقوله نفس الساعة من العبارة العجيبة التي لا يقوم غيرها مقامها لان المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه لكن قربها منه لا يدل على ما دل عليه النفس وذلك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الانسان بنفس من هو الى جانبه وقد قال صلى الله عليه وسلم في موضع آخر بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين اصبعيه السبابة والوسطى ولو قال بعثت على قرب من الساعة أو والساعة قريبة مني لما دل ذلك على ما دل عليه نفس الساعة وهذا لا يحتاج الى الاطالة في بيانه لانه بين واضح وقد ورد لي من ذلك في أقوال الشعراء المفلقين ولقد تصفحت الاشعار قديمها وحديثها وحفظت ما حفظت منها وكنت اذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ويلوح لي فيه مثل هذه الالفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر وطربا كطرب الالحان وكثير من الناظمين والناثرين يمر على ذلك ولا يتفطن له سوى أنه يستحسنه من غير نظر فيما اختارت أنا فيه ويظنه كغيره من الالفاظ المستحسنة (فمما) جاء من ذلك قول أبي تمام

كم صارم عضب أناف على قفا • منهم لأعباء الوغى حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه • وطن النهى من مفرق وقذال

فقوله وطن النهى من الكلمات الجامعة وهي عبارة عن الرأس ولا يجاء بمثلها في معناها عما يسد مسدها وكذلك ورد قول البحتري

قلب يطل على افكاره ويد • تمضي الامور ونفس لهوها التعب

فقوله قلب يطل على افكاره من الكلمات الجوامع ومراده بذلك أن قلبه لا تملؤه الافكار ولا تحيط به وانما هو عال عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها عما يسد مسدها (وأما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي

... حتى اتقاه أوطار الناو ما ربا • تقطع من أقرانها ما تقطعا

ليال تسلى الليالى حسابها • بلهنية أقضى بها الطول أجمعا
سرى عزة لا أعرف اليوم باسمه • وأعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله لا أعرف اليوم باسمه من الكلمات الجامعة أى انى قد شغلت باللذات عن معرفة الليالى والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله لا أعرف اليوم باسمه (وأما القسم الثانى) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذى يدل به بالالفاظ القليلة على المعانى الكثيرة أى ان ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعانى المقصودة على ايجازها واختصارها وجل كلامه جار هذا المجرى فلا يحتاج الى ضرب الامثلة به وسيأتى فى باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع (فان قيل) فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتموهما فانهما فى النظر سواء (قلت) فى الجواب ان الايجاز هو أن يؤتى بألفاظ دالة على معنى من غير أن تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط فى تلك الالفاظ أنها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز وحينئذ يكون ايجازا وزيادة (وأما) هذا القسم الآخر فانه ألفاظ أفراد فى حسنها لا نظير لها فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون موجزة وليس الغرض منها الايجاز وانما الغرض مكانها من الحسن الذى لا نظير لها فيه ألا ترى الى قول أبى تمام وطن النهى فان ذلك عبارة عن الرأس ولا شك أن الرأس أوجز لان الرأس لفظة واحدة ووطن النهى لفظتان الا أن وطن النهى أحسن فى التعبير عن الرأس من الرأس فبان بهذا أن أحد هذين القسمين غير الآخر

(الفصل السادس فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن) قال النبى صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها اذا وجدها والمراد بذلك أن الحكمة قد يستفيدها أهلها من غير أهلها كما يقال رب رمية من غير رام وهذا لا يختص علما واحدا من العلوم بل يقع فى كل علم والمطلوب منه ههنا هو ما يختص علم البيان من الفصاحة والبلاغة دون غيره ومذ سمعت هذا الخبر النبوى جعلت كدى فى تتبع أقوال الناس فى مفاوضاتهم ومحاوراتهم فانه قد تصدر الاقوال البليغة والحكم والامثال ممن لا يعلم مقدار ما يقوله فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لا أحصرها عددا وأنا أذكر منها طرفا يستدل به على أشباهه ونظائره فمن ذلك انى سرت فى بعض الطرق وفى صحبتى رجل بدوى من الانباط

لا يعتد بقوله فكان يقول غدا ندخل البلد وتشتغل عني وكان الامر كما قال فدخلت مدينة حلب وشغلت عنه أياما ثم لقيني فقال لي من تروى فترت عظامه وهذا القول من الاقوال البليغة وهي من الحكمة التي هي الضالة المطلوبة عند مؤمن الفصاحة والبلاغة ثم اني سمعت منه بعد ذلك شيأ يناسب قوله الاول فاني سفرت له الى صاحب في حلب في شئ أخذته منه فاستقله وقال الماء أروى لشدوق النيب وهذا أيضا من الحكمة في بابها وسافرت مرة أخرى على طريق المناظر وكان في صحبتي رجل بدوى فسألته عن مسافة ما بين تدمر وأركة فقال اذا خرج سرحاهما تلاقيا فعبر عن قرب المسافة بينهما بأوجز عبارة وألطفها ثم سألته في الليالي عن الصبح لنرحل من موضعنا فقال قد ظهر الصبح الا أنه لم يملأ الانسان بصره وهذا القول من الحكمة أيضا وكان تزوج غلام من غلماني بدمشق فوقعت المرأة منه بموقع وشغفته ثم اني سافرت عن دمشق لمهم عرض لي وسافر ذلك الغلام في صحبتي فلما دنا من السفر شغل بامرأته والمقام عندها فسألته عن حاله فقال انها قد طابت وحسنت وهي كذا وكذا وأخذ يصفها فقال أخ له كان حاضرا يا مولاى هي تلك لم تزد شيأ وانما هي في عينه جبار من الجبابرة وكذا القول قد ورد في بعض أبيات الحماسة وهو معدود من أبيات المعاني

أهابك اجلالا وما بك قدرة * علي ولكن ملء عين حبيبها

فكثيرا ما يصدر مثل هذه الاقوال عن ألسنة الجهال * وسمعت ما يجري هذا المجرى من بعض العبيد الاحابش الذين لا يستطيعون تقويم صيغ الالفاظ فضلا عما وراء ذلك وذلك أنه رأى صبيا في يده طاقة ريحان فقال هذه طاقة آس تحمل طاقة ريحان فلما سمعت ذلك منه أخذتني هزة التعجب وذكرت شعر أبي نواس الذي تواصفه الناس في هذا المعنى وهو قوله

ووردة جاء بها شادن * في كفه اليمنى غدا با

سبحت ربي حين أبصرتها * ريحانة تحمل ريحانا

وحضر عندي في بعض الايام رجل نصراني موسوم بالطب وكان لا يحسن أن يقول كلمة واحدة وهو ألثغ اللسان بين العبارة فسألته عن زيارة حمص وهل يتردد اليه أم لا فقال

ظلام الليل يهديني الى باب من أودّه وضوء النهار يضلني عن باب من لا أودّه وهذا من ألطف المعاني وأحسنها وهو من الحكمة المطلوبة * وكنت قصدت زيارة بعض الاخوان من الاجناد وهو من الاعلام الاعجام فسألته عن حاله وكان توالت عليه نكبات طالت أيامها وعظمت آلامها فقال لي في الجواب ما معناه انه لم يبق عندي ارتياع لوقوع نائبة من النوائب وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق أو كاتب بليغ لاستحسن منه غاية الاستحسان * وكنت في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرض فلسطين في الجيش الذي كان قبالة العدو الكافر من الفرنج لعنهم الله وتقابل الفريقان على مدينة يافا وكان الى جانبي ثلاثة فرسان من المسلمين فتماقدوا على الحملة الى صف العدو فلما حملوا صدق منهم اثنان ونكل واحد فقيل له في ذلك فقال الموت طعام لا تجشيه المعدة فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها واذا هي صادرة عن رجل من أهل بصرى خدم من الاخدام ولو أخذت في ذكر ما سمعته من هذا الا طلت واتسعت لي الدلالات بسير ما ذكرته على المراد وهو أنه يجب على المتصدي للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس في محاوراتهم فانه لا يعدم مما يسمعه منهم حكما كثيرة ولو أراد استخراج ذلك بفكره لا عجزه ويحكي عن أبي تمام أنه لما نظم قصيدته البائية التي أولها

على مثلها من أربع وملاعب * اذيلت مصونات الدموع السواكب انتهى منها الى قوله

يرى أقبح الاشياء أوبة آمل * كسته يد المأمول حلة خائب

ثم قال وأحسن من نور يفتحه الصبا ... ووقف عند صدر هذا البيت يردده واذا سائل يسأل على الباب وهو يقول من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا فقال أبو تمام * بياض العطايا في سواد المطالب * فأتم صدر البيت الذي كان يردده من كلام السائل وسمعت امرأة قد توفي لها ولد وهو بكرها الذي هو أول أولادها فقالت كيف لا أحزن لذهابه وهو أول درهم وقع في الكيس فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتابا من كتبي في التعازي وهو كتاب كتبته الى بعض الاخوان وقد توفي بكره من الاولاد فقلت وهو أول درهم ادخرته في كيس الادخار وأعددته لحوادث الليل والنهار وبلغني عن الشيخ أبي محمد أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي وكان اماما في علم العربية وغيره فقيل انه كان كثيرا ما يقف على حلق القصاص والمشعبذين فاذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه في أكثر أوقاته الا هناك

فلم على ذلك وقيل له أنت امام الناس فى العلم وما الذى يبعثك على الوقوف بهذه
المراتب الرذيلة فقال لو علمتم ما أعلم لما لمتم واعلم انى استفدت من هؤلاء الجهال
فوائد كثيرة تجرى فى ضمن هذيانهم من معانى غريبة لطيفة ولو أردت أنا وغيرى أن
نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك ولا شك أن هذا الرجل رأى ما رأيته ونظر الى
ما نظرت اليه

(الفصل السابع فى الحقيقة والمجاز) وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم
البيان لا بل هو علم البيان بأجمعه فان فى تصريف العبارات على الاسلوب المجازى
فوائد كثيرة وسيرد بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وقد نبهنا
فى هذا الموضع على جملتها دون تفصيلها فأما الحقيقة فهى اللفظ الدال على
موضوعه الاصلى وأما المجاز فهو ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة
وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضع الى هذا الموضع اذا تخطاه اليه فالمجاز اذا اسم
للمكان الذى يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما وحقيقته هى الانتقال من
مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من محل الى محل كقولنا زيد أسد فان زيدا
انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية
أى عبرنا من هذه الى هذه لوصلة بينهما وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة وقد يكون
العبور لغير وصلة وذلك هو الاتساع كقولهم فى كتاب كليلة ودمنة قال الاسد
وقال الثعلب فان القول لا وصلة بينه وبين هذين بحال من الاحوال وانما أجرى
عليهما اتساعا محضا لا غير ولهذا مثال فى المجاز الحقيقى الذى هو المكان المجاز
فيه فانه لا يخلو اما أن يجاز من سهل الى سهل أو من وعر الى وعر أو من سهل الى
وعر فالجواز من سهل الى سهل أو من وعر الى وعر هو كقولنا زيد أسد فالمشابهة
حاصلة فى ذات بينهما كالمشابهة الحاصلة فى المكان والجواز من سهل الى وعر
كقولهم قال الاسد وقال الثعلب فكما أنه لا مشابهة بين القول وبين هذين
وكذلك لا مشابهة بين السهل والوعر وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك واشباع القول
فى تحقيقه فى باب الاستعارة فليؤخذ من هناك وقد ذهب قوم الى أن الكلام كله
حقيقة لا مجاز فيه وذهب آخرون الى انه كله مجاز لا حقيقة فيه وكلا هذين
المذهبين فاسد عندى وسأجيب الخصم عما ادعاه فيهما فأقول محل النزاع هو
أن اللغة كلها حقيقة أو أنها كلها مجاز ولا فرق عندى بين قولنا انها كلها حقيقة

أو أنها كلها مجاز فإن كلا الطرفين عندي سواء لأن منكرهما غير مسلم لهما وأنا بصدد أن أبين أن في اللغة حقيقة ومجازا والحقيقة اللغوية هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء أي نفسه وعينه فالحقيقة اللفظية اذا هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له الى لفظ آخر غيره وتقرير ذلك بأن أقول المخلوقات كلها تفتقر الى أسماء يستدل بها عليها ليعرف كل منها باسمه من أجل التفاهم بين الناس وهذا يقع ضرورة لابد منها فالاسم الموضوع بازاء المسمى هو حقيقة له فاذا نقل الى غيره صار مجازا ومثال ذلك أنا اذا قلنا شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه وكذلك اذا قلنا بحر أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح وهذا الاسم له حقيقة لانه وضع بازائه فاذا نقلنا الشمس الى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة وكذلك اذا نقلنا البحر الى الرجل الجواد استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة (فان قيل) ان الوجه المليح يقال له شمس وهو حقيقة فيه وكذلك البحر يقال للرجل الجواد وهو حقيقة فيه (فالجواب) عن ذلك من وجهين أحدهما نظري والآخر وضعي أما النظري فهو أن الالفاظ انما جعلت أدلة على افهام المعاني ولو كان ماذهبت اليه صحيحا لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم الملح وعلى الرجل الجواد بالاشتراك وكذلك الشمس أيضا فانها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وعلى الوجه المليح بالاشتراك وحينئذ فاذا ورد أحد هذين اللفظين مطلقا بغير قرينة تخصصه فلا يفهم المراد به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ونحن نرى الامر بخلاف ذلك فانا اذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد وانما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم لا غير فبطل اذا ماذهبت اليه بما بيناه وأوضحناه (فان قلت) ان العرف يخالف ماذهبت اليه فان من الالفاظ ما اذا أطلق لم يذهب الفهم منه الا الى المجاز دون الحقيقة كقولهم الغائط فان العرف خصص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الارض (قلت) في الجواب هذا شيء ذهب اليه الفقهاء وليس الامر كما ذهبوا اليه لانه ان كان اطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من اسكاف وحداد ونجار وخباز ومن جرى مجراهم

فهؤلاء لا يفهمون من الغائط الا قضاء الحاجة لانهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة وانها المطمئن من الارض وأما خاصة الناس الذين يعلمون أصل الوضع فانهم لا يفهمون عند اطلاق اللفظ الا الحقيقة لا غير ألا ترى أن هذه اللفظة لما وردت في القرآن الكريم وأريد بها قضاء الحاجة قرنت بألفاظ تدل على ذلك كقوله تعالى أو جاء أحد منكم من الغائط فان قوله أو جاء أحد منكم من الغائط دليل على أنه أراد قضاء الحاجة دون المطمئن من الارض فالكلام في هذا وأمثاله اعتماداً مع علم أصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجازا وأما الجهال فلا اعتبار بهم ولا اعتداد بأقوالهم والعجب عندي من الفقهاء الذين دونوا ذلك على ما دونوه وذهبوا الى ما ذهبوا اليه ولما الوجه الوضعي فهو أن المرجع في هذا وما يجرى مجراه الى أصل اللغة التي هي وضع الاسماء على المسميات ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمى شمسا ولا أن الرجل الجواد يسمى بحرا وانما أهل الخطابة والشعر توسعوا في الاساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة الى المجاز ولم يكن ذلك من واضع اللغة في أصل الوضع ولهذا اختص كل منهم بشئ اخترعه في التوسعات المجازية هذا امرؤ القيس قد اخترع شيأ لم يكن قبله فمن ذلك أنه أول من عبر عن الفرس بقوله قيد الاوابد ولم يسمع ذلك لاحد من قبله وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم حنين الآن حمى الوطيس وأراد بذلك شدة الحرب فان الوطيس في أصل الوضع هو التنور فنقل الى الحرب استعارة ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبي صلى الله عليه وسلم وواضع اللغة ما ذكر شيأ من ذلك فعلمنا حينئذ أن من اللغة حقيقة بوضعه ومجازا بتوسعات أهل الخطابة والشعر وفي زماننا هذا قد يخترعون أشياء من المجاز على حكم الاستعارة لم تكن من قبل ولو كان هذا أمرا توقيفا من جهة واضع اللغة لما اخترعه أحد من بعده ولا زيد فيه ولا نقص منه * وأما الفرق بينه وبين الحقيقة فهو أن الحقيقة جارية على العموم في نظائرها ألا ترى أنا اذا قلنا فلان عالم صدق على كل ذي علم بخلاف واسأل القرية لانه لا يصح الا في بعض الجمادات دون بعض اذ المراد أهل القرية لانهم ممن يصح السؤال لهم ولا يجوز أن يقال واسأل الحجر والتراب وقد يحسن أن يقال واسأل الربع والطلل (واعلم) أن كل مجاز له حقيقة لانه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز الا لنقله عن حقيقة

موضوعه له اذ المجاز هو اسم للموضع الذي ينتقل فيه من مكان الى مكان فجعل
ذلك لنقل الالفاظ من الحقيقة الى غيرها واذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة
نقل عنها الى حالته المجازية فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها
مجاز فان من الاسماء ما لا مجاز له كاسماء الاعلام لانها وضعت للفرق بين الذوات
لا للفرق بين الصفات وكذلك فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب
الفصاحة والبلاغة لانه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الاصل أولى
منه حيث هو فرع عليها وليس الامر كذلك لانه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام
الخطابي هو اثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى
يكاد ينظر اليه عيانا ألا ترى أن حقيقة قولنا زيد أسد هي قولنا زيد شجاع لكن
فرق بين القولين في التصوير والتخييل واثبات الغرض المقصود في نفس السامع
لان قولنا زيد شجاع لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء مقدام فاذا قلنا
زيد أسد يخيل عند ذلك صورة الاسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة ودق
الفرائس وهذا لا نزاع فيه وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع
عن خلقه الطبيعي في بعض الاحوال حتى أنها ليسمح بها البخيل ويشجع بها
الجبان ويحكم بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة
الخمر حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك
عقوبة أو اقدام على أمر مهول وهذا هو فحوى السحر الحلال المستغني عن
القاء العصا والحبال (واعلم) أنه اذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه
على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه فانظر فان كان لا مزية لمعناه
في حمله على طريق المجازة لا ينبغي أن يحمل الا على طريق الحقيقة لانها هي
الاصل والمجاز هو الفرع ولا يعدل عن الاصل الى الفرع الا لفائدة مثال ذلك
قول البحتري

مهيب كحد السيف لو ضربت به * ذرى أجأ ظلت وأعلامها وهد

ويروى أيضا لو ضربت به طلى أجأ جمع طلية وهي العنق فهذا البيت لا يجوز حمله
على المجاز لان الحقيقة أولى به ألا ترى أن الذرى جمع ذروة وهو أعلى الشيء يقال
ذروة الجبل أعلاه والطلى جمع طلية وهي العنق والعنق أعلى الجسد ولا فرق بينهما
في صفة العلو هنا فلا يعدل اذا الى المجاز اذ لا مزية له على الحقيقة وهكذا كل

ما يجيء من الكلام الجاري هذا المجرى فانه ان لم يكن في المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لا يعدل اليه

(الفصل الثامن في الفصاحة والبلاغة) اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج ومسلك متوعر على الناهج ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ولم أجد من ذلك ما يعول عليه الا القليل وغاية ما يقال في هذا الباب ان الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي يقال أفصح الصبح اذا ظهر ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة لانه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات أحدها أنه اذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحا الوجه الآخر انه اذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنسب والاضافات الى الاشخاص فان اللفظ قد يكون ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو فهو اذا فصيح عند هذا غير فصيح عند هذا وليس كذلك بل الفصيح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الاحوال لانه اذا تحقق حد الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف الوجه الآخر أنه اذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ينبغي أن يكون فصيحا وليس كذلك لان الفصاحة وصف حسن اللفظ لا وصف قبح فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل ان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين من غير تفصيل * ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة فيها ولم يثبت عندي منها ما أعول عليه ولكثرة ملابستي هذا الفن ومعاركتي اياه انكشف لي السر فيه وسأوضحه في كتابي هذا وأحقق القول فيه فأقول ان الكلام الفصيح هو الظاهر البين وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها الى استخراج من كتاب لغة وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الالفاظ لمكان حسنها وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه فحسن الاستعمال سبب استعمالها دون غيرها واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها فالفصيح اذا من الالفاظ هو الحسن (فان قيل)

من أى وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه (قلت فى الجواب) ان هذا من الامور المحسوسة التى شاهدها من نفسها لان الالفاظ داخلة فى حيز الاصوات فالذى يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن والذى يكرهه وينفر عنه هو القبيح الاترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ويكره صوت الغراب وينفر عنه وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك فى صهيل الفرس والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لاخلاف فى أن لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهى تدل على معنى واحد ومع هذا فانك ترى لفظتى المزنة والديمة وما يجرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ البعاق وما يجرى مجراه متروكا لايستعمل وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أومن ذوقه غير ذوق سليم لاجرم أنه ذم وقدح فيه ولم يلتفت اليه وان كان عربيا محضا من الجاهلية الاقدمين فان حقيقة الشئ اذا علمت وجب الوقوف عندها ولم يعرج على ما خرج عنها واذن ثبت أن الفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين وانما كان ظاهرا بينا لانه مألوف الاستعمال وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه وحسنه مدرك بالسمع والذى يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف عن مخارج الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه وقد مثلت ذلك فى المثال المتقدم بلفظة المزنة والديمة ولفظة البعاق ولو كانت الفصاحة لامر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ فى الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى وليس لقائل ههنا أن يقول لا لفظ الا بمعنى فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى فانى لم أفصل بينهما وانما خصصت اللفظ بصفة هى له والمعنى يجىء فيه ضمنا وتبعا (الوجه الثانى) ان وزن فعيل هو اسم فاعل من فعل بفتح الفاء وضم العين ضو كرم فهو كريم وشرف فهو شريف ولطف فهو لطيف وهذا مطرد فى بابه وعلى هذا فان اللفظ الفصيح هو اسم فاعل من فصح فهو فصيح واللفظ هو الفاعل للابانة عن المعنى فكانت الفصاحة مختصة به (فان قيل) انك قلت ان الفصيح من الالفاظ

هو الظاهر البين أي المفهوم ونرى من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى الا باستنباط وتفسير وتلك الآيات فصيحة لا محالة وهذا بخلاف ما ذكرته (قلت) لأن الآيات التي تستنبط وتحتاج الى تفسير ليس شيء منها الا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة وانما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة ألفاظه المفردة لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه وهذا ليس قادحا في فصاحة تلك الألفاظ لأنها اذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة أي ظاهرة واضحة وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها واذا نظر اليها مع التركيب احتاجت الى استنباط وتفسير وهذا لا يختص به القرآن وحده بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك (وسأورد ههنا منه شيئا فأقول) قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال صومكم يوم تصومون وفطركم يوم تفطرون وأضحاكم يوم تضحون وهذا الكلام مفهومة مفردات ألفاظه لأن الصوم والفطر والأضحى مفهوم كله واذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل علمنا أن صومنا يوم نصوم وفطرنا يوم نفطر وأضحانا يوم نضحي فما الذي أعلمنا به مما لم نعلمه واذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج الى استنباط والمراد به أنه اذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا ولم يكن ذلك اليوم أوله فان الصوم صحيح وأوله هو ذلك اليوم الذي اجتمع الناس عليه وكذا يقال في يوم الفطر ويوم الأضحى ولهذا الخبر المشار اليه أشباه كثيرة تفهم معاني ألفاظها المفردة واذا تركبت تحتاج في فهمها الى استنباط (وأما) ما ورد من ذلك شعرا فكقول أبي تمام

ولهت فأظلم كل شيء دونها * وأنار منها كل شيء مظلم

فان الوله والظلمة والانارة كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت بجملته يحتاج في فهمه الى استنباط والمراد به أنها ولهت فأظلم ما بيني وبينها لما نالني من الجزع لولهها كما يقول الجازع أظلمت الأرض علي أي اني صرت كالأعمى الذي لا يبصر وأما قوله وأنار منها كل شيء مظلم أي وضح لي منها ما كان مستترا عني من حبها اياي وكذلك ورد قول أبي عبادة البحتري في منهزم

اذا سار سهبا عاد ظهرا عدوه * وكان الصديق بكرة ذلك السهب

فان السير والسهب والظهر والعدو والصديق كل ذلك مفهوم المعنى لكن البيت

بحسب موضعه يحتاج معناه الى استنباط والمراد أن هذا المنهزم يرى ما بين يديه شبرا باليه وما خلفه مذكورها منه لانه يطلب النجاء فوز البعد عما خلفه والقرب عما أمامه فاذا قطع سهبا وخلفه وراءه صار عنده كالعدو وقبل أن يقطعه كان له صديقا أى يطلب لقاءه ويحب الدنو منه فانظر أيها المتأمل الى ما ذكرته من هذه الامثلة حتى يثبت عندك ما أردت بيانه (وأما البلاغة) فان أصلها فى وضع اللغة من الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ الشئ منتهاه وسمى الكلام بليغا من ذلك أى أنه قد بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية والبلاغة شاملة للالفاظ والمعانى وهى أخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان فكل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا وكذلك يقال كل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام وهو أنها لا تكون الا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما (مسئلة تتعلق بهذا الفصل) هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب أم بالنظر وقضية العقل (الجواب) عن ذلك انا نقول لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء فان العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين اما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم فان كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على أسرار اللغة ومعرفة جيدها من رديئها وحسنها من قبيحها فكذلك هو الذى أذهب اليه وان كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم فهذا يتسلسل الى أول من ابتدعه ولم يستقره فان كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفى الفصاحة والبلاغة المختصين بالالفاظ والمعانى الا أن للغة العربية مزية على غيرها لما فيها من التوسعات التى لا توجد فى لغة أخرى سواها (مسئلة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضا) هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جار مجرى علم النحو أم لا (الجواب) عن ذلك انا نقول الفرق بينهما ظاهر وذاك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك ولما كان

العقل يأباه ولا ينكره فانه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا لقلد فى ذلك كما قلد فى رفع الفاعل ونصب المفعول وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فليس كذلك لانه استنبط بالنظر وقضية العقل من غير واضع اللغة ولم يفتقر فيه الى التوقيف منه بل أخذت ألفاظ ومعان على هيئة مخصوصة وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها فان كل عارف بأسرار الكلام من أى لغة كانت من اللغات يعلم أن اخراج المعانى فى ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من اخراجها فى ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه (فان قيل) لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الادلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعا والمفعول منصوبا (فالجواب) عن ذلك أنا نقول هذه الادلة واهية لا تثبت على محك الجدل فان هؤلاء الذين تصدوا لاقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل ابداه لهم فاستخرجوا لذلك أدلة وعللا والا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التى دعت الواضع الى رفع الفاعل ونصب المفعول هى التى ذكروها

(الفصل التاسع فى أركان الكتابة) اعلم أن للكتابة شرائط وأركانا (أما) شرائطها فكثيرة وهذا التأليف موضوع لجمعها والقسم الآخر من الكلام المنظوم وليس يلزم الكاتب أن يأتى بالجميع فى كتاب واحد بل يأتى بكل نوع من أنواعها فى موضعه الذى يليق به كما أرشدنا فيما يأتى من هذا التأليف (وأما) الاركان التى لا بد من ايداعها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فخمسة (الاول) أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة فان الكاتب من أجاد المطلع والمقطع أو يكون مبنيا على مقصد الكتاب ولهذا باب يسمى باب المبادى والافتتاحات فليحذ حذوه وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر (الركن الثانى) أن يكون الدعاء المودع فى صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذى بنى عليه الكتاب وقد نبهنا على طرف من ذلك فى باب يخصه أيضا فليطلب من هناك وهو مما يدل على حذاقة الكاتب وفطانته وكثيرا ما تجده فى مكاتباتى التى أنشأتها فانى قصدته فيها ونوختيه بخلاف غيرى من الكتاب لانه ربما يوجد فى كتابة غيرى قليلا ويوجد فى كتابتى كثيرا (الركن الثالث) أن يكون خروج الكاتب من معنى الى معنى

برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض ولا تكون مقتضبة ولذلك باب
مفرد أيضا يسمى باب التخلص والاقتضاب وهذا الركن أيضا يشترك فيه
الكاتب والشاعر (الركن الرابع) أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة
الاستعمال ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظا غريبة فان ذلك عيب فاحش بل أريد
أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكا غريبا يظن السامع أنها غير ما في
أيدي الناس وهي مما في أيدي الناس وهناك معترك الفصاحة التي تظهر فيه
الخواطر براعتها والاقلام شجاعتها كما قال البحتري

باللفظ يقرب فهمه في بعده ● منا ويبعد نيله في قربه

وهذا الموضع بعيد المنال كثير الاشكال يحتاج الى لطف ذوق وشهامة خاطر
وهو شبيه بالشيء الذي يقال انه لا داخل العالم ولا خارج العالم فاللفظ هو الذي
يستعمل وليس بالذي يستعمل أي أن مفردات ألفاظه هي المستعملة المألوفة
ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب واذا انتهت أيها الكاتب الى هذه
الدرجة واستطعت نظم هذا الكلام المشار اليه كان حينئذ أنه كالروح الساكنة
في بدنك التي قال الله فيها قل الروح من أمر ربي وليس كل خاطر براق الى هذه
الدرجة . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ومع هذا فلا تظن
أيها الناظر في كتابي أني أردت بهذا القول اهمال جانب المعاني بحيث يؤتى باللفظ
الموصوف بصفات الحسن والملاحة ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه
فانه اذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسنها الا أن صاحبها بليد أبله
والمراد أن تكون هذه الالفاظ المشار اليها جسما لمعنى شريف على أن تحصيل
المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت اليه أيسر من تحصيل الالفاظ المشار
اليها (ويحكى) عن المبرد رحمه الله تعالى أنه قال ليس أحد في زماني الا وهو يسألني
عن مشكل من معاني القرآن أو مشكل من معاني الحديث النبوي أو غير ذلك من
مشكلات علم العربية فأنا امام الناس في زماني هذا واذا عرضت لي حاجة الى بعض
اخواني وأردت أن أكتب اليه شيأ في أمرها أحجم عن ذلك لاني أرتب المعنى في
نفسي ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ولقد صدق في قوله
هذا وأنصف غاية الانصاف ولقد رأيت كثيرا من الجهال الذين هم من السوقة
ارباب الحرف والصنائع وما منهم الا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره

المعنى الدقيق ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى فانه لا يمنع الجاهل الذى لا يعرف علما من العلوم أن يكون ذكيا بالفطرة واستخراج المعانى انما هو بالذكاء لا بتعلم العلم . وبلغنى أن قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل فى شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك فى كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب وسمعت شيأ منه فوجدت فيه معانى حسنة مليحة ومعانى غريبة وان لم تكن الالفاظ التى صيغت به صيغة وهذا الركن أيضا يشترك فيه الكاتب والشاعر (الركن الخامس) أن لا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن الكريم والاخبار النبوية فانها معدن الفصاحة والبلاغة وايراد ذلك على الوجه الذى أشرت اليه فى الفصل الذى يلى هذا الفصل من حل معانى القرآن الكريم والاخبار النبوية أحسن من ايراده على وجه التضمين وتوخى ذلك فى كل كتاب عسر جدا وأنا انفردت بذلك دون غيرى من الكتاب فانى استعملته فى كل كتاب حتى انه ليأتى فى الكتاب الواحد فى عدة مواضع منه ولقد أنشأت تقليدا لبعض الملوك مما يكتب من ديوان الخلافة ثم انى اعتبرت ما ورد فيه من معانى الآيات والاخبار النبوية فكان ما يزيد على الخمسين وهذا لا أتكلمه تكلفا وانما يأتى على حسب ما يقتضيه الموضع الذى يذكر فيه وقد عرفتك أيها الكاتب كيف تستعمل ما تستعمله من ذلك فى الفصل الذى يأتى بعد هذا الفصل فخذه من هناك وهذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر لان الشاعر لا يلزمه ذلك اذ الشعر أكثره مدائح وأيضا فانه لا يتمكن من صوغ معانى القرآن والاخبار فى المنظوم كما يتمكن منه فى المنثور ولربما أمكن ذلك فى الشئ اليسير فى بعض الاحيان (واذا) استكملت معرفة هذه الاركان الخمسة وأتيت بها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ووجب لك أن تسمى بصدق كاتبا

(الفصل العاشر فى الطريق الى تعلم الكتابة) هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها وما رأيت أحدا تكلم فيه بشئ ولما صيرت الى هذه الفضيلة وبلغنى الله منها ما بلغنى وجدت الطريق ينقسم فيها الى ثلاث شعب (الاولى) أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ويطلع على أوضاعهم فى استعمال الالفاظ والمعانى

ثم يحذو حذوهم وهذه أدنى الطبقات عندي (الثانية) أن يمزج كتابة المتقدمين
بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة اما في تحسين ألفاظ أو في تحسين معان
وهذه هي الطبقة الوسطى وهي أعلى من التي قبلها (الثالثة) أن لا يتصفح كتابة
المتقدمين ولا يطلع على شيء منها بل يصرف همه الى حفظ القرآن الكريم وكثير
من الاخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الاجادة
في المعاني والالفاظ ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة أعني القرآن والاخبار
النبوية والاشعار فيقوم ويقعد ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدي حتى يستقيم على
طريقة يفتتحها لنفسه وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة
لاحد من المتقدمين فيها وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد اماما
في فن الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهم وغيرهم
من الائمة المجتهدين في علم الفقه الا أنها مستوعرة جدا ولا يستطيعها الا من رزقه
الله تعالى لسانا هجاما وخاطرا رقاما ولقد سلكت في صعابها وذللت محاججها
وكنت أتهم باطهار ذلك لما بت من نيله من العناء فاني سلكت اليه كل طريق
حتى بلغته آخرا وانما تكون نفاسة الاشياء لعزة حصولها ومشقة وصولها

ليس حلوا وجودك الشيء تنفسه الا باحدى بعز طلابه

ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها وأظفرتني بكنوز
جواهرها اذ لم يظفر غيري بأحجارها فما وجدت أعون الاشياء عليها الا حل
آيات القرآن الكريم والاخبار النبوية وحل الابيات الشعرية وقد قصرت هذا
الفصل على ذكر وجوهها وتقسيمها وتمهيد الطريق الى تعلمها فمن وقف على
ما ذكرته علم أني لم آت شيئا فريا وان الله قد جعل تحت خواطري من بنات
الافكار سريا وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطي هذه الصناعة
والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والاطراف ويقنع من لآلئها بمعرفة ما في
الاصداف ولو استخرج منها ما استخرجت واستنتج ما استنتجت لهام
بها في كل واد وتزود الى سلوك طريقها كل زاد

لو يسمعون كما سمعت كلامها * خروا لعزة ركعا وسجودا

ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا في كتابته بما يستخرجه من
القرآن الكريم والاخبار النبوية والشعر بحيث انه لا ينشئ كتابا الا من ذلك بل

أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه مفتش عن دفائنه وقلبه ظهرا لبطن عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية ألا ترى أن صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إلى معرفة آيات الأحكام وأخبار الأحكام وإلى معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة وإلى معرفة علم العربية وإلى معرفة الفرائض والحساب من المعلوم والمجهول من أجل مسائل الدور والوصايا وغيرها وإلى معرفة إجماع الصحابة فهذه أدوات الاجتهاد فإذا عرفها استخرج بفكرته حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده كما فعل أبو حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم من أئمة الاجتهاد وكذلك يجري الحكم في الكاتب إذا أحب الترقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة قد ذكرتها في صدر كتابي هذا إلا أن رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء هي حفظ القرآن الكريم والإكثار من حفظ الأخبار النبوية والأشعار

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فأول ما أبدأ به على عقب ذلك أن أقول حل الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام (الأول) منها وهو أدناها مرتبة أن يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة وهذا عيب فاحش ومثاله كمن أخذ عقدا قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأوهاه وبدده وكان يقوم عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقدا إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه وأيضا فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجنا لا مستحسنا كقوله في بعض أبيات الحماسة

والذي حنق على كاشحا * تغلي عداوة صدره في مرجل

أرجيته عني فأبصر قصده * وكويته فوق النواظر من عل

(فقال) في نثر هذين البيتين فكم لي الذي حنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عل وتغلي عداوة صدره في مرجل فكويته فوق ناظريه وأكببته لفيه ويديه فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير ومن هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئا لا يمكن تغيير لفظه فحينئذ يعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ ومثاله قول الشاعر في

أول الحماسة

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

(وقد) نثرت ذلك فقلت است ممن تستبيح ابلى بنو القيطة ولا الذى اذا هم بأمر كانت الآمال اليه وسيلة ولكنى أجمل الهمل وأقرب الامل وأقول سبق السيف العذل فذكر بنى القيطة ههنا لابد منه على حسب ماذكره الشاعر وكذلك الامثال السائرة فانه لابد من ذكرها على ماجاءت فى الشعر (وأما القسم الثانى) وهو وسط بين الاول والثالث فى المرتبة وهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويعزم عن البعض بألفاظ أخر وهنالك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة فانه اذا أخذ لفظ الشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن والعار بن المسالك الى هذا القسم أن تأخذ بعض بيت من الابيات الشعرية هو أحسن مافيه ثم تماثله وسأورد ههنا مثالا واحدا ليكون قدوة للمتعلم (فالاول) قد ورد هذا البيت من شعر أبى تمام فى وصف قصيدة له

وحذاء تملأ كل أذن حكمة * وبلاغة وتدر كل وريد

فقوله تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن وهو أحسن مافى البيت فاذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلابد من استعمال لفظه بعينه لانه فى الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله وهذا عسر جدا وهو عندى أصعب منالا من نثر الشعر بغير لفظه لانه مسلك مضيق لما فيه من التعرض لمماثلة ماهو فى غاية الحسن والجودة وأما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب ما يراه ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر الى مؤاخاته وقد نثرت هذه الكلمات المشار اليها وأتيت بها فى جملة كتاب فقلت وكلامى قد عرف بين الناس واشتهر وفاق مسير الشمس والقمر واذا عرف الكلام صارت المعرفة له علامة وأمن من سرقته اذلو سرق لدلت عليه الوسامة ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكمة ويجعل فصاحة كل لسان عجمة واذا جرت نفثاته فى الافهام قالت أهذه بنت فكرة أم بنت كرمة فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع فانى لما أخذت تلك الكلمات من البيت

الشعرى الزمت بأن أزاحيها بإمام ومثلها أو أحسن منها فجنبهم ذا الفصل كما تراه وكذلك ينبغى أن يفعل فيما هذا سبيله (وأما القسم الثالث) وهو أعلى من القسمين الاولين فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه وثم يتبين حذق الصائغ فى صياغته ويعلم مقدار تصرفه فى صناعته فان استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية والا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الاول (واعلم) أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لناثره فيورده بضروب من العبارات وذلك عندى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدة من الاجوبة ومن الابيات ما يضيق فيه المجال حتى ليكاد الماهر فى هذه الصناعة أن لا يخرج عن ذلك اللفظ وانما يكون هذا لعدم النظير فأما ما يتسع المجال فى نثره فكقول أبى الطيب المتنبى

لا تعزل المشتاق فى أشواقه ● حتى يكون حشاك فى أحشائه

وقد نثرت هذا المعنى فمن ذلك قولى لا تعزل المحب فيما يهواه حتى تطوى القلب على ما طواه ومن ذلك وجه آخر وهو اذا اختلفت العينان فى النظر فالعذل ضرب من الهذر ومن هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى أيضا

ان القتيل مضرجا بدموعه ● مثل القتيل مضرجا بدمائه

أخذت هذا المعنى فنثرته فمن ذلك قولى القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون غير أن ذلك لا يجرد من غمده ولا يقاد صاحبه بعمده فزدت على المعنى الذى تضمنه البيت وغيرت اللفظ ومن ذلك وجه آخر وهو دمع المحب ودم القتيل متفقان فى التشبيه والتمثيل ولا تجد بينهما فرقا الا أنهما يختلفان لونا وهذا أحسن من الاول ● وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه فكقول أبى تمام

تردّى ثياب الموت حمرا فما أتى ● لها الليل الا وهى من سندس خضر

وقول أبى الطيب المتنبى

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ● ومن جثث القتلى عليها تمائم

وأمثال هذا لا تأتى الا قليلا وسببه أن المعنى ينحصر فى مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتى الا هكذا كهذين البيتين . ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة فى ذكر لونى الثياب من الاحمر والاخضر وجاء ذلك واقعا على المعنى الذى أراده من لون ثياب

القتلى وثياب الجنة فاذا نقل نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لا يمكن ذلك
وبيت أبي الطيب جار هذا المجرى فانه بناه على واقعة من الوقائع وذاك أن حصنا
من حصون سيف الدولة قصده الروم وانتزعوه وأخربوه فتم سيف الدولة اليه
واسترجعه وجدد بناءه وهزم الروم ونصب من جثث القتلى على السور فنظم
المتنبي في هذا قصيدة أولها * على قدر أهل العزم تأتي العزائم * فلما انتهى الى ذكر
الحصن جاء بهذا البيت في جملة أبيات فشرح صورة الحال في ازعاج الحصن
بالقتال وتعليق القتلى عليه وأبرز ذلك في معنى التمثيل بالجنون والتمائم وهذا
لا يمكن تبديل لفظه وهو وأمثاله مما يصعب على الناثر أن يحسن الصنعة في نقل
تمامه لانه يتعدى اثره بألفاظه فان كان عنده قوة تصرف وبسطة عبارة فانه
يأتي به حسنا رائقا وقد نثرت هذين البيتين أما بيت أبي تمام فاني قلت في نثره لم
تكسه المنايا نسج شفارها حتى كسته الجنة نسج شعارها فبدل أحمر ثوبه
بأخضره وكاس حمامه بكاس كوثره وهذا من الحسن على غاية يكون كد
حسودها من جملة شهودها وأما بيت أبي الطيب المتنبي فاني قلت في نثره سرى
الى حصن كذا مستعيدا منه سبية نزعها العدو اختلاسا وأخذها مخادعة
لا افتراسا فما زالها حتى استقادها ولا أزالها حتى استعادها وكأنما كان بها
جنون فبعث لها من عزائمه عزائم وعلق عليها من رؤس القتلى تمائم وفي هذا
من الحسن ما لا خفاء به * فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثر هكذا والا فليترك وقد جئت
بهذا المعنى على وجه آخر وأبرزته في صورة أخرى وذاك أني أضفت الى هذا البيت
البيت الذي قبله وهو

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا * وموج المنايا حولها متلاطم

ولما نثرت هذين البيتين قلت في نثرهما ما أذكره وهو بناها والاسنة في بنائها
متخاصمة وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمة وما أجلت الحرب عنها
حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمائم من
الرؤس والاجساد ولا شك أن الحرب تتزود من عزبانه وتقول ألا هكذا
فليكسب المجد كاسبه وهذا أحسن من الاول وأتم معنى * وقد تصرفت في هذا
الموضع بزيادة في معناه ونثره على أسلوب أحسن من هذا الاسلوب فقلت بناها
ودون ذات البناء شوك الاسل وطوفان المنايا الذي لا يقال سآوي منه الى جبل

ولم يكن بناؤها الا بعد أن حذفت رؤس عن اعناق وكأنما أصيبت بجنون فعلقت
القتلى عليها مكان التمائم أو منيت بمطال فعلقت مكان الاطواق وهذا الفصل
فيه زيادة على الفصل الذى قبله ۰ واذا انتهى بنا الكلام الى ههنا فى التنبيه على
نثر الشعر وكيفية نثره وذكر ما يسهل منه وما يعسر فلنتبع ذلك بقول كلى فى هذا
الباب فنقول من أحب أن يكون كاتبا أو كان عنده طبع مجيب فعليه
بحفظ الدواوين ذوات العدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ثم يأخذ فى نثر الشعر من
محفوظاته وطريقه أن يبتدئ فيأخذ قصيدا من القصائد فينثرها بيتا بيتا على
التوالى ولا يستنكف فى الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها فانه
لا يستطيع الا ذلك واذا مرنت نفسه وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة
وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا
من العبارات المختلفة وحينئذ يحصل لخاطره بمباشرة المعانى لقاح فيستنتج منها
معانى غير تلك المعانى وسبيله أن يكثر الادمان ليلا ونهارا ولا يزال على ذلك مدة
طويلة حتى يصير له ملكة فاذا كتب كتابا أو خطب خطبة تدفقت المعانى فى أثناء
كلامه وجاءت ألفاظه معسولة لا مغسولة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص
رقصا وهذا شئ خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير (فان قيل) الكلام قسمان
منظوم ومنثور فلم حضضت على حفظ المنظوم وجعلته مادة للمنثور وهلا كان
الامر بالعكس (قلت) فى الجواب ان الاشعار أكثر والمعانى فيها أغزر وسبب
ذلك أن العرب الذين هم أصل الفصاحة كان جل كلامهم شعرا ولا نجد الكلام
المنثور فى كلامهم الا يسيرا ولو كثر فانه لم ينقل عنهم بل المنقول عنهم هو الشعر
فأودعوا أشعارهم كل المعانى كما قال الله تعالى ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ثم جاء
الطراز الاول من المخضرمين فلم يكن لهم الا الشعر ثم استمرت الحال على ذلك فكان
الشعر هو الاكثر والكلام المنثور بالنسبة اليه قطرة من بحر ولهذا صارت المعانى
كلها مودعة فى الاشعار وحيث كانت بهذه الصورة فكان حثى على حفظها
واستعمال معانيها فى الخطب والمكاتبات لهذا السبب وقد نثرت فى هذا الموضع
أبياتا لتكون قدوة للمتعلم ۰ فمن ذلك قولى فى فصل من فصول الكلام يتضمن
ذكر السيادة وهو الشريف من شرف بنفسه لا بما دفن مع أبيه فى رمسه
فان تلك مكارم أتت تحصيل الزمان بما أتاها ثم مات أربابها فدفنت مع موتاها

ولو ساد الناس بآبائهم لكانت السيادة للطينة الاولى واقد شاق الابناء من الآباء مجبولا وهذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر

وما الفخر بالعظم الرميم وانما • فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

غير أن الفصل الذي ذكرته يتضمن من المعنى زيادة على ما تضمنه هذا البيت (ومن ذلك) ما كتبته في فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لاخوته وتنصله اليهم فقلت بر حواقابي وجوههم يذهب بألم الجراحة وطرفوا عيني وهم يزيدون في نظرها ملاحة واذا صدرت الاساءة عن الاحباب لم يكن وقرها وقرا وأصبحت وهي منسية اذا تعددت الاساءة بالذكرى وما منهم الامن سيطا مع بدمه ولحمه ولولا أن الاسماء معارف الاشخاص لكان اسمي واردا على اسمه وكيف أخشن عليهم وقد جبلني الله واهم على اللين أم كيف اذود النفس عنهم وهي مشتقة منهم وآدم بين الماء والطين ومتى أؤمل من شجرتي أغصانا كهذه الاغصان وقد أصيبت جرثومتها بالجداد ولو ذاقيل ان الاخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الاولاد آخر هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومي وهو قوله

تعزيت عن أغرتك حيانه • ووشك التعزي عن غارك أجدر

تعدر أن نعتاض عن أمهاتنا • وأبناؤنا والنسل لا يتعذر

غير أن ابن الرومي ذكر ذلك في تعزية انسان بابنه فتصرفت أنا في هذا المعنى ونقلته الى هذا الفصل في تضمنه معاتبة أخ لاخوته (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب فقلت والعيش كل العيش في سن الحداثة وما يأتي بعدها فلا يدعى الابن الغثاثة وليس بعد الاربعين من مصيف للذة ولا مربع وهي نهاية القوة الصالحة من الطبائع الاربع فاذا تجاوزها المرء أشفت ثمار عمره على ترمها وصارت زيادته كزيادة التصغير التي هي زيادة تدل على نقصها واصبح بعد ذلك يدعى أبا بعد ان كان يدعى ابنا وتقمص ثوبا من المشيب لا يجرثوبه خيلاء ولا يزهى به حسنا وان قيل ان أحسن الشباب شعار البياض قيل الا هذا الثوب فانه مستثنى ويكفيه من الفظاعة أن نظر الاحباب اليه نظر القتال ولولا أن الجود بعده لما استعير له لفظة الاشتعال ومن الناس من يداس لونه بصبغة الخضاب وليس ذلك الاحدادا على فقد الشباب وهو في فعله هذا

كاذب ولا يخفى أنس الصادق من وحشة الكذاب وخداع النفس ان تسلو عن بزه المعطاة وقصره المشيد ويحسن لها التلويح فى ثوب مرقع وهى تراه بعين الثوب الجديد وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى وهو قوله

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه ❊ حدادا على شرخ الشبيبة يلبس

غير أن فى هذا الفصل معانى كثيرة لطيفة لا توجد فى كلام آخر (ومن ذلك) قولى فى وصف الجود والسخاء وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة فنها قولى فى العطاء وهو شافه بنى أسباب الغنى برؤيته حتى كادت تنطق واخضرت أكناف منزل العطاء حتى كادت تورق ومن فضيلته أنه لا يأتى به على أعين الناس واذا غرسه عند انسان ربى ذلك الغراس فلا يستكثر ما جادت به سحاب يده ولا يمنعه عطاء يومه عن عطاء غده وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نواس

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا ❊ لم يهدموا لبنائهم أسسا

ومن هذا المعنى أيضا قولى وهو أخذ المكارم من سمائها وأرضها وقام بنقلها فى الناس وفرضها وتحلى ببعض أسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسدا لبعضها فالمحرم للعائذ بحرمه وصفر للطامع فى سعادة قدمه وربيع لاذ نواله ورجب لاقوال عذاله وهذا مأخوذ من قول الفرزدق

يداك يد ربيع الناس فيها ❊ وفى الاخرى الشهور من الحرم

وقد قال الشعراء فى ذلك كثيرا الا أنى أنا تصرفت فى هذا المعنى تصرفا لم يتصرف فيه أحد غيرى (ومن هذا المعنى) ما ذكرته فى فصل من كتاب وهو ولقد سوى بين أعدائه فى البغض وبين أمواله فهذه مغنية بوقع نصاله وهذه مغنية بسائغ نواله ولو أحب المال لكان أحبه اليه ما يبذله كما أن أحب الناس اليه من يسأله ومن أحسن ما سنه من الكرم أنه جاد حتى بذل رغب العارفين زهدا ورأى الحمد عوضا من الصنيعة فأبى أن يعتاض من صنائعه حمدا وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى نواس وهو

ليت اعداقى كانوا ❊ لابى اسحق مالا

(ومن ذلك) قولى فى وصف القتال وموطن الحرب ووصف الشجاعة والانجاد وما يتعلق بذلك ويجرى معه وهذا الفصل يشتمل على معان مختلفة (فن ذلك) ما ذكرته فى وصف العسكر وهو فسرنا فى غمامة من الكتائب تظلها غمامة

من الطيور الاشائب فهذه بغيرها تجر من حديد وهذه بغيرها تبرز من صعيد
وما مرت ببلد الا أزالت أرضه من سمائه وألبست نهاره ثوب ظلمائه وبدلت
اسراره بعيده وجرائره باماته وكذلك فعلت بمدينة فلانة وقد ضرب الامن عليها
أسوارا ومدت يدها بالنوائب فلم تدخل لها ديارا فهي تخبر عن بلهنية الخفض
ولم ترع عنه بالانتقال ولا رأت السيف وقد أتى لونه في ذوائب الاطفال فما
شعر أهلها الا وقد رجها الجيش بكلاكله ورماها بوابله قبل طله وطل السحاب
قبل وابله وبرزت خيل القوم ولها زي فرسانها وهي مستبقة الى طرادها
كاستباقها الى ميدانها وما منهم الا من تكاد القناة من يده بين لهذمين وتستقل
السرج منه ومن جواده بين مطهمين فجرت الغابير الى المغاوير وتلاقت
الرماح بالاعاصير وكان الطعن بينهم عناقا واللبث وفاقا وسبق ألم الموت ألم
الجراح ونفذت غير مختضبة لسرعتها أسنة الرماح وحصل القوم القبضة
وذموا عقبى النهضة وجيء بالاسرى مقترنين في الاصفاد موقنين أن رؤسهم
عوارى على تلك الاجساد ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لانكره
ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره وتصرفت أيدى المسلمين
في القتل والنهاب وكان للسيف رقاب وللسبي رقاب في هذا الفصل معان
كثيرة حسنة ومنها ما أخذته من شعر المتنبي كقوله

بصابة من العقبان ترجف تحتها * سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وكقوله

واستعار الحديد لونا وألقى * لونه في ذوائب الاطفال

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف المسلوبين في فصل من جملة كتاب يتضمن البشرى
بهزيمة الكفار وهو فسلبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس فهم في صورة عار
وزيهم زى كاس وما أسرع ما خيط لهم لباسها الاحمر غير أنه لم يجب عليهم
ولم يزر وما البوه حق لبس الاسلام شعار النصر الباقي على الدهر وهو شعار
نسجه السنان الخارق لا الصنع الحاذق ولم يغب عن لابسه الا ريثما غابت
البيض في الطلى والهام وألف الطعن بين ألف الخط واللام وهذه معان
حسنة رائقة ومنها معنى واحد مأخوذ من شعر البحتري وهو

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم * محمرة فكأنهم لم يسلبوا

(ومن ذلك) ماذكرته فى صدر كتاب يتضمن فتحا وهو أصدرهذا الكتاب والفتح غض طرى لم تنسل حرة يومه ولا أغمدت سيوف قومه فسطوره مترجمة بغبار جهاد مثلثة بخط ضربه واعجام زجاجه وهذا المعنى ينظر الى قول أبى تمام

كتبت أوجههم مشقا ونمنمة • ضربا وطعنا يقات الهام والصلفا

كتابة ما تنى مقروءة أبدا • وما خطت بها لاما ولا ألفا

الاّ أن أبا تمام مثل آثار الضرب والطعن فى الوجوه بالكتابة وأنا مثلت الكتابة واعجامه بالضرب والطعن فكأننى عكست المعنى الذى ذكره أبو تمام وهذا مقصد فى حل الابيات الشعرية حسن فان استخراج المعنى من عكسه أدق من استخراجه من نفسه وقد نبهت على ذلك فى مواضع اخر من هذا الباب (ومن ذلك) ماذكرته فى فصل من كتاب يتضمن فتحا من فتوح الكفار وهو وأقبلت احزاب الكفر وهى معتصمة بصليبها ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة وأنه ذو شعب أربع والتربيع نحس فى حكم التيامة وكيف ترجو بكفرها ظهورا ولها منه معنى الاختفاء وللاسلام معنى السلامة . ولما التقى الجمعان اصطفقت يمين وشمال وزحفت جبال الى جبال وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لاتفى بالآجال وأقدمت الخيل اقدام فرسانها وأظلم النقع فلم تبصر الا بآذانها ونالت الصور نارا خاطفة من كعوب الرماح واشتكت الاسنة فلا طريق بينها لمهب الرياح واستوصلت نصرة الكافر بن بالقطع لا بالجداد وسال حد السيف دون حد بد الاصفاد ونقلوا الى جهنم بصلونها وبئس المهاد وانقلب المسلمون وقد ملؤا الاغماد نصرا والعصائب أجرا والايدى وترا والقلوب جذلا والالسنة شكرا وكان ذلك اليوم فى الايام علما وفى الاقسام قسما ولم يزل الزمان متوسما بالمه الاراجيع شبابا بعد أن ناهز هرما فى هذا الفصل شئ من معانى الشعر وذلك من قول أبى الطيب المتنبى :

اتاهم بأوسع من أرضهم • طوال السبيب قصار العسب

تغيب الشواهق فى جيشه • وتبدو صغارا اذا لم تغب

ولا تعبر الريح فى جوّه • اذا لم تخط القنا أو تثب

(ومن قوله أيضا)

في جحفل ستر العيون غباره * فكأنما يبصرن بالآذان

(ومن ذلك) ماذكرته في الانجاد واجابة الصريخ وهو اذا استصرخ أصرخ بعزم غذته صحبة الجيش عن لذة العيش فهو يستعذب حز الثغور على برد الثغور ويلهو بالبيض الذكور عن بيض الخدور ولا طيب عنده الارج العجاج ولا عناق الا أطراف الزجاج ولا أرب له في الرقاد الا على صهوات الجياد نعسكر قلبه أمضى في الوغى من عسكر ونجدة بأسه تأبى لقاء الاقران في درع أو مغفر وهذه المعاني مأخوذة من أبيات الحماسة ومن شعر مسلم بن الوليد (ومن ذلك) ماذكرته في وصف الخبير دون المنظر وهو اذا عرت لامر فكن واحدا في مكانك ولا ترض بكثرة الشركاء فيقال فلان من أقرانك ألم تر الى الحرباء الذي هو دويبة حقيرة الشان ضعيفة الاركان فانه ارتفع في هواء عن الارض وأنسها الى السماء وشمسها وقال لا أحب من تفسد الايام من حسنه ولا من أحد بسمة خاله ولا خده والهمم ليست منوطة ببهارة المناظر والتعويل على الخبر المستتر في الافئدة الباطنة لا على الظواهر ومن ههنا قيل ان وضاءة النفوس أنضر من وضاءة الاجساد ورقم الشيم أحسن من رقم الابراد وآخر هذا الفصل ينظر الى قول سحيم عبد بني الحسحاس

ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما * أو أسود اللون اني أبيض الخلق

الا أن الفصل يتضمن معنى غريبا لم يسبقني اليه أحد (ومن ذلك) ماذكرته في الحسد في فصل من كتاب وهو حاسد سيدنا ينظر الى زهرة دنياه ولا ينظر الى استحقاقه وهو كالناظر الى الاطواق الموضوعة في الجيد ولا يدري أن الجيد أحسن من أطواقه ولو قاس الدنيا بالاستحقاق لذهب الحسد من صدره وقال مالي أحسده ولم ينته قدر دنياه الى معشار قدره (ومن ذلك) ماذكرته في صدر كتاب يتضمن الاعتذار عن تواتر المكاتبات وهو اذا اعتذر من انقطاع الكتب اعتذر الخادم من اتصالها ولو كانت واردة على غير ذلك الباب الكريم لخاف من املالها وقد عدا احتمال تثقيلها من جملة الايادي التي أثقلته وأراد أن يجري معها بسوابق شكره فأعجلته وما أمهلته وهو الآن مرتهن بين قديم وجديد وأصبح كفراش اذ تكاثرت عليه الظباء فلم يدر

لكثرتم امابعد فان أسلك سيدنا من أياديه والاقلية ضل على الشكر بالاقتدار واعلم أن ذمة وفائه كذمة ديوان المال فى الاعمار هذا اتصل فى هذا المعنى قلما يوثق بمثله وفيه معنى واحد من قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش • فما يدرى خراش ما يصيد

(ومن ذلك) ما ذكرته فى استصلاح مودة فقلت كنت عنده بالمنزلة التى آمن بها ما أجنيه فصرت أخاف ما لم أجنه وكان لا يقبل على شهادة عينه فأصبح الآن يقبل على شهادة أذنه لكن لم يجعل الله القلوب بين اصبعين من أصابعه الا ليذهب بها كل واد ومن ههنا كانت تنتقل من وداد الى قلى ومن قلى الى وداد ولا شك أن لها بين الحالتين عمرا تنتهى اليه كما تنتهى أعمار الاجساد والصبر خير ما استعمل فى جفاء الاخوان والماء اذا جرى فى مكان ثم انحرف عنه فلا بد أن يعود الى ذلك المكان وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومى

عهدتك لا تعتد بالعين شاهدا • على فلم أصبحت تعتد بالاذن

(ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى بعض الملوك على يد بعض العفاة وهو الشيم الكريمة للانسان بمنزلة المسك فى سرر الغزلان غير أن طيب هذه يعبق بالانوف وطيب هذه يعبق بالآذان وقد جعل تفاوت المزية بين هذين الطيبين فرقا فأحدهما يبقى دائما ولا يذهب والآخر يذهب ولا يبقى ونصيب مولانا من الطيب الباقى نصيب زكت معادنه وكثرت خزائنه وسارت فى الارض محاسنه ورفعه الله به الى محل يبعد شأوه على الطالب ولا يرى الا فى لسان شاعر أو لسان خاطب وهو مما استثنى من خلق الناس الذى هو من طين لازب ومن أجل ذلك يرون أشباها ما عداه وما منهم الا من يقر بفضله ولو كان من حساده أو عداه وقد أصبحوا وهم يقلبون لديه عين يكثرون ويقول كل منهم لصاحبه أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون هذا الفصل وان تضمن شيأ من القرآن الكريم فليس المراد ههنا القرآن الكريم بل منه شئ مأخوذ من الشعر وهو قول المتنبى

الناس ما لم يروك أشباه • والدهر لفظ وأنت معناه

(ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف الخمر وهو الخمر التى لذا اسكارها بتنغيص خمارها فهى شرقا البيان بديعة اللسان وتأنيها لك أنها من ناقمات العقول

والاديان وقد عرف منها سنة الجور فى أحكامها ولولا ذلك لما استأثرت من الرؤس بجناية اقدامها وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف لانه قال

ذكرت حقائدها القديمة اذ غدت * وهنا تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا فتحكمت * فيهم فنادت فيهم بالثار

وكذلك قلت فى وصفها أيضا وهو مدامة تنفى خواطر الهموم وتسرى مسرى الارواح فى الجسوم وتشهد بأن الكرم مشتقة من ماء الكروم وبمثل حبها غيره ما الانام ضلة والهداية نجوم وبعض هذا مأخوذ من قول أبى نواس

اذا هى حلت فى اللهاة من الفتى * دعى همه من صدره برحيل

ومازال الشعراء يتواردون على هذا المعنى حتى سبح الكس الذى ذكرته بعد هذا المعنى من محاسن المعانى فى وصفها وكذلك ما ذكرته فى وصفها وهو الدر كالعذراء فى نفورها وملازمة خدورها وانها تتحرمن نكاح المزاج وتغضب لمس الماء غضب الابكار لمس الازواج ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف اكليلا على راسها وكذلك شأن العرائس عند زفافها الى أعرامها وهذه المماثلة بين الخمر وبين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيرى وانما وصفت بانها بكر كقول أبى نواس

فقلت لشيخ منهم متكلم * له دين قسيس وفى نطقه كفر
أعندك بكر مرة الطعم قرقف * صنيعة دهقان تراخى له العمر
فقال عروس كان كسرى ربيبها * معتقة من دونها الباب والستر

(ووصفت) بالنكاح والزواج كقوله أيضا

وقهوة كالعقيق صافية * يطير من كأسها لها شرر
زوجتها الماء كى تذل له * فامتعضت حين مسها الذكر

(ومن ذلك) ماذكرته فى الحزم وهو لا ينبغى للعازم أن يساور المورد المؤذن بغصته وان أفضى الصدر الى رحيبه فان توقى الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه ولندع قول من يقعده على تل السلامة ثم يلبس الكاتب بالكاتب ويقول ليس للعزم الاتمام الصدور وليس له تمام العواقب بعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام

وركب كأطراف الاسنة عرسوا * على مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم أن يتم صدوره • وليس عليهم أن تتم عواقبه

(ومن ذلك) ماذكرته فى وصف الرأى والكيد وهو أخفى على العدو كيده حتى لم يدع كائدا وأعمى عليه سلوك الطريق حتى ظنه سائدا فسيوفه تسطو على بعدها ولا تقطع الا وهى فى غمدها وبعض هذا المعنى أخذته من شعر أبى تمام وهو

سكن الكيد فيهم ان من أعظم كيد أن لا يسمى أريبا

(وكذلك) قولى فى هذا المعنى وهو أخذ بسمع العدو وبصره وسد مطلع ورده وصدره فيداه مغلولة مع أنها مطلقة السراح ومقاتله بادية على أنها شاكية السلاح وهذا المعنى ينظر الى المعنى الذى قبله وكذلك قولى أيضا وهو يبيت برأيه العدو قبل جيشه ويلقاه بطيش قلبه الذى كل الحلم فى طيشه فاذا أظلمت وجوه الآراء كان رأيه لها مصباحا واذا جهزت الجحافل لحرب كان قلبه لها سلاحا وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البحترى

وهو المرء ما غزا بلدا بالرأى الا كفاه غزو الجنود

(ومن ذلك) ماذكرته فى وصف السير والركاب والخيل والقفار وما يتعلق بها (فمنه) ما يتعلق بالسير وهو وركب ظهر الليل يبارى صبحه به بسير أشبهه ويستقرب بعد المدى فى نيل مطلبه غير أن تلك تفرى أديم الغياهب وهذا يفرى أديم السباسب وهذا مأخوذ من قول المتنبى

يبارى نجوم القذف فى كل ليلة • نجوم له منهن ورد وأدهم

(ومن هذا المعنى) أيضا قولى وهو اتخذ الليل ظهرا واستلان خشونة السرى فلم يزل يقذف صبغة سواده بصبغة جواده حتى بدت فى أديم الليل شيات صباحه وشابه الادهم فى غرته وأوضاحه فعند ذلك أخذ أحدهما فى رحيله وأخذ الآخر فى نزوله وهذا المعنى ينظر الى الذى قبله وفيه من شرف الصنعة ما لا خفاء به (ومن ذلك) ماذكرته أيضا فى فصل من كتاب وهو سرت وتحتى نت قفرة لا يذهب السرى بجماحها ولا تستزيد الحادى من مراحها فهى طموح بأثناء الزمام واذا سارت بين الآكام قيل هذه واحدة من الآكام ولم تسم جسرة الا لأنها تقطع عرض الفلاة كما يقطع الجسر عرض الماء ولا سميت حرفا الا لأنها جاءت لمعنى فى العزائم لا لمعنى فى الافعال والاسماء وخلفها جنيب من الخيل يقبل بجذع ويدبر بصخره وينظر من عين جحظة ويسمع بأذن حشره

ويجرى مع الريح الزعزع فيذرها وقد ظهر فيها أثر القترة وما قد خلقها الا وهو يهتدى بها فى المسالك المضلة ويطأ على اثرها فيرقم وجوه البدور باشكال الاهلة هذا والليل قد ألقى جرانه فلم يبرح والكواكب قد ركدت فيه فلم تسبح وانا أود لو زاد طوله ولم تظهر غرة أدهمه ولا تحجيله فقد قيل انه أدنى للبعد واكتم للاسرار ودل عليه القول النبوى بأن الارض تطوى فيه ما لا تطوى فى النهار وما زلت أسير بريدها تنوء به حتى كاد ينضو لون السواد وظهر لون السرحان فأغار على سرح السماء كما يغير السرحان على سرح النقاد فعند ذلك نزلت العين من الكرى منزلة الطائر ولم يكن ذلك على ظهر الارض المطمئنة وانما كان على الظهر السائر فى هذا الفصل كل مليحة من المعانى ولو لم يكن فى هذا الكتاب سواه لكان كافيا وبعضه مأخوذ من الشعر كقول أبى تمام

طرح باثناء الزمام كأنما ... يخال بها من عدوها طيف جنة

وكقوله

بالشذقمات العتاق كأنما ... أشباحها بين الاكام اكام

(ومن ذلك) ما ذكرته فى النسب فى فصل من كتاب وهو اوم نسب لا تدخله لام التعريف وهو موضوع لا يجرى على سنن الترقيف فاذا ذكر أوله وقفت من عرفانه على طائل ووجدته مهملا فى جملة الهمل وان قيل انه من نجوم السماء فانه لكنه لا يخرج عن الثور أو الحمل فما أرهف لوصفه لسان الانباء ولا اقتدح له زناد خاطر الاكباء وهم منه كآوى الذى يرى الناس له ابناء ولا يرون لابنه آبا وهذا من أغرب ما يؤتى به فى ذم النسب وهو من باب توليد المعانى الذى يسمى الكيمياء وبعضه مستولد من قول أبى نواس فى هجاء الخصيب

وما خبره الا كآوى يرى ابنه ... ولم ير آوى فى حزون ولا سهل

فأبو نواس ذم خبر الخصيب فى عدم رؤيته وأنا نقلت ذلك الى النسب فجاء الطف وأحسن وأليق وأدخل فى باب الصنعة واذا حقق النظر فيما ذكره أبو نواس فى هذا المعنى لم يوجد مناسبا فان الخبر فى عدم رؤيته لا يحمل على ابن آوى وانما المناسبة تقع فى النسب من أجل ذكر الابن والاب (ومن ذلك) ما ذكرته فى ذم قوم وهو فصل من كتاب فقلت تركت قوما لم ينقعوا صدى ولم يجيروا الى مدى فأعراضهم نكرة العارف وأموالهم حنظلة الناقف لا تعارفهم

على كثرة مائها ولا تركوا الربيعة بأرضهم على غمائها وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر الشريف الرضي

تركت أناساً لم يهشوا المنة * ولم ينفعوا غلّ الظماء الطوامس
على القرب فيهم انني غير طامع * ومنك على بعد المدى غير آيس

ومن هذا الباب أيضا قولي وهو تركت قوما يسلون الحبيب ويقلون القريب ولا يرعون من رعاهم ولا يذرّ اللبن على مرعاهم فنوالهم تحايا واعراضهم ضحايا ومن أحسن صفاتهم أنهم يعاقبون على الطفشة ولا يرتاحون لمنة فالذرائع لديهم مدفونة والصنائع غير مصونة وبعض هذه المعاني مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي

رأيتكم لا يصون العرض جاركم * ولا يدرّ على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل * وحظ كل محب منكم ضغن

(ومن ذلك) ماذكرته على الحث على الاغتراب وهو لولا التغرب لما ارتقت بنات الاصداف الى شرف الاعناق ولا ارتقى تراب الاحجار الى نور الاحداق (وكذلك) قولي في هذا المعنى وهو في الانتقال تنويه لخامل الاقدار ولولا ذلك لم يكس الهلال حلة الابدار والمندل الرطب حطب في أوطانه والمسك دم في سرر غزلانه ولولا فراق السهم وتره لم يحظ بفضل الاصابة ولولا فراق الوشيج منبته لم يتحل بعز السنان ولا شرف الذؤابة وهذا الفصل فصل من القول في معناه ومعالم ينبش لخواطر ابتناء مبناه فمنه ما هو مأخوذ من الشعر ومنه ما سمح به الخاطر على غير مثال وهو يشهد لنفسه (ومن ذلك) ماذكرته في وصف الايام وهو أيام تعد بأعوام لقصر أعمارها وشهور لا يشعر بانصافها ولا سرارها فالاوقات بها أصائل والمحاسن فيها شمائل والمآرب في ساعاتها رياض في خمائل فما أدري أهي خيالات أحلام غرت أم أحاديث أمان مرت وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة

شهور ينقضين وما شعرنا * بانصاف لهن ولا سرار

(ومن ذلك) ماذكرته في وصف الاخوان وهو ليس الصديق من عد سقطات قرينه وجازاه بغثه وسمينه بل الصديق من ماشى أخاه على عرجه واستقام له على عوجه فذلك الذي ان رأى سيئة وطئها بالقدم وان رأى حسنة رفعها

على

على ألم وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا * عني وما سمعوا من صالح دفنوا

الا أن الذي ذكرته ضد هذا المعنى وقد يستخرج المعنى من ضده وهو أحسن مما يستخرج من نفسه (ومن هذا) قولي أيضا وهو ليس الصديق من صرّح الخلاف ودّه وغشّ في صفقة عهده بل الصديق من لا تزدد سلمه ودّه بإقالة ولا عيب ولا ينقص محافظة ثنائه بشهادة دون غيب فذلك أخي من غير نسب وكثيري من غير نشب وهذا مأخوذ من الفقه في تصرية ضرع الشاة عند البيع وذلك يوجب الرد (وربما) ينتظم بهذا السلك قولي وهو الانتقال عن خلة الوداد كالانتقال عن نسب الميلاد وكما يحرم هذا في نص الحكم المشروع فكذا يحرم هذا في خلق الكرم المطبوع على أن نسب الخلة الذي ينميه القلب الى القلب أوصل من نسب الرحم الذي ينميه الابن الى الأب ولهذا كانت مودة سلمان أقرب من نسب أبي لهب سباقا وبعض هذا مأخوذ من شعر أبي نواس وهو

كانت مودة سلمان له نسبا * ولم يكن بين نوح وابنه رحم

(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الديار وهو دار كانت مقاصر جنة فأصبحت وهي ملاعب جنة ولقد عفت أخبار قطانها وأنشاز أوطانها حتى شابهت أبدانها في الخفاء الأثرى في العفاء وكنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام ولا يرفع عنها جلباب ظلام غير أن السحاب بكاهم فجرت بها سوافح دموعه والليل شق عليهم ثوب قبائه والصباح من خلال صدوعه وهذه معان لطيفة جدا وبعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضي رحمه الله تعالى

أمرابع الغزلان غيرك البلى * حتى غدوت مرابع الغزلان

(وربما) يلتئم بهذا المعنى قولي أيضا وهو دار أصبحت مرابع أذواد بعد أن كانت مناجع روّاد فلو تصورت الآمال التي مثلت بفنائها كما تصورت الآثار الماثلة من بنائها لرأيت دموعها مع رسوم القباب وعلمت كم غادرها من بحر ونضب من سحاب وهذا معنى حسن له من نفسه مثن وحامد ومن سامعه يمين وشاهد وهو من معاني المستخرجة (ومن ذلك) قولي أيضا وهو النقص موكل بكمال النعماء ولذلك كان الوشم مقترنا بالمرعى والماء وقلما ترى غرة الا ومعها تزبيد ولا لذة الا والى جانبها شيء منكد (وكذلك) قولي أيضا وهو لا ينفك الرجل

يطالبه شفعا ولا تؤتيه من كل جهة نفعا بل يرى مرعى بلا ماء وماء بلا مرعى ولذلك كانت الصلة مع الشهدة والشوكة مع الوردة وبعض هذه المعانى مأخوذ من قول أبى تمام

أرض بها عشب زال وليس بها • ماء وأخرى بها ماء ولا عشب

الا أن فى الكلام المنثور زيادة على ما تضمنه الشعر وكأنه يتطرق اليه تطرقا بعيدا ومن سبيل المتصدى لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيصير له مثل الاكسير فى صناعة الكيمياء ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة كما فعلت فى هذا الموضع فانى أخذت معنى هذا البيت من الشعر فاستخرجت منه ما ليس منه وهذا أعلى الدرجات فى نثر المعانى الشعرية وقد بسطت القول فى هذا الموضع وكشفت عن دقائقه فى الكتاب الذى وسمته بالوشى المرقوم فى حل المنظوم وهو كتاب مفرد لهذا الفن خاصة ومن هذا الضرب الذى هو الكيمياء فى توليد المعانى ما ذكرته فى وصف الربيع فقلت فصل الربيع هو أحد ميزانى عامه والمستقبل لسامه من حامه وقد وصف بأنه ميعاد نطق الاطيار وميلاد أجنة الازهار والذى تسترق به حواسها لالفة العقار فاذا سلت السحب فيه سيوفها كان ذلك للرضا لا للغضب واذا خلعت على الارض غلائلها الدكنا لبست منها ديباجة منسوجة بالذهب وهذا المعنى مستولد من قول أبى تمام فى وصف السحاب

سلبته الجنوب والدين والدنيا وصاف الحياة فى سلبه

الا أن فى الذى ذكرته معنيين غريبين اذا أمعن الناظر نظره فيهما (ومن ذلك) ما ذكرته فى لين القول واطالته وما يجرى مجراه كقولى فى فصل من كتاب وهو لم أعد عليه القول لانه لا يبلغ مدى ميدانه الا بتحريك سوطه وعنانه بل أخذا بأدب الله فى أذكار القرآن واتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى تثويب الاذان وبعض هذا مأخوذ من شعر أبى تمام

لو رأينا التأكيد خطة عجز • ما شفعنا الاذان بالتثويب

(وكذلك) قولى أيضا وهو وقد علم أن لين القول أنجح قبولا وهو من أدب كليم الله اذ بعثه الى فرعون رسولا ألا ترى أن الحدا يبلغ من المطايا بلطفه ما لا يبلغه السوط على عنقه وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبى تمام

وشذهم بالرقراقات المهارى * تمجها على السير الحداء

(ومن ذلك) ماذكرته في ذم الدنيا وهو أنكاد الحياة مشوبة بالاشياء التي جبلت النفوس على حبها وكل ماتستلذه الابدان من ماكلها فانه يضرها من جهة طبها ولهذا يذم من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الانسان بشيء من لذاتها الا ضره من جهة ثوابه وهو كالذي ينتفع باصطلاء النار وهي محرقة لأثوابه وقد ضرب لذلك مثل من الامثال وقيل ان كل ماينفع الكبد مضر بالطحال وهذا مأخوذ من الامثال العربية والمولدة (ومن ذلك) ماذكرته في الزهد وهو الناس في الدنيا أبناء الساعة الراهنة وكأن النفوس ليست فيها بقاطنة فكذلك الاحوال ليست بقاطنة ولهذا كانت الملمات بها كالاعراس يتفرق بعد جمعها فهذه تنسي مامضى من لذة سرورها وهذه تنسي مامضى من ألم فجعها ولا شبيه لها على ذلك الا الاحلام التي لا تبقى خيالها الا قليلا وتجعل اليقظة حقها باطلا وما ينبغي حينئذ أن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة وكل ماتراه العين منها ثم يذهب فكأنما لم تره وغاية مطلوب الانسان منها أن يمد له في مدة عمره ويملي له في امتداد كثره أما تعميره فيعترضه المشيب الذي هو عدم في وجود وهو أخو الموت في كل شيء الا في سكنى اللحود فالجوارح التي يدرك بها الشهوات ترى وكل منها قد تحول وأصبح كالطلل الدارس الذي ليس عنده من معول فلا الليل بليل ولا النهار بالنهار ولا الاسماع أسماع ولا الابصار أبصار وأما ماله فان أمسكه فهو عرضة لوارث يأكله أو لحادث يستأصله وان أنفقه كان عليه في الحلال حسابا وفي الحرام عقابا فهذه زهرة الدنيا الناضرة وهذه عقباها الخاسرة وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر صالح بن عبد القدوس

واذا الجنازة والعروس تلاقيا * ألفيت جمعا كله يتفرق

ومن قول أبي العتاهية

انما أنت طول عمرك ماعمرت في الساعة التي أنت فيها

(ومن ذلك) ماذكرته في فصل من كتاب يتضمن تعزية وهو كيف يظلم ذلك اللحد وبه من أعمال ساكنه أنوار أم كيف يجدب به من فيض يمينه تصابه مدرار أم كيف توحش أقطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الاقطار أم كيف يعقبه

طول العهد على زواره وطيب ترابه هاد للزوار وما أعلم ما أقوله فى هذا الخطب الجليل الذى دق فيه الحزن الجليل وسمحت له النفوس بالفدية على حب الحياة وذلك من الفداء القليل وقد قيل انه لم يعلق الدمع الا انذارا بأن نوائب الزمان ستنوب وقد جعله الله ذخرا للقائها واعدّه ذخر السلاح للقاء الحروب والذى ذخرته منه لم يغن عنى فى هذه النائبة وأى جنة تقوم فى وجه سهامها الصائبة لاجرم أنى أصبحت بين يديها هدفا للرماء ولم يبق منى الا الذماء الحشاشة ومن العجب بقاء الذماء وشئ من هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومى

لم يخلق الدمع لامرئ عبثا ٭ الله أدرى بلوعة الحزن

(وكذلك) ذكرت فصلا فى كتاب آخر يتضمن تعزية وهو فيا ويح أيد أسلته الى الثرى وما كان يسلمها الى الاعدام وألبسته ظلمة اللحد وطالما بسلاحها غيابة الظلم والاظلام وغادرته وحده مستوحشا وقد كان يؤنسها بنوال الانعام ومثله لا يوارى القبر منه الا صورة يدركها النفاد ونبلى كما يبلى غيرها من الاجساد ولكنه لا يستطيع مواراة الذكر الخالد الذى يذهب بشمائه الحساد ويتمثل فى السماء بصورة الكواكب وفى الارض بصورة الاطواد وبعض هذا مأخوذ من قول بعض شعراء الحماسة

فان تدفنوا البكرى لا تدفنوا اسمه ٭ ولا تدفنوا معروفه فى القبائل

(ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كلام بالفصاحة وهو فصل من كتاب فقلت وله البيان الذى يفضى منه نسق الفريد ولا يعلق نضرة لباسه الجديد وهو فوق كلام المجيد ودون القرآن المجيد واذا اختصر واصفه قال انه يستميل مع الطروب ويستخف وقار القلوب ويمثل آيات يجاء بها من غير ضم الى الجيوب ويرى فى الارض غير لاغب اذا مس غيره فترة اللغوب ولا تزال الناس فى عشق معانيه ضربا واحدا والعاشقون ضروب ولما وقفت عليه قلت سبحان من أعطى سيدنا ما لم يحتل وخصه بنبوة البيان الا انه لم يرسل ولولا أن الوحى قد سد بابه لقيل هذا كتاب منزل ولقد غار الله لا ولى الفصاحة اذ لم يجيئوا الى عصره ولم يتلوا فيه يداه الحسد الذى يصليهم سموم هجره ولئن سالوا من ذلك فما سالت أقوالهم من أقواله التى عيت محاور المداد وقد كانت باقية بعدهم قبلا أنى صارت كما صاروا الى الالحاد فى هذا الفصل شئ من المعانى

الشعرية كقول البحترى

مستقبل ربع الطروب المعنى ◦ عن أغانى معبد وعقيد

وقول الشريف الرضى رحمه الله

عشقت ومالى يعلم الله حاجة ◦ سوى نظرى والعاشقون ضروب

وفيه أيضا شئ من معانى القرآن الكريم الا أنها ابيات ضمنا وتمادة وضعها يأتى بعد الابيات الشعرية (وكذلك) ذكرت فصلا آخر من هذا الاسلوب وهو وان للكلام طعما يعرف مذاقه من بين الكلام وخفة الارواح معلومة من بين ثقل الاجسام فلولم نعرفه بطعمه عرفناه بوسمه والصباح لا يتمارى فى اسفاره ولا يفتقر الى دليل على اشراق أنواره وقد علم أن العرق يعرف بغصنه وأن القول يعرف بلحنه ونفائس هذه العقود لا يبرزها الا أنفاسه فدررها القلق وسلوكها قرطاسه (ومن) هذا الباب قولى أيضا وهو ألفاظ كدقق البنود أو زرار الاسود ومعان تدل بارهافها أنها هى السيوف وان قلوا عتها هى الغمود فضالها المتأمل حومة طعان أو حلبة رهان وبعض هذا مأخوذ من شعر البحترى

يفطان ينتقب الكلام كأنه ◦ جيش لديه يريد أن يلقى به

(ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى بعض الاخوان من أهل الكتابة كان اعتدى عليه شخص يدعى الكتابة وليس من أهلها فقلت وقد يغلط بسيد ناقلها الخط اللذان نسب أحدهما الى المداد وينسب الآخر الى الصعاد فهو يدير هذا فى معركة القتال وهذا فى معركة الطراد ولرعاميل أحد قلبه من فوق صفحات الدروج كما تصول الجياد من تحت أعواد السروج فله احتفال المواطن والمجالس واليه غناء أصحاب العمائم والقلانس لاكن لا يجاوز همه طرفى ردائه واذا نودى لفضيلة قبل انا يسمع الحلى بنداءه وكم فى الناس من صور لا تجد لمعناها أثرا واذا رأيتها قلت أرى خالا ولا أرى مطرا وأى جمال عند من ليس له الاجمال ثيابه وهل ينفع السيف الكهام أن يجعل من الذهب حلية قرابه وكل من هؤلاء ذنب يسمى بغير رأس ولا له هم الا فى عيشة الطاعم الكاسى واذا اعتبر حاله وجد من البهائم وان كان منسوبا الى الناس والسيادة ليست فى وشى الثياب ولا فى طيب الطعام والشراب وانما هى فى شيئين اما شهامة تفرق لها قلوب العدو أو شهامة رع تفرق لها القلوب

الاسود وكأنى بقوم يسمعون هذا وكلهم يتعض امتعاض المغضب . وتتابع نفسه تتابع المتعب ويعترض الشجى فى حلقه حتى يغص من غير أن يشرب ولم يزل بالحساد من سيد ناداء يورثهم أرقا ويوسعهم شرقا وكثيرا ما تعرق له جباههم وكذا الميت تندى جبينه عرقا وما أرى لهؤلاء دواء الا أن يطرحوا عن مناكبهم ثقل المساجلة والحسداء غاية ما يكون بين يجرى مع صاحبه فى مضمار المماثلة وكنت أحب أن يقام على الكتابة محتسب حتى يتملس منها خلق كثير ونستريح جياد كثيرة من ركوب حمير وفى مثل هذا السوق يظهر أهل الخلابة والغش ومامنهم الا من هو فى الحضيض الاسفل وقد أجلس نفسه قائمة العرش ونار الاكة العمرية تميز خالص النقود من زيفها ولا حيف فى هذا المقام على من أسرفت دعواه الكاذبة فى حقها وبعض هذا الفصل مأخوذ من شعر عبد السلام بن رغبان عرف بديك الجن

ترجى به الغلمان الا أن ذا * لدن المجس وأن ذا بك عروب

عردان يقضب ذا الطلى بلعابه * ويجوب ذا المهجات بالتركيب

ويكفيك أيها المتوشح لنثر الشعر أن تنظر الى هذا الفصل وتتأمل الموضع الذى أخذت معنى هذين البيتين ووضعته فيه فان فيه غنا ومقنعا (وأما) حل آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعانى الشعرية لان ألفاظه ينبغى أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها الا أنه لا ينبغى أن يؤخذ لفظ الآية بجملته فان ذلك من باب التضمين وانما يؤخذ بعضه فاما أن يجعل أولا للكلام أو آخرا على حسب ما يقتضيه موضعه وكذلك تفعل بالاخبار النبوية على أنه قد يؤخذ معنى الآية والخبر فيكسى ألفاظا غير لفظه وليس لذلك من الحسن ما للقسم الاول الفائدة التى أشرنا اليها وقد سلكت فى ذلك طريقا اخترعتها وكنت أبا بن عذرتها وعند تأمل ما أوردته منها فى هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحة دعاوى ولئن كان من تقدمنى أتى بشئ من ذلك فانى ركبت فيه جوادا وركب جملا ونال من مورده نهلة واحدة ونلت منه نهلا وعللا ومن آتاه الله فى القرآن بصيرة فانه يسلك ألفاظه ومعانيه فى كلامه ويستغنى به عن غيره الا أنه ينبغى أن يكون فيه صوّاغا يخرج منه ضروب المصوغات أو صرّافا ينتهى فى نقوده المختلفة من الذهب المختلف الالوان ولا أقول من الفضة فانه ليس فيه من الفضة شئ وهو أعلى من ذلك أو يكون فيه

تاجرا يديره على يده ويتصرف فى أرباحه ويخرج من الامتعة المجلوبة من مناجمه
كل غريبة عجيبة وكل هذا يفهمه من عرف فلزم وحكم بما علم

وما كل من قال القريض بشاعر * ولا كل من عاف الهوى بتيم

(واعلم) أن المتصدى لحل معانى القرآن يحتاج الى كثرة الدرس فانه كلما ادام على
درسه ظهر من معانيه مالم يظهر من قبل وهذا شئ جربته وخبرته فانى كنت آخذ
سورة من السور وأتلوها وكلما مرّ بى معنى أثبته فى ورقة مفردة حتى أنتهى الى
آخرها ثم آخذ فى حل تلك المعانى التى أثبتها واحدا بعد واحد ولا أقنع بذلك حتى
أعاود تلاوة تلك السورة وأفعل مثل ما فعلته أولا وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة
ظهر لى فى كل مرة من المعانى مالم يظهر فى المرة التى قبلها وسأورد فى هذا الموضع
سورة من السور ثم أردفها بآيات أخرى من سور متفرقة حتى يتبين لك أيها المتعلم
ما فعلته فتحذو حذوه وقد بدأت بالسورة أولا وهى سورة يوسف عليه السلام
لانها قصة مفردة برأسها وفيها معان كثيرة * فالاول ماذكرته فى دعاء كتاب من
الكتب وهو وصل كتاب الحضرة السامية أحسن الله أثرها وأعلا خطرها
ونفى من العداء وطرها وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها وأسعد لها
كواكب السيادة وشمسها وقمرها وهذا أول معنى فى السورة وقد نقلته عن قصة
المنام الى الدعاء ثم أبرزت هذا المعنى فى صورة أخرى وهو أكرم النعم ما كان فيها
ذكرى للعابدين وتقدمه انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى
ساجدين فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير وتجلو ظلمة الخطب بالصباح
المنير فانظر الى أثر رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو
على كل شئ قدير ثم تصرفت فى هذا المعنى فأخرجته فى معرض آخر وهو فصل من
جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء فقلت وقد علمه أمير المؤمنين
فأدنى مجلسه من سمائه وآنسه على وحدة الانفراد بحفل نعمائه ورفعه حتى
ودت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من ندمائه وذلك مقام لا تستطيع
الحدود أن ترقى الى رتبته ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ولا الشفاه
أن تتشرف بتقبيل تربته فليزدد إعجابا بما تسمه مواطئ أقدامه ولينظر الى
سجود الكواكب له فى يقظته لا فى منامه (ومن ذلك) ما ذكرته فى ذم بخيل وهو
لم أركراهب الان ملأت أملى بطمع وعودها وفرغت يدى من نيل جودها

فلم أسعد الا بالدمع سرابيا. وكانت كدم القميص في صدق كذابها (ومن ذلك)
ما ذكرته في تزكية انسان عما رمي به وهو لم ترم بذنب الا نابت البراءة مناب
الشهود وبريء من أهلها بشهادة القميص المقدود (ومن ذلك) ما ذكرته
في عذر الهوى وهو لم يبرح بها الا كان لأهل التقى فيه اسوة والايم من
أجله الاعتذار بعذر امرأة العزيز الى النسوة (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من
جواب كتاب الى بعض الاخوان وهو ان كان الكلام كان لي ذكرا والجواب أتى
بخرابي هذا عروس تجلى في حلل الصبر وعقودها المنذرة وترجى بما آتاها الله
من الحسن الذي ليس بالمجلوب ولا ترضى بتقطيع الايدي دون تقطيع القلوب
وما قد أوصلتها الى سيدنا حق بعلم أن سابح خاطري على الفطرة وانما معترفة
الصورة كل الناس في هواها بنو عذرة في هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوي
والبيت من الشعر (ومن ذلك) ما ذكرت في تقلب الايام وهو لقينا أياما ضاحكات
وليتها أياما عابسات - فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات (ومن ذلك)
ما ذكرته في وصف كريم وهو ليس ممن يرقب جدب الزمان فيذر الحب في سنبله
ولكنه يستأنف الصبر في آخره ويستهلك المال في أوله خلا يبقى من يومه لغده
ولا يتهم ربه فيما بيده (ومن ذلك) ما ذكرته في حب الرشوة وهو الرشوة تحل عقد
القلوب وتهون فراق المحبوب الا ترى أن رد البضاعة حكم على أخي يوسف
بالاضاعة (ومن ذلك) ما ذكرته في الاستسلام لحكم الاقدار وهو لا تعترض
من جنود الاقدار بالآراء المتعمقة وسواء عندها الباب الواحد والابواب
المتفرقة (ومن ذلك) ما ذكرته في تتابع الاساءة وهو لم يزل يرشق بعوارضه
حتى تكاثر النبل واستحكم النبل ولم يكفه الالقاء في غيابة الجب حتى قال
ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل (ومن ذلك) ما ذكرته في التوكل وهو اذا طلب
امرؤ الحيل في المطلوب ووكله الى الذي بيده مفاتح الغيوب وتأنى في حاجته
منه بالحاجة التي كانت في نفس يعقوب (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف النكد
وهو لم يأت امر الا أخنى أسباب أواخيه ويذابه بالاوعية قبل وعاء أخيه
وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام (وأما) الآيات التي هي
من سور متفرقة فأولها ما كتبته في صدر كتاب الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه
وهو ورد كتابه عشية يوم كذا فعرض على عرض الجياد على سليمان

وتساويا في الاشتغال منه ومنها بالاستحسان غير أن الجياد وان حسنت فانها لا تبلغ في الحسن مبلغ الكتاب لكن قلت كما قال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ولئن قضى الاشتغال هنالك بمسح سوق وأعناق فانه لم يقض ههنا بمسح سطور ولا أوراق وانما اشتغلت عن عبادة بعبادة ولو شئت لقلت عن افادة بافادة وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام في سورة ص وهي قوله تعالى ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والاعناق فانظر كيف أخذت هذه القصة وقابلت بينها وبين الكتاب ثم اني تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة والمخالفة بينهما أخرى وهكذا ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله (ومن ذلك) ما كتبته عن الملك الافضل علي بن يوسف الى الديوان العزيز النبوي ببغداد في فصل من كتاب وهو وقد علم أن المال الذي يختزن كالماء الذي يحتقن فكما أن هذا يأجن بتعطيل الايدي عن امتياح مشاربه فكذلك يأجن هذا بتعطيل الايدي عن امتياح مواهبه وأي فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تعلق به القلوب وتقل به المطلوب ويركب به ظهر العزم الذي ليس بمركوب ومن بسط اليد فيه ترقبها بالجهل فانه يقف دون الرجال مغمورا ويقعد عن نيل المعالي ملوما محسورا واذا أدركته منية مضى وكأنه لم يكن شيأ مذكورا ومذ ناط الله بيد الخادم ما ناطه من أمر بلاده لم يدخر منها الامر بط أشتره ومركز أميره وما عداها فانه مصروف الى قوة الاسلام في سد ثغوره وتكثير جنوده وايقاد حرب عدوه بعد خمودها واستباحة جمرها عند وقوده وما يفضل عن ذلك فانه للناس يشتركون في وشله وغمره والمسلم أخو المسلم يساويه في حقه من بيت المال وان خالفه في حزبه وقدره ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يدلس من هذا المال بتبعة المطلوب أو يلحق بالقوم الذين يكنزونه فيجزى عليه بكي الجباه والظهور والجنوب ولم يأت به الله على فترة من ملك الا ليمحو به سيآت الدين ، ويعيد به الاسلام الى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ترقها الدنيا في ديوانه وتثقل بها في الآخرة كفة ميزانه في هذا الفصل معنى آيتين احداهما في سورة هل أتى والاخرى

فى سورة براءة (ومن ذلك) ما كتبته عنه الى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب
من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل اليه وهو من شيمة الاقدار أن تذهب
بصائر ذوى الالباب وتمثل لهم الخطأ فى مثال الصواب ولولا ذلك لما زل الحكيم
واعوج المستقيم والمملوك يقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية
لازال عرفها مأمولا واحسانها عند الله مقبولا وفعلها فى المكرمات مبتدعا
اذا كان فعل الايادى متبوعا وتستغفر الى عفوها الذى يكتفى فيه بلفظة
الاعتذار ولا يتقدم مواظبة الاصرار ولو عرف ذنبه بادية الفرع لحسن الندامة
وعاد على نفسه بالملامة ولما كان عجيبا أن يكون ملوما وأن يكون مولانا
كريما لكنه حمل اصرة الذنب وهو برى من حملها وخاف أن تكون هذه
كأخواتها التى سلفت من قبلها والامور المتشابهة يقاس البعض منها على
البعض والملدوغ لا يستطيع أن يرى يجر حبلا على الارض ولم يعتزم المملوك
الآن جريمة سوى انه فر الى الاعتصام والتى يبده الى أقوام لم يكونوا له بأقوام
واذا ضاق على المرء أقربه كانت الابعد منه من ذوى الارحام وليس بأول من ذهب
هذا المذهب ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب ولئن قال بعض
الناس انه عجل فى اعتصامه وفراره وانه لو صبر لحمد مغبة اصطباره فهذا قول
من لم يعرف حال المملوك فيقيم له عذرا ولا ابتلى بما بلى به من قوارض مولانا
مرة بعد أخرى ولقد تكاثرت عليه هذه الاقوال المؤنبة حتى ملأت طرفه كحل
السهاد وجنبه شوك القتاد وأصبح وهو يرى أنه زل فى خطيئته زللا وغص
بندمه من أجلها شرقا وبدت له سوآته حتى طفق يخصف عليها ورقا ومع هذا
فانه وائق أن حلم مولانا لا يؤتى من الزلل وأن حصاة الذنوب لا تحف بوزن ذلك
الجبل وها هو قد جاء نازعا وللنازع المعتب وعاد مستشفعا ولا شفيع أكرم من
القرب ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب وفى الذى أوردته من هذا
الفصل معنى آية من القرآن فى سورة الاعراف وهى قوله تعالى فبدت لهما
سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (ومن ذلك) ما كتبته عن الملك
القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الديوان
العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسأل فى التقليد وكان عمره اذ ذاك عشر سنة
فما جاء فى صدر الكتاب بعد الدعاء قوله وهو اذا توفى ولى من أولياء الدولة فى

السنة أن يعزى بفقده ويخرج اذ نهاك سلبه القائم من بعده حتى لا تخلو
أرضها من رواسي الجبال ولا سماؤها من مطالع الكواكب التي تجلو ظلمة الليال
وقد مضى والده العبد الى رحمة الله وهو متزود من الطاعة خير زاد غير خائف
من احصاء الرقيب العتيد اذ جعلها من العتاد وما عليه وقد ثقلت كفة ميزانه
ما كان في الكفة الاخرى من السجلات الكثيرة الاعداد ومضمون وصيته التي
عهد بها أن تقتفى في الطاعة على اثره ويهتدى بالاوامر الشريفة في مورد الامر
ومصدره وقد جعلها الصدقى ذكره اذا قام واذا قعد وسجعة صلاته اذا ركع
واذا سجد وهو يرى أنه لم يمض والده حتى أبقى الدولة من يثبت قدمه موضع قدمه
ومنذ ذلك يقال ان غصن الشجرة كالشجرة في ثبات أصله وقوة منعه وهذا
مقام لا تقاس فيه الآباء عن الابناء وليست المزية لاكتهال السن انما هي لشيبة
الغناء وقد أوتي يحيى الحكم قبل أن يجرى القلم في كتابه وشهد له بالتزكية قبل
أن ينتصب في محرابه وكذلك قد أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة على
حداثة عمره وشهد أنه خليق بما أسند اليه من أمره. والعبد وان بسط الاستحقاق
لسانه فان الادب يحكم بانقباضه ويرى أن التفويض الى انعام الديوان العزيز
أسرع في نجح أغراضه ولا شك أن منتهى الآمال لا يبلغ أدنى تلك المواهب
ولو جمعت في صعيد واحد ثم سألت مطالبها لما نقصت خزائن العطايا من تلك
المطالب وهذا الفصل من أول الكتاب وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها
السلام أما الاولى فقوله تعالى عند ذكر يحيى عليه السلام وآتيناه الحكم صبيا
وأما الثانية فقوله تعالى وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وفي هذا الفصل أيضا
معان ثلاثة من الاخبار النبوية وليس هذا موضعها وانما جاءت ضمنا وتبعا
(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الغبار في الحرب وهو وعقد العجاج سقفا فانعقد
وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد وزينت
بنجوم الصعاد فمنها ما يوعد من المنايا لا بما يوعد من الارزاق ومنها تقذف
شياطين الحرب لا شياطين الاستراق وهذه المعاني مأخوذة من سورة الرعد
وسورة الصافات وسورة الذاريات (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف طعام وهو فصل
من كتاب فقلت طعام لا عيب فيه اذا شينت الاطعمة بعللها وكأنما نزلت به يد الملائكة ولم
تباشره الايدي بعملها فهو من بقايا المائدة التي نزلت من السماء وقد طاب

حتى لا يحتاج من بعده الى استعمال الماء وما رآه ذو شبع الا رأى تركه غبنا رو ولو زيد الى بطنه بطنا وبعض هذا مأخوذ من سورة المائدة (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة وهو محمد تكاثرت وسائل الخادم حتى لا يدرى ما يجعله لطلابه سفيرا ومامنها الا ماية الى انه أول وليس فيها ما يجعل اخيرا غير أنه لا يذكر منها الا ما هو توأم إيمانه والذى لا يتطرق اليه من ابن آدم الا الى مكانه وفى ذلك كاف عن الوسائل التليدة والطريفة وقول لا اله الا الله لا يعدله شئ من الحسنات المودعة فى الصحيفة وقد تجدد الآن للخادم مطلب هو بالنسبة الى مواهب الديوان العزيز يسير ولو قامت مطالب الناس فى صعيد واحد لأعطى كلا منهم امر امه ولم ينقل ذلك كثير وكتابه هذا سائر الى تلك المواهب التى يضيق عنها صدر الارض باتساعه وليس الذى يسأله عنها بأثقال على النظار الى الجبل فى امتناعه وكما أن عبيد الديوان العزيز أطوار فكذلك مطالبهم أطوار وقد جعل الله الاشيا متفاوتة فى مراتبها وكل شئ عنده بمقدار وهذا الفصل من أحسن ما يكتب فى استنجاز مطلوب وفيه معان ثلاثة أخبار نبوية ومعنى آيتين من القرآن الكريم وليس هذا موضع الاخبار وانما بادة ضمنا وتماما فالآية الاولى فى سورة الاعراف والآية الثانية فى سورة الرعد (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كاتب وهو اذا ديال قلمه وطلعت فيه نجوم كلمه لم يقعد لها شيطان بلاغة مقعدا الا وجدله شهابا مرصدا فاسرارها مصونة عن كل خاطف مطوية عن كل قائف وهذا المعنى مأخوذ من سورة الجن (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كاتب أيضا فقلت له بنت فكر ما تمخضت بمعنى الا اتته من غير ما تم حمله وأتت به قومها تحمله ولم يعرض على ملا من البلغاء الا ألقوا أقلامهم أيهم يستعيره لا أيهم يكفله فى هذين السطرين آيتان من القرآن الكريم الاولى فى سورة مريم وقصتها وقصة ولدها عليهما السلام وهى قوله تعالى فأتت به قومها تحمله والثانية فى سورة آل عمران فى قوله اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن وصف القلم فقلت وقد أوحى الله تعالى الى قلمه ما أوحاه الى النحل فيراتها تاوى الى المكان الوعر وهو يأوى الى البيان السهل ومن شأنه أن يجنى من ثمرات ذات أرواح لا ذات أكمام ويخرج من نفثاته شراب مختلف طعمه فيه شفاء للافهام

وأين ما تنبته كنانة الكتب مما تنبته لطافة المعنى ولا تستوي نضارة هذا الثمر
وهذا الثمر ولا طيب هذا الجنى وهذا الجنى وقد أرخص الله ما يكثر وجوده
فيذهب في لهوات الأفواه وأغلى ما يعز وجوده فيبقى ثناؤه على ألسنة الرواة
وكل هذه الأوصاف لا تصح إلا في المسند الذي إذا شاء لا يضاطره امتلأت
جديته الخاطر وإذا أملاه كاتبه وجدت الكتب السالفة من قبله وهي عوامل
له حينئذ أن ينظر إلى غيره بعين الاستقصار ولو اصفه أن يسهب وهو قائم مقام
الاختصار هذا الفصل غريب عجيب وقد جمع بين الأضداد فناله بعيد وقطفه
قريب وهو مأخوذ من سورة النمل (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم بخيل وهو
له شيمة في الجود لا يسلم تابعها وإذا هزها سائلها قال إنها كلمة هو قائلها
وهذا مأخوذ من سورة المؤمنين (ومن ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب وهو
وصل كتابه فوقفت منه على اللفظ الرشيق والمعنى الذي هو في كل واد يهيم وقال
يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ثم أشهد في أملاء الدره ونثره ذكره ولم
يستنفد الملأ في الأذهان لأمره ولا اهتدى في قباله سوى هديه لسانه وصدره
لا جرم أنها تقبل ولا ترد وتعتقد ولا تنقد فإنها أمثال لا ينقده الاتفاق وجوهر
تتصل به الأخلاق لا الأعناق وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام
في كتابه إلى بلقيس وهي مذكورة في سورة النمل وفي هذا من شرف الصنعة أنه
خولف بين معانيه ومعاني ما أتى به القرآن الكريم (ومن ذلك) ما ذكرته في صدر
كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار وهو إذا خطب القلم من الرمح
الذي هو نديده قام مختفلا وأسهب متروياً ومرتجلا حتى يأتي في خطابته
بالمعاني الأثائر وأصدق القول ما صدر عن شهادة الضمائر والضرائر وكاتبنا
هذا يصف معركة اجترت ضبابتها وضاقت بالأسود غاباتها فالطعن بها مشتجر
والموت محتضر والنصر من كلا الفريقين مقتسر وكان الإسلام هنالك زبر
السنيح وذو القدح المنيح وليس الذي يرتقب المعونة من الله الذي هو رب المسيح
كمن يرقبها من المسيح ولقد نفذت الرماح في أعداء الله تعالى حتى اعتدلت من
جانبي الصدور والظهور وتركت الناجي منهم وهو لا ينظر إلى الطلب إلا نظر
الخائف المذعور فليس لهم من بعدها جيش يجمع ولا لواء يرفع وقد كانت
بلادهم من قبل مانعة وهي الآن لا تذب عنها ولا تمنع وهذه معركة قلت بها

الرقاب المأسورة وكثرت النفوس المقتولة وقربت بها القرابين التي تأكلها النار لا لأنها مقبولة ومعنى الآية في هذا الفصل مأخوذ من سورة آل عمران الأنها تخالفه وذلك أن القربان كان يقبل فتنزل النار تأكله واجساد هؤلاء الكفار قربان تأكله النار لكنها لا تأكله لانه مقبول وباقي الفصل يتضمن معنى حسنا رقيقا (ومن ذلك) ماذكرته في فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خلق بعض الاخوان وهو ولقد صبرت على اخلاقه العائثة وعاملته بالخليقة الرائثة وعالجته بضروب المعالجات فلم تنفع فيه رقى الراقية ولا نفث النافثة ولما اعيا على اصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة وهذا مأخوذ من قصة موسى عليه السلام وقصة الخضر في سورة الكهف (ومن ذلك) ماذكرته في فصل من كتاب وهو فجميعهم في نار الندم يعرضون عليها غدوا وعشيا وصار الامر الذى كانوا يرجونه مخشيا واضحوا كأهل النار الذين صاروا اعداء وكانوا شيعا وقال ضعفاؤهم للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا وهذا مأخوذ من سورة حم المؤمن ومن سورة سبا (ومن ذلك) ماذكرته في ذم غلام ابله كنت اعامي من بلهه تكدا فكتبت يوما من الايام الى بعض اخوانى كتابا وعرضت فيه بذكره فقلت ولقد ملكه النسيان حتى كأنه يقظ في صورة نائم وحتى حقق قول التناسخ في نقل أرواح الاناسي الى البهائم فما أرسل في حاجة الا ذهبت من قلبه عنه ولا طلب منه ما استحفظه الا قال ارأيت اذ أوينا الى الصخرة وهذا فصل يشتمل على عدة معان منها ما هو مأخوذ من القرآن الكريم من سورة الكهف (ومن ذلك) ماذكرته في تقليد قاض وهو فصل منه نقلت والفضائل ما بقيت موجودة ولم تفتقد وهى جسمة وان أودى أربابها ولا يرث من لم يولد ومن اكرم ما أوتيه منها فضيلة التقوى التي الكرم من شعارها والعاقبة والحسنى كلاهما من آثارها وما قول الا انه اتخذها حارسا يمنع الحمم من نسور محرابه ويؤمن قلبه من الفتنة الداعية الى استغفاره ومتابه وقد قرن الله له هذه القضية بالعلم الذى أعلاه بعلامته ووسمه بوسامته وقذف في روعه مالا يسأل معه عن السفينة وخرقها والغلام وقتله والجدار واقامته وعلى ما بلغه منه فانه فيه أحد المفهومين الذين لا يشبعان واذا كان لغيره فيه نظر واحد ومسموع فله فيه نظران ومسمعان في هذا الفصل المختصر معانى عدة آيات وخبر

من

من الاخبار النبوية أما الآية الاولى فقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وأما الآية الثانية فقوله تعالى والعاقبة للتقوى وأما الثالثة فقوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب وأما الآية الرابعة فقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها وكذلك الى آخر القصة وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء فقلت بعد الابتداء بصدر الكتاب وقد علم منه أنه يعتد لطالب فضله فضلا ويرى التبرع بمعروفه فرضا اذا رآه غيره مع المسألة تفضلا وما ذاك الا لمزية خلق توحد بطيب التربة وشرف الرتبة وأوتي من كنوز الكرم ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة ولهذا خرج على قومه من الاخلاق في زينته وفضل الخلق بطينة غير طينته ومن فضله أنه يسأل عن السائلين ويحتال في استنباط أمل الآملين ثم مضيت على هذا النهج حتى انهيت الكتاب والغرض أن تعلم أيها المتعلم كيف تصنع بذلك في اخذ ما تأخذه من بعض الآية ثم تضيف اليه كلاما من عندك وتجعله مسجوعا كما قد فعلت أنا في هذا الموضع ألا ترى أني أخذت بعض هذه الآية في قصة من سورة القصص وهي قوله تعالى ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين فهذه الآية أخذت بعضها وأضفت اليه كلاما من عندي حتى جاء كما تراه مسجوعا وكذلك فعلت بالآية الاخرى من هذه السورة أيضا وهي قوله فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وهذا ينبغي لك إذا أردت أن تسلك هذه الطريق وقدرت على سلوكها وهي من محاسن الصناعة البلاغية وليس فوقها من الكلام ما هو أعلى درجة منها لانها ممزوجة بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به والله يختص به من يشاء من عباده وفيما ذكرته من هذه الآيات كفاية للمتعلم (وأما) الاخبار النبوية فكالقرآن العزيز في حل معانيها (فان قلت) ان الاخبار النبوية لا يجري فيها الامر مجرى القرآن اذ القرآن له حاصر وضابط وكل آياته تدخل في الاستعمال كما قال بعضهم لو ضاع مني عقال لوجدته في القرآن الكريم وأما الاخبار فليست كذلك لانها كثيرة لا تنحصر ولو انحصرت لكان منها ما يدخل في الاستعمال ومنها ما لا يدخل ولا بد من بيان ما يتمكن

الاحاطة به والوقوف عنده (قلت) في الجواب عن هذا ان أول ما تحفظه من
الاخبار هو كتاب الشهاب فانه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لانه يتضمن
حكما وآدابا فاذا حفظته وتدربت باستعماله كما أريتك ههنا حصل عندك قوة على
التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل وعند ذلك تتصفح كتاب
صحيح البخاري ومسلم والموطأ والترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وغيرها
من كتب الحديث وتأخذ ما تحتاج اليه وأهل مكة أخبر بشعابها والذي تأخذه
ان أمكن حفظه والدرس عليه فهو المراد لان ما لا تحفظه فلست منه على ثقة
وان كان لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ودواوين كثيرة من الشعر
وما ورد من الامثال السائرة وغير ذلك مما أشرنا اليه فعليك بمداومة المطالعة
للاخبار والاكثار من استعمالها في كلامك حتى ترقم على خاطرك فتكون اذا
احتجت منها الى شئ وجدته وسهل عليك أن تأتي به ارتجالا فتأمل ما أوردته
عليك واعمل به وكنت جردت من الاخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف
خبر كلها تدخل في الاستعمال وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين
فكنت انهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد
على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عني منه شئ وهذا الذي أوردته ههنا
في حل معاني الاخبار هو من هنالك وسأذكر ما دار بيني وبين بعض علماء الادب
في هذا الاسلوب الذي أنا بصدده ههنا وذاك أنه استوعره وأنكره وقال هذا
لا يتهيأ الا في الشئ اليسير من الاخبار النبوية فقلت لا بل يتهيأ في الاكثر منها
فقال قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اختصم اليه في جنين فقضى على
من أسقطه بغرة عبد أو أمة فأين يستعمل هذا فأفكرت فيه ثم أنشأت هذا
الفصل من الكلام وأودعته فيه قد كثر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان
جاهل وضرب المثل بباقل وكم في هذه الصور المثلة من باقل ولو عرف كل انسان
قدره لماشى بدن الاخفض رأسه ولا انتصب رأس الاعلى بدنه ولكان صاحب
العمامة بعمامته وصاحب الرسن أحق برسنه وكنت سمعت بكاتب من الكتاب
كلمه الى فتاة وقلمه بغنائه لا يستتر وأي بطش لغنائه واذا وجب الوضوء
على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سبل ثلاثة هذا وهو يدعي أنه
في الفصاحة أمة وحده ومن قس اياد وسحبان وائل عنده واذا كشف عن

ناظره وجد بليد الاضرج من العمه والكمه وان رام أن يستنبه فى حين من
الاحيان نفى عليه بغرة عبد أو أمة وكثيرا ما تقدم وتقيصته هذه على
الافاضل من العلماء وقد صار الناس الى زمان يعلو فيه حضيض الارض على
هام السماء فلما أوردته عليه ظهرت امارة الحسد على صفحات وجهه
وفلتات لسانه مع اعجابه به واستغرابه اياه ثم قال وقد ورد عن النبى صلى الله
عليه وسلم هذا الحديث وهو لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال فهذا
أين يستعمل من المكاتبات فترويت فى قوله ترويا يسيرا ثم قلت هذا يستعمل
فى كتاب الى ديوان الخلافة وأمليت عليه الكتاب فجاء هذا الحديث فى فصل
منه وهو اذا أفاض الخادم فى وصف ولائه نكصت همم الاولياء عن مقابه
وعلم أنه أخذ الامر بزمامه فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والايمان
فهذا يظهر أثره فى طاعة السر وهذا فى طاعة الاعلان وما عداهما فان دخوله
الى قلبه من الاشياء المحظورة والملائكة لا تدخل بيتا فيه تمثال ولا صورة
فليهن الديوان العزيز أنه سيف من سيوف الله يفرى بالمضارب ويسرى
بلا ساعد ولا يسل الا بيد حق ولا يغمد الا فى طى باطل وليعلم أنه كرشه
وعيبته فى تضمن الاسرار وأنه أحد سعديه اذا عدت مواقف الانصار فلما
رأى هذا الفصل بهت له وأعجب منه ثم انى لم أقنع بايراد ذلك الحديث حتى قرنت
به حديثا آخر وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم الانصار كرشى وعيبتى
وحيث عرفتك أيها المتعلم ما تقتدى به فى هذا الموضع فقد ذكرت لك أمثلة
كثيرة تتدرب بها (فمن ذلك) ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب وهو اعاذ الله
أيامه من الغير ومن بحار مجده نقص كل خطر وجعل ذكره زاد الكل ركب
وأنس الكل سمر ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر وهذا المعنى مأخوذ من الحديث فى وصف نعيم الجنة فنقلته الى الدعاء
(ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف الحلم وهو تركه حتى بال فى الميدان وامتد
فى الاشطان ولم استمر شرفا من قيام الالف وقعود الشيطان والحلم لا يظهر أثر
حله الا عند تلدده والكظيم هو أشد ما يخاف من تبدده وهذا المعنى أخذته من
قصة أبى بكر رضى الله عنه فى خصامه فانه بغى عليه ثلاث مرات وهو ساكت فى
الثالثة انتصر فقال النبى صلى الله عليه وسلم كان الملك جالسا الى جانب أبى بكر

يكذب خصمه بما يقول فلما انتصر قام الملك وقعد الشيطان (ومن ذلك) ما ذكرته
في النصرة على العدو في موطن القتال وهو أخذنا بسنة رسول الله صلى الله عليه
وسلم في النصر الذي نرجوه ونبذنا في وجه العدو كفا من التراب وقلنا شاهت
الوجوه فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا
وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حنين وما فعله رسول الله صلى
الله عليه وسلم في أخذه قبضة من التراب وإلقائها في وجوه الكفار وقوله شاهت
الوجوه والمعنى الآخر مأخوذ من حديث غزوة بدر وذاك أن رجلا من المسلمين
لاقى رجلا من الكفار وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتا قبل أن يصل إليه
وسمع الرجل المسلم صوتا من فوقه وهو يقول أقدم حيزوم فجاء إلى النبي صلى
الله عليه وسلم وأخبره فقال ذاك من مدد السماء الثالثة (ومن ذلك) ما ذكرته
في ضيق مجال الحرب وهو وضاق المضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع
البيض الذكور وتصافحت الغرر بالغرر والصدور بالصدور واستظل حينئذ
بالسيوف لاشتباك نصالها وتبوئت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلالها وهو
مأخوذ من الحديث النبوي وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم الجنة تحت
ظلال السيوف (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب أذم فيه الزمان فقلت
ولكنها الأيام تبدي لنا من جورها كل غريبة وتنسينا سآمة العبد المجدع
الذي كان رأسه زبيبة وليس لامرئ فيما يلقاه من أحداثها نعمى كانت أو بؤسى إلا
أن يكل الأمور إلى وليها فيقول حاج آدم موسى وهذا مأخوذ من الخبر النبوي
في قوله صلى الله عليه وسلم حاج آدم موسى فقال له موسى أنت أخرجت الناس
بخطيئتك من الجنة وأشقيتهم فقال له آدم أنت الذي اصطفاك الله تعالى برسالته
وكلامه أتلومني على أمر كتبه الله تعالى علي قبل أن يخلقني قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم فحج آدم موسى (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف بعض الكتاب وهو
فصل من كتاب كتبته إليه فقلت وقد سردت عليه أحاديث البلاغة فاستغنى
عن بسط ردائه وهدي إلى جوامع كلمها فاقتدى الناس باهتدائه فإذا اشتبهت
عنده مسالك طرقها لم يملكه سلطان الحيرة وإن أغرب في أساليبها لم يقل فيه
ما قيل في رواية أبي هريرة وهذا الفصل من أحسن ما يؤتى به في صناعة نثر المعاني
وهو مأخوذ من حديث أبي هريرة قال قلت يا رسول الله أسمع منك أشياء

ولا أستطيع اذ قال ابسط رداءك فبسطته فحدث حديثا كثيرا فما نسيت شيأ
حدثني به (وأما) رواية أبي هريرة فشك فيها قوم لكثرتها وقد اجتمع في هذا الفصل
معنى الحديث النبوي وغيره ومثل هذا الاقتنان له عند الوقوف عليه الامن تبحر
في الوقوف على الاخبار النبوية ومن أجل ذلك جعلته ركنا من أركان الكتابة
في الفصل السابع (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة فقلت
ومن صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينة يجوع لها ابن حزمكة ولا واء المدينة
الا انهما لم يأمن حرمها في النطفة ولا نقلت حماها الى الجحفة في هذه الكلمات
اقتصار آية من القرآن الكريم وخبران من الاخبار النبوية فالآية من سورة
العنكبوت وهي قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من
حولهم وهذا موضع يختص بالاخبار لا بالآيات غير أن الآية جاءت ضمنا وتبعا
وأما الخبران فالاول منهما قول النبي صلى الله عليه وسلم من صبر على حزمكة
ولأواء المدينة ضمنت له على الله الجنة وأما الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم
في دعائه للمدينة اللهم حببها الينا كما حببت الينا مكة وانقل حماها الى الجحفة
فانظر أيها المتأمل الى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها موصوفة من الآية
والخبرين سواء بسواء وهذا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على
في الاعتراف به اثنان (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان
جوابا عن كتاب ورد منه وكان كتابه تأخر عني زمانا طويلا فقلت ولما تأملته
ضممته الى والتزمته ثم استلمته والتثمته وعلمت أن المعارف وان تقدمت أيامها
الباب وشيجة وتأسيت بالخلق النبوي في العجوز التي كانت تأتي في زمن خديجة
وهذا مأخوذ من الخبر المنقول عن عائشة رضي الله عنها وهو أنها قالت كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يذبح الشاة فيقطعها اعضاء ويقسمها في أصدقاء
خديجة وكانت تأتيه عجوز فيكرمها ويبسط لها رداءه فسألته عن ذلك فقال
هذه كانت تأتينا في زمن خديجة وحسن العهد من الايمان (ومن ذلك) ما ذكرته
في وصف كتاب وهو كل سطر منه روضة غير أنها الدل في صباح وكل معنى منه
دمية غير أن ليس على مصورها من جناح وهذا مأخوذ من الحديث في تحريم
الصور (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف كريم وهو فأغنى بجوده اغناء المطر
وسما الى المعالي سمو الشمس وسار في منازلها سير القمر ونتج من ابكار

فما الله ما اذا ادعاه غيره قيل للعاهر الحجر وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم الولد للفراش وللعاهر الحجر (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف الفصاحة فقلت افكار الخواطر لا تتوالد في انفرادها وغايتها أن يتناكح في استنتاج أولادها وأنا أنكح فكري لفكري نكاح الانساب ولا أخاف أن أضوى فأميل الى الاغتراب وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم في الامر بنكاح البعيدة النسب فقال غربوا لا تضووا يريد بذلك أن الانسان اذا انكح المرأة القريبة اليه حصل بينهما حياء يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغي فيجيء الولد ضاويا أي هزيلا وهذا معنى غريب لي استخرجته من الحديث النبوي (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان جوابا من كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من شخص جرت بينه وبينه مخاصمة فقلت وصل كتابه وهو كتاب من أكثر الشكوى وطلب العدوى ونزل من التظلم بالعدوة الدنيا وأنزل خصمه بالعدوة القصوى والقاضي لا يحكم لاحد الخصمين حتى يحضر صاحبه وان فقئت عين أحدهما فربما فقئت عين الآخر وهو صاحبه على أنه قد اعترف أن كليهما كان للعم أخيه آكلا وعليه في حال حضره جاهلا وسباب المؤمن معدود من فسوقه والطراقه عن تورد هذا المقام أولى من طروقه ولولا تغلظ النكير لما جعل اللسان واليد سواء فيما جرحا ولما أخر الله المغفرة عن اثنين بينهما حتى يصطلحا فكن أنت من أطاع تقواه لا هواه واتبع من عدل الحق فرآه أو جمعه فرواه واعلم أن تهاجر الاخوين فوق الثلاث من منهيات الحرام وان الصائرنا الاجر منهما هو البادئ بالسلام ودفع السيئة بالحسنة يجعل العدو وليا حميما وقد جعل الله المخلق بهذا الخلق صابرا وجعل له حظا عظيما والشيطان انما يحوم على آثاره مواقع الشنآن ولا يعمد من اعمال بنيه شيأ الا ما زيل بين الاخوان في هذا الفصل معاني آيات وأخبار وهذا الموضع مختص بذكر الاخبار دون الآيات فأول المعاني المأخوذة من الاخبار قول النبي صلى الله عليه وسلم اذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له فربما أتى خصمه وقد فقئت عيناه وأما المعنى الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وأما المعنى الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم ان الاعمال تعرض على الله يوم الاثنين

ويوم الخميس فيغفر لكل امرئ لا يشرك بالله شيأ الا امرأ كانت بينه وبين أخيه
شحناء فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا وأما المعنى الرابع فقوله صلى الله عليه
وسلم لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث وأما المعنى الخامس فقول النبي
صلى الله عليه وسلم اذا التقى المتهاجران فأعرض هذا وأعرض هذا فخيرهما الذى
يبدأ بالسلام وأما المعنى السادس فقوله صلى الله عليه وسلم ان ابليس له عرش
على البحر فيبث بنيه فى آفاق الارض فيأتى أحدهم فيقول لمات كذا وفعلت كذا
فيقول ما ملت شيأ ويأتى أحدهم فيقول زيلت بينه وبين أخيه أو بينه وبين
زوجته فيقول نعم الولد أنت فانظر كم فى هذه الاسطر اليسيرة من معنى خبر نبوى
هذا سوى ما فيها من معانى الآيات واذا عددت هذه الكلمات المذكورة
فى هذه الاسطر وجدتها جميعها منتظمة من الآية والخبر وهذا مما يدلك على
الاستكثار من الحفوظ واستحضاره عند الحاجة اليه على الفور (ومن ذلك)
ما ذكرته فى صدر كتاب وهو جواب عن كتاب يتضمن تهديدا وتغير بشاقات
ورد الكتاب متضمنا من الوعد والوعيد ما آمن نفس المملوك وأوحشها ونقع
غلوه وأعطشها وأقام له من الظنون السيئة جنود اتقاتله وتأخذ عليه
شعب الافكار ولا تزايله وكانت كلماته طوالا وأوراقه ثقالا وما أقلت سطر
من سطوره الا كان الآخر له عقالا ولما استشكل الوقوف عليه ثقلت
أطوار الخوف والرجاء من أطواره وعرضت عليه الجنة والنار فى قرطاسه
كما عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عرض جداره ولولا وثوقه بأناة
مولانا لذهبت نفسه فرقا وابتغى فى السماء سلما أو فى الارض نفقا لكنه قد
توسم فى كرمه مخايل الصنع الوسيم وغره منه ما غره من ربه الكريم وعلم أن
خلق حلمه يغلب خلق غضبه اذ هذا سادت ذو الندم فى هذا الفصل معنى خبر
من الاخبار النبوية وهو أنه كان صلوات الله عليه يخطب فمال بيده الى الجدار
وقال عرضت على الجنة والنار فى عرض هذا الجدار فلم أر كاليوم فى الخير والشر
(ومن ذلك) ما ذكرته فى صدر كتاب الى بعض الاخوان وهو المخادم يواصل
بالدعاء الذى لا يزال لقلبه زميلا وللسانه رسيلا واذا رفع أدعيته الملائكة قربا
اذا تباعدت عن غيره سبلا ولا اعتداد بالدعاء الا اذا صدر عن أكرم مصدر
ووجد له فوق السماء مظهرا وان لم يكن هنالك من مظهر ووصف باطنه بانه

الابيض الناصع الذى هو خير من ظاهر الاشعث الاغبر ولايعامل الخادم أهل ودّه الا بهذه المعاملة ومن خلقه المجازفة فى بذل المودة اذا أخذ الناس بنسبة المكايلة فى هذا معنى خبرين أحدهما قول النبى صلى الله عليه وسلم انه اذا كذب الكاذب تباعد الملك عنه ميلا لنتن كذبه والآخر قوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لابره (ومن هذا الباب) ماذكرته فى كتاب يتضمن خطبة مودة فابتدأت الكلام فيه بعد تصدره بالدعاء نفثات لولا العادة لرفع الخادم كتابه هذا أن يسطر فى ورقة وليس ذلك الا لارساله فى خطبة مودة رأى صورتها فى سرقة ولما تأملها قال ان يكن ذلك من عند الله يمضه وأبدى لها صفحة الرضا وان كانت كل مودة لم ترضه وخير المودات ماليس لها ضرة تشاركها فى وسامتها ولا تضاهيها فى درجة كرامتها فتلك التى تزدهى ذا الهمة أبوة وجمالا ولم يبذله مهرا ولو بذل فيه نفسا لا مالا وما يظن الخادم الاهذه المودة التى خطبها وقد علت أن تكون راغبة ولكن هو الذى أرغبها على أنه لم يترشح لها الامن هو من أكمائها وليست الكفاءة ههنا الا بتبذله الضمائر من صفاتها وقد أتاح الله لها كفؤا يكثر من ايناسها ويشهها من البر فى حلة نامها ويجعل كل يوم من ايامها عرسا حتى تتصل مواسم أعراسها ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب والمعنى المأخوذ فيه من الخبر النبوى فى موضعين الاول أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها ان جبريل عليه السلام عرض على صورتك فى سرقة والسرقة سريرة بيضاء وقال هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة فقلت ان يكن ذلك من عند الله يمضه فأخذت انا هذا المعنى ونقلته الى خطبة مودة ولا يأتى فى خطبة المودات شئ أحسن منه ولا ألطف ولا أشد مقصدا الخبر النبوى الثانى قول النبى صلى الله عليه وسلم انما تنكح المرأة لاربع لحسبها أو لدينها أو لمالها أو لجمالها فقلت أما فتلك التى تزدهى الهمة أبوة وجمالا أى قد جمعت الحسب والجمال (ومن ذلك) ماذكرته فى سبب حب المال وهو بين المال علاقة وكيدة وبين القلوب وهى له بمنزلة المحب وهو لها بمنزلة المحبوب وليس ذلك الالان الله قبض قبضة من جميع الارض فخلق آدم من تلك القبضة ويوشك حينئذ أن صورة قلبه تكونت من معدن الذهب والفضة ولولا أن يكون منهما عنصرا بدانه

الا بعلاج سيما الاطباء دواء من دائه فلا تستغرب اذن أن تكون على حبهما
مطبوعا اذ كان منهما مصنوعا وهذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم
ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض
منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والحزن والسهل والخبيث والطيب غير
أني استنبطت أناسب المال من هذا الحديث وهو معنى غريب لم أسبق اليه
(ومن ذلك) ما ذكرته في وصف كلام وهو ليس السحر ما أودع في جنب طلاقة بل
ما أودع في صوغ معنى أو نظم سجعة ولذلك لبيد في شعره أسحر من لبيد في سحره
وكلا منهما من الغريب العجيب غير أن ما استنبط من القلب أعجب مما دفن
في القليب وهذا المعنى مأخوذ من قصة لبيد بن الاعصم في سحره النبي صلى
الله عليه وسلم ومن عرف القصة وصورتها علم ما قد ذكرته في تحت هذه الكلمات
البديعة (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف المنجنيق من جملة كتاب فقلت ونصب
المنجنيق فجثم بين يدي السور مناصيا وبسط كفه اليه مؤاتيا ثم تولى عقوبته
بعصاه التي تفتك بأحجاره واذا عصى عليها البلد أخذت في تأديب أسواره فما
كان الا أن استمرت عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيدا وقاصيه مستقيدا
وقال ألم يكن نهى عن المد والتجريد فما لي لا أرى الا مدا وتجريدا وعند ذلك
أذعن لفتح الابواب وتلا قوله تعالى لكل أجل كتاب وكذلك لم نات
صعبا الا استسهل ولا حزنا امتطيا الا استجهل ولطالما وقف عبرنا على هذا
البلد فشفه طول الانتظار ولم يحظ منه الا بعلالة المنتصب اخبار الديار في هذا
الفصل معنى خبر من الاخبار النبوية وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم في النهي
عن شرب الحدود لا مد ولا تجريد أي لا يمد على الارض ولا يجرد عنه ثوبه (ومن
ذلك) ما ذكرته في صدر كتاب الى الديوان العزيز النبوي وهو خلد الله دولة
الديوان العزيز النبوي ولا زالت أكنافها وادعة وعلياؤها يانعة وجدودها
كالنجوم التي ترى في كل حين طالعة وأيامها كالليالي ساكنة ولياليها كالايام
ناصعة وأبوابها كأبواب الجنة التي يقال فيها ثامن وثامنة اذا قيل في أبواب
غيرها سابع وسابعة وهذا الدعاء قد استجابه الله قبل أن ترفع اليه يد أو ينطق
به ضمير فاذا دعا به الخادم وجد صنع الله قد سبقه أولا وجاء به في الزمن
الاخير فليس له حينئذ الا أن يدعو لمآثر الديوان العزيز بالدوام وأن يمده

من النقص بعد التمام ثم يستهدى ما يؤهل له من الخدم التي يعتدها من لطائف الاحسان واذا ندب لتكليف أوامرها قال والحمد والشكر يستعبدان ولا شك أن درجات الاولياء تتفاوت في الصفات والاسماء فمنها ما يكون بين الارض ومنها ما يرى كالكوكب في أفق السماء ولولا النهي عن تزكية المرء نفسه لادعى الخادم أن له اعلاها وجاء بالاولياء من بعده فقال والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها لكنه لا يعتد بما يعتده عند الله من ذخره وسر الولاء في هذا المقام أكرم من جهره وليس الذي يعتد بصلاته وصيامه كالذي يعتد بسر وقر في صدره والله لا ينظر الى الاعمال وانما ينظر الى القلوب وفرق بين المطيع بحضر الشهادة وبين المطيع بظهر الغيوب ولو اطلع الديوان العزيز على ضمير الخادم في الطاعة لسره وعلم أن الاشعث الاغبر الذي لو أقسم على الله لأبره في هذا الفصل من الآيات والاخبار عدة مواضع وهذا الموضع مختص بالاخبار فلنذكرها دون الآيات أما الاول منها فقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم ترون أهل الدرجات العلى في الجنة كما ترون الكواكب في أفق السماء وأما الخبر الثاني فقوله صلى الله عليه وسلم ما فضلكم أبو بكر بصلاة ولا صيام ولكن فضلكم بسر وقر في صدره وأما الخبر الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره وفيما أوردته من حل المعاني الشعرية وحل آيات القرآن والاخبار النبوية طريق واضح لمن يقوى على سلوكه والله الموفق للصواب

(المقالة الاولى في الصناعة اللفظية)

وهي تنقسم قسمين (القسم الاول في اللفظة المفردة) اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه الى ثلاثة أشياء الاول منها اختيار الالفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلي المبددة فانها تتخير وتنتقى قبل النظم الثاني نظم كل كلمة مع أختها في المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها الثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم فتارة يجعل اكليلا على الرأس وتارة يجعل قلادة في العنق وتارة يجعل شنفا في الاذن ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من

الحسن فعمدة هذه ثلاثة أشياء لابد للخطيب والشاعر من العناية بها وهي الاصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر فالاول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة وهذا الموضع يضل في سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر فكيف الجهال الذين لم تنفحهم منه رائحة ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار حتى ينظر الى أسرار ما يستعمله من الالفاظ فيضعها في مواضعها ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة الا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع السبك وهذا لا يدركه الا من دق فهمه وجل نظره في ذلك قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وقوله تعالى رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فاستعمل الجوف في الاولى والبطن في الثانية ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف واللفظتان سواء في الدلالة وهما ثلاثيتان في عدد واحد ووزنهما واحد أيضا فانظر الى سبك الالفاظ كيف تفعل ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى وقوله ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وان كانا مختلفين في الوزن ولم يستعمل في القرآن أحدهما في موضع الآخر وعلى هذا ورد قول الاعرج من أبيات الحماسة

نحن بنو الموت اذا الموت نزل ❊ لا عار بالموت اذا حم الاجل

❊ الموت أحلى عندنا من العسل ❊

وقال أبو الطيب المتنبي

اذا شئت حفت بي على كل سابح ❊ رجال كأن الموت في فمها شهد

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد وكلاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله وقد وردت لفظة العسل في القرآن دون لفظة الشهد لانها أحسن منها ومع هذا فان لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الاعرج وكثيرا ما نجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المفلقين وغيرهم ومن بلغاء الكتاب ومصقعي الخطباء وتحته دقائق ورموز اذا

علمت وقيس عليها اشباهها ونظائرها كان صاحب الكلام فى النظم والنثر قد
انتهى الى الغاية القصوى فى اختيار الالفاظ ووضعها فى مواضعها اللائقة بها
واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الالفاظ اكثر مما يقع فى مفرداتها
لان التركيب أعسر وأشق ألاترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها
قد استعملتها العرب ومن بعدهم ومع ذلك فانه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه
وليس ذلك الا لفضيلة التركيب وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا اذا فكرت
فى قوله تعالى وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر
واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين انك لم تجد ما وجدته لهذه
الالفاظ من المزية الظاهرة الا لامر يرجع الى تركيبها وأنه لم يعرض لها هذا
الحسن الا من حيث لاقت الاولى بالثانية والثالثة بالرابعة وكذلك الى آخرها
فان ارتبت فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها او أفردت من بين
اخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته فى موضعها من الآية ومما يشهد
لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها فهذا
ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف أسرار الالفاظ فى تركيبها وانفرادها
وسأضرب لك مثالا يشهد بصحة ما ذكرته وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آية
من القرآن وبيت من الشعر فجاءت فى القرآن جزلة متينة وفى الشعر ركيكة
ضعيفة فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين أما الآية فهى قوله تعالى
فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى
منكم والله لا يستحيى من الحق وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى

تلذ له المروأة وهى تؤذى • ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة الا أن لفظة تؤذى قد جاءت فيه
وفى الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها فى
تركيب الآية فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه واعرضه على طبعك السليم حتى
تعلم صحته وهذا موضع غامض يحتاج الى فضل فكرة وامعان نظر وما تعرض
للتنبيه عليه أحد قبلى وهذه اللفظة التى هى تؤذى اذا جاءت فى الكلام فينبغى
أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به كقوله تعالى ان ذلكم كان
يؤذى النبى وقد جاءت فى قول المتنبى منقطعة ألاترى أنه قال تلذ له المروأة

وهى تؤذى ثم قال ومن يعشق يلذ له الغرام فجاء بكلام مستأنف وإذا جاءت
هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوى وأضيف اليها كاف الخطاب أزال ما بها
من الضعف والركة وذلك أنه اشتكى النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه جبريل عليه
السلام ورقاه فقال بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك فانظر الى السر
فى استعمال اللفظة الواحدة فانه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها
وحسنها ومن ههنا زاد الهاء فى بعض المواضع كقوله تعالى فأما من أوتى
كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه انى ظننت أنى ملاق حسابيه ثم قال
ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه فان الاصل فى هذه الالفاظ كتابى
وحسابى ومالى وسلطانى فلما أضيفت الهاء اليها وتسمى هاء السكت أضافت
اليها حسنا زائدا على حسنها وكستها لطافة ولباقة وكذلك ورد فى القرآن
الكريم ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فلفظة لى أيضا مثل
لفظة تؤذى وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها واذا جاءت منقطعة
لا تجىء لائقة كقول أبى الطيب أيضا

تمسى الامانى صرعى دون مبلغه * فما يقول لشئ ليت ذلك لى

وربما وقع بعض الجهال فى هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه كقول
أبى الطيب

فما أجدر الايام والليالى * بأن تقول ماله ومالى *

فان لفظة لى ههنا قد وردت بعد ما وقبلها ماله ثم قال ومالى فجاء الكلام على نسق
واحد ولو جاءت لفظة لى ههنا كما جاءت فى البيت الاول لكانت منقطعة عن النظير
والشبيه فكان يعلوها الضعف والركة وبين ورودها ههنا وورودها فى البيت
الاول فرق يحكم فيه الذوق السليم وههنا من هذا النوع لفظة أخرى قد
وردت فى آية من القرآن الكريم وفى بيت من شعر الفرزدق فجاءت فى القرآن
حسنة وفى البيت الشعرى غير حسنة وتلك اللفظة هى لفظة القمل أما الآية فقوله
تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات
وأما البيت الشعرى فقول الفرزدق

من عزه احتجرت كليب عنده * زربا كأنهم لديه القمل

وانما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر لانها جاءت فى الآية

مندرجة فى ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عندها وجاءت فى الشعر قافية أى آخرا انقطع الكلام عندها واذا نظرنا الى حكمة أسرار الفصاحة فى القرآن الكريم غصنا منه فى بحر عميق لاقرار له فمن ذلك هذه الآية المشار اليها فانها قد تضمنت خمسة ألفاظ هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وأحسن هذه الالفاظ الخمسة هى الطوفان والجراد والدم فلما وردت هذه الالفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا الطوفان والجراد وأخرت لفظة الدم آخرا وجعلت لفظة القمل والضفادع فى الوسط ليطرق السمع أولا الحسن من الالفاظ الخمسة وينتهى اليه آخرا ثم ان لفظة الدم أحسن من لفظتى الطوفان والجراد وأخف فى الاستعمال ومن أجل ذلك جىء بها آخرا ومراعاة مثل هذه الاسرار والدقائق فى استعمال الالفاظ ليس من القدرة البشرية (وقد ذكر) من تقدمنى من علماء البيان للالفاظ المفردة خصائص وهيآت تتصف بها واختلفوا فى ذلك واستحسن أحدهم شيأ خولف فيه وكذلك استقبح الآخر شيأ فخولف فيه ولو حققوا النظر ووقفوا على السر فى اتصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف فى شئ منها وقد أشرت الى ذلك فى الفصل الثامن من مقدمة كتابى هذا الذى يشتمل على ذكر الفصاحة وفى الوقوف عليه والاحاطة به غنى عن غيره لكن لابد أن نذكرهها تفصيلا لما أجملناه هناك لانا ذكرنا فى ذلك الفصل أن الالفاظ داخلة فى حيز الاصوات لانها مركبة من مخارج الحروف فما استلذه السمع منها فهو الحسن وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح واذا ثبت ذلك فلا حاجة الى ماذكر من تلك الخصائص والهيآت التى أوردها علماء البيان فى كتبهم لانه اذا كان اللفظ لذيذا فى السمع كان حسنا واذا كان حسنا دخلت تلك الخصائص والهيآت فى ضمن حسنه (وقد رأيت) جماعة من الجهال اذا قيل لاحدهم ان هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال كل الالفاظ حسن والواضع لم يضع الا حسنا ومن يبلغ جهله الى أن لايفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج وبين لفظة المدامة ولفظة الاسفنط وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل وبين لفظة الاسد ولفظة الفدوكس فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ولايجاوب بجواب بل يترك وشأنه كما قيل اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر فى رحله وما مثاله فى هذا المقام الا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة

السواد شوها الخلق ذات عين مجزرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط كأنه زبيبة وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل وطرف كحيل ومبسم كأنما غانطم من اقاح وطرة كأنها الليل على صباح فاذا كان بانسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الذكر أن يسوى بين هذه الالفاظ وهذه ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام فان هذا حاسة وهذا حاسة وقياس حاسة على حاسة مناسب فان عاند معاند فى هذا وقال ان اغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الاشياء وقد يعشق الانسان صورة الزنجية التى ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التى وصفتها قلت فى الجواب نحن لا نحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال بل نحكم على الكثير الغالب وكذلك اذا رأينا شخصا يحب أكل الفحم مثلا أو أكل الجص والتراب ويختار ذلك على ملاذ الاطعمة فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم عليه بأنه مريض قد فسدت معدته وهو يحتاج الى علاج ومداراة ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للالفاظ فى الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتا منكرا كصوت حمار وأن لها فى الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل وهى على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم ولا يسبق وهمك أيها المتأمل الى قول القائل الذى غلب عليه غلظ الطبع وفجاجة الذهن بأن العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن بل ينبغى أن تعلم أن الذى نستحسنه نحن فى زماننا هذا هو الذى كان عند العرب مستحسنا والذى نستقبحه هو الذى كان عندهم مستقبحا والاستعمال ليس بدليل على الحسن فاننا نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن وانما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن فى كل الاحوال وهذا طريق يضل فيه غير العارف به والكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة فى صوغ الالفاظ واختيارها فانه معذور فى أن يقول ما قال

لا يعرف الشوق الا من يكابده ٭ ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فان قول القائل بأن العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل فان استحسان الالفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شئ ليس للتقليد فيه مجال وانما هو

رأى ابن سنان الخفاجى

شئ له خصائص وهيآت وعلامات اذا وجدت علم حسنه من قبحه وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب الفصاحة والبلاغة وأمّا الذى قلد العرب فيه من الالفاظ فاعماده والاستشهاد بأشعارها على ما نقل من لغتها والاخذ بأقوالها فى الاوضاع النحوية فى رفع الفاعل ونصب المفعول وجرّ المضاف اليه وجزم الشرط وأشباه ذلك وما عداه فلا وحسن الالفاظ وقبحها ليس مضافا الى زيد دون عمرو أو الى عمرو دون زيد لانه وصف ذوقى لا يتغير بالاضافة ألا ترى أن لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ولم يجر لا يختلف أحد فى حسنها وكذلك لفظة البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فاذا استعملها العرب لا يكون استعمالهم اياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها بل يعاب مستعملها ويغلط له الكبر حيث استعملها (وقد ذكر) ابن سنان الخفاجى ما يتعلق باللفظة الواحدة من الاوصاف وقسمها الى عدة أقسام كتباعد مخارج الحروف وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربى غير شاذة وأن تكون مصغرة فى موضع يعبر به عن شئ لطيف أو خفىّ أو ما جرى مجراه وأن لا تكون مبتذلة بين العامة وغير ذلك من الاوصاف وفى الذى ذكره ما لا حاجة اليه أمّا تباعد المخارج فان معظم اللغة العربية دائر عليه لان الواضع قسمها فى وضعه ثلاثة أقسام ثلاثيا ورباعيا وخماسيا والثلاثىّ من الالفاظ هو الاكثر ولا يوجد فيه ما يكره استعماله الا الشاذ النادر وأمّا الرباعىّ فانه وسط بين الثلاثىّ والخماسىّ فى الكثرة عددا واستعمالا وأمّا الخماسىّ فانه الاقل ولا يوجد فيه ما يستعمل الا الشاذ النادر وعلى هذا التقدير فان أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه ولا تقتضى حكمة هذه اللغة الشريفة التى هى سيدة اللغات الا ذلك ولهذا أسقط الواضع حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض استثقالا واستكراها فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ولا بين اللام والراء ولا بين الزاء والسين وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون المتقارب ومن العجب أنه كان يخلّ بمثل هذا الاصل الكلّىّ فى تحسين اللغة وقد اعتنى بأمور أخر جزئية كما تلمّه بين حركات الفعل فى الوجود وبين حركات المصدر فى النطق كالغليان والضربان والنقدان

والثواب وغيرذلك مما يجري مجراه فان حروفه جميعها متحركات وليس فيها
حرف ساكن وهي ثمانية احرف كأنها متحركات العمل في الوجود ومن تلطف حكمة
وضع هذه الامة الى هذه الدقائق التي هي كالاطراف والحواشي فكيف كان يخل
بالاصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها الى بعض على انه لو أراد الناظم
أو الناثر ان يعتبر مخارج الحروف عند استعماله الالفاظ وهل هي متباعدة
أو متقاربة لطال الخطب في ذلك وعسر ولما كان الشاعر ينظم قصيدا
ولا الكاتب ينشئ كتابا الا في مدة طويلة تمضي عليها الأيام والليالي ذوات عدد كثير
ونحن نرى الامر بخلاف ذلك فان حاسة السمع هي الحاكمة في هذا
المقام بحسن ما يحسن من الالفاظ وقبح ما يقبح وسأضرب لك في هذا مثالا
فاقول اذا استفتيت عن لفظة من الالفاظ وقيل لك ما تقول في هذه اللفظة
أحسنة هي أم قبيحة فاني لا أراك عند ذلك الا تفتي بحسنها أو قبحها على الفور
ولو كنت لا تفتي بذلك حتى تقول للسائل اصبر الى أن اعتبر مخارج حروفها
ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ما ذهب اليه من جعل
مخارج الحروف المتباعدة شرطا في اختيار الالفاظ وانما شذ عنه الاصل
في ذلك وهو أن الحسن من الالفاظ يكون متباعد المخارج فحسن الالفاظ اذن
ليس معلوما من تباعد المخارج وانما علم قبل العلم بتباعدها وكل هذا راجع
الى حاسة السمع فاذا استحسنت لفظا أو استقبحته وجدت ما تستحسنه متباعد
المخارج وما تستقبحه متقارب المخارج واستحسانك واستقباحك انما هو قبل
اعتبار المخارج لا بعده على أن هذه القاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة لانه قد يجيء
في المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج
متقاربة وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك وتسمى الثلاثة الشجرية واذا
تركب منها شيء من الالفاظ جاء حسنا رائقا فان قيل جيش كانت لفظة محمودة
أو تقدمت الشين على الجيم فقيل شجي كانت أيضا لفظة محمودة ومما هو أقرب
مخرجا من ذلك الباء والميم والفاء وثلاثتها من الشفة وتسمى الشفهية فاذا نظم
منها شيء من الالفاظ كان جميلا حسنا كقولنا فم فهذه اللفظة من حرفين هما
الفاء والميم وكقولنا ذقته بفمي وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها وكلاهما
حسن لا عيب فيه (وقد ورد) من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضا ولو كان التباعد

سببا للحسن لما كان سببا للقبح اذ هما ضدان لا يجتمعان (فمن ذلك) أنه يقال
ملع اذا عدا فالميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان
وكل ذلك متباعد ومع هذا فان هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق
السليم ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة (وههنا نكتة غريبة) وهو
أنا اذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت علم وعند ذلك تكون حسنة لا مزيد
على حسنها وما ندري كيف صار القبح حسنا لانه لم يتغير من مخارجها شئ وذلك
أن اللام لم تزل وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ولو كان مخارج الحروف
معتبرا في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في ملع وعلم (فان قيل) ان اخراج
الحروف من الحلق الى الشفة أيسر من ادخالها من الشفة الى الحلق فان ذلك
انحدار وهذا صعود والانحدار أسهل (فالجواب) عن ذلك أني أقول لو استمر لك
هذا لصح ما ذهبت اليه لكنا نرى من الالفاظ ما اذا عكسنا حروفه من الشفة الى
الحلق أو من وسط اللسان أو من آخره الى الحلق لا يتغير كقولنا غلب فان الغين
من حروف الحلق واللام من وسط اللسان والباء من الشفة واذا عكسنا ذلك صار
بلغ وكلاهما حسن مليح وكذلك تقول حلم من الحلم وهو الأناة واذا عكسنا
هذه الكلمة صارت ملح على وزن فعل بفتح الفاء وضم العين وكلاهما أيضا حسن
مليح وكذلك تقول عقر ورقع وعرف وفرع وحلف وفلح وقلم وملق وكلم وملك
ولو شئت لأوردت من ذلك شيأ كثيرا تضيق عنه هذه الاوراق ولو كان ما ذكرته
مطردا لكنا اذا عكسنا هذه الالفاظ صار حسنها قبحا وليس الامر كذلك وأما
ما ذكره ابن سنان من جريان اللفظة على العرف العربي فليس ذلك مما يوجب لها
حسنا ولا قبحا وانما يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الالفاظ فكيف
يعد ذلك من جملة الاوصاف الحسنة وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شئ
لطيف أو خفي أو ما جرى مجراه فهذا مما لا حاجة الى ذكره فان المعنى يسوق
اليه وليست معاني التصغير من الاشياء الغامضة التي يفتقر الى التنبيه عليها
فانها مدونة في كتب النحو وما من كتاب نحو الا والتصغير باب من أبوابه ومع هذا
فان صاحب هذه الصناعة مخير في ذلك ان شاء أن يورده بلفظ التصغير وان شاء
بمعناه كقول بعضهم

لو كان يخفى على الرحمن خافية * من خلقه خفيت عنه بنو لبد

فهل

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يعتذر من هؤلاء القوم ويحتقر من شأنهم بأنساط التصغير بني هكذا كما جاء بيته هذا فالوصية بأذن ملقية للاصابة اليها (وأما الاوصاف البائنة التي ذكرت فهي التي ينبغي أن ينبه عليها) فمنها أن لا تكون الكلمة وحشية وقد تشن الوحشي على جماعة من المنتمين الى صناعة النظم والنثر وظنوه المستقبح من الالفاظ وليس كذلك بل الوحشي ينقسم قسمين أحدهما غريب حسن والآخر غريب قبيح وذلك أنه منسوب الى اسم الوحش الذي يسكن القفار وليس بأنيس وكذلك الالفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال وليس من شرط الوحشي أن يكون مستقبحا بل أن يكون نافرا لا يألف الانس فتارة يكون حسنا وتارة يكون قبيحا وعلى هذا فان أحد قسمي الوحشي وهو الغريب الحسن يختلف باختلاف النسب والاضافات وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فان الناس في استقباحه سواء ولا يختلف فيه عربي بادولا قروي متحضر وأحسن الالفاظ ما كان مألوفا متداولا لانه لم يكن مألوفا متداولا الا لمكان حسنه وقد تقدم الكلام على ذلك في باب الفصاحة فان أرباب الخطابة والشعر نظروا الى الالفاظ ونقبوا عنها فلما عدلوا الى الاحسن منها فاستعملوه وتركوا ما سواه وهو أيضا يتفاوت في درجات حسنه فالالفاظ اذن تنقسم ثلاثة أقسام قسمان حسنان وقسم قبيح فالقسمان الحسنان أحدهما ما تداول استعماله الاول والآخر من الزمن القديم الى زماننا هذا ولا يطلق عليه أنه وحشي والآخر ما تداول استعماله الاول دون الآخر ويختلف في استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب لانه لم يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشي وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهي التي يطلق عليها غريب القرآن وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيأ وهو الذي يطلق عليه غريب الحديث (وحضر عندي في بعض الايام رجل متفلسف) فجرى ذكر القرآن الكريم فأخذت في وصفه وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأي فصاحة هناك وهو يقول تلك اذا قسمة ضيزى فهل في لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف فقلت له اعلم أن لاستعمال الالفاظ أسرارا لم تقف عليها أنت ولا أئمتك مثل ابن سينا

رد على متفلسف اعترض على قوله تعالى قسمة ضيزى

والفارابي ولا من أضاهم مثل ارسطاليس وافلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها
في القرآن وهي لفظة ضيزى فانها في موضعها لا يسد غيرها مسدها ألا ترى أن
السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى والنجم
اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وكذلك الى آخر السورة فلما ذكر الاصنام
وقسمة الاولاد وما كان يزعمه الكفار قال ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة
ضيزى فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه
وغيرها لا يسد مسدها في مكانها واذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا ان
غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لا خواتها
ولا مناسبة لانها تكون خارجة عن حرف السورة وسأبين ذلك فأقول اذا جئنا
بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة
أحسن من ضيزى الا انا اذا نظمنا الكلام فقلنا ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا
قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الاول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج
الى تمام وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام فلما سمع ذلك الرجل
ما أوردته عليه ربا لسانه في فمه اعجاما ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد
الذي مستنده تقليد بعض الزنادقة الذين يكفرون تشهيا ويقولون ما يقولونه
جهلا واذا حوققوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم * وحيث انتهى القول
الى ههنا فاني أرجع الى ما كنت بصدد ذكره فأقول وأما القبيح من الالفاظ
الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشيا فقط بل يسمى الوحشي الغليظ وسيأتي
ذكره واذا نظرنا الى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام وجدناه سهلا
سلسا وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جدا هذا وقد أنزل في زمن العرب
العرباء وألفاظه كلها من أسهل الالفاظ وأقربها استعمالا وكفى به قدوة في هذا
الباب قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل مثل
أم القرآن وهي السبع المثاني يريد بذلك فاتحة الكتاب واذا نظرنا الى ما اشتملت
عليه من الالفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ يفهمها كل أحد حتى صبيان
المكاتب وعوام السوقة وان لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة
فان أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه وهكذا فلتكن
الالفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها والمقتدى بألفاظ القرآن

يكتفى بها من غيرها من جميع الالفاظ المنثورة والمنظومة • وأما ما ورد من المثال الوحشى فى الاخبار النبوية فمن جملة ذلك حديث طهفة بن أبى زهير النهدى وذاك أنه لما قدمت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبى زهير فقال أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة على أكوار الميس ترتمى بنا العيس نستحلب الصبير ونستخلب الخبير ونستعضد البرير ونستخيل الرهام ونستجيل الجهام فى أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشف المدهن ويبس الجعثن وسقط الاملوج ومات العسلوج وهلك الهدى وفاد الودى برئنا اليك يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الاسلام ما طمى البحر وقام تعار ولنا نعم همل اغفال ما تبض ببلال ووقير كثير الرسل قليل الرسل أصابتها سنية حمراء مؤزلة ليس لها علل ولا نهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ومذقها وفرقها وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر وافجر له الثمد وبارك له فى المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط فى الزكاة ولا تلحد فى الحياة ولا تتثاقل عن الصلاة (وكتب) معه كتابا الى بنى نهد من محمد رسول الله الى بنى نهد السلام على من آمن بالله ورسوله لكم يا بنى نهد فى الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ولا يؤكل أكلكم ما لم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة • وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتضى استعمال هذه الالفاظ ولا تكاد توجد فى كلامه الا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كهذا الحديث وما يجرى مجراه على أنه قد كان فى زمنه متداولا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله الا يسيرا لانه أعلم بالفصيح والافصح وهذا الكلام هو الذى نعده نحن فى زماننا وحشيا لعدم الاستعمال فلا تظن أن الوحشى من الالفاظ ما يكرهه سمعك ويثقل عليك النطق به وانما هو الغريب الذى يقل استعماله فتارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة وذلك فى اللفظ

عيان أحدهما أنه غريب الاستعمال والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته وهو الذى يسمى الوحشى الغليظ ويسمى أيضا المتوعر وليس وراءه فى القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شئ من معرفة هذا الفن أصلا (فان قيل) فما هذا النوع من الالفاظ (قلت) قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك وثقل على لسانك النطق به وسأضرب لك فى ذلك مثالا فمنه ما ورد لتأبط شرا فى كتاب الحماسة

يظل بموماة ويمسى بغيرها ٭ جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

فان لفظة جحيش من الالفاظ المنكرة القبيحة وياالله العجب أليس أنها بمعنى فريد وفريد لفظة حسنة رائقة ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختل شئ من وزنه فتأبط شرا ملوم من وجهين فى هذا الموضع أحدهما أنه استعمل القبيح والآخر أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها ومما هو أقبح منه ما ورد لابى تمام قوله

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت ٭ عشواء تالية غبسا دهاريسا

فلفظة اطلخم من الالفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين فى أنها غريبة وأنها غليظة فى السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة دهاريس أيضا وعلى هذا ورد قوله من أبيات يصف فرسا من جملتها

نعم متاع الدنيا حباك به ٭ أروع لا جيدر ولا جبس

فلفظة جيدر غليظة وأغلظ منها قول أبى الطيب المتنبى

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم ٭ شيم على الحسب الاغر دلائل

فان لفظة جفخ مرة الطعم واذا مرت على السمع اقشعر منها وأبو الطيب فى استعمالها كاستعمال تأبط شرا لفظة جحيش فان تأبط شرا كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة كما أشرنا اليه فيما تقدم وكذلك أبو الطيب فى استعمال هذه اللفظة التى هى جفخت فان معناها فخرت والجفخ الفخر يقال جفخ فلان اذا فخر ولو استعمل عوضا عن جفخت فخرت لاستقام وزن البيت وحظى فى استعماله بالاحسن وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء وهذا الذى ذكرته وما يجرى مجراه من الالفاظ هو الوحشى اللفظ الغليظ الذى

ليس له ما يدانيه فى قبحه وكراهته وهذه الامثلة دليل على ما أردناه والعرب اذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ وانما تلام على الغريب القبيح وأما الحضرى فانه يلام على استعمال القسمين معا وهو فى أحدهما أشد ملامة من الآخر على أن هذا الموضع يحتاج الى قيد آخر وذلك شئ استخرجته أنا دون غيرى فانى وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهى الى ما أوردته من الامثلة وربما أنكره بعد ذلك اما عنادا واما جهلا لعدم الذوق السليم عنده

(فمن ذلك) قول الفرزدق

ولولا حياء زدت رأسك شجة • اذا سبرت ظلت جوانبها تغلى
شريبة شمطاء من يرَ ما بها • يشبه ولو بين الخماسى والطفل

فقوله شريبة من الالفاظ الغريبة التى يسوغ استعمالها فى الشعر وهى ههنا غير مستكرهة الا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على مستعملها وكذلك وردت لفظة مشمخر فان بشرا قد استعملها فى أبياته التى يصف فيها لقاءه الاسد فقال

وأطلقت المهند عن يمينى • فقدّ له من الاضلاع عشرا
فخر مضرجا بدم كأنى • هدمت به بناء مشمخرا

وعلى هذا ورد قول البحترى فى قصيدته التى يصف فيها ايوان كسرى فقال

مشمخر تعلو له شرفات • رفعت فى رؤس رضوى وقدس

فان لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها فى الخطب والمكاتبات ولا بأس بها ههنا فى الشعر وقد وردت فى خطب الشيخ الخطيب بن نباتة كقوله فى خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة فقال اقمطر وبالها واشمخر نكالها فما طابت ولا ساغت

ومن هذا الاسلوب لفظة الكنهور فى وصف السحاب كقول أبى الطيب

يا ليت باكية شجانى دمعها • نظرت اليك كما نظرت فتعذرا
وترى الفضيلة لا ترد فضيلة • الشمس تشرق والسحاب كنهورا

فلفظة الكنهور لا تعاب نظما وتعاب نثرا وكذلك يجرى الامر فى لفظة العرمس وهى اسم الناقة الشديدة فان هذه اللفظة يسوغ استعمالها فى الشعر ولا يعاب مستعملها كقول أبى الطيب أيضا

ومهمه جبته على قدمي * تعجز عنه العرامس الذلل

فانه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ولو استعملت في الكلام المنثور لما طابت ولا ساغت وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام كقوله

هي العرمس الوجناء وابن ملمة * وجاش على ما يحدث الدهر خافض

وكذلك ورد قوله أيضا * يا موضع الشدنية الوجناء * فان الشدنية لا تعاب شعرا وتعاب لو وردت في كتاب أو خطبة وهكذا يجري الحكم في أمثال هذه الالفاظ المشار اليها وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الالفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور وذلك شئ استنبطته واطلعت عليه لكثرة ممارستي لهذا الفن ولان الذوق الذي عندي دلني عليه فمن شاء أن يقلدني فيه والا فليدمن النظر حتى يطلع على ما اطلعت عليه والاذهان في مثل هذا المقام تتفاوت (وقد رأيت) جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ويبعد متناوله واذا رأوا كلاما وحشيا غامض الالفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة وهو بالضد من ذلك لان الفصاحة هي الظهور والبيان لا الغموض والخفاء * وسأبين لك ما تعتمد عليه في هذا الموضع (فأقول) الالفاظ تنقسم في الاستعمال الى جزلة ورقيقة ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك وأما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف الاشواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ولست أعني بالجزل من الالفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا وانما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبي تمام

ناعمات الاطراف لو أنهن تلبسن أغنين عن الملاء الرقاق

وسأضرب لك مثالا للجزل من الالفاظ والرقيق فأقول انظر الى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وما جرى هذا المجرى فانك لا ترى شيئا من ذلك وحشي الالفاظ ولا متوعرا ثم انظر

الى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والالطاف فى خطاب الانبياء وخطاب المنيبين
والتائبين من العباد وما يجرى هذا المجرى فانك لا ترى شيأ من ذلك ضعيف
الالفاظ ولا سخيفا (فالمثال الاول) وهو الجزل من الالفاظ قوله تعالى ونفخ فى
الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى
فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين
والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم
بما يفعلون وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال
لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم
هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم
خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى
اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين
وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم
أجر العاملين فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر
النار والجنة وانظر هل فيها لفظة الا وهى سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة
وكذلك ورد قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم
ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد
تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (وأما المثال الثانى) وهو الرقيق من
الالفاظ فقوله تعالى فى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم والضحى والليل اذا سجى
ما ودعك ربك وما قلى الى آخر السورة وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسئلة
واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان وهكذا ترى سبيل
القرآن الكريم فى كلا هذين المثالين من الجزالة والرقة وكذلك كلام العرب
الاول فى الزمن القديم مما ورد عنهم نثرا ويكفى من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم
على امرئ القيس فى أشياخ بنى أسد يسألونه العفو عن دم أبيه فقال له انك فى
المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر ما تحدثه أيامه وتتنقل به أحواله
بحيث لا تحتاج الى تذكير من واعظ ولا تبصير من مجرب ولك من سودد منصبك
وشرف أعراقك وكرم أصلك فى العرب محتد يحتمل ما حمل عليه من اقالة العثرة
والرجوع عن الهفوة ولا تتجاوز الهمم الى غاية الا رجعت اليك فوجدت عندك

كلام قبيصة لامرئ القيس لما سأله العفو عن دم أبيه

من فضيلة الرأى وبصيرة الفهم وكرم الصفح مايطول رغباتها ويستغرق طلباتها وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزارا واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع كان لحجر ولو كان يفدى هالك بالانفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله ولكنه مضى به سبيل لايرجع أخراه على أولاه ولا يلحق أقصاه أدناه فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى احدى خلال ثلاث اما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا وأعلاها فى بناء المكرمات صوتا فقدناه اليك بنسعة تذهب مع شفرات حسامك بباقى قصرته فنقول رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل سخيمته الا بمكنته من الانتقام أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها فهى ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القضب الى أجفانها لم تردها بتسليط الاحن على البرآء واما أن وادعتنا الى أن تضع الحوامل فتسدل الازر وتعقد الخمر فوق الرايات قال فبكى ساعة ثم رفع رأسه فقال لقد علمت العرب أنه لا كفو لحجر فى دم وانى لن أعتاض جملا ولا ناقة فاكتسب به سبة الابد وفت العضد وأما النظرة فقد أوجبتها الاجنة فى بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سببا وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقا وفوق الاسنة علقا

اذا جالت الحرب فى مأزق * تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون قالوا بل ننصرف بأسوإ الاختيار وأبلى الاجترار بمكروه وأذية وحرب وبلية ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل

لعلك أن تستوخم الورد ان غدت * كتائبنا فى مأزق الحرب تمطر

فقال امرؤ القيس لا والله ولكن أستعذبه فرويدا ينفرج لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ولقد كان ذكر غير هذا بى أولى اذ كنت نازلا بربعى ولكنك قلت فأوجبت فقال امرؤ القيس دون ذلك * فلننظر الى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرئ القيس حتى يدع المتعمقون تعمقهم فى استعمال الوحشى من الالفاظ فان هذا الكلام قد كان فى الزمن القديم قبل الاسلام بما شاء الله وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور وما عداه فليس بشئ وهذا المشار اليه ههنا هو من جزل كلامهم وعلى ما تراه من السلاسة والعذوبة واذا تصفحت أشعارهم أيضا وجدت الوحشى من الالفاظ قليلا بالنسبة الى المستعمل

قوله ولكن الذاظك الخ كذا فى النسخ والظاهر أن يقول فقال قبيصة ولكن الخ اه

فى القم

فى الذم والمدح · ألا ترى الى هذه الابيات الواردة فى ذلك وهى للسموأل بن عاديا وهى

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه • فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها • فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا • فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا • عزيز وجار الاكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا • وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه • ولا طل منا حيث كان قتيل
علونا الى خير الظهور وحطنا • لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما فى نصابنا • كهام ولا فينا يعد بخيل
اذا سيد منا خلا قام سيد • قؤول لما قال الكرام فعول
وأيامنا مشهورة فى عدونا • لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا فى كل غرب ومشرق • بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها • فتغمد حتى يستباح قبيل

فاذا نظرنا الى ما تضمنه من الجزالة شاهدناها ازبر من الحديد وهى مع ذلك سهلة مستعذبة غير فظة ولا غليظة وكذلك قد ورد للعرب فى جانب الرقة من الاشعار ما يكاد يذوب لرقته كقول عروة بن أذينة

ان التى زعمت فؤادك ملها • خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها • بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى • ما كان أكثرها لنا وأقلها
واذا وجدت لها وساوس سلوة • شفع الضمير الى الفؤاد فسلها

(وكذلك ورد قول الآخر)

أقول لصاحبى والعيس تهوى • بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد • فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد • وريا روضة غب القطار
وأهلك اذ يحل الحى نجدا • وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا • بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل • وأطيب ما يكون من النهار

ومما رقّ في الاسماع له وبرق على صفحات القلوب قول يزيد بن الطثرية في محبوبته من جرم

بنفسي من لو مرّ برد بنانه * على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته * فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

واذا كان هذا قول ساكن في الفلاة لا يرى الا شيحة أو قيصومة ولا يأكل الا ضبا أو يربوعا فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشى الالفاظ وشظف العبارات ولا يخلد الى ذلك الا اما جاهل بأسرار الفصاحة واما عاجز عن سلوك طريقها فان كل أحد ممن شدا شيأ من علم الادب يمكنه أن يأتي بالوحشي من الكلام وذلك أنه يلتقطه من كتب اللغة أو يتلقفه من أربابها وأما الفصيح المتصف بصفة الملاحة فانه لا يقدر عليه ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه فان ماري في ذلك فلينظر الى أشعار علماء الادب ممن كان مشارا اليه حتى يعلم صحة ما ذكرته هذا ابن دريد قد قيل انه أشعر علماء الادب واذا نظرت الى شعره وجدته بالنسبة الى شعر الشعراء المجيدين منحطا مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الادب عشر معشار ما علمه هذا العباس ابن الاحنف قد كان من أوائل الشعراء المجيدين وشعره كمر النسيم على عذبات أغصان وكلؤلؤات طل على طرر ريحان وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج الى استخراجها من كتب اللغة فمن ذلك قوله

وانى ليرضيني قليل نوالكم * وان كنت لا أرضى لكم بقليل
بحرمة ما قد كان بيني وبينكم * من الود الا عدتم بجميل

وهكذا ورد قوله في فوز التي كان يشبب بها في شعره

يا فوز يا منية عباس * قلبي يفدي قلبك القاسي
أسأت اذ أحسنت ظني بكم * والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني شوقي فآتيكمو * والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الابيات وأعلق بالخاطر وأسرى في السمع ولمثلها تخف رواجح الاوزان وعلى مثلها تسهر الاجفان ومن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان ولم أجرها بلساني يوما من الايام الا ذكرت قول أبي الطيب المتنبي

اذا شاء أن يلهو بلحية أحمق * أراه غباري ثم قال له الحق

ومن الذي يستطيع أن يبلغ هذه الطريقة التي هي سهلة وعرة قريبة بعيدة وهذا أبو العتاهية كان في مدة الدولة العباسية وشعراء العرب اذ ذاك موجودون كثيرا وكانت مدائحه في المهدي بن المنصور واذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقة ألفاظ ولطافة سبك وليس بركيك ولا واه وكذلك أبو نواس وبهذا تقدم على شعراء عصره وناهيك بعصره وما جمعه من فحول الشعراء ويكفي منهم مسلم بن الوليد الذي كان فارس الشعر وله الاسلوب الغريب العجيب غير أنه كان يتعمد في أكثر ألفاظه ويحكى أن أبا نواس جلس يوما الى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى ماء فلما شرب قال ❊ عذب الماء وطابا ❊ ثم قال أجيزوه فأخذ أولئك الشعراء يترددون في اجازته واذا هم بأبي العتاهية فقال ما شأنكم مجتمعين فقالوا هو كيت وكيت وقد قال أبو نواس ❊ عذب الماء وطابا ❊ فقال أبو العتاهية ❊ حبذا الماء شرابا ❊ فعجبوا لقوله على الفور من غير تلبث وكل شعر أبي العتاهية كذلك سهل الالفاظ وسأورد منه ههنا شيأ يستدل به على سلاسة طبعه وترويق خاطره (فمن ذلك) قصيدته التي يمدح فيها المهدي ويشبب فيها بجارية عتبة

ألا ما لسيدتي ما لها ❊ تدل فأحمل ادلالها

ألا ان جارية للامام ❊ قد اسكن الحسن سربالها

لقد أتعب الله قلبي بها ❊ وأتعب في اللوم عذالها

كأن بعيني في حيثما ❊ سلكت من الارض تمثالها

فلما وصل الى المديح قال من جملته

أتته الخلافة منقادة ❊ اليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح الا له ❊ ولم يك يصلح الا لها

ولو رامها أحد غيره ❊ لزلزلت الارض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب ❊ لما قبل الله أعمالها

ويحكى أن بشارا كان شاهدا عند انشاد أبي العتاهية هذه الابيات فلما سمع المديح قال انظروا الى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده يريد هل زال عن سريره طربا بهذا المديح ولعمري ان الامر كما قال بشار وخير القول ما أسكر السامع وشغله عن حالته سواء كان في مديح أو غيره وقد أشرت الى ذلك فيما يأتي

من هذا الكتاب عند ذكر الاستعارة فليؤخذ من هناك (واعلم) أن هذه الابيات المشار اليها ههنا من رقيق الشعر غزلا ومديحا وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر ومع هذا فانك تراها من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات وهذا هو الكلام الذي يسمى السهل الممتنع فتراه يطمعك ثم اذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر فان خير الكلام ما دخل الاذن بغير اذن (وأما) البداوة والعنجهية في الالفاظ فتلك أمة قد خلت ومع أنها قد خلت وكانت في زمن العرب العاربة فانها قد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر (وبعد هذا) فاعلم أن الالفاظ تجري من السمع مجرى الاشخاص من البصر فالالفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والالفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي واذا انعمت نظرك فيما ذكرته ههنا وجدتني قد دللتك على الطريق وضربت لك أمثالا مناسبة (واعلم) أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين فان في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الاحرف المشار اليها والناظم في ذلك أشد ملامة لانه يتعرض لان ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة فيأتي في أكثرها بالبشع الكريه الذي يمجه السمع لعدم استعماله كما فعل أبو تمام في قصيدته الثائية التي مطلعها قف بالطلول الدارسات علاثا • وكما فعل أبو الطيب المتنبي في قصيدته الشينية التي مطلعها • مبيتي من دمشق على فراش • وكما فعل ابن هانئ المغربي في قصيدته الخائية التي مطلعها • سرى وجناح الليل أقتم أفتخ • والناظم لا يعاب اذا لم ينظم هذه الاحرف في شعره بل يعاب اذا نظمها وجاءت كريهة مستبشعة وأما الناثر فانه أقرب حالا من الناظم لان غاية ما يأتي به سجعتان أو ثلاثة أو أربع على حرف من هذه الاحرف وما يعدم في ذلك ما يروق اذا كان بهذه العدة اليسيرة فان كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيأ على هذه الحروف فقل هذه الحروف هي مقاتل الفصاحة

وعذرى واضح فى تركها فان واضع اللغة لم يضع عليها الفاظا تعذب فى الفم ولا تلذ فى السمع والذى هو بهذه الصفة منها قليل جدا ولا يساغ منه الا ما شاع فى أبيات من الشعر وأما الفصاحة المقصودة فلا تساغ منه وان صيغت بها أكثر ما بنيها كرهها على أن هذه الحروف متفاوتة فى كراهة الاستعمال وأشدها كراهة أربعة أحرف وهى الظاء والصاد والضاد والغين وأما الثاء والذال والشين والخاء فان الامر فيهن أقرب حالا وهذا موضع ينبغى لصاحب الصناعة أن يتم تطرفه فيه وفيما أشرنا اليه كفاية لمتعلم ليعرفه وليقف عنده

(ومن أوصاف الكلمة) أن لا تكون مبتذلة بين العامة وذلك ينقسم قسمين

(الاول) ما كان من الالفاظ دالا على معنى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر وهو ضربان الاول ما يكره ذكره كقول أبى الطيب

أذاق الغوانى حسنه ما أذقننى • وعف فجازاهن عنى بالصرم

فان لفظة الصرم فى وضع اللغة هو القطع يقال صرمه اذا قطعه فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادا ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما يجرى مجراها لكن المكروه منها ما يستعمل على صيغة الاسمية كما جاءت فى هذا البيت وأما اذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا صرمه ويصرمه وتصرمه فانها لا تكون كريهة لان استعمال العامة لا يدخل فى ذلك وهذا الضرب المشار اليه لا يعاب البدوى على استعماله كما يعاب الحضرى لان البدوى لم تتغير الالفاظ فى زمنه ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت فى زمن الحضرة من الشعراء فمن أجل ذلك عيب استعمال لفظة الصرم وما يجرى مجراها على الشاعر الحضرى ولم يعب على الشاعر البدوى الا ترى الى قول أبى صخر الهذلى

قد كان صرم فى الممات لنا • فعجلت قبل الموت بالصرم

فان هذا لا يعاب على صخر كما عيب على المتنبى قوله فى البيت المتقدم ذكره وقد صنف الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادى المعروف بابن الجواليقى كتابا فى هذا الفن وسمه باصلاح ما تغلط فيه العامة فمنه ما هذا سبيله وهو الذى أنكر استعماله لكراهته ولانه مما لم ينقل عن العرب فهذان عيبان وأما الضرب الثانى وهو أنه وضع فى أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالا على غيره

الأنه ليس بمستقبح ولا مستكره وذلك كتسميتهم الانسان ظريفا اذا كان دمث الاخلاق حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله والظرف فى أصل اللغة مختص بالنطق فقط (وقد قيل فى صفات خلق الانسان ما أذكره ههنا) وهو الصباحة فى الوجه الوضاءة فى البشرة الجمال فى الانف الحلاوة فى العينين الملاحة فى الفم الظرف فى اللسان الرشاقة فى القد اللباقة فى الشمائل كمال الحسن فى الشعر فالظرف انما يتعلق بالنطق خاصة فغيرته العامة عن بابه وقد غلط فى هذا الموضع أبو نواس حيث قال

اختصم الجود والجمال * فيك فصارا الى جدال

فقال هذا يمينه لى * للعرف والبذل والنوال

وقال هذا الوجه لى * للظرف والحسن والكمال

فافترقا فيك عن تراض * كلاهما صادق المقال

وكذلك غلط أبو تمام فقال

لك هضبة الحلم التى لو وازنت * أجأ اذن ثقلت وكان خفيفا

وحلاوة الشيم التى لو مازجت * خلق الزمان الفدم عاد ظريفا

فأبو نواس غلط ههنا فى أنه وصف الوجه بالظرف وهو من صفات النطق وأبو تمام غلط فى أنه وصف الخلق بالظرف وهو من صفات النطق أيضا الا أن هذا غلط لا يوجب فى هذه اللفظة قبحا لكنه جهل بمعرفة أصلها فى وضع اللغة (القسم الثانى) مما ابتذلته العامة وهو الذى لم تغيره عن وضعه وانما أنكر استعماله لانه مبتذل بينهم لا لانه مستقبح ولا لانه مخالف لما وضع له وفى هذا القسم نظر عندى لانه ان كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة فان من الكثير المتداول بينهم الفاظا فصيحة كالسماء والارض والنار والماء والحجر والطين وأشباه ذلك وقد نطق بها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة منه وجاءت فى كلام الفصحاء نظما ونثرا والذى ترجح فى نظرى أن المراد بالمبتذل من هذا القسم انما هو الالفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة (فمما) جاء منه قول أبى الطيب المتنبى

وملمومة سيفية ربعية * يصيح الحصا فيها صياح اللقالق

فان لفظة اللقالق مبتذلة بين العامة جدا وكذلك قوله

ومن الناس من تجوز عليهم • شعراء كأنها الخازباز

وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البرسام الذي ذكره في شعره حيث قال

إن بعضا من القريض هذاء • ليس شيئا وبعضه أحكام

فيه ما يجلب البراعة والفهم • وفيه ما يجلب البرسام

ومثل هذه الألفاظ إذا وردت في الكلام وضعت من قدره ولو كان معنى شريفا وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر لكن منهم المقل ومنهم المكثر حتى إن العرب قد استعملت هذا إلا أنه في أشعارها أقل فمن ذلك قول النابغة الذبياني في قصيدته التي أولها

من آل مية رائح أو مغتدي

أو دمية في مرمر مرفوعة • بنيت بآجر يشاد بقرمد

فلفظة الآجر مبتذلة جدا وإن شئت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التي تضمنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع فإنه لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه ولا بلفظ القرمد أيضا ولا بلفظ الطوب الذي هو لغة أهل مصر فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر في القرآن على وجه آخر وهو قوله تعالى وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا فعبر عن الآجر بالوقود على الطين (ومن هذا القسم المبتذل) قول الفرزدق في قصيدته التي أولها عزفت بأعشاش وما كدت تعزف

وأصبح مبيض الضريب كأنه • على سروات البيت قطن مندف

فقوله مندف من الألفاظ العامية (ومن هذا القسم) قول البحتري

وجوه حسادك مسودة • أم صبغت بعدي بالزاج

فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتذالا وقد استعمل أبو نواس هذا النوع في شعره كثيرا كقوله

يا من جفاني وملا • نسيت أهلا وسهلا

ومات مرحبا لما • رأيت مالي قلا

إني أظنك فيما • فعلت تحكي القرلا

(وكقوله)

وأغـر الجلـدة صبرته ❊ فى الناس زاغا وشقراقا
فازلت أبرى كالكى فوقه ❊ حتى دعا من تحته قاقا

(وكقوله)

وملحة بالعذل تحـب أتى ❊ بالجهل أزلت محبة الشطار

وقد استعمل لفظة الشاطر والشاطرة والشطار والشطارة كثيرا وهى من الالفاظ التى ابتذلها العامة حتى سمجت من ابتذالها وهـذه الامثلة تمنع الواقف عليها من استعمال أشباهها وأمثالها (ومن أوصاف الكلمة) أن لا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره واذا وردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وذلك اذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح فأما اذا جاءت ومعها القرينة فانها لا تكون معيبة كقوله تعالى فالذين آمنوا به وعـزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هـم المفلحون ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام وعـلى الضرب الذى هو دون الحد وذلك نوع من الهوان وهـما معنيان ضدان فحيث وردت فى هـذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعـدها خصصت معناها بالحسن وميزته عن القبح ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق الى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح مثال ذلك لو قال قائل لقيت فلانا فعزرته لسبق الى الفهم أنه ضربه وأهانه ولو قال لقيت فلانا فأكرمته وعزرته لزال ذلك اللبس (واعلم) أنه قد جاء من الكلام ما معه قرينة فأوجبت قبحه ولو لم تجئ معه لما استقبح كقول الشريف الرضى

أعزز على بان أرى لك وقد خلا ❊ من جانبيك مقاعد العوّاد

ولقد ذكر ابن سنان الخفاجى هـذا البيت فى كتابه فقال ان ايراد هذه اللفظة فى هـذا الموضع صحيح الا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشعر لاسيما وقد أضافه الى من يحتمل اضافته اليه وهم العوّاد ولو انفرد لكان الامر فيه سهلا فأما الاضافة الى من ذكره فيها اقبح لاختصاصه به هـذا حكاية كلامه وهو مرضى واقع فى موقعه ولقد كرعن ما عندنا فى ذلك فنقول قد جاءت هـذه اللفظة المعيبة فى الشعر فى القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية وهى قوله تعالى واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال وكذلك قوله تعالى

وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها
مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ألا ترى انها في هاتين الآيتين
غير مضافة الى من تقبح اضافته اليه كما جاءت في الشعر ولو قال الشاعر بدلا
من مقاعد العوّاد مقاعد الزيارة أو ما يجري مجراه لذهب ذلك القبح وزالت
تلك الهجنة وانما جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن وجاءت
على ما تراه من القبح في قول الشريف الرضي وعلى هذا ورد قول تأبط شرا

أقول للحيان وقد صفرت لهم • وطابي ويومي ضيق الجحر معور

فانه أضاف الجحر الى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل
ثقب كثقب الحية واليربوع وعلى الفرج المخصوص من الحيوان فاذا ورد مهملا
بغير قرينة تخصصه سبق الى الوهم ما يقبح ذكره لاشتهاره به دون غيره ومن ههنا
ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن لا يلسع من جحر مرتين وحيث قال
يلسع زال اللبس لأن اللسع لا يكون الا للحية وغيرها من ذوات السموم وأما
ما ورد مهملا بغير قرينة فقول أبي تمام

أعطيت لي دية القتيل وليس لي • عقل ولا حق عليك قديم

فقوله ليس لي عقل يظن أنه من عقل الشيء اذا علمه ولو قال ليس لي عليك عقل
زال اللبس فيجب اذا على صاحب هذه الصناعة أن يراعي في كلامه مثل هذا
الموضع وهو من جملة الألفاظ المشتركة التي يحتاج في ايرادها الى قرينة تخصصها
ضرورة (ومن أوصاف الكلمة) أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا
وهذا مما ذكره ابن سنان في كتابه ثم مثله بقول أبي الطيب المتنبي

ردّ على ابن سنان

إن الكرام بلا كرام منهم • مثل القلوب بلا سويداواتها

وقال ان لفظة سويداواتها طويلة فلهذا قبحت وليس الأمر كما ذكره فان
قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها وانما هو لأنها في نفسها قبيحة وقد كانت
وهي مفردة حسنة فلما جمعت قبحت لا بسبب الطول والدليل على ذلك أنه قد ورد
في القرآن الكريم ألفاظ طوال وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى فسيكفيكهم
الله فان هذه اللفظة تسعة أحرف وكقوله تعالى ليستخلفنهم في الأرض
فان هذه اللفظة عشرة أحرف وكلتاهما حسنة رائقة ولو كان الطول
مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك ألا ترى أنه لو أسقطنا من

لفظة سويداواتها الهاء والالف اللتين هما عوض عن الاضافة لبقي منها ثمانية
أحرف ومع هذا فانها قبيحة ولفظة ليستخلفنهم عشرة أحرف وهي أطول منها
بحرفين ومع هذا فانها حسنة رائقة والأصل في هذا الباب ما أذكره وهو أن
الاصول من الالفاظ لا تحسن الا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كقولنا عذب
وعسجد فان هاتين اللفظتين احداهما ثلاثية والاخرى رباعية وأما الخماسي
من الاصول فانه قبيح ولا يكاد يوجد منه شيء حسن كقولنا جحمرش وصهصلق
وما جرى مجراهما وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان
حسنتين واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين لان تلك تسعة أحرف وعشرة
وهاتان خمسة وخمسة ونرى الامر بالضد مما ذكره وهذا لا يعتبر فيه طول
ولا قصر وانما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض وقد تقدم الكلام على
ذلك ولهذا لا يوجد في القرآن من الخماسي الاصول شيء الا ما كان من اسم نبي
عرب اسمه ولم يكن في الاصل عربيا كابراهيم واسمعيل (ومما يدخل في هذا
الباب) أن تجتنب الالفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها سواء كانت طويلة
أو قصيرة ومثال ذلك قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي هي من جملة
القصائد السبع الطوال

غدائره مستشزرات الى العلا • تضل المداري في مثنى ومرسل

فلفظة مستشزرات مما يقبح استعمالها لانها تثقل على اللسان ويشق النطق بها
وان لم تكن طويلة لانا لو قلنا مستنكرات أو مستنفرات على وزن مستشزرات
لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة وربما اعترض بعض الجهال
في هذا الموضع وقال ان كراهة هذه اللفظة انما هو لطولها وليس الامر كذلك
فانا لو حذفنا منها الالف والتاء وقلنا مستشزر لكان ذلك ثقيلا أيضا وسببه
أن الشين قبلها تاء وبعدها زاي فثقل النطق بها والا فلو جعلنا عوضا من الزاي
راء ومن الراء فاء فقلنا مستشرف لزال ذلك الثقل ولقد رأيت بعض الناس
وأنا أعيب على امرئ القيس هذه اللفظة المشار اليها فاكبر ذلك لوقوفه مع شهرة
التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة
الضعيفة وقلت له لا يمنع احسان امرئ القيس من استقباح ما له من القبح
ومثال هذا كمثال غزال المسك فانه يخرج منه المسك والبعر ولا يمنع طيب

ما يخرج من فيه من خبثها بغير شئ من بعده ولا تكون له لذة ذلك الطيب
حاسة لعبث من الاستكراه فأمسكت الرجل عند ذلك (وحضر) عندي في بعض
الايام رجل من اليهود وكنت اذ ذاك بالديار المصرية وكان قد ورد في هذا الرجل
اعتقاد لمكان علمه في دينهم وغيره وكان له ذكي كذلك فجرى ذكر اللغات وان اللغة
العربية هي سيدة اللغات وانها أشرفها مكانا وأحسنها وضعا فقال ذلك
الرجل كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخرا فنفت القبيح من اللغات
قبلها وأخذت الحسن ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة فاختصر
ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني
كوميل ممالا على وزن فوعيل فجاء واضع اللغة العربية وحذف منه الثقيل
المستبشع وقال جمل فصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا وذكر
أشياء كثيرة واصدق في الذي ذكره وهو كلام عالم به (ومن أوصاف
الكلمة) أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها وهذا الوصف
يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة ولهذا اذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة
واحدة لم تستثقل وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فانه اذا توالى منها حركتان
في كلمة واحدة استثقلت ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة
على الياء لان الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء فتكون عند ذلك
كأنها حركتان ثقيلتان ولنضرب مثالا لما نحن بصدده في هذا الموضع وهو أنا نقول
اذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف وهي ج ز ع فاذا جعلنا الجيم مفتوحة
فقلنا الجزع أو مكسورة فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم
مضمومة فقلنا الجزع وكذلك اذا أولينا حركة الفتح فقلنا الجزع كان ذلك أحسن
من موالاة حركة الضم عند قولنا الجزع ومن المعلوم أن هذه الامثلة لم يكن
اختلاف حركاتها مغيرا لمخارج حروفها حتى ينسب ذلك الى اختلاف تأليف
المخارج بل وجدناها تارة تكتسي حسنا وتارة يسلب ذلك الحسن عنها فعلمنا
ان ذلك حادث من اختلاف تأليف حركاتها (واعلم) أنه قد توالت حركة الضم
في بعض الالفاظ ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقل كقوله تعالى ولقد أنذرهم
بطشتنا فتماروا بالنذر وكقوله تعالى ان المجرمين في ضلال وسعر وكقوله تعالى
وكل شئ فعلوه في الزبر فحركة الضم في هذه الالفاظ متوالية وليس بها من ثقل

ولا كراهة وكذلك ورد قول أبي تمام.

نفس يحتثه نفس • ودموع ليس تحتبس

ومغان للكرى دثر • عطل من عهده درس

شهرت ما كنت اكتمه • ناطقات بالهوى خرس

فانظر كيف جاءت هذه الالفاظ الاربعة مضمومات كلها وهي مع ذلك
حسنة لا ثقل بها ولا ينبو السمع عنها وهذا لا ينقض ما أشرنا اليه لان الغالب
أن يكون توالي حركة الضم مستثقلا فاذا شذ عن ذلك شيء يسير لا ينقض الاصل
المقيس عليه (القسم الثاني في الالفاظ المركبة) قد قدمنا القول في شرح
أحوال اللفظة المفردة وما يختص بها وأما اذا صارت مركبة فان لتركيبها حكما
آخر وذلك أنه يحدث عنه من فوائد التاليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع
أن هذه الالفاظ ليست تلك التي كانت مفردة ومثال ذلك كمن اخذ لآلئ ليست
من ذوات القيم الغالية فألفها وأحسن الوضع في تأليفها فخيل للناظر بحسن
تأليفه واتقان صنعته أنها ليست تلك التي كانت منثورة مبددة وفي عكس ذلك
من يأخذ لآلئ من ذوات القيم الغالية فيفسد تأليفها فانه يضع من حسنها
وكذلك يجري حكم الالفاظ الغالية مع فساد التأليف وهذا موضع شريف
ينبغي الالتفات اليه والعناية به (واعلم) أن صناعة تأليف الالفاظ تنقسم
الى ثمانية أنواع هي السجع ويختص بالكلام المنثور والتصريع ويختص
بالكلام المنظوم وهو داخل في باب السجع لانه في الكلام المنظوم كالسجع
في الكلام المنثور والتجنيس وهو يعم القسمين جميعا والترصيع وهو يعم
القسمين أيضا جميعا ولزوم ما لا يلزم وهو يعم القسمين أيضا والموازنة ويختص
بالكلام المنثور واختلاف صيغ الالفاظ وهو يعم القسمين جميعا وتكرير
الحروف وهو يعم القسمين جميعا (النوع الاول السجع) وحده أن يقال
تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد وقد ذمه بعض أصحابنا
من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به والا فلو كان
مذموما لما ورد في القرآن الكريم فانه قد أتى منه بالكثير حتى انه ليؤتى بالسورة
جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما وبالجملة فلم تخل
منه سورة من السور فمن ذلك قوله تعالى ان الله لعن الكافرين وأعد لهم

سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا وكقوله تعالى في سورة طـه
طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض
والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض
وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا
هو له الأسماء الحسنى وكذلك قوله تعالى في سورة ق بل كذبوا بالحق لما جاءهم
فهم في أمر مريج أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من
فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج
وكقوله تعالى والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به
نقعا فوسطن به جمعا وأمثال ذلك كثيرة ● وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام
النبي صلى الله عليه وسلم شيء كثير أيضا (فمن ذلك) ما رواه ابن مسعود رضي الله
عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قلنا إنا
لنستحي من الله يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ
الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة
ترك زينة الحياة الدنيا (ومن ذلك) ما رواه عبد الله بن سلام فقال لما قدم
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت في الناس لأنظر إليه فلما تبينت وجهه علمت
أنه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء تكلم به أن قال أيها الناس أفشوا السلام
وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام (فإن قيل)
إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرا عليه وقد كلمه بكلام مسجوع
أسجعا كسجع الكهان ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي صلى الله عليه
وسلم (فالجواب) عن ذلك أنا نقول لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقا
لقال أسجعا ثم سكت وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان فلما قال أسجعا
كسجع الكهان صار المعنى معلقا على أمر وهو إنكار الفعل لم كان على هذا
الوجه فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير وأنه لم يذم
السجع على الإطلاق ● وقد ورد في القرآن الكريم وهو صلى الله عليه وسلم
قد نطق به في كثير من كلامه حتى إنه غير الكلمة عن وجهها اتباعا لها بأخواتها
من أجل السجع فقال لابن ابنته عليهما السلام أعيذه من الهامة والسامة
وكل عين لامة وإنما أراد ملمة لأن الأصل فيها من ألم فهو ملم وكذلك قوله صلى

الله عليه وسلم ارجعن مأزورات غير مأجورات وانما أراد موزورات من الوزر فقال مأزورات لمكان مأجورات طلبا للتوازن والسجع وهذا مما يدلك على فضيلة السجع على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن انكار سجع الكهان عندي فيه نظر فان الوهم يسبق الى انكاره يقال فاسجع الكهان الذي يتعلق الانكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والجواب عن ذلك أن النهي لم يكن عن السجع نفسه وانما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع الا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنين بغرة عبد أو أمة قال الرجل أأدى من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجعا كسجع الكهان أي أتتبع سجعا كسجع الكهان وكذلك كان الكهنة كلهم فانهم كانوا اذا سئلوا عن أمر جاؤا بالكلام مسجوعا كما فعل الكاهن في قصة هند بنت عتبة فانه قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها ثمرة في كمرة فقيل له نريد أبين من هذا فقال حبة بر في احليل مهر والحكاية مشهورة فلهذا اختصرناها هنا وكذلك قال سطيح فانه قال عبد المسيح جاء الى سطيح وهو موف على الضريح لرؤيا الموبذان وارتجاس الايوان وأتم الكلام الى آخره مسجوعا والحكاية مشهورة أيضا فلهذا اختصرناها فالسجع اذا ليس بمنهي عنه وانما المنهي عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجعا كسجع الكهان أي احكما كحكم الكهان والا فالسجع الذي أتى به ذلك الرجل لا بأس به لانه قال أأدى من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك بطل وهذا كلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه وانما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة (واعلم) أن الاصل في السجع انما هو الاعتدال في مقاطع الكلام والاعتدال مطلوب في جميع الاشياء والنفس تميل اليه بالطبع ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد اذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الادباء سجاعا ومامن أحد منهم ولو شدا شيأ يسيرا من الادب الا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتي بها في كلامه بل ينبغي أن تكون الالفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة وأعني بقولي غثة باردة

أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملون وهذا مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا فإذا صفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوبا آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما . ومما يدلك على هذا الأمر أنك إذا صغت معنى من المعاني ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك ذلك إلا بالإرداف في ذلك اللفظ أو نقصان منه ولا يكون محتاجا إلى الزيادة ولا إلى النقصان وإنما تفعل ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه وإذا دللت عليه بلفظ لا يكون مسجوعا إلا أن تضيف إليه شيئا آخر أو تنقص منه فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذي يذم من السجع ويستقبح لما فيه من التكلف والتعسف وأما إذا كان محمولا على الطبع غير متكلف فإنه يجيء في غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام وإذا تأتى للكاتب أن يأتي به في كتابه كله على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها ومثل ذلك عليه عسير ومرامه عليه عاص ولصاحبه أولى بقول أبي الطيب المتنبي

أبا اوحد إذا أدركت طارقة • ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا

(قال قائل) فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت إليه فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعا وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع (قلت في الجواب) إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتي جميعها مسجوعة وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار والسجع لا يواتي في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب وههنا وجه آخر هو

أقوى من الاول ولذا الثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع
وانما تضمن القرآن غير المسجوع لان ورود غير المسجوع معجزا أبلغ في باب
الاعجاز من ورود المسجوع ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا (واعلم)
ان للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة فان عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به
أصلا وهذا شئ لم ينبه عليه أحد غيرى وسأبينه ههنا وأقول فيه قولا هو أبين
مما تقدم وأمثل لك مثالا اذا حذوته أمنت الطاعن والعائب وقيل في كلامك
ليبلغ الشاهد الغائب والذى أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من
السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها
فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه لان التطويل انما هو الدلالة
على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها واذا وردت سجعتان يدلان على معنى
واحد كانت احداهما كافية في الدلالة عليه وجل كلام الناس المسجوع جار
عليه واذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابى وابن العميد وابن عباد وفلان
وفلان فانك ترى أكثر المسجوع منه كذلك والاقل منه على ما أشرت اليه ولقد
تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما واكبابهم
عليهما فوجدت الاكثر من السجع فيهما على الاسلوب الذى أنكرته فالكلام
المسجوع اذا يحتاج الى أربع شرائط الاولى اختيار مفردات الالفاظ على
الوجه الذى أشرت اليه فيما تقدم الثانية اختيار التركيب على الوجه
الذى أشرت اليه أيضا فيما تقدم الثالثة أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع
تابعا للمعنى لا المعنى تابعا للفظ الرابعة أن تكون كل واحدة من الفقرتين
المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها فهذه أربع شرائط
لابد منها * وسأورد ههنا من كلامى أمثلة تحتذى حذوها فانى لما سلكت هذه
الطريق وأتيت بكلامى مسجوعا توخيت أن تكون كل سجعة منه مختصة بمعنى
غير المعنى الذى تضمنته أختها ولم أخل بذلك في مكاتباتى كلها واذا تأملتها علمت
صحة ما قد ذكرته (فن ذلك) ما كتبته في صدر كتاب عن بعض الملوك الى دار
الخلافة وهو الخادم واقف موقف راج هائب لازم بكتابه هذا وقار حاضر عن
شخص غائب موجه وجهه الى ذلك الجناب الذى تقسم فيه أرزاق العباد
ويتأدب به الزمان تأدب ذوى الاستعباد وتستمد الملوك من خدمته شرف

الجدود كما تستغنى شمسها اليه من شرف الاجداد ولو ملك الغلام نفسه
لقصرها على خدمة قصره وأخلاها من النظر اليه بورد العين تمد عمرها
محسوب من عمره وهذا القول يقوله كل ماجد فيه حامد وشاكر له راكع
ساجد والديوان العزيز محمود الاقتراب وهو موطن الرغبات الذى
الاقتراب اليه ليس بالاغتراب وما ينتمى فى القرب من أبوابه الكريمة الا
ذوو الهمم الكريمة وقد ودت الكواكب بأسرها أن تكون له منادمة
فضلا عن ندمان جذيمة (ومن ذلك) ما كتبته من كتاب يتضمن الشكاية من
الناس وهو الكريم من أوجب لنا الله حقا وجعل كواذب آمالنا صدقا
وكان شرف الفضائل منه خلقا ولم يجز بين ذمه وبين رحمه فرقا وكل ذلك موجود
فى كرم مولانا أبراه الله من فضله على رتبة وجعل همه على تمام كل نقص قديرة
وأوجد من كل بعد سرورا كما أودع من كل قلب سريرة ولا زالت يده بالمكارم
جديرة ومن الأيام مجيرة ولشرائرها من الغمار والسحاب مغيرة ولا برحت
تستولد عقائم المعانى وتستجد أبنيتها حتى تشهد الناس منها فى كل يوم
مضغة أو وكيرة ومن صفات كرمه أنه يسبك الاموال ما تنز ويتخذها عند
النزال ذخائر فهى تنفق عليهم بالانفاق وذكرها على مرور الايام باق ومن
أربح منه صفقة وقد باع صامتا بناطق وما هو معترض لحادثات السرقات
بالانعمال اليه خارق ومثله من عرف الدنيا فرغب عن اقتنائها وجد فى ابتناء
المحامد بهدم بنائها وعلم أن مال البخيل عند الضنين به الأحجار وأن غناه منها
لا يزيده الا افتقارا فهو لماله عبد يخدمه ولا يستخدمه وإن ترك جمعها
ولا تنفعه (ومنه) ما كتبته فى جواب كتاب يتضمن اباق غلام وهو أول كتاب
ورد من المكتوب عنه الى المكتوب اليه فقلت وأما الاشارة الكريمة فى أمر
الغلام الآبق عن الخدمة فقد يتزايد من علقه وبطير الفراش الى حرقه
وغيره بعيد أن يذوبه منصبه أو يكبر به مطمعه فيرجع ولد بعد من رجوعه
ما ذمه من ذهابه وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة فى ايابه فما كل شجرة تظلل ذاتها
ولا كل دار ترحب بساكنها ومن أبق عن مولاه مغاضبا وجانب ظل احسانه
الذى لم يكن له محاربا فانه يجد من مفارقة الاحسان ما يجده من مفارقة معاهد
الاوطان وهل أضل سعيا من دفع فى صدر العافية وغدا يسأل عن الاسقام

وألقى الثروة من يده ومضى فى طلب الاعدام ومع هذا فان الخادم بشكره على ذنب الاباق الذى أقدم على اجترامه وليس ذلك الالانه صار سببا لافتتاح باب المكاتبة الذى لم يطمع فى افتتاحه ولا يجزاه عنده الا السعى فى اعادته الى الخدمة التى تقلب فى اثنائها وهى أبر به من أمه التى تقلب فى أحشائها ومن فضلها أنها تلقاه من حاها بوسيلة الشافع ومن كرمها بالوجه الضاحك والفضل الواسع (فانظر) أيها المتأمل الى هذه الاسجاع جميعها وأعطها حق النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها وكذلك فليكن السجع والافلا وسأورد هنا من كلام الصابى ما ستراه (فمن ذلك) قوله فى كتاب فقال الحمد لله الذى لا تدركه الاعين بألحاظها ولا تحده الالسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها ثم انتهى الى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لم ير للكفر أثرا الا طمسه ومحاه ولا رسما الا أزاله وعفاه ولا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور وكذلك لا فرق بين محو الاثر وعفاء الرسم (ومن كلامه) أيضا فى كتاب وهو وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الايام ومتعاقب الاعوام تعتل طورا وتصح أطوارا وتلتاث مرة وتستقل مرارا من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع وبنيانها ثابت لا يتضعضع وهذه الاسجاع كلها متساوية المعانى فان الاعتلال والالتياث والطور والمرة والرسوخ والثبات كل ذلك سواء وكذلك ورد له فى جواب كتاب كتبه عن عز الدولة بن بويه جوابا عن كتاب وصل من الامير عبد الكريم ابن المطيع لله فقال وصل كتابه مفتتحا من الاعتزاء الى امارة المؤمنين والتقلد لامور المسلمين بما أعراقه الزكية مجوزة لاستقراره وأرومته العلية مسوغة لاستقراره له ولكل نصيب أخذ بحظه من نسبه وضارب بسهم فى منصبه اذ كان ذلك جاريا على الاصول المعهودة فيه والاسباب العاقدة له من اجماع المؤمنين كافة فان تعذر اجتماعهم مع انبساطهم فى الارض وانتشارهم فى الطول والعرض فلا بد من اتفاق أشراف كل قطر وأفاضله وأعيان كل صقع وأماثله وهذا الكلام كله متماثل المعانى فى أسجاعه فان امارة المؤمنين والتقلد لامور المسلمين سواء فى المعنى وكذلك الاعراق والارومة والتجويز والتسويغ والاشراف والافاضل والاعيان والاماثل

والقطار

والقطر والمقع كل ذلك سواء (وعلى هذا) جاء كلامه فى كتاب آخر فقال يسافر رأيه وهو دانٍ لم يتزح ويسير تدبيره وهو ناوٍ لم يبرح وكلا هذين سواء أيضا وما أحسن هذا المعنى لو قال يسافر رأيه وهو دان لم يبرح ويثخن الجراح فى عدوه وسيفه فى الغمد لم يجرح فانه لو قال مثل هذا سلم من هجنة التكرار وأمثال ذلك فى كلام الصابى كثير ٭ وعلى منواله نسج الصاحب بن عباد (فمن ذلك) ماذكره فى وصف مهزومين فقال طاروا واقين بظهورهم صدورهم وبأصلابهم نحورهم وكلا المعنيين سواء (وكذلك) قوله فى هذا الكتاب بصف ضيق مجال الهارب مكان ضنك على الفارس والراجل ضيق على الرامح والنابل (ومن كلامه) فى كتاب وهو لاتتوجه همته الى أعظم مرغوب الاطاع ودان ولاتعتذ عزيمته الى أجل مطلوب الاكان واستكان وكل هذا الذى ذكره شئ واحد (وله من كتاب) وهو وصل كتابه جامعا من الفوائد أشذاذا للشكر استحقاقا واقتها للحمد استغراقا وتعرفت من احسان الله فيما وفره من سلامته وهناه من كرامته أنفس موهوب ومطلوب وأحمد مرغوب ومخطوب وهذا كله مماثل المعانى متشابه الالفاظ وفيما أوردته ههنا مقنع فأنم تطرلت أيها الواقف على هذا الكتاب فيما بينته لك ووضعت يدك عليه حتى تعلم كيف تأتى بالمعانى فى الالفاظ المسجوعة والله الموفق للصواب (فان قيل) انك اشترطت أن تكون كل واحدة من الفقرتين فى الكلام المسجوع دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها وانما اشترطت هذه الشريطة فرارا من أن يكون المعنيان شيأ واحدا ونرى قد ورد فى القرآن الكريم لفظتان بمعنى واحد فى آخر احدى الفقرتين المسجوعتين كقوله تعالى واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكل رسول نبى (قلت فى الجواب) ليس هذا كالذى اشترطته أنا فى اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذى اختصت به أختها وانما هذا هو ايراد لفظتين فى آخر احدى الفقرتين بمعنى واحد وهذا لابأس به لمكان طلب السجع الاترى أن أكثر هذه السورة التى هى سورة مريم عليها السلام مسجوعة على حرف الياء وهذا يجوز لصاحب السجع أن يأتى به وهو بخلاف ما ذكرته أنا الاترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد غير اللفظة عن وضعها طلبا للسجع فقال

مأزورات وانما هي موزورات وقال العين الائمة وانما هي الملمة اذ انه ليس في ذلك زيادة معنى بل يفهم من لفظة مأزورات أنها قائمة مقام موزورات وكذلك يفهم من لفظة لامّة أنها بمعنى ملمّة فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة وأجيز معه أن يورد لفظتان بمعنى واحد في آخر احدى القرينتين ومع هذا لم يجز في استعماله ان يورد قرينتان بمعنى واحد لانه تطويل محض لا فائدة فيه وبين الذي ذكرته أنت وبين الذي ذكرته أنا فرق ظاهر (والذي قدمته) من الامثلة المصوغة للصابي والصاحب بن عباد ربما كانت يسيرة أتهم فيها بالتعصب ويقال انى التقطتها التقاطا من جملة رسائلهما وقد خرجت من عهدة هذه التهمة وذلك أنى وجدت للصابي تقليدا بنقابة الاشراف العلويين ببغداد وكنت أنشأت تقليدا بنقابة الاشراف العلويين بالموصل وقد أوردت التقليدين ههنا ليتأملهما الناظر في كتابي هذا ويحكم بينهما ان كان عارفا أو يسأل عنهما العارف ان كان مقلدا وقد أوردت تقليد الصابي أولا لانه المتقدم زمانا وفضلا وهو هذا ما عهد أمير المؤمنين الى محمد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي حين وصلته به الانساب وتأكدت له الاسباب وظهرت دلائل عقله وابانته ووضحت مخايل فضله ونجابته ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين ما مكن له عند أمير المؤمنين من المحل المكين ووصفه به من الحلم الرزين وأشاد به فيه من رفع المنزلة وتقديم المرتبة والتأهيل لولاية الاعمال والحمل للاعباء الثقال وحيث رغبه فيه سابقة الحسين أبيه في الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة والمقامات المشهودة التي طابت بها أخباره وحسنت فيها آثاره وكان محمد مضطلعا بخلائقه وذاهبا في طرائقه علما وديانة وورعا وصيانة وعفة وأمانة وشهامة وصرامة بالحظ الجزيل من الفضل الجليل والادب الجزل والتوجه في الاهل والايفاء بالمناقب على لداته وأترابه والابراء على قرنائه وأضرابه فقلده ما كان داخلا في أعمال أبيه من نقابة نقباء الطالبيين أجمعين بمدينة السلام وسائر الاعمال والامصار شرقا وغربا وبعدا وقربا واختصه بذلك تحببا بصنعه وانافة بقدره وقضاء لحق رحمه وترفيها لابيه واسعافا له بايثاره فيه أمر أمير المؤمنين واستقلاله عليه من الشارق الطالع وتيسير الجميع في المراسم والله يعقب أمير المؤمنين فيما

أمر ودبر حسن العاقبة فيما انتهى وأمضى وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله
عليه يتوكل واليه ينيب وأمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين وسناء
الصالحين وعصمة عباد الله أجمعين وأن يعتقدها سرا وجهرا ويعتقدها
ولا ونه لا ويأخذهم بها ويعطي ويسر بها وينوي ويأتي ويذر ويورد
ويصدر فانها السبب المتين والمعقل الحصين والزاد النافع يوم الحساب
المسالك المفضي الى دار الثواب وقد حض الله أولياءه عليها وهداهم في محكم
كتابه اليها فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين
أمره بتلاوة كتاب الله مواظبا وتصفحه مداوما ملازما والرجوع الى
محكمه فيما أحل وحرم ونقض وأبرم وأثاب وعاقب وباعد وقارب فقد
سر الله برهانه وحجته وأوضح منهاجه ومحجته وجعله نورا في الظلمات طالعا
وللمشكلات ساطعا من أخذ به نجا وسلم ومن عدل عنه هوى وندم
انه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
وأمره بتزيه نفسه عما تدعو اليه الشبهات وتطلع اليه
شهواتها طالما يكفها كف الحكيم ويجعل عقله
مميزة آمرا ناهيا لها ولا يجعل لها عذرا الى صبوة ولا هفوة
ما عند نوره ولا فوره فانها أمارة بالسوء منصبة الى الغي فمن
اتبعها هوى فالحازم متهم عند تحركها طارها وأربه واضباح
بقضها بالشكيم ويعركها عرك الاديم ويقودها الى مصالحها
هامن مقارفة المآثم والمحارم كما يعز بتدليلها وتأديبها
وتقويمها والمفرط تطمع به اذا طمحت ويجمح معها اذا
أن نورده حيث لا يصدر وتطيشه الى أن يتندر وتقيمه
مقام النادم الواجم وتتنكب به سبيل الراشد السالم وأحق من تحلى
بالمحاسن وتصدى لاكتساب المحامد من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين
الشريف ومنصبه المنيف واجتمع معه في ذؤابة العترة الطاهرة واستظل
بأوراق الدوحة الفاخرة فذلك الذي تتضاعف به المآثر آثرها والمثالب
ان أسف اليها ولا سيما من كان منه وبابا السياسة ومرشحا للتقليد على أهله اذ
ليس يفي بالصلاح لمن ولي عليه ولا يفي باصلاح ما بين جنبيه ومن أعظم الهيبة

عليه أن يأمر ولا يأتمر ويزجر ولا يزدجر قال الله تعالى ذكره أتأمرون
الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وأمره أن
يتصفح أحوال من ولي عليهم من استقراء مذاهبهم والبحث عن بواطنهم
ودخائلهم وأن يعرف لمن تقدمت قدمه منهم وتظاهر فضله فيهم منزلته
ويوفيه حقه ورتبته وينتهي في اكرام جماعتهم الى الحدود التي توجبها أنسابهم
وأقدارهم وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم فان ذلك يلزمه لشيئين أحدهما
يخصه وهو النسب الذي بينه وبينهم والآخر يعمه والمسلمين جميعا وهو قول الله
جل ذكره قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى فالمودة لهم الاعظام
لأكابرهم والاشتمال على أصاغرهم واجب متضاعف الوجوب عليه
متأكد اللزوم له ومن كان منهم في دون تلك الطبقة من أحداث لم يحتنكوا عليه
وجذعان لم يقرحوا ويجرون الى ما يزري بأنسابهم ويغض من أحسابهم
عذلهم وأدبهم ونهاهم ووعظهم فان نزعوا وأقلعوا فذاك المراد بهم
والمقصد فيهم وان أصروا وتتابعوا أنالهم من العقوبة بقدر ما يكف ويردع
فان نفع والا تجاوزه الى ما يلذع ويوجع من غير تطرق لأعراضهم ولا
امتهان لأحسابهم فان الغرض منهم الصيانة لا الاهانة والادالة لا الازالة
واذا وجبت عليهم الحقوق أو تعلقت بهم دواعي الخصوم قادهم الى الاعفاء بما
يصح منها ويجب والخروج الى سنن الحق فيما يشتبه ويلتبس ومتى لزمتهم الحدود
أقامها عليهم بحسب ما أمر الله تعالى فيها بعد أن تثبت الجرائم وتصح وتبين
وتتضح وتتجرد عن الشك وتتجلى من الظن والتهمة فان الذي يجب في حدود
الله عز وجل أن تدرأ مع نقصان اليقين والصحة وأن تمضي عليهم مع قيام
الدليل والبينة قال الله عز وجل ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون
وأمره بمحافظة أهل النسب الاطهر والشرف الافخر عن أن يدعيه الادعياء
أو يدخل فيه الدخلاء ومن انتمى اليه كاذبا أو انتحله باطلا ولم يوجد له بيت
في الشجرة ولا مصداق عند النسابين المهرة أوقع به كذبه ونقصه وشهره
شهرة ينكشف بها غشه ولبسه وينزع بها غيره ممن تسول له ذلك نفسه وأن
يحصن الفروج عن مناكحة من ليس كفؤا لها في شرفها وفخرها حتى لا يطمع
في المرأة الحسيبة النسيبة الا من كان مثلا لها مساويا ونظيرا موازيا فقد قال الله

تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وأمره
براعاة منتمى أهله ومتهجديهم وصلحائهم ومجاوريهم وأراملهم وأصاغرهم
حتى تستد الخلة من أحوالهم وتدر المواد عليهم وتتعادل أقساطهم فيما يصل
اليهم من وجوه أموالهم وأن يزوج الايامى ويربى اليتامى ويلزمهم المكاتب
ليتلقنوا القرآن ويعرفوا فرائض الاسلام والايمان ويتأدبوا بالآداب
اللائقة بذوى الاحساب فان شرف الاعراق يحتاج الى شرف الاخلاق
ولا يحمد لمن شرف نفسه حسبه ومقت أدبه اذ كان لم يكتسب الفخر الحاصل
بفضل سعى ولا طلب ولا اجتهاد بل بصنع الله تعالى له ويزيد المنة عليه
ويجب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية والاعتداد بما
فيها من المزية واعمال النفس فى حيازة الفضائل والمناقب والترفع عن
الرذائل والمثالب وأمره باجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره
أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر والاخذ للمظلوم من الظالم وأن يجلس
للمترافعين اليه جلوسا عاما ويتأمل كلامهم تأملا تاما فما كان منها متعلقا
بالحاكم رده اليه ليعمل الخصوم عليه وما كان من طريقة الغشم والظلم
والتغلب والغصب قبض عنه اليد المبطلة وثبت فيه اليد المستحقة وتحرى
فى قضاياه أن تكون موافقة للعدل ومجانبة للخذل فان عادة الحكام وصاحب
المظالم واحدة وهى اقامة الحق ونصرته وابانته وانارته وانما يختلف سبيلاهما
فى النظر اذ كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر وصاحب المظالم يفحص
عما غمض واستتر وليس له مع ذلك أن يرد الحاكم حكومة ولا يحل له قضية
ولا يتعقب ما ينفذه ويمضيه ولا يتتبع ما يحكم به ويقضيه والله يهديه ويوفقه
ويسدده ويرشده وأمره أن يسير حجيج بيت الله عز وجل الى مقصدهم
ويحميهم فى بدأتهم وعودتهم ويرتبهم فى مسيرهم ومسلكهم ويرعاهم
فى ليلهم ونهارهم حتى لا تنالهم شقة ولا تصل اليهم مضرة وأن يحلهم
فى المنازل ويوردهم المناهل ويناوب بينهم فى النهل والعلل ويمكنهم من
الارتواء والاكتفاء مجتهدا فى الصيانة لهم ومعذرا فى الذب عنهم ومتلوما على
متأخرهم ومنتظرا لهم ومنهضا الضعيف منهم ومهيضهم فانهم حجاج بيت الله
الحرام وزوار قبر رسوله عليه الصلاة والسلام قد هجروا الاهل والاوطان

وفارقوا الجيرة والاخوان وتجشموا المغارم الثقال وتعسفوا السهولة والجبال
يلبون دعاء الله ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه وحقيق على
المسلم أن يحرسهم متبرعا ويحوطهم متطوعا فكيف من تولى ذلك وضمنه
وتقلده واعتقبه قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه
سبيلا وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام واطرافها واقطارها
واكنافها وأن يجبي أموال وقوفها ويستقصي جميع حقوقها وأن يلم
شعثها ويسد خللها بما يتحصل من هذه الوجوه قبله لا يزيل رسما جرى
ولا ينقض عادة كانت لها وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها
ويذكر اسمه بعده بأن عمارتها جرت على يده وصلاح أداه تولي أمير المؤمنين في ذلك
تنويها باسمه واشادة لذكره وأن يولي ذلك من قبله من حسنت أمانته وطهرت
عفته وصيانته فقد قال الله جل من قائل انما يعمر مساجد الله من آمن بالله
واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا
من المهتدين وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الاعمال
في الامصار الدانية والنائية والبلاد القريبة والبعيدة من يثق به من صلحاء
الرجال ذوي الوفاء والاستقلال وأن يعهد اليهم مثل ما عهد اليه ويعتمد
عليهم مثل ما اعتمد عليه ويستقصي في ذلك آثارهم ويتعرف أخبارهم فمن
وجده محمودا اقره ومن وجده مذموما صرفه ولم يمهله واعتاض من ترجى
الامانة عنده وتكون الثقة موجودة منه وأن يختار لكتابته وحجابته والتصرف
فيما قرب منه وبعد عنه من يزينه ولا يشينه وينصح له ولا يغشه ويجمله
ولا يهجنه من الطبقة المعروفة بالعفاف المتصونة عن السخف ويجعل لهم من
الارزاق الكافية والاجرة الوافية ما يصدهم عن المكاسب الذميمة والمآكل
الوخيمة فليس تجب عليهم الحجة الا مع اعطاء الحاجة قال الله تعالى وأن ليس
للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وأمره أن
يكتب لمن تقوم بينته عنده وتنكشف له حجته الى أصحاب المعارف بالشد
على يده وايصال حقه اليه وحسم الطمع الكاذب فيه وقبض اليد الظالمة
عنه اذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه وان يوقف عند رسمه وحده هذا
عهد أمير المؤمنين اليك وحجته لك وعليك قد أبان فيه سبيلك وأوضح دليلك

وهداك الرشد وجعلك على بينة من أمرك فاعمل به ولا تخالفه وانته إليه
ولا تتجاوزه وإن عرض لك عارض يعجزك الوفاء به ويشتبه عليك الخروج منه
أنهيته إلى أمير المؤمنين مبادرا وكنت إلى ما يأمرك به صائرا إن شاء الله تعالى
(وأما التقليد الذي أنشأته أنا) فقد أوردته بعد هذا التقليد وهو أما بعد فإن
كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم وكل كتاب لا يرقم باسمه فليس بعلم
وعلى هذا فإن حمده يتنزل من الكلام منزلة الأعضاء من الأجسام واسمه
يتنزل من الكتاب منزلة الرقوم من الثياب وقد جمعنا في كتابنا هذا بين التسمية
والتحميد وجعلنا أحدهما مفتاحا للتيمن والآخر سببا للمزيد ثم ردفناهما
بالصلاة على سيدنا محمد الذي أيده الله بالقرآن المجيد وجعل شهادته قبل كل
شهيد وعلى آله وصحبه الذين هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط
الحميد وبما يقترن بهذه الصلاة في ثوابها ويجري على أعقابها النظر في أمر
الأسرة النبوية التي وصل ودها بوده وجعلها إحدى الثقلين المخلفين من بعده
وقد تقادم الآن زمانها وتشعبت أغصانها ونسي ما لها في الرقاب من عهدة
الأمانة ولم توضع فيما وضعها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من المكانة
وأولى الناس بها من أضحى ولاؤها حقا وأوجب أن يرد معها الحوض حين يقال
لوارده سحقا وكان من تحت يده منها بارا رفيقا حتى لا يسأله برا ولا رفقا ونحن
نرجو أن نفوز بفضيلة هذه الحسنة وأن نسبق إليها سبق المتقرب في الجمعة ببدنة
ومن أهم أمورها أن يختار لها زعيم يرأف بها رأفة الوالد بولده ويقوم بأمرها
قيام الرأس بجسده حتى تأتلف أصولها كائتلاف مغرسها ولا يحكم عليها
من ليس من أنفسها وقد اخترنا لها من وفقنا في اختياره وأخذنا فيه
ببيان الرأي وحزمه لا بشبهة الهوى واغتراره ولو لم يكن من القوم الذين ولوها
لكان استحقاقه لها بينا والتعويل عليه متعينا فكيف وقدمه فيها قديمة
الميلاد ووراثته إياها عن سيادة الجدود وجدود الأجداد وهو أنت
أيها السيد الأجل الشريف الحسيب النسيب فلان بن فلان الحسيني ولو شئنا
لأسندنا هذه النسبة كابرا عن كابر ونضدناها آخرا بعد أول عن أول قبل آخر
حتى وصلنا هذا الفرع بشجرته الطيبة وهذا القطر بسحابته الصيبة وشرف
الأنساب أصدقها ما كان الدهر به شهيدا وأجدها ما كان قديما وأخلقه

ما كان جديدا وما تولى الروح الامين مدحه قرآنا أكرم مما تولى الشعراء مدحه قصيدا ولا افضل لمعتزى الى هذا النسب حتى تطوق النبوة بالابوة ويضيف درجة الفضيلة الى محتد النبوة وحينئذ يقال ما أقرب الشبه لى قدم بعهده وهذا ماء الورد بمدد ذهاب ورده وأنت ذلك الرجل الذى تردد الشرف فى مناسبه تردد القمر فى منازله وزها الجد بمناقبه زهو الروض فى خمائله فلا جرم حسبك تغنيك عن سؤال من وما وتلا جودك وجدك قلبا وغيا والحسب ما حفظت أواخره أوائله وأوضحت الليالى والايام دلائله وأقرت به الاعداء فما ردت فضائله وهذه هى المآثر التى اذا أقامت غارت الشعراء عليها من الشعر واذا نثرت وجدت فى محكم الذكر وأنت صاحبها وابن صاحبها ومن لم يرثها عن أباعد ها بل عن أقاربها ولو جانبت رياستها مصانعا ومشيت بالضراء متواضعا لدل عليك وصفها وعرف منك عرفها وقد قلدناك أمر هذه الاسرة الطاهرة التى هى أسرتك وأمرناك عليها وامرتها امرتك فتولها تولى من يخفض لها جناحه وأفاض عليها سماحه وأنضى فيها فصد قه وروا حه حتى يقال انك الراعى الذى تناول ثلثه فاراح حسيرها وجبر كسيرها وارتاد لها خصبا وأوردها رونقها الاغبا وأذكى فى كلائتها عينا وقلبا ومن حقها عليك أن تنظر الى ذات شمالها وذات يمينها وتتصفح أحوالها فى أمر دنياها ودينها فأول ذلك أن تعلمها كتاب الله تعالى الذى فى تعليمه نهج الصواب وفى تلاوته مضاعفة حسنات الثواب وقد مثل قارئه بالبيت العامر وتاركه بالبيت الخراب وهو كتاب امتاز عن الكتب بنجوم التنزيل وتولى الله حفظه من التحريف والتبديل واختصه بالسبع المثانى التى لم ينزل مثلها فى التوراة ولا فى الانجيل وهو الموصوف بأنه النور المستضاء به فى غياية الظلماء والحبل الممدود من الارض الى السماء والبحر الذى لا يستخرج لؤلؤه ومرجانه الا الراسخون من العلماء وكذلك فخذ هذه الاسرة بتعليم الفضائل التى تتفاوت بها القيم وسمها رياضة الآداب وتهذيب الشيم ولا تتركها فوضى لا يتسم أحدها بسمة القدر المنيف ولا يرجع الى حسب تليد ولا الى سعى طريف وتكون غاية ما عنده من الفضيلة أن يقال فلان الشريف ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أن توفى فضل مكانها وتخالف

بين

بين شأن غيرها من المسلمين وبين شأنها فلا تبتذل بمجالس الولاة في انتزاع ظلامة ولا في اقامة حق يطلب معه رداء الكرامة وأنت تتولى ذلك منها فما وجب عليها من حق تخذها باقتضائه وأمض فيها حكم الله الذى أمر بامضائه ولكن ذلك على وجه الرفق الذى يسلس له القياد ويوطأ له المهاد وان أمكنك اقتداء شئ من هذه الظلامات التى تتوجه عليها فافعل وقد أتم الله فضلها بمنع كرائمها الامن كفؤ لا دنائة فى عنصره ولا غضاضة فى مخبره وهو الذى ان فاته شرف النبوة فى مغرسه فلم يفته شرف النباهة فى معشره واذا تباينت الاقدار فلا فرق بين المناكح المخطوبة وبين الاسلاب المسلوبة فاحفظ لاسرتك حرمة هذه المنزلة واجعلها فى كتاب الوصايا التى وصيت بها مكان البسملة وكما أمرناك بالنظر فى صون أقدارها فكذلك نأمرك بالنظر فى حفظ مادة درهمها ودينارها وقد علمت أن لها ارتفاقا وفيها قوم خلطوا بأيرها واسمها وستصطلى أنت بالعدل فى قسمها فأجر على كل منها رزقه وأعط كل ذى حق حقه وفى الناس طائفة أدعياء يرومون الحاق الرأس بالذنب والنبع بالغرب ويلحقون أبا الغيران وأبناء الغيراب كل ذلك رغبة فى سحت يأكلونه لا فى نسب يوصلونه فنقب عن حال هؤلاء تنقيبا واجعل النسيب نسيبا والغريب غريبا حتى تخلص السلالة من طراقها وتبقى الشجرة قائمة على أعراقها ومن علمت كذبه فازجره بأليم الازدجار وأعلمه بأنه قد تبوأ مقعده من النار وأشهره فى الناس حتى ينتهى وينتهى غيره بذلك الاشتهار وههنا وصية هى أهم من هذه الوصية أمرا وأعظم أجرا وأجدر بأن تكون هى الاولى وتكون هذه الاخرى وهى الاخذ على السنة السفهاء من الخوض فيما شجر بين آل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه واظهار العصبية التى تزحزح الحق عن نصابه وترجعه على أعقابه وليس مستندها الا مقالات ذوى الجهل وربما نشأ منها فتنة والفتنة أشد من القتل فوكل بهؤلاء قرباقاطعا ونهيا قامعا وكن فى ذلك شارعا لما كان الله شارعا فأولئك السادات هم النجوم الذين بأيهم كان الاقتداء كان به الاهتداء وقصارى المحسن فى هذا الزمان أن يتعلق منها سببا ويأخذ عنهم دينا وأدبا ولا يبلغ مدأحدهم ولا نصيفه ولو أنفق مثل أحد ذهبا ونحن نعلم أنك واقف على سنن اقتصادك وأن هذه الوصية هى محض اعتقادك والمنصف فى هذا المقام

من رمقه بنظر جلى ووفى أبابكر وعمر رضى الله عنهما حقهما وان كان من نسل
على فكل قد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضله وهؤلاء من صحابته
وهذا من أهله ونعوذ بالله من الاهواء الزائغة والاقوال التى ليست بسائغة
ولا حجة الا بالحق ولله الحجة البالغة وقد جعلناك فى مالنا عطاء دارا نستعين به
على لوازم النفقات وتخرج نافلته فى وقاية عرضك التى هى محسوبة من
الصدقات فانه من سادة وما يفتقر الى تحمل أثقالهم والافاضة من ماله
على أموالهم وهذا بر يكون منا أصله ومنك فرعه وثواب يكون لك قصده
ولنا شرعه وصاحب الاحسان من سن سبيل الاحسان ولم نزمن أن أرينا لك
مكانه حتى أمددناك فيه بالامكان فأعط مالنا وتعلم من سنة افضالنا ولدولتنا
بذلك ثوب جمال كلما لبس زاد جدة وعمر ذكر كلما مضت عليه مدد الايام طال
مدة ولا ملك فى الدنيا لمن لم يحصل ملكه حديثا حسنا وبشر المحامد فيجعلها لها
ثمنا ومن عرف قدر الثناء جد فى تحصيله ولو أنفق الكثير قبله فكم من
دولة أعدمت منه فدرست آثار معالمها ولو كانت منه مثرية لما ذهبت مع بقاء
مكارمها واذ ذكرنا هذا فلنختمه بما يكون قلادة لصاحب هذا التقليد وهو أن
تجرد العناية بوجاهته حتى يلبس تقدما بذلك التجريد وتحوى ذلك أن يعلم الناس
ماله فى الدولة من منزلة الكرامة ويعرفوا أنه فيها ابن جلا غير محتاج الى وضع
العمامة ونحن نأمر نوابنا وولاتنا وأصحابنا أن يوقروه حق أبوته الشريفة
وفضيلته التى ردفتها فأضحت وهى لها رديفة وأن يطعوه ما شاء من املاء شانه
ويتصرفوا فعل يده وقول لسانه ان شاء الله تعالى (وقد وجدت للصابى) أيضا تقليدا
أنشأه لفخر الدولة أبى الحسن بن ركن الدولة أبى على بن بويه عن الخليفة الطائع
رحمه الله وهو مثبت ههنا على صورته وكان عرض على تقليد كتب للملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن أيوب من الخليفة المستضئ بالله رحمه الله فى سنة احدى
وسبعين وخمسمائة فوجدت فيه كلاما نازلا بالمرة وسألنى بعض الاخوان بمدينة
دمشق أن أعارضه فعارضته بتقليد فى معناه وهو مثبت ههنا أيضا وكلا
التقليدين بأمم ملك كبير وفيهما ما يظهر ما يظهر من فصاحة وبلاغة
(فأما التقليد) الذى أنشأه الصابى فهو هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الطائع
لله أمير المؤمنين الى فخر الدولة أبى الحسن بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين

ورق وكظم الغيظ اذا أحفظ وضبط اللسان اذا أغضب وكف اليد عن المآثم
وصون النفس عن المحارم وأن يذكر الموت الذى هو نازل به والموقف الذى هو
صائر اليه ويعلم أنه مسؤل عما اكتسب مجزى عما نزل واحتقب ويتزود
من هذا الممر لدار المقر ويستكثر من أعمال البر لتنفعه ومن مساعى الخير
لتنقذه ويأمر بالصالحات قبل أن يأمر بها ويزدجر عن السيآت قبل أن يزجر
منها ويبتدئ باصلاح نفسه قبل اصلاح رعيته فلا يبعثهم على ما يأتى ضده
ولا ينهاهم عما يقترف مثله ويجعل ربه رقيبا عليه فى خلواته وسروآته مانعه له من
شهواته فان أحق من غلب سلطان الشهوة وأول من ضرع لغذاء الحجة من
ملك أزمة الامور واقتدر على سياسة الجمهور وكان مطاعا فيجارى متبعا فيما
يشا يلى على الناس ولا يلوون عليه ويقتص منهم ولا يقتصون منه فاذا اطلع
الله منه على تقاحبيه وطهارة ذيله وصحة سريرته واستقامة سيرته أعانه على
حفظ ما استحفظه وأنهضه بثقل ما حمله وجعل له مخلصا من الشبهة ومخرجا من
الحيرة فقد قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب
وقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم
مسلمون وقال واتقوا الله ويكون امع الصادقين الى آى كثيرة حضا بها على
أكرم الخلق وأسلم الطرق فالسعيد من نصبها ازاء ناظره والشقى من نبذها
وراء ظهره وأشقى منهما من بعث عليها وهو صادف عنها واهاب اليها وهو
بعيد منها وله ولامثاله يقول الله تعالى ذكره أتأمرون الناس بالبر وتنسون
أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وأمره أن يتخذ كتاب الله اماما
متبعا وطريقا متوقعا ويكثر من تلاوته اذا خلا بذكره ويلا يتأصيل أرجاء
صدره فيذهب معه فيما أباح وحظر ويقتدى به اذا نهى وأمر ويستبين
بيانه اذا استغلقت دونه المعضلات ويستضىء بمصابيحه اذا عظمت عليه
المشكلات فهو عروة الاسلام الوثقى ومحجته الوسطى ودليله المقنع وبرهانه
المرشد والكاشف لظلم المطلوب والشافى من مرض القلوب والهادى لمن ضل
والمنلافى ان زل فمن نجا به فقد فاز وسلم ومن لها عنه فقد خاب وندم قال الله
تعالى وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد وأمره أن يحافظ على الصلوات ويدخل فيها فى حقائق الاوقات قائما

على حدودها متبعا لرسومها جامعا فيها بين نيته ولفظه متوقيا المطامع بهمه
ولحظه منقطعا اليها عن كل قاطع لها مشغولا بها عن كل شاغل عنها متبتلا
في ركوعها وسجودها مستوفيا عدد مفروضها ومسنونها موفرا عليها
ذهنه صارفا اليها همه عالما بأنه واقف بين يدي خالقه ورازقه ومحييه ومميته
ومعاقبه ومثيبه لا تستتر دونه خائنة الاعين وما تخفي الصدور فاذا قضاها على
هذه السبيل منذ تكبيرة الاحرام الى خاتمة التسليم أتبعها بدعاء يرتفع
بارتفاعها ويسمع باستماعها لا يتعدى فيه مسائل الابرار ورغائب الاخيار
من استصفاح واستغفار واستقالة واسترحام واستدعاء لمصالح الدين والدنيا
وعوائد الآخرة والأولى فقد قال الله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا
موقوتا وقال تعالى وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وأمره
بالسعي في أيام الجمع الى المساجد الجامعة وفي الاعياد الى المصليات الضاحية
بعد التقدم في فرشها وكسوتها وجمع القوّام والمؤذنين والمكبرين فيها
واستدعاء الناس اليها وحضهم عليها آخذين الاهبة متنظفين في البزة
مؤدين لفريضة الطهارة وبالغين في ذلك أقصى الاستقصاء معتقدين خشية الله
وخيفته مدرعين تقواه ومراقبته مكثرين من دعائه عز وجل وسؤاله
مصلين على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله بقلوب على اليقين موقوفة وهمم
الى الدين مصروفة وألسن بالتقديس والتسبيح فصيحة وآمال في المغفرة والرحمة
فسيحة فان هذه المصليات والمتعبدات بيوت الله التي فضلها ومناسكه التي
شرفها وفيها يتلى القرآن الكريم وتعوذ العائذون وتعبد المتعبدون
وتهجد المتهجدون وحقيق على المسلمين أجمعين من وال ومولى عليه أن يعمروها
ويعمروها ويواصلوها ولا يهجروها وأن يقيم الدعوة على منابرها لامير المؤمنين
ثم لنفسه على الرسم الجاري فيها قال الله تعالى في هذه الصلاة يا أيها الذين آمنوا
اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع وقال في عمارة
المساجد انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى
الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وأمره أن يراعي
أحوال من يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه ويطلق لهم الارزاق
في أوقات الوجوب والاستحقاق وأن يحسن في معاملتهم ويجمل في

استعدادهم ويتصرف فى سياستهم بين رفق من غير ضعف وخشونة فى غير عنف
مثيبا المحسنهم ما زاد بالاثابة فى حسن الاثر وسلم معهامن دواعى الاشر ومتغمدا
لمسيئهم ما كان التغمد له نافعا وفيه ناجعا فان تكررت زلاته وتتابعت عثراته
تناوله من عقوبته ما يكون له مصلحا ولغيره واعظا وأن يختص أكابرهم
وأماثلهم وأهل الرأى والخطر منهم بالمشاورة فى الملم والاطلاع على بعض
المهم مستخلصا لخبايا صدورهم بالبسط والادناء ومستشحذا بصائرهم
بالاكرام والاجتباء فان فى مشاورة هذه الطبقة استدلالا على مواقع الصواب
ونزاعن غلط الاستبداد وأخذا بمجامع الحزامة وأمنا من مفارقة
الاستقامة وقد حض الله عز وجل على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة
والسلام وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين
وأمره بأن يعمد لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين ورباط المرابطين ويقسم
لها قسما وافرا من عنايته ويصرف اليها طرفا بل شطرا من رعايته ويختار لها
أهل الجلاد والشدة وذوى البأس والنجدة ممن عجمته الخطوب وعركته
الحروب واكتسب دربة بخدع المتنازلين وتجربة بمكايد المتقارعين وأن
يستظهر بكثف عددهم واعتبار عددهم وانتخاب خيلهم واستجادة
أسلحتهم غير مجمر بعثا اذا بعثه ولا مستكرهه اذا وجهه بل يناوب بين
رجاله مناوبة ترجعهم ولا تعنتهم وترفههم ولا تؤودهم فان فى ذلك من فائدة
الاجمام والعدل فى الاستخدام زيادة ما يلتق بين رجال النوب فيما عاد عليهم
بعز الظفر والنصر وبعد الصيت والذكر واحراز النفع والاجر ما يحق أن
يكون الولاة به عاملين وللناس عليه حاملين وأن يكرر فى أسماعهم ويثبت
فى قلوبهم مواعيد الله تعالى لمن صبر ورابط وساغ بالنفس من حيث لا يقدمون
على تورط عزة ولا يحجمون عن انتهاز فرصة ولا ينكصون عن تورد معركة
ولا يلقون بأيديهم الى التهلكة فقد أخذ الله ذلك على خلقه والمرء أمين
على دينه وأن يزيح العلة فيما يحتاج اليه من راتب نفقات هذه الثغور
وسادتها وبناء حصونها ومعاقلها واستطراق طرقها ومسالكها وافاضة
الاقوات والعلوفة فيها للمترتبين بها والمترددين اليها والحاملين لها وأن يبذل
أمانه لمن طلبه ويعرضه على من لم يطلبه ويفى بالعهد اذا عاهد وبالعقد اذا

عائد غير مخفر ذمة ولا جارح أمانة فقد أمر الله تعالى بالوفاء فقال عز وجل يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ونهى عن النكث فقال عز من قائل فمن نكث فانما ينكث على نفسه وأمره أن يعرض من فى حبوس عمله على جرائمهم فمن كان اقراره واجبا أقره ومن كان اطلاقه سائغا أطلقه وأن ينظر فى الشرطة والاحداث نظر عدل وانصاف ويختار لها من يخاف الله ويتقيه ولا يحابى ولا يراقب فيه ويتقدم اليهم بقمع الجهال وردع الضلال وتتبع الاشرار وطلب الزعار مستدلين على أماكنهم متوغلين الى مكامنهم متوصلين اليهم فى مظانهم متوثقين عن يجدونه منهم منفذين أحكام الله تعالى فيهم بحسب الذى يتبين من أمرهم ويصح من فعلهم فى كبيرة ارتكبوها وعظيمة احتقبوها ومهجة أتلفوها واستهلكوها وحرمة انتهكوها واستباحوها فمن استحق حدا من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مخففين منه وأحلوه به غير مقصرين عنه بعد أن لا يكون عليهم فى الذى يأتونه حجة ولا يعترضهم فى وجوبه شبهة فان الواجب فى الحدود أن تقام بالبينات وأن تدرأ بالشبهات فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها أن لا يقدموا عليها مع نقصان ولا يتوقفوا عنها مع قيام الدليل ومن وجب عليه القتل احتاطوا بما يحتاط به على مثله من الحبس الحصين والتوثق الشديد وكتب الى أمير المؤمنين بخبره وشرح جنايته وثبوتها باقرار يكون منه أو بشهادة تقع عليه ولينتظر من جوابه ما يكون عمله بحسبه فان أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلم أو معاهد الا ما أحاط به علما وأتقنه فهما وكان ما يمضيه فيه عن بصيرة لا يخالجها شك ولا يشوبها ريب ومن ألم بصغيرة من الصغائر ويسيرة من الجرائر من حيث لم يعرف له مثلها ولم يتقدم له أختها وعظه وزجره ونهاه وحذره واستتابه وأقاله ما لم يكن عليه خصم فى ذلك يطالب بقصاص منه وجراحة فان عاد تناوله من التقويم والتهذيب والتعزير والتأديب بما يرى أن قد كفى فيما اجترم ووفى بما قدم فقد قال الله تعالى ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وأمره أن يعطل ما فى أعماله من الحانات والمواخير ويطهرها من القبائح والمناكير ويمنع من يجمع أهل الخنا فيها ويؤلف شملهم بها فانه شمل يصلحه التشتيت وجمع يحفظه التفريق ومازالت هذه المواطن الذميمة والمطارح الدنية داعية من يأوى

اليها ويعكف عليها الى ترك الصلوات واهمال المفترضات وركوب المنكرات واقتراف المحظورات وهى بيوت الشيطان التى فى عمارتها لله معصية وفى اخرابها الخير مجلبة والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ويقول عز من قائل لغيرنا من المذمومين فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وأمره أن يولى الحماية فى هذه الاعمال أهل الكفاية والعناية من الرجال وأن يضم اليهم كل من حقت ركابه وأسرع عند الصريخ مرتبا لهم فى المسالح وسادا بهم ثغر المسالك وأن يوصيهم بالتيقظ ويأخذهم بالتحفظ ويزيح عللهم فى علوفة خيلهم والمقرر من أزوادهم وميرهم حتى لا تنقل لهم عن البلاد وطأة ولا يدعوهم الى تصنعهم ثلمة حاجة وأن يحوطوا السابلة بادئة وعائدة ويبذرقوا القوافل صادرة وواردة ويحرسوا الطريق ليلا ونهارا ويتفقدوها رواحا وغدوا وينصبوا لاهل العبث الارصاد ويكمنوا لهم بكل واد ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقا لفضائهم ومؤديا الى انفضاضهم ويجتمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئا لجمرتهم وصادعا لروقتهم ولا يخلوا هذه السبل من حماة لها وسابلة فيها يترددون فى جوادها ويتعسفون فى عواديها حتى تكون الدماء محقونة والاموال مصونة والفتن محسومة والغارات مأمونة ومن حصل فى أيديهم من لص متاثل ومصعلوك خارب ومخيف لسبيل ومنتهك لحريم امتثل فى أمره أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله عز وجل انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم وأمره بوضع الرصد على من يجتاز فى أعماله من اباق العبيد والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم والبحث عن الاماكن التى فارقوها والطرق التى استطرقوها وعن اليهم الذين أبقوا منهم ونشزوا عنهم وأن يردوهم عليهم قهرا ويعيدوهم اليهم صغرا وان ينشدوا الضالة ما أمكن أن تنشد ويحفظوها على ربها اعجابا زان تحفظ ويجتنبوا الامتلاء لظهورها والانتفاع بأوبارها وألبانها ما يجز ويحلب وأن يعرفوا اللقطة ويتبعوا أثرها

ويشيعوا شهودها فاذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سلمت اليه ولم يعترض فيها عليه والله عز وجل يقول ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم ضالة المؤمن حرق النار وأمره أن يوصى عماله بالشد على يد الحكام وتنفيذ ما يصدر عنهم من الاحكام وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذابين عنها المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطاعة فيها ومن خرج عن ذلك من ذي عقل ضعيف وحلم ضئيف نالوه بما يردعه وأحلوا به ما يزعه ومتى تقاعس متقاعس عن حضور مع خصم يستدعيه بأمر يوجبه الحكم اليه أو التوى ملتو بحق يحصل عليه ودين يستقر في ذمته قادوه الى ذلك بأزمة الصغار وخزائم الاضطرار وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم ويثبتوا الايدى فى الاملاك والفروج وينزعوا بقضاياهم فانهم أمناء الله فى فصل ما يقضون وبث ما يبثون وعن كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون ويصدرون وقد قال الله عز وجل يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وأن يتوخى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج فى استيفاء حقوق ما استعملوا عليه واستنظاف بقاياهم فيه والرياضة لمن تسوء طاعته من معامليهم واحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم فمن آداب الله تعالى للعبد الذى يحق عليه أن يتخذها ويجعلها للرضا عنه سببا قوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب وأمره أن يجلس للرعية جلوسا عاما ويتطرق مظالمها ناظرا نظرا يساوى فى الحق بين خاصها وعامتها ويوازى فى المجالس بين عزيزها وذليلها وينصف المظلوم من ظالمه والمغصوب من غاصبه بعد الفحص والتأمل والبحث والتبيين حتى لا يحكم الا بعدل ولا ينطق الا بفصل ولا يثبت يدا الا فيما وجب تثبيتها فيه ولا يقبضها الا عما وجب قبضها عنه وأن يسهل الاذن لجماعتهم ويرفع الحجاب بينه وبينهم ويوليهم من حصانة الكنف ولين المنعطف والاشتمال والعناية والصون والرعاية ما تعتدل به أقسامهم وتتوازى منه أقساطهم ولا يصل الراكين منهم الى استضامة ما تأخر عنه ولا ذو السلطان الى هضيمة من حل

دونه وأن يدعوهم الى أحسن العادات والخلائق ويحضهم على أحمد
المذاهب والطرائق ويحمل عنهم كله ويمد عليهم ظله ولا يسومهم عسفا ولا يلحق
بهم حيفا ولا يكلفهم شططا ولا يجشمهم معضلا ولا ينيلهم معيشة ولا يداخلهم
في جريرة ولا يأخذ بريا بسقيم ولا حاضرا بعديم فان الله عز وجل ينهى أن
تزر وازرة وزر أخرى ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون من عليها من سنة
ظالمة وسلك بها من محجة جائرة ويستقري آثار الولاة قبله عليها فيما يجرونه
من خير أو شر اليها فيقر من ذلك ما طاب وحسن ويزيل ما خبث وقبح فان
من غرس الخير يحظى بمعسول ثمره ومن زرع الشر يصلى بمرور ريعه والله
تعالى يقول والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا
كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون وأمره بأن يصون مال الخراج وأثمان
الغلات ووجوه الجبايات موفرا ويرد ذلك متثمرا بما يستعمله من الانصاف
لأهلها واجرائهم على صحيح الرسوم فيها فانه مال الله الذي به قوة عباده وحماية
بلاده ودرور حلبه واتصال مدده وبه يحاط الحريم ويدفع العظيم ويحمى
الذمار ويذاد الأشرار وأن يجعل افتتاحه اياه بحسب ادراك أصنافه وعند
حضور مواقيته وأحيانه غير متسلف شيأ قبلها ولا مؤخر الها عنها وأن يخص
أهل الطاعة والسلامة بالترفيه لهم وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشديد
عليهم لئلا يقع ارهاق المذعن أو اهمال الطامع وعلى المتولي لذلك أن يضع كلا
من الأمرين موضعه ويوقعه موقعه متجنبا احلال الغلظة من لا يستحقها
واعطاء الفسحة من ليس أهلها والله تعالى يقول وأن ليس للانسان الا ما سعى
وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأمره أن يتخير عماله على الخراج
والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من أهل الظلف
والنزاهة والضبط والصيانة والجزالة والشهامة وأن يستظهر مع ذلك
عليهم بوصية تعيها أسماعهم وعهود تقلدها أعناقهم بأن لا يضيعوا
حقا ولا يأكلوا سحتا ولا يستعملوا ظلما ولا يقارفوا غشما وأن يعمروا
العمارات ويحتاطوا ويتحرزوا من اتواء حق لازم أو تعطيل رسم عادل مؤدين
في جميع ذلك الأمانة مجتنبين الخيانة وأن يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن
المال على تمامه واستجادة نقده على عياره واستعمال النصفة في قبض

ما يشبعون واطلاق ما يطلقون وأن يوعز والى سعاة الصدقات فى أخذ
الفرائض من سائمة مواشى المسلمين دون عاملتها وكذلك الواجب فيها وأن
لايجمعوا فيها متفرقا ولا يفرقوا مجتمعا ولا يدخلوا فيها خارجا عنها ولا
يضيفوا اليها ما ليس منها من فحل ابل أو أكولة راع أو عقيلة مال فاذا اجتبوها
على حقها واستوفوها على رسمها أخرجوها فى سبلها وقسموها على أهلها
الذين ذكرهم الله عز وجل فى كتابه العزيز الا المؤلفة قلوبهم الذين ذكرهم الله عز
وجل فى كتابه الكريم وسقط سهمهم فان الله تعالى يقول انما الصدقات
للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى
سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم والى جباة أهل الذمة أن
يأخذوا منهم الجزية فى المحرم من كل سنة بحسب منازلهم فى الاحوال وذات
أيديهم فى الاموال وعلى الطبقات المطبقة فيها والحدود المعهودة لها
وأن لا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذى سن عالية
ولا ذى علة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب متبتل وأن يراعى بجماعة هؤلاء
العمال مراعاة يسرها ويظهرها ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها لئلا
يزولوا عن الحق الواجب أو يعدلوا عن السنن اللاحب فقد قال الله تعالى
وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا وأمره بأن يندب لعرض الرجال
واعطائهم وحفظ جراياتهم وأوقات اطعامهم من يعرفه بالثقة فى متصرفه
والامانة فيما يجرى على يده والبعد عن الاسفاف الى الدنية والاتباع للدناءة
وأن يبعثه على ضبط الرجال وشيات الخيل وتجديد العرض بعد الاستحقاق
وايقاع الاحتياط فى الانفاق فمن صح عرضه ولم يبق فى نفسه شئ منهم من
شك يعرض له أو ريبة يتوهمها أطلق أموالهم موفورة وحصلها فى أيديهم غير
مثلومة وأن يرد على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والاخلال ناسبا ذلك
الى جهته موردا له على حقيقته وأن يطالب الرجال باحضار الخيل المختارة
والآلات المستكملة على ما توجبه مبالغ أرزاقهم وحسب منازلهم ومراتبهم
فان أخل أحدهم شيأ من ذلك قاصصه به من رزقه وأغرمه مثل قيمته فان
المقصر فيه خائن لامير المؤمنين ومخالف لرب العالمين اذ يقول سبحانه وأعدوا
لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأمره أن

يعتمد فى أسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه آلات
هذه الولايات من ثقة ودراية وعلم وكتابة ومعرفة ورواية وتجربة وحنكة
وحصانة وحسكة فانها أحوال تضارع الحكم وتناسبه وتدانيه وتقاربه وأن
يتقدم الى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أمره
والتحرز من وقوع غلط فيه أو اهمال له اذ كان ذلك عائدا بتحصين الفروج
وتطهير الانساب وأن يبعدوا عنه أهل الريبة ويقربوا أهل العفة ولا
يعتمدوا بيعا على شبهة ولا عقدا على تهمة والى ولاة العيار بتخليص عين الدرهم
والدينار ليكونا مضروبين على البراءة من الغش والنزاهة من المش وبحسب
الامام المقتدر بمدينة السلام وحراسة السكك من أن تتداولها الايدى المزغلة
وتتناقلها الجهات المتهمة واثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهبا وفضة
واجراء ذلك على الرسم والسنة والى ولاة الطرز أن يجروا الاستعمال فى جميع
المناسج على أتم البقة وأعلم الطريقة وأحكم الصنعة وأفضل الصحة وأن
يكتبوا اسم أمير المؤمنين على طرز الكسا والفرش والاعلام والبنود والى
ولاة الحسبة بتصفح أحوال العوام فى حرفهم ومتاجرهم ومجمع أسواقهم
ومعاملاتهم وأن يعايروا الموازين والمكاييل ويفرزوها على التعديل
والتكميل ومن اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس أو غيلة أو تدليس أو
بخس ما يوفيه واستفضال فيما يستوفيه نالوه بغليظ العقوبة وعظيمها ونصروه
وبجيعوا بأليمها واقفين فى ذلك عند الحد الذى يرونه لذنبه مجازيا وفى تأديبه
كافيا فقد قال الله تعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون
واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته عليك
وقد وقفك على سواء السبيل وأرشدك الى واضح الدليل وأوسعك تعليما
وتحكيما وأقنعك تعليما وتفهيما ولم يألك جهدا فيما عصمك وعصم على يدك
ولم يدخرك ممكنا فيما أصلح بك وأصلحك ولا ترك لك عذرا فى غلط تغلطه ولا طريقا
الى تورط تتورطه بالقانك فى الاوامر والزواجر الى حيث يلزم الائمة أن يندبوا
الناس اليه ويعثوهم عليه مقيما لك على محجات المسالك صارفا لك عن
مرديات المهالك مريدا فيك ما يسلمك فى دينك ودنياك ويعود بالحظ عليك فى
آخرتك وأولاك فان اعتدلت وعدلت فقد فزت وغنمت وان تجانفت

وأعوججت فقد فدت وندمت والأولى بك عند أمير المؤمنين من مغرسك
الزاكى ومنبتك النامى وعودك الانجب ومنصبك الاطيب أن تكون
لظنه محققا ولعمله فيك مصدقا وأن تستزيده بالاثر الجميل قربا وتوابا يوم الدين
وزلفى عند أمير المؤمنين وثناء حسنا من المسلمين فخذ ما نبذ اليك أمير المؤمنين
من معاذيره وأمسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه واجعل عهده مثالا
تحتذيه واماما تقتفيه واستعن بالله يعنك. واستمد يمدك واخلص اليه فى
طاعته يخلص لك اللطف فى معونتك ومهما أشكل عليك من خطب أواعضل
عليك من صعب أو بهرك من باهر أو بهظك من باهظ فاكتب الى أمير المؤمنين
منهيا وكن الى ما يرد عليك ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته
(وأما التقليد) الذى أنشأه أيضا وهذا أما بعد فان أمير المؤمنين يبدأ بحمد
الله الذى يكون لكل خطبة قيادا ولكل أمر مهادا ويستزيد من نعمه التى
جعلت التقوى له زادا وحملته عبء الخلافة فلم يضعف عنه طرفا ولم يأل فيه
اجتهادا وصغرت لديه أمر الدنيا فما تصورت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا
وحققت فيه قول الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا
فى الارض ولا فسادا ثم يصلى على من أرسلت الملائكة لنصره امدادا وأسرى
به الى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصرا ولا أكذب
فؤادا ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا وأعوادا وورثت النور
المبين تلادا ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وارشادا وخصوصا عمه العباس
المدعو له بأن يحفظ نفسا وأولادا وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف
دركا ولا تخشى نفادا واذا استوفى القلم مداده من هذه الجملة وأسند القول
فيها عن فصاحته المرسلة فانه يأخذ فى انشاء هذا التقليد الذى جعله حلفا
لقرطاسه واستدام جريه على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه وليس
ذلك الا لافاضته فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها استخدام الاكثار
واشتبه التطويل فيها بالاختصار وهى التى لا يفتقر واصفها الى القول المعاد
ولا يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الاطواد
وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الاجل السيد الكبير العالم العادل المجاهد
المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك

تحدثا بشكرك ويباهى بك أولياءه تنويها بذكرك ويقول أنت الذى تسكنى فتكون للدولة سهمها الصائب وشهابها الثاقب وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب وما ضرها وقد حضرت فى نصرتها اذا كان غيرك هو الغائب فاشكر اذا مساعيك التى أحلتك لما أحلتك وفضلتك على الاولياء بما فضلتك ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الاضمار فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار وفرق بين من أمد بقلبه وبين من أمد بيده فى درجات الامداد وما جعل الله القاعدين كالذين قالوا وأمرهم الضرب أكبادها الى برك الغماد وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها ولقد مضى عليها زمن ومحرابها محفوف من الباطل بمحرابين ورأت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذابين فيصرمنهما واحد تاه يجرى أنهارها من تحته ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم واتخذوه صنما بينهم ولم تكن الضلالة هناك الا بعجل أو صنم فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد وجعلت فى جيده حبلا من مسد وقلت ليده تبت فأصبح وهو لا يسعى بقدم ولا يبطش بيد وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن ناجمته وسامت فيه سائمته فوضع فيه موضع الكعبة اليمانية وقال هذا ذو الخلصة الثانية فأى مقاميك يعترف الاسلام بسبقه أم أيها يقوم بأداء حقه وههنا فليصمت القلم للسيف من الحساد وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الانداد ولم يحظ بهذه المزية الا لانه أصبح لك صاحبا ونحر بك حتى طال فخرا ما عزبانيا وقضى بولايتك فكان بها قاضيا لما كان حده قاضبا وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجدا وما اشتملت عليه رعية وجندا وما انتهت اليه أطرافهما برا وبحرا وما يستفتح من مجاور بهما مسالمة وقهرا وأضاف اليها بلاد الشام وما تحتوى عليه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة مستثنيا منها ما هو بيد نور الدين اسمعيل بن نور الدين محمود رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الاسلام ترفع ذكره فى الذاكرين وتخلفه فى عقبه فى الغابرين وولده هذا قد هذبته الفطرة

فى القول والعمل وليست هذه الربوة الا من ذلك الجبل فليكن له منك ما يزيد نو
منه ودادا كما زادنا أرضا ويصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضا والذى قدمناه
من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد والفتك من فضيلة الازدياد
فاياك أن تتطير سمعك بالاعجاب وتقول هذه بلاد أنا فتحتها بيدى أن أضرب عنها
كثير من الاضراب ولكن اعلم أن الارض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده
ولا منة للعبد بالاسلام بل المنة لله بهداية عبده وكم سلف من قبلك من لو رام
ما رمته لدنا شاسعه وأجاب مانعه لكن ذخره الله لك لتعلى فى الآخرة بغاره
وفى الدنيا برقم طرازه فانى يدلك عند هذا القول القاء التسليم وقل لا علم لنا
الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم وقد قرن تقليدك هذا بجامة تكون لك
فى الاسم شعارا وفى الوسم فخارا وتناسب محل قلبك وبصرك وخير ملابس
الاولياء ما ناسب قلوبا وأبصارا ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك موضع العهد
والميثاق ويشير اليك بأن الانعام قد أطاف بك اطافة الاطواق بالاعناق ثم
انك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالانشراح ولأملك بالانفساح
وتؤمر معه بمد يدك الى العلا لا بضمها الى الجناح وهذه الثلاثة المشار اليها
هى التى تكمل بها أقسام السيادة وهى التى لا مزيد عليها فى الاحسان
فيقال انه الحسنى وزيادة فاذا صارت اليك فانسب اليها يوما يكون فى الايام
كريم الانساب واجعله لها عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب هذا
ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضرا وأنت ناء عن الحضور وتضن
أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور وهذه المكانة
قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها وما نقول الا انك صاحبة وأنت يوسفها
فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها واعمل لها فان الاعمال بخواتيمها
واعلم أنك قد تقلدت أمر الدين بهذه ونفى الملوم ولا ينفك صاحبه عن عهدة
الملوم وكثيرا ما يرى حسناته يوم القيامة وهى مقتسمة بأيدى الخصوم ولا ينجو
من ذلك الا من أخذ أهبة الحذار وأشفق من شهادة الاسماع والابصار وعلم
أن الولاية ميزان احدى كفتيه فى الجنة والاخرى فى النار قال النبى صلى
الله عليه وسلم يا أبا ذر انى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين
مال يتيم فانظر الى هذا القول النبوى نظر من لم ينخدع بحديث الحرص والآمال

ومثل الدنيا وقد سبقت اليك بصدا قيرها أليس مصيرها الى زوال والسعيد اذا يانه قنى بها أرب الارواح لا أرب الجسوم واتخذ منها وهي السم دواء ولقد تتخذ الادوية من السموم وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح وهو كماء أرسله من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تباعتها التي لا يسلم ولا يسوءها وأحصاها الله عليهم ونسوها ولك أنت من هذا الدعاء سط على قدر محلك من العناية التي جذبت بضبعك وعطك من الولاية التي بسطت من ذرعك خذ هذا الامر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان وكن في رعايته ممن اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان وملاك ذلك كله في اسباغ العدل الذى جعل الله ملاك الحديث والكتاب وأغلق بتوابه وحده عن أعمال الثواب وقدر يوما منه بعبادة ستين عاما في الحساب ولم يأمر به آمر الا زيد توفيقا في أمره وتحصن به من عدوه ومن دهره ثم يجاء به يوم القيامة وفي يده كتاب أمان ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن ومع هذا فان مركبه صعب لا يستوى على ظهره الا من أمسك عنانه نفسه قبل امساك عنانه وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه ومن أوكد فروضه أن يمحى السنن السيئة التي طالت مددا أيامها وبئس الرعايا من رفع ظلاماتها فإنه يجعلوا أمد الاقتصار ظلامها وتلك السنن هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة ولا تغنى للايدى الغنية اذا كانت ذات نفوس فقيرة وكلما زيدت الاموال الحاصلة منها ازدادت بها القلوب محقا وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقتها الظالمون بالحقوق الواجبة فسموها حقا ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ في عقابه ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه وهل أشقى من يكون السواد الاعظم له خصما ويصبح وهو طالب بمظالم وعالم لم يحط به علما وأنت مأمور بأن تأتي هذه الظلامات فتمحى على ابطالها وتلحق اسماءها في الحو بأفعالها حتى لا يبقى لها في المصان صور منظورة ولا في الالسنة أحاديث مذكورة فاذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضى سيئة متمادية وعن الآتي متابعة طيبة وجعلتها حاسوكا تجري على مداه فبادر الى ما أمرت به مبادرة من لم يصغ به ذرعا وتطر الى الحياة الدنيا بعينه فرآها في الآخرة متاعا واحمد الله تعالى على أن قيض للامام هدى يعقب بك الى هداك ويأخذ بحجزتك

عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك وهذه البلاد المنوطة بما رقك تشتمل على أطراف متباعدة وتنتفرق سياستها الى أيد متباعدة ولهذا يكثر بها قضاة الاحكام. وأولو تدبيرات السيوف والاقلام وكل من هؤلاء ينبغى أن يقف على باب الاختبار ويسلط عليه شاهدا عدل من أمانة الدرهم والدينار فما أضل الناس شئ كحب المال الذى فورق من أجله الاديان وهجرت بسببه الاولاد والاخوان وكثيرا ما ترى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الاوثان فاذا استعنت بأحد منهم على شئ من أمرك فاضرب عليه بالارصاد ولا ترض بما رقته من مبدإ حاله فان الاحوال تتنقل متنقل الاجساد واياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالربيع بن زياد وكذلك أوامر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف مواطنين وينهوا عن المنكر محاسبين ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الله الغالبين وليبدؤا أولا بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ويأمروها بما يأمرون به سواها ولا يكونوا ممن هدى الى طريق البر وهو عنه حائد وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج الى طبيب وعائد فما تنزل بركات السماء الا على من شاف مقام ربه وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه واذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضئ كل قوم الا بمصباحهم وبما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم اخوانا فى الاصطحاب وجيرانا فى الاقتراب وأعوانا فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب فالمسلم أخو المسلم وان كان عليه أميرا وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف ويتولاها بالوطء العنيف ولكنها لمن يمال الى جوانبه ويزكل من أطايبه ولمن اذا غضب لم يرللغضب عنده أثر واذا ألطف فى قوله لم يلق الالطاف بحلى المختصر واذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر فذلك الذى يكون فى أصحاب اليمين والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوى الامين ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآدابه وجارين على نهج صوابه واذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة فى كتابه وبعد هذه الوصية فان هوناحسنة هى للحسنات كالام الولود ولطالما أغنت عن صاحبها الغناء الجنود وبعقلت

لنصره والعيون رقود وهى التى تسبغ لها الآلاء ولا يتخطاها البلاء
ولأمير المؤمنين بها عناية تبعثها الرحمة الموضوعة فى قلبه والرغبة فى المغفرة
لما تقدم وتأخر من ذنبه وتلك هى الصدقة التى تقبل الله بها يمينا من عباده لتربية
افضالها وجعلها سببا الى التعويض عنها بعشر أمثالها وهو يأمرك أن
تتعهد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الارزاق وألبسهم التعفف
ثوب الغنى وهم فى ضيق من الاملاق فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء
فصبروا وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا اليها اذ نظروا وينبغى أن يرى لهم
من أمرهم مرفقا ويضرب بينهم وبين الفقر سورا وما أطلنا لك القول
فى هذه الوصية الا اعلاما بأنها من المهم الذى يستقبل ولا يستدبر ويستكثر
منه ولا يستكثر وهذا يتم من جهاد النفس فى بذل المال ويتلوه جهاد العدو
الكافر فى مواقف القتال وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف
فى ملازمته أخا وتحوله بفضلك ان كان أخذته مصحبا ومن صفاته أنه
العمل الحيو بفضل الكرامة الذى يبقى أجره بعد صاحبه الى يوم القيامة
وبه تمحص طاعة الخالق على المخلوق وكل الاعمال عاطلة لا تحلوق لها وهو
المختص دونها برتبة الخلوق ولولا فضله لما كان محمولا باسم الايمان ولما
جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره من الاثمان وقد علمت أن العدو هو جارك
الأدنى والذى يلفك وتلفه عينا وأذنا ولا تكون للاسلام نعم الجار حتى
تكون له بئس الجار ولا عذر لك فى ترك جهاده بنفسك ومالك اذ اقامت لغيرك
الاعذار وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مكافحا أو تطرق أرضه مناهبا
أو مصابحا بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يده قصد المستنقذ لا قصد المغير
وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة والنضير
وعلى الخصوص البيت المقدس فانه تلاد الاسلام القديم وأخو البيت الحرام
فى شرف التعظيم والذى توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم
وقد أصبح وهو يشكو طول المدة فى أسر رقبته وأصبحت كلمة التوحيد وهى
تشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته فانهض اليه نهضة توغل
فى قرحه وتبذل صعب قياده بسمعه وان كان له عام حديبية فاجعل له عام
فتحه وهذه الاستزادة انما تكون بعد سداد ما فى اليد من ثغر كانت ملا

فخمت موارده أو صمت دماً فرغت قواعده ومن أعدوا ما كان حاضر الحصر
فانه عورة منكشفة وخطة مخوفة والعدو قريب منه على بعده وكثيراً ما يأتيه
فجأة حتى يسبق برقه رعده فينبغي أن يرتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجاعتها
وتقل أقرانها ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هي العليا لا لأن يرى مكانها
وحينئذ يصبح كل منها له من الرجال أسوار ويعلم أهله أن بناء السيف أمنع من
بناء الأحجار ومع هذا لا بد لها من أسطول يكثر عدده ويقوى مدده فانه
العدة التي تستعين بها على كشف الغماء والاستكثار من سبايا العبيد والاماء
وجيشه أخو الجيش السليماني فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء
ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار وتساوت أقدار خلقها على
اختلاف مدة الأعمار فاذا أشرعت قيل جبال شاهقة تقطع من الغيوم
واذا نظر الى أشكالها قيل انها أهلة غير أنها تهتدي في مسيرها بالنجوم ومثل
هذا الخيل ينبغي أن يغالى في جيادها ويستكثر من قوادها ولا يؤمر عليها الأمير
يأتي الصبر عنه من سعة صدره ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن
قتلها بخبره وكذلك فليكن من أفنت الأيام تجاربه وزعمه أمثالا كتبه ومن
بذل الصعب اذا هو ساسه وإن لان جانبه وهذا هو الرجل يرأس على القوم
فلا يجب دعوة بالرياسة وإن كان في الساقة ففي الساقة أو كان في الحراسة ففي
الحراسة ولقد أفلحت عصابة اعتصمت من ورائه وأيقنت بالنصر من رايته
كما أيقنت بالنصر من رأيه واعلم أنه قد أخل من الجهاد ركن يقدح في عمله
وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق النية تأتي في أوله وذلك هو قسم
الغنائم فان الأيدي قد تداولته بالاجحاف وخالطت جهادها فيه بغلولها فلم
ترتع بالكفاف والله قد جعل الظلم في تعدي حدوده المحدودة وجعل
الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة ونحن نعوذ به أن يكون زماننا
هذا زمانه ورياسة شر ياس ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نمهله اهمال
مضيع ولا اهمال ناس والذي نأمرك به أن تجري هذا الأمر على المنصوص
من حكمه ونبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت الطالب بآثمه
وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التي
تكون غداً أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً فتصفح ما سطرناه لك

ثناء على الصابي وتفضيله في الكتابة

وهذه الاساطير التي هي عزائم مبرمات بل آيات محكمات وتعصب الى الله والى
أمير المؤمنين باقتداء كلماتها وابن لك منها حدايق في عقبك اذا أصبحت البيوت
في أعقابها وهـذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التي أوصاها وأنه
لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ثم انه قد ختم بدعوات دعابها أمير
المؤمنين عند ختامه وسأل فيها خيرة لله التي تعزل من كل أمر عنوة تمامه
ثم قال فلله ثم اني أشهد لك على من قلدته شهادة يكون عليه رقيبة وله حسيبة فاني
لم آمره الا بأوامر الحق التي فيها موعظة وذكرى وهي لمن تبعها هدى ورحمة
وبشرى واذا أخذ بها ابلج حجته يوم يسأل عن الحجج ولم يتلجلج دون رسول
الله صلى الله عليه وسلم على الحوض في جملة من يختلج وقيل لا حرج عليك ولا
اثم اذ نجوت من ورطات الاثم والحرج والسلام (وهذا الذي ذكرته) من كلامي
وكلام الصابي في هذه التقاليد الاربعة لم أقصد به الوضع من الرجل وانما ذكرت
ما ذكرته لبيانه ووضع النهج الذي يثبت على المحك ولا شك أن هذا الوصف
المشار اليه في فقر الاسجاع لم يكن مقصودا في الزمن القديم اما لمكان عسره
أو لانه لم يتنبه له وكيف أضع من الصابي وعلم الكتابة قد رفعه وهو امام هذا الفن
والواحد فيه ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل
الاجادة وأحسن كل الاحسان ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عز الدولة
بختيار بن بويه الى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته اياه بالعصيان
لاستحق به فضيلة التقدم كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة لكنه
في الاخوانيات مقصر وكذلك في كتب التعازي (وعندي فيه رأي) لم يره
أحد غيري ولي فيه قول لم يقله أحد سواي وذلك أن عقل الرجل في كتابته زائد
على فصاحته وبلاغته وسأبين ذلك فأقول ليتدبر الناظر في هذين التقليدين
اللذين أوردتهما له فانه يرى وصايا وشروطا واستدراكات وأوامر ما بين أصل
وفرع وكل وجزء وقليل وكثير ولا يرى ذلك في كلام غيره من الكتاب الا أنه عبر
عن تلك الوصايا والاوامر والشروط والاستدراكات بعبارة في بعضها ما فيه
من الضعف والركة وقد قيل ان زيادة العلم على المنطق هجنة وزيادة المنطق على
العلم خدعة ومع هذا فاني أقر للرجل بالتقدم وأشهد له بالفضل (واذا فرغت)
مما أردت تحقيقه في هذا الموضع فاني أرجع الى ما كنت بصدد ذكره من الكلام

على

على السجع وقد تقدم من ذلك ما تقدم وبقي ما أنا ذاكره ههنا وهو أن السجع
على حد ينقسم الى ثلاثة أقسام (الاول) أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد
أحدهما على الآخر كقوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر
وقوله تعالى والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا
فوسطن به جمعا ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الاجزاء حتى كأنها
أفرغت في قالب واحد وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة وهو أشرف
السجع منزلة للاعتدال الذي فيه (القسم الثاني) أن يكون الفصل الثاني
أطول من الاول لا طولا يخرج به عن الاعتدال خروجا كثيرا فانه يقبح عند
ذلك ويستكره ويعد عيبا فمما جاء من ذلك قوله تعالى بل كذبوا بالساعة
وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا
وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ألا ترى أن
الفصل الاول ثمان لفظات والفصل الثاني والثالث تسع تسع (ومن ذلك) قوله
تعالى في سورة مريم وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا وأمثال هذا في القرآن كثيرة
ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاث فقر فان الفقرتين الاوليين
يحسبان في عدة واحدة ثم تأتي الثالثة فينبغي أن تكون طويلة طولا يزيد
عليهما فاذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون
الثالثة عشر لفظات أو احدى عشر مثال ذلك ما ذكرته في وصف صديق
نفات الصديق من لم يعتض عنك بخالف ولم يعاملك معاملة حالف واذا بلغته
اذنه وشاية أقام عليها حد سارق أو قاذف فالأولى والثانية ههنا أربع لفظات
أربع لفظات لان الاولى لم يعتض عنك بخالف والثانية ولم يعاملك معاملة حالف
وجاءت الثالثة عشر لفظات وهكذا ينبغي أن يستعمل ما كان من هذا
القبيل وان زادت الأولى والثانية عن هذه العدة فتزداد لنسبة الحساب وكذلك
اذا نقصت الأولى والثانية عن هذه العدة فافهم ذلك وقس عليه الا أنه لا ينبغي
أن تجعله قياسا مطردا في السجعات الثلاث أين وقعت من الكلام بل تعلم
أن الجائز بين الجانبين من التساوي في السجعات الثلاث ومن زيادة السجعة
الثالثة ألا ترى أنه قد ورد ثلاث سجعات متساويات في القرآن الكريم كقوله

تعالى وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل
ممدود فهذه السجعات كلها من لفظتين لفظتين والسجعات الثالثة منها
خمس لفظات أو ست لما كان ذلك معها (القسم الثالث) أن يكون الفصل
الآخر أقصر من الاول وهو عندي عيب فاحش وسبب ذلك أن السجع يكون
قد استوفى أمده من الفصل الاول بحكم طوله ثم يجيء الفصل الثاني قصيرا
عن الاول فيكون كالشيء المبتور فيبقى الانسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء
الى غاية فيعثر دونها (واذا انتهينا الى ههنا) وبينا أقسام السجع ولبه وقشوره
فسنقول فيه قولا كليا وهو أن السجع على اختلاف أقسامه ضربان
(أحدهما) يسمى السجع القصير وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين
مؤلفة من ألفاظ قليلة وكلما قلت الالفاظ كان أحسن لقرب الفواصل
المسجوعة من سمع السامع وهذا الضرب أوعر السجع مذهبا وأبعده
متناولا ولا يكاد استعماله يقع الا نادرا (والضرب الآخر) يسمى السجع
الطويل وهو ضد الاول لانه أسهل متناولا وانما كان القصير من السجع أوعر
مسلكا من الطويل لان المعنى اذا صيغ بألفاظ قصيرة عز مواتاة السجع فيه
لقصر تلك الالفاظ وضيق المجال في استجلابه وأما الطويل فان الالفاظ تطول
فيه ويستجلب له السجع من حيث وليس كما قال وكان ذلك سهلا وكل واحد
من هذين الضربين تتفاوت درجاته في عدة الالفاظ (أما السجع القصير) فأحسنه
ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين كقوله تعالى والمرسلات عرفا فالعاصفات
عصفا وقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز
فاهجر ومنه ما يكون مؤلفا من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة وكذلك الى
العشرة وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل فمما جاء منه قوله تعالى والنجم
اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى وقوله تعالى
اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا
واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (وأما السجع الطويل) فان درجاته
تتفاوت أيضا في الطول فمنه ما يقرب من السجع القصير وهو أن يكون تأليفه
من احدى عشرة الى اثنتي عشرة لفظة وأكثره خمس عشرة لفظة كقوله تعالى
ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء

بعد عشرين سنة لقولي ذهب البنات على أنه لمرح مغرور فالاولى احدى عشرة لفظة والثانية ثلاث عشرة لفظة وكذلك قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (ومن السجع الطويل) ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما فوقها كقوله تعالى اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور ومن السجع الطويل أيضا ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير منضبط (واعلم) أن التصريع في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور وفائدته في الشعر أنه قبل كمال البيت الاول من القصيدة تعلم قافيتها وشبه البيت المصرع بباب له مصراعان متشاكلان وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون وفيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام فأما اذا كثر التصريع في القصيدة فلست أراه مختارا الا أن هذه الاصناف من التصريع والترصيع والتضمين وغيرها انما يحسن منها في الكلام ما قل وجرى مجرى الغرة من الوجه أو كان كالطراز من الثوب فأما اذا تواترت وكثرت فانها لا تكون مرضية لما فيها من أمارات الكلفة (وهو عندي ينقسم الى سبع مراتب) وذلك شيء لم يذكره على هذا الوجه أحد غيري (فالمرتبة الاولى) وهي أعلى التصريع درجة أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه في فهم معناه غير محتاج الى صاحبه الذي يليه ويسمى التصريع الكامل وذلك كقول امرئ القيس

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ٭ وان كنت قد أزمعت هجرا فأجملي

فان كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه غير محتاج الى ما يليه وعليه ورد قول المتنبي

اذا كان مدح فالنسيب المقدم ٭ أكل فصيح قال شعرا متيم

(المرتبة الثانية) أن يكون المصراع الاول مستقلا بنفسه غير محتاج الى الذي يليه فاذا جاء الذي يليه كان مرتبطا به كقول امرئ القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ٭ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

التصريع

فالمصراع الاول غير محتاج الى الثانى فى فهم معناه لكن لما جاء الثانى صار مرتبطا به وكذلك ورد قول أبي تمام

ألم يأن أن تروى الظماء الحوائم • وأن ينظم الشمل المبدد ناظم

وعليه ورد قول المتنبي

الرأى قبل شجاعة الشجعان • هو أول وهى المحل الثانى

(المرتبة الثالثة) أن يكون الشاعر مخيرا فى وضع كل مصراع موضع صاحبه ويسمى التصريع الموجه وذلك كقول ابن الحجاج البغدادى

من شروط الصبوح فى المهرجان • خفة الشرب مع خلو المكان

فان هذا البيت يجعل مصراعه الاول ثانيا ومصراعه الثانى أولا وهذه المرتبة كالثانية فى الجودة (المرتبة الرابعة) أن يكون المصراع الاول غير مستقل بنفسه ولا يفهم معناه الا بالثانى ويسمى التصريع الناقص وليس عرضيا ولا حسن فمما ورد منه قول المتنبي

مغانى الشعب طيبا فى المغانى • بمنزلة الربيع من الزمان

فان المصراع الاول لا يستقل بنفسه فى فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثانى (المرتبة الخامسة) أن يكون التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ويسمى التصريع المكرر وهو ينقسم قسمين أحدهما أقرب حالا من الآخر فالاول أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها وهو أنزل الدرجتين كقول عبيد ابن الابرص

فكل ذى غيبة يؤب • وغائب الموت لا يؤب

القسم الآخر أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها كقول أبي تمام

فتى كان شربا للعفاة ومرتعا • فأصبح للهندية البيض مرتعا

(المرتبة السادسة) أن يذكر المصراع الاول ويكون معلقا على صفة يأتى ذكرها فى أول المصراع الثانى ويسمى التصريع المعلق فمما ورد منه قول امرئ القيس

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى • بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فان المصراع الاول معلق على قوله بصبح وهذا معيب جدا وعليه ورد قول المتنبي

قد علم البين منا البين أجفانا • تدمى وألف فى ذا القلب أحزانا

فان المصراع الاول معلق على قوله تدمى (المرتبة السابعة) أن يكون التصريع فى البيت مخالفا لقافيته ويسمى التصريع المشطور وهو أنزل درجات

التصريع وأقبحها فن ذلك قول أبي نواس

ألاني قد ندمت على الذنوب ۞ وبالاقرار عذت عن الجحود

فصرّع بحرف الباء في وسط البيت ثم قفاه بحرف الدال وهذا لا يكاد يستعمل الا قليلا لا نادرا (النوع الثاني في التجنيس) اعلم أن التجنيس غرة شادخة في وجه الكلام وقد تصرّف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فغرّبوا وشرّقوا لاسيما المحدثين منهم وصنّف الناس فيه كتبا كثيرة وجعلوه أبوابا متعددة واختلفوا في ذلك وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض فمنهم عبد الله بن المعتز وأبو علي الحاتمي والقاضي أبو الحسين الجرجاني وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم وانما سمي هذا النوع من الكلام مجانسا لان حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد (وحقيقته) أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا وعلى هذا فانه هو اللفظ المشترك وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شئ الا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيسا وتلك تسمية بالمشابهة لا لانها دالة على حقيقة المسمى بعينه (وعلى هذا) فاني نظرت في التجنيس وما يشبه به فأجري مجراه فوجدته ينقسم الى سبعة أقسام واحد منها يدل على حقيقة التجنيس لان لفظه واحد لا يختلف وستة أقسام مشبهة (فأما القسم الاول) فهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها كقوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة وليس في القرآن الكريم سوى هذه الآية فاعرفها ويروى في الاخبار النبوية أن العصابة تنازعوا جرير بن عبد الله البجلي زمامه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلوا بين جرير والجرير أي دعوا زمامه ومما جاء منه في الشعر قول أبي تمام

فأصبحت غرر الايام مشرقة ۞ بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الاولى استعارة من غرر الوجه والغرر الثانية مأخوذة من غرة الشئ أكرمه فاللفظ اذا واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

من القوم جعد أبيض الوجه والندى ۞ وليس بنان يجتدى منه بالجعد

فالجعد السيد والبنان الجعد ضد البسط فأحدهما يوصف به السخي والآخر يوصف به البخيل وكذلك قوله

بكل فتى ضرب يعرّض للقنا ۞ محيّى محلى حلية الطعن والضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب بالسيف في الحرب وكذلك قوله

عدلت حر الثغور المستضامة عن * برد الثغور وعن سلسالها الحصب

فالثغور جمع ثغر وهو واحد الاسنان وهو أيضا البلد الذى على تخوم العدو ثم قال فى هذه القصيدة

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة * تهتز من قضب تهتز فى كثب

بيض اذا انتضيت من حجبها رجعت * أحق بالبيض أبدانا من الحجب

فالقضب السيوف والقضب القدود على حكم الاستعارة وكذلك البيض السيوف والبيض النساء وهذا من النادر الذى لا يتعلق به أحد وكذلك قوله

اذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا * صدور العوالى فى صدور الكتائب

فلفظ الصدور فى هذا البيت واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله

عامى وعام العيس بين وديقة * مسجورة وتنوفة صيخود

حتى أغادر كل يوم بالفلا * للطير عيدا من بنات العيد

فالعيد فحل من فحول الابل والعيد اليوم المعروف من الايام وقد أكثر أبو تمام من التجنيس فى شعره فمنه ما أغرب فيه فأحسن كالذى ذكرته ومنه ما أتى به كريها مستثقلا كقوله

ويوم أرشق والهيجاء قد رشقت * من المنية رشقا وابلا قصفا

وكقوله يا مضغنا خالدا انك الثكل ان * خلدت حقدا عليك فى خلده

وكقوله وأهل موقان اذ ماقوا فلا وزر * أنجاهم منك فى الهيجا ولا سند

وكقوله مهلا بنى مالك لا تجلبن الى * حى الاراقم دؤلول ابنة الرقم

(ثم قال فيها)

من الرذينة اللاتى اذا عصلت * تشم بو المغار الانف ذا الشمم

(وكقوله)

قرنت بقران عين الدين وانشترت * بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

وله من هذا الغث البارد المتكلف شئ كثير لا حاجة الى استقصائه بل قد أوردنا منه قليلا يستدل به على أمثاله (ومن المحسن) فى هذا الباب قول أبى نواس

عباس عباس اذا احتدم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع

(وكذلك قوله)

فقل لابى العباس ان كنت مذنبا • فأنت أحق الناس بالاخذ بالفضل
فلا تزهدونى ودّ عشر بن حجية • ولا تنسدوا ما كان منكم من الفضل

(وعلى هذا النهج ورد قول البحترى)

اذا العين راحت وهى عين على الهوى • فليس بسرّ ما تسرّ الاضالع

فالعين الجاسوس والعين معروفة وكذلك ورد قول بعضهم

وترى سوابق دمعها فكأنها • ساق تجاوب فرق ساق ساقها

فالساق ساق الشجرة والساق القمرى من الطيور وعلى هذا الاسلوب جاء قول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالمرتى فى قصيدة قصد بها التجنيس فى كثير من أبياتها فن ذلك ما أورده فى مطلعها

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا • ونحن فى حفر الاجداث أحيانا

(ثم قال فى ابياتها)

تقول أنت امرؤ جاف مغالطة • فقلت لا هومت أجفان أجفانا

(وكذا قال فى آخرها)

لم يبق غيرك انسانا يلاذ به • فلا برحت لعين الدهر انسانا

(ورأيت) الغانمى قد ذكر فى كتابه بابا سماه ردّ الاعجاز على الصدور شاربا عن باب التجنيس وهو ضرب منه وقسم من جملة أقسامه كالذى نحن بصدد ذكره ههنا فما أورده الغانمى من الامثلة فى ذلك قول بعضهم

وتشرى بجميل الصنع ذكرا طيب النشر
وتفرى بسيوف الهند من أسرف فى الفرى
ويجرى فى شرى الحمد • على شاكلة البحر

(وكذلك قول بعضهم فى الشيب)

يا بياضا اذرى دموعى حتى • عاد منها سواد عينى بياضا

(وكذلك قول البحترى)

وأغر فى الزمن البهيم محجل • قد رحت منه على أغر محجل
كالهيكل المبنى الاأنه • فى الحسن جاء كصورة فى هيكل

وليس الاخذ على المعانى فى ذلك مناقشة على الاسماء وانما المناقشة على أن ينصب نفسه لايراد علم البيان وتفصيل أبوابه ويكون أحد الابواب الذى

ذكرناها دا خلافى الآخر فيذهب عليه ذلك ويخفى عنه وهو أشهر من فلق الصباح وربما جهل بعض الناس فأدخل فى التجنيس ما ليس منه نظرا الى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى فمن ذلك قول أبى تمام

أظن الدمع فى خدى سيبقى * رسوما من بكائى فى الرسوم

وهذا ليس من التجنيس فى شئ اذ حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وهذا البيت المشار اليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا وهذا مما ينبغى أن ينبه عليه ليعرف ومن علماء البيان من يجعل لهذا بابا ويسميه وهو الترديد أى أن اللفظة الواحدة رددت فيه وحيث نبهت عليه ههنا فلا احتاج أن أعقد له بابا أفرده بالذكر فيه (وأما الاقسام الستة) المشبهة بالتجنيس (فالقسم الاول) منها أن تكون الحروف متساوية فى تركيبها مختلفة فى وزنها فما جاء من ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم اللهم كما حسنت خلقى حسن خلقى ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان فى التركيب مختلفتان فى الوزن لان تركيب الخلق والخلق من ثلاثة أحرف وهى الخاء واللام والقاف الا أنهما قد اختلفا فى الوزن اذ وزن الخلق فعل بفتح الفاء ووزن الخلق فعل بضم الفاء ومن هذا القسم قول بعضهم لا تنال غرر المعالى الا بركوب الغرر واهتبال الغرر وقال البحترى

وفر الحائن المغرور يرجو * أمانا أى ساعة ما أمان

يهاب الالتفات وقد تصدى * للحظة طرفه طرف السنان

(وكذلك ورد قول الآخر)

قد ذبت بين حشاشة وذماء * ما بين حر هوى وحر هواء

(القسم الثانى) من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الالفاظ متساوية فى الوزن مختلفة فى التركيب بحرف واحد لا غير وان زاد على ذلك خرج من باب التجنيس (فمما) جاء منه قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فان هاتين اللفظتين على وزن واحد الا أن تركيبهما مختلف فى حرف واحد وكذلك قوله تعالى وهم ينهون عنه وينأون عنه وكذلك قوله تعالى ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وعلى نحو من هذا ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم الخيل معقود بنواصيها الخير وقال بعضهم لا تنال المكارم الا بالمكاره وقال أبو تمام

يعدون من أيد عواص عواصم ✽ تصول بأسياف قواض قواضب

(وقال البحترى)

من كل ساجى الطرف أغيد أجيد ✽ ومهفهف الكشحين أحوى أحور

وكذلك قوله شواجر أرماح تقطع بينهم ✽ شواجن أرحام ملوم قطوعها

(القسم الثالث) من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الالفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد كقوله تعالى والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق وقوله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم الناس من لسانه ويده (ودخل ثعلب) صاحب كتاب الفصيح على أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ومجلسه غاص فجلس الى جانبه ثم أقبل عليه وقال أخاف أن أكون ضيقت عليك لانه لا ينبغى مجلس بمتصابين ولا تسع الدنيا بأسرها متباغضين فقال له أحمد الصديق لا يحاسب والعدو لا يعتب له وهذا كلام حسن من كلا الرجلين والتجنيس فى كلام أحمد رحمه الله فى قوله يحاسب ويعتب له (وقد بانى شئ من ذلك) عليه خفة المطبع لاثقل التطبع (فمنه ما ذكرته) فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة يتضمن ذكر الجهاد فقلت وخيل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبى وسيوفه قد تطلعت أن يقال لها اشربى ومواطن الجهاد قد بعد عهدها باستسقاء شآبيب الصدور واتيات ربيع الذباب والنسور وماذاك الا لان العدو اذا طلب تقمص ثوب اذلاله وتنصل من صحة نصاله واعتصم بمعاقله التى لا فرق بينها وبين عقاله (ومن ذلك) ما ذكرته فى وصف كريم فقلت وقد جعل الله حرمه ملتقى الجفان ومتسق الاجفان فهو حمى لمن جنى عليه زمانه وجار لمن بعد عنه جيرانه (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى ديوان الخلافة وهو واقصد استبان الخادم من ركة طاعته ما يعمى عنه غيره فاراه ووجد من أثره فى صلاح دنياه ما استدل به على صلاح أخراه فهو المركب المنجى والعمل المرجو لا المرجى والمعنى المراد بهداية الصراط المستقيم وتأويل قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (ومن ذلك) ما ذكرته فى أثناء كتاب الى بعض الاخوان وذلك وصف بعض المنعمين فقلت نحن من حسن شيمه وفواضل احسانه بين خند وهنيدة

ومن عن نقيضه وامانة غيبه بين أم معبد وأبي عبيدة (ومن ذلك) ما ذكرته في مطلع كتاب الى بعض الاخوان فقلت الكتب وان عدها قوم عرضا من الاعراض وتقالوها حتى قالوا هي سواد في بياض فان لها عند الاخوان وجها وسيما ومحلا كريما وهي خاتم القلوب اذا فارق حميم حميما ومن أحسنها كتاب سيدنا ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب (ومن هذا القسم) قول أبي تمام

أيام تدمى عينه تلك الدما * فيها وتقمر لبه الاقمار

وكذلك قوله بيض فهن اذا رمقن سوافر * صور وهن اذا رمقن صوار

وكذلك قوله بدر أطالت قبلك بادرة النوى * ولعا وشمس أولعت بشماس

وكذلك قوله كادوا النبوة والهدى فتقطعت * أعناقهم في ذلك المضمار

جهلوا فلم يستكثروا من طاعة * معروفة بعمارة الاعمار

وكذلك قوله ان الرماح اذا غرسن بمشهد * فجني العوالي في ذراه معالي

وكذلك قوله اذا أحسن الاقوام أن يتطاولوا * بلا نعمة أحسنت أن تتطولا

وكذلك قوله أي ربع يكذب الدهر عنه * وهو ملق على طريق الليالي

بين حال جنت عليه وحول * فهو نضو الاحوال والاحوال

شد ما استرلتك عن دمعك الأظعان حتى استهل صوب العزالي

أي حسن في الذاهبين تولى * وجمال على ظهور الجمال

ودلال مخيم في ذرى الخيم وحسن معصم في الحجال

فالبيت الثاني والخامس هما المقصودان بالتمثيل ههنا والابيات الباقية جاءت تبعا وسبايا من ذلك قول علي بن جبلة

وكم لك من يوم رفعت بناءه * بذات جفون أو بذات جفان

(وكذلك قول محمد بن وهب الحميري)

قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا * فمالك موتور وسيفك واتر

وهذا من الملح النادر (ومن هذا القسم) قول البحتري

جدير بأن تنشق عن ضوء وجهه * ضبابة نقع تحتها الموت ناقع

وكذلك قوله نسيم الروض في ريح شمال * وصوب المزن في راح شمول

(وذم أعرابي رجلا) فقال كان اذا سأل ألحف واذا سئل سوف يحسد على الفضل ويزهد في الافضال (القسم الرابع) من المشبه بالتجنيس

ويسمى المعكوس (وذلك ضربان) أحدهما عكس الالفاظ والآخر عكس الحروف (فالاول) كقول بعضهم عادات السادات سادات العادات وكقول الآخر شيم الاحرار أحرار الشيم ومن هذا النوع ماورد شعرا قول الاضبط ابن قريع من شعراء الجاهلية

قد يجمع المال غير آكله • ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه • ويلبس الثوب غير من قطعه

(وكذلك) ورد قول أبي الطيب المتنبي

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله • ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

(وكذلك) قول الشريف الرضي من أبيات يذم فيها الزمان

اسف بمن يطير الى المعالي • وطار بمن يسف الى الدنايا

(وكذلك قول الآخر)

ان الليالي للانام مناهل • تطوى وتنشر بينها الاعمار
فقصارهن من الهموم طويلة • وطوالهن من السرور قصار

(وأحسن من هذا كله وألطفه) قول ابن الزقاق الاندلسي

غيري تنابذ الزمان • فقد شبت والتحي
فاستعمال النهى دينا • واستعمال الدجا نهي

وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة وعليه رونق وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب التبديل وذلك اسم مناسب لمسماه لان مؤلف الكلام يأتي بما كان مقدما في جزء كلامه الاول مؤخرا في الثاني وبما كان مؤخرا في الاول مقدما في الثاني ومثله قدامة بقول بعضهم اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك (ومن هذا القسم) قوله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي (وكذلك) ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم جار الدار أحق بدار الجار (وكتب علي بن أبي طالب) رضي الله عنه الى عبد الله بن عباس رضي الله عنه كتابا فقال أما بعد فان الانسان يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا بما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول أمل وكان قد والسلام (وروى عن أبي تمام) أنه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان وامتدحه بقصيدته

المشهورة التى مطلعها * أمن عوادى يوسف وصواحبه * أنكر عليه أبو سعيد الضرير وأبو العميثل هذا الابتداء وقالا لم لايقول مايفهم فقال لم لايفهمان مايقال فاستحسن منه هذا الجواب على الفور وهو من التجنيس المشار اليه (وقد جاءنى شئ منه) كقولى فى فصل من كتاب يتضمن قصا وهو فكم كان فى اقتراع عذرة الملعن من اقتراع عذرة حصان وكم حيزبه من شان خط امترقه خط سنان (وكذلك) قولى فى صدر كتاب الى ديوان الخلافة وهو الخادم يلح تخدمته الى ذلك الجناب التى تحطره الشفاه تقبيلا وتوسعه العفاة املا وترى الدول به ملوكا والملوك خولا وطاعته هى محك الاعمال التى أشير اليها بقوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا (وكذلك) ورد قولى أيضا وهو فصل من تقليد وزير فقلت وقد صدق اتداهمة المثنى عليك أن يقول انك الرجل الذى تضرب به الامثال والمهذب الذى لايقال معه أى الرجال واذا وازرت مملكة فقد حظيت منك بشد أزرها وسد ثغرها وأصبحت وأنت صدر لقلبها وقلب لصدرها فهى حرّ دانة منك بالفضل المتين معانة بالقوى الأمين (وأما الضرب الثانى) من هذا القسم وهو عكس الحروف فهو كقول بعضهم

أهديت شيأ يقل لولا * أحدوثة الفال والتبرك
كرسى تفاءلت فيه لما * رأيت مقلوبه يسرك

(وكذلك قول الآخر)

كيف السرور باقبال وآخره * اذا تأملته مقلوب اقبال

(وأجود من هذا كله) قول الآخر

جاذبتها والريح تجذب عقربا * من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتمنعت * وتحجبت عنى بقلب العقرب

واذا قلب لفظ عقرب صار برقعا وهذا الضرب نادر الاستعمال لانه قل ما يقع كلمة تنقلب حروفها فيجى معناها صوابا (القسم الخامس) من المشبه بالتجنيس ويسمى المجنب وذلك أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين احداهما كالتبع للاخرى والجنيبة لها كقول بعضهم

أبا العباس لاتحسب بأنى * لشئ من حلى الاشعار عارى
فلى طبع كسلسال معين * زلال من ذرا الاحجار جارى

وهذا القسم عندي فيه نظر لانه بلزوم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس ألا ترى أن التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى وههنا لم يتفق الاجزاء من اللفظ وهو أنه وأما اللزوم في الكلام المنثور فهو تساوي الحروف التي قبل الفواصل المسجوعة وهذا هو كذلك لان العين والراء تساويا في البيت الاول في قوله الاشعار وعار والجيم والراء في البيت الثاني في قوله الاجبار وجار (القسم السادس) من المشبه بالتجنيس وهو ما يساوي وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر وذلك كقول أبي تمام

بيض الصفائح لا سود الصحائف في • متونهن جلاء الشك والريب

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت وقد ورد في الكلام المنثور كقوله صلى الله عليه وسلم في فضيلة تلاوة القرآن الكريم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرأ فقوله صلى الله عليه وسلم اقرأ وارق من التجنيس المشار اليه في هذا القسم (النوع الثالث في الترصيع) وهو مأخوذ من ترصيع العقد وذلك أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلي مثل ما في الجانب الآخر وكذلك نجعل هذا في الالفاظ المنثورة من الاسجاع وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الاول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية وهذا لا يوجد في كتاب الله تعالى لما هو عليه من زيادة التكلف فأما قول من ذهب الى أن في كتاب الله منه شيأ ومثله بقوله تعالى ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم فليس الامر كما وقع له فان لفظة لفي قد وردت في القرينتين معا وهذا الف شرط الترصيع الذي شرطناه لكنه قريب منه وأما الشعر فاني كنت أقول انه لا يتزن على هذه الشريطة ولم أجده في أشعار العرب لما فيه من تعمق الصنعة وتعسف الكلفة واذا جيء به في الشعر لم يكن عليه محض الطلاوة التي تكون اذا جيء به في الكلام المنثور ثم اني عثرت عليه في شعر المحدثين ولكنه قليل جدا فمن ذلك قول بعضهم

فمكارم أوليتها متبرعا • وجرائم ألغيتها متورعا

فكارم بازاء جرائم وأوليتها بازاء ألغيتها ومتبرعا بازاء متورعا وقد أجاز بعضهم أن يكون أحد ألفاظ الفصل الاول مخالفا لما يقابله من الفصل الثاني وهذا

ليس بشئ لخالفته حقيقة الترصيع (فمما جاء من هذا النوع) منثورا قول الحريرى فى مقاماته فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع بزواجر وعظه فانه جعل ألفاظ الفصل الاول مساوية لالفاظ الفصل الثانى وزنا وقافية فجعل يطبع بازاء يقرع والاسجاع بازاء الاسماع وجواهر بازاء زواجر ولفظه بازاء وعظه (ومما جاءنى فى هذا النوع) ما ذكرته فى جواب كتاب الى بعض الاخوان وهو قد أعدت الجواب ولم أبتذله تطاما ملذنا ولاجليت اليه حسنا منمقا بل أخرجته على رسله وعنيت بمثال حسنه من صقله فجاء كما تراه غير مشوطا ولامخطوط فهو يرفل فى أثواب بذلته ويدحو الجمال بجملته والحسن ما وشته فطرة التصوير لاما حشته فكرة التزوير والترصيع فى قولى وشته فطرة التصوير وحشته فكرة التزوير وكذلك ورد قولى فى فصل من الكلام يتضمن تثقيف الاولاد فقلت من قوم أود أولاده ضرم كمد حساده فهذه الالفاظ متكافئة فى ترصيع القوم بازاء ضرم وأود بازاء كمد وأولاده بازاء حساده وكذلك قول بعضهم فى الامثال المولدة التى لم ترد عن العرب وهو من أطاع غضبه أضاع ادبه فأطاع بازاء أضاع وغضبه بازاء أدبه * وقد ورد هذا الضرب كثيرا فى الخطب التى أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نباتة رحمه الله (فمن ذلك) قوله فى أول خطبة الحمد لله عاقد أزمة الامور بعزائم أمره وحاصد أئمة الغرور بقوادم مكره وموفق عبيده لمغانم ذكره ومحقق مواعيده بلوازم شكره فالالفاظ التى جاءت فى الفصلين الاولين متساوية وزنا وقافية والتى جاءت فى الفصلين الآخرين فيها تخالف فى الوزن فان مواعيده تخالف وزن عبيده ولا تخالف قافيتها التى هى الدال (ومن ذلك) قوله أيضا فى جملة خطبة أولئك الذين أقلوا فنعمتم ورحلوا فأقمتم وأبادهم الموت كما علمتم وأنتم الطامعون فى البقاء بعدهم كما زعمتم كلا والله ما أخضروا لتقروا ولا نغصوا لتسروا ولا بد أن تمروا حيث مروا فلا تنفروا بخدع الدنيا ولا تغتروا وهذا الكلام فيه أيضا ما فى الذى قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن (وكذلك) قوله أيضا فى خطبة أخرى أيها الناس أسيموا القلوب فى رياض الحكم وأديموا النحيب على ابيضاض اللمم وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم وأجيلوا الافكار فى انقراض

الاسم (وأما ما ورد في الشعر) على مخالفة بعض الالفاظ بعضا فكقول ذي الرمة

كحلاء في برج صفراء في نعج • كأنها فضة قد مسها ذهب

وصدر هذا البيت مرصع وعجزه خال من الترصيع وعذر الشاعر في ذلك واضح لانه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته على حرف الباء ولو رصع هذا البيت الترصيع المحقق لكان يلزمه أن يأتي بالفاظه على حرفين حرفين أحدهما الباء أو كان يقسم البيت نصفين ويماثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف وذلك مما يعسر وقوعه في الشعر وأرباب هذه الصناعة قد قسموا الترصيع الى هذين القسمين المذكورين وهذه القسمة لا أراها صوابا لان حقيقة الترصيع موجودة في القسم الاول دون الثاني (ومما جاء) من هذا القسم الثاني قول الخنساء

حامي الحقيقة محمود الخليقة • مهدي الطريقة نفاع وضرار

(وكذلك قول الآخر)

سود ذوائبها بيض ترائبها • محض ضرائبها صيغت من الكرم

لزوم ما لا يلزم

(النوع الرابع في لزوم ما لا يلزم) وهو من أشق هذه الصناعة مذهبا وأبعدها مسلكا وذلك لان مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه فان اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه انما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفا واحدا وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روي الابيات الشعرية وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان في ذلك كتابا وسماه كتاب اللزوم فأتى فيه بالجيد الذي يحمد والردي الذي يذم وسأذكر في كتابي هذا في هذا الموضع أمثلة من المنثور والمنظوم يقتدى بها (فمن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب في فصل يتضمن ذم جبان فقلت اذا نزل به خطب ملكه الفرق واذا دخل في أمر لم يؤمن الا اذا أدركه الغرق (ومن ذلك) ما ذكرته في مبدإ كتاب الى بعض الاخوان فقلت الخادم يهدي من دعائه وثنائه ما يملأ أحدهما سماء والآخر أرضا ويعمر أحدهما نفلا والآخر فرضا وأعجب ما فيهما أنهما توأمان غير أن هذا مستنتج من ضمير القلب وهذا من نطق اللسان فاللزوم ههنا في الراء والضاد (وكذلك) ورد قولي في جملة كتاب الى ديوان الخلافة

فقلت وقد علم من شيم الديوان العزيز أنه يسر بامتداد الايدى الى بابه واذا أغب أحد هاف المسئلة تمناه عن اغبابه حتى لايخلو حرمه الكريم من الطائف ولا يده الكريمة من الاسعاف فالزوم ههنا فى لفظتى بابه واغبابه (ومن ذلك) ما كتبته فى جملة كتاب الى ديوان الخلافة أيضا وهو وهو مما شد به عضد الخادم من الانعام فانه قوة لليد التى خولته ولا يقوى تصعد السحب الابكثرة غيثها الذى أرسلته وغير خاف أن عبيد الدولة لها كالعمد من طرافها ومركز الدائرة من أطرافها ولا يؤيد السيف الابقائمه ولا يتم الجناح الا بقوادمه فاللزوم فى هذا الموضع فى الراء والفاء فى قولى طراف وأطراف (ومن ذلك) ما كتبته فى صدر كتاب الى الملك الافضل على بن يوسف أهنيه بملك مصر فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة فقلت المملوك يهنى مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واحتبائه وتمكينه حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه ولو أنصف اهنى الارض منه بوابلها والامة بكافلها وخصوصا أرض مصر التى خصت بشرف مكانه وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض عنانه وكل هذه الفصول المذكورة من هذه المكتوبات التى انشأتها لا كلفة على كلمات اللزوم فيها (وقرأت فى كتاب الاغانى) لابى الفرج أن لقيط بن زرارة تزوج بنت قيس بن خالد بن ذى الجدين فخطبت عنده وحظى عندها ثم قتل فآمت بعده وتزوجت زوجا غيره فكانت كثيرا ما تذكر لقيطا فلامها على ذلك فقالت انه خرج فى يوم دجن وقد تطيب وشرب فطرد البقر فصرع منها ثم أتانى وبه نضح دم فضمنى ضمة وشمنى شمة فليتنى مت ثمة فلم أر منظرا كان أحسن من لقيط فقولها ضمنى ضمة وشمنى شمة فليتنى مت ثمة من الكلام الملوفى باب اللزوم ولا كلفة عليه وهكذا فليكن فان الكلفة وحشة تذهب برونق الصنعة وما ينبغى لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النوع حتى يجىء به متكلفا ومثاله فى هذا المقام كمن أخذ موضوعا رديئا فأجاد فيه صنعته فانه يكون عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الاصل فأضاع جودة الصنعة فى رداءة الموضوع (وقد سلك ذلك) أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله بن سليمان فمما جاء من ذلك قوله فى حرف التاء مع الخاء

بنت عن الدنيا ولا بنت لى * فيها ولا عرس ولا أخت

وقد تحملت من الوزر ما • تعجز أن تحمله البخت
ان مدحوني ساءني مدحهم • وخلت أني في الثرى سخت

(وله من ذلك الجيد كقوله)

لا تطلبن بآلة لك حاجة • قلم البليغ بغير جد مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما • هذا له رمح وهذا أعزل

وهذا بين الاسترسال وبين الكلفة وأما ما تكلف له تكلفا ظاهرا وان أجاد فقوله

تنازع في الدنيا سواك وما له • ولا لك شيء في الحقيقة فيها
ولكنها ملك لرب مقدر • يمير جنوب الارض مرتدفيها
ولم تحظ من ذاك النزاع بطائل • من الامر الا أن تعد سفيها
فيا نفس لا تعظم عليك خطوبها • فتعظم وهاما مثل مختلفيها
تداعوا الى النزر القليل فجالدوا • عليه وخلوها لمسترفيها
وما أم صل أو حليلة ضيغم • بأظلم من دنياك فاعترفيها
تلاقي الوفود القادميها بفرحة • وتبكي على آثار منصرفيها
وما هي الا شركة ليس عندها • وجدك أرطاب لمقترفيها
كما بذلت للطير والوحش رازم • فألقت شرورا بين مختلفيها
بيات عن الانصاف من ضيم لم يجد • سبيلا الى غايات منتصفيها
فأطبق فاءنها وكما وقفه له • وقل لذوي الناس مالك فيها

(ومن ذلك)

أرى الدنيا وما وصفت ببر • اذا أغنت فقيرا أرهقته
اذا خشيت لشر عجلته • وان رجيت لخير عوقته
حياة كالحبالة ذات مكر • ونفس المرء صيدا أعلقته
فلا يخدع بحيلتها أريب • وان هي سورته ونطقته
أذاقته شهيا من جناها • وصدت فاه عما ذوقته

وقد ورد للعرب شيء من ذلك الا أنه قليل فما جاء منه قول بعضهم في أبيات الحماسة

ان التي زعمت فؤادك ملها • خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها • بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي • ما كان أكثرها لنا وأقلها

واذا وجدت لها وساوس سلوة ✽ شفع الضمير الى الفؤاد فسلها

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه (ومما يجرى هذا المجرى) قول جحدر بن ضبيعة العبسى من شعراء الحماسة أيضا

ولا أدوم قدرى بعد ما نضجت ✽ بخلا لتمنع ما فيها أثافيها

حتى تقسم شتى بين من وسعت ✽ ولا يؤنب تحت الليل عانيها

ومما ورد من ذلك أيضا قول طرفة بن العبد البكرى

ألم تر أن المال يكسب أهله ✽ فقروا اذا لم يعط منه نوائبه

أرى كل مال لا محالة ذاهبا ✽ وأفضله ما ورث الحمد كاسبه

(وكذلك قول الفرزدق)

وغير لون راحلتى ولونى ✽ تردّى الهواجر واعتمامى

أقول لها اذا هجرت وعضت ✽ بمورك الورك مع الزمام

علام تلفتين وأنت تحتى ✽ وخير الناس كلهم أمامى

(وكذلك قوله أيضا)

منع الحياة من الرجال ونفعها ✽ حدق تقلبها النساء مراض

وكأن أفئدة الرجال اذا رأوا ✽ حدق النساء لنبلها أغراض

واذا شئت أن تعلم مقادير الكلام وكان لك ذوق صحيح فانظر الى هذا العربى فى كلامه السهل الذى كأنه ما جاء وانظر الى ما أوردته لابى العلاء المعرى فان أثر الكلفة عليه باد ظاهر (ومن) قصد من العرب قصيدة كلها على اللزوم كثير عزة وهى القصيدة التى أولها

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا ✽ قلوصيكما ثم احللا حيث حلت

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتا وهى مع ذلك من لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها وليس عليها من أثر الكلفة شئ ولولا خوف الاطالة لاوردتها بجملتها وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ما ورد فى أبيات الحماسة وهو

وفتية ليست كهذى الفيش ✽ قد ملئت من ترق وطيش

اذا بدت قلت أمير الجيش ✽ من ذاقها يعرف طعم العيش

(وهذا) ليس من باب اللزوم لان اللزوم هو أن يلتزم الناظم والناثر ما لا يلزمه كقولنا شرق وفرق مثلا فانه لو قيل بدلا من ذلك شرق وحتى لجاز ذلك وفى

هذه الابيات لايقع الامر كذلك لانه لوقيل عابر وعرش للباز وهذا يقال له الردف فى الشعر وهو الياء والواو قبل حرف الروى واذا جيء بذلك فى الشعر وفى الكلام المنثور لايقال انه التزام ما لايلزم لان الملتزم ما لايلزم له مندوحة فى العدول الى غيره وههنا لامندوحة (ومن لطيف ذلك) ماروى ان امرأة من البصرة عبثت بأبى نواس فقالت

ان ترى حزنيل حزانيه • اذا تعدت فرقة نابيه
• كلارنب الجاثم فوق الرابيه •

(وكذلك ورد قول أبى تمام وهو)

خدم العلا فخدمنه وهى التى • لاتخدم الاقوام مالم تخدم
فاذا ارتقى فى قلة من سودد • قالت له الاخرى بلغت تقدم

(وعلى هذا الاسلوب قوله أيضا)

ولو حاربتنى لوجدت خرقا • يصافى الاكرمين ولايصادى
جديرا أن يكز العارف شزرا • الى بعض الموارد وهو صادى

(وله من أبيات تتضمن مرثية)

لقد جمعت عنانة وزهيرة • وناجية أخرى الليالى ورواحله
ومبتدر المعروف تسرى هباته • اليهم ولاتسرى اليهم غوائله
طواه الردى طى الرداء وغيبت • فضائله عن قومه وفواضله
طوى شيما كانت تروح وتغتدى • وسائل من أعيت عليه وسائله
فياعارضا للعرف أقلع مزنه • ويا واديا للجود جفت مسايله
ألم ترنى أنزفت حيف على أبى • محمد النجم المشرق آفله
وأخاه تهانيه كما لو أننه • طريد الليالى انا امتنى نوائله

وهذا من أحسن ماجىء فى هذا الباب وليس متكلف كشعر أبى العلاء فان حسن هذا مطبوع وحسن ذاك مصنوع وكذلك أقول فى غير اللزوم من الانواع المذكورة أولا فان الالفاظ اذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع وكانت غير مستجلبة ولا متكلفة جاءت غير محتاجة الى التأنق ولاشك أن صورة الطلقة غير صورة التخلق (فان قيل) ما الفرق بين المتكلف من هذه الانواع وغير المتكلف (قلت فى الجواب) أما المتكلف فهو الذى يأتى بالفكرة والروية وذلك

أن ينهى الخاطر في طلبه ويبعث على تتبعه واقتناص أثره وغير المتمكن يأتي مستريحا من ذلك كله وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب في انشاء خطبته أو كتابته فيبادر كذلك اذ سنح له نوع من هذه الانواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب ألا ترى الى قول أبي نواس في مثل هذا الوضع

ازل الاطلال لا تعبأ بها * انها من كل بؤس دانيه
وانعت الراح على تصريفها * انما الدنيا لنا دار فانيه
من عقار من رآها قال لي * صيدت الشمس لنا في آنيه

(وعلى هذه السهولة واللطافة ورد قوله أيضا)

كم من غلام ذى شماسين * أفسده ناطف ياسين

وهذا ياسين كان يبيع الناطف ببغداد (وحكى ابراهيم البندنيجي) قال رأيت شيخا ضعيفا يبيع ناطفا فقلت له يا شيخ أما زلت في هذه الصناعة قال مذ كنت ولكن الحال كانت واسعة والسلعة نافقة وكنت ممن يشار اليه حتى قال أبو نواس في وأنشد هذا البيت فانظر أيها المتأمل ما أحلى لفظ أبي نواس في لزومه وما أعراه من الكلفة وكذلك فلتكن الالفاظ في اللزوم وغيره (واعلم) أنه اذا صغرت الكلمة الاخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور فان ذلك ملحق باللزوم ويكون التصغير عوضا عن تساوي الحروف التي قبل روي الابيات الشعرية والحروف التي قبل الفاصلة من النثر (فمن ذلك) قول بعضهم

عز على ليلى بذى سدير * سوء مبيتي ليلة الغمير
مقبضا نفسي في طمير * تنتز الرعدة في ظهير
يهفو الى الزور من صدير * ظمآن في ريح وفي مطير
وازرق ترابس بالغرير * من لدما ظهر الى سحير
حتى بدت لي جبهة القمير * لاربع خلون من شهير

وهذا من محاسن الصنعة في هذا الباب فاعرفه وأحسن منه ما ورد عن أبي نواس وعن عنان جارية الناطفي ولهما معها حكايات كثيرة غير هذه فقال أبو نواس

أما ترى لصب * يكفيه منك قطيره

فقالت عنان

اياي تعني بهذا * عليك فاجلد عميره

فقال أبو نواس

أخاف ان رمت هذا * على يدي منك غيره

فالبيتان الاول والثاني من هذا الباب والثالث جاء تبعا وقد ورد في القرآن الكريم شيء من اللزوم الا انه يسير جدا (فمن ذلك) قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق وقوله تعالى والطور وكتاب مسطور وكذلك ورد قوله تعالى في هذه السورة فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه كقوله تعالى ان المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم وهذا لا يدخل في باب اللزوم لان الاصل فيه نعم وجحم والياء هي من حروف المد واللين فلا يعتد بها ههنا (ومن هذا الباب) قوله تعالى وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وكذلك ورد قوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير (وعلى هذا الاسلوب) جاء قوله تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد قال لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد ولا تجد أمثال ذلك في القرآن الا قليلا

الموازنة

(النوع الخامس في الموازنة) وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الالفاظ وزنا وللكلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال لانه مطلوب في جميع الاشياء واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان وهذا لا مراء فيه لوضوحه وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع في المعادلة دون المماثلة لان في السجع اعتدالا وزيادة على الاعتدال وهي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ولا تماثل في فواصلها فيقال اذا كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة (فمما جاء منها) قوله تعالى وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم فالمستبين والمستقيم على وزن واحد وكذلك

قوله تعالى في سورة مريم عليه السلام واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا وكذلك قوله تعالى في سورة طه من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا وكذلك ورد قوله تعالى في سورة حم عسق والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير وهذه الآيات جميعها على وزن واحد فإن شديد وقريب وبعيد وعزيز ونصيب وأليم وكبير كل ذلك على وزن فعيل وإن اختلف حروف المقاطع التي هي فواصلها وأمثال هذا في القرآن كثير بل معظم آياته جارية على هذا النهج حتى إنه لا تخلو منه سورة من السور ولقد تصفحته فوجدته لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة (وأما ما جاء) من هذا النوع شعرا فقول ربيعة بن ذؤابة

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم • بعتيبة بن الحرث بن شهاب

بأشدهم بأسا على أصحابه • وأعزهم فقدا على الأصحاب

فالبيت الثاني هو المختص بالموازنة فإن بأسا وفقدا على وزن واحد (النوع السادس في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها) وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ومكانة شريفة وجل الألفاظ اللفظية منوطة به ولقد لقيت جماعة من مدعي فن الفصاحة وفاوضتهم وفاوضوني وسألتهم وسألوني فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضع كما ينبغي وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها وسيأتي

ذكرها

اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها

ذكرها هنا (أما اختلاف صيغ الالفاظ) فانه اذا انتقلت من هيئة الى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الاوزان الى وزن آخر وان كانت اللفظة واحدة أو كنقلها من صيغة الاسم الى صيغة الفعل أو من صيغة الفعل الى صيغة الاسم أو كنقلها من الماضي الى المستقبل أو من المستقبل الى الماضي أو من الواحد الى التثنية أو الى الجمع أو الى النسب أو الى غير ذلك انتقل قبحها فصار حسنا وحسنها فصار قبيحا (في ذلك) لفظة خود فانها عبارة عن المرأة الناعمة واذا انتقلت الى صيغة الفعل قيل خَوَّدَ على وزن فعّل بتشديد العين ومعناها أسرع يقال خوّد البعير اذا أسرع فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة وقد وردت في النظم والنثر كثيرا واذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة كقول أبي تمام

والى بني عبد الكريم تواهقت • رتك النعام رأى الظلام فخوّدا

وهذا يقاس عليه أشباهه وأنظاره الا أن هذه اللفظة التي هي خوّد قد نقلت عن الحقيقة الى المجاز فخف منها ذلك القبح قليلا كقول بعض شعراء الحماسة

أقول لنفسي حين خوّد رألها • رويدك لما تشفقي حين مشفق
رويدك حتى تنظري عم تنجلي • غيابة هذا العارض المتألق

والرأل النعام والمراد به ههنا أن نفسه فرت وفزعت وشبه ذلك باسراع النعام في فراره وفزعه ولما أورده على حكم المجاز خف بعض القبح الذي على لفظة خوّد وهذا يدركه الذوق الصحيح ولا خفاء بما بين هذه اللفظة في ايرادها ههنا وايرادها في بيت أبي تمام فانها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سمجة ووردت ههنا بين بين (ومن هذا النوع) لفظة وَدَعَ وهي فعل ماض ثلاثي لا ثقل بها على اللسان ومع ذلك فلا تستعمل على صيغتها الماضية الا جاءت غير مستحسنة ولكنها تستعمل مستقبلة وعلى صيغة الامر فتجيء حسنة أما الامر فكقوله تعالى فدعهم يخوضوا ويلعبوا ولم تأت في القرآن الكريم الا على هذه الصيغة وأما كونها مستقبلة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم لو مد لنا الشهر لواصلنا وصالا لا يدع له المتعمقون تعمقهم وقال أبو الطيب المتنبي

يشفكم بقناها كل سلهبة • والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع

وأما الماضي من هذه اللفظة فلم يستعمل الا شاذا ولا حسن له كقول أبي

قوله فدعهم الخ لا وقد ذرهم ولو قال ودع أذاهم لأصاب اه

العتاهية   أثروا فلم يدخلوا قبورهم • شيأ من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم • أعظم نفعا من الذي ودعوا

وهذا غير حسن في الاستعمال ولا عليه من الطلاوة شيء وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شيء سوى أنها نقلت من الماضي الى المستقبل لا غير وكذلك لفظة وذر فانها لا تستعمل ماضية وتستعمل على صيغة الامر كقوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر فهي لم ترد في القرآن الا على هاتين الصيغتين وكذلك في فصيح الكلام غير القرآن وأما اذا جاءت على صيغة الماضي فانها لا تستعمل وهي أقبح من لفظة ودع لان لفظة ودع قد استعملت ماضية وهذه لم تستعمل وههنا فلينظر المتأنقون في هذا الفن تأثارهم وليعلموا أن في الزوايا خبايا واذا أنعموا الفكر في أسرار الالفاظ عند الاستعمال وأغرقوا في الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب (ومن هذا النوع) لفظة الاخدع فانها وردت في بيتين من الشعر وهي في أحدهما حسنة رائقة وفي الآخر ثقيلة مستكرهة كقول ابن الصمة عبد الله من شعراء الحماسة

تلفت نحو الحي حتى وجدتني • وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

(وكقول أبي تمام)

ياد هر قوم من أخدعيك فقد • أضججت هذا الانام من خرقك

ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع والكراهة في النفس أضعاف ما وجد لها في بيت ابن الصمة عبد الله من الروح والخفة والايناس والبهجة وليس سبب ذلك الا أنها جاءت موحدة في احدهما مثناة في الآخر وكانت حسنة في حالة الافراد مستكرهة في حالة التثنية والا فاللفظة واحدة وانما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى (ومن هذا النوع) ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ولا يستفتى في ذلك الا الذوق السليم وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره (فمن ذلك) لفظة اللب الذي هو العقل لا لفظة اللب الذي تحت القشر فانها لا تحسن في الاستعمال الا مجموعة وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة ولم ترد مفردة كقوله تعالى وليتذكر أولو الالباب وان في ذلك لذكرى لاولي الالباب وأشباه ذلك

وهذه اللفظة ثم تبنية حسنة في النطق وشاهدها بعيدة ولست بمستثقلة ولا مكروهة وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا اليها أما كونها مضافا اليها فكقولنا الا بعلم دقة الادراك وان في ذلك لعبرة لذى لب وعليه ورد قول جرير

ان العيون التي في طرفها حور • قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به • وهن أضعف خلق الله أركانا

وأما كونها مضافة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر النساء ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من احداكن يا معشر النساء فان كانت هذه اللفظة عرية من الجمع أو الاضافة فانها لا تأتي حسنة ولا تجد دليلا على ذلك الا بمجرد الذوق الصحيح واذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الافراد كلفظة كوب فانها وردت في القرآن مجموعة ولم ترد مفردة وهي وان لم تكن مستقبحة في حال افرادها فان الجمع فيها أحسن لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكون حالها حسنا لانها وردت كقولي في جملة أبيات أصف بها الخمر وما يجري معها من آلاتها

ثلاثة تجلى الفرح • كأس وكوب وقدح
ما ذبح الزق بها • الا وللهم ذبح

فلما وردت لفظة الكوب مع الكأس والقدح في هذا الأسلوب حسنها وكأنه جلاها على غير لباسها الذي كان لها اذا سلكت مفردها (وكذلك وردت) لفظة رجا بالقصر والرجا بالجانب فانها لم تستعمل موحدة وانما استعملت مجموعة كقوله تعالى والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فلما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع ثوبا من الحسن لم يكن لها في حال كونها موحدة وقد تستعمل موحدة بشرط الاضافة كقولنا رجا البئر وربما أخطأ بعض الناس في هذا الموضع وقاس عليه ما ليس بمقيس وذلك أنه وقف على ما ذكرته ههنا وادب فصال وكذلك قد وردت لفظة الصوف في القرآن الكريم ولم ترد الا مجموعة كقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى

حين وهذا بخلاف ما وردت عليه في شعر أبي تمام

كانوا برود زمانهم فتصدعوا • فكأنما لبس الزمان الصوفا

وهذا البيت كالذي أشرت اليه فان لفظة الصوف لفظة حسنة مفردة ومجموعة وانما أزرى بها في قول أبي تمام أشياء جاءت مجازية في نسبتها الى الزمان وعلى هذا النهج وردت لفظة خبر وأخبار فان هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة ولم ترد في القرآن الا مجموعة (وفي ضد ذلك) ما ورد استعماله من الالفاظ مفردا ولم يرد مجموعا كلفظة الارض فانها لم ترد في القرآن الا مفردة فاذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن ولما أريد أن يؤتي بها مجموعة قيل ومن الارض مثلهن في قوله تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن (ومما ورد) من الالفاظ مفردا فكان أحسن مما ورد مجموعا لفظة البقعة قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى اني أنا الله والاحسن استعمالها مفردة لا مجموعة وان استعملت مجموعة فالاولى أن تكون مضافة كقولنا بقاع الارض أو ما يجري مجراها (وكذلك) لفظة طيف في ذكر طيف الخيال فانها لم تستعمل الا مفردة وقد استعملها الشعراء قديما وحديثا فلم يأتوا بها الا مفردة لان جمعها جمع قبيح فاذا قيل طيوف كان من أقبح الالفاظ وأشدها كراهة على السمع وبالله العجب من هذه اللفظة ومن أختها عدة ووزنا وهي لفظة ضيف فانها تستعمل مفردة ومجموعة وكلاهما في الاستعمال حسن رائق وهذا مما لا يعلم السر فيه والذوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجري مجراهما (وأما جمع المصادر) فانه لا يجيء حسنا والافراد فيه هو الحسن (ومما) جاء في المصادر مجموعا قول عنترة

فان يبرأ فلم أنفث عليه • وان يفقد فحق له الفقود

قوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقد يفقد فقدا واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ وان كان جائزا ونحن في استعمال ما نستعمله من الالفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز وهذا كله يرجع الى حاكم الذوق السليم فان صاحب هذه الصناعة يصرف الالفاظ بضروب التصريف فما عذب في فمه منها استعمله وما لفظه فمه تركه ألا ترى أنه يقال الامة بالضم عبارة عن الجمع

الكثير من الناس ويقال الإمّة بالكسر وهي النعمة فإن الأمّة بالضم لفظة حسنة وبالكسر ليست بحسنة واستعمالها قبيح (ورأيت صاحب كتاب الفصيح) قد ذكر فيه ما اختاره من الألفاظ الفصيحة ويا ليت شعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها وكذلك قد اختار ألفاظاً أخر ليست بفصيحة ولا لوم عليه لأن صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية وإنما تؤخذ منهم مسئلة نحوية أو تصريفية أو نقل كلمة لغوية وما يجري هذا المجرى وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها وإذا شئت عن صاحب كتاب الفصيح ألفاظاً معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فإن هذا منه كثير (ومما يذكر في هذا الباب) أنه يقال سهم صائب فإذا جمع الجمع الحسن الذي يعذب في الفم قيل سهام صوائب وصائبات وصيب فإذا جمع الجمع الذي يقبح قيل سهام صيب على وزن كتب قال أبو نواس

ما أحل الله ما صنعت • عينه تلك العشية بي

قتلت انسانا كبدي • بسهام للردى صيب

فقوله سهام صيب من اللفظ الذي ينبو عنه السمع ويبعد عنه اللسان ومثله ورد قول عريف القوافي من أبيات الحماسة

ذهب الرقاد فما يحس رقاد • مما شجاك ونامت العواد

لما أتاني من عيينة أنه • أمسى عليه تظاهر الأقياد

فقوله أقياد في جمع قيد مما لا يحسن استعماله بل الأحسن أن يقال في جمعه قيود وكذلك قول مرة بن محكان التميمي من أبيات الحماسة وذلك من جملة الأبيات المشهورة التي أولها

يا ربة البيت قومي غير صاغرة • ضمي إليك رحال القوم والقربا

فقال فيها

ماذا ترين أندنيهم لأرحلنا • في جانب البيت أم نبني لهم قببا

فإنه جمع قبة على قبب وذلك من المستبشع الكريه والأحسن المستعمل هو قباب لا قبب وكذلك يجري الأمر في غير هذا (ومن المجموع) ما يختلف استعماله وإن كان منقولاً لفظة واحدة كالعين الناظرة وعين الناس وهو النبيه فيهم فإن العين الناظرة تجمع على عيون وعين الناس تجمع على أعيان

اعتراض على صاحب الفصيح في ذكره ألفاظاً لا فصاحة فيها

وهذا يرجع فيه الى الاستحسان لا الى الجواز والوضع اللغوى وقد شذ هذا الموضع عن أبي الطيب المتنبي في قوله

والقوم في أعيانهم خزر ٭ والخيل في أعيانها قبل

فجمع العين الناظرة على أعيان وكان الذوق يأبى ذلك ولا تجده على اللسان حلاوة وان كان جائزا ولولا خوف الاطالة لأوردت من هذا النوع وأمثاله أشياء كثيرة وكشفت عن رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطي هذا الفن لكن في الذى أشرت اليه منبه لأهل الصناعة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره (وأعجب من ذلك كله) أنك ترى وزنا واحدا من الالفاظ فتارة تجد مفرده حسنا وتارة تجده جمعه حسنا وتارة تجدهما جميعا حسنين فالاول نحو حبرور وهو فرخ الحبارى فان هذه اللفظة يحسن مفردها الا جمعها الاتى جموها على حبارير وكذلك طنبور وطنابير وعرقوب وعراقيب وأما الثاني فنحو بهلول وبهاليل وأهموم وأهاميم وهذا ضد الاول وأما الثالث فنحو عرجون وعراجين وجمهور وجماهير فانظر الى الوزن الواحد كيف يختلف في أحواله مفردا ومجموعا وهذا من أعجب ما يجيء في هذا الباب (وهكذا تجيء ألفاظ) على وزن واحد ثلاثية ساكنة الوسط وجميعها حسن في الاستعمال واذا أردنا أن نثقل وسطها حسن منها شيء دون شيء (في ذلك) لفظة الثلث والربع الى العشر فان الجميع على وزن واحد واذا ثقلنا أوساطها فقلنا ثلث وربع وخمس وكذلك الى عشر فان الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهي الثلث والخمس والسدس والباقي وهو الربع والسبع والثمن والتسع والعشر ليس كالاول في حسنه هذا والجميع على وزن واحد وصيغة واحدة والجميع حسن في الاستعمال قبل أن ينقل وسطه ولما نقل صار بعضه حسنا وبعضه غير حسن وكذلك تجد الامر في أسماء الفاعلين كالثلاثي منها نحو فعل بفتح الفاء والعين وفعل بفتح الفاء وكسر العين وفعل بفتح الفاء وضم العين فان هذه الاوزان الثلاثة لها أسماء فاعلين أما فعل بفتح الفاء والعين فليس له الا اسم واحد أيضا وهو فاعل لا غير ولا يقع فيه اختلاف وكذلك فعل بفتح الفاء وضم العين فليس له الا اسم واحد أيضا وهو فعيل ولا يقع فيه اختلاف الا شاذا لكن فعل بفتح الفاء وكسر العين يقع في اسم فاعله

الاختلاف اختصاراً واستقباحاً لأن ثلاثة أوزان نحو فاعل وفعل وفعلان تقول منه حمد فهو حامد وحمد وحمدان وقد جاء على وزنه فرح تقول منه فرح زيد فهو فرح وهو الأحسن ولا يحسن أن يقال فارح ولا فرحان وإن كان جائزاً لكن فرحان أحسن من فارح وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم فلا تستعمل إلا على فرح لا غير كقوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون وكقوله تعالى إن الله لا يحب الفرحين وقد جاءت هذه اللفظة في شعر بعض شعراء الحماسة في باب المراثي

فما أنا من حزن وإن جل جازع ● ولا بسرور بعد موتك فارح

وهذا غير حسن وإن جاز استعماله وعلى نحو منه يقال غضب وهو غضبان ولا يقال غاضب وإن كان جائزاً وقد تقدم القول أمام تأليف الكلام بصدد استعمال الحسن والأحسن لا بصدد استعمال الجائز وغير الجائز (ومما يجري هذا المجرى) نحو أفعل وافتعل فإن لفظة افتعل لها موضع تستعمل فيه ألا ترى أنك تقول قعدت إلى فلان أحدثه ولا تقول اقتعدت إليه وكذلك تقول اقتعدت غارب الجمل ولا تقول قعدت على غارب الجمل وإن جاز ذلك لكن الأول أحسن وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم فإنه لا يمكن أن يقام عليه دليل (وأما أفعل وافعوعل) فإنما تقول أعشب المكان فإذا كثر عشبه قلنا اعشوشب فلفظة افعوعل للتكثير على أني استقريت هذه اللفظة في كثير من الألفاظ فوجدتها عذبة طيبة على تكرار حروفها كقولنا اخشوشن المكان واغرورقت العين واحلولى الطعم وأشباههما (وأما فُعَلة) نحو هُمَزة ولمزة وجثمة ونومة ولكنة ولحنة وأشباه ذلك فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة وهذا أخذته بالاستقراء وفي اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ وعليك أن تتفقد أمثال هذه المواضع لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها فكثيراً ما يقع في قول الشعراء والخطباء في منظوم ومنثور الكلام من كاتب وشاعر إذا مرت به ألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح فما يجد الحسن منها موحداً وحده وما يجد الحسن منها مجموعاً جمعه وكذلك يجري الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ

(النوع السابع في المغالطة اللفظية) والمغالطة مغالطتان لفظية ومعنوية

(أمّا المعنوية) فسيأتي ذكرها في باب التقديم والتأخير من المقالة الثانية فليؤخذ من هناك (وأمّا المعاظلة اللفظية) وهي المخصوصة بالذكر ههنا في باب صناعة الالفاظ وحقيقتها مأخوذة من قولهم تعاظلت الجراد تان اذا ركبت احداهما الاخرى فسمى الكلام المتراكب في ألفاظه أو في معانيه المعاظلة مأخوذا من ذلك وهو اسم لائق بمسماه ووصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى فقال كان لا يعاظل بين الكلام (وقد اختلف علماء البيان في حقيقة المعاظلة) فقال قدامة بن جعفر الكاتب التعاظل في الكلام هو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ولا أعرف ذلك الا فاحش الاستعارة كقول أوس بن حجر

وذات هدم عار نواشرها ٭ تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الطفل تولبا والتولب ولد الحمار هذا ما ذكره قدامة بن جعفر وهو خطأ اذ لو كان ما ذهب اليه صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها ما تقدم وهو التراكب من قولهم تعاظلت الجرادتان اذا ركبت احداهما الاخرى وهذا المثال الذي مثل به قدامة لا تركب في ألفاظه ولا في معانيه (وأمّا) غير قدامة فانه خالفه فيما ذهب اليه الا أنه لم يقسم المعاظلة الى لفظية ومعنوية ولكنه ضرب لها مثالا كقول الفرزدق وما مثله في الناس الا مملكا ٭ أبو أمه حي أبوه يقاربه وهذا من القسم المعنوي لا من القسم اللفظي ألا ترى الى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه لان الاصل في معناه وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا أبو أمه أبوه وسيجيء شرح ذلك مستوفى في بابه من المقالة الثانية ان شاء الله تعالى ٭ واذا احققت القول في بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها فاني أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكره ههنا (فأقول) اني تأملته بالاستقراء من الاشعار قديمها وحديثها ومن النظر في حقيقتها فوجدتها تنقسم الى خمسة أقسام (الاول منها) يختص بأدوات الكلام نحو من والى وعن وعلى وأشباهها فان منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع أخواته ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك (فمما جاء منه) قول أبي تمام

السابلات بالأرحبية • مرافقها من عن كراكرها نكب

فقوله من عن كراكرها من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به على أنه
قد وردت هاتان اللفظتان وهما من وعن في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما
كقول القائل من عن يمين الطريق والسبب في ذلك أنهما وردتا في بيت
أبي تمام مضافتين إلى لفظة الكراكر فثقلتهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى
والأخرى وردتا في شعر قطري بن الفجاءة فكانتا خفيفتين كقوله

ولقد أراني للرماح دريئة • من عن يميني مرة وأمامي

والأصل في ذلك راجع إلى السبك فإذا سبكت هاتان اللفظتان أو ما يجري
مجراهما مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا في بيت قطري وإذا
سبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا ثقيلتين كما جاءتا في بيت أبي تمام (ومن هذا القسم)
قول أبي تمام أيضا

كأنه لاجتماع الروح فيه له • في كل جارحة من جسمه روح

فقوله في بعد قوله فيه له مما لا يحسن وروده وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي

وتسعدني في غمرة بعد غمرة • سبوح لها منها عليها شواهد

فقوله لها منها عليها من الثقيل الثقيل وكذلك قوله

تبيت وفودهم تسري إليه • وجدواه التي سألوا اغتفار

فخلفهم برد البيض عنهم • وهامهم له معهم معار

وقوله وهامهم له معهم مما يثقل النطق به ويتعثر اللسان فيه لكنه أقرب حالا من
الأول ومن الحسن في هذا الموضع قول أبي تمام

دار أجل الهوى عن أن ألم بها • في الركب إلا وعيني من منائحها

فقوله عن أن في هذا البيت من الخفيف الحسن الذي لا بأس به (القسم الثاني
من المعاظلة اللفظية) تختص بتكرير الحروف وليس ذلك مما يتعلق بتكرير
الألفاظ ولا بتكرير المعاني مما يأتي ذكره في باب التكرير في المقالة الثانية
وإنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور
أو المنظوم فيثقل حينئذ النطق به (فمن ذلك) قول بعضهم

وقبر حرب بمكان قفر • وليس قرب قبر حرب قبر

فهذه القافات والراآت كأنها في تتابعها سلسلة ولا خفاء بما في ذلك من الثقل

وكذا ورد قول الحريري في مقاماته

وازور من كان له زائرا * وعاف عافي العرف عرفانه

فقوله وعاف عافي العرف عرفانه من المكرر المشار اليه وكذلك ورد قوله أيضا في رسالته اللتين صاغهما على حرفي السين والشين فانه أتى في احداهما بالسين في كل لفظة من ألفاظها وأتى في الاخرى بالشين في كل لفظة من ألفاظها ايجابا كأنهم مارقي العقارب أو شذر وفقة العزائم وما أعلم كيف خفي ما فيهما من القبح على مثل الحريري مع معرفته بالجيد والرديء من الكلام (ويحكى) عن بعض الوعاظ أنه قال في جملة كلام أورده جنتي جنات وجنات الحبيب فصاح رجل من الحاضرين في المجلس ومادوتعاني فقال له رجل كان الى جانبه ما الذي سمعت حتى حدث بك هذا فقال سمعت جيما في جيم في جيم فصعقت وهذا من أقبح عيوب الالفاظ (ومما جاء منه) قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي مطلعها * أتراها لكثرة العشاق

كيف ترثي التي ترى كل جفن * راءها غير جفنها غير راقي

وهذا وأمثاله انما يعرض لقائله في نوبة الصرع التي تنوب في بعض الايام (ومن هذا القسم) قول الشاعر المعروف بكشاجم في قصيدته التي مطلعها داو خماري بكاس خمر

والزهر والقطر في رباها * ما بين نظم و بين نثر

حدائق كف كل ريح * حل بها خيط كل قطر

وهذا البيت يحتاج الناطق به الى بركار يضعه في شدقه حتى يديره له وعلى هذا الاسلوب ورد قول بعضهم وهو البيت المشهور الذي يتذاكره الناس

ملك مطال مولود مفدى * مليح مانع مني مرادي

وهذه الميمات كأنها عقد متصل بعضها ببعض (وكان بعض أهل الادب) من أهل مصرنا هذا يستعمل هذا القسم في ألفاظه كثيرا في كلامه نثرا ونظما وذلك لعدم معرفته بسلوك الطريق (وأنا أذكر نبذة من ذلك) كقوله في وصف رجل مضى أنت المديح كبدا تريح والمليح ان يحوم المليح بالتكليح عند سائل تلوح بل يفوق اذ يروق مرأى كلوح يا مغبوق كاس الجد يا مصبوح ضاق عن نداك اللوح ويا بابك المفتوح تستريح وتريح ذا التبريح وترقه

الطليح فانظر الى حرف الحاء كيف قد ازيد في كل لفظة من هذه الالفاظ فجاء كما تراه من الثقل والفثاثة (واعلم) أن العرب الذين هم الاصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم وذلك انه اذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا فقالوا في حلل حل وفي تشرر وتق تشر وتق وكذلك قالوا استقلان للامر اذا تأهب له والاصل فيه استعدد واستتب الامر اذا تهيأ والاصل فيه استتبب وأشباه ذلك كثير في كلامهم حتى انهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره فقالوا أمليت الكتاب والاصل فيه أمللت فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل واذا كان قد فعلوا ذلك في الكلمة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا (القسم الثالث من المعاظلة) أن ترد الفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا فمنها ما يختلف بين ماض ومستقبل ومنها ما لا يختلف فالاول كقول القاضي الارجاني في أبيات يصف فيها الشمعة وفيها معنى حوله مبتدع ولم يسمع من غيره وذلك أنه قال عن لسان الشمعة انه ألف العسل وهو أخوه الذي ربي معه في بيت واحد وان النار فرقت بينه وبينه وانه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضا من ألم الفراق الا أنه أساء العبارة فقال

بالنار فرقت الحوادث بيننا ٭ وبها نذرت أعود أقتل روحي

فقوله نذرت أعود من المعاظلة المشار اليها وأما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبي الطيب المتنبي

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد ٭ زد هش بش تفضل أدن سر صل

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة وهي صيغة الامر كأنه قال افعل افعل هكذا الى آخر البيت وهذا تكرير للصيغة وان لم يكن تكريرا للحروف الا أنه أخوه ولا أقول ابن عمه وهذه ألفاظ متراكبة متداخلة ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا كما قال عبد السلام بن رغبان

فسد الناس فاطلب الرزق بالسيف والا فمت شديد الهزال

احل وامرر وضر وانفع ولن واخشن وأبرر ثم انتدب للمعالي

الا ترى أنه لما عطف ههنا بالواو لم تتراكب الالفاظ كتراكبها في بيت أبي الطيب المتقدم ذكره (فان قيل) انك جعلت ما كان واردا على صيغة واحدة على سبيل

التكرار معاظلة وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم كقوله تعالى فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ولو كان معاظلة لما ورد فى القرآن الكريم مثله (فالجواب عن ذلك) أنى أقول هذه الآية ليست كالذى أنكرته فان هذا الموضع ينظر فيه الى الكثير والقليل فاذا كثر كان معاظلة لتراكبه وثقله على النطق وقد عرفت أن ما يفصل بين صيغه بواو العطف يكون أقل ثقلا مما لا يفصل والذى أنكرته من ذلك هو أن تأتى ألفاظ مكررة على صيغة واحدة كأنها عقد متصل فحينئذ يثقل النطق بها ويكره موقعها من السمع كبيت أبى الطيب المتنبى وأما هذه الآية المشار اليها فانها خارجة عن هذا الحكم ألا ترى أنها لما وردت ألفاظها على صيغة واحدة فرق بينها بواو العطف ثم مع التفريق بينها بواو العطف لم يرد التكرير فيها الا في اثنتين وهما خذوهم واحصروهم وأما الصيغة الاولى فانها أضيف اليها كلام آخر فقيل اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولم يقل اقتلوا المشركين وخذوهم ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف اليها كلام آخر أيضا فقيل واقعدوا لهم كل مرصد لاجرم أن الآية جاءت غير ثقيلة على النطق مع توارد صيغة الامر فيها أربع مرار وهذه رموز ينبغى أن يتنبه لها فى استعمال الالفاظ اذا جاءت هكذا (القسم الرابع من المعاظلة) وهو الذى يتضمن مضافات كثيرة كقولهم سرج فرس غلام زيد وان زيد على ذلك قيل لبد سرج فرس غلام زيد وهذا أشد قبحا وأثقل على اللسان وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر فى مفتتح قصيدة له

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى ٭ فأنت بمرأى من سعاد ومسمعى

(القسم الخامس من المعاظلة) أن ترد صفات متعددة على نحو واحد كقول أبى تمام فى قصيدته التى مطلعها ٭ ما لكثيب الحمى الى عقده ٭ فقال يصف جملا

سأخرق الخرق بابن خرقاء كالـــ ٭ ـــهيق اذا ما احتثثت من نجده

مقابل فى الجديل صلب القرى ٭ لوحك من عجبه الى كتده

تامكه نهده مداخله ٭ ملومه محزئله أجده

فالبيت الثالث من المعاظلة التى تقلع الاسنان دون ايرادها وكذلك قال من هذه القصيدة يصف رمحا

ومرتم نحوذؤابتاه على • أمر متن يوم الوغى جسده
مارنه لدنه منقصفه • وراعف في الاكف مطرده

وهذا كالاول في قبحه وثقله فتبا لهما ما أمتن شعره وما أحسنه في بعض الاحوال وعلى هذا جاء من هذه القصيدة أيضا يصف الممدوح

البك عن سيل عارض شمل الشؤبوب باقي الحمام من نقده
مسفه زءممه • وابله مستهله برده

ولو لم يكن لابي تمام من القبح الشنيع الا هذه الابيات لحطت من قدره وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي

دان بعيد محب مبغض بهج • أغر حلو ممر لين شرس
ندأبي غر واف أخي ثقة • جعد سري نه ندب رضي ندس

وهذا كأنه سلسلة بلا شك وقليلا ما يوجد في أشعار الشعراء ولم أجده كثيرا الا في شعر الفرزدق وتلك معاظلة معنوية وسيأتي بيانها في بابها وهذه معاظلة لفظية وهي توجد في شعر أبي الطيب كثيرا (النوع الثامن في المنافرة بين الالفاظ في السبك) وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه وغاية ما يقال انه ينبغي أن لا تكون الالفاظ نافرة عن مواضعها ثم يكتفى بهذا القول من غير بيان ولا تفصيل حتى انه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة وكل منهما نوع منفرد برأسه له حقيقة تخصه الا أنهما قد اشتبها على علماء البيان فكيف على جاهل لا يعلم (وقد بينت) هذا النوع وفصلته عن المعاظلة وضربت له أمثلة يستدل بها على أخواتها وما يجري مجراها وجملة الامر أن مدار سبك الالفاظ على هذا النوع والذي قبله دون غيرهما من تلك الانواع المذكورة لان هذين النوعين أصلا سبك الالفاظ وما عداهما فرع عليهما واذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفا بهما فان مقاتله تبدو كثيرا (وحقيقة هذا النوع) الذي هو المنافرة أن يذكر لفظ أو الفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر وعلى هذا فان الفرق بينه وبين المعاظلة أن المعاظلة هي التراكب والتداخل اما في الالفاظ أو في المعاني على ما أشرت اليه وهذا النوع لا تراكب فيه وانما هو ايراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذي ترد فيه (وهو ينقسم قسمين) أحدهما يوجد في اللفظة الواحدة والآخر في الالفاظ المتعددة فأما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فانه اذا ورد

فى الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو فى معناه سواء كان ذلك الكلام نثرا أو نظما وأما الذى يوجد فى الالفاظ المتعددة فانه لا يمكن تبديله بغيره فى الشعر بل يمكن ذلك فى النثر خاصة لانه يعسر فى الشعر من أجل الوزن فمما جاء من القسم الاول قول أبى الطيب المتنبى فلا يبرم الامر الذى هو حالل * ولا يحلل الامر الذى هو يبرم فلفظة حالل نافرة عن موضعها وكانت مندوحة عنها لانه لو استعمل عوضا عنها لفظة ناقض فقال

فلا يبرم الامر الذى هو ناقض * ولا ينقض الامر الذى هو يبرم

لجاءت اللفظة قارة فى مكانها غير قلقة ولا نافرة (وبلغنى) عن أبى العلاء ابن سليمان المعرى أنه كان يتعصب لابى الطيب حتى انه كان يسميه الشاعر ويسمى غيره من الشعراء باسمه وكان يقول ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو فى معناها فيجىء حسنا مثلها فياليت شعرى أما وقف على هذا البيت المشار اليه لكن الهوى كما يقال أعمى وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية فاجتمع له العمى من جهتين وهذه اللفظة التى هى حالل وما يجرى مجراها قبيحة الاستعمال وهى فك الادغام فى الفعل الثلاثى ونقله الى اسم الفاعل وعلى هذا فلا يحسن أن يقال بل الثوب فهو بالل ولا سل السيف فهو سالل ولا أن يقال هم بالامر فهو هامم ولا خط الكتاب فهو خاطط ولا حن الى كذا فهو حانن وهذا لو عرض على من لا ذوق له لادركه وفهمه فكيف من له ذوق صحيح كأبى الطيب لكن لا بد لكل جواد من كبوة وأنشدنى بعض الادباء بيتا لدعبل وهو

شفيعك فاشكر فى الحوائج انه * يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقلت له عجز هذا البيت حسن وأما صدره فقبيح لانه سبكه قلقا نافرا وتلك الفاء التى فى قوله شفيعك فاشكر كأنها ركبة البعير وهى فى زيادتها كزيادة الكرش فقال لهذه الفاء فى كتاب الله أشباه كقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر فقلت له بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا وبالذوق ثانيا اما العلم فان الفاء فى وربك فكبر وثيابك فطهر وهى الفاء العاطفة فانها واردة بعد قم فأنذر وهى مثل قولك امش فأسرع وقل فأبلغ وليست الفاء التى فى شفيعك فاشكر كهذه الفاء لان تلك زائدة لا موضع لها ولو جاءت

ردّ قول أبى العلاء المعرى

في الصورة كما جاءت في قول دعبل وحرفته من ذلك لا يشذ عن الكلام أصل ربك تكبر وثيابك تطهر لكنها لما جاءت بعد تقدم ما تقدم حسن ذكرها فيما يأتي بعدها من وربك فكبر وثيابك فطهر وأما الحروف فانه يخبر عن الفاء الواردة في قول دعبل ويستثقلها ولا يوجد ذلك في الفاء الواردة في الصورة فاسمع ما ذكرته اذعن بالتسليم ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها الا الراسخ في علم الفصاحة والبلاغة (ومن هذا القسم) وصل همزة القطع وهو ضرب من جائزات الشعر التي لا تجوز في الكلام المنثور وكذلك قطع همزة الوصل لكن وصل همزة القطع أقبح لانه أثقل على اللسان (فما ورد من ذلك) قول أبي تمام

قرانى اللهى والود حتى كأنما • أفاد الغنى من نائلي وفوائدي

فأصبح يلقاني الزمان من اجله • باعظام مولود ورأفة والد

فقوله من اجله وصل لهمزة القطع وعليه ورد قول أبي الطيب المتنبي

وسطه المفاوز كل يوم • طلاب الطالبين لا الانتظار

فقوله لا الانتظار كلام نافر عن موضعه (ومن هذا القسم) أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحتري

صلفت اذا بالله يوم التفرق • وبالوجد من قلبي بها المتعلق

تقديره من قلبي المتعلق بها فلما فصل بين الموصوف الذي هو قلبي والصفة التي هي المتعلق بالضمير الذي هو بها قبح ذلك ولو كان قال من قلبي بها متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهجنة (ومن هذا القسم أيضا) أن تزاد الالف واللام في اسم الفاعل ويقام الضمير فيه مقام المفعول كقول أبي تمام

فلو عاينتهم والزائريهم • لما ميزت البعد من الحميم

فقوله الزائري اسم فاعل وقوله هم الذي هو الضمير في موضع المفعول تقديره الزائرين أرضهم أو دارهم أو الزائرين اياهم فاستعمال هذا مع الالف واللام قبيح جدا واذا حذفتا زال ذلك القبح وقد استعملها الشعراء المتقدمون كثيرا (ومما جاء من القسم الثاني) الذي يوجد في الالفاظ المتعقدة قول أبي الطيب أيضا

لا خلق أكرم منك الا عارف • بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

فان عجز هذا البيت نافر عن صدره وأمثال هذا فى الاشعار كثير

(المقالة الثانية فى الصناعة المعنوية)

وهى تنقسم قسمين الاول منهما فى الكلام على المعانى مجملا والثانى فى الكلام
عليها مفصلا وقبل الكلام على ذلك لابد من توطئة تكون شاهدة لما نحن بصدد
ذكره ههنا فأقول اعلم أن المعانى الخطابية قد حصرت أصولها وأول من تكلم فى
ذلك حكماء اليونان غير أن ذلك الحصر كلى لا جزئى ومحال أن تحصر جزئيات
المعانى وما يتفرع عليها من التفريعات التى لا نهاية لها لا جرم أن ذلك الحصر
لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه فان البدوى البادى راعى
الابل ما كان يمر شىء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان يأتى بالسحر
الحلال ان قال شعرا أو تكلم نثرا (فان قيل) ان ذلك البدوى كان له ذلك طبعا
وخلقة والله فطره عليه كما فطر ضروب نوع الآدمى على فطر مختلفة هى لهم فى
أصل الخلقة فانه فطر الترك على الاحسان فى الرمى والاصابة به من غير تعليم
وكذلك فطر أهل الصين على الاحسان فى صنعة اليد فيما يباشرونه من مصوغ أو
منسوب أو نجار أو غير ذلك وكذلك فطر أهل المغرب على الشجاعة وهذا لا نزاع
فيه فانه مشاهد (فالجواب عن ذلك) أنى أقول ان سلمت اليك أن الشعر والخطابة
كانا للعرب بالطبع والفطرة فما تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضروا
وسكنوا البلاد ولم يروا البادية ولا خلقوا بها وقد أجادوا فى تأليف النظم والشعر
وجاؤا بمعان كثيرة ما جاءت فى شعر العرب ولا نطقوا بها (فان قلت) ان هؤلاء
وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه (قلت لك فى الجواب) هذا شئ
لم يكن ولا علم أبو نواس شيأ منه ولا مسلم بن الوليد ولا أبو تمام ولا البحترى ولا أبو
الطيب المتنبى ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابة كعبد الحميد
وابن العميد والصابى وغيرهم فان ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء
اليونان قلت لك فى الجواب هذا باطل بى أنا فانى لم أعلم شيأ مما ذكره حكماء
اليونان ولا عرفته ومع هذا فانظر الى كلامى فقد أوردت لك نبذة منه فى هذا
الكتاب واذا وقفت على رسائلى ومكاتباتى وهى عدة مجلدات وعرفت أنى لم
أتعرض لشئ مما ذكره حكماء اليونان فى حصر المعانى علمت حينئذ أن صاحب
هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله وأنه لا يحتاج اليه أبدا وفى كتاب

هذا ما يقتضيه وهو كاف (ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا) وانساق الكلام إلى شيء ذكر لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر فذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طول فيه وعرض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا ثم مع هذا جميعه فإن مؤل القوم فيما ذكر من الكلام الخطابي أنه يورد على مقدمتين ونتيجة وهذا لم يخطر لأبي علي بن سينا فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع فإني لم أشاهد من ذلك في كلامه وعندما أفاضت في صوغ ما صاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ولو أنه أفكر أولا في المقدمتين والنتيجة ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لما أتى بشيء ينتفع به واشال الثقاب عليه بل أقول شيئا آخر وهو أن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم لم ينظموه في وقت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولا نتيجة وإنما هذه أوضاع توضع ويطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر وهي كما يقال فقاقع ليس لها طائل كأنها شعر الأبيوردي وحيث أوردت هذه المقدمة قبل الخوض في تقسيم المعاني فإني راجع إلى شرح ما أجملته فأقول (أما القسم الأول) فإن المعاني فيه على ضربين أحدهما ما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الأمور الطارئة ولنشر في هذا الموضع إلى نبذة تكون مثالا للمترشح لهذه الصناعة (فمن ذلك) ما ورد في شعر أبي تمام في وصف مصلبين

بكروا وأسروا في متون ضوامر • قيدت لهم من مربط النجار

لا يبرحون ومن رآهم خالهم • أبدا على سفر من الأسفار

وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة والخاطر في مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحاضرة (وكذلك) قال في هذه القصيدة في صفة من أحرق بالنار

ما زال سر الكفر بين ضلوعه • حتى اصطلى سر الزناد الواري

نارا يساور جسمه من حرها • لهب كما عصفرت شق إزار

طارت لها شعل يهدم لفحها • أركانه هدما بغير غبار

فصلى منه كل مجمع ممحل ❊ وفعلن فاقفر بكل نقار
مشبوبة رقفت لاعلام مشرك ❊ ماكان يرفع ضوأها للسارى
صلى لها حيا وكان وقودها ❊ ميتا ويدخلها مع الفجار

وهذا مما يعين على استخراج المعانى فيه شاهد الحال (وقد ذيل البحترى) على ماذكره أبو تمام فى وصف المصلبين فقال

كم عزيز أباده فعدا يركب عودا مركبا فى عود
أسلمته الى الرقاد وجال ❊ لم يكونوا عن ورتحم برقود
تحسد الطير فيه ضبع البوادى ❊ وهو فى غير حالة المحسود
غاب عن صحبه فلا هو موجود لديهم وليس بالمفقود
وكأن امتداد كفيه فوق الجذع فى محفل الردى المشهود
طائر مد مستريحا جناحيه استراحات متعب مكدود
أخطب الناس راكبا فاذا أرجل خاطبت منه عين البليد

وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود، الا أن فيها معنى مأخوذا من شعر مسلم بن الوليد الانصارى وهو قوله

نصبته حيث ترتاب الرياح به ❊ وتحسد الطير فيه أضبع البلد

لكن البحترى زاد فى ذلك زيادة حسنة وهى قوله وهو فى غير حالة المحسود (ومن هذا الضرب) ما جاء فى شعر أبى الطيب المتنبى فى وصفه الحمى وهو قوله

وزائرتى كأن بها حياء ❊ فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ❊ فعافتها وباتت فى عظامى
كأن الصبح يطردها فتجرى ❊ مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق ❊ مراقبة المشوق المستهام

وقد شرح أبو الطيب بهذه الابيات حاله مع الحمى (ومن بديع ما أتى به فى هذا الموضع) أن سيف الدولة بن حمدان كان مخيما بأرض ديار بكر على مدينة ميافارقين فعصفت الريح بخيمته فتطير الناس لذلك وقالوا فيه أقوالا فمدحه أبو الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها «أينفع فى الخيمة العذل» فمنه ما أحسن فيه كل الاحسان وهو قوله

تضيق بشخصك أرجاؤها ❊ ويركض فى الواحد الجحفل

وتقصر

وتنسر ما كنت في جوفها ٭ وتركز فيها القنا الذبل

وكيف تقرم على راحة ٭ كأن البحار لها أنمل

فلبث وذرك فرقته ٭ وحملت أرضك ماتحمل

فسار الانام به سادة ٭ وسدتهم بالذي يفضل

رأت لون نورك في لونها ٭ كلون الغزالة لايغسل

وأن لها شرفا باذخا ٭ وأن الخيام بها تخجل

فلا تنكرن لها صرعة ٭ فمن فرح النفس مايقتل

ولو بلغ الناس مابلغت ٭ لخانتهم حول الارجل

ولما أمرت بتطنيبها ٭ أشيع بأنك لاترحل

فما اعتمد الله تقويضها ٭ ولكن أشار بما تفعل

وعرّف أنك من همه ٭ وأنك في نصره ترفل

فما العاندون وما أثلوا ٭ وما الحاسدون وما قولوا

هم يطلبون فمن أدركوا ٭ وهم يكذبون فمن يقبل

وهم يتمنون مايشتهون ٭ ومن دونه جدك المقبل

وهذه الابيات قد اشتملت على معان بديعة وكفى المتنبي فضلا أن يأتي بمثلها وهذا مقام يظهر فيه براعة الناظم والناثر (وقرأت في كتاب الروضة) لابي العباس المبرّد وهو كتاب جمعه واختار فيه أشعار شعراء بدأ فيه بأبي نواس ثم بمن كان في زمانه وانتصب على قبيلة فقال فيما أورده من شعره وله معنى لم يسبق اليه باجماع وهو قوله

تدار علينا الراح في عسجدية ٭ حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفي جنباتها ٭ مها تدّريها بالقسي الفوارس

فللراح مازرّت عليه جيوبها ٭ وللماء مادارت عليه القلانس

وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه انه معنى مبتدع (ويحكى عن الجاحظ) أنه قال مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديما وحديثا الاهذا المعنى فان أبا نواس انفرد بابداعه وما أعلم أنا ما أقول لها ولابي سوى أن أقول قد تجاوز بهم حد الاكثار ومن الامثال السائرة بدون هذا يباع الحمار ونباحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى فانه لا كبير كلفة فيه لان أبا نواس رأى

كأساً من الذهب ذات تصاوير حكاها في شعره والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة فإن هذه الجرم تحمل الماء يسيرا وكانت تستغرق صورها الكأس إلى مكان جيوبها وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التي على رؤسها وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر وكذلك ورد قوله في الخمر أيضا

يا شقيق النفس من حكم • نمت عن ليلي ولم تنم
فاسقني الخمر التي اختمرت • بخمار الشيب في الرحم

وهذا معنى مخترع لم يسبق إليه وهو دقيق يكاد لدقته أن يلحق بالمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصور (وبلغني) أنه اختلف في هذا المعنى بحضرة الرشيد هرون رحمه الله فقيل إنه يريد بخمار الشيب في الرحم أن الخمر تكون في جوانبها ذات زبد أبيض على وجهها فقال الأصمعي إن أبا نواس ألطف خاطرا من هذا وأسد غرضا فاسألوه فأحضر وسئل فقال إن الكرم أول ما يجري فيه الماء يخرج شبيها بالقطنة وهي أصل العنقود فقال الأصمعي ألم أقل لكم إن الرجل ألطف خاطرا وأسد غرضا وقد جاء لابن حمديس الصقلي في الهلال لآخر الشهر ما لم يأت به غيره وهو من الحسن واللطافة في الغاية القصوى وذلك قوله

كأنما أدهم الظلام حين نجا • من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر إلا أنه أبدع في التشبيه وأمثال هذا كثيرة في أقوال المجيدين من الشعراء (وجملة الأمر في ذلك) أن الشاعر أو الكاتب ينظر إلى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعاني كما فعل النابغة في مدح النعمان وقد أتاه وفد من الوفود فمات رجل منهم قبل أن يوفدهم فلما وفدهم جعل عطاء ذلك الميت على قبره حتى جاء أهله وأخذوه فقال النابغة في ذلك

حبا شقيق فوق أحجار قبره • وما كان يحبى قبله قبر وافد

وهذا بيت من جملة أبيات فانظر كيف فعل النابغة في هذا المعنى (وكذلك) ورد قول أخت جساس زوجة كليب فإنه لما قتل جساس كليبا اجتمع النساء إليها وندبنه فتحدثت بعضهن إلى بعض وقلن هذه ليست ثاكلة وإنما هي شامتة فإن أخاها هو القاتل فنمى ذلك إليها فقالت

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا • تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت الذي • يوجب اللوم فلومي واعذلي

إن

ان أشتاك امرئ لبث عـلى • شفق منها عليـه فاعـذلى
جل عندى فعل جساس فيا • حسرتا عن انجلت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به • قاطع ظهرى ومدن أجلى
لو بعين فديت عين سوى • أخيها فانفقأت لم أحفل
يا نتيلا قوض الدهر به • سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته • وانثنى فى هدم بيتى الاول
يشتفى المدرك بالثار وفى • دركى ثارى ثكل مثكلى
انى قاتلـــــــة مقتولة • ولعـل الله أن يرتاح لى

وهذه الابيات لو نظمها الفحول المعدودون من الشعراء لاستعظمت فكيف امرأة وهى حزينة فى شرح تلك الحال المشار اليها (واعلم) أنه قد يستخرج من المعنى الذى ليس بمبتدع معنى مبتدع (فمن ذلك) قول الشاعر المعروف بابن السراج فى الفهد

تناقض الليل فيه والنهار معا • فتقمصاه بجلباب من المقل

وليس هذا من المعانى الغريبة ولكنه تشبيه حسن واقع فى موقعه وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن سعد فاستخرج من هذا البيت معنى غريبا فقال ونقطته حباء كى يسالمها • على المهاة انعاج الرمل بالحدق

وهذا معنى غريب لم أسمع بمثله فى مقصده الذى قصده من أجله وقليلا ما يقع فى هذا الكلام المنظوم والمنثور وهو موضع ينبغى أن يوضع اليد عليه ويتنبه له وكذلك فلتكن سياقة ما يجرى هذا المجرى (وقد جاء فى شئ من ذلك) فى الكلام المنثور (فمن ذلك) ما ذكرته فى وصف نساء حسان وهو أقبلت ربائب الكناس فى خضر اللباس فقبل الغايضترن الناضر من الالوان ليصح تشبيههن بالاغصان وهذا معنى غريب وربما يكون قد سبقت اليه الا أنه لم يبلغنى بل ابتدعته ابتداعا (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن منازلة بلاد فذكرت القتال بالمنجنيق وهو منزلة اعرابى منه ومسمع واستدرنا به استدارة الخاتم بالاصبع ونصبت المجنيقات فانشأت سحابة صيبها القياد تختصه بالربا دون الوهاد فلم تزل تقذف السور بوبل من جلاودها وتتجوز برعودها قبل بروقها وبروق السحب قبل رعودها حتى غادرت الحزن منه سهلا والعامر بلقعا

على وفي هذا معنيان غريبان أحدهما أن هذه العصي تقضي الزبادين والرماد والاشرات رعود ها تقبل برودتها وكل ذلك يتمطر له بالمشاهدة (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب فقلت اذا ضاق المرء بخلق البأس والندى لم يعتق عرضه دنسا كما أن الماء اذا بلغ قلتين لم يحمل خبثا وهذا المعنى مبتدع لي وهو مستخرج من الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا (ومن ذلك) ما ذكرته في وصف مفازة فقلت مفازة لا يوطأ بأجفان ساهر ولا تقتل بأقدام سائر ولولا مسير الهلال من فوقها لما عرفت قتال سائر (ومن ذلك) ما ذكرته في كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه وكان ذلك في زمن الشتاء فسقط على العدو ثلج كثير صار به محصورا فقلت وقد عاجله قتال البروق قبل البوارق وأحاط به الثلج فصار خنادق تحول بينه وبين الخنادق والشتاء قد لقي عسكره من البرد بعسكره والسماء قد ذابت بأفضيروجه بها الا بأخضره والارض كأنها قرصة النقي وعسى أن تكون أرض عشره والمعنى المخترع من هذا الكلام قولي والارض كأنها قرصة النقي وعسى أن تكون أرض محشره وهو مستخرج من الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم انكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقي يريد الخبزة البيضاء ولما كان الثلج على الارض مما لا ذلك ومشابهاله استنبطت أناله هذا المعنى المخترع عجبا كما تراه وهو من المعاني التي يدل عليها شاهد الحال (وأحسن من هذا كله) ما كتبته في فصل من كتاب الى ديوان الخلافة ببغداد فقلت ودولته هي الضاحكة وان كان نسبها الى العباس وهي خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بأنها لا تزال عبوة من أبكار السعادة بالحب الذي لا يبلى والوصل الذي لا يصرم وهذا معنى استنبطه الخادم لدولته وشعارها وهو مما لم تخط به الاقلام في خطها ولا أجالته الخواطر في أفكارها وغرابة هذا المعنى ظاهرة ولم يأت بها أحد قبلي (ويلحق) من المعاني المخترعة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا من أبواب المسجد الاقصى بالبيت المقدس وبنى الحجاج بابا الى جنبه فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذي بناه عبد الملك فتطير لذلك وشق عليه فبلغ ذلك الحجاج فكتب اليه كتابا بلغني كذا وكذا فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه وما مثلي ومثلك الا كابني آدم

الاثر وانما تقبل من أحدهما او يتقبل من الآخر فلا يرتقى به الله على كتابه مرتزى عنه وهذا من غريب ما ضربناه من القرآن الكريم وهو من المعاني المبتدعة التي ذكرت فيه ويكفي الحاج من فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك (وأما المعاني) التي تستخرج من غير مثال تقدم فإنها أصعب منالا مما يستخرج بشاهد المثال والأمر فيها كان لابتكارها سر لا يهجم على مكامنه الأذهان الشمم ولا يعثر عليه إلا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم وتهجم على عذارى المعاني المحجبة بحجب البراز أيسر من الهجوم على عذارى المعاني المحجبة بحجب الخواطر وما ذاك عيانته إلا لك الأستاذ وليس يقوم به إلا الفذ ولا أقول الأفذاذ وأين الذي يتنبى فيحسن لها الإنشاء ويرتفع بأصوار كيفها كيف يشاء ومن نظر إلى هذا الموضع حق النظر وأخذ فيه بالعين دون الأثر علم أنه مقام يزلق بعارف الأفهام فكيف بواقف الأقدام وليست المعاني فيه إلا كالأرواح ولا الألفاظ إلا كالأجسام فمن شاء أن يخلق خلقا من الكلام فليأت به على صورة الأناسي لا على صورة الأنعام فإن من القول الغالية التي هي أحسن من الغالية ومنه البهيمة التي لا تشبه إلا بالسائمة (فمما في هذا الباب) قول أبي نواس

سرابك في السراب إذا عطشنا • وخيرك عند منقطع التراب

وما روحتنا لتذب عنا • ولكن خفت مرزئة الذباب

فالبيت الثاني من هذين البيتين هو المشار إليه بأنه معنى مبتدع ويحكى عن الرشيد هرون رحمه الله أنه قال لم يبق بادر ولا حاضر يعقل هذا الهجاء (ومن هذا الباب) قول مسلم بن الوليد

تنال بالرفق ما تعيا الرجال به • كالموت مستعجلا يأتي على مهل

(ومن هذا الباب) قول علي بن جبلة

تكفل ساكن الدنيا حميد • فقد أضحت له الدنيا عيالا

كأن أباه آدم كان أوصى • إليه أن يعولهم فعالا

وهذا من فنون قوله الشعراء وفاز علي بن جبلة بالإفصاح عنه وقد قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني وقد عدت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك وما هذا من

مثل أبي تمام بكبير فاني أما عددت معاني المبتدعة التي وردت في مستكاثاتي فوجدتها أكثر من هذه العدة وهي مما لا أنازع فيه ولا أدافع عنه فاما ما ورد لابي تمام في ذلك قوله

يا أيها الملك النائي برؤيتــــه * وجوده لمراعي جوده كثب
ليس الحجاب بمقص منك لي أملا * ان السماء ترجى حين تحتجب

(وكذلك قوله) رأينا الجود فيك وما عرفنا * لعلة منه بعد ولا ذنوب
ولكن دارة القمر استتمت * فدل النقص منه على مطر قريب

(وكذلك) قوله في الهجاء

وأنت تدر قطب رحا علياً * ولم يرللرحا العلياء قطبا
ترى قطر بكل صراع قرن * اذا ما كنت أسفل منه جنبا

(وكذلك قوله) واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود

(وكذلك قوله) لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

(وكذلك قوله)

لا تنكري عطل الكريم من الغنى * فالسيل حرب للمكان العالي

(وكذلك قوله في الشيب)

شعلة في المفارق استودعتني * في صميم الفؤاد ثكلا صميما
يستثير الهموم ما اكتن منها * صعدا وهي تستثير الهموما

فالبيت الثاني من المعاني المخترعة وقد تقدمه فيه جملة مسئلة من مسائل الدور وهذا من اغراب أبي تمام المعروف وهذا القدر كاف من جملة معانيه فانا لم نستقصها ههنا (ومن هذا الباب) قول ابن الرومي

كل امرئ مدح امرأ لنواله * وأطال فيه فقد أساء هجاءه
لولم يقدّره بعد المستقى * عند الورود لما أطال رشاءه

(وكذلك قوله)

* عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

وكذلك

(وكذلك قوله) لما تؤذن الدنيا به من صروفها • يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها • لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه • بما هو لاق من أذاها يهدد
(وكذلك قوله) وردت على ممدوح بعد مطال • وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت امدح به من شئت غيري • ومن ذا يقبل المدح الرديا
وهل للناس في أكفان ميت • لبوس بعد ما امتلأت صديدا

(ولقد ورد لأبي الطيب المتنبي) من ذلك قوله

أجزني إذا أنشدت شعرا فإنما • بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني • أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

فالبيت الأول قد تواردت على معناه الشعراء قديما وحديثا لكن البيت الثاني في التمثيل الذي مثله ليس لأحد إلا له وكذلك قوله

تجرد سيوفك أغمادها • تمنى الطلى أن يكون الغمودا
إلى الهام تصدر عن مثله • ترى صدرا عن ورود ورودا

(وكذلك قوله) في بدر بن عمار يهنيه ببرئه من مرض

قصدت من شرقها ومغربها • حتى اشتكتك الركاب والسبل
لم تبق إلا قليل عافية • قد وفدت تجتديكها العلل

(وقد وقفت) على ما شاء الله من أشعار الفحول من الشعراء قديما وحديثا فلم أجد لأحد منهم في ذكر المرض ما يعد من مخترعاته لا بل لم أجد من أقوالهم شيئا مرضيا ما عدا المتنبي فإنه ذكر المرض في عدة مواضع من شعره فأجاد وهذا البيت الثاني من هذين البيتين معنى مخترع له وقد أحسن فيه كل الإحسان (ومما ابتدعه) بالإجماع قوله في مدح عضد الدولة في قصيدته النونية التي مطلعها
مغاني الشعب طيبا في المغاني • فقال عند ذكره

فعاشا عيشة القمرين يحيا • بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الأعادي • ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه • له ياءي حروف أنيسيان

أي جعل الله ابني عدو كاثراه يعني ابني عضد الدولة كياءي حروف تصغير أنسان فإن ذلك زيادة وهو نقص في المقدار الأ أن قبل هذا البيت قد شرحه وأذهب

حلاوة المعنى المندرج تحته (ومن معانيه) المبتدعة قوله

فان تفق الانام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال

وأحسن من ذلك قوله

صدمتهم بخميس أنت غرته * وسمهريته فى وجهه غمم

فكان أثبت ما فيهم جسومهم * يسقطن حولك والارواح تنهزم

وهذا من أعاجيب أبى الطيب التى برزت بها على الشعراء (ومن الاحسان) فى هذا الباب قول بعضهم

وقد أشق الحجاب الصعب مانعه * دونى وآبى ولو جانبه ان طرقا

كالطيف يأبى دخول الجفن منفتحا * وليس يدخله الا اذا انطبقا

(ورأيت ابن حمدون) البغدادى صاحب كتاب التذكرة قد أورد هذين البيتين فى كتابه وقال قد أغرب هذا الشاعر ولكنه غلط وجرى على عادة الشعراء لان الطيف لا يدخل الجفن وانما يخيل الى النفس وهذا كلام من لم يعلم من شعيرة الفصاحة والبلاغة وليس مثله عندى الا كما يحكى عن ملك الروم اذ أنشد عنده بيت المتنبى الذى هو

كأن العيس كانت فوق جفنى * مناخات فلما ثرن سالا

فسأل عن المعنى ففسر له فقال ما سمعت بأكذب من هذا الشاعر أرأيت من أناخ الجمل على عينه لا يهلكه (ومن محاسن هذا القسم) قول بعضهم

تحسبه الله من آدم * فما زال منحدرا يرتقى

(وكذلك قول الآخر)

بأبى غزال غازلته مقلتى * بين الغوير وبين شطى بارق

عاطيته والليل يسحب ذيله * صهباء كالمسك الفتيق لناشق

وضممته ضم الكمى لسيفه * وذؤابتاه حمائل فى عاتقى

حتى اذا مالت به سنة الكرى * زحزحته شيأ وكان معانقى

أبعدته عن اضلع تشتاقه * كى لا ينام على وساد خافق

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الاقصى ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصا والبيت الاخير منه هو الموصوف بالابداع وبه وبأمثاله أقرت الابصار بفضل الاسماع (ومن هذا الضرب) قول بعض المصريين يهجو

فشابهت حاله بحال ابن أبي في احتراق داره

انظر الى الايام كيف تسوقنا ● قسرا الى الاقرار بالاقدار
ما اوقد ابن مقبل في جاره ● نارا وكان هلاكه بالنار

(وكذلك) ورد قول ابن الذاتي من شعراء مصر

قد رضت أن يقال أشعر والحق أن يقال أثرى
كالشمس يدنو ما اكتسى ● قمرا وينأى ما تعرى

وهذا من المعاني الدقيقة (ومن هذا الاسلوب) قول الشاعر المعروف بالمأمون في تشبيه البهار وهو

عيون تبر كأنما رمقت ● سواد أحداقها من الغسق
قد دنا ليلها بظلمته ● شممت من نورها على الحدق

وهذا التشبيه بديع لم يسمع بمثله وهو من اللطافة على ما لا اشتباه (ومن هذا القسم) قول بعض المتأخرين من أهل زماننا

لا تشتغل بعظيم قدر وان كنت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف العظيم ينقص قدرا ● بالتعدي على الشريف العظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمر بتنجيسها وبالتحريم

(ومن غريب ما سمعته في هذا الباب) قول بعض الشعراء المغاربة يرثي قتيلا

غدرت به زرق الاسنة بعدما ● قد كن طوع يمينه وشماله
فليعذر البدر المنير غرمه ● اذ بات غدر سنانها بسنانه

(وكذلك) جاء قول بعض المغاربة في الخمر وكاسها

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا ● حتى اذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت ● وكذا الجسوم تخف بالارواح

وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكرا ويروق كما رقت لطفا ويفوح كما فاحت نشرا (وكذلك) ورد قول ابن حمديس الصقلي

ياسالبا قمر السماء جماله ● ألبستني للحزن ثوب سمائه
أضرمت قلبي فارتقى بشرارة ● وقعت بخدك فانطفى من مائه

وهذا المعنى دقيق جدا (وقد سمعت في الخال) ما شاء الله أن أسمع فلم أجد مثل هذا وقد سبقني في الكلام المنثور من هذا الضرب شيء وسأذكر ههنا منه نبذة

(فمن ذلك) ما ذكرته في وصف صورة مليحة فقلت أليس من الحسن أنه من الناس
وخلق من طينة غير طينة الناس وكلما ازداد حسنا فكذلك ازداد طيبا وانفقت
فيه الاهواء حتى صار الى كل قلب حبيبا فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه أو مر
على النيلوفر ليلا لتفتحت أحداقه (والمعنى) الغريب ههنا أن الشمس اذا طلعت
على النيلوفر تفتح أوراقه واذا غربت عنه انضم ثم اني سمعت هذا في شعر العربي
لبعض شعرائهم فحصل عندي منه تعجب (ومن ذلك) ما ذكرته في ذم الشيب فقلت
الشيب اعدام الابصار وظلام الانوار وهو الموت الاول الذي يصلي نارا من الهم
أشد وقودا من النار ولئن قال قوم انه حلية فانهم دفعوا به وما جلوا وأقرانى
وصفه بغيره لم يضلوا وأضلوا وما أراه الا عمرانا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار
قوم الا ذلوا ومن عجيب شأنه أنه المملول الذي يشفق من بعده والطلق الذي يكره
نزع برده ولما فقد الشباب كان منه عوضا ولا عوض عنه في فقده (والمعنى)
المخترع ههنا في قولي وما أراه الا عمرانا للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم الا ذلوا
وهو مستنبط من الحديث النبوي وذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى آلة
حرث فقال ما دخلت هذه دار قوم الا ذلوا فأخذت أنا هذا ونقلته الى الشيب
فجاء كما تراه في أعلى درجات الحسن وذلك لما بينه وبين الشيب من المناسبة الشبيهة
لان الشيب يفعل في البدن ما يفعله الحراث في الارض واذا نزل بالانسان أحدث
عنده ذلا (ومن هذا الباب) ما ذكرته في فصل من كتاب الى بعض الناس أعتب به
فقلت واذا كتبت مثالبه في كتاب اجتمع عليه بنات وردان وحرم على أن أبدأ
فيه بالبسملة لانها من القرآن وهذا معنى لطيف في غاية اللطافة وهو مخترع لي
(وكذلك) كتبت الى بعض الناس كتابا من هذا الجنس أهزل معه فقلت في فصل منه
ما أذكره وهو ينبغي له أن يشكرني على وسمه بهجائي دون امتداحي فاني لم أسمه
الا لتحرم به الاضحية في يوم الاضاحي ولا شك أن سيدنا معدود في جملة الانعام
غير أنه من ذوات القرون والقرن عدة عند النطاح وهذا معنى ابتدعته ابتداعا
ولم أتبعه لاحد من قبلي (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن هزيمة الكفار
وذلك فصل منه فقلت وكانت الوقعة يوم الاحد منتصف شهر كذا وكذا وهذا هو
اليوم الذي تعظمه الكفار من أيام الاسبوع وتصيره موسم الشرع لكفرهم المشروع
فحصل ارتيابهم به اذ تضمن للاسلام مزيدا وقالوا هذا يوم قد أسلم فلا نتخذه لنا

عبدا وقد أفصح أولهم لسانه لو كانوا يعلمون بأن الدين عند الله هو الإسلام
وأن أولياءهم المسلمون وهذا معنى اخترعت ابتداءه ولم يأت به أحد ممن
تقدمني (ومن ذلك) ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد وهو
في وصف القلم فقلت وقلم الديوان العزيز هو الذي يخفض ويرفع ويعطي ويمنع
وهو المطاع بجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشي الأجدع
ومن أحسن صفاته أن شعاره من شعار دولته فهو يخلع على عبيده من الكرامة
ما يخلع فهذه الأوصاف معان حسنة لطيفة ومنها معنى غريب لم أسبق إليه
وهو قولي إنه المطاع بجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشي
الأجدع فإن هذا مما ابتكرته وهو مستخرج من الحديث النبوي في ذكر
الطاعة والجماعة فقال صلى الله عليه وسلم أطع ولو عبدا حبشيا أجدع ما أقام
فيكم كتاب الله فاستخرجت أنا هذا المعنى من ذلك وهو أن القلم مجدوع ويتقمص
لباس السواد فصار حبشيا أجدع وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس
الطائي في قصيدته البائية فإنه استخرج المعنى المخترع من القرآن الكريم وأنا
استخرجت المعنى من الخبر النبوي كما أريتك وهذا المعنى المشار إليه في وصف
القلم أوردته بعبارة أخرى على وجه آخر ونبهت عليه في كتاب الوشي المرقوم
في حل المنظوم وهذا كتاب ألفته في صناعة حل الشعر وغيره (وبعد هذا)
فما أوردته في هذا الموضع قولا لم يقله أحد غيري وهو أن المعاني المبتدعة
شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة فكما أنك إذا وردت عليك
مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهرا لبطن وتنظر إلى أوائلها وأواخرها
وتعتبر أطرافها وأوساطها وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم فكذلك
إذا ورد عليك معنى من المعاني ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات
الحسابية إلا أن هذا لا يقع في كل معنى فإن أكثر المعاني قد طرق وسبق إليه
والابتداع إنما يقع في معنى غريب لم يطرق ولا يكون ذلك إلا في أمر غريب لم يأت
مثله وحينئذ إذا كتب فيه كاتب أو نظم فيه شاعر فإن الكاتب والشاعر يعثران
على مظنة الابتداع فيه وقد لابست ذلك في مواضع كثيرة وسأورد ههنا ما يحتذى
حذوه لمن استطاع إليه سبيلا (ومن ذلك) ما كتبته عن نفسي إلى بعض ملوك
الشام وأهديت إليه رطبا وهو خلد الله دولة مولانا وعمرها بما تجدد أو بنا ما

وخوّلها السعادة عطاء حسابا وأنشأ الليالى تخدمها عربا أترابا وأبقى شبيبتها بقاء لايستمد معه خضابا ولاجعل لها فى محاسن الدول السابقة أشباها ولا أضرابا وألقى البأس بين أعدائها وحسادها حتى يحث لهم فى الارض غرابا اذا أراد العبيد أن يهدوا الى اليهم قصرت بهم يد وجدهم وعلموا أن كل ما عندهم من عندهم لكن فى الاشياء المستطرفة ما يهدى وان كان قدره خفيفا ولولا اختلاف البلاد فيها ويجتبيها لما كان شىء من الاشياء طريفا وقد أهدى المملوك من الرطب ما يتجلى فى صفة العرائس ويزهى بحسنه حتى كأنه لم يدنس بيد لامس وما سمى رطبا الالاشتقاقه من الرطب الذى هو ضد اليابس وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ثناء جما وفضل شجرته على الشجر بأن سماها أمّا ولئن عدم عرفا لذيذا فانه لم يعدم منظرا لذيذا ولا طعما وله أوصاف أخرى هى له فضل بمنزلة الشهود فمنها أنه أوّل غذاء يفطر عليه الصائم وأوّل غذاء يدخل بطن المولود وأحسن من ذلك أنه معدود من الحلو وان كان من ذوات الغراس ولا فرق بينهما سوى أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس واذا أنصف واصفه قال ما من ثمرة الا وهى عنه قاصرة ولو تفاخرت البلاد بمحاسن ثمارها لكانت أرض العراق به فاخرة وها قد سار الى باب مولانا وهو مجنى الطيبات سار الى مجنى الكرم وملك الفاكهة وفد على ملك الشيم ولما استقلت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من الفواكه أربا وما منها الا من قال ياليتنى كنت رطبا ولئن كان من الثمرات التى تختلف فى الصور والاسماء ويفضل بعضها على بعض ويسقى بشرب واحد من الماء فكذلك تلك الشيم العريقة تتحد فى عنصرها وهى مختلفة الوتيرة ومن أفضلها شيمة السماح التى تقبل القليل من عبيدها وتسمح لهم بالعطايا الكثيرة وقد ضرب لها المملوك مثلا فقال هى كجنة بربوة بل ضرب لها ما ضرب للمثل النبوى وهى نخلة بكبوة ولا يختم كتابه بأحسن من هذا القول الذى طاب معناه وزكا أصلا وفرعا وتصرف فى أساليب البلاغة بجناسه وتراوشفعا والسلام (وهذا كتاب غريب) فى معناه وقد اشتمل على معان كثيرة فمن جملتها أن الرطب مشتق من الرطب الذى هو ضد اليابس ومن جملتها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى النخلة أمّا فقال أكرموا النخلة ومن جملتها أنه كان صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات فان لم يجد فتمرات ومن جملتها أنه كان يلوك التمرة ويحنك بها المولود عند ميلاده ولما ولد عبد الله بن

الزبرجات أته أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه ووضعته في حجر رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلاك تمرة ووضعها في فيه ومن جملتها أنه والطلوا منى واحد الا
أنه من خلق الله وثالث من خلق الناس ومن جملتها أن العباس رضي الله عنه قال
يارسول الله ان قريشا اتذاكرت أحسابها فضربوا لك مثلا بنخلة بكبوة وكل
هذه المعاني حسنة واردة في موضعها ومن كتب في معنى من المعاني فليكتبه
هكذا والا فليدع (ومن ذلك) رقعة كتبتها الى بعض حجاب السلطان في حاجة
عرضت لي وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم وهي

مامن صديق وان صحت صداقته * يوما بأنجح في الحاجات من طبق
اذا تلثم بالمنديل منطلقا * لم يخش نبوة بواب ولا غلق

الهدية مشتقة من الهدى غير أنها ترف الى القلب لا الى المدى وصهارتها أنفع
من الصهارة وكلما ترددت كانت بكرا فهي لاتنسلك من البكارة ومن خصائصها
أنها تسلك بمعروف امن من السراح واذا رامت فتح باب لاتفتقر في علاجها الى
مفتاح وقد قيل انها الحسناء المتأنقة في عبارة مبناها التي توصف بأن القنديل
يعتني بزينتها وقد أرسلتها الى المولى وهي تتهادى في اعجابها وتدل بكثرة
دراهمها وثيابها وتقول أنا الكريمة في قومها الشريفة في أنسابها وأحسن
مافيها أنها بانت سرا لم تعلم بها اليد اليمنى من اليسرى فخذها يامولاى واكشف
نقابها وأمط عنها جلبابها وقد كانت منك حرة وهي الآن في حيز الملكة ومن
السنة في مثلها أن تؤخذ بالناصية ويدعى بالبركة والسائر بها فلان وهو في
الجهل مها حامل أسفار ونافلها من دار الى دار ورب ماطق لسان حالها
الذي هو أفصح من نطق اللسان وأذكرت بحاجة مرسلها وحاتني فطانة
الكريم من النسيان وليس المطلوب الا فضلية من الجاه تقرب بين السائل
والمسؤل وتنقل البعيد الى درجة القريب والممنوع الى درجة المبذول فاذا
فعل المولى ذلك كان له منة السفارة ومنة الانعام وان سمع بأن سعيا واحدا فاز
بشكرين اثنين ففي مثل هذا المقام ومن الناس من يقول ليس على جانب
السلطان ثقل في منعه وهل ههنا الا كلمات تقال والكلام ماعون لا رخصة
في منعه ولم يدر أن ملاطفة الخطاب ضرب من الاحتيال وأن ثقل الخطوات فيه
أثقل من نقل الجبال وأن صاحب الحاجة يعطى بحلاوة النجاح والحاجب يلقى

مرارة السؤال وهذا يقوله الخادم ايجابا بالاحسان المولى الذى هو احسان شامل
ولا يعلمه الا عالم بفضله ولا يجهله الا جاهل والله تعالى يجعل الطلبات مقدرة ببابه
حتى لا تقف فى الدنيا عن امداد شكره وفى الآخرة من امداد ثوابه والسلام
فتأمل أيها الناظر فى كتابى هذا الى ما اشتملت عليه هذه الرقعة من المعانى حتى تعلم
كيف تصنع بذلك فيما تكتبه (ومن ذلك) رقعة أخرى كتبتها فى هذا المعنى المتقدم
ذكره وأرسلت معها هدية من المسك وهى الهدية رسول يخاطب عن مرسله
بغير لسان ويدخل على القلوب من غير استئذان وقد قيل أخت السحر
ملاطفة قصدها غير أنها لا تحتاج الى نفثها ولا الى عقدها وما من قلب الا
وصورتها تجلى عليه فى سرقة ولولا شرف مكانها ما حلت للنبى صلى الله عليه
وسلم مع تحريم الصدقة ولها صفات غير هذه كريمة الاخطار حسنة لذى الاسماع
والابصار ومن أحسنها أنها تجدد ودا وتجعل قرب امكان بعدا وتقول لنار
الاحنة يا نار كونى بردا ولهذا قيل تهادوا تحابوا ولاشك أنها وصلة بين
المودات فاذا تواصل الناس تقاربوا وقد أرسل الخادم منها شيأ اذا كتمه ذاع
واذا خزنه ضاع وقد شبه بالجليس الصالح بعد أسباب الانتفاع وما زاد من مزية
على مزيته أنه وشيم المولى توأمان غير أن شيمته تنتمى الى كرم محتدها وهو ينتمى الى
سرر الغزلان فاذا ورد على مجلسه قيل هذا عطر ورد على حونة عطار وعرف له
حق المشاركة فان أدنى الشركة فى الشيم جوار وقد نطق الخبر النبوى بأنه أحد
الثلاثة التى لا ترد على من أهداها واذا نظر الى حصول بقائها وفائدتها وجد
أطولها عمرا وأبداها وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم فى ارساله
واذا سأل غيره فى قبول هديته كفاه نص الخبر مؤنة سؤاله والسلام وهذه الرقعة
أحسن من التى قبلها (فمما اشتملت عليه من المعانى) قولى وما من قلب الا
وصورتها تجلى عليه فى سرقة ولولا شرف مكانها ما حلت للنبى صلى الله عليه
وسلم مع تحريم الصدقة وهذان المعنيان مستخرجان من خبرين نبويين أحدهما
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال جاءنى جبريل عليه السلام ومعه سرقة من حرير
يعنى حريرة بيضاء رقيقها صورة عائشة رضى الله تعالى عنها وقال هذه زوجتك فى
الدنيا والآخرة والخبر الآخر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حرمت على
الصدقة وأحلت لى الهدية (ومما اشتملت عليه أيضا) قولى وقد أرسل الخادم منها

شـأ اذا كتمه ذاع واذاخزنه ضاع وهذه مغالطة حسنة لان المسك اذا كتم ذاعت رائحته واذا خزن ضاع أى فاح ويقال ضاع الشئ اذا ذهب فالمغالطة ههنا فى الجمع بين الضدين (وكذلك) قولى وقد شبهه بالجليس الصالح وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضا وذلك أنه قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح مثل حامل المسك اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما أن تجد منه عرفا طيبا ومثل جليس السوء مثل نافخ الكير اما أن يحرق ثوبك واما أن تجد منه رائحة كريهة (ومما اشتملت عليه) من المعانى أيضا قولى انه أحد الثلاثة التى لا ترد على من اهداها وهذا مستخرج من الخبر النبوى أيضا وهو قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد الطيب والريحان والدهن (ومن ذلك) رقعة كلفنى بعض أصدقائى املاءها عليه وهى رقعة من عاشق الى معشوق وهى

وإذا قيل من تحب تخطا ٭ لك لسانى وأنت فى القلب ذاكا

يامن لا أسميه ولا أكنيه وأذكر غيره وهو الذى أعنيه لا تكن ممن أوتى ملكا فلم ينظر فى زواله وعرف مكانه من القلوب فجار فى ادلاله ولا تغتر بقول من رأى الحسن للاساءة ماحيا واعلم أن اللاحى يقول كفى بالتذلل لاحيا وكثيرا ما يزول العشق بجنايات الصدود والزيادة فى الحد نقصان فى المحدود وقد قيل ان الحسن عليه زكاة كزكاة المال وليست زكاته عند علماء المحبة الاعبارة عن الوصال وهذه صدقة تقسم على أربابها ولا ينتظر أن يحول الحول فى ايجابها فهى مستقرة على تجدد الايام والمستحقون لها قسم واحد ولا يقال انهم ثمانية أقسام وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب ورقبة العشق أشد أسرا من رقبة تحرر بالكتاب فأخرج يا مولاى من هذا الحق الواجب والافتات لطالب منى ومطالب ولا تقل هذا غريم أكثر عدة الليالى فى مطله وأعده والمواعيد زادلمثله فهذه سلعة قد عاملتنى بها مرة ساخرا ومرة ساحرا ومن الاقوال السائرة أن الغر تجعله التجربة ماهرا ولعمرى ان ممارسة الحب تجدد لصاحبه علما وتبصره وان كان كما يقال أعمى وقد كذب القائل

عرضن للذى تحب بحب ٭ ثم دعه يروضه ابليس

فان كانت الرياضة كما قيل لابليس فما أراه صنعا فى الذى صنع وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح وأنت جذع ولا شك أنك تهدم ما يشيده من

البناء أو أنك مستثنى في جملة من دخل في حكم الاستثناء وأما الآن فله عاتب وعليه عاتب فأين نفثاته التي هي أخدع من الحبائل وأين قوله لا تتهم من الايمان والشمائل وأين جنوده المسترقة ما في السما التي تجري من بني آدم مجرى الدما وكل هذا قد بطل عندي خبره كما بطل عندي أثره فان أدركته النخوة بأن أستهزئ بتصديق أفعاله فليطل معقول حاجبي هذه حتى أعلم أنه قادر على حل عقاله والا فليخف راسه وليبح وسواسه وان كان له عرش على البحر فليقوض من عرشه وليعلم أن السحر ليس في عقده ونفثه ولكنه في الاصفر ونقشه وهاأنا قد بعثت منه ما يجعل العزم محلولا والود مبذولا وما أقول الا اني بعثت معشوقا الى معشوق وكلاهما محله القلب بل القلب من حجبهما مخلوق وما أكرمه وهو وسيلة الى مثله وحسنه من حسنه وان لم يكن شكله من شكله وما وصفه واصف الا كان ما رآه منه فوق ما رواه ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم يرذو وجهين وجيهاسواه لاجرم أنه اذا أسفر في أمر تلطف في فتح أبوابه وتساول وعره فبدله بسهله وبعده فبدله باقترابه ولو بعثت غيره لخفت أن لا يكون في سفارته صادقا أو أنه كان يمضي سفيرا ويعود عاشقا فليس على الحسن أمانة وفي مثله تعذر الخيانة ولا لوم على العقول اذا نسيت هناك عزيمة رشدها ورأت ما لا يحتمله كاهل جهدها ومن الذي يقوى درعه على تلك السهام أو يروم النجاة منها وقد حيل بينه وبين المرام وهذا الذي منعني أن أرسل الاكيا وكاتبا فأحدهما يكون في السفارة والآخر على السر حجابا والسلام ان شاء الله تعالى (وفي هذه الرقعة) من المعاني الغريبة ما أذكره فالاول ما ذكرته في قسم الصدقات وفك الرقاب والثاني ما ذكرته في وصف الدينار وهو أنه وجيه ذو وجهين وقال النبي صلى الله عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون وجيها وهذا معنى لم يسبقني أحد اليه وقد وصف الحريري الدينار في مقامة من مقاماته ولم يظفر بهذا المعنى ولا بأمثاله من الاوصاف التي ذكرها بمثله والثالث أني بعثت معشوقا الى معشوق (ومن ذلك ما كتبته) وكان توفيت زوجة بعض الملوك وتوفي معها ولد لها وهو طفل صغير وكان بينهما يومان وتلك المرأة بنت ملك من الملوك أيضا فكتب اليه من الاطراف المجاورة يعزونه وحضر عندي بعض الادباء ممن يحب أن يكون كاتبا وعرض علي نسخة ما كتب به ذلك الملك في التعزية بزوجته وولدها

فوجدتهم اكتبا باردة غثة لا تعرب عن الحادثة بل بينها وبينها بعد المشرقين ومن شرط الكتابة أن يكون الكتاب متناسب المعنى المقصود والتعازى مختلفة الانحاء فتعازى النساء غير تعازى الرجال وهي من مستصعبات فن الكتابة والشعر وتعازى الرجال أيضا تختلف فلا يعزى بالميت على فراشه كما يعزى بالميت قتيلا ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق وهكذا يجرى الحكم في المعانى جميعها وهذا شيء لا يتنبه له الا الراسخون في هذا الفن من أرباب النثر والنظم وسألنى ذلك الرجل عن هذه التعزية المشار اليها في المرأة وولدها الصغير وقال أحب أن أعلم كيف تكون فأمليت عليه ثلاثة كتب كل كتاب يتضمن معنى لا يتضمنه الكتاب الآخر (فمما أمليته منها) كتاب أنا ذاكره ههنا وهو أشجى التعازى ما أتبع فيه المفقود بمفقود لاسيما اذا جمع بين سعد الاخبية وسعد السعود وكل منهما يعظم حزنا كما يعظم مكانا وهذا يحسر عن الوجوه خمرا وهذا يلقى عن الرؤس تيجانا ولم يوفهما حقهما من بكى ولا من ندب ولا من شعر ولا من كتب وليت فدى أحدهما بصاحبه فعاش درهما المفدى بالذهب

ولو كان خطبا واحدا لخف كله * ولكنه خطب أعيد على خطب

وقد أصدر الخادم كتابه هذا ومن حقه أن يخرج في ثوب من الحداد وان يتمزق أذياله كله والكتاب عنوان الفؤاد وغاية ما يقول أحسن الله عزاء المجلس السامى الملك الاجل السيد على أن هذا الدعاء قد شهدت الحال بجنه وكيف يملك قلبه عزاءه وقد أوثقه الهم في سجنه وصار له ولدا دون ولده وخدنا دون خدنه لكن يدعى له بامتداد البقاء وأن تعامله الحوادث بعد هذه معاملة الابقاء ثم يتبع ذلك بطلب الجنة لمن نقلته المنايا عن أرائك الخدور وجعلته في بطون القبور ولمن فاجأت الايام غصنه فقصفته ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته فوراءهما وقد نزلا بمنزل عديم الايناس وان كان مأهولا بأكثر الناس فهو القريب دارا البعيد مزارا الذى يحجب من اليأس بأمنع حجاب وذهب عن الوجوه المنعمة لذة التراب فمن كان مسعد المجلس فليأخذ بوله الجزع لا بعزيمة الاصطبار وليقل هذا حادث بان فيه تحامل الاقدار وجرت همومه مجرى الخواطر من القلوب والرقاد من الابصار فالاسوة الانفسة معدودة من الاحسان والسلوة الاعنه داخلة في حيز الامكان والخادم أولى من لقى المجلس فيه بالاسعاد وقام

بما يجب من قضاء حق الوداد وفعل ما يفعله القريب الحاضر وان كان على شقة
من البعاد وقد أرسل من ينوب عنه فى التعزية وان لم يكف فيه المناب وكما رخص
العذر فى قصر الصلاة فكذلك رخص فى الاقتصار على الرسول والكتاب وقد ورد
لو حضر بنفسه فاستسقى لذلك الضريح سحابا وعقر عنده ركابا وسأل الله له مغفرة
وثوابا والسلام (فى هذا الكتاب معنى غريب) وهو قولى سعد الاخبية كناية
عن المرأة وسعد السعود كناية عن ولد هاد وتسمية سعد الاخبية لسم منزلة من منازل
القمر والاخبية جمع خباء ومن شأن المرأة أن تحتجب فى الاخبية فهى سعدها
وهذا من المعانى الغريبة فى مثل هذا المقصد وقد اتفق سعد الاخبية وسعد
السعود معا وهذا أيضا غريب (ومن ذلك) أنى كتبت كتابا عن الملك الافضل على
بن يوسف الى أخيه الملك الظاهر غازى بن يوسف صاحب حلب فى أمر شخص
كان أبوه صاحب مدينة تكريت وهذه تكريت كان بولاها قديما الامير
أيوب جد الملك الافضل والملك الظاهر وأولد بها ولده صلاح الدين يوسف أباهما
وعلى عقب ولادته انتقل والده عن تكريت هو وعشيرته لامر طرأ لهم وجاء الى
الموصل ثم الى الشام وهناك سعدوا وكانت السعادة على يد صلاح الدين يوسف فلما
أردت أن أكتب هذا الكتاب علمت أنه مظنة المعانى المبتدعة لان الامر المكتوب
فيه غريب لم يقع مثله حينئذ كتبت هذا الكتاب وهو رفع الله شأن مولانا الملك
الظاهر ولا زال الدهر فاخرا باسم سلطانه ناظما مناقبه فى جيده ومحامده فى
لسانه ناسخا بمساعى دولته ما تقدم من مساعى آل بويه وآل حمدانه كتاب الخادم
هذا وارد من يد الامير شمس الدين ابن صاحب تكريت وهى أول أرض مس
جلد الوالد ترابها وتيمم بالسعادة على جبينه كتابها ومنها طهر نور البيت
الايوبى مشرقا وأشام اذ خرج معرقا وكفاه بذلك وسيلة يكتنفها الاحسان
والارعاء ويكفى صاحبها أن يقول لا أسقى حتى يصدر الرعاء وقد قرنها بوسيلة قصد
الخدمة التى توجب لقاصدها ذماما وتقول له سلاما اذا قال سلاما ثم ثلث هاتين
الوسيلتين بكتاب الخادم أخذا بالسنة النبوية فى الدعاء وعدده وتفاؤلا بتثليث
النجوم فيما يقصده المرء من سعادة مقصده ولا قدح فى كرم الكريم اذا استكثر
طالبه من الاسباب فان الله على كرمه قد استكثر اليه من أعمال الثواب وكتاب
الخادم على انفراده كاف لحامله ومكثر من حقوق وسائله وقد صدر مخاطبا عن

حقوى ضميره فانما تحق السفارة اذا اوديكل طالب من سفيره وهو مع ذلك خسيفة صفقته وجبرة لحته واذا وجد لدى مولانا معولا فليس عليه أن يرده ماولا اذ النعو بل على نجح مصدره لاعلى كثرة أسطره (فانظر) أيها المتأمل الى هذا الكتاب وأعطه حقه من التأمل حتى ترى ما اشتمل عليه من المعانى وانظر كيف ذكرت الاول ثم الثانى ثم الثالث أما المعنى الاول فانه يختص بذكر سعادة البيت الايوبى ومنشئها وانها ولدت بتكريت وهذا الرجل ينبغى أن يرعى بسببها اذ كان أبوه صاحبها وأما المعنى الثانى فانه قصد الخدمة الطاهرية وهذا وسيلة تامة توجب له ذماما وأما المعنى الثالث فانه حرمة الكتاب الصادر على يده ثم انى مثلث ذلك بالدعاء النبوى وبتثليث النجوم فان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا دعا دعا ثلاثا وانما مثلت ذلك بالدعاء لامرين أحدهما أنه موضع سؤال وضراعة والآخر أن الكتاب وسيلة ثالثة والدعاء ثلاث مرار وأما تثليث النجوم فان التثليث سعد والتربيع نحس وأحسن المعانى الثلاثة التى تضمنها هذا الكتاب هو الاول والثالث وأما الثانى فانه متداول قد تأمل ما أشرت اليه واذا شئت أن تكتب كتابا فافعل كما فعلت فى هذا الكتاب ان كان الامر الذى تكتب فيه غريب الوقوع (واعلم) أنه قد يقع المعنى المبتدع فى غير أمر غريب الوقوع وذلك يكون قليلا بالنسبة الى الوقايع الغريبة التى هى مظنة المعانى المبتدعة (ومن هذا الباب) ما أوردته فى جملة رسالة طردية فى وصف قسى البندق وحاملها وهو فاذا تناولوها فى أيديهم قيل أهلة طالعة من أكف أقمار واذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل منايا موقة بأيدى أقدار وتلك قسى وضعت للعب لا للنضال ولردى الاطيار لا لردى الرجال واذا نعتها ناعت قال انها جمعت بين وصفى اللين والصلابة وصنعت من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة فهى مركبة من حيوان ونبات مؤلفة منهما على بعد الشتات فهذا من سكان البحر وسواحله وهذا من سكان البر ومجاهله ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش الاحين تشد ولا تنطلق فى شأنها الاحين تعطف وترد ولها نشاب أحكم تصويرها وصحح تدويرها فهى فى لونها صندلية الاهاب وكأنما صيغت اقواتها من حجر لامن تراب فاذا قذفتها الى الاطيار قيل وبعد من الارض من جبال فيها من برد ولا يرى حينئذ الاقتيل ولكن بالمثقل الذى

لا يجب في مثله قود فهي كافلة من تلك الاطيار بقبض نفوسها منزلة لها من جو
السماء على أم رؤوسها (هذا الفصل) يشتمل على معان غريبة منها قولي انها
لا تتمكن من البطش الا حين تشتد ولا تنطلق في شأنها الا حين تعطف وترد ومنها
قولي ويصعد من الارض من جبال فيها من برد وكل هذا من المعاني التي تبتدع
بالنظر الى المقصد المكتوب فيه فان الكاتب اذا أفكر فيما لديه وتأمله وكان قادرا
على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين مقصده جاء هكذا كما تراه الا أن القادر على
ذلك من أقدره الله عليه فما كل ناطق حكيم ولا كل من أوحي اليه بكليم وفي
الاقلام هاشم لمن ناواه ومنها هشيم (وسأبين في هذا الموضع) على طريق يسلك
الى شيء من المعاني المخترعة وهو طريق استخرجته وانفردت باستخراجه دون غيري
فان المعاني المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالاشارة الى طريق يسلك فيها الا أن ذلك مما
لا يمكن ومن ههنا أضرب علماء البيان عنه ولم يتكلموا فيه كما تكلموا في غيره
وكيف تتقيد المعاني المخترعة بقيد أو يفتح اليها طريق تسلك وهي تأتي من فيض
الهي بغير تعليم ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض والذي
يختص بها يكون فذا واحدا يوجد في الزمن المتطاول ولما مارست أنا هذا
الفن أعني فن الكتابة وقلبته ظهرا لبطن ونقبت عن دقائقه وخباياه وأكثرت
من تحصيل موادّه والاسباب الموصلة الى الغاية منه سنح لي في شيء من المعاني
المخترعة طريق سلكته وهو يستخرج من كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه
صلوات الله عليه وسلامه وقد تقدم لي منه أمثلة في هذا الكتاب وذلك أنه ترد
الآية من كتاب الله أو الحديث النبوي والمراد بهما معنى من المعاني فآخذ
أنا ذلك وأنقله الى معنى آخر فيصير مخترعا لي وسأورد ههنا منه نبذة يسيرة يعلم
منها كيف أعمل حتى يسلك اليها في الطريق الذي سلكته (فمن ذلك) قصة
أصحاب الكهف والرقيم فاني أخذت ذلك ونقلته الى الاحسان والشكر
ألا ترى أن الاحسان يستعار له كهف وكنف وظل وأشباه ذلك والشكر
كلمات تقال في التنويه بذكر المحسن واحسانه والرقيم هو الكتاب المكتوب
فهو والشكر متماثلان والذي أتيت به قد أوردته وهو فصل من كتاب الى
بعض المنعمين الخادم يشكر احسان المولى الذي ظل عنده مقيما وغدا
عطائه زعيما وأصبح بتواليه لديه مغرما كما أصبح له غريما ولما تمثل في الاشتمال

عليه كما صار شكره فيه رقيا فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع لتعلم أنى قد قصصت لك فيه طريقا تسلكه (وأما الحديث النبوى) فانى أخذت قصة قتلى بدر كأبى جهل وعتبة وشيبة وغيرهم ونقلتها الى القلم وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على القليب الذى ألقاهم فيه وناداهم بأسمائهم فقال يا عتبة يا شيبة يا أبا جهل يا فلان يا فلان والحديث مشهور فلا حاجة الى استقصائه والذى أتيت به فى وصف القلم هو أنى قلت واقد مرح القلم فى يدى وحق له أن يمرح وأبدع فيما أتى به وكل اناء بالذى فيه ينضح ومن شأنه أن يستقل على أعواد المنبر فلا ينتهى من خطبتها الى فصلها ويقف على جانب القليب الا أنه لا ينادى من المعانى أبا جهلها فالدواة قليب والقلم يقف عليه والمعانى التى ينشئها من باب العلم لا من باب الجهل فتأمل هذه الكلمات التى ذكرتها فانها لطيفة جدا وهى مخترعة لى وهذا القدر كاف فى طريق التعليم فليحتذ حذوه ان أمكن والله الموفق للصواب (وأما الضرب الآخر) من المعانى وهو الذى يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق فذلك يسهل ما يستعمله أرباب هذه الصناعة ولذلك قال عنترة . * هل غادر الشعراء من متردم * الا أنه لا ينبغى أن يرمخ هذا القول فى الاذهان لئلا ييأس من الترقى الى درجة الاختراع بل يعوّل على القول المطمع فى ذلك وهو قول أبى تمام

لازلت من شكرى فى حلة * لابسها ذو سلب فاخر

يقول من تقرع أسماعه * كم ترك الاول للآخر

وعلى الحقيقة فان فى زوايا الافكار خبايا وفى أبكار الخواطر سبايا لكن قد تقاصرت الهمم ونكصت العزائم وصار قصارى الآخر أن يتبع الاول وليته تبعه ولم يقصر عنه تقصيرا فاحشا (ووقفت على كتاب) يقال له مقدمة ابن أفلح البغدادي قد قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة وللعراقيين بها عناية وهم واصفون لها ومكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قشورا لا لب تحتها الا أن غاية ما عند الرجل أن يقول وأما الفصاحة فانها كقول النابغة مثلا أو كقول الاعشى أو غيرهما ثم يذكر بيتا من الشعر أو أبياتا وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة حتى اذا وردت فى كلام عرفنا أنه فصيح بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه وكذلك يقول فى غير الفصاحة (ومن أعجب) ما وجدته فى كتابه

قوله فى حلة فى الديوان فى نعمة اه

أنه قال أما المعاني المبتدعة فليس للعرب منها شئ وانما اختص بها المدنون ثم ذكر للمحدثين معاني وقال هذا المعنى لفلان وهو غريب وهذا القول لفلان وهو غريب وتلك الاقوال التى خص قائلها بأنهم ابتدعوها فاسدة والحاقا أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب وامّا أنه لم يقف على أقوال الناظمين والناثرين ولا تصرف فيها حتى عرف ما قاله المتقدم مما قاله المتأخر وأما قوله انه ليس للعرب معنى مبتدع وانما هو للمحدثين فياليت شعرى من السابق الى المعاني من تقدم زمانه أم من تأخر زمانه (وأما أوردههنا) ما يستدل به على بطلان ما ذكره وذلك أنه قد ورد من المعاني أن صور المنازل تمثلت فى القلوب فاذا عفت آثارها لم تعف صورها من القلوب وأول من أتى بذلك العرب فقال الحرث بن خالد من أبيات الحماسة

انى وان غدروا اغدا بمنى ⁂ عند الجمار يؤدها العقل

لو بدلت أعلى مساكنها ⁂ سفلا وأصبح سفلها يعلو

لعرفت مغناها بما احتملت ⁂ منى الضلوع لاهلها قبل

ثم جاء المحدثون من بعده فانسحبوا على ذيله وحذوا حذوه فقال أبو تمام

وقفت وأحشائى منازل للاسى ⁂ به وهو قفر قد تعفت منازله

(وقال البحترى)

عفت الرسوم وما عفت أحشاؤه ⁂ من عهد شوق ما تحول فتذهب

وقال المتنبى لك يا منازل فى القلوب منازل ⁂ أقفرت أنت وهن منك أواهل

وهذا المعنى قد تداوله الشعراء حتى انه ما من شاعر الا ويأتى به فى شعره (وكذلك) ورد لبعضهم من شعراء الحماسة

أناخ اللوم وسط بنى رماح ⁂ مطيته وأقسم لا يريم

كذلك كل ذى سفر اذا ما ⁂ تناهى عند غايته يقيم

وهذان البيتان من أبيات المعاني المبتدعة وعلى اثرهما مشى الشعراء (وكذلك) ورد لبعضهم فى شعر الحماسة

تركت ضأنى تود الذئب راعيها ⁂ وأنها لا ترانى آخر الابد

الذئب يطرقها فى الدهر واحدة ⁂ وكل يوم ترانى مدية بيدى

(وكذلك) ورد قول الآخر

قوم اذا ما جناجانيهم وأمنوا • للؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

وكم للعرب من هذه المعانى التى سبقوا اليها (ومن أدل الدليل) على فساد ماذهب اليه من أن المحدثين هم المختصون بابتداع المعانى أن أول من بكى على الديار فى شعره رجل يقال له ابن حرام وكان هو المبتدى لهذا المعنى أولا وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره فقال

عوجا على الطلل المحيل لعلنا • نبكى الديار كما بكى ابن حرام

وقد أجمع نقلة الاشعار أن لامرئ القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يسبق اليها ولا قيلت من قبله ويكفى من هذا كله ماتقدمت القول فيه وهو أن العرب السابقون بالشعر وزمانهم هو الاول فكيف يقال ان المتأخرين هم السابقون الى المعانى وفى هذه الامثلة التى أوردتها كفاية فى نقض ماذكره ولو قال ان المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى وألطف مأخذا وأدق نظرا لكان قوله صوابا لان المحدثين عظم الملك الاسلامى فى زمانهم ورأوا ما لم يره المتقدمون وقد قيل ان اللها تفتح اللها وهو كذلك فان نفاق السوق جلاب (وقد رأيت جماعة) من متخلفى هذه الصناعة يجعلون همهم مقصورا على الالفاظ التى لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها واذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الغثاثة والبرد يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ولا يشك فى أنه صار كاتبا مفلقا واذا نظر الى كتاب زمانا وجدوا كذلك فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الاغمار ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمار ولو أنه لا يتطاول اليه الا أهله لبان الفاضل من الناقص على أنه كالرمح الذى اذا اعتقله حامل بين الصفين بان به المقدم من الناكص وقد أصبح اليوم فى يد قوم هم أحوج من صبيان المكاتب الى التعليم وقد قيل ان الجهل بالجهل داء لا ينتهى اليه سقم السقيم وهؤلاء لا ذنب لهم لانهم لو لم يستخدموا فى الدول ويستكتبوا والا ما ظهرت جهالتهم وفى أمثال العوام لا تعر الاحمق شيأ فيظنه له وكذلك يجرى الامر مع هؤلاء فانهم استكتبوا فى الدول فظنوا أن الكتابة قد صارت لهم بأمر حق واجب (ومن أعجب الاشياء) أنى لا أرى الا طامعا فى هذا الفن مدعيا له على خلوه عن تحصيل آلاته وأسبابه ولا أرى أحدا يطمع فى فن من الفنون غيره ولا يدعيه هذا وهو بحر لا ساحل له يحتاج صاحبه الى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهى اليه

ويحتوي عليه قسمان افقه ـ ل يدعي بعض هؤلاء أنه فقيه أو طبيب أو حاسب أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها فاذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذي يمكن تحصيله في سنة أو سنتين من الزمان لا يدعيه احد من هؤلاء فكيف يجيء الى فن الكتابة وهو ما لا تحصل معرفته الا في سنين كثيرة فيدعيه وهو جاهل به (وممارأيته من المدعين) لهذا الفن الذين حملوا منه على القشور وقصروا معرفتهم على الالفاظ المسجوعة الغثة التي لا حاصل وراءها أنهم اذا أنكرت هذه الحال عليهم وقيل لهم ان الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطئ الفقر على حرف واحد فقط اذ لو كان عبارة عن هذا وحده لامكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة واغا هو أمر وراء هذا وله شروط متعددة فاذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوهم عن معرفته ثم لو عرفوه وأتوا به على الوجه الحسن من اختيار الالفاظ المسجوعة لاحتاجوا الى شرط آخر قد نبهت عليه في باب السجع واذا أنكر عليهم الاقتصار على الالفاظ المسجوعة وهدوا الى طريق المعاني يقولون لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة فانهم انما اعتنوا بالالفاظ ولم يعتنوا بالمعاني اعتناءهم بها ثم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادعوا الاسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين (ولنذكر ههنا) في الرد عليهم ما اذا تأمله الناظر في كتابنا عرف منه ما ينقضه ويذهب به الاستحسان كل مذهب (فنقول) اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالالفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا في نفوسها فأول ذلك عنايتها بألفاظها لانها لما كانت عنوان معانيها وطريقها الى اظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس وأذهب بها في الدلالة على القصد ألا ترى أن الكلام اذا كان مسجوعا لذ لسامعه فحفظه واذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظنن أن العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ فقط بل هي خدمة منهم للمعاني ونظير ذلك ابراز صورة الحسناء في الحلل الموشية والاثواب المحبرة فانا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه (فان قيل) انا نرى من ألفاظ العرب ما قد حسنوه وزخرفوه ، ولسنا

ترى تحته مع ذلك معنى شريفا فمما جاء منه قول بعضهم

ولما قضينا من منى كل حاجة * ومسح بالاركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا * وسالت بأعناق المطى الاباطح

ألا ترى الى حسن هذا اللفظ وصقالته وتدبيج أجزائه ومعناه مع ذلك ليس مدانيا له ولا مقاربا فانه انما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الابل ولهذا نظائر كثيرة شريفة الالفاظ خسيسة المعانى (فالجواب عن ذلك) أن هذا الموضع قد سبق الى التشبث به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما أراه القوم وانما ذلك لجفاء طبع الناظر وعدم معرفته وذلك أن فى قول هذا الشاعر كل حاجة مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والاهواء والمقة ما لا يستفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ألا ترى أن حوائج من أشياء كثيرة غير التلاقى ومنها التشاكى ومنها التخلى للاجتماع الى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به فكأن الشاعر صانع عن هذا الموضع الذى أومأ اليه وعقد غرضه عليه بقوله فى آخر البيت ومسح بالاركان من هو ماسح أى انما كانت حوائجنا التى قضيناها وآرابنا التى بلغناها من هذا النحو الذى هو مسح الاركان وما هو لاحق به وجار فى القربة من الله مجراه أى لم تتعد هذا القدر المذكور الى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح وأما البيت الثانى فان فيه أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وفى هذا ما أذكره لتعجب به وبمن يعجب منه ووضع من معناه وذلك أنه لو قال أخذنا فى أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب فانه قد شاع عنهم واتسع فى محاوراتهم علو قدر الحديث بين الالفين والجذل بجمع شمل المتواصلين ألا ترى الى قول بعضهم

وحدثتنى يا سعد عنها فزدتنى * جنونا فزدنى من حديثك يا سعد

وقول الآخر

وحديثها السحر الحلال لو أنه * لم يجن قتل المسلم المتحرز

فاذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به اذا قيده بقوله أخذنا بأطراف الاحاديث فان فى ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والايماء دون التصريح وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب من أن يكون كشفا ومصارحة وجهرا وان كان الامر كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم

وأشد تقدمان تقورسوم من لقائها ماران عذب ولسقه * ثم في قول الشاعر
وسالت باعناق المطى الاباطح من لطافة المعنى وحسنه ما لاخفاء به وسأبينه
على ذلك فاقول ان هؤلاء القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم
لذة الحديث عن امساك الازمة فاسترخت عن أيديهم وكذلك شأن من
يشره وتغلبه الشهوة فى أمر من الامور ولما كان الامر كذلك وارتخت الازمة
عن الايدى أسرعت المطايا فى السير فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه
الارض فى سرعته وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه والذى لا يشم
نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى فالعرب انما تحسن ألفاظها وتزخرفها
عناية منها بالمعانى التى تحتها فالالفاظ اذا خدم المعانى والمخدوم لا شك أشرف
من الخادم فاعرف ذلك وقس عليه (النوع الاول فى الاستعارة) ولنقدم قبل
الكلام فى هذا الموضع قولا جامعا فنقول اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافا
خاصة وأوصافا عامة فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع الى اللفظ وكالمطابقة فيما
يرجع الى المعنى وأما العامة فكالسجع فيما يرجع الى اللفظ وكالاستعارة
فيما يرجع الى المعنى وهذا الموضع الذى نحن بصدد ذكره وهو الاستعارة كثير
الاشكال غامض الخفاء * وما أورد فى كتابى هذا ما استخرجته ولم أسمع فيه قولا
لغيرى وكنت قدمت القول فى الفصل السابع من مقدمة الكتاب فيما يختص
باثبات المجاز والرد على من ذهب الى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه وأقمت
الدليل على ذلك ولا حاجة الى اعادته ههنا بل الذى أذكره ههنا هو ما يختص
بالاستعارة التى هى جزء من المجاز ولم سميت بهذا الاسم وكشفت عن حقيقتها
وميزتها عن التشبيه المضمر الادلة والكلام فى هذا يحتاج الى اعادة ذكر المجاز
وادخاله فيه ليتقرر ويتبين والذى انكشف لى بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم
قسمين توسع فى الكلام وتشبيه والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف
فالتشبيه التام أن يذكر المشبه والمشبه به والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه
دون المشبه به ويسمى استعارة وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام
والا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه اسم التشبيه ويجوز أن يطلق عليه اسم
الاستعارة لاشتراكهما فى المعنى وأما التوسع فانه يذكر للتصرف فى اللغة
لا لفائدة أخرى وان شئت قلت ان المجاز ينقسم الى توسع فى الكلام وتشبيه

واستعارة ولا يخرج عن أحد هذه الاقسام الثلاثة فأيها وجد كان مجازا (فان قيل) ان التوسع شامل لهذه الاقسام الثلاثة لان الخروج من الحقيقة الى المجاز اتساع فى الاستعمال (قلت فى الجواب) ان التوسع فى التشبيه والاستعارة جاء ضمنا وتبعا وان لم يكن هو السبب الموجب لاستعمالها وأما القسم الآخر الذى هو لا تشبيه ولا استعارة فان السبب فى استعماله هو طلب التوسع لا غير وبيان ذلك أنه قد ثبت أن المجاز فرع عن الحقيقة وأن الحقيقة هى الاصل وانما يعدل عن الاصل الى الفرع لسبب اقتضاه وذلك السبب الذى يعدل فيه عن الحقيقة الى المجاز اما أن يكون لمشاركة بين المنقول والمنقول اليه فى وصف من الاوصاف واما أن يكون لغير مشاركة فان كان لمشاركة فاما أن يذكر المنقول والمنقول اليه معا واما أن يذكر المنقول اليه دون المنقول فان ذكر المنقول والمنقول اليه معا كان ذلك تشبيها والتشبيه تشبيهان تشبيه مظهر الاداة كقولنا زيد كالاسد وتشبيه مضمر الاداة كقولنا زيد أسد وهذا التشبيه المضمر الاداة قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما وذلك خطأ محض وسأوضح وجه الخطا فيه وأحقق القول فى الفرق بينهما تحقيقا جليا (فأقول) أما التشبيه المظهر الاداة فلا حاجة بنا الى ذكره ههنا لانه معلوم لا خلاف فيه لكن نذكر التشبيه المضمر الاداة الذى وقع فيه الخلاف فنقول اذا ذكر المنقول والمنقول اليه على أنه تشبيه مضمر الاداة قيل فيه زيد أسد أى كالاسد فأداة التشبيه فيه مضمرة واذا أظهرت حسن ظهورها ولم تقدح فى الكلام الذى أظهرت فيه ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول اليه دون المنقول فانه لا يحسن فيه ظهور اداة التشبيه ومتى أظهرت أزالت عن ذلك الكلام ما كان متصفا به من حسن فصاحة وبلاغة وهذا هو الاستعارة ولنضرب لذلك مثالا نوضحه فنقول قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء وهو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

وهذا قد ذكر فيه المنقول اليه دون المنقول لان تقديره عجل قد كالقضيب وابطأ ردف كالدعص وبين ايراده على هذا التقدير وبين ايراده على هيئته فى البيت بون بعيد فى الحسن والملاحة والفرق اذا بين التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن ذلك فيها وعلى هذا فان الاستعارة

لاتكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول اليه ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول (فان قيل) لانسلم أن الفرق بين التشبيه وبين الاستعارة ماذهبت اليه بل الفرق بينهما أن التشبيه انما يكون بأداته كالكاف وكان ومايجرى مجراهما فالم يظهر فيه أداة التشبيه لايكون تشبيها وانما يكون استعارة فاذا قلنا زيد اسد كان ذلك استعارة واذا قلنا زيد كالاسد كان ذلك تشبيها (قلت فى الجواب) عن ذلك اذا لم نجعل قولنا زيد أسد تشبيها مضمر الاداة استحال المعنى لان زيدا ليس أسدا وانما هو كالاسد فى شجاعته فأداة التشبيه تقدرههنا ضرورة كى لايستحيل المعنى (فان قيل) وكذلك أيضا اذا لم تقدر أداة التشبيه فى الاستعارة استحال المعنى لانا اذا قلنا عجل القضيب وأبطأ الدعص فالم تقدر فيه أداة التشبيه والا استحال المعنى (قلت فى الجواب) عن ذلك تقدير أداة التشبيه لابد منه فى الموضعين لكن يحسن اظهارها فى التشبيه دون الاستعارة وجلة الامر أنا نرى أداة التشبيه يحسن اظهارها فى موضع دون موضع فعلمنا أن الموضع الذى يحسن اظهارها فيه غير الموضع الذى لايحسن اظهارها فيه فسمينا الموضع الذى يحسن اظهارها فيه تشبيها مضمر الاداة والذى لايحسن اظهارها فيه استعارة وانما فعلنا ذلك لان تسمية مايحسن اظهار أداة التشبيه فيه بالتشبيه أليق وتسمية مالايحسن اظهار أداة التشبيه فيه بالاستعارة أليق فاذا قلنا زيد أسد حسن اظهار أداة التشبيه فيه بأن نقول زيد كالاسد واذا قلنا كما قال الشاعر

قرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وابطأ الدعص

لايحسن اظهار أداة التشبيه فيه على ماتقدم من ذكر ذلك أولا (فان قيل) اذا أجزت اضمار أداة التشبيه وقدرت اظهارها فى قولك زيد أسد أى كالاسد فمن نضمر أيضا المستعار له ونقدر اظهاره فانه لما قال الشاعر عجل القضيب وأبطأ الدعص أضمر المستعار له وهو القد والردف واذا أظهر قيل عجل قد كالقضيب وابطأ ردف كالدعص ولافرق بين الاضمار بن فكما يسمى اضمار أداة التشبيه فى قولك زيد أسد فكذلك يسمى اضمار المستعار له فى قول الشاعر (فالجواب عن ذلك) أنى أقول نحن فى هذا المقام واقفون مع الاستحسان لامع الجواز ولو تأملت ماأوردته فى أول كلامى بالعين الصحيحة لما أوردت على هذا

الاعتراض ههنا فاني قلت التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن اظهار أداة التشبيه فيها ولو قلت يجوز أو لا يجوز لورد على هذا الاعتراض الذي ذكرته وقد علم وتحقق أن من الواجب في حكم الفصاحة والبلاغة أن لا يظهر المستعار له واذا أظهر ذهب ما على الكلام من الحسن والرونق (ألا ترى) أنا اذا أوردنا هذا البيت الذي هو

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ٭ وردا وعضت على العناب بالبرد

وجد عليه من الحسن والرونق ما لا خفاء به وهو من باب الاستعارة فاذا أظهرنا المستعار له صرنا الى كلام غث وذاك أنا نقول فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسقت خدا كالورد وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد وفرق بين هذين الكلامين للمتأمل واسع وهكذا يجري الحكم في البيت المتقدم ذكره الذي هو

فرعاء ان نهضت لحاجتها ٭ عجل القضيب وأبطأ الدعص

فان هذا البيت لا خفاء بما عليه من الحسن واذا ظهر فيه المستعار له زال ذلك الحسن عنه لا بل تبدل بضده وليس كذلك التشبيه المضمر الاداة فانا اذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء اذ لا فرق بين قولنا زيد أسد وبين قولنا زيد كالاسد وهذا لا يخفى على جاهل بعلم الفصاحة والبلاغة فضلا عن عالم والمعول عليه في تأليف الكلام من المنثور والمنظوم انما هو حسنه وطلاوته فاذا ذهب ذلك عنه فليس بشئ ونحن في الذي نورده في هذا الكتاب واقفون مع الحسن لا مع الجواز ثم لو تنزلنا معك أيها المعترض عن درجة الحسن الى درجة الجواز لما استقام لك ما ذكرته وذاك أن اضمار أداة التشبيه ظاهر في قولنا زيد أسد أي كالاسد وهو مضمر واحد وأما قول الشاعر فرعاء ان نهضت لحاجتها فانه لا يضمر فيه أداة التشبيه الا بعد أن يظهر المستعار له وحينئذ يكون فيه اضماران . أحدهما المستعار له والآخر أداة التشبيه واضمار واحد أيسر من اضمارين أحدهما معلق على الآخر واذا كان الامر كذلك فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ما قدمت القول فيه من أن الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له فتأمل ما أشرت اليه وتدبره حتى تعلم أني ذكرت ما لم يذكره أحد غيري على هذا الوجه (وانما سمي هذا القسم) من الكلام

استعارة لان الاصل فى الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التى هى ضرب من المعاملة وهى أن يستعير بعض الناس من بعض شيأ من الاشياء ولا يقع ذلك الا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضى استعارة أحدهما من الآخر شيأ واذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيأ اذ لا يعرفه حتى يستعير منه وهذا الحكم جار فى استعارة الالفاظ بعضها من بعض فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من أحدهما الى الآخر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشئ المستعار من أحدهما الى الآخر (واعلم) أنه قد يرد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الاداة معا باختلاف القرينة وذاك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره فينتقل عن ذلك الى غيره ويرتجل ارتجالا (فمما جاء منه) قول البحترى

اذا سفرت أضاءت شمس دجن * ومالت فى التعطف غصن بان

فلما قال أضاءت شمس دجن بنصب الشمس كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله اضاءت كأنه قال أضاءت هى وهذا تشبيه لان المشبه مذكور وهو الضمير فى أضاءت الذى نابت عنه التاء ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال أضاءت شمس دجن برفع الشمس ولا يعود الضمير حينئذ الى من تقدم ذكره وانما يكون الكلام مرتجلا ويكون البيت

اذا سفرت أضاءت شمس دجن * ومال من التعطف غصن بان

وهذا الموضع فيه دقة غموض وحرف التشبيه يحسن فى الاول دون الثانى (وأما القسم) الذى يكون العدول فيه عن الحقيقة الى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول اليه فذلك لا يكون الا لطلب التوسع فى الكلام وهو سبب صالح اذ التوسع فى الكلام مطلوب (وهو ضربان أحدهما) يرد على وجه الاضافة واستعماله قبيح لبعد ما بين المضاف والمضاف اليه وذلك لانه يلحق بالتشبيه المضمر الاداة واذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع الا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أو ساه غافل يذهب به خاطره الى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن كقول أبى نواس

بح صوت المال مما * منك يشكو ويصيح

فقوله بح صوت المال من الكلام النازل بالمرة ومراده من ذلك أن المال يتظلم

من اهانتك اياه بالتمزيق فالمعنى حسن والتعبير عنه قبيح وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد فى هذا المعنى

تظلم المال والاعداء من يده * لازال للمال والاعداء ظلاما

(وكذلك) ورد قول أبى نواس أيضا

ما رجل المال أمست * تشتكى منك الكلالا

فاضافة الرجل الى المال أقبح من اضافة الصوت (ومن هذا الضرب) قول أبى تمام وكم أحرزت منكم على قبح قدها * صروف النوى من مرهف حسن القد فاضافة القد الى النوى من التشبيه البعيد البعيد وانما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد وهذا دأب الرجل فى تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى حتى انه اخرج الى بناء يعاب به أقبح عيب وأفحشه (وكذلك) ورد قوله

بلونالك أما كعب عرضك فى العلا * فعال وأما خدمالك أسفل

فقوله كعب عرضك وخد مالك مما يستقبح ويستنكر ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل الا أنه عبر عنه أقبح تعبير وأبو تمام يقع فى مثل ذلك كثيرا (وأما الضرب الآخر من التوسع) فانه يرد على غير وجه الاضافة وهو حسن لا عيب فيه وقد ورد فى القرآن الكريم كقوله تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فنسبة القول الى السماء والارض من باب التوسع لانهما جماد والنطق انما هو للانسان لا للجماد ولا مشاركة ههنا بين المنقول والمنقول اليه وكذلك قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين وعليه ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم فانه نظر الى أحد يوما فقال هذا جبل يحبنا ونحبه فاضافة المحبة الى الجبل من باب التوسع اذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذى هو جماد (وعلى هذا) ورد مخاطبة الطلول ومساءلة الاحجار كقول أبى تمام

أميدان لهوى من أتاح لك البلى * فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

وكقول أبى الطيب المتنبى أثلث فانا أيها الطلل * نبكى وترزم تحتنا الابل فأبو تمام سائل ربوعا عافية وأحجارا دارسة ولا وجه لها ههنا الا مساءلة الاهل كالذى فى قوله تعالى واسئل القرية أى أهل القرية وكل هذا توسع فى العبارة اذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب وكذلك قال

قوله وكم أحرزت فى الديوان وكم ملكت اه

أبو الطيب المتنبي في أمره الطالل بأن يكون ثالثهما أي الركب والابل وهذا وأشباهه لا نزاع فيه فاذ قد تبين وتحقق ما أشرت اليه من هذا الموضع فالمجاز لا يخرج عن هذه الاقسام الثلاثة اما توسع أو تشبيه أو استعارة واذا حققنا النظر في الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمرا قياسيا في حمل فرع على أصل لمناسبة بينهما وان كانا يفترقان بحديهما وحقيقتهما (فأما حد الاستعارة) فقيل انه نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما وهذا الحد فاسد لان التشبيه يشارك الاستعارة فيه ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد أي كأنه أسد وهذا نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما الا انا نقلنا حقيقة الاسد الى زيد فصار مجازا وانما نقلناه لمشاركة بين زيد وبين الاسد في وصف الشجاعة والذي عندي من ذلك أن يقال حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول اليه لانه اذا احترز فيه هذا الاحتراز اختص بالاستعارة وكان حدا لها دون التشبيه وطريقه أنك تريد تشبيه الشيء بالشيء مظهرا ومضمرا وتجيء الى المشبه فتعيره اسم المشبه به وتجريه عليه مثال ذلك أن تقول رأيت أسدا وهذا كالبيت الشعر المقدم ذكره وهو

فرعاء ان نهضت لحاجتها * عجل القضيب وأبطأ الدعص

فان هذا الشاعر أراد تشبيه القد بالقضيب والردف بالدعص الذي هو كثيب الرمل فترك ذكر التشبيه مظهرا ومضمرا وجاء الى المشبه وهو القد فأعاره المشبه به وهو القضيب والدعص وأجراه عليه الا أن هذا الموضع لابد له من قرينة تفهم من فحوى اللفظ لانه اذا قال القائل رأيت أسدا وهو يريد رجلا شجاعا فان هذا القول لا يفهم منه ما أراد وانما يفهم منه أنه أراد الحيوان المعروف بالاسد لكن اذا اقترن بقوله هذا قرينة تدل على أنه أراد رجلا شجاعا اختص الكلام بما أراد ألا ترى الى قول الشاعر عجل القضيب وأبطأ الدعص فانه دل عليه من نفس البيت لان قوله فرعاء ان نهضت دليل على أن المراد هو القد والردف لان القضيب والدعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها وكذلك كل ما يجيء على هذا الاسلوب لان المستعار له وهو المنقول اليه مطوي الذكر (وكنت تصفحت) كتاب الخصائص لابي الفتح عثمان بن جني فوجدته قد ذكر في المجاز شيأ يتطرق اليه النظر وذلك أنه قال لا يعدل عن الحقيقة الى المجاز الا لمعان ثلاثة

وهي الاتساع والتشبيه والتوكيد فان عدمت الثلاثة كانت الحقيقة البتة (فمن ذلك) قوله تعالى فأدخلناه في رحمتنا فهذا مجاز وفيه الثلاثة المذكورة أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة وأما التشبيه فانه شبه الرحمة وان لم يصح دخولها بما يصح دخوله وأما التوكيد فهو أنه أخبر عما لا يدرك بالحاسة بما يدرك بالحاسة تعاليا بالخبر عنه وتفخيما له اذا صير بمنزلة مايشاهد ويعاين هذا مجموع قول أبي الفتح رحمه الله من غير زيادة ولا نقص (والنظر يتطرق اليه من ثلاثة أوجه الاول) أنه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز بل وجود واحد منها سبب لوجوده ألا ترى أنه اذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازا واذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازا ثم ان كان وجود هذه المعاني الثلاثة سببا لوجود المجاز كان عدم واحد منها سببا لعدمه ألا ترى أنا اذا قلنا الانسان لا يوجد الا بأن يكون حيوانا ناطقا فالحيوانية والنطق سبب لوجود الانسان واذا عدم واحد منهما بطل أن يكون انسانا وكذلك كل صفات تكون متقدمة لوجود الشئ فان وجودها يوجده وعدم واحد منها يوجب عدمه (وأما الوجه الثاني) فانه ذكر التوكيد والتشبيه وكلاهما شئ واحد على الوجه الذي ذكره لانه لما شبهت الرحمة وهي معنى لا يدرك بالبصر بمكان يدخل وهو صورة تدرك بالبصر دخل تحته التوكيد الذي هو اخبار عما لا يدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة على أن التوكيد ههنا على وجه ما أورده في تمثيله لا أعلم ما الذي أراد به لانه لا يؤتى به في اللغة العربية الا لمعنيين أحدهما أنه يرد أبدا فيما استقرى بألفاظ محصورة نحو نفسه وعينه وكله وما أضيف اليها مما استقرى وهو مذكور في كتب النحاة وقد كفيت مؤنته الآخر أنه يرد على وجه التكرير نحو قام زيد قام زيد كرر اللفظ في ذلك تحقيقا للمعنى المقصود أي توكيدا والذي ذكره أبو الفتح رحمه الله تعالى لا يدل على أن المراد به أحد هذين المعنيين المشار اليهما ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في ابراز المعنى الموهوم الى الصورة المشاهدة فعبر عن ذلك بالتوكيد ولا مشاحة له في تعبيره واذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ولا حاجة الى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه (وأما الوجه الثالث) فانه قال أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال كذا وكذا وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب لانه ينبغي على قياسه

أن يكون جناح الذل في قوله تعالى واخفض لهما جناح الذل زيادة في أسماء الطيور وذلك أنه زاد في أسماء الطيور اسما هو الذل. وهكذا يجري الحكم في الأقوال الشعرية كقول أبي تمام

لبست سواء أقواما فكانوا * كما أغنى التيمم بالصعيد

فزاد في أسماء اللباس اسما هو الآدمي وهذا مما يضحك منه نعوذ بالله من الخطل والاتساع في المجاز لا يقال فيه كذا وإنما يقال هو أن تجري صفة من الصفات على موصوف ليس أهلا لأن تجري عليه لبعد ما بينه وبينها كقول أبي الطيب المتنبي

أتلك فإنما أيها الطلل * تبكي وترزم تحتك الإبل

فإنه أجرى الكلام على ذلك وإنما يستعمل طلبا للاتساع في أساليب الكلام لا للمناسبة بين الصفة والموصوف إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا وإنما كان ضربا من القياس في حمل الشيء على ما يناسبه ويشاكله وحينئذ يكون ذلك تشبيها أو استعارة على ما أشرت اليه من قبل (وكنت اطلعت) في كتاب من مصنفات أبي حامد الغزالي رحمه الله ألفه في أصول الفقه ووجدته قد ذكر الحقيقة والمجاز وقسم المجاز إلى أربعة عشر قسما وتلك الاربعة عشر ترجع إلى الثلاثة التي أشرت اليها وهي التوسع والتشبيه والاستعارة ولا تخرج عنها والتقسيم لا يصح في شيء من الأشياء إلا إذا اختص كل قسم من الأقسام بصفة لا يختص بها غيره وإلا كان التقسيم لغوا لا فائدة فيه وسأورد ما ذكره وأبين فساده (فالقسم الأول) من الأقسام التي ذكرها هو ما جعل للشيء بسبب المشاركة في خاصة كقولهم للشجاع أسد وللبليد حمار وهذا القسم داخل في الاستعارة إن ذكر المنقول وحده مثل أن يقول القائل رأيت أسدا ومراده رجلا شجاعا أو رأيت حمارا ومراده رجلا بليدا وداخل في التشبيه المضمر الأداة إن ذكر المنقول والمنقول اليه معا كقول القائل زيد أسد أي كالأسد وحمار أي كالحمار (القسم الثاني) تسمية الشيء باسم ما يؤول اليه كقوله تعالى إني أراني أعصر خمرا وإنما كان يعصر عنبا وهذا القسم داخل في القسم الأول لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول اليه وهو من باب الاستعارة لا بل أوغل في المشابهة من دلالة الخمر من العنب وليس الأسد من الرجل ولا الرجل من الأسد (القسم الثالث) تسمية الشيء باسم فرعه كقول الشاعر

وما العيش الا نومة وتشوق • وتمر على رأس النخيل وماء

فسمى الرطب تمرا وهذا القسم والقسم الذى قبله سواء لان هناك سمى العنب خمرا وههنا سمى الرطب تمرا فالعنب أصل والخمر فرع وكذلك الرطب أصل والتمر فرع وكلا هذين القسمين داخل فى القسم الاول وهب أن الغزالى لم يحقق أمر المجاز وانقسامه الى تلك الاقسام الثلاثة التى أشرت اليها ألم ينظر الى هذين القسمين اللذين هما العنب والخمر والرطب والتمر ويعلم أنهما شئ واحد لافرق بينهما (القسم الرابع) تسمية الشئ باسم أصله كقولهم للآدمى مضغة وهذا ضد القسم الذى قبله لان ذلك جعل الاصل فيه فرعا وهذا جعل الفرع فيه أصلا وهو داخل فى القسم الاول أيضا (القسم الخامس) تسمية الشئ بدواعيه كتسميتهم الاعتقاد قولا كقولهم هذا يقول بقول الشافعى رحمه الله أى يعتقد اعتقاده وهذا القسم داخل فى القسم الاول لان بين القول وبين الاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب والباطن والظاهر (القسم السادس) تسمية الشئ باسم مكانه كقولهم للمطر سماء لانه ينزل منها وهذا القسم داخل فى الاول لصفة المناسبة بين المنقول والمنقول اليه وهو النزول من عال وكل ما علاك فأظلك فهو سماء على أن الاغلب على ظنى أن هذا القسم من الاسماء المشتركة وتسمية المطر بالسماء حقيقة فيه وليس من المجاز فى شئ (القسم السابع) تسمية الشئ باسم مجاوره كقولهم للمزادة راوية وانما الراوية الجمل الذى يحملها وهذا القسم من باب التوسع لا من باب التشبيه ولا من باب الاستعارة لان على قياسه ينبغى أن يسمى الجمل زاملة لانه يحملها (القسم الثامن) تسمية الشئ باسم جزئه كقولك لمن تبغضه أبعد الله وجهه عنى وانما تريد سائر جثته وهذا القسم داخل فى القسم الاول وهو شبيه بتسمية الشئ باسم فرعه (القسم التاسع) تسمية الشئ باسم ضده كقولهم للاسود والابيض جون وهذا القسم ليس من المجاز فى شئ البتة وانما هو حقيقة فى هذين المسمين معا لانه من الاسماء المشتركة كقولهم شمت السيف اذا سللته وشمته اذا أغمدته فدل الشيم على الضدين معا بالوضع الحقيقى وفى اللغة من هذا شئ كثير فكيف يجعل هذا القسم من المجاز ولا شك أن الغزالى نظر الى أن الضدين لا يجتمعان فى محل واحد فقاس الاسم على الذات وظن أن الذاتين لا يجتمعان فى اسم واحد

كأنهما لا يجتمعان فى نقل واحد (فان قيل) لا نسلم أن اللفظ المشترك حقيقة بالوضع فى المعنيين معا لان ذلك يتوقف على ثبوت الوضع الذى هو اللسان وإنما هو حقيقة فى أحد معنييه مجاز فى الآخر (فالجواب عن ذلك) أن هذا الموضع تقدم الكلام عليه فى الفصل الثانى من مقدمة الكتاب وهو الفصل الذى اشتمل على آلات علم البيان وأدواته ولو وجد من خالف فإن فيه قد أشبعت القول فيه إشباعا لا مزيد عليه (القسم العاشر) تسمية الشئ بفعله كتسمية الخمر مسكرا وهذا القسم داخل فى القسم الأول وأى مشاركة أقرب من هذه المشاركة فإن الاسكار صفة لازمة للخمر وليست الشجاعة صفة لازمة لزيد لأنه يمكن أن يكون زيد ولا شجاعة ولا يمكن أن يكون خمر ولا اسكار ألا ترى أنها لم تسم خمرا إلا لاسكارها فإنها تخمر العقل أى تستره (القسم الحادى عشر) تسمية الشئ بكله كقولك فى جواب ما فعل زيد الصيام والصيام جنس يتناول جميع أنواعه وهذا القسم لا ينبغى أن يوصل بأقسام المجاز لأن الصيام لزيد حقيقة (فإن قيل) إن الصيام تشمل جميع أنواع الصيام من الماضى والحاضر والمستقبل (قلت) وهذا من أقرب أقسام المجاز مناسبة لأنه أقامه للمصدر مقام الفعل الماضى والمصدر أصل الفعل وعلى هذا فإنه داخل فى القسم الأول (القسم الثانى عشر) الزيادة فى الكلام لغير فائدة كقوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم فما ههنا زائدة لا معنى لها أى فبرحمة من الله لنت لهم وهذا القول لا أراه صوابا وفيه نظر من وجهين أحدهما أن هذا القسم ليس من المجاز لأن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له فى أصل اللغة وهذا غير موجود فى الآية وإنما هي دالة على الوضع اللغوى المطرق به فى أصل اللغة الوجه الآخر أنى لو سلمت أن ذلك من المجاز لا نكرت أن لفظة ما زائدة لا معنى لها ولكنها وردت تفخيما للأمر النعمة التى لان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وهى محض الفصاحة ولو عرى الكلام منها لما كان له تلك الفخامة وقد ورد مثلها فى كلام العرب كالذى يحكى عن الزباء وذلك أن الوضاح الذى هو جذيمة الأبرش تزوجها والحكاية فى ذلك مشهورة فلما دخل عليها كشفت له عن فرجها وقد ضفرت الشعر من دونه ضفيرتين وقالت اذات عروس ترى أمامه ليس ذلك من عوز المواسى ولا من قلة الأواسى ولكنه شيمة ما أناس فما فى الكلام ولكنه شيمة أناس

واغايات لفظة ماههنا تفخيما للشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيما لامره ولو أسقطت لما كان الكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة ولا يعرف ذلك الا أهل من علماء الفصاحة والبلاغة وأما الغزالى رحمه الله تعالى فانه معذور ومتدى فى أن لا يعرف ذلك لانه ليس فنه ومن ذهب الى أن فى القرآن لفظا زائدا لا معنى له فاما أن يكون جاهلا بهذا القول واما أن يكون متهما فى دينه واعتقاده وقول النحاة ان ما فى هذه الآية زائدة فانما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل كما يسمونها فى موضع آخر كافة أى أنها تكف الحرف العامل عن عمله كقولك انما زيد قائم فما قد كفت ان عن العمل فى زيد وفى الآية لم تمنع عن العمل ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل فى خفض الرحمة (القسم الثالث عشر) تسمية الشئ بحكمه كقوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها فسمى النكاح هبة وهذا القسم داخل فى القسم الاول لان النكاح هو تمكين الزوج من الوطء على عوض على هيئة مخصوصة والهبة تمكينه من الشئ الموهوب على غير عوض فشاركت الهبة النكاح فى نفس التمكين من الوطء وان اختلفا فى الصورة (القسم الرابع عشر) النقصان الذى لا يبطل به المعنى كحذف الموصوف واقامة الصفة مقامه قال الله تعالى ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا أى شخصا بريئا وكحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه قال الله تعالى واسئل القرية أى أهل القرية وهذا القسم داخل فى القسم الاول أما حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه فلان الصفة لازمة للموصوف وأما حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه فلانه دل بالمسكون على الساكن وتلك مقارنة قريبة فهذه أقسام المجاز التى ذكرها الغزالى رحمه الله تعالى وقد بينت فساد التقسيم فيها وأنها ترجع الى ثلاثة أقسام هى التوسع والتشبيه والاستعارة (وحيث انتهى بى الكلام الى ههنا) وفرغت عما أردت تحقيقه وبينت ما أردت بيانه فانى أتبع ذلك بضرب الامثلة للاستعارة التى يستفيد بها المتعلم ما لا يستفيده بذكر الحد والحقيقة (فمما جاء من ذلك فى القرآن الكريم) قوله تعالى فى أول سورة ابراهيم صلوات الله عليه الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور فالظلمات والنور استعارة للكفر والايمان أو للضلال والهدى والمستعار له مطوى الذكر

كأنه قال لتخرج الناس من الكفر الذى هو كالظلمة الى الايمان الذى هو كالنور وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة أيضا وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال والقراءة برفع لتزول منه الجبال ليست من باب الاستعارة ولكنها فى نصب تزول واللام لام كى والجبال ههنا استعارة طوى فيها ذكر المستعار له وهو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات والمعجزات أى أنهم مكروا مكرهم لكى تزول منه هذه الآيات والمعجزات التى هى فى ثباتها واستقرارها كالجبال وعلى هذا ورد قوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون فاستعار الاودية للفنون والاغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها وانما خص الاودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لان معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض فكان استعارة الاودية لها أشبه وأليق والاستعارة فى القرآن قليلة لكن التشبيه المضمر الاداة كثير وكذلك هى فى فصيح الكلام من الرسائل والخطب والاشعار لان طى المستعار له لا يتيسر فى كل كلام وأما التشبيه المضمر الاداة فكثير سهل لمكان اظهار المشبه والمشبه به معا (ومما ورد من الاستعارة فى الاخبار النبوية) قول النبى صلى الله عليه وسلم لا تستضيئوا بنار المشركين فاستعار النار للرأى والمشورة أى لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه دخل يوما مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكثرون فقال أما انكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى وهاذم اللذات أراد به الموت وهو مطوى الذكر (وبلغنى عن العرب) أنهم يقولون عند رؤية الهلال لا مرحبا بالمجين مقرب أجل ومحل وهذا من باب الاستعارة فى طى ذكر المستعار له (وكذلك بلغنى عن الحجاج بن يوسف) أنه خطب خطبة عند قدومه العراق فى أول ولايته اياه والخطبة مشهورة من جملتها أنه قال ان أمير المؤمنين نثل كنانته وعجمها عودا عودا فرأى أصلبها نجارا وأقومها عودا فأنفذها نصلا فقوله نثل كنانته وعجمها عودا عودا يريد أنه عرض رجاله واختبرهم واحدا واحدا أحد اختباره فرأى أشدهم وأمضاهم وهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة (وقد

سانى من الاستعارة فى رسائلى) ما أذكر شيأ منه ولو مثالا واحدا وذلك أنه سألنى بعض الاصدقاء أن أصف له غلامين تركيين كانا متواخيين وكان أحدهما يلبس قباء أحمر والآخر قباء أسود فقلت اذا تشعبت أسباب الهوى كانت لسرته أظهر وأضحت أمراضه شطارا كلها ولا يقال فى أحدها هذا أشطار وقد هربت بدين على غصنين ولا طاقة للقلب بهوى واحد فكيف اذا حمل هوى اثنين ومما شجانى أنهما يتلونان فى أصباغ الثياب كما يتلونان فى فنون الصرم والعتاب وقد استجد الآن زيا لا مزيد على حسنهما فى حسنه فهذا يخرج فى ثوب من حمرة خده وهذا فى ثوب من سواد جفنه وما أدرى من دلهما على هذا العجيب غير أنه ليس على فتنة الحب أهدى من حبيب وهذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس وأغروا بحفظه (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فكقول مسكين الدارمى من شعراء الحماسة

لما فى لحاف الضيف والبيت بيته • ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه ان الحديث من القرى • وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

فالغزال المقنع هنا استعارة للمرأة الحسناء (وكذا ورد) قول رجل من بنى يسار فى كتاب الحماسة أيضا

أقول لنفسى حين خود رالها • رويدك لما تشفقى حين مشفق
رويدك حتى تنظرى عم تنجلى • غمامة هذا العارض المتألق

فالعارض المتألق استعارة للحرب أو الذى أظل بمكروهه كالبارق المتألق (ويحكى) أن امرأة وقفت لعبد الملك بن مروان وهو سائر الى قتال مصعب بن الزبير فقالت يا أمير المؤمنين فقال رويدك حتى تنظرى عم تنجلى وأنشد البيت (ومن هذا الباب) قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن

ما انتظرت الى عين حدق المها • وبهت بين متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف • وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا • وعزمت فيك على دخول النار

وهذه الابيات لا تجد لها فى الحسن شريكا ولأن يسمى قائلها شرورا أولى من أن يسمى ديكا وكذلك ورد قوله

لا ومكان الصليب فى النحر منك • ومجرى الزنار فى الخصر

قوله رويدك فى الأصل ...

والخال في الخد اذ أشبهه * وردة مسك على ثرى تبر
وحاجب مذ خطه قلم الحسن بحبر البهاء لا الحبر
والغوان بفيك منتظم * على شبيه من رائق الحر
فالبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة والمستعار له هو الثغر والريق (ومما ورد لأبي تمام) في هذا المعنى قوله
لما غدا مظلم الاحشاء من أشر * أسكنت جانحتيه كوكبا يقد
فالكوكب استعارة للرمح (وكذلك ورد قوله) في الاعتذار
أسرى طريدا للحياء من التي * زعموا وليس لرهبة بطريد
وغدا تسبين ما براءة ساحتي * لو قد نفضت تهائمي ونجودي
والتهائم والنجود هما استعارة عما استعاره من باطن أمره وظاهره وكذلك ورد قوله كم أحرزت قضب الهندي مصلتة * تهتز من قضب تهتز في كثب
فالقضب والكثب استعارة للقدود والارداف وكذلك ورد في هذه القصيدة أيضا عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما فتحت مدينة عمورية فقال
ان يعد من حرها عدو الظليم فقد * أوسعت جاحمها من كثرة الحطب
فالحطب استعارة للقتلى وقبل هذا البيت ما يدل عليه لانه قال
أحذى قرابينه صرف الردى ومضى * يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكلا بيفاع الارض يشرفها * من خفة الخوف لا من خفة الطرب
ان يعد من حرها عدو الظليم البيت وأحسن من هذا كله قوله
تطل الطلول الدمع في كل منزل * وتمثل بالصبر الديار المواثل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها * ولا مر في اغفالها وهو غافل
بعفين من زاد العفاة اذا انتحى * على الحي صرف الازمة المتماحل
فقوله زاد العفاة استعارة طوى فيها ذكر المستعار له وهو أهل الديار كأنه قال يعفين من قوم هم زاد العفاة (وله في الغزل) من الاستعارة ما يبلغ به غاية اللطافة والرقة وذلك في قصيدته التي مطلعها * ان عهدا لو تعلمان ذميما فقال
قد مررنا بالدار وهي خلاء * فبكينا طلولها والرسوما
وسألنا ربوعها فانصرفنا * بسقام وما سألنا حكيما
كنت أرعى النجوم حتى اذا ما * فارقوني أمسيت أرعى النجوما

والبيت

والبيت الثالث هو المحصوص بالاستعارة وعلى هذا المنهاج ورد قول البحتري

وأغر في الزمن البهيم محجل * قد رحت منه على أغر محجل

والاغر المحجل الاول هو الممدوح والاغر المحجل الثاني هو الفرس الذي أعطاه اياه (وكذلك) ورد قوله

وصاعقة في كفه تنكفي بها * على أرؤس الاعداء خمس سحائب

وهذا من الخط العالي الذي شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر الى استعارته والمراد بالسحائب الخمس الاصابع (وكذلك) ورد في أبيات الحماسة

دلاطود المكفر دكا * صاعق من وقع سيفك

أرسلته خمس صب * نشأت من بحر كفك

(وكذلك) ورد قوله في أبيات يصف فيها السيف

حملت حمائله القديمة بقلة * من عهد عاد غضة لم تذبل

وهذا من المحسن على ماتم دلنفسه كأنه قال حملت حمائله سيفا أخضر الحديد كالبقلة (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبي الطيب المتنبي

في الخد ان عزم الخليط رحيلا * مطر تزيد به الخدود محولا

وكذلك ورد قوله يتزيد به في الماشة ضيغم وأحسن من هذا قوله في قصيدته التي مطلعها * عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم

وأصبحت بقرى هنزيط جائلة * ترعى الظبي في خصيب نبته اللمم

فما تركن بها خلدا له بصر * تحت التراب ولا بازاله قدم

ولا هزبرا له من درعه لبد * ولا مهاة لها من شبهها حشم

وهذا من المليح النادر فالخلد استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفا والباز استعارة لمن طار هاربا والهزبر والمهاة استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا (ومن هذا الباب قوله)

كل جريح ترجى سلامته * الا جريحا دهته عيناها

تبل خدي كلما ابتسمت * من مطر برقه ثناياها

والبيت الثاني من الابيات الحسان التي تتواصف وقد حسن الاستعارة التي فيه أنه جاء ذكر المطر مع البرق (وبلغني عن أبي الفتح بن جني) رحمه الله أنه شرح ذلك في كتابه الموسوم بالفسر الذي ألفه في شرح شعر أبي الطيب فقال انها كانت

رد على ابن سنان وغيره في خلطهم الاستعارة بالتشبيه المضمر الاداة

تبرق في وجهه فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج البرق من فيه أو يقع على وجهه فشبهه بالمطر وما كنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره واذا كان هذا قول امام من أئمة العربية تشد اليه الرحال فما يقال في غيره لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب (وكذلك) ورد قول الشريف الرضي

اذا أنت أفنيت العرانين والذرى ⁂ رمتك الليالي من يد الخامل الغمر

وجبك انقيت السهم من حيث يتقى ⁂ فمن ليدترميك من حيث لاتدري

فالعرانين والذرى هما عظماء الناس وأشرافهم كأنه قال اذا أفنيت عظماء الناس رميت من يد الخامل (واذ قد بينت) أن الاستعارة لاتكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له فانه لا تجيء الا ملائمة مناسبة ولا يوجد فيها مباينة ولا تباعد لانها لاتذكر مطوية الا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها ولم يبن المراد منها (ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي) رحمه الله تعالى قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الاداة ولم يفرق بينهما وتأسى في ذلك بغيره من علماء البيان كابي هلال العسكري والغانمي وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي على أن أبا القاسم بن بشر الآمدي كان أثبت القوم قدما في فن الفصاحة والبلاغة وكتابه المسمى بالموازنة بين شعر الطائيين يشهد له بذلك وما أعلم كيف خفي عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الاداة (ومما أورده ابن سنان) في كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس في صفة الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه ⁂ وأردف أعجازا وناء بكلكل

وهذا البيت من التشبيه المضمر الاداة لان المستعار له مذكور وهو الليل وعلى الخطا في خلطه بالاستعارة فان ابن سنان أخطأ في الرد على الآمدي ولم يوفق للصواب وأنا أتكلم على ما ذكره ولا أضايقه في الاستعارة والتشبيه بل أنزل معه على ما رآه من أنه استعارة ثم أبين فساد ما ذهب اليه وذلك أن الآمدي قال في كتاب الموازنة ان امرأ القيس وصف أحوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره وترادف أعجازه فلما جعل له وسطا ممتدا وصدرا ثقيلا وأعجازا رادفة لوسطه استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده

واسم الكلكل وجعله نائباً للنافلة واسم العجز من أجل نهوضه فقال ابن سنان الخفاجي معترضاً عليه ان هذا الذي ذكره الآمدي ليس بمرضي غاية الرضا وان بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة الجيدة ولا الرديئة بل هو وسط فان الآمدي قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطاً ممتداً استعار له اسم الصلب وجعل متمطياً من أجل امتداده وحيث جعل له آخراً وأولاً استعار له عجزاً وكلكلاً وهذا كله انما يحسن بعضه مع بعض فذكر الصلب انما يحسن من أجل العجز والوسط والتمطي من أجل الصلب والكلكل لمجموع ذلك وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى هذا حكاية كلامه في الاعتراض على الآمدي (وفيه نظر من وجهين الأول) أنه قال هذا بيت من الاستعارة الوسطى التي ليست بجيدة ولا رديئة ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى وعنده أن الاستعارة المبنية على الاستعارة من أبعد الاستعارات وذلك أنه قسم الاستعارة الى قسمين قريب مختار وبعيد مطرح فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح والبعيد المطرح اما أن يكون لبعده عما استعير له في الأصل أو لأنه استعارة مبنية على استعارة أخرى فيضعف لذلك هذا ما ذكره ابن سنان الخفاجي في تقسيم الاستعارة واذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدة مطرحة فكيف جعلها وسطاً هذا تناقض في القول (الوجه الثاني) أنه لم يأخذ على الآمدي في موضع الأخذ لأنه لم يختر الا ما حسن اختياره وذلك أن حد الاستعارة على ما رآه الآمدي وابن سنان هو نقل المعنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما وان كان المذهب الصحيح في حد الاستعارة غير ذلك على ما تقدم الكلام عليه ولكني في هذا الموضع أنزل معهما على ما رأياه حتى يتوجه الكلام على الحكم بينهما في بيت امرئ القيس واذا حددنا الاستعارة بهذا الحد فبه يفرق على رأي ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة فاذا وجدنا الاستعارة في كلام ثم عرضناها على هذا الحد فان وجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول اليه حكمنا له بالجودة وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة وبيت امرئ القيس من الاستعارات المرضية لانه لولم يكن لليل صدر أعني أولا ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة ولما كان الامر كذلك استعار

لوسطه صلبا وجعله متمطيا واستعار لصدره المثاقل أعني أوله كلكلا وجعله نائبا
واستعار لآخره عجزا وجعله رادفا لوسطه وكل ذلك من الاستعارات المناسبة
وأما قول ابن سنان الخفاجي ان الاستعارة المبنية على استعارة أخرى بعيدة
مطرحة فانّ في هذا القول نظرا وذلك أنه قد ثبت لنا أصل نقيس عليه في الفرق
بين الاستعارة المرضية والمطرحة كما أريناك ولا يمنع ذلك من أن تجيء استعارة
مبنية على استعارة أخرى وتوجد فيها المناسبة المطلوبة في الاستعارة
المرضية فانه قد ورد في القرآن الكريم ما هو من هذا الجنس وهو قوله تعالى
وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف فهذه ثلاث استعارات
ينبني بعضها على بعض فالأولى استعارة القرية للأهل والثانية استعارة الذوق
للباس والثالثة استعارة اللباس للجوع والخوف وهذه الاستعارات الثلاث
من التناسب على ما لا خفاء به فكيف يذم ابن سنان الخفاجي الاستعارة المبنية
على استعارة أخرى وما أقول ان ذلك شذ عنه الا لانه لم ينظر الى الاصل
المقيس عليه وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول اليه بل نظر الى التقسيم
الذي هو قسمه في القرب أو البعد ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى
تكون بعيدة فحكم عليها بالاطراح واذا كان الاصل انما هو التناسب فلا فرق
بين أن يوجد في استعارة واحدة أو في استعارة مبنية على استعارة ولهذا أشباه
ونظائر في غير الاستعارة ألا ترى أن المنطقي يقول في المقدمة والنتيجة كل
انسان حيوان وكل حيوان نام فكل انسان نام وكذلك يقول المهندس
في بعض الاشكال الهندسية اذا كان خط اب مثل خط ح وخط ح مثل خط جد
فخط اب مثل خط جد وهكذا أقول أنا في الاستعارة اذا كانت الاستعارة
الأولى مناسبة ثم بني عليها استعارة ثانية وكانت أيضا مناسبة فالجميع متناسب
وهذا أمر برهاني لا يتصور انكاره وهذا الكلام الذي أوردته ههنا هو اعتراض
على ما ذكره ابن سنان الخفاجي في الاستعارة فلا تظن أني موافقه في الاصل وانما
وافقته قصد التبيين وجه الخطا في كلامه وكيف يسوغ لي موافقته وقد ثبت
عندي بالدليل أن الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له وفيما قدمته
من الكلام كفاية (النوع الثاني في التشبيه) وجدت علماء البيان قد فرقوا

بين التشبيه والتمثيل وجعلوا لهذا بابا مفردا ولهذا بابا مفردا وهما شيء واحد
لا فرق بينهما في أصل الوضع يقال شبهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال مثلته به
وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه وكنت قدمت
القول في باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه وبينها ولا حاجة الى اعادته ههنا
مرة ثانية (والتشبيه ينقسم قسمين) مظهرا ومضمرا وفي المضمر اشكال في تقدير
أداة التشبيه فيه في بعض المواضع (وهو ينقسم أقساما خمسة فالاول) يقع
موقع المبتدا والخبر مفردين (والثاني) يقع موقع المبتدا المفرد وخبره جملة
مركبة من مضاف ومضاف اليه (والثالث) يقع موقع المبتدا والخبر جملتين
(والرابع) يرد على وجه الفعل والفاعل (والخامس) يرد على وجه المثل المضروب
وهذان القسمان الاخيران هما أشكل الاقسام الخمسة في تقدير أداة التشبيه
(أما الاول) فكقولنا زيد أسد فهذا مبتدا وخبره واذا قدرت أداة التشبيه فيه
كان ذلك ببديهة النظر على الفور فقيل زيد كالاسد (وأما القسم الثاني والثالث)
فانهما متوسطان في تقدير أداة التشبيه فيهما فالثاني كقول النبي صلى الله عليه
وسلم الكمأة جدري الارض وهذا يتنوع نوعين فاذا كان المضاف اليه معرفة
كهذا الخبر النبوي لا يحتاج في تقدير أداة التشبيه الى تقديم المضاف اليه بل ان
شئنا قدمناه وان شئنا أخرناه فقلنا الكمأة للارض كالجدري أو الكمأة
كالجدري للارض واذا كان المضاف اليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداة
التشبيه فمن ذلك قول البحتري

غمام سماح لا يغب له حيا * ومسعر حرب لا يضيع له وتر

فاذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا سماح كالغمام ولا يستقيم التقدير الا هكذا والمبتدأ
في هذا البيت محذوف وهو الاشارة الى الممدوح كأنه قال هو غمام سماح
(ومن هذا النوع) ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن
كقول أبي تمام أي مرعى عين ووادي نسيب * لحبته الايام في ملحوب
ومراد أبي تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسنا ثم زال عنه حسنه فقال
بأن العين كانت تلتذ بالنظر اليه كالتذاذ السائمة بالمرعى فانه كان يشبب به
في الاشعار لحسنه وطيبه واذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا كأنه كان للعين مرعى
وللنسيب منزلا ومألفا واذا جاء شيء من الابيات الشعرية على هذا الاسلوب

أو ما يجري مجراه فانه يحتاج الى عارف بوضع أداة التشبيه فيه (وأما الثالث) فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم كأنه قال كلام الالسنة كحصائد المناجل وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكورا نفسه بل تذكر صفته ألا ترى أن المنجل لم يذكرههنا وانما ذكرت صفته وهي الحصد وكل ما يجيء من هذا القسم فانه لا يرد الا كذلك (وأما القسم الرابع والخامس) اللذان هما أشكل الاقسام المذكورة في تقدير أداة التشبيه فيهما فانهما لا يتفطن لهما أنهما تشبيه (فمما جاء من القسم الرابع) قوله تعالى والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم وتقدير أداة التشبيه في هذا الموضع أن يقال هم في ايمانهم كالمتبوئي دارا أي أنهم قد اتخذوا الايمان مسكنا لتمكنهم منه كما يتمكن بذلك تمكنهم منه (وعلى هذا) ورد قول أبي تمام

نطقت مقلة الفتى الملهوف ٭ فتشكت بفيض دمع ذروف

واذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه ههنا قلنا دمع العين كنطق اللسان أو قلنا العين الباكية كأنها تنطق بما في الضمير (وأما ما جاء من القسم الخامس) فكقول الفرزدق يهجو جريرا

ما ضر تغلب وائل أهجوتها ٭ أم بلت حيث تناطح البحران

فشبه هجاءه جريرا تغلب وائل ببوله في مجمع البحرين فكما أن البول في مجمع البحرين لا يؤثر شيأ فكذلك هجاؤه لهؤلاء القوم لا يؤثر شيأ وهذا البيت من الابيات التي أنزله الناس بالحسن وكذلك ورد قوله أيضا

قوارص تأتيني وتحتقرونها ٭ وقد يملأ القطر الاناء فيفعم

فانه شبه القوارص التي تأتيه محتقرة بالقطر الذي يملأ الاناء على صغر مقداره يشير بذلك الى أن الكثرة تجعل الصغير من الامر كبيرا وهذا الموضع يشكل على كثير من علماء البيان ويغلطونه بالاستعارة كقول البحتري في التعزية قوله

تعزفان السيف يمضي وان وهت ٭ حمائله عنه وخلاه قائمه

وهذا ليس من التشبيه وانما هو استعارة لان المستعار له مطوي الذكر وهو المعزى كأنه قال تعز فانك كالسيف الذي يمضي وان وهت حمائله وخلاه قائمه (فان قيل) انك قدمت القول في باب الاستعارة بأن التشبيه المضمر الاداة يحسن تقدير أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيها وجعلت ذلك هو الفرق

بين التشبيه المضمر الاداة وبين الاستعارة وقررت ذلك تقريرا طويلا عريضا ثم نزالك قد نقضته ههنا بقولك ان من التشبيه المضمر الاداة ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه وانه يحتاج في تقديرها الى نظر كهذين البيتين المذكورين للفرزدق وما يجرى مجراهما (فالجواب) عن ذلك أنى أقول هذا الذى ذكرته لا ينقض على شيأ مما قدمت القول فيه في باب الاستعارة لانى قلت ان التشبيه المضمر الاداة يحسن تقدير الاداة فيه أى لا يتغير بتقديرها فيه عن صفته التى اتصف بها من فصاحة وبلاغة وليس كذلك الاستعارة فانها اذا قدرت أداة التشبيه فيها تغيرت عن صفتها التى اتصفت بها من فصاحة وبلاغة وأما الذى ورد ههنا من بيتى الفرزدق وما يجرى مجراهما من التشبيه المضمر الاداة فان أداة التشبيه لا تتقدر فيه وهو على حالته من النظم حتى تتبين هل تغيرت صفته التى اتصف بها من فصاحة وبلاغة أم لا وانما تتقدر أداة التشبيه فيه على وجه آخر وهذا لا ينقض ما أشرت اليه في باب الاستعارة (واذا ثبتت هذه الاقسام الاربعة فأقول) ان التشبيه المضمر أبلغ من التشبيه المظهر وأوجز أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبها به من غير واسطة أداة فيكون هو اياه فانك اذا قلت زيد أسد كنت قد جعلته أسدا من غير اظهار أداة التشبيه وأما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه وعلى هذا فان القسمين من المظهر والمضمر كليهما في فضيلة البيان سواء فان الغرض المقصود من قولنا زيد أسد أن يتبين حال زيد في اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الاقدام وغير ذلك مما يجرى مجراه الا أنا لم نجد شيأ ندل به عليه سوى أن جعلناه شبيها بالاسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا زيد شهم شجاع قوى البطش جرىء الجنان وأشباه ذلك لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به أعنى الاسد وأما زيد الذى هو المشبه فليس معروفا بها وان كانت موجودة فيه وكلا هذين القسمين أيضا يختص بفضيلة الايجاز وان كان المضمر أوجز من المظهر لان قولنا زيد أسد وكالاسد يسد مسد قولنا زيد من حاله كيت وكيت وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا مما يطول ذكره فالتشبيه اذا يجمع صفات ثلاثة هى المبالغة والبيان والايجاز كما أريتك الا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب وهو مقتل من مقاتل البلاغة وسبب ذلك أن حمل الشئ على الشئ بالمماثلة اما صورة واما معنى يعز

صوابه وتعسر الاجادة فيه وقلما أكثر منه أحد الا عثر كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق وابن وكيع من أدباء مصر فانهما أكثرا من ذلك لا سيما في وصف الرياض والاشجار والازهار والثمار لاجرم أنهما أتيا بالغث البارد الذى لا يثبت على محك الصواب فعليك أن تتوقى ما أشرت اليه (وأما فائدة التشبيه من الكلام) فهى أنك اذا مثلت الشئ بالشئ فانما تقصد به اثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد فى طرفى الترغيب فيه أو التنفير عنه ألا ترى أنك اذا شبهت صورة بصورة هى أحسن منها كان ذلك مثبتا فى النفس خيالا حسنا يدعو الى الترغيب فيها وكذلك اذا شبهتها بصورة شئ أقبح منها كان ذلك مثبتا فى النفس خيالا قبيحا يدعو الى التنفير عنها وهذا لا نزاع فيه ولنضرب له مثالا يوضحه فنقول قد ورد عن ابن الرومى فى مدح العسل وذمه بيت من الشعر وهو

تقول هذا مجاج النحل تمدحه * وان تعب قلت ذا قئ الزنابير

ألا ترى كيف مدح وذم الشئ الواحد بتصريف التشبيه المجازى المضمر الاداة الذى خيل به الى السامع خيالا يحسن الشئ عنده تارة ويقبحه أخرى ولولا التوصل بطريق التشبيه على هذا الوجه لما أمكنه ذلك وهذا المثال كاف فيما أردناه (واعلم أن محاسن التشبيه) أن يجئ مصدريا كقولنا اقدم اقدام الاسد وفاض فيض البحر وهو أحسن ما استعمل فى باب التشبيه كقول أبى نواس فى وصف الخمر

واذا ما مزجوها وثبت وثب الجراد * واذا ما شربوها * أخذت أخذ الرقاد

وقيل ان من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشئ بما هو أكبر منه وأعظم ومن ههنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر فى ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له فقال هامة عليها من الغمامة عمامة وأنملة خضبها الاصيل فكان الهلال منها قلامة وهذا الكاتب حفظ شيأ وغابت عنه أشياء فانه أخطأ فى قوله انملة وأى مقدار للانملة بالنسبة الى تشبيه حصن على رأس جبل وأصاب فى المناسبة بين ذكر الانملة والقلامة وتشبيهها بالهلال (فان قيل) ان هذا الكاتب تأسى فيما ذكره بكلام الله تعالى حيث قال الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح فمثل نوره بطاقة فيها ذبالة وقال الله تعالى والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فمثل الهلال بأصل عذق النخلة (فالجواب) عن ذلك أنى

أقول أما تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح فان هذا مثال ضربه للنبي صلى الله عليه وسلم ويدل عليه أنه قال توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية واذا نظرت الى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفا عجيبا وذاك أن قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقي فيه من النور وما هو عليه من الصفة الشفافة كالزجاجة التي كأنها كوكب لصفائها واضاءتها وأما الشجرة المباركة التي لا شرقية ولا غربية فانها عبارة عن ذات النبي صلى الله عليه وسلم لانه من أرض الحجاز التي لا تميل الى الشرق ولا الى الغرب وأما زيت هذه الزجاجة فانه مضيء من غير أن تمسه نار والمراد بذلك أن فطرته فطرة صافية من الاكدار منيرة من قبل مصافحة الانوار فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه الآية (وأما الآية الاخرى) فانه شبه الهلال فيها بالعرجون القديم وذلك في هيئة نحوله واستدارته لا في مقداره فان مقدار الهلال عظيم ولا نسبة للعرجون اليه لكنه في مرأى النظر كالعرجون هيئة لا مقدارا وأما هذا الكاتب فان تشبيهه ليس على هذا النسق لانه شبه صورة الحصن بأنملة في المقدار لا في الهيئة والشكل وهذا غير حسن ولا مناسب وانما القاه فيه أنه قصد الهلال والقلامة مع ذكر الانملة فأخطأ من جهة وأصاب من جهة لكن خطؤه غطى على صوابه (والقول السديد) في بلاغة التشبيه هو ما أذكره وهو أن اطلاق من أطلق قوله في ان من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الاصغر بالاكبر غير سديد فان هذا قول غير حاصر للغرض المقصود لان التشبيه يأتي تارة في معرض المدح وتارة في معرض الذم وتارة في غير معرض مدح ولا ذم وانما يأتي قصد اللابانة والايضاح ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب اليه من ذهب بل القول الجامع في ذلك أن يقال ان التشبيه لا يعمد اليه الا لضرب من المبالغة فاما أن يكون مدحا أو ذما أو بيانا وايضاحا ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة واذا كان الامر كذلك فلابد فيه من تقدير لفظة أفعل فان لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ ألا ترى أنا نقول في التشبيه المضمر الاداة زيد أسد فقد شبهنا زيدا بالاسد الذي هو أشجع منه فان لم يكن المشبه به في هذا المقام أشجع من زيد الذي هو المشبه والا كان التشبيه ناقصا اذ لا مبالغة فيه (وأما التشبيه المظهر الاداة) فكقوله تعالى وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام وهذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه لان خلق السفن البحرية

كبير وخلق الجبال أكبر منه وكذلك اذا شبه شئ حسن بشئ حسن فانه اذا لم يشبه بما هو أحسن منه فليس بوارد على طريق البلاغة وان شبه قبيح بقبيح وهكذا ينبغي أن يكون المشبه به أقبح وان قصد البيان والايضاح فينبغي أن يكون المشبه به أبين وأوضح فتقدير لفظة أفعل لابد منه فيما يقصد به بلاغة التشبيه والا كان التشبيه ناقصا فاعلم ذلك وقس عليه (واعلم) انه لايخلو تشبيه الشيئين أحدهما بالآخر من أربعة أقسام اما تشبيه معنى بمعنى كالذي تقدم ذكره من قولنا زيد كالاسد واما تشبيه صورة بصورة كقوله تعالى وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون واما تشبيه معنى بصورة كقوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة وهذا القسم أبلغ الاقسام الاربعة لتمثيله المعاني الموهومة بالصور المشاهدة واما تشبيه صورة بمعنى كقول أبي تمام

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا ❊ فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال وبالعدا وذلك صورة مرئية بفتك الصبابة وهو فتك معنوى وهذا القسم ألطف الاقسام الاربعة لانه نقل صورة الى غير صورة وكل واحد من هذه الاقسام الاربعة المشار اليها لايخلو التشبيه فيه من أربعة أقسام أيضا اما تشبيه مفرد بمفرد واما تشبيه مركب بمركب واما تشبيه مفرد بمركب واما تشبيه مركب بمفرد والمراد بقولنا مفرد ومركب أن المفرد يكون تشبيه شئ واحد بشئ واحد والمركب تشبيه شيئين اثنين بشيئين اثنين وكذلك المفرد بالمركب والمركب بالمفرد فان أحدهما يكون تشبيه شئ واحد بشيئين والآخر يكون تشبيه شيئين بشئ واحد ولست أعني بقولي تشبيه شيئين بشيئين أنه لا يكون الا كذلك بل أردت تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما كقول بعضهم في الخمر

وكأنها وكأن حامل كأسها ❊ اذ قام يجلوها على الندماء

شمس الضحى رقصت فنقط وجهها ❊ بدر الدجى بكواكب الجوزاء

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فانه شبه الساقي بالبدر وشبه الخمر بالشمس وشبه الحبب الذي فوقها بالكواكب (واذ ثبت) أن التشبيه ينقسم الى تلك الاقسام الاربعة فاني أقول ان التشبيه المضمر الاداة قد قدمت القول في أنه ينقسم الى خمسة أقسام فالقسم الاول لايرد الا في تشبيه مفرد بمفرد والقسم الثاني لايرد الا في تشبيه مفرد بمركب والقسم الثالث لايرد الا في تشبيه مركب بمركب

والقسم الرابع والخامس لا يردان الا في تشبيه مركب بمركب ألا ترى أنا اذا قلنا في القسم الاول زيد أسد كان ذلك تشبيه مفرد بمفرد واذا قلنا في القسم الثاني ما مثلناه من الخبر النبوي وهو الكمأة جدري الارض كان ذلك تشبيه مفرد بمركب وكذلك بيت البحتري وبيت أبي تمام المشار اليهما فيما تقدم واذا قلنا في القسم الثالث ما أشرنا اليه من الخبر النبوي أيضا الذي هو وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد ألسنتهم كان ذلك تشبيه مركب بمركب واذا قلنا في القسم الرابع والخامس ما مثلنا به من بيتي الفرزدق والبحتري كان ذلك تشبيه مركب بمركب واذا كان الامر كذلك وجاء شئ من التشبيه المضمر الاداة وهو من القسم الاول فاعلم أنه تشبيه مفرد بمفرد واذا جاء الشئ من القسم الثاني فاعلم أنه تشبيه مفرد بمركب واذا جاء الشئ من القسم الثالث فاعلم أنه تشبيه مركب بمركب وكذلك اذا جاء الشئ من القسم الرابع والقسم الخامس فانهما من باب تشبيه المركب بالمركب ولنرجع الى ذكر ما أشرنا اليه أولا في تقسيم التشبيه الى الاربعة الاقسام الاخرى التي هي تشبيه مفرد بمفرد وتشبيه مركب بمركب وتشبيه مفرد بمركب وتشبيه مركب بمفرد (فالقسم الاول منها) كقوله تعالى في المضمر الاداة وجعلنا الليل لباسا فشبه الليل باللباس وذلك أنه يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هربا من عدو أو ثبا تا لعدو أو اخفاء ما لا يحب الاطلاع عليه من أمره وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها الا القرآن الكريم فان تشبيه الليل باللباس مما اختص به دون غيره من الكلام المنثور والمنظوم وكذلك قوله تعالى هن لباس لكم وأنتم لباس لهن تشبيه المرأة باللباس للرجل وتشبيه الرجل باللباس للمرأة (ومن محاسن التشبيهات) قوله تعالى نساؤكم حرث لكم وهذا يكاد يشتمل تناسبه عن درجة المجاز الى الحقيقة والحرث هو الارض التي تحرث للزرع وكذلك الرحم يزدرع فيه الولد ازدراعا كما يزدرع البذر في الارض (ومن هذا الاسلوب) قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فشبه تبرؤ الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ وذلك أنه لما كانت هوادي الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ وكان ذلك أولى من أن لو قيل يخرج لان السلخ أدل على الالتحام من الاخراج وهذا تشبيه في غاية المناسبة (وكذلك) ورد قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا فشبه انتشار

الشيب باشتعال النار ولما كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيأ فشيأ حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التي تشتعل في الجسم وتسري فيه حتى تحيله الى غير حاله الاولى وأحسن من هذا أن يقال انه شبه انتشار الشيب باشتعال النار في سرعة التهابه وتعذر تلافيه وفي عظم الالم في القلب به وأنه لم يبق بعده الا الخمود فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به وذلك في الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم (وقد ورد في الامثال) الليل جنة الهارب وهذا تشبيه حسن وكل ذلك من التشبيه المضمر الاداة وعما ورد منه شعرا قول أبي الطيب المتنبي

واذا اهتز للندى كان بحرا * واذا اهتز للوغى كان نصلا

واذا الارض أظلمت كان شمسا * واذا الارض أمحلت كان وبلا

فحرف التشبيه ههنا مضمر وتقديره كان كأنه بحر وكان كأنه نصل وكذلك يقال في البيت الثاني كان كأنه شمس وكان كأنه وبل وهذا تشبيه صورة بصورة وهو حسن في معناه وكذلك ورد قول أبي نواس وهو في تشبيه الحبب

فاذا ما اعترضته العين من حيث استدارا

خلته في جنبات الكأس واوات صغارا

وهذا تشبيه صورة بصورة أيضا وقد أبرز هذا المعنى في لباس آخر فقال

واذا علاها الماء ألبسها * حببا شبيه جلاجل الحجل

حتى اذا سكنت جوانحها * كتبت بمثل أكارع النمل

(ومن هذا) قول البحتري

تبسم وقطوب في ندى وروغى * كالرعد والبرق تحت العارض البرد

وهذا من أحسن التشبيه وأقربه الا أن فيه اخلالا من جهة الصنعة وهي ترتيب التفسير فان الاولى أن كان قدم تفسير التبسم على تفسير القطوب بأن كان قال كالبرق والرعد فانظر أيها المتمعن الى هذا الفن كيف ذهب على البحتري مثل هذا الموضع على قربه مع تقدمه في صناعة الشعر وليس في ذلك كبير أمر سوى ان كان قدم ما أخر لا غير وانما يعذر الشاعر في مثل هذا المقام اذا حكم عليه الوزن والقافية واضطر الى ترك ما يجب عليه وأما اذا كانت الحال كالتي ذكرها البحتري فحينئذ لا عذر له وسيأتي لذلك باب مفرد في موضعه من هذا الكتاب

ان شاء الله تعالى وهو باب ترتيب التفسير وكذلك ورد قول البحترى
في معترك ضنك تخال به القنا ٭ بين الضلوع اذا انحنين ضلوعا
(ومن تشبيه المفرد بالمفرد قول أبي الطيب المتنبي)
خرجن من النقع في عارض ٭ ومن عرق الركض في وابل
فلما تشفين لقين السياط ٭ بمثل صفا البلد الماحل
وقد حوى هذان البيتان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ
(وأما القسم الثاني) وهو تشبيه المركب بالمركب فمما جاء منه مضمر الاداة ما يروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه وهو
حديث طويل يشتمل على فضائل أعمال متعددة ولا حاجة الى ايراده ههنا على
نصه بل نذكر الغرض منه وهو أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك
عليك هذا وأشار الى لسانه فقال معاذ أونحن مؤاخذون بما نتكلم به فقال
ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد
ألسنتهم فقوله حصائد ألسنتهم من تشبيه المركب بالمركب فانه شبه الالسنة وما
تمضي فيه من الاحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الارض
وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع الا من النبي صلى الله عليه وسلم (ومما ورد منه
شعرا قول أبي تمام
معشر أصبحوا حصون المعالي ٭ ودروع الاحساب والاعراض
فقوله حصون المعالي من التشبيه المركب وذاك أنه شبههم في منعهم المعالي
أن ينالها أحد سواهم بالحصون في منعها من يهاودجنابه وكذلك قوله دروع
الاحساب (وأما المظهر الاداة) فمما جاء منه قوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا
كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى
اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا
ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس فشبهت حال الدنيا في سرعة
زوالها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه
حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الارض وذا التشبيه صورة بصورة وهو
من أبدع ما يجيء في بابه (ومن ذلك أيضا) قوله تعالى في وصف حال المنافقين
مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم

في ظلمات لا يبصرون تقديره ان مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله فاتقى ما يخاف وأمن فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره فبقي مظلما خائفا وكذلك المنافق اذا أظهر كلمة الايمان استنار بها واعتز بعزها وأمن على نفسه وماله وولده فاذا مات عاد الى الخوف وبقي في العذاب والنقمة (ومما ورد منه في الاخبار النبوية) قول النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما الايمان والقراءة بالاترجة وهي ذات وصفين هما الطعم والريح وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ وفي المنافق القارئ والمنافق غير القارئ (وقد جاء في شيء من ذلك) أوردته في فصل من كتاب أصف فيه البر والسير فقلت ولم أزل أصل الرسيل بالرسيل وأقف النجي بالاصيل والارض كالبحر في سعة صدره والمطايا كالجواري راكدة على ظهره فكان الركب منها كمكانهم من الاكوار ومسيرهم فيها على كرة لا تستقر بها حركة الادوار (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فكقول البحتري

خلق منهم تردد فيهم ❊ وليته عصابة عن عصابه
كالحسام الجراز يبقى على الدهر ويفنى في كل حين قرابه

وكذلك ورد قول ابن الرومي

ادرك ثقاتك انهم وقعوا ❊ في نرجس معه ابنة العنب
فهم بحال لو بصرت بها ❊ سبحت من عجب ومن عجب
ريحانهم ذهب على درر ❊ وشرابهم درر على ذهب

وهذا تشبيه صنيع الا أن تشبيه البحتري أصنع وذلك أن هذا التشبيه صدر عن صورة مشاهدة وذاك انما استنبط استنباطا من خاطره واذا شئت أن تفرق بين صناعة التشبيه فانظر الى ما أشرت اليه ههنا فان كان أحد التشبيهين عن صورة مشاهدة والآخر عن صورة غير مشاهدة فاعلم أن الذي هو عن صورة غير

مشاهدة أصنع ولعمري ان التشبيهين كليهما لابد فيهما من صورة تحكى لكن أحدهما شوهدت الصورة فيه فحكيت والآخر استنبطت له صورة لم تشاهد فى تلك الحال وانما الفكر استنبطها ألا ترى أن ابن الرومى نظر الى النرجس والى الحرف شبه وأما البحترى فانه مدح قوما بأن خلق السماح باق فيهم ينتقل عن الاول الى الآخر ثم استنبط لذلك تشبيها فأداه فكره الى السيف وقربه التى تفنى فى كل حين وهو باق لا يفنى بفنائها ومن أجل ذلك كان البحترى أصنع فى تشبيهه (وسأورد ههنا من كلامى ينتقيه منتقى ذلك) ما كتبته من جملة كتاب الى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدو الكافر على ثغر عكا فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة فقلت وأحاط بها العدو احاطة الشفاه بالثغور ونزل عليها نزول الظلام على النور وهذا من التشبيهات المناسبة ثم لما جئت الى ذكر قتال المسلمين اياه وازالته عن جانب الثغر قلت وقد اصطدم من الاسلام والكفر ابنا شمام والتقى من عجاجتهما ظلام وعند ذلك أخذ العدو فى التعبير الى جانب وكان كحاجب على عين فصار كعين فى حاجب واذ تزعزع البناء فقد هوى واذا انقبض من طرف البساط فقد انطوى وهذا التشبيه فى مناسبته كالاول بل أحسن (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت وما شبهت كتابه فى وروده وانقباضه الا بنظر الحبيب فى اقباله واعراضه وكلا الامرين كالسهم فى ألم وقعه وألم نزعه والمشوق من استوت صبابته فى حالتى وصله وقطعه وما أزال على وجل من ارسال كتبه واحجامها واشتباه لمها بالمامها (ومما جاء من هذا القسم) فى الشعر قول بكر بن النطاح

ترامى ينظرون الى المعالى * كما نظرت الى الشيب الملاح
يحدون العيون الى شذرا * كأنى فى عيونهم السماح

وهذا بديع فى حسنه بليغ فى تشبيهه (وعلى هذا النهج) ورد قول أبى تمام
تطلبا الشجاعة باطلبا مناصيا * كالحسن شيب لمغرم بدلال

وهذا من غريب ما يأتى فى هذا الباب وقد تغالت شيعة أبى تمام فى وصف هذا البيت وهو لعمرى كذلك ومن هذا القسم أيضا قوله

كم نعمة لله كانت عنده * فكأنها فى غربة واسار
كسيت سبائب لومه فتضاءلت * كتضاؤل الحسناء فى الاطمار

(وكذلك قوله)

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه * عنى وعاوده ظنى فلم يخب

كالغيث ان جئته وافاك ريقه * وان ترحلت عنه لج فى الطلب

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول على بن جبلة

اذا ما تردى لامة الحرب أرعدت * حشا الارض واستدمى الرماح السوارع

وأسفر تحت النقع حتى كانه * صباح مشى فى ظلمة الليل طالع

وقد أحسن على بن جبلة فى تشبيه هذا كل الاحسان وكذلك الحسن قوله أيضا فى تشبيه الحبب فوق الخمر

ترى فوقها نمشا للمزاج * تباذير لا يتصلن اتصالا

كوجه العروس اذا خططت * على كل ناحية منه خالا

(ومن هذا القسم) قول مسلم بن الوليد

تاتى المنية فى أمثال عدتها * كالسيل يقذف جلمودا بجلمود

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول العباس بن الاحنف

لاجزى الله دمع عينى خيرا * وجزى الله كل خير لسانى

نم دمعى فليس يكتم شيأ * ووجدت اللسان ذا كتمان

كنت مثل الكتاب أخفاه طى * فاستدلوا عليه بالعنوان

وهذا من اللطيف البديع (ويروى أن أبا نواس) لما دخل مصر مادحا الخصيب جلس يوما فى رهط من الادباء وتذاكروا منازه بغداد فأنشد مرتجلا

ذكر الكرخ نازح الاوطان * فصبا صبوة ولات أوان

ثم أتم ذلك قصيدا مدح به الخصيب فلما عاد الى بغداد دخل عليه العباس بن الاحنف وقال أنشدنى شيأ من شعرك بمصر فأنشده ذكر الكرخ نازح الاوطان فلما استتم الابيات قال له لقد ظلمك من ناواك وتخلف عنك من جاراك وحرام على أحد يتفوه بقول الشعر بعدك فقال له أبو نواس وأنت أيضا يا أبا الفضل تقول هذا ألست القائل لاجزى الله دمع عينى خيرا وأنشد الابيات ثم قال ومن الذى يحسن أن يقول مثل هذا (ومن تشبيه المركب بالمركب) قول البحترى

يدنيه ودا البخل عن أطرافها * كالبحر يمنع مده عن مائه

وهذا من محاسن التشبيهات وكذلك ورد قوله

قوله ولم تصدف الخ فى الديوان فلم تصدف مودته وان فحمات بدل ان ترحلت

وتراه فى ظلم الوغى فتخاله • قمرا يكر على الرجال بكوكب

وفى هذا البيت تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فانه شبه العجاج بالظلمة والممدوح بالقمر والسنان بالكوكب وهذا من الحسن النادر وكذلك ورد قوله

يمشون فى زغف كأن متونها • فى كل معركة متون نهاء

بيض تسيل على الكماة فضولها • سيل السراب بقفرة بيداء

فاذا الاسنة خالطتها خلتها • فيها خيال كواكب فى ماء

فالبيتان الاخيران هما اللذان تضمنا تشبيه المركب بالمركب وانما جئنا بالبيت الاول سياقة الى معناهما وهو من التشبيه الذى أحسن فيه البحترى وأغرب (ومن هذا الباب) ما ورد لبعض الشعراء فى وصف الخمر فقال

كانت سراج أناس يهتدون بها • فى سالف الدهر قبل النار والنور

تهتز فى الكأس من ضعف ومن هرم • كأنها قبس فى كف مقرور

وقد يشذ للناظم أو الناثر شئ من كلامه يبلغ الغاية التى لا أمد فوقها وهذان البيتان من هذا القبيل (ومن أغرب ما سمعته فى هذا الباب) قول الحسين بن مطير فى معن بن زائدة

فتى عيش فى معروفه بعد موته • كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(القسم الثالث) فى تشبيه المفرد بالمركب (فما ورد) منه قوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية وكذلك قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف (ومن ذلك) ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن استنجادا فقلت وهو اذا استصرخ أصرخ بعزم كالشهاب فى رجمه وهم كالقوس المنلى بنزع سهمه ويرى أن صريخه لم يجب وأنه اذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب فهو مغرى بجواده وحسامه ويسمع العدو صرير رمحه قبل نغمة لجامه (وكذلك) أيضا ما كتبته فى كتاب الى بعض الاخوان أذم الفراق لفقات والفراق شئ لا كالاشياء وصاحبه ميت لا كالاموات وحى لا كالاحياء وما أراه الا كنار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة وما يجعل صاحبها فى ضحضاح منها الا تواتر الكتب التى تقيه بعض الوقاء وتقوم له وان لم يسق مقام الاسقاء

(وأما ما ورد منه فى الشعر) فكقول أبى نواس

اذا امتحن الدنا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

(وكذلك) قول أبى تمام يصف قيداله

خذها مثقفة القوافى ربها * لسوابغ النعماء غير كنود

كالدر والمرجان ألف نظمه * بالشذر فى عنق الفتاة الرود

وكذلك ورد قول البحترى وهو من جملة قصيدته المشهورة التى وصف فيها الفرس والسيف وأولها * أهلا بذلكم الخيال المقبل * فقال فيها من أبيات تضمنت وصف السيف بيتا أجاد فى تشبيهه

وكأنما سود النمال وحمرها * دبت بأيد فى قراه وأرجل

فشبه فرند السيف بدبيب النمل سودها وحمرها وذلك من التشبيه الحسن (وأما ما ورد منه مضمر الاداة) فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن العزل فقال هو الوأد الخفى وهذا تشبيه بليغ والوأد هو ما كانت العرب تفعله فى دفن البنات أحياء فجعل العزل فى الجماع كالوأد الا أنه خفى وذلك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هربا منهن وهكذا من يعزل فى الجماع فانما يفعل ذلك هربا من الولد (وكذلك) قال النبى صلى الله عليه وسلم هو الوأدة الصغرى وهذا من الحسن الى غاية تغض لها العيون طرفها ولا ينتهى الوصف اليها فيكون ترك وصفها كوصفها (ومما جاءنى من ذلك) فصل من جملة كتاب ضمنته وصف القلم فقلت جدع أنفه فصار فى الكيد قصيرا وأرهف صدره فصار فى المضاء عضبا شهيرا وقص لباس السواد وهو شعار الخطباء فنطق بفصل الخطاب ونكس رأسه وهى صورة الإذلال فاختال فى شيمة من الاعجاب وأوحى اليه بنجوى الخواطر وهو الاصم فأفضى عاصمه الى الكتاب وهذه الاوصاف غريبة جدا ومن أغربها ذكر قصير عند جدع الانف (وأما القسم الرابع) وهو تشبيه المركب بالمفرد فانه قليل الاستعمال بالنسبة الى الاقسام الثلاثة وليس ذلك الا لعدم النظير بين المشبه والمشبه به، وعلى كثرة ما حفظته من الاشعار لم أجد ما أمثل به هذا القسم الا مثالا واحدا وهو قول أبى تمام فى وصف الربيع

ياصاحبى تقصيا نظريكما * تريا وجوه الارض كيف تصور

تريانها راشمسها قد شابه • زهر الربا فكأنما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر وهو تشبيه حسن واقع في موقعه مع ما فيه من لطف الصنعة (وربما اعترض في هذا الموضع معترض) وقال انك أوردت هذا القسم من التشبيه وذكرت أنه قليل وليس كذلك فان تشبيه شيئين بشيء واحد كثير كقول أبي الطيب المتنبي

تشرق أعراضهم وأوجههم • كأنها في نفوسهم شيم

فشبه اشراق الاعراض والوجوه باشراق الشيم (الجواب عن ذلك) اني أقول هذا البيت المعترض به على ما ذكرته ليس كالذي ذكرته فاني أردت أن يشبه شيآن هما كشيء واحد في الاشتراك بشيء واحد ألا ترى أن نور الشمس مع بياض الزهر هما شيآن مشتركان قد شبها بضوء القمر وأما هذا البيت الذي لأبي الطيب المتنبي فانه تشبيه شيئين كل واحد منهما مفرد برأسه بشيء واحد لانه شبه اشراق الاعراض واشراق الوجوه باشراق الشيم وهذا غير ما أردته أنا لكن ينبغي أن تعلم أن تشبيه المركب بالمفرد ينقسم قسمين أحدهما تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد كالذي أوردته لأبي تمام وهو قليل الاستعمال والآخر تشبيه شيئين مفردين بشيء واحد كالذي ذكرته أنت لأبي الطيب المتنبي وهو كثير الاستعمال (واذ ذكرنا أقسام التشبيه) وبينا المحمود منها الذي ينبغي اقتفاء أثره واتباع مذهبه فلنتبعه بضده مما ينبغي اجتنابه والاضراب عنه على أنه قد قدمنا القول بأن حد التشبيه هو أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به فاذا لم يكن بهذه الصفة أو كان بين المشبه والمشبه به بعد فذلك الذي يطرح ولا يستعمل والذي يرد منه مضمر الاداة لا يكون الا في القسم الواحد من أقسام المجاز وهو التوسع وقد تقدمت القول في ذلك في أول باب الاستعارة وضربت له أمثلة منها قول أبي نواس

ما لرجل المال أمست • تشتكي منك الكلالا

فجعل للمال رجلا وذلك تشبيه بعيد ولا حاجة الى اعادة ذلك الكلام ههنا بجملته لكن قد أشرت اليه اشارة خفيفة (ومن أقبح ما عدته من ذلك) قول أبي تمام

وتقاسم الناس السخاء مجزأ • وذهبت أنت برأسه وسنامه
وتركت للناس الاهاب وما بقي • من فرثه وعروقه وعظامه

قوله وتقاسم في الاصول وتقسم

والقبح الفاحش في البيت الثاني وكل هذا التعسف في التشبيه البعيد دندنة حول معنى ليس بطائل فان غرضه أن يقول ذهب بالاعلى وترك للناس الادنى أي ذهبت بالجيد وتركت للناس الردي • وقد عيب عليه قوله

لا تسقني ماء الملام فانني * صب قد استعذبت ماء بكائي

وقيل انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد وما بهذا التشبيه عندي من بأس بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم وهو قريب من وجه بعيد من وجه أما سبب قربه فهو أن الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لامر جناه وذلك مختص بالسمع فنقله أبو تمام الى السقيا التي هي مختصة بالحلق كأنه قال لا تذقني الملام ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيها حسنا لكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيأ ولما كان السمع يتجرع الملام أولا أولا كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به وهو تشبيه معنى بصورة وأما سبب بعد هذا التشبيه فهو أن الماء مستلذ والملام مستكره فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه فهذا التشبيه ان بعد من وجه فقد قرب من وجه فيغفر هذا لهذا ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم (وقد روي) وهو رواية ضعيفة أن بعض أهل المجانة أرسل الى أبي تمام قارورة وقال ابعث لي في هذه شيأ من ماء الملام فأرسل اليه أبو تمام وقال اذا بعثت الي بريشة من جناح الذل بعثت اليك شيأ من ماء الملام وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين فانه ليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام فان الجناح للذل مناسب وذلك أن الطائر اذا وهن أو تعب بسط جناحه وخفضه وألقى نفسه على الارض وللانسان أيضا جناح فان يديه جناحاه واذا خضع واستكان طأطأ من رأسه وخفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل وصار تشبيها مناسبا وأما الماء للملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه (وأما التشبيه المضمر الاداة) من هذا الباب فقد أوردت له أمثلة يستدل بها على أشباهه وأمثاله فان لذكر المثال فائدة لا تكون لذكر الحد وحده (فمن ذلك) قول بعضهم

علا حاجبيك الشيب حتى كأنه * ظباء جرت منها سنيح وبارح

(وكذلك) قول الآخر يصف السهام

كساها رطيب الريش فاعتدلت لها * قداح كأعناق الظباء الفوارق

فانه شبه السهام بأعناق القطا وذلك من أبعد التشبيهات وعلى نحو منه قول الفرزدق

يمشون في حلق الحديد كما مشت • جرب الجمال بها الكحيل المشعل

فشبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب وهذا من التشبيه البعيد لانه ان أراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون لان لون الحديد أبيض ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ومع ذلك فيكون هذا التشبيه بعيدا فانه تشبيه ضعيف (ومن التشبيهات الباردة) قول أبي الطيب المتنبي

وجرى على الورق النجيع القانى • فكأنه النارنج في الاغصان

وهذا تشبيه ينكره أهل الصنعة واذا قسمت التشبيهات بعد البعد والبرد مازاد طرق ذلك التقسيم وأبشع من هذا قول أبي نواس في الخمر

كأن بواقيها بكأس اذا جرت • ... دررا كدرا تدير عيونها

(والعجب) أنه يقول مثل هذا الغث الذي لا ملاءمة بينه وبين ما شبه به ويقرنه بالبديع البارد الذي أحسن فيه وأبدع وهو

كأنما الول بين أكناف روضة • اذا ما سلبناها مع الليل طيبها

فانظر كيف قرن بين ورده ومعدانه لا بل بين بعره ومرجانه وقد أكثر في تشبيه الخمر فأحسن في موضع وأساء في موضع ومن اساءته قوله أيضا في أبيات لامية

واذا ما الماء واقعها • أظهرت شكلا من الغزل

لؤلؤات ينحدرن بها • كانحدار الذر من جبل

فشبه الحبب في انحداره بنمل صغار ينحدر من جبل وهذا من البعد على غاية لا يحتاج الى بيان وايضاح (واعلم) أن من التشبيه ضربا يسمى الطرد والعكس وهو أن يجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الاصول ولا يجد شيء من ذلك الا والغرض به المبالغة (فمما جاء من ذلك) قول ذي الرمة

ورمل كارداف العذارى قطعته • اذا ألبسته المظلمات الحنادس

ألا ترى الى ذي الرمة كيف جعل الاصل فرعا والفرع أصلا وذلك أن العادة والعرف في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الانقاء وهو مطرد في بابه فعكس ذو الرمة القصة في ذلك فشبه كثبان الانقاء بأعجاز النساء وانما فعل ذلك مبالغة أي قد ثبت هذا الوضع وهذا المعنى لاعجاز النساء وصار كأنه الاصل حتى شبهت

قوله كأن بواسارك كدرا الخ ...

به كثبان الامشاء وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى

في طلعة البدر شيء من محاسنها ✽ وللقضيب نصيب من تثنيها

وكذلك ورد قول عبد الله بن المعتز في قصيدته المشهورة التي أولها

سقى المطيرة ذات الظل والشجر ✽ فقال في تشبيه الهلال

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا ✽ مثل القلامة قد قدت من الظفر

ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار كأنه هو الاصل وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص وأورده هكذا مهملا (ولما نظرت أنا في ذلك) وأنعمت نظرى فيه تبين لى ما أذكره وهو أنه قدة قرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفعل أى يشبه بما هو أبين وأوضح أو بما هو أحسن منه أو أقبح وكذلك يشبه الاقل بالاكثر والادنى بالاعلى وهذا الموضع لا ينقض هذه القاعدة لان الذى قدمناذكره مطرد في بابه وعليه مدار الاستعمال وهذا غير مطرد وانما يحسن في عكس المعنى المتعارف وذاك أن تجعل المشبه به مشبها والمشبه مشبها به ولا يحسن في غير ذلك مما ليس بمتعارف ألا ترى أن من العادة والعرف أن تشبه الاعجاز بالكثبان فلما عكس ذو الرمة هذه القضية في شعره جاء حسنا لائقا وكذلك قول البحترى فان من العادة والعرف أن يشبه الوجه الحسن بالبدر والقد الحسن بالقضيب فلما عكس البحترى القضية في ذلك جاء أيضا حسنا لائقا ولو شبه ذو الرمة الكثبان بما هو أصغر منها غير الاعجاز لما حسن ذلك وهكذا لو شبه البحترى طلعة البدر بغير طلعة الحسناء والقضيب بغير قدها لما حسن ذلك أيضا وهكذا القول في تشبيه عبد الله بن المعتز صورة الهلال بالقلامة لان من العادة أن تشبه القلامة بالهلال فلما صار ذلك مشهورا متعارفا حسن عكس القضية فيه

(النوع الثالث في التجريد) وهذا اسم كنت سمته فقال القائل التجريد في الكلام حسن ثم سكت فسألته عن حقيقته فقال كذا سمعت ولم يزد شيأ فأنعمت حينئذ نظرى في هذا النوع من الكلام فألقى في روعى أنه ينبغي أن يكون كذا وكذا وكان الذى وقع لى صوابا ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ووصل الى ما ذكره أبو على الفارسي رحمه الله تعالى وقد أوردته ههنا وذكرت ما أتيت به

من ذات خاطرى من زيادة لم يذكرها ومنتقف أيم المتأمل على كلامه وكلامى (فالمقاصد التجريد) فانه اخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه لان أصله فى وضع اللغة من جردت السيف اذا نزعته من غمده وجردت فلانا اذا نزعت ثيابه ومن ههنا قال صلى الله عليه وسلم لامد ولا تجريد وذلك فى النهى عند اقامة الحد أن يمد صاحبه على الارض وأن تجرد عنه ثيابه وقد نقل هذا المعنى الى نوع من أنواع علم البيان (وقد تأملته فوجدت له فائدتين) احداهما أبلغ من الاخرى (فالاولى) طلب التوسع فى الكلام فانه اذا كان ظاهره خطابا لغيرك وباطنه خطابا لنفسك فان ذلك من باب التوسع وأظن أنه شئ اختصت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات (والفائدة الثانية) وهى الابلغ وذلك أنه يمكن المخاطب من اجراء الاوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه اذ يكون مخاطبا بها غيره ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه (وعلى هذا فان التجريد ينقسم قسمين) أحدهما تجريد محض والآخر تجريد غير محض (فالاول) وهو المحض أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالحيص بيص فى مطلع قصيدة له

الام يراك المجد فى زى شاعر • وقد نحلت شوقا فروع المنابر
كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة • ببعضهما ينقاد صعب المفاخر
أما وأبيك الخير انك فارس الـ • ـمقال ومحيى الدارسات الغوابر
وانك أعييت المسامع والنهى • بقولك عما فى بطون الدفاتر

فهذا من محاسن التجريد ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه كى يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة وعد ما عده من الفضائل التامة وكل ما يجئ من هذا القبيل فهو التجريد المحض (وأما ما قصد به التوسع خاصة) فكقول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة

حننت الى ريا ونفسك باعدت • مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الامر طائعا • وتجزع ان داعى الصبابة أسمعا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع لانه قال

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى • على كبدى من خشية أن تصدعا
بنفسى تلك الارض ما أطيب الربا • وما أحسن المصطاف والمتربعا

فانتقل من الخطاب التجريدي الى خطاب النفس ولو استمر على الحالة الاولى لما قضى عليه بالتوسع وانما كان يقضى عليه بالتجريد البليغ الذى هو الطرف الآخر وتأوّل له بأن غرضه من خطاب غيره أن ينفى عن نفسه سمة الهوى ومعرّة العشق لما فى ذلك من الشهرة والفضاضة لكن قد زال هذا التأويل بانتقاله عن التجريد أولا الى خطاب النفس (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبي الطيب المتنبي

لا خيل عندك تهديها ولا مال ٭ فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

واجز الامير الذى نعماه فاجئة ٭ بغير قول ونعمى القوم أقوال

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الاخشيدى بمصر وكان وصله بصلة سنية من نفقة وكسوة قبل أن يمدحه ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة وهي من غرر شعره وقد بنى مطلعها على المعنى المشار اليه من ابتداء فاتك اياه بالصلة قبل المديح وليس فى التجريد المذكور فى هذين البيتين ما يدل على وصف النفس ولا على تركيبها بالمديح كما ورد فى الابيات الرائية المتقدم ذكرها وانما هو توسع لا غير (وأما القسم الثانى) وهو غير المحض فانه خطاب لنفسك لا لغيرك ولئن كان بين النفس والبدن فرق الا أنهما كأنهما شئ واحد لعلاقة أحدهما بالآخر وبين هذا القسم والذى قبله فرق ظاهر وذاك أولى بأن يسمى تجريدا لان التجريد لائق به وهذا هو نصف تجريد لانك لم تجرد به عن نفسك شيأ وانما خاطبت نفسك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهي منك (فما جاء منه) قول عمرو بن الاطنابة

أقول لها وقد جشأت وجاشت ٭ رويدك تحمدى أو تستريحى

وكذلك قول الآخر

أقول للنفس تأساء وتعزية ٭ احدى يدىّ أصابتنى ولم ترد

وليس فى هذا ما يصلح أن يكون خطابا لغيرك كالاول وانما المخاطب هو المخاطب بعينه وليس ثم شئ خارج عنه (وأما الذى ذكره أبو على الفارسى رحمه الله) فانه قال ان العرب تعتقد أن فى الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى الى ألفاظها مجردا من الانسان كأنه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم لئن لقيت فلانا لتلقين به الاسد ولئن سألته لتسألن منه البحر وهو عينه الاسد والبحر لا أن هناك شيأ منفصلا عنه أو متميزا منه ثم قال وعلى

قوله ونعمى القوم فى الديوان ونعمى الناس اه

هذا

هذا النمط كون الانسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الاعشى

ودّع هريرة ان الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وهو الرجل نفسه لا غيره هذا خلاصة ما ذكره أبو علي رحمه الله (والذي عندي فيه) أنه أصاب في الثاني ولم يصب في الاول لان الثاني هو التجريد ألا ترى أن الاعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها وأما الاول وهو قوله لئن لقيت فلانا لتلقين به الاسد ولئن سألته لتسألن منه البحر فان هذا تشبيه مضمر الاداة اذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه وبيان ذلك أنك تقول لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالاسد ولئن سألته لتسألن منه كالبحر وليس هذا بتجريد لان حقيقة التجريد غير موجودة فيه وانما هو تشبيه مضمر الاداة ألا ترى أن المذكور هو كالاسد وهو كالبحر وليس ثم شيء مجرد عنه كما تقدم في الابيات الشعرية ويبطل على أبي علي قوله أيضا من وجه آخر وذلك أنه قال ان العرب تعتقد أن في الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى الى ألفاظها مجردا من الانسان كأنه غيره وهو هو كالمثال الذي مثله في تشبيهه بالاسد وتشبيهه بالبحر وهذا ينتقض بقولنا لئن رأيت الاسد لترين منه حضبة ولئن لقيته لتلقين منه الموت فان الصورة التي أوردها في الانسان وزعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردناها في الاسد فخصيصه ذلك بالانسان باطل وكلا الصورتين ليس بتجريد وانما هو تشبيه مضمر الاداة وقد سبق القول بأن التجريد هو أن تطلق الخطاب على غيرك ولا يكون هو المراد وانما المراد نفسك وهذا لا يوجد في هذا المثال المضمر الاداة بل الخطاب هو هو لا غيره فلا يطلق عليه اذا اسم التجريد لانه خارج عن حقيقته ومنافٍ لموضوعه فاذا قال القائل لئن لقيته لتلقين به كالاسد ولئن سألته لتسألن منه كالبحر لم يجرد عن المقول عنه شيأ وانما شبهه تارة بالاسد في شجاعته وتارة بالبحر في سخائه وما أعلم كيف ذهب هذا على مثل أبي علي رحمه الله حتى خلطه بالتجريد وأجراه مجراه وأما قوله ان العرب تعتقد أن في الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فأقول وغير العرب أيضا تعتقد ذلك فان عني بالمعنى الكامن معنى الانسانية الذي هو الاستعداد للعلوم والصنائع فذاك هذا من الشيء المعرب الخفي الذي علمته العرب خاصة وانفرد باستخراجه أبو علي رحمه الله وان عني بالمعنى الكامن ما فيه من الاخلاق كالشجاعة والسخاء في المثال الذي ذكره حتى يشبه

بالاسد تارة وبالبحر أخرى فليس الانسان مختصا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات بل الاسد فيه من معنى الشجاعة ماليس فى الانسان ولهذا اذا بولغ فى وصف الانسان بالشجاعة شبه بالاسد وكذلك فى بعض الحيوانات من السخاء ماليس فى الانسان ومن الامثال أكرم من ديك لانه اذا ظفر بحبة من الحنطة أخذها فى منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها فى منقار واحدة منهن فالاخلاق اذا مشتركة بين الانسان وبين غيره من الحيوانات غير أن الانسان يجتمع فيه ماتفرق فى كثير منها وما أعلم ما أراد أبو على رحمه الله بقوله ان فى الانسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله الا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت اليهما على أن القسم الواحد الذى هو خلق الشجاعة والسخاء وغيره من الاخلاق ليس عبارة عن حقيقة الانسان اذ لا يقال فى حده حيوان شجاع ولا سخى بل يقال حيوان ناطق فالنطق الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع هو حقيقة الانسان فبطل اذا قول أبى على رحمه الله فى تمثيله حقيقة الانسان بالشجاعة والسخاء فالخطأ توجه فى كلامه من وجهين أحدهما أنه جعل حقيقة الانسان عبارة عن خلقه والآخر أنه أدخل فى التجريد ماليس منه وهذا القدر كاف فى هذا الموضع فليتأمل

(النوع الرابع فى الالتفات) وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التى حولها يدندن واليها تستند البلاغة وعنها يعنعن وحقيقته مأخوذة من التفات الانسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لانه ينتقل فيه عن صيغة الى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب أو من خطاب غائب الى حاضر أو من فعل ماض الى مستقبل أو من مستقبل الى ماض أو غير ذلك مما يأتى ذكره مفصلا ويسمى أيضا شجاعة العربية وانما سمى بذلك لان الشجاعة هى الاقدام وذاك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ويتورد مالا يتورده سواه وكذلك هذا الالتفات فى الكلام فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات (وهو ينقسم الى ثلاثة أقسام القسم الاول فى الرجوع من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة) اعلم أن عامة المنتمين الى هذا الفن اذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة الى الخطاب

ذكر الخطأ الذى وقع فيه أبو على

الالتفات

وعن الخطاب الى الغيبة قالوا وكذلك كانت عادة العرب فى أساليب كلامها
وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال ونحن انما نسأل عن السبب الذى قصدت
العرب ذلك من أجله وقال الزمخشرى رحمه الله ان الرجوع من الغيبة الى
الخطاب انما يستعمل للتفنن فى الكلام والانتقال من أسلوب الى أسلوب تطرية
لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه وليس الامر كما ذكره لان الانتقال فى الكلام
من أسلوب الى أسلوب اذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه
فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل الى غيره ليجد نشاطا
للاستماع وهذا قدح فى الكلام لا وصف له لانه لو كان حسنا لما مل ولو سلمنا
الى الزمخشرى ما ذهب اليه لكان انما يوجد ذلك فى الكلام المطول ونحن نرى
الامر بخلاف ذلك لانه قد ورد الانتقال من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى
الغيبة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ
عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك ومفهوم قول الزمخشرى فى الانتقال من أسلوب
الى أسلوب انما يستعمل قصدا للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه لا قصدا
لاستعمال الاحسن وعلى هذا فاذا وجدنا كلاما قد استعمل فيه جميعه الايجاز
ولم ينتقل عنه أو استعمل فيه جميعه الاطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين
واقعا فى موقعه قلنا هذا ليس بحسن اذ لم ينتقل فيه من أسلوب الى أسلوب وهذا
قول فيه ما فيه وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى مع معرفته بفن
الفصاحة والبلاغة (والذى عندى فى ذلك) أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة
أو من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته وتلك الفائدة أمر وراء
الانتقال من أسلوب الى أسلوب غير أنها لا تحد بحد ولا تضبط بضابط لكن يشار
الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها فانا قد رأينا الانتقال من الغيبة الى الخطاب
قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الاول قد استعمل
فى الانتقال من الخطاب الى الغيبة فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال
هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيرة واحدة وانما هو مقصور على العناية
بالمعنى المقصود وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر وانما يؤتى بها على
حسب الموضع الذى ترد فيه وسأوضح ذلك فى ضرب من الامثلة الآتى ذكرها
فأما الرجوع من الغيبة الى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة الحمد لله رب

العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط
المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم هذا رجوع من الغيبة الى الخطاب ومما
يختص بهذا الكلام من الفوائد قوله اياك نعبد واياك نستعين بعد قوله الحمد لله
رب العالمين فانه انما عدل فيه من الغيبة الى الخطاب لان الحمد دون العبادة
الا ترى انك تحمد نظيرك ولا تعبده فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد
لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال الحمد لله ولم يقل الحمد لك ولما صار الى العبادة
التي هي أقصى الطاعات قال اياك نعبد فخاطب بالعبادة اصراحا بها وتقربا منه عز
اسمه بالانتهاء الى محدود منها وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال صراط
الذين أنعمت عليهم فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ثم قال غير المغضوب عليهم
عطفا على الاول لان الاول موضع التقرب من الله بذكر نعمه فلما صار الى ذكر
الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب فاسند النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ
الغضب تحننا ولطفا فانظر الى هذا الموضع وتناسب هذه المعاني الشريفة التي
الاقدام لا تكاد تطؤها والافهام مع قربها صافحة عنها وهذه السورة قد انتقل
في أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل في آخرها من
الخطاب الى الغيبة لتلك العلة بعينها وهي تعظيم شان المخاطب أيضا لان مخاطبة
الرب تبارك وتعالى باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه وكذلك ترك مخاطبته
باسناد الغضب اليه تعظيم لخطابه فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من
الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها (ومن هذا
الضرب) قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ اذا وانما قيل لقد
جئتم وهو خطاب للحاضر بعد قوله وقالوا وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة وهي
زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبيه لهم على
عظم ما قالوه كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرا عليهم وموبخا لهم
(ومما جاء من الالتفات) مرارا على قصر متنه وتقارب طرفيه قوله تعالى أول
سورة بني اسرائيل سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير فقال أولا سبحان
الذي أسرى بلفظ الواحد ثم قال الذي باركنا بلفظ الجمع ثم قال انه هو السميع
البصير وهو خطاب غائب ولو جاء الكلام على مساق الاول لكان سبحان الذي

أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير وهذا بعينه يكون معطوفا على أسرى فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه فى الانتقال من صيغة الى صيغة كان ذلك اتساعا وتفننا فى أساليب الكلام ولمقصد آخر معنوى هو أعلى وأبلغ (وسأذكر ما سنح لى فيه فأقول) لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذى أسرى اذ لا يجوز أن يقال الذى أسرينا فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء وهو أولى بخطاب العظيم فى نفسه الذى هو بلفظ الجمع استدرك الاول بالثانى فقال باركنا ثم قال لنريه من آياتنا فجاء بذلك على نسق باركنا ثم قال انه هو عطفا على أسرى وذلك موضع متوسط الصفة لان السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره وتلك حال متوسطة تخرج بها عن خطاب العظيم فى نفسه الى خطاب غائب فانظر الى هذه الالتفاتات المترادفة فى هذه الآية الواحدة التى جاءت لمعان اختصت بها يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها (ومما ينخرط فى هذا السلك) الرجوع من خطاب الغيبة الى خطاب النفس كقوله تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم وهذا رجوع من الغيبة الى خطاب النفس فانه قال وزينا بعد قوله ثم استوى وقوله فقضاهن وأوحى والفائدة فى ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست فى سماء الدنيا وأنها ليست حفظا ولا رجوما فلما صار الكلام الى ههنا عدل به عن خطاب الغائب الى خطاب النفس لانه مهم من مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه وفى خلاف هذا الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الغيبة (ومما ينخرط فى هذا السلك أيضا) الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الجماعة كقوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون وانما صرف الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم لانه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم لان ذلك أدخل فى امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه وقد وضع قوله ومالى لا أعبد الذى فطرنى مكان قوله ومالكم لا تعبدون الذى فطركم ألا ترى الى قوله واليه ترجعون ولولا أنه قصد ذلك لقال الذى فطرنى

والـيه أرجع وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال انى آمنت بربكم فاسمعون (فانظر) أيها المتأمل الى هذه النكت الدقيقة التى تعز عليها فى آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها وعلى هذا الاسلوب يجرى الحكم فى الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الواحد كقوله تعالى حم والكتاب المبين انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم والفائدة ههنا فى الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الواحد تخصيص النبى صلى الله عليه وسلم بالذكر والاشارة بأن انزال الكتاب انما هو اليه وان لم يكن ذلك صريحا لكن مفهوم الكلام يدل عليه واذا تأملت مطاوى القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة وانما اقتصرنا على هذه الامثلة المختصرة ليقاس عليها ما يجرى على أسلوبها وقد ورد فى فصيح الشعر شئ من ذلك كقول أبى تمام

وركب يساقون الركاب زجاجة ۞ من السير لم تقصد لها كف قاطب
فقد أكل امنهم العوارب بالسرى ۞ وصارت لهم أشباحهم كالغوارب
يصرف مسراها جذيل مشارق ۞ اذا آبه هم عذيق مغارب
يرى بالكعاب الرود طلعة ثائر ۞ وبالعرمس الوجناء غرة آيب
كأن بها ضغنا على كل جانب ۞ من الارض أو شوقا الى كل جانب
اذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد ۞ تقطع ما بينى وبين النوائب
هنالك تلقى الجود من حيث قطعت ۞ تمائمه والمجد مرخى الذوائب

ألا ترى أنه قال فى الاول يصرف مسراها مخاطبة للغائب ثم قال بعد ذلك اذا العيس لاقت بى مخاطبا نفسه وفى هذا من الفائدة أنه لما صار الى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشرا لها بالبعد عن المكروه والقرب من المحبوب ثم جاء بالبيت الذى يليه معدولا به عن خطاب نفسه الى خطاب غيره وهو أيضا خطاب لحاضر فقال هنالك تلقى الجود والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شاهده كأنه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه اشادة بذكره وتنويها باسمه وحملا لغيره على قصده وفى صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة وهى قوله حيث قطعت تمائمه ما يقتضى له الرجوع الى خطاب الحاضر والمراد

قوله وصارت لهم فى نسخة من الديوان وصارت لها أشباحهم وفى أخرى فصارت لهم أشباحها انتهى مصححه

بذلك

ذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنزله ووطنه وقد زاد بمعنى آخر وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المن والمطل والاعتذار وغير ذلك إذ الماء لا تنقطع الاعين أمنت عليه الخارف وعلى هذا النهج ورد قول أبي الطيب المتنبي في قصيدة يمدح بها ابن العميد في النوروز ومن عادة الفرس في ذلك اليوم حمل الهدايا الى ملوكهم فقال في آخر القصيد

كثر الفكر كيف نهدي كما أهـ ـدت الى ربها المليك عباده

والذي عندنا من المال والخيـ ـل فمنه هباته وقياده

فبعثنا بأربعين مهارا • كل مهر ميدانه انشاده

عدد عشته يرى الجسم فيه • أربا لا يراه فيما يزاده

فارتبطها فان قلبا نماها • مربط تسبق الجياد جياده

وهذا من احسان أبي الطيب المعروف وهو رجوع عن خطاب الغائب الى الحاضر واحتج أبو الطيب عن تخصيص أبياته بالاربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة وهي أنه جعلها كعدد السنين التي يرى الانسان فيها من القوة والشباب وقضاء الاوطار ما لا يراه في الزيادة عليها فاعتذر بألطف اعتذار في أنه لم يرد الفضل على هذه العدة وهذا حسن غريب (وأما الرجوع من الخطاب الى الغيبة) فكقوله تعالى هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فانه انما صرف الكلام ههنا من الخطاب الى الغيبة لفائدة وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الانكار عليهم ولو قال حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها وساق الخطاب معهم الى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة وليس ذلك بخاف عن نقدة الكلام (ومما ينخرط في هذا السلك) قوله تعالى ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون الاصل في تقطعوا تقطعتم عطفا على الاول الا أنه صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه الى قوم آخرين ويقبح عندهم ما فعلوه ويقول ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى جعلوا أمر دينهم

بمايبهم قطعا ودلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعدذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو يجازيهم على مافعلوا (ومما يجرى هذا المجرى) قوله تعالى يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض لااله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون فانه انما قال فآمنوا بالله ورسوله ولم يقل فآمنوا بالله وبى عطفا على قوله انى رسول الله اليكم لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه وليعلم أن الذى وجب الايمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبى الامى الذى يؤمن بالله وبكلماته كائنا من كان أنا أو غيرى اظهارا للنصفة وبعدا من التعصب لنفسه فقدر أولا فى صدر الآية انى رسول الله الى الناس ثم أخرج كلامه من الخطاب الى معرض الغيبة لغرضين الاول منهما اجراء تلك الصفات عليه والثانى الخروج من تهمة التعصب لنفسه (القسم الثانى فى الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الامر وعن الفعل الماضى الى فعل الامر) وهذا القسم كالذى قبله فى أنه ليس الانتقال فيه من صيغة الى صيغة طلبا للتوسع فى أساليب الكلام فقط بل لامر وراء ذلك وانما يقصد اليه تعظيما لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيما لامره وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الامر (فمما جاء منه) قوله تعالى يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون فانه انما قال أشهد الله واشهدوا ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه لان اشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما اشهادهم فما هو الا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ولذلك عدل به عن لفظ الاول لاختلاف مابينهما وجىء به على لفظ الامر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد على انى أحبك تهكما به واستهانة بحاله وكذلك يرجع عن الفعل الماضى الى فعل الامر الا أنه ليس كالاول بل انما يفعل ذلك توكيدا لما أجرى عليه فعل الامر لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين الآية وكان تقدير الكلام أمر ربى بالقسط وباقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك الى فعل الامر للعناية بتوكيده

فى نفوسهم فان الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم اتبعها بالاخلاص الذى
هو على الثاب اذ على الجوارح لايصح الا باخلاص النية وبهذا قال النبى صلى
الله عليه وسلم الاعمال بالنيات (واعلم) أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول
عن صيغة من الالفاظ الى صيغة أخرى لايكون الالنوع خصوصية اقتضت ذلك
وهو لايتوخاه فى كلامه الا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذى اطلع على
أسرارهما وفتش عن دفائنهما ولاتجد ذلك فى كل كلام فانه من أشكل
ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا (القسم الثالث فى الاخبار
عن الفعل الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى) فالاول الاخبار بالفعل
المستقبل عن الماضى اعلم أن الفعل المستقبل اذا أتى به فى حالة الاخبار عن
وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضى وذلك لان الفعل
المستقبل يوضح الحال التى يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع
يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضى وربما أدخل فى هذا الموضع ماليس منه
جهلا بمكانه فانه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بجار هذا المجرى وسأبين
ذلك فأقول عطف المستقبل على الماضى ينقسم الى ضربين أحدهما بلاغى وهو
اخبار عن ماض بمستقبل وهو الذى أنا بصدد ذكره فى كتابى هذا الذى هو
موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة والآخر غير بلاغى وليس اخبارا
بمستقبل عن ماض وانما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماض ويراد به
أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض * فالضرب الاول كقوله تعالى والله الذى
أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك
النشور فانه انما قال فتثير مستقبلا وماقبله ومابعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا
اليه وهو حكاية الحال التى يقع فيها اثارة الريح السحاب واستحضار تلك
الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز
وخصوصية كحال تستغرب أوتهم المخاطب أوغير ذلك وعلى هذا الاسلوب
ماورد من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه فى غزوة بدر فانه قال لقيت
عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لأمة كاملة لايرى منه الاعيناه
وهو يقول أنا أبو ذات الكرش وفى يدى عنزة فأطعن بها فى عينه فوقع وأطأ
برجلى على خده حتى خرجت العنزة متعقفة فقوله فأطعن بها فى عينه وأطأ برجلى

معدول به عن لفظ الماضي الى المستقبل ليتخيل للسامع الصورة التي فعل فيها ما فعل من الاقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئم ألا ترى أنه قال أولا لعبت عيدة بلفظ الماضي ثم قال بعد ذلك فأطعن بها في عينه ولو عطف كلامه على أوله لقال فطعنت بها في عينه وعلى هذا ورد قول تأبط شرا

بأني قد لقيت الغول تهوى ۞ بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ۞ صريعا لليدين وللجران

فانه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يبصرهم اياها مشاهدة للتعجب من جراءته على ذلك الهول ولو قال فضربتها عطفا على الاول لزالت هذه الفائدة المذكورة (فان قيل) ان الفعل الماضي أيضا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل (قلت في الجواب) ان التخيل يقع في الفعلين معا لكنه في أحدهما وهو المستقبل أوكد وأشد تخيلا لانه يستحضر صورة الفعل حتى كان السامع ينظر الى فاعلها في حال وجود الفعل منه ألا ترى أنه لما قال تأبط شرا فأضربها تخيل للسامع أنه مباشر للفعل وأنه قائم بازاء الغول وقد رفع سيفه ليضربها وهذا لا يوجد في الفعل الماضي لانه لا يتخيل السامع منه الا فعلا قد مضى من غير احضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه وهذا لا خلاف فيه وهكذا يجري الحكم في جميع الآيات المذكورة وفي الاثر عن الزبير رضي الله عنه وفي الابيات الشعرية وعليه ورد قوله تعالى أيضا وهو ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق فقال أولا خر من السماء بلفظ الماضي ثم عطف عليه المستقبل الذي هو فتخطفه وتهوي وانما عدل في ذلك الى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير اياه وهوي الريح به والفائدة في ذلك ما أشرت اليه فيما تقدم وكثيرا ما راعى أمثال هذا في القرآن ۞ وأما الضرب الثاني الذي هو مستقبل فكقوله تعالى ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله فانه انما عطف المستقبل على الماضي لان كفرهم كان ووجد ولم يستجد وبعده كفرا ثانيا وصدهم متجدد على الايام لم يمض كونه وانما هو مستمر يستأنف في كل حين وكذلك ورد قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة

ان الله لطيف خبير ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ههنا الى المستقبل فقال فتصبح الارض مخضرة ولم يقل فأصبحت عطفا على أنزل وذلك لافادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان فانزال الماء مضى وجوده واخضرار الارض باق لم يمض وهذا كما تقول أنعم علي فلان فأروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع لانه يدل على ماض قد كان وانقضى وهذا موضع حسن ينبغي أن يتأمل (وأما الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل) فهو عكس ما تقدم ذكره وفائدته أن الفعل الماضي اذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وايجاده لان الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المستقبل من الاشياء العظيمة التي يستعظم وجودها والفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على ايجاد الفعل الذي لم يوجد بعد فمن أمثلة الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض فانه انما قال ففزع بلفظ الماضي بعد قوله ينفخ وهو مستقبل للاشعار بتحقيق الفزع وأنه كائن لا محالة لان الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به وكذلك جاء قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وانما قيل وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الاحوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك لان الحشر هو المهم لان من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي (ومما يجري هذا المجرى) الاخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل وانما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي وقد سبق الكلام عليه (في ذلك) قوله تعالى ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود فانه انما آثر اسم المفعول الذي هو مجموع على الفعل المستقبل الذي هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه الموصوف بهذه الصفة وان شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع فانك تعثر على صحة ما قلت (النوع الخامس في توكيد الضميرين)

(ان قيل) فى هذا الموضع ان الضمائر مذكورة فى كتب النحو فأى حاجة الى ذكرها ههنا ولم تعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته (قلت) ان هذا يختص بفصاحة وبلاغة وأولئك لا يتعرضون اليه وانما يذكرون عدد الضمائر وأن المنفصل منها كذا والمتصل كذا ولا يتجاوزون ذلك وأما أنا فانى أوردت فى هذا النوع أمرا خارجا عن الامر النحوى وأعنى بقولى توكيد الضميرين أن يؤكد المتصل بالمنفصل كقولك انك أنت أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله كقولك أنت أنت أو يؤكد المتصل بمتصل مثله كقولك انك انك لعالم أو انك انك لجواد وانما يؤتى بمثل هذه الاقوال فى معرض المبالغة وهو من أسرار علم البيان (ولنتقدم فى ذلك قولا يحصره ويجمع أطرافه فنقول) اذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتا فى النفوس فأنت بالخيار فى توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر واذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالاولى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر فى الدلالة عليه لتقرره وتثبته (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين فان ارادة السحرة الالقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده لانهم لم يصرحوا بما فى أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله الى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والالقاء قبله لان من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كان قالوا اما أن تلقى واما أن نلقى لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم واما أن نكون نحن الملقين استدل بهذا القول على رغبتهم فى الالقاء قبله (واما توكيد المتصل بالمتصل) فكقوله تعالى فى سورة الكهف فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا وهذا بخلاف قصة السفينة فانه قال فيها ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير فى الثانية دون الاولى فقال فى الاولى ألم أقل انك وقال فى الثانية ألم أقل لك انك وانما جىء بذلك للزيادة فى مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة والوسم بعدم الصبر وهذا كما لو أتى الانسان ما نهيته عنه فلمته وعنفته ثم أتى ذلك مرة ثانية أليس انك تزيد فى لومه وتعنيفه وكذلك فعل ههنا فانه قيل فى الملامة أولا ألم أقل انك ثم قيل ثانيا ألم أقل لك انك وهذا موضع يدق عن العثور عليه بادرة النظر

مالم

ما لم يعط التأمل فيه حقه (وأما توكيد المتصل بالمنفصل) فنحو قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف انك أنت الاعلى فتوكيد الضميرين ههنا في قوله انك أنت الاعلى أنفى للخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه للغلبة والقهر ولو قال لاتخف انك الاعلى أوفأنت الاعلى لم يكن له من التقرير والاثبات لنفي الخوف ما لقوله انك أنت الاعلى (وفي هذه الكلمات الثلاث) وهي قوله انك أنت الاعلى ست فوائد (الاولى) ان المشددة التي من شأنها الاثبات لما يأتي بعدها كقولك زيد قائم ثم تقول ان زيدا قائم ففي قولك ان زيدا قائم من الاثبات لقيام زيد ما ليس في قولك زيد قائم (الثانية) تكرير الضمير في قوله انك أنت ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة في التقرير لغلبة موسى والاثبات لقهره (الثالثة) لام التعريف في قوله الاعلى ولم يقل أعلى ولا عال لانه لو قال ذلك لكان قد نكره وكان صالحا لكل واحد من جنسه كقولك رجل فانه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال واذا قلت الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علما فيهم وكذلك جاء قوله تعالى انك أنت الاعلى أى دون غيرك (الرابعة) لفظ أفعل الذى من شأنه التفضيل ولم يقل العالى (الخامسة) اثبات الغلبة له من العلو لان الغرض من قوله الاعلى أى الاغلب الا أن في الاعلى زيادة وهي الغلبة من عال (السادسة) الاستئناف وهو قوله تعالى لاتخف انك أنت الاعلى ولم يقل لانك أنت الاعلى لانه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عاليا وانما نفى الخوف عنه أولا بقوله لاتخف ثم استأنف الكلام فقال انك أنت الاعلى فكان ذلك أبلغ في ايقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء وأثبت لذلك في نفسه (وربما وقع لبعض الاغمار أن يعترض على ما ذكرناه) في توكيد أحد الضميرين بالآخر فيقول لو كان توكيده أبلغ من الاقتصار على أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه حيث هو أولى بما هو أبلغ وأوكد من القول وقد رأينا في القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر كقوله عز اسمه قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير ولم يقل انك أنت على كل شئ قدير فما الموجب لذلك ان كان توكيد أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصار على

أحدهما (الجواب عن ذلك) أما نقول قد قدمنا القول في أول هذا النوع انه اذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتا فصاحب الكلام مخير في توكيد أحد الضميرين بالآخر فان أكد فقد أتى بفضل بيان وان لم يؤكده فلان ذلك المعنى ثابت لا يفتقر في تقريره الى زيادة تأكيد كهذه الآية المشار اليها وهي قوله تعالى قل اللهم مالك الملك فان العلم بأن الله على كل شيء قدير لا يفتقر الى تأكيد يقرره وقد ورد ما يجري مجرى هذه الآية مؤكدا كقوله تعالى واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب فوكد في هذه الآية ولم يؤكد في الآية الاخرى وقد عرفتك الطريق في ذلك وأما اذا كان المعنى المقصود غير معلوم وهو مما يشك فيه فالاولى أن يؤكد بالضميرين في الدلالة عليه كقوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى فان موسى لم يكن متيقنا أنه غالب للسحرة فلذلك وكد خطابه بالضميرين ليكون أبلغ في تقرير ذلك في نفسه (وأما توكيد المنفصل بمنفصل مثله) فكقول أبي تمام

لا أنت أنت ولا الديار ديار * خف الهوى وتولت الاوطار

فقوله لا أنت أنت ولا الديار ديار من الملح النادر في هذا الموضع لانه هو هو والديار الديار وانما البواعث التي كانت تبعث على قضاء الاوطار زالت فبقي ذلك الرجل وليس هو هو على الحقيقة ولا الديار في عينه من الحسن تلك الديار وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي

قبيل أنت أنت وأنت منهم * وجدك بشر الملك الهمام

فقوله أنت أنت من توكيد الضميرين المشار اليهما وفائدته المبالغة في مدحه ولو مدحه بما شاء الله المدح قبله قوله أنت أنت أي أنت المشار اليه بالفضل دون غيرك وأما قوله وأنت منهم فخارج عن هذا الباب وهو كلام مستأنف لا يتعلق بتوكيد الضميرين كأنه قال أنت الموصوف بكذا وكذا وأنت من هذا القبيل يريد بذلك مدح قبيله وهذا البيت لم أمثل به اختيارا له واستجادة وانما مثلت به لمعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل والا فالبيت ليس من المرضي لان سبكه عار من الحسن وفيه تقديم وتأخير (وقرأت في كتاب الاغاني) لابي الفرج

ان

ان عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة يا خير الفتيان اردد على ما أخذته
من ابل فردها عليه وفيها فحلها فنازعه الفحل الى الابل فصرعه عمرو فقال له
زياد لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الابل لكنتم أنتم أنتم فقال عمرو له
لقد أعطيت قليلا ومنعت جليلا وجررت على نفسك ويلا طويلا فقوله لكنتم
أنتم أنتم أى أنتم الاشداء أو الشجعان أو ذوو النجدة والبأس أو ما جرى هذا
المجرى الا ترى أن أنتم الثانية تخصيصا لهم بهذه الصفة دون غيرهم كأنه قال
لكنتم أنتم الشجعان دون غيركم ولو مدحهم بأى شئ مدحهم من وصف
البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الكلمة أعنى أنتم الثانية وهذا
موضع من علم البيان تكاثرت محاسنه فاعرفه (النوع السادس في عطف المظهر
على ضميره والافصاح به بعده) وهذا انما يعمد اليه لفائدة وهى تعظيم شأن
الامر الذى أظهر عنده الاسم المضمر أولا ومثال ذلك قول القائل ولما تلاقينا
وبنو تميم أقبلوا غير ناكصين فرأيناهم أسود الكلا تسابق الاسنة الى
الورود ولا ترتد على أعقابها اذا ارتدت أمثالها من الاسود وتناجد بنو تميم
علينا بجملة فلذنا بالفرار واستبقنا الى تولية الادبار فانه انما قيل وتناجد
بنو تميم مصرحا باسمهم ولم يقل وتناجدوا كما قيل أقبلوا للدلالة على التعجب من
اقدامهم عند الحملة وثباتهم عند الصدمة لا سيما وقد أردف ذلك بقوله لذنا
بالفرار واستبقنا الى تولية الادبار كأنه قال وتناجد أولئك الفرسان المشاهير
والكماة المناكير وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين (ومما جاء
من ذلك) قوله تعالى أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على
الله يسير قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة
الآخرة الا ترى كيف صرح باسمه تعالى فى قوله ثم الله ينشئ النشأة الآخرة مع
ايقاعه مبتدأ فى قوله كيف يبدئ الله الخلق وقد كان القياس أن يقول كيف
يبدئ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة والفائدة فى ذلك أنه لما كانت الاعادة
عندهم من الامور العظيمة وكان صدر الكلام واقعا معهم فى الابداء وقررهم
أن ذلك من الله احتج عليهم بأن الاعادة انشاء مثل الابداء واذا كان الله الذى
لا يعجزه شئ هو الذى لا يعجزه الابداء فوجب أن لا يعجزه الاعادة فللدلالة والتنبيه
على عظم هذا الامر الذى هو الاعادة أبرز اسمه تعالى وأوقعه مبتدأ ثانيا وعلى

هـذا ورد قوله تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ألا ترى أنه قال أولا ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فذكر مضمرا تقدم الكلام فيه ثم عطف المظهر الذى هو له وهو قوله ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وكان العطف لو أضمر كأضمر الاول لقيل ثم أنزل الله سكينته عليكم وأنزل جنودا لم تروها وفائدة الاظهار ههنا للمعطوف بعد اضماره أولا التنويه بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر المؤمنين أولا ان الامر عظيم وهو الانتصار بعد الفرار فأى الامرين قدر كان لاظهار المعطوف مناسبا وهكذا يكون عطف المظهر على مضمره فانه يستمد الى فائدة يهم ذكرها فان لم يكن هنالك مثل هذه الفائدة والا لم يحسن الاظهار بعد الاضمار وكذلك جاء قوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين فانه انما قال وقال الذين كفروا ولم يقل وقالوا كالذى قبله للدلالة على صدور ذلك من انكار عظيم وغضب شديد وتعجب من كفرهم بليغ لاسيما وقد انضاف اليه قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم وما فيه من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى ذلك من المبادهة كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المبين قبل أن يتدبروه ان هذا الا سحر مبين وعلى نحو من ذلك ورد قوله تعالى ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وكان القياس أن يقال وقالوا هذا ساحر كذاب عطفا على عجبوا وانما أتى باسم الكافرين مظهرا بعد اضماره للاشعار بتعظيم ما اجترؤا عليه من القول فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم أولا ان هذا القول كان أهم عندهم وأرسخ فى نفوسهم فصرح باسمهم فائدة دلالة على ما كان فى أنفسهم منه

(النوع السابع فى التفسير بعد الابهام) اعلم أن هذا النوع لا يعمد الى استعماله الا لضرب من المبالغة فاذا جىء به فى كلام فانما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم

واعظامه

واعظامه لانه هو الذى يطرق السمع أولا فيذهب بالسامع كل مذهب كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين فسر ذلك الامر بقوله أن دابر هؤلاء مقطوع وفى ابهامه أولا وتفسيره بعد ذلك تفخيم للامر وتعظيم لشأنه فانه لو قال وقضينا اليه أن دابر هؤلاء مقطوع لما كان بهذه المكانة من الفخامة فان الابهام أولا يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه وتشوف الى معرفته والاطلاع على كنهه وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك مايوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فسر مايوحى بقوله أن اقذفيه وهذا كالاول فى ابهامه أولا وتفسيره ثانيا ومثل هذا ورد قوله تعالى فى سورة أم الكتاب اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم فانه انما قال ذلك ولم يقل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم لما فى الاول من التنبيه والاشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ثم تقول فلان فيكون ذلك أبلغ فى وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الاكرم الافضل لانك ثنيت ذكره مجملا ومفصلا بجعلته علما فى الكرم والفضل كأنك قلت من أراد رجلا جامعا للخصلتين جميعا فعليه بفلان (فان قيل) فما الفرق بين عطف المظهر على مضمره وبين التفسير بعد الابهام فان المضمر كالمبهم (فالجواب عن ذلك) انى أقول ان كان سؤالك عن فائدتهما فانهما فى الفائدة سواء وذلك أنهما انما يراد ان لتعظيم الحال والاعلام بفخامة شأنها . وان كان سؤالك عن الفرق بينهما فى العبارة فانى أقول المضمر يأتى بعده مظهر تقدم ذكره أولا ثم يعطف المظهر على مضمره أى على ضمير نفسه كالمثال الذى ضربناه فى بنى تميم وأما التفسير بعد الابهام فان المبهم يتقدم أولا وهو أن يذكر شئ يقع عليه محتملات كثيرة ثم يفسر بايقاعه على واحد منها وليس كذلك عطف المظهر على مضمره (ومما جاء من التفسير بعد الابهام) قوله تعالى وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ألا ترى كيف قال

أحدكم سبيل الرشاد فأبهم سبيل الرشاد ولم يبين أي سبيل هو ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما لتثبط عما يتلف وتنشط لما يزلف كأنه قال سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا والرغبة في الآخرة والامتناع من الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها والمسارعة الى الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها وكذلك ورد قوله تعالى وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل فانه انما قال القواعد من البيت ولم يقل قواعد البيت لما في ابهام القواعد أولا وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حال المبين عما ليس في الاضافة (ومما يجري هذا المجرى) قوله تعالى وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى فانه لما أراد تفخيم ما أمل فرعون من بلوغ أسباب السموات أبهمها أولا ثم فسرها ثانيا ولانه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوقة اليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوق اليه نفس هامان ثم أوضحه بعد ذلك (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله تعالى قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد فانه قال أولا أعظكم بواحدة فأبهم الواحدة ثم فسرها بقوله أن تقوموا لله مثنى وفرادى وأن تتفكروا وهذا في القرآن الكريم كثير الاستعمال (وأما الابهام من غير تفسير) فكثير شائع في القرآن الكريم أيضا كقوله تعالى وفعلت فعلتك التي فعلت وكذلك ورد قوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم أي للطريقة أو الحالة أو الملة التي هي أقومها وأسدها وأي ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح ذوق البلاغة التي تجده مع الابهام وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب وايقاعه على محتملات كثيرة وهذا كقول القائل لو رأيت عليا بين الصفين فانه لو وصفه مهما وصف من نجدة وشجاعة وثبات واقدام وأطال القول في ذلك لم يكن بمثابة ما يترامى اليه الوهم مع الابهام وهذا المدارك برموز هذه الصناعة وأسرارها (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأبلغ من ذلك قوله تعالى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فانه قال في تلك الآية فغشيهم من اليم

ما غشيهم

ما غشيهم فذكر اليم وهو البحر فسار الذى غشيهم امادو منه ناصة وقال فى هذه الآية فغشاها ما غشى فأبهم الامر الذى غشاها به وجعله عاما وذلك أبلغ لان السامع يذهب وهمه فيه كل مذهب وأما ما جاء من ذلك شعرا فكقول البحترى

بعيد مقبل الصدر لا يقبل التى ◦ يحاولها منه الاريب المخادع

فقوله التى يحاولها من الابهام المتقدم ذكره فى الآية (ومما يتكلم بذلك) قول الشاعر فى أبيات الحماسة

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ◦ فلما علاه قال للباطل ابعد

فقوله صبا ما صبا من الابهام الذى لو قدرت ما قدرت فى تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الابهام (ومثله ورد) قول أبى نواس

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم ◦ وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه ◦ فاذا عصارة كل ذاك أثام

فقوله وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه من هذا النمط المشار اليه وهو من الملح النادر (ومما يجرى على هذا النهج) قول الآخر فى وصف الخمر

مضى بها ما مضى من عقل شاربها ◦ وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

والكلام على هذا البيت كالكلام على البيت الذى قبله (ومثله ورد) قول بعض المتأخرين فزاد فيه ما فيه وعلى هذا ورد قولى فى فصل من تقليد لبعض الوزراء فقال وأنت مؤهل لواحدة تختلق لها عزائم الجياد وتتناديها العلياء بلسان الاحاد وتفخر بها سمر الاقلام على سمر الصعاد فابسط يدك لأخذ كتابها واسمع الطيب ذكرها بعد سعيك فى طلابها واعلم أن الطلاب اليها كثير لكنها صدت بك عن خطابها ولقد مضى عليها زمن وهى تفور حتى استنفادها الآن تأبيك ولم تسبق الاقدار باعك الا لتكون سليمانها وهى بلقيسك وهذا الوزير كان اسمه سليمان فسبقت المعنى اليه فجاء كما تراه من الحسن والاطافة وأما قولى وأنت مؤهل لواحدة فانه من الابهام من غير تفسير وذلك بخلاف ما ورد فى الآية المتقدم ذكرها لان تلك من التفسير بعد الابهام (ومما يتكلم فى هذا السلك) الاستثناء العددى وهو ضرب من المبالغة لطيف المأخذ وفائدته أنه أول ما يطرق سمع المخاطب ذكر المعقد من العدد فيكثر موقع ذلك عنده وهو شبيه بما ذكرناه من الابهام أولا ثم التفسير بعده ثانيا وذلك كقول القائل

أعطيته مائة الاعشرة أو أعطيته ألفا الامائة فان ذلك أبلغ من أن لو قال أعطيته تسعين أو تسعمائة (وعليه ورد) قوله تعالى ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الاخمسين عاما ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما للفائدة حسنة وهي ذكر ما ابتلي به نوح من أمته وما كابده من طول المصابرة ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من أمته وتثبيتاله فان ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل الى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وما لاقاه من قومه (النوع الثامن في استعمال العام في النفي والخاص في الاثبات) اعلم أنه اذا كان الشيا ن أحدهما خاصا والآخر عاما فان استعمال العام في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالة الاثبات وكذلك استعمال الخاص في حالة الاثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي (ومثال ذلك) الانسانية والحيوانية فان اثبات الانسانية يوجب اثبات الحيوانية ولا يوجب نفيها نفي الحيوانية وكذلك نفي الحيوانية يوجب نفي الانسانية ولا يوجب اثباتها اثبات الانسانية (ومما ينتظم بذلك) الاسماء المفردة الواقعة على الجنس التي يكون بينها وبين واحدها تاء التأنيث فانه متى أريد النفي كان استعمال واحدها أبلغ ومتى أريد الاثبات كان استعمالها أبلغ (وكذلك يتصل بهذا النوع) الصفتان الواردتان على شيء واحد فانه اذا لزم من وجود احداهما وجود الاخرى اكتفي بها في الذكر ولم يحتج الى ذكر الاخرى لانه يجيء ضمنا وتبعا أو أن يبدأ بها في الذكر أو لا ثم تجيء الاخرى بعدها وأما الصفات المتعددة فانه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالادنى مرتبة ثم بعدها بما هو أعلى منها الى أن ينتهي الى آخرها هذا في مقام المدح فان كان في مقام الذم عكست القضية فالاول وهو الخاص والعام نحو قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ولم يقل ذهب بضوئهم مراز نالقوله فلما أضاءت لان ذكر النور في حالة النفي أبلغ من حيث ان الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نورا لان الاضاءة هي فرط الانارة قال الله تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا فكل ضوء نور وليس كل نور ضوأ فالغرض من قوله تعالى ذهب الله بنورهم انما هو ازالة النور عنهم أصلا فهو اذا ازاله فقد أزال الضوء

وكذلك أيضا قوله تعالى ذهب الله بنورهم ولم يقل أذهب نورهم لان كل من ذهب بشئ فقد أذهبه وليس كل من أذهب شيأ فقد ذهب به لان الذهاب بالشئ هو استصحاب له ومضى به وفى ذلك نوع احتيار بالمذهوب به وامساك له عن الرجوع الى حالته والعود الى مكانه وليس كذلك الاذهاب للشئ لزوال معنى الاحتيار عنه (ومما يحمل على ذلك) الاوصاف الخاصة اذا وقعت على شيئين وكان يلزم من وصف أحدهما وصف الآخر ولا يلزم عكس ذلك ومثاله قوله تعالى سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض فانه انما خص العرض بالذكر دون الطول للمعنى الذى أشرنا اليه والمراد بذلك انه اذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها وهذا فى حالة الاثبات ولو أريد النفى لكان له أسلوب غير ما ذكرناه وهو أنه كان يخص به الطول دون العرض (وأما الاسماء المفردة الواقعة على الجنس) فنحو قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين فانه انما قال ليس بى ضلالة ولم يقل ليس بى ضلال كما قالوا لان نفى الضلالة أبلغ من نفى الضلال عنه كما لو قيل ألك تمر فقلت فى الجواب مالى تمرة وذلك أنفى للتمر ولو قلت مالى تمر لما كان يؤدى من المعنى ما أداه القول الاول وفى هذا الموضع دقة تحتاج الى تفضل تام فينبغى لصاحب هذه الصناعة مراعاته والعناية به (فان قيل) لافرق بين الضلالة والضلال وكلاهما مصدر قولنا ضل يضل ضلالا وضل يضل ضلالة كما يقال لذ يلذ لذاذة (فالجواب) عن ذلك أن الضلالة تكون مصدرا كما قلت وتكون عبارة عن المرة الواحدة تقول ضل يضل ضلالة أى مرة واحدة كما تقول ضرب يضرب ضربة وقام يقوم قومة وأكل يأكل أكلة والمراد بالضلالة فى هذه الآية انما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال فقد نفى ما فوقها من المرتين والمرار الكثيرة (وأما الصفتان الواردتان على شئ واحد) فكقول الاشتر النخعى

حلقت وفرى وانحرفت عن العلى * ولقيت أضيافى بوجه عبوس
ان لم أشن على ابن حرب غارة * لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالى شزبا * تعدو ببيض فى الكريهة شوس
حمى الحديد عليهم فكأنه * لمعان برق أو شعاع شموس

ألا ترى أنه رقى فى التشبيه من الادنى الى الاعلى فقال لمعان برق أو شعاع شموس لان لمعان البرق دون شعاع الشموس (ومما ورد من ذلك فى القرآن الكريم) قوله تعالى مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فان وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة وعلى القياس المشار اليه أولا فينبغى أن يكون لايغادر كبيرة ولاصغيرة لانه اذا لم يغادر صغيرة فالاولى أن لايغادر كبيرة وأما اذا لم يغادر كبيرة فانه يجوز أن يغادر صغيرة لانه اذا لم يعف عن الصغيرة فيقتضى القياس أنه لايعفو عن الكبيرة واذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة غير أن القرآن الكريم أحق أن يتبع وأجدر بأن يقاس عليه لاعلى غيره والذى ورد فيه من هذه الآية ناقض لما تقدم ذكره (وكذلك ورد قوله تعالى) فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما لان التأفيف أدنى درجة وقد تقدم قولى فى أول هذا النوع انه اذا جاءت صفتان يلزم من وجود احداهما وجود الاخرى أن يكتفى بذكرها دون الاخرى لان الاخرى تجىء ضمنا وتبعا وأن يبدأ بها فى الذكر ثم تجىء الاخرى بعدها وعلى هذا فيقال أولا فلا تنهرهما ولا تقل لهما أف لكن اذا لم يقل لهما أف امتنع أن ينهرهما وقد كان هذا هو المذهب عندى حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه وحينئذ عدت عما كنت أراه وأقول به (وأما الصفات المتعددة الواردة على شىء واحد) فكقول أبى عبادة البحترى فى وصف نحول الركاب

يترقرقن كالسراب وقد خضـ ـن غمارا من السراب الجارى
كالقسى المعطفات بل الاسـ ـهم مبرية بل الاوتار

ألا ترى أنه رقى فى تشبيه نحولها من الادنى الى الاعلى فشبهها أولا بالقسى ثم بالاسهم المبرية وتلك أبلغ فى النحول ثم بالاوتار وهى أبلغ فى النحول من الاسهم وكذلك ينبغى أن يكون الاستعمال فى مثل هذا الباب وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك نحن جملتهم أبو الطيب المتنبى فى قوله

يابدر يابحر ياغمامة يا * ليث الشرى ياحمام يارجل

و ينبغى أن يبدأ فيه بالادنى فالادنى فانه اذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل الى محل أعلى منه واذا خالفه كان كالمنحط من محل الى محل أدنى منه فأما قوله يابدر فانه اسم الممدوح والابتداء به أولى ثم بعده فيجب أن يقول يارجل ياليث

يا عمامة يا بحر يا همام لان الليث أعظم من الرجل والبحر أعظم من الغمامة والهمام أعظم من البحر وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من منزلة الى منزلة حتى ينتهي الى المنزلة العليا آخرا ولو كان مقام ذم لعكس القضية وعلى مثله ورد قول أبي تمام يفتخر

سمابي أوس في الفخار وحاتم * وزيد القنا والاثرمان ورافع
نجوم طوالع جبال قوارع * غيوث هوامع سيول دوافع

فان السيول دون الغيوث والجبال دون النجوم ولو قدم ما أخر لما اختل النظم بأن قال سيول دوافع غيوث هوامع * جبال قوارع نجوم طوالع

وهذا عندي أشد ملامة من المتنبي لان المتنبي لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها وأبو تمام متمكن من ذلك وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع مع معرفته بالمعاني (النوع التاسع في التقديم والتأخير) وهذا باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة منها ما استخرجته أنا ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان وسأورد ذلك مبينا (وهو ضربان) الاول يختص بدلالة الالفاظ على المعاني ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لما تغير المعنى (فأما الضرب الاول فانه ينقسم الى قسمين) أحدهما يكون التقديم فيه هو الابلغ والآخر يكون التأخير فيه هو الابلغ (فأما القسم الذي يكون التقديم فيه هو الابلغ) فكتقديم المفعول على الفعل وتقديم الخبر على المبتدا وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل كقولك زيدا ضربت وضربت زيدا فان في قولك زيدا ضربت تخصيصا له بالضرب دون غيره وذلك بخلاف قولك ضربت زيدا لانك اذا قدمت الفعل كنت بالخيار في ايقاعه على أي مفعول شئت بأن تقول ضربت خالدا أو بكرا او غيرهما واذا أخرته لزم الاختصاص للمفعول وكذلك تقديم خبر المبتدا عليه كقولك زيد قائم وقائم زيد فقولك قائم زيد قد أثبت له القيام دون غيره وقولك زيد قائم أنت بالخيار في اثبات القيام له ونفيه عنه بأن تقول ضارب أو جالس أو غير ذلك وهكذا يجري الحكم في تقديم الظرف كقولك ان الى مصير هذا الامر وقولك ان مصير هذا الامر الي فان تقديم الظرف دل على أن مصير الامر ليس الا اليك وذلك

بخلاف ذلك فإن من قدر هذا الامر الى اذ يحتمل ايقاع الكلام بعد الظرف
على غيرك فيقال الى زيد أو عمرو أو غيرهما وكذلك يجري الامر في الحال
والاستثناء. وقال علماء البيان ومنهم الزمخشري رحمه الله ان تقديم هذه
الصورة المذكورة انما هو للاختصاص وليس كذلك والذي عندي فيه
انه يستعمل على وجهين أحدهما الاختصاص والآخر مراعاة نظم الكلام
وذاك أن يكون نظمه لا يحسن الا بالتقديم واذا أخر المقدم ذهب ذلك الحسن
وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص فأما الاول الذي هو الاختصاص
فنحو قوله تعالى قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي اليك
والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله
فاعبد وكن من الشاكرين فانه انما قيل بل الله فاعبد ولم يقل بل اعبد الله لانه
اذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ولو قال بل اعبد لجاز ايقاع
الفعل على أي مفعول شاء. وأما الوجه الثاني الذي يختص بنظم الكلام
فنحو قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أن التقديم
في هذا الموضع قصد به الاختصاص وليس كذلك فانه لم يقدم المفعول فيه على
الفعل للاختصاص وانما قدم لمكان نظم الكلام لانه لو قال نعبدك ونستعينك
لم يكن له من الحسن ما لقوله اياك نعبد واياك نستعين ألا ترى انه تقدم قوله
تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فجاء بعد ذلك قوله اياك
نعبد واياك نستعين وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون
ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن وهذا غير
خاف على أحد من الناس فضلا عن أرباب علم البيان وعلى نحو منه ورد قوله
تعالى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى وتقدير
الكلام فأوجس موسى في نفسه خيفة وانما قدم المفعول على الفاعل وفصل بين
الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصدا لتحسين النظم وعلى هذا فليس كل
تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص فبطل اذا ما ذهب اليه الزمخشري
وغيره (ومما ورد من هذا الباب) قوله تعالى خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه فان
تقديم الجحيم على التصلية وان كان فيه تقديم المفعول على الفعل الا أنه لم يكن
ثم للاختصاص وانما هو للفضيلة السجعية ولا مراء في أن هذا النظم على هذه

الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم (فان قيل) انما قدمت الجحيم للاختصاص لانها نار عظيمة ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها كما يقال ضربت زيدا او زيدا ضربت وقد تقدم الكلام على ذلك (فالجواب) عن ذلك أن الدركة الاسفل أعظم من الجحيم فكان ينبغي أن يخص بالذكر دون الجحيم على ماذهب اليه لانه أعظم وهذا لايذهب اليه الا من هو بمجرة عن رموز الفصاحة والبلاغة ولفظة الجحيم ههنا فى هذه الآية أولى بالاستعمال من غيرها لانها جاءت ملائمة لنظم الكلام ألاترى أن من أسماء النار السعير ولظى وجهنم ولو وضع بعض هذه الاسماء مكان الجحيم لما كان له من الطلاوة والحسن ما للجحيم والمقصود بذكر الجحيم انما هو النار اى صلوه النار وهكذا يقال فى ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه فانه لم يقدم السلسلة على السلك للاختصاص وانما قدمت لمكان نظم الكلام ولاشك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل ثم اسلكوه فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا والكلام على هذا كالكلام على الذى قبله وله فى القرآن نظائر كثيرة ألاترى الى قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فقوله والقمر قدرناه منازل ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص وانما هو من باب مراعاة نظم الكلام فانه قال والليل نسلخ منه النهار ثم قال والشمس تجرى فاقتضى حسن النظم أن يقول والقمر قدرناه ليكون الجميع على نسق واحد فى النظم ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة فى الحسن وعليه ورد قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وانما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعى (وأما تقديم خبر المبتدا عليه) فقد تقدمت صورته كقولك زيد قائم وقائم زيد فما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فانه انما قال ذلك ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم لان فى تقديم الخبر الذى هو مانعتهم على المبتدا الذى هو حصونهم دليلا على فرط اعتقادهم فى حصانتها وزيادة وثوقهم بمنعها اياهم وفى تصويب ضميرهم اسما لان واسناد الجملة اليه دليل على تقريرهم فى أنفسهم أنهم فى عزة وامتناع لايبالى معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض

وليس شئ من ذلك في قولك وظنوا أنّ حصونهم مانعتهم من الله (ومن تقديم خبر المبتدا) قوله تعالى قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم فانه انما قدم خبر المبتدا عليه في قوله أراغب أنت ولم يقل أأنت راغب لانه كان أهم عنده وهو به شديد العناية وفي ذلك ضرب من التعجب والانكار لرغبة ابراهيم عن آلهته وان آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها وهذا بخلاف ما لو قال أأنت راغب عن آلهتي (ومن غامض هذا الموضع) قوله تعالى واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا فانه انما قال ذلك ولم يقل فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لامرين أحدهما تخصيص الابصار بالشخوص دون غيرها أما الاول فلو قال فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع شاخصة غيره فيقول حائرة أو مطموسة أو غير ذلك فلما قدم الضمير اختص الشخوص بالابصار دون غيرها وأما الثاني فانه لما أراد أن الشخوص خاص بهم دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولا ثم بصاحبه ثانيا كأنه قال فاذا هم شاخصون دون غيرهم ولولا أنه أراد هذين الامرين المشار اليهما لقال فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة لانه أخصر بحذف الضمير من الكلام (ومن هذا النوع) قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر فقال هو الطهور ماؤه الحل ميتته وتقدير الكلام هو الذى ماؤه طهور وميتته حل لان الالف واللام ههنا بمعنى الذى (وأما تقديم الظرف) فانه اذا كان الكلام مقصودا به الاثبات فان تقديمه أولى من تأخيره وفائدته اسناد الكلام الواقع بعده الى صاحب الظرف دون غيره فاذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره وكلا هذين الامرين له موضع يختص به فاما تقديمه في النفي فانه يقصد به تفضيل المنفي عنه على غيره وأما تأخيره فانه يقصد به النفي أصلا من غير تفضيل فأما الاول وهو تقديم الظرف في الاثبات فكقولك في الصورة المتقدمة ان الى مصير هذا الامر ولو أخرت الظرف وقلت ان مصير هذا الامر الى لم يعط من المعنى ما أعطاه الاول وذلك أن الاول دل على أن مصير الامر ليس الا اليك وذلك بخلاف الثاني اذ يحتمل أن توقع الكلام بعد الظرف على غيرك فيقال الى زيد او عمرو أو غيرهما او على غيرهما ومنه جاء قوله تعالى ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم وكذلك جاء قوله تعالى يسبح لله ما في السموات

وما فى الارض له الملك وله الحمد فانه انما قدم الظرفين ههنا فى قوله له الملك وله الحمد ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره (وقد استعمل تقديم الظرف فى القرآن كثيرا) كقوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة أى تنظر الى ربها دون غيره فتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص وانما هو كالذى أشرت اليه فى تقديم المفعول وأنه لم يقدم للاختصاص وانما قدم من أجل نظم الكلام لان قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة أحسن من أن لو قيل وجوه يومئذ ناضرة ناظرة الى ربها والفرق بين النظمين ظاهر وكذلك قوله تعالى والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق فان هذا روعى فيه حسن النظم لا الاختصاص فى تقديم الظرف وفى القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك فمنها قوله تعالى الى ربك يومئذ المستقر وقوله تعالى ألا الى الله تصير الامور وله الحكم واليه ترجعون وعليه توكلت واليه أنيب فان هذه جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص وانما قدمت لمراعاة الحسن فى نظم الكلام فاعرف ذلك (وأما الثانى وهو تأخير الظرف وتقديمه فى النفى) فنحو قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه وقوله تعالى لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون فانه انما أخر الظرف فى الاول لان القصد فى ايلاء حرف النفى الريب نفى الريب عنه واثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعونه ولو أولاه الظرف لقصد أن كتابا آخر فيه الريب لا فيه كما قصد فى قوله تعالى لا فيها غول فتأخير الظرف يقتضى النفى أصلا من غير تفضيل وتقديمه يقتضى تفضيل المنفى عنه وهو خمر الجنة على غيرها من خمور الدنيا أى ليس فيها ما فى غيرها من الغول وهذا مثل قولنا لا عيب فى الدار وقولنا لا فيها عيب فالاول نفى للعيب عن الدار فقط والثانى تفضيل لها على غيرها أى ليس فيها ما فى غيرها من العيب فاعرف ذلك فانه من دقائق هذا الباب (وأما تقديم الحال) فكقولك جاء را كبا زيد وهذا بخلاف قولك جاء زيد را كبا اذ يحتمل أن يكون ضاحكا أو ماشيا أو غير ذلك (وأما الاستثناء) فجار هذا المجرى نحو قولك ما قام الا زيدا أحد أو ما قام أحد الا زيدا والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق (وأما القسم الثانى) فهو أن يقدم ما الاولى به

قوله فتقديم الظرف الخ لا يتفرع على ما ذكره

التأثير لان المعنى يختل بذلك ويضطرب وهذا هو المعاظلة المعنوية وقد قدمنا القول في المقالة الاولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين أحدهما لفظي والآخر معنوي أما اللفظي فذكرناه في بابه وأما المعنوي فهذا بابه وموضعه وهو كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف وتقديم الصلة على الموصول وغير ذلك مما يرد بيانه (فمن هذا القسم) قول بعضهم

فقد والشك بين لي عناء * بوشك فراقهم صرد يصيح

فانه قدم قوله بوشك فراقهم وهو معمول يصيح ويصيح صفة لصرد على صرد وذلك قبيح ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال هذا من موضع كذا رجل ورد اليوم وانما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها ومن هذا النحو قول الآخر

فأصبحت بعد خط بهجتها * كأن قفرا رسومها قلما

فانه قدم خبر كان عليها وهو قوله خط وهذا وأمثاله مما لا يجوز قياس عليه والاصل في هذا البيت فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها الا أنه على تلك الحالة الاولى في الشعر مختل مضطرب والمعاظلة في هذا الباب تتفاوت درجاتها في القبح وهذا البيت المشار اليه من أقبحها لان معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضا (ومما يجري هذا المجرى) قول الفرزدق

الى ملك ما أمه من محارب * أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وهو يريد الى ملك أبوه ما أمه من محارب وهذا أقبح من الاول وأكثر اختلالا (وكذلك جاء قوله أيضا)

وليست خراسان التي كان خالد * بها أسد اذ كان سيفا أميرها

وحديث هذا البيت ظريف وذاك أنه فيما ذكر يمدح خالد بن عبد الله القسري ويهجو أسدا وكان أسد وليها بعد خالد وكأنه قال وليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفا اذ كان أسد أميرها وعلى هذا التقدير ففي كان الثانية ضمير الشأن والحديث والجملة بعدها خبر عنها وقد قدم بعض ما اذ مضافة اليه وهو أسد عليها وفي تقديم المضاف اليه أو شيء منه على المضاف من القبح ما لا خفاء به وأيضا فان أسدا أحد جزأي الجملة المفسرة للضمير والضمير لا يكون تفسيره الا من

بعده ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج الى تفسير ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول وعلى هذا الورد قول الفرزدق أيضا

وما مثله في الناس الا مملكا * أبو أمه حي أبوه يقاربه

ومعنى هذا البيت وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا أبو أمه أبوه وعلى هذا المثال المصوغ في الشعر قد جاء مشوها كما تراه وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده لان مثله لا يجيء الا متكلفا مقصودا والا فاذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجري على سجيتها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا الضرب المشار اليه اذ المقصود من الكلام انما هو الايضاح والابانة وافهام المعنى فاذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما واعلم أن هذا الضرب من الكلام هو ضد الفصاحة لان الفصاحة هي الظهور والبيان وهذا عار عن هذا الوصف (وأما الضرب الثاني) الذي يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك فانه مما لا يحصره حد ولا ينتهي اليه شرح وقد أشرنا الى نبذة منه في هذا الكتاب ليستدل بها على أشباهها ونظائرها (فمن ذلك تقديم السبب على المسبب) كقوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين فانه انما قدم العبادة على الاستعانة لان تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب وأسرع لوقوع الاجابة ولو قال اياك نستعين واياك نعبد لكان جائز الا أنه لا يسد ذلك المسد ولا يقع ذلك الموقع وهذا لا يخفى على المنصف من أرباب هذه الصناعة وعلى نحو منه جاء قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا فقدم حياة الارض واسقاء الانعام على اسقاء الناس وان كانوا أشرف محلا لان حياة الارض هي سبب لحياة الانعام والناس فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر ولما كانت الانعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس لان حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم (ومن هذا الضرب تقديم الاكثر على الاقل) كقوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق

بالخيرات وانما قدّم الظالم لنفسه للايذان بكثرته وأن معظم الخلق عليه ثم أتى بعده بالمقتصدين لانهم قليل بالاضافة اليه ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل أعنى من المقتصدين فقدم الاكثر وبعده الاوسط ثم ذكر الاقل آخرا ولو عكست القضية لكان المعنى أيضا واقعا فى موقعه لانه يكون قد روعى فيه تقديم الافضل فالافضل (ولنوضح لك فى هذا وأمثاله طريقا تقتفيه فنقول) اعلم أنه اذا كان الشيآن كل واحد منهما مختصا بصفة فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت فى الذكر كهذه الآية فان السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة فقس على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله (ومن هذا الجنس) قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع فانه انما قدم الماشى على بطنه لانه أدل على القدرة من الماشى على رجلين اذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشى ثم ذكر الماشى على رجلين وقدمه على الماشى على أربع لانه أدل على القدرة أيضا حيث كثرت آلات المشى فى الاربع وهذا من باب تقديم الاعجب فالاعجب (فان قيل) قد ورد فى القرآن الكريم فى مواضع منه ما يخالف هذا الذى ذكرته كقوله تعالى فى سورة هود وما نؤخره الا لاجل معدود يوم يأتى لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار ثم قال وأما الذين سعدوا ففى الجنة فقدم أهل النار فى الذكر على أهل الجنة وهذا مخالف للاصل الذى أصلته فى هذا الموضع (فالجواب عن ذلك) أن هذا الذى أشرت اليه فى سورة هود وما أشبهه له أسرار تحتاج الى فضل تأمل وامعان نظر حتى تفهم أما هذا الموضع فانه لما كان الكلام مسوقا فى ذكر التخويف والتحذير وجاء على عقب قصص الاولين وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير كان الاليق أن يوصل الكلام بما يناسبه فى المعنى وهو ذكر أهل النار فمن أجل ذلك قدموا فى الذكر على أهل الجنة واذا رأيت فى القرآن شيأ من هذا القبيل وما يجرى مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين لك مكان الصواب منه واعلم أنه اذا كان مطلع الكلام فى معنى من المعانى ثم يجىء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر وكان المعنى المفضول مناسبا لمطلع الكلام فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت لانك ان قدمت الافضل فهو فى موضعه من التقديم وان قدمت المفضول فلان مطلع الكلام يناسبه وذكر

الشئ مع ما يناسبه أيضا وارد في موضعه (فمن ذلك) قوله تعالى وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير فانه انما قدم الاناث على الذكور مع تقدمهم عليهن لانه ذكر البلاء في آخر الآية الاولى وكفران الانسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الاولاد فقدم الاناث لان سياق الكلام انه فاعل ما يشاء لا ما يشاؤه الانسان فكان ذكر الاناث اللاتى هن من جملة ما لا يشاؤه الانسان ولا يختاره أهم والاهم واجب التقديم وليلى الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ولما أخر ذكر الذكور وهم أحقاء بالتقديم تدارك ذلك بتعريفه اياهم لان التعريف تنويه بالذكر كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الاعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرف أن تقديم الاناث لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال ذكرانا واناثا وهذه دقائق لطيفة قل من يتنبه لها أو يعثر على رموزها (ومن هذا الباب) قوله تعالى وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء فانه انما قدم الارض فى الذكر على السماء ومن حقها التأخير لانه لما ذكر شهادته على شؤن أهل الارض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله وما يعزب لاءم بينهما ليلى المعنى المعنى (فان قيل) قد جاء تقديم الارض على السماء فى الذكر فى مواضع كثيرة من القرآن (قلنا) اذا جاءت مقدمة فى الذكر فلابد لتقديمها من سبب اقتضاه وان خفى ذلك السبب وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض (النوع العاشر فى الحروف العاطفة والجارة) وهذا موضع لطيف المأخذ دقيق المغزى وما رأيت أحدا من علماء هذه الصناعة تعرض اليه ولا ذكره وما أقول انهم لم يعرفوه فان هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى لانه مذكور فى كتب العربية جميعها ولست أعنى بايراده ههنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع المعطوف عليه فى الاعراب ولا أن الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه بل أمر وراء ذلك وان كان

الحروف العاطفة والجارة

المرجع فيه الى الاصل النحوى (فأقول) ان أكثر الناس يضعون هذه الحروف فى غير مواضعها فيجعلون ما ينبغى أن يجر بعلى بفى فى حروف الجر وفى هذه الاشياء دقائق أذكرها لك أما حروف العطف فنحو قوله تعالى والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين فالاول عطفه بالواو التى هى للجمع وتقديم الاطعام على الاسقاء والاسقاء على الاطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ثم عطف الثانى بالفاء لان الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما ثم عطف الثالث بثم لان الاحياء يكون بعد الموت بزمان ولهذا جىء فى عطفه بثم التى هى للتراخى ولو قال قائل فى موضع هذه الآية الذى يطعمنى ويسقين ويمرضنى ويشفين ويميتنى ويحيين لكان للكلام معنى تام الا أنه لا يكون كمعنى الآية اذ كل شئ منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه (ومما جاء من هذا الباب) قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره ألا ترى أنه لما قال من نطفة خلقه كيف قال فقدره ولم يقل ثم قدره لان التقدير لما كان تابعا للخلقة وملازما لها عطفه عليها بالفاء وذلك بخلاف قوله ثم السبيل يسره لان بين خلقته وتقديره فى بطن أمه وبين اخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزمانا فلذلك عطفه بثم وعلى هذا جاء قوله تعالى ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره لان بين اخراجه من بطن أمه وبين موته تراخيا وفسحة وكذلك بين موته ونشوره أيضا ولذلك عطفهما بثم ولما لم يكن بين موت الانسان واقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء وهذا موضع من علم البيان شريف وقلما يتفطن لاستعماله كما ينبغى (ومما جاء من ذلك أيضا) قوله تعالى فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا وفى هذه الآية دليل على أن حملها به ووضعها اياه كانا متقاربين لانه عطف الحمل والانتباذ الى المكان الذى مضت اليه والمخاض الذى هو الطلق بالفاء وهى للفور ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التى هى للتراخى والمهلة ألا ترى أنه قد جاء فى الاخرى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره فلما كان بين تقديره فى البطن واخراجه منه مدة متراخية عطف ذلك بثم وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام فانها

عطفت بالفاء وقد اختلف الناس فى مدة حملها فقيل انه كان يحمل غيرها من النساء وقيل لا بل كان مدته ثلاثة أيام وقيل أقل وقيل أكثر وهذه الآية مزيلة للخلاف لانها دالة صريحا على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة وربما كان ذلك فى يوم واحد أو أقل أخذا بما دلت عليه الآية (ومما ورد من هذا الاسلوب) قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ففى الآية المتقدم ذكرها قال من نطفة خلقه فقدره فعطف التقدير على الخلق بالفاء لانه تابع له ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق وفى هذه الآية ذكر تفاصيل حاله فى تنقله فبدأ بالخلق الاول وهو خلق آدم من طين ولما عطف عليه الخلق الثانى الذى هو خلق النسل عطفه بثم لما بينهما من التراخى وحيث صار الى التقدير الذى يتبع بعضه بعضا من غير تراخ عطفه بالفاء ولما انتهى الى جعله ذكرا أو أنثى وهو آخر الخلق عطفه بثم (فان قيل) انه قد عطف المضغة على العلقة فى هذه الآية بالفاء وفى أخرى بثم وهى قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة (فالجواب عن ذلك) بياض بالأصل

(واعلم) أن فى حروف العطف موضعا تلتبس الفاء بالواو وهو موضع يحتاج فيه الى فضل تأمل وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه الا بالفاء دون الواو وقد يجىء من الافعال ما يلتبس بفعل المطاوعة ويعطى ظاهره أنه كذلك الا أن معناه يكون مخالفا لمعنى فعل المطاوعة فيعطف حينئذ بالواو لا بالفاء كقوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه فقوله أغفلنا قلبه ههنا بمعنى صادفناه غافلا وليس منقولا عن غفل حتى يكون معناه صددناه لانه لو كان كذلك لكان معطوفا عليه بالفاء وقيل فاتبع هواه وذلك أنه يكون مطاوعا وفعل المطاوعة لا يعطف الا بالفاء كقولك أعطيته فاخذ ودعوته فأجاب ولا تقول أعطيته وأخذ ولا دعوته وأجاب كما لا يقال كسرته وانكسر وكذلك لو كان معنى أغفلنا فى الآية صددنا ومنعنا لكان معطوفا عليه بالفاء وكان يقال ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه فلما لم يكن كذلك وكان

العطف عليه بالواو ونظيره بقيه أنه لما قال أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه
أن يكون معناه وجدناه غافلا فقد غفل لا محالة فكأنه قال ولا تطع من غفل قلبه
عن ذكرنا واتبع هواه أى لا تطع من فعل كذا وكذا بعد ذا فعاله التى توجب
ترك طاعته فاعرف ذلك (وأما حروف الجر) فان الصواب يشذ عن وضعها
فى مواضعها وقد علم أن فى للوعاء وعلى للاستعلاء كقولهم زيد فى الدار وعمرو
على الفرس لكن اذا أريد استعمال ذلك فى غيره ذين الموضعين مما يشكل
استعماله عدل فيه عن الاولى (فمما ورد منه) قوله تعالى قل من يرزقكم
من السموات والارض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين الاترى
الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفى الجر ههنا فانه انما خولف بينهما
فى الدخول على الحق والباطل لان صاحب الحق كأنه مستعل على فرس
جواد يركض به حيث شاء وصاحب الباطل كأنه منغمس فى ظلام منخفض فيه
لا يدرى أين يتوجه وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله فى الكلام وكثيرا
ما سمعت اذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الامور فيقول
له أنت على ضلالك القديم كما أعهدك فيأتى بعلى فى موضع فى وان كان هذا
جائزا الا أن استعمال فى ههنا أولى لما أشرنا اليه الاترى الى قوله تعالى
فى سورة يوسف قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم (ومن هذا النوع قوله تعالى)
انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب
والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فانه انما عدل عن اللام الى فى فى الثلاثة
الاخيرة للايذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام لان
فى للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشئ فى الوعاء
وأن يجعلوا مظنة لها وذلك لما فى فك الرقاب وفى الغرم من التخلص وتكرير
فى فى قوله وفى سبيل الله دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين وسياق
الكلام أن يقال وفى الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل فلما جىء
بفى مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد
فى استحقاق النفقة فيه وهذه لطائف ودقائق لا توجد الا فى هذا الكلام
الشريف فاعرفها وقس عليها (النوع الحادى عشر فى الخطاب بالجملة الفعلية
والجملة الاسمية والفرق بينهما) ولم أذكر هذا الموضع لان يجرى الامر فيه

قوله فى الثلاثة فيه تسمح ا ه

الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما

على مايجرى مجراه فقط بل لان يقاس عليه مواضع أخرى مماغاثله وتشابهه ولو كان شبها بعيدا وانما يعدل عن أحد الخطابين الى الآخر لضرب من التاكيد والمبالغة (فمن ذلك قولنا) قام زيد وان زيدا قائم وقولنا قام زيد معناه الاخبار عن زيد بالقيام وقولنا ان زيدا قائم معناه الاخبار عن زيد بالقيام أيضا الا ان فى الثانى زيادة ليست فى الاول وهى توكيده بان المشددة التى من شأنها الاثبات لما يأتى بعدها واذا زيد فى خبرها اللام فقيل ان زيدا لقائم كان ذلك أكثر توكيدا فى الاخبار بقيامه وهذا مثال يبنى عليه أمثلة كثيرة من غير هذا النوع (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم فانهم انما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بان المشددة لانهم فى مخاطبة اخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط فكان ذلك متقبلا منهم ورائجا عند اخوانهم وأما الذى خاطبوا به المؤمنين فانما قالوه تكلفا واظهارا للايمان خوفا ومداجاة وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسده لما راج لهم عند المؤمنين الا رواجا ظاهرا لا باطنا ولانهم ليس لهم فى عقائدهم باعث قوى على النطق فى خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به اخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا فى خطاب المؤمنين آمنا وفى خطاب اخوانهم انا معكم وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة فى علم الفصاحة والبلاغة (ومما يجرى هذا المجرى) ورود لام التوكيد فى الكلام ولا يجىء ذلك الا لضرب من المبالغة وفائدته أنه اذا عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه جىء باللام تحقيقا لذلك (فمما جاء منه) قوله تعالى فى أول سورة المنافقين اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون فانظر الى هذه اللامات الثلاثة الواردة فى خبر ان والاولى وردت فى قول المنافقين وانما وردت مؤكدة لانهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبى صلى الله عليه وسلم وغلوا فيه وبالغوا فى التملق وفى باطنهم خلافه وأما ما ورد فى الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه واللام فى الثانية لتصديق رسالته وفى الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه

من التصديق الذين هم على خلافه (وكذلك) ورد قوله تعالى في سورة يوسف
عليه السلام قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا
يرتع ويلعب وإنا له لحافظون فإنه إنما جيء باللام ههنا لزيادة التوكيد في إظهار
المحبة ليوسف عليه السلام والإشفاق عليه ليبلغوا الغرض من أبيهم
في السماحة بإرساله معهم (ومن هذا الباب) قوله تعالى أفرأيتم ما تحرثون
أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ثم قال
أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء
جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ألا ترى كيف أدخلت اللام في آية المطعوم دون آية
المشروب وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكانا
في العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب وكثيرا
ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج
في جعل الماء العذب ملحا إلى زيادة تأكيد فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد
المفيدة زيادة التحقيق وأما المطعوم فإن جعله حطاما من الأشياء الخارجة
عن المعتاد وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد فلذلك قرن بلام
التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقرير إيجاده (ومما يتصل بذلك) قوله تعالى
وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون فاللام في لنحن هي اللام المشار إليها
(وكذلك) ورد قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي
ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا فإن هذه اللام في قوله ليستخلفنهم
وليمكنن وليبدلنهم إنما جاءت لتحقيق الأمر وإثباته في نفوس المؤمنين وأنه
كائن لا محالة (ومما يجري هذا المجرى في التوكيد) لام الابتداء المحققة لما يأتي
بعدها كقوله تعالى إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا فاللام
في ليوسف لام الابتداء وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها أي أن
زيادة حبه إياهما أمر ثابت لا مراء فيه (ومن هذا النوع قول بعضهم)

والشيب إن يظهر فإن وراءه * عمرا يكون خلاله متنفس
لم ينتقص مني المشيب قلامة * ولما بقي مني ألب وأكيس

فقوله ولما بقي مني تقديره وما بقي مني وإنما أدخل على ما هذه اللام قصد التأكيد

المعنى لانه موضع يحتاج الى التأكيد ألا ترى أن قوة العمر فى الشباب ولما أراد هذا الشاعر أن يصف المشيب وليس مما يوصف وانما يذم أتى باللام لتؤكد ما قصده من الصفة وكذلك ورد قول الشاعر من أبيات الحماسة

الا لنصفح عن مجاهل قومنا * ونقيم سالفة العدو الاصيد

ومتى نجد يوما فساد عشيرة * نصلح وان نرصلاحا لانفسد

وهذا كثير سائغ فى الكلام الا أنه لا يتأتى لمكان العناية بما يعبر به عنه ألا ترى الى قول الشاعر الا لنصفح عن مجاهل قومنا فانه لما كان الصفح مما يشق على النفس فعله لانه مقابلة الشر بالخير والاساءة بالاحسان أكده باللام تحقيقا له فان عرى الموضع الذى يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار اليها وما يجرى مجراها فان ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه وأكثر ما تستعمل هذه اللام فى جواب القسم لتحقيق الامر المقسم عليه وذلك فى الايجاب دون المنفى لانها لا تستعمل فى النفى ألا ترى أنه لا يقال والله للاقت وانما يقال والله لاقت لكن فى الايجاب تستعمل ويكون استعمالها حسنا كقولك والله لاقوم فان أضيف اليها النونان الخفيفة والثقيلة كان ذلك أبلغ فى التأكيد كقولك والله لاقومن وعلى ذلك وردت الآية المقدم ذكرها وهى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات وان لم يكن جوابا لقسم فالنون الواردة بعد اللام زيادة فى التأكيد وهما تأكيدان أحدهما مردف بالآخر وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فاذا استعملت فى موضع فانما يقصد بها التأكيد (فمما جاء منهما) قول البحترى فى معاتبة الفتح بن خاقان

هل تجلبن الى عطفك موقف * ثبت لديك أقول فيه وتسمع

ما زال لى من حسن رأيك موئل * آوى اليه من الخطوب ومفزع

فعلام أنكرت الصديق وأقبلت * نحوى جناب الكاشحين تطلع

وأقام يطمع فى تهضم جانبى * من لم يكن من قبل فيه يطمع

الا يكن ذنب فعدلك واسع * أو كان لى ذنب فعفوك أوسع

وهذه أبيات حسنة مليحة فى بابها يحيى بها حزازة الصدود ويستمال بها صاعر المدود وانما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها والبيت الاول هو المراد ألا ترى أنه قال هل تجلبن الى عطفك موقف فالنون جاءت قصدا للتأكيد وهو فى هذا المقام

متمن فأحب أن يؤكد هذه الامثلة وكل ما يجيء من هذا الباب فانه واقع هذا الموقع واذا استعمل عبثا لغير فائدة تقتضيه فانه لا يكون استعماله الامن جاهل بالاسرار المعنوية وأما ما عثل به النحاة في قول القائل والله لاقومن فانه مثال نحوي يضرب للجواز والافاذا قال القائل والله لاقومن وأكده كان ذلك لغوا لانه ليس في قيامه من الامر العزيز ولامن الامر العسير ما يحتاج معه الى التأكيد بل لو قال والله لاقومن اليك مهددا له لكان ذلك واقعا في موقعه فافهم هذا وقس عليه (النوع الثاني عشر في قوة اللفظ لقوة المعنى) هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص الا أنه لم يورده كما أوردته أنا ولا نبه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه (فأقول) اعلم أن اللفظ اذا كان على وزن من الاوزان ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا لان الالفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للابانة عنها فاذا زيد في الالفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني وهذا لانزاع فيه لبيانه وهذا النوع لا يستعمل الافي مقام المبالغة (فمن ذلك) قولهم خشن واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو فعل وافعوعل وكذلك قولهم أعشب المكان فاذا رأوا كثرة العشب قالوا اعشوشب (ومما ينتظم بهذا السلك) قدر واقتدر فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر قال الله تعالى فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر فمقتدر ههنا أبلغ من قادر وانما عدل اليه للدلالة على تفخيم الامر وشدة الاخذ الذي لا يصدر الا عن قوة الغضب أو للدلالة على بسطة القدرة فان المقتدر أبلغ في البسطة من القادر وذلك أن مقتدرا اسم فاعل من اقتدر وقادرا اسم فاعل من قدر ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل وعلى هذا ورد قول أبي نواس

فعفوت عني عفو مقتدر • حلت له نقم فألغاها

أي عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة لا يرده شيء عن امضاء قدرته وأمثال هذا كثيرة وكذلك ورد قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا فان غفارا أبلغ في المغفرة من غافر لان فعالا يدل على كثرة صدور الفعل وفاعلا لا يدل على الكثرة وعليه ورد قوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فالتواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة بعد مرة وهو

فعال وذلك أبلغ من التائب الذى هو فاعل فالتائب اسم فاعل من تاب يتوب فهو تائب أى صدرت منه التوبة مرة واحدة فاذا قيل تواب كان صدور التوبة منه مرارا كثيرة وهذا وما يجرى مجراه انما يعمد اليه لضرب من التوكيد ولا يوجد ذلك الا فيما فيه معنى الفعلية كاسم الفاعل والمفعول وكالفعل نفسه نحو قوله تعالى فكبكبوا فيها هم والغاوون فان معنى كبكبوا من الكب وهو القلب الا أنه مكرر المعنى وانما استعمل فى الآية دلالة على شدة العقاب لانه موضع يقتضى ذلك ولربما نظر بعض الجهال فى هذا فقاس عليه زيادة التصغير وقال انها زيادة ولكنها زيادة نقص لانه يزاد فى اللفظ حرف كقولهم فى الثلاثى فى رجل رجيل وفى الرباعى فى قنديل قنيديل فالزيادة وردت ههنا فانتقصت من معنى هاتين اللفظتين وهذا ليس من الباب الذى نحن بصدد ذكره لانه عار عن معنى الفعلية والزيادة فى الالفاظ لا توجب زيادة فى المعانى الا اذا تضمنت معنى الفعلية لان الاسماء التى لا معنى للفعل فيها اذا زيدت استحال معناها ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عذب وهى ثلاثية الى الرباعى فقلنا عذيب على وزن جعفر لاستحال معناها ولم يكن لها معنى وكذلك لو نقلنا لفظة عسجد وهى رباعية الى الخماسى فقلنا عسجدد على وزن جحمرش لاستحال معناها وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية كقادر ومقتدر فان قادرا اسم فاعل قدر وهو ثلاثى ومقتدرا اسم فاعل اقتدر وهو رباعى فلذلك كان معنى القدرة فى اقتدر أشد من معنى القدرة فى قدر وهذا لا نزاع فيه وهذا الباب بجملته لا يقصد به الا المبالغة فى ايراد المعانى وقد يستعمل فى مقام المبالغة فينعكس المعنى فيه الى ضده كما جاء لابى كرام التميمى من شعراء الحماسة وهو قوله

لله تيم أى رمح طراد ❊ لاقى الحمام وأى نصل جلاد
ومحش حرب مقدم متعرض ❊ للموت غير مكذب جياد

فلفظة جياد قد وردت ههنا وانما أوردها هذا الشاعر وقصد بها المبالغة فى وصف شجاعة هذا الرجل فانعكس عليه المقصد الذى قصده لان جيادا من جيد فهو جياد أى وجد منه الجيد ودة مرارا كما يقال قتل فهو قتال أى وجد منه القتل مرارا واذا كان هذا الرجل غير جياد كان حائدا أى وجدت منه الحيدودة مرة واحدة واذا وجدت منه مرة كان ذلك جبنا ولم يكن شجاعة والاولى أن كان

قال غير مكذب بجانب (وينبغى) أن يعلم أنه اذا وردت لفظة من الالفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذى هو طريق المبالغة وحملها على غيره أن ينظر فيها فان اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه (فمن ذلك) قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها منى النفس فى أسماء لو تستطيعها وهى قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل رحمه الله وذكر فيها حديث الصلح بين بنى تغلب فما جاء فيها قوله

رفعت بضبعى تغلب ابنة وائل * وقد يئست أن يستقل صريعها

فكنت أمين الله مولى حياتها * ومولاك فتح يوم ذاك شفيعها

تألفتهم من بعد ماشردت بهم * حفائظ أخلاق بطىء رجوعها

فأبصر غاويهم المحجة فاهتدى * وأقصر غاليهم وداوى شروعها

فقوله تألفتهم من بعد ماشردت بهم يجوز أن تخفف لفظة شردت ويجوز أن تثقل والتثقيل هو الوجه لانه فى مقام الاصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا وتباينت قلوبهم وآراؤهم وكل مايجىء من الالفاظ على هذا النحو فينبغى أن يجرى هذا المجرى (وههنا نكتة لابد من التنبيه عليها) وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم الا فى نقل صيغة الى صيغة أكثر منها كنقل الثلاثى الى الرباعى والا فاذا كانت صيغة الرباعى مثلا موضوعة لمعنى فانه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثى الى مثل تلك الصيغة ألا ترى أنه اذا قيل فى الثلاثى قتل ثم نقل الى الرباعى فقيل قتل بتشديد التاء فان الفائدة من هذا النقل هى التكثير أى أن القتل وجد منه كثيرا وهذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما فان كلم على وزن قتل ولم يرد به التكثير بل أريد به أنه خاطبه سواء كان خطابه اياه طويلا أو قصيرا قليلا أو كثيرا وهذه اللفظة رباعية وليس لها ثلاثى نقلت عنه الى الرباعى لكن قد وردت بعينها ولها ثلاثى ورباعى فكان الرباعى أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى وذاك أن تكون كلم من الجرح أى جرح ولها ثلاثى وهو كلم مخففا أى جرح فاذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة واذا وردت مثقلة دلت على التكثير (وكذلك) ورد قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا فان لفظة رتل على وزن لفظة قتل ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة وانما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنى والتدبر وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثى لها حتى تنقل عنه الى

رباعي وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى إلا بالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه فاعرف ذلك (ومن ههنا) شذ الصواب عمن شذ عنه في عالم وعليم فإن جمهور علماء العربية يذهبون إلى أن عليما أبلغ في معنى العلم من عالم وقد تأملت ذلك وأنعمت نظري فيه فحصل عندي شك في الذي ذهبوا إليه والذي أوجب ذلك الشك هو أن عالما وعليما على عدة واحدة إذ كل منهما أربعة أحرف وليس بينهما زيادة ينقل فيها الأدنى إلى الأعلى والذي يوجبه النظر أن يكون الأمر على عكس ما ذكروه وذاك أن يكون عالم أبلغ من عليم وسببه أن عالما اسم فاعل من علم وهو متعد وأن عليما اسم فاعل من علم إلا أنه أشبه وزن الفعل القاصر نحو شرف فهو شريف وكرم فهو كريم وعظم فهو عظيم فهذا الوزن لا يكون إلا في الفعل القاصر فلما أشبهه عليم انحط عن رتبة عالم الذي هو متعد ألا ترى أن فعل بفتح الفاء وكسر العين يكون متعديا نحو علم وجهل ويكون قاصرا غير متعد نحو غضب وشبع وأما فعل بفتح الفاء وضم العين فإنه لا يكون إلا قاصرا غير متعد ولما كان فعل بفتح الفاء وكسر العين مترددا بين المتعدي والقاصر وكان فعل بفتح الفاء وضم العين قاصرا غير متعد صار القاصر أضعف مما يتردد بين المتعدي والقاصر وحيث كان الأمر كذلك وأشبه وزن المتعدي وزن القاصر حط ذلك من درجته وجعله في الرتبة دون المتعدي الذي ليس بقاصر هذا هو الذي أوجب لي التشكك فيما ذهب إليه غيري من علماء العربية ولعله كان ما ذهبوا إليه لأمر خفي عني ولم أطلع عليه (النوع الثالث عشر في عكس الظاهر) وهو نفي الشيء بإثباته وهو من مستطرفات علم البيان وذاك أنك تذكر كلاما يدل ظاهره أنه نفي لصفة موصوف وهو نفي للموصوف أصلا (فمما جاء منه) قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنثى فلتاته أي لا تذاع سقطاته فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثم فلتات غير أنها لا تذاع وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتنثى وهذا من أغرب ما توسعت فيه اللغة العربية وقد ورد في الشعر كقول بعضهم * ولا ترى الضب بها ينجحر * فإن ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هنالك ضب ولكنه غير منجحر وليس كذلك بل المعنى أنه لم يكن هنالك ضب أصلا وهذا

عكس الظاهر

النوع من الكلام قليل الاستعمال وسبب ذلك أن الفهم يكاد يأباه ولا يقبله الا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه وما كان عاريا عن قرينة فانه لا يفهم منه ما أراده قائله وما وضح ذلك فأقول أما قولنا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنثى فلتاته فان مفهوم هذا اللفظ انه كان هناك فلتات الا أنها تطوى ولا تنشر وتكتم ولا تذاع ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات الا بقرينة خارجة عن اللفظ وهي أنه قد ثبت في النفوس وتقرر عند العقول أن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم منزه عن فلتات تكون به وهو أكرم من ذلك وأوقر فلما قيل انه لا تنثى فلتاته فهمنا منه أنه لم يكن هناك فلتات أصلا وأما قول القائل * ولا ترى الضب بها ينجحر * فانه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه ما فهم من الاول بل المفهوم أنه كان هناك ضب ولكنه غير منجحر ولقد مكثت زمانا أطوف على أقوال الشعراء قصد الظفر بأمثلة من الشعر جارية هذا المجرى فلم أجد الا بيتا لامرئ القيس وهو

على لاحب لا يهتدى لمناره * اذا ساقه العود النباطي جرجرا

فقوله لا يهتدى لمناره أي أن له منارا الا أنه لا يهتدى به وليس المراد ذلك بل المراد أنه لا منار له يهتدى به ولى أنا في هذا بيت من الشعر وهو

أدنين جلباب الحياء فلن يرى * لذيولهن على الطريق غبار

وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يمشين هونا لحيائهن فلا يظهر لذيولهن غبار على الطريق وليس المراد ذلك بل المراد أنهن لا يمشين على الطريق أصلا أي أنهن مخبآت لا يخرجن من بيوتهن فلا يكون اذا لذيولهن على الطريق غبار وهذا أحسن رائق وهو أظهر بيانا من قوله * ولا ترى الضب بها ينجحر * فمن استعمل هذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا والا فليدع على أن الاكثار من استعماله عسر لانه لا يتناهر المعنى فيه (النوع الرابع عشر في الاستدراج) وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى وهو مخادعات الاقوال التي تقوم مقام مخادعات الافعال والكلام فيه وان تضمن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم الى الاذعان والتسليم واذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه لانه لا انتفاع بايراد الالفاظ المليحة الرائقة ولا

الاستدراج

المعانى اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها
والكلام فى مثل هذا ينبغى أن يكون قصيرا فى خلابه لا قصيرا فى خطابه فاذا لم
يتصرف الكاتب فى استدراج الخصم الى القاء يده والا فليس بكاتب ولا شبيه له
الا صاحب الجدل فكما أن ذاك يتصرف فى المغالطات القياسية فكذلك هذا
يتصرف فى المغالطات الخطابية وقد ذكرت فى هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذه
الطريق (فمن ذلك) قوله تعالى وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه
أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه
كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف
كذاب ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه فانه أخذهم بالاحتجاج
على طريقة التقسيم فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبه يعود
عليه ولا يتعداه أو يكون صادقا فيصيبكم بعض الذى يعدكم ان تعرضتم له
وفى هذا الكلام من حسن الادب والانصاف ما أذكره لك فأقول انما قال
يصبكم بعض الذى يعدكم وقد علم أنه نبى صادق وأن كل ما يعدهم به لابد وأن
يصيبهم لا بعضه لانه احتاج فى مقاولة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم
طريق الانصاف والملاطفة فى القول ويأتيهم من جهة المناصحة ليكون أدعى الى
سكونهم اليه فجاء بما علم أنه أقرب الى تسليمهم لقوله وأدخل فى تصديقهم اياه
فقال وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم وهو كلام المنصف فى مقابلة غير
المشتط وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يعد به
لكنه أردف بقوله يصبكم بعض الذى يعدكم ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام
فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا من أن يتعصب له وتقديم
الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه برطلهم فى صدر الكلام بما يزعمونه لئلا
ينفروا منه وكذلك قوله فى آخر الآية ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب أى
هو على الهدى ولو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة ولا عضده بالبينات وفى
هذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به وقد تضمن من اللطائف
الدقيقة ما اذا تأملته حق التأمل أعطيته حقه من الوصف (ومما يجرى على هذا
الأسلوب) قوله تعالى واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لابيه
يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ يا أبت انى قد جاءنى من

العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان
كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون
للشيطان وليا هذا كلام يهز أعطاف السامعين وفيه من الفوائد ما أذكره
وهو أنه لما أراد ابراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا
فيه من الخطا العظيم الذى عصى به أمر العقل رتب الكلام معه فى أحسن
نظام مع استعمال المجاملة واللطف والادب الجميل والخلق الحسن مستنصحا فى
ذلك بنصيحة ربه وذلك أنه طلب منه أولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه
موقظ من غفلته لان المعبود لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا مقتدرا على الثواب
والعقاب الا أنه بعض الخلق يستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية
ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبيين فكيف بمن جعل المعبود جمادا
لا يسمع ولا يبصر يعنى به الصنم ثم ثنى ذلك بدعوته الى الحق مترفقا به فلم يسم أباه
بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال ان معى لطائفة من العلم
وشيأ منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف وهب أنى وإياك
فى مسير وعندى معرفة بهداية الطريق دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل ثم ثلث
ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال ان الشيطان الذى استعصى على ربك
وهو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذى ورطك فى هذه الورطة وألقاك فى هذه
الضلالة وانما ألغى ابراهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته فى
نصيحة أبيه لانه لامعانه فى الاخلاص لم يذكر من جنايتى الشيطان الا التى
تختص بالله وهى عصيانه واستكباره ولم يلتفت الى ذكر معاداته آدم وذريته ثم
ربع ذلك بتخويفه اياه سوء العاقبة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ولكنه قال
انى أخاف أن يمسك عذاب فنكر العذاب ملاطفة لابيه وصدر كل نصيحة من هذه
النصائح بقوله يا أبت توسلا اليه واستعطافا وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه فانه قال
أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم فأقبل عليه بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه
باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بنى وقدم الخبر على المبتدا فى قوله أراغب أنت
لانه كان أهم عنده وفيه ضرب من التعجب والانكار لرغبة ابراهيم عن آلهته وفى
القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس لاسيما فى مخاطبات الانبياء صلوات
الله عليهم للكفار والرد عليهم وفى هذين المثالين المذكورين ههنا كفاية ومقنع

(وبلغني حديث) تفاوض فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما ومعاوية بن أبي سفيان في أمر ولده يزيد وذلك أن معاوية قال للحسين أما أمك فاطمة فانها خير من أمه و بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب وأما حبي يزيد فاني لو أعطيت به مثلك مل الغوطة لما رضيت وأما أبوك وأبوه فانهما تحاكما الى الله فحكم لابيه على أبيك وهذا كلام من معاوية كلما أمر رته بفكري عجبت من سداده وانصلاعه بلاغته وفصاحته فان معاوية علم ما لعلي رضي الله عنه من السبق الى الاسلام والاثر فيه وما عنده من فضيلة العلم بعرض في المنافرة الى شيء من ذلك ولم يقل أيضا ان الله أعطاني الدنيا ونزعها منكم لان هذا الافضل فيه اذ الدنيا ينالها البر والفاجر وانما صانع عن ذلك كله بقوله ان أباك وأباه تحاكما الى الله فحكم لابيه على أبيك وهذا قول ايهامي يوهم شبهة من الحق واذا شاء من شاء أن ينافر خصمه ويستدرجه الى الصمت عن الجواب فليقل هكذا

(النوع الخامس عشر في الايجاز) وهو حذف زيادات الالفاظ وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به الافرسان البلاغة من سبق الى غايتها وماصلى وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى وذلك لعلو مكانه وتعذر امكانه والنظر فيه انما هو الى المعاني لاالى الالفاظ ولست أعني بذلك أن تهمل الالفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع انما يختص بالمعاني فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة الى الدراهم الكثيرة فمن ينظر الى طول الالفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ومن ينظر الى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ولهذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم الفاتحة أم الكتاب واذا نظرنا الى مجموعها وجدناه يسيرا وليست من الكثرة الى غاية تكون بها أم البقرة وآل عمران وغيرهما من السور الطوال فعلمنا حينئذ أن ذلك لامر يرجع الى معانيها (والكلام في هذا الموضع) يخرج بنا الى غير ما نحن بصدده لانه يحتاج فيه الى ذكر المراد بالقرآن الكريم وما يشتمل عليه سوره وآياته الى حصر أقسام معانيه لكنا نشير في ذلك اشارة خفيفة (فنقول) المراد بالقرآن هو دعوة العباد الى الله تعالى ولذلك انحصرت سوره وآياته في ستة أقسام ثلاثة منها هي الاصول وثلاثة هي الفروع (أما الاصول) فالاول منها تعريف المدعو اليه وهو الله تعالى ويشتمل هذا الاصل

جواب معاوية للحسين حين تفاوضا في أمر يزيد

الايجاز

على ذكر ذاته وصفاته وأفعاله والاصل الثانى تعريف الصراط المستقيم الذى يجب ملازمته فى السلوك الى الله تعالى ويشتمل هذا الاصل على التبتل بعبادة الله بأعمال القلب وأعمال الجوارح والاصل الثالث تعريف الحال بعد الوصول الى الله تعالى أعنى بعد الموت ويشتمل هذا الاصل على تفصيل أحوال الدار الآخرة من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب وأشباه ذلك فهذه الاصول الثلاثة (وأما الفروع) فالاول منها تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله بهم من النصرة والادالة وتعريف أحوال المخالفين للدعوة والمحادين لها وكيفية صنع الله فى التدمير عليهم والتنكيل بهم والفرع الثانى ذكر مجادلة الخصوم ومحاجتهم وحلهم بالمجادلة والمحاجة على طريق الحق وهؤلاء هم اليهود والنصارى ومن يجرى مجراهم من أرباب الشرائع والفلاسفة والملحدة من غير أرباب الشرائع والفرع الثالث تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والاهبة للاستعداد وذلك قياس الشريعة وتبيين الحكمة فى أوامرها التى تتعلق بأفعال أهل التكليف فهذه الاقسام الستة المشار اليها هى التى يدور معانى القرآن عليها ولا يتعداها وههنا تقسيم آخر يطول الخطب فيه ولا حاجة الى ذكره واذا نظرنا الى سورة الفاتحة وتأملنا ما فيها من المعانى وجدناها مشتملة على أربعة أقسام من الستة المذكورة ولذلك سماها النبى صلى الله عليه وسلم أم الكتاب كما أنه قال ان سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن واذا نظرنا فى الاقسام الستة وجدنا سورة الاخلاص بمنزلة ثلث القرآن وكذلك قال صلى الله عليه وسلم آية الكرسى سيدة آى القرآن ويروى أنه سأل أبى ابن كعب رضى الله عنه فقال أى آية معك فى كتاب الله أعظم فقال الله لا اله الا هو الحى القيوم فضرب فى صدره وقال ليهنك العلم أبا المنذر وكل هذا يرجع الى المعانى لا الى الالفاظ فاعرف ذلك وبينه لرموزه وأسراره (واعلم) أن جماعة من مدعى علم البيان ذهبوا الى أن الكلام ينقسم قسمين فمنه ما يحسن فيه الايجاز كالاشعار والمكاتبات ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التى تقرأ فى ملا من عوام الناس فان الكلام اذا طال فى مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم ولو اقتصر فيه على الايجاز والاشارة لم يقع لاكثرهم حتى يقال فى ذكر الحرب التقى الجمعان وتطاعن الفريقان واشتد القتال وحمى النصال

وماجرى هذا المجرى والمذهب عندى فى ذلك ما أذكره وهو أن فهم العامة ليس شرطا معتبرا فى اختيار الكلام لانه لو كان شرطا لوجب على قياسه أن يستعمل فى الكلام الالفاظ العامية المبتذلة عندهم ليكون ذلك أقرب الى فهمهم لان العلة فى اختيار تطويل الكلام اذا كانت فهم العامة اياه فكذلك تجعل تلك العلة بعينها فى اختيار المبتذل من الكلام فانه لا خلاف فى أن العامة الى فهمه أقرب من فهم ما يقل استعمالهم اياه وهذا شئ مدفوع وأما الذى يجب توخيه واعتماده فهو أن يسلك المذهب القويم فى تركيب الالفاظ على المعانى بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الايضاح والابانة وليس على مستعمل ذلك أن يفهم العامة كلامه فان نور الشمس اذا لم يره الاعمى لا يكون ذلك نقصا فى استنارته وانما النقص فى بصر الاعمى حيث لم يستطع النظر اليه

على نحت القوافى من معادنها * وما على بأن لا تفهم البقر

(وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع) فلنرجع الى ما هو غرضنا وهو ما من الكلام على الايجاز وحده وأقسامه ونوضح ذلك ايضاحا جليا والله الموفق للصواب فنقول حد الايجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه والتطويل هو ضد ذلك وهو أن يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه فى الدلالة عليه كقول المجير السلولى من أبيات الحماسة

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق * الى غاية من يبتدرها يقدم

فصدر هذا البيت فيه تطويل لا حاجة اليه وعجزه من محاسن الكلام المتواصفة وموضع التطويل من صدره أنه قال طلوع الثنايا بالمطايا فان لفظة المطايا فضلة لا حاجة اليها وبيان ذلك أنه لا يخلو الامر فيها من وجهين اما أن يريد انه سابق الهمة الى معالى الامور كما قال الحجاج على المنبر عند وصوله العراق أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * أى أنا الرجل المشهور السابق الى معالى الامور فان أراد المجير بقوله طلوع الثنايا ما أشرت اليه فذكر المطايا يفسد ذلك المعنى لان معالى الامور لا يرقى اليها بالمطايا وان أراد الوجه الآخر وهو أنه كثير الاسفار فاختصاصه الثنايا بالذكر دون الارض من المفاوز وغيرها لا فائدة فيه وعلى كلا الوجهين فان ذكر المطايا فضلة لا حاجة اليه وهو تطويل بارد غث فقس على هذا المثال ما يجرى مجراه من التطويلات التى اذا أسقطت من الكلام بقى على حاله لم

يتغير شيء وكذلك يجرى الامر فى ألفاظ يوصل بها الكلام فتارة تجيء لفائدة وذلك قليل وتارة تجيء لغير فائدة وذلك كثير وأكثر ما ترد فى الاشعار ليوزن بها الابيات الشعرية وذلك نحو قولهم لعمرى ولعمرك ونحو أصبح وأمسى وظل وأضحى وبات وأشباه ذلك ونحو ياصاحبى ويا خليلى وما يجرى هذا المجرى (فمما جاء منه) قول أبي تمام

أقروا لعمرى لحكم السيوف * وكانت أحق بفصل القضاء

فان قوله لعمرى زيادة لا حاجة للمعنى اليها وهى حشو فى هذا البيت لا فائدة فيه الا اصلاح الوزن لا غير ألا ترى أنها من باب القسم وانما يرد القسم فى موضع يؤكد به المعنى المراد اثباته لانه مما يشك فيه أو مما يعز وجوده أو ما جرى هذا المجرى وهذا البيت الشعرى لا يفتقر معناه الى توكيد قسمى اذ لا شك فى أن السيوف حاكمة وأن كل أحد يقر لحكمها ويذعن لطاعتها وكذلك قوله أيضا

اذا ألم ألم عثرات دهر * بليت به الغداة من ألوم

فقوله الغداة زيادة لا حاجة للمعنى اليها لانه يتم بدونها لان عثرات الدهر لم تخل بالغداة ولا العشى وانما ملابسته ونيلها اياه لابد وأن يقع فى زمن من الازمنة كائنا ما كان ولا حاجة الى تعيينه بالذكر (وعلى هذا) ورد قول البحترى

ما أحسن الايام الا أنها * ياصاحبى اذا مضت لم ترجع

فقوله ياصاحبى زيادة لا حاجة بالمعنى اليها الا أنها وردت لتصحيح الوزن لا غير وهذه الالفاظ التى ترد فى الابيات الشعرية لتصحيح الوزن لا عيب فيها الا لو عبناها على الشعراء لحجرنا عليهم وضيقنا والوزن يضطر فى بعض الاحوال الى مثل ذلك لكن اذا وردت فى الكلام المنثور فانها ان وردت حشوا ولم ترد لفائدة كانت عيبا وقد ترد فى الابيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة وذلك هو الاحسن كقول البحترى

قوم أحاطوا الوفر حتى أصبحوا * أولى الانام بكل عرض وافر

وقوله أصبحوا بمعنى صاروا أى أنهم صاروا أولى الناس بالاعراض الوافرة وهذه اللفظة لم ترد فى هذا البيت حشوا كما وردت فى بيتى أبى تمام المقدم ذكرهما (وسأزيد هذا الموضع بيانا) بمثال أضربه للتطويل حتى يستدل به على أمثاله وأشباهه والمثال الذى أضرب به هو حكاية أوردت بمحضر منى وذلك أنه جلس الى فى بعض الايام جماعة من الاخوان وأخذوا فى مفاوضة الاحاديث وانساق ذلك الى ذكر

حكاية وقعت بحضرة المؤلف حكاها هنا للتطويل

غرائب الوقائع التى تقع فى العالم فذكر كل من الجماعة شيأ فقال شخص منهم انى كنت بالجزيرة العمرية فى زمن الملك فلان وكنت اذ اذاك صبيا صغيرا فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان فى الحارة الفلانية وصعدنا الى سطح طاحون لبنى فلان وأخذنا نلعب على السطح فوقع صبى منا الى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فخشينا أن يكون أذاه فأسرعنا النزول اليه فوجدناه قد وطئه البغل فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يعمل خيرا منها فقال له شخص من الحاضرين والله ان هذا حكى فاحش وتطويل كثير لا حاجة اليه فانك بصدد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبى منكم الى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو فى بلد لا نعرفه ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قادحا فى غرابتها وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان وكان زمن الملك فلان فان مثل هذا كله تطويل لا حاجة اليه والمعنى المقصود يفهم بدونه (فاعلم) أيها الناظر فى كتابى هذا أن الحذف بل هو زيادات الالفاظ فى الدلالة على المعانى ومهما أمكنك حذف شئ من اللفظ فى الدلالة على معنى من المعانى فان ذلك اللفظ هو التطويل بعينه (وأما الايجاز) فقد عرفتك أنه دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه (وهو ينقسم قسمين أحدهما) الايجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون الا فيما زاد معناه على لفظه (والقسم الآخر) ما لا يحذف منه شئ وهو ضربان أحدهما ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير والآخر ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر (واعلم أن القسم الاول) الذى هو الايجاز بالحذف يتنبه له من غير كبير كلفة فى استخراجه لمكان المحذوف منه (وأما القسم الثانى) فان التنبه له عسر لانه يحتاج الى فضل تأمل وطول فكرة لخفاء ما يستدل عليه ولا يستنبط ذلك الا من رست قدمه فى ممارسة علم البيان وصار له خليقة وملكة ولم أجد أحدا علم هذين القسمين بعلامة ولا قيدهما بقيد وقد أشرت الى ذلك فيما يأتى من هذا الباب عند تفصيل أمثلتهما فليؤخذ من هناك (فان قيل) ان هذا التقسيم الذى قسمته فى المحذوف وغير المحذوف ليس بصحيح لان المعانى ليست أجساما كالالفاظ حتى يصح التقدير بينهما فانك لو سلكت

جواز التقدير فى المساواة لم أسلم جواز الزيادة فليس لقائل أن يقول هذا المعنى زائد فى هذا اللفظ لانه ان قال ذلك قيل فمن أين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ وقد علم أن الالفاظ انما وضعت للدلالة على افهام المعانى فان قال انها فهمت من شئ خارج عن اللفظ قيل له فتلك الزيادة بازاء ذلك الشئ الخارج عن اللفظ والباقى مساو للفظ وان قال انها فهمت من اللفظ قيل فكيف تفهم منه وهى زائدة عليه فان قال انها فهمت من تركيبه لان التركيب أمر زائد على اللفظ قيل الالفاظ تدل بانفرادها على معنى وبتركيبها على معنى آخر واللفظ المركب يدل على معنى مركب واللفظ المفرد يدل على معنى مفرد وتلك الزيادة ان أريد بها زيادة معنى المركب على المركب فلا يخلو اما أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليها أو من دلالة شئ خارج فان كانت مفهومة من دلالته عليها لم تكن زائدة عليه اذ لو كانت زائدة عليه لما دل عليها وان كانت مفهومة من دلالة الشئ الخارج عنه فهى بازاء ذلك الشئ الخارج والباقى مساو للباقى (فالجواب عن ذلك) أن نقول هذا الذى ذكره كلام شبيه بالسفسطة وهو باطل من وجهين أحدهما أن المعانى اذا كانت لا تزيد على الالفاظ فيلزم من ذلك أن الالفاظ لا تزيد أيضا على المعانى لانهما متلازمان على قياسك ونحن نرى معنى قد دل عليه بألفاظ فاذا أسقط من تلك الالفاظ شئ لا ينتقص ذلك المعنى بل يبقى على حاله والوجه الآخر أن الايجاز بالحذف أقوى دليلا على زيادة المعانى على الالفاظ لانا نرى اللفظ يدل على معنى لم يتضمنه وفهم ذلك المعنى ضرورة لابد منه فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه (فان قيل) ان المعنى الزائد على اللفظ المحذوف لابد له من تقدير لفظ آخر يدل عليه وتلك الزيادة بازاء ذلك اللفظ المقدر (قلت فى الجواب عن ذلك) هذا لا ينقض ما ذهبت اليه من زيادة المعنى على اللفظ لان المعنى الزائد ظاهر واللفظ الدال عليه مضمر واذا كان مضمرا فلا ينطق به واذا لم ينطق به فكأنه لم يكن وحينئذ يبقى المعنى موجودا واللفظ الدال عليه غير موجود وكذلك كل ما يعلم من المعانى بفهوم الخطاب ألا ترى أنك اذا قلت لمن دخل عليك أهلا وسهلا علم أن الاهل والسهل منصوبان بعامل محذوف تقديره وجدت أهلا ولقيت سهلا الا أن لفظى وجدت ولقيت محذوفتان والمعنى الذى دلا عليه باق

فصار المعنى حينئذ مفهوما مع حذفهما فهو اذاً زائد لا محالة وكذلك جميع المحذوفات على اختلافها وتشعب مقاصدها وهذا لا نزاع فيه لبيانه ووضوحه (وقد سنح لى فى زيادة المعنى على اللفظ فى غير المحذوفات دليل أنا أذكره) وهو أنا نجد من الكلام ما يدل على معنيين وثلاثة واللفظ واحد والمعانى التى تحته متعددة فأما الذى يدل على معنيين فالكنايات جميعها كالذى ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم أنهم كانوا اذا خرجوا من عنده لا يتفرقون الا عن ذواق وهذا يدل على معنيين أحدهما الطعام الطعام أى أنهم لا يخرجون من عنده حتى يطعموا الآخر أنهم لا يتفرقون الا عن استفادة علم وأدب يقوم لانفسهم مقام الطعام لاجسامهم وأما الذى يدل على ثلاثة معان فكقول أبى الطيب المتنبى

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً * لمن بات فى نعمائه يتقلب

فهذا يدل على ثلاثة معان الاول أنه يحسد من أنعم عليه الثانى ضد الاول الثالث أنه يحسد كل رب نعمة كائناً من كان أى يحسد من بات فى نعماء نفسه يتقلب وهذا وأمثاله من أدل الدليل على زيادة المعنى على اللفظ وهو شئ استخرجته ولم يكن لاحد فيه قول سابق (وحيث فرغنا من الكلام) على هذا الموضع فلنتبعه بذكر أقسام الايجاز المشار اليها أولا وما ينصرف اليه (فنقول) أما الايجاز بالحذف فانه عجيب الامر شبيه بالسحر وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الافادة أزيد للافادة وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق وأتم ما تكون مبيناً اذا لم تبين وهذه جملة تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر والاصل فى المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون فى الكلام ما يدل على المحذوف فان لم يكن هناك دليل على المحذوف فانه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب ومن شرط المحذوف فى حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام الى شئ غث لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن وقد يظهر المحذوف بالاعراب كقولنا أهلا وسهلا فان نصب الاهل والسهل يدل على ناصب محذوف وليس لهذا من الحسن ما للذى لا يظهر بالاعراب وانما يظهر بالنظر الى تمام المعنى كقولنا فلان يحل ويعقد فان ذلك لا يظهر المحذوف فيه بالاعراب وانما يظهر بالنظر الى تمام المعنى أى أنه

يصل الامور وبعدها والذى يظهر بالاعراب يقع فى المفردات من المحذوفات
كثيرا والذى لايظهر بالاعراب يقع فى الجمل من المحذوفات كثيرا (وسأذكر فى
كتابى هذا ما وصل الى علمه وهو ينقسم قسمين) أحدهما حذف الجمل والآخر
حذف المفردات وقد يرد كلام فى بعض المواضع ويكون مشتملا على القسمين
معا (فأما القسم الاول) وهو الذى تحذف منه الجمل فانه ينقسم الى قسمين أيضا
(أحدهما) حذف الجمل المفيدة التى تستقل بنفسها كلاما وهذا أحسن
المحذوفات جميعها وأدلها على الاختصار ولا تكاد تجده الا فى كتاب الله تعالى
(والقسم الآخر) حذف الجمل غير المفيدة وقد ورد ههنا مختلطين (وجعلتهما أربعة
أضرب الضرب الاول) حذف السؤال المقدر ويسمى الاستئناف (ويأتى على
وجهين الوجه الاول) اعادة الاسماء والصفات وهذا يجيء تارة باعادة اسم من
تقدم الحديث عنه كقولك أحسنت الى زيد زيد حقيق بالاحسان وتارة يجيء
باعادة صفته كقولك أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك وهو
أحسن من الاول وأبلغ لانطوائه على بيان الموجب للاحسان وتخصيصه (فما
ورد من ذلك) قوله تعالى الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين
يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل
اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك
هم المفلحون والاستئناف واقع فى هذا الكلام على أولئك لانه لما قال الم ذلك
الكتاب الى قوله وبالآخرة هم يوقنون اتجه لسائل أن يقول ما بال المستقلين بهذه
الصفات قد اختصوا بالهدى فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن
يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا (الوجه الثانى) الاستئناف بغير
اعادة الاسماء والصفات وذلك كقوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه
ترجعون أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيأ ولا
ينقذون انى اذا لفى ضلال مبين انى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال
ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين فخرج هذا القول مخرج
الاستئناف لان ذلك من مظان المسئلة عن حاله عند لقاء ربه وكأن قائلا قال كيف
حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى دينه والتسخى لوجهه بروحه
فقيل قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض الى المقول لا الى المقول له

مع كونه معلوما وكذلك قوله تعالى ياليت قومى يعلمون مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد ومن هذا النحو قوله عز وجل يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب والفرق بين اثبات الفاء فى سوف كقوله تعالى قل يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم وبين حذف الفاء ههنا فى هذه الآية أن اثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل وحذفها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه ان شاء الله تعالى (الضرب الثانى) الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب (فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب) فكقوله تعالى وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى له وعليه ولكنا أوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب الذى هو الوحى على عادة اختصارات القرآن لان تقدير الكلام ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى الى موسى الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول على آخرهم وهو القرن الذى أنت فيهم العمر أى أمد انقطاع الوحى فاندرست العلوم فوجب ارسالك اليهم فأرسلناك وعرفناك العلم بقصص الانبياء وقصة موسى فالمحذوف اذا جملة مفيدة وهى جملة طويلة دل السبب فيها على المسبب وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضا وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون فان فى هذا الكلام محذوفا لولاه لما فهم لانه قال وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك وهذا لا بد له من محذوف حتى يستقيم نظم الكلام وتقديره ولكن عرفناك ذلك وأوحيناه اليك رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك فذكر الرحمة التى هى سبب ارساله الى الناس ودل بها على المسبب الذى هو الارسال وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام قالت أنى يكون لى

غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فقوله ولنجعله آية للناس تعليل معلله محذوف أى وانما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس فذكر السبب الذى صدر الفعل من أجله وهو جعله آية للناس ودل به على المسبب الذى هو الفعل (ومما ورد من ذلك) فى الاخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضى الله عنه والرجل الانصارى الذى خاصمه فى شراج الحرة التى يسقى منها النخل فلما حضرا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير اسق ثم أرسل الماء الى جارك فغضب الانصارى وقال يارسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر وفى هذا الكلام محذوف تقديره أن كان ابن عمتك حكمت له أو قضيت له أو ما يجرى هذا المجرى فذكر السبب الذى هو كونه ابن عمته ودل به على المسبب الذى هو الحكم أو القضاء لدلالة الكلام عليه (وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب) فكقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أى اذا أردت قراءة القرآن فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة عن السبب الذى هو الارادة والدليل على ذلك أن الاستعاذة قبل القراءة والذى دلت عليه الآية أنها بعد القراءة كقول القائل اذا ضربت زيدا فاجلس فان الجلوس انما يكون بعد الضرب لا قبله وهذا أولى من تأول من ذهب الى أنه أراد فاذا تعوذت فاقرأ فان ذلك قلب لا ضرورة تدعو اليه وأيضا فليس كل مستعيذ واجبة عليه القراءة (وعلى هذا ورد) قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم والوضوء انما يكون قبل الصلاة لا عند القيام اليها لأن القيام اليها هو مباشرة لافعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك وهذا انما يكون بعد الوضوء وتأويل الآية اذا أردت القيام الى الصلاة فاغسل فاكتفى بالمسبب عن السبب (وكذلك ورد) قول النبى صلى الله عليه وسلم اذا قام أحدكم الى الصلاة فليتوضأ أى اذا أراد القيام الى الصلاة وانما يعبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل لأن الفعل مسبب عن الارادة وهو مع القصد اليه موجود فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة (ومن ذلك قوله تعالى) فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا أى فضرب فانفجرت منه فاكتفى بالمسبب الذى هو الانفجار عن السبب الذى هو الضرب (الضرب الثالث) وهو الاضمار على شريطة التفسير

ذكر تخاصم الزبير مع الانصارى فى سقى النخل

وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره فيكون الآخر دليلا على الاول (وهو ينقسم الى ثلاثة أوجه الاول) أن يأتي على طريق الاستفهام فتذكر الجملة الاولى دون الثانية كقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين تقدير الآية أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه ويدل على المحذوف قوله فويل للقاسية قلوبهم (الوجه الثاني) يرد على حد النفي والاثبات كقوله تعالى لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا تقديره لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل ويدل على المحذوف قوله أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا (الوجه الثالث) أن يرد على غير هذين الوجهين فلا يكون استفهاما ولا نفيا واثباتا وذلك كقول أبي تمام

يتجنب الآثام ثم يخافها * فكأنما حسناته آثام

وهذا البيت تختلف نسخ ديوانه في اثباته فمنها ما يجيء فيه

يتجنب الايام خيفة غيها * فكأنما حسناته آثام

وليس بشيء لان المعنى لا يصح به وكنت سئلت عن معناه وقيل كيف ينطبق عجز البيت على صدره واذا تجنب الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاما فأفكرت فيه وأنعمت نظري فسنح لي في القرآن الكريم آية مثله وهي قوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة وفي صدر البيت اضمار مفسر في عجزه وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسناته آثام وهو على طباق الآية سواء (ومن الاضمار على شريطة التفسير) قول أبي نواس

سنة العشاق واحدة * فاذا أحببت فاستكن

فحذف لفظ الاستكانة من الاول وذكره في الثاني أي سنة العشاق واحدة وهي الاستكانة فاذا أحببت فاستكن ومن الناس من يقول فاذا أحببت فاستتن وهذا لا معنى له لانه اذا لم يبين سنة العشاق ما هي فبأي شيء يستن المستن منها لكنه ذكر السنة في صدر البيت من غير بيان ثم بينها في عجزه (الضرب الرابع) ما ليس بسبب ولا مسبب ولا اضمار على شريطة التفسير ولا استئناف (فأما ما حذف فيه من الجمل المفيدة) فكقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قال تزرعون

سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون وقال الملك ائتوني به قد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها فرجع الرسول اليهم فأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا لها أو فصدقوه عليها وقال الملك ائتوني به والمحذوف اذا كان كذلك دل عليه الكلام دلالة ظاهرة لانه اذا اثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه (وكذلك ورد) قوله تعالى في هذه السورة ايضا فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين قد حذف ايضا من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها ثم انهم تجهزوا وساروا الى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه (وقد ورد هذا الضرب في القرآن الكريم كثيرا) كقوله تعالى في سورة القصص وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى أمه كي تقر عينها في هذا المحذوف وهو جواب الاستفهام لانها لما قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم احتاج الى جواب لينتظم بما بعده من رده الى أمه والجواب فقالوا انعم فدلتهم على امرأة فجيء بها وهي أمه ولم يعلموا بها فأرضعته وهذه الجملة الثانية أعني قوله تعالى فرددناه الى أمه تدل على المحذوف لان رده الى أمه لم يكن الا بعد رد الجواب على أخته ودلالتها اياهم على امرأة ترضعه ويكفي هذا الموضع وحده لمن يتبصر في مواقع المحذوفات وكيفيتها (ومما يجري على هذا المنهج) قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام وقصة الهدهد في ارساله بالكتاب الى بلقيس قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم وفي هذا المحذوف تقديره فأخذ الكتاب وذهب به فلما ألقاه الى المرأة وقرأته قالت يا أيها الملأ (ومن حذف الجمل المفيدة) ما يعسر تقدير المحذوف منه بخلاف ما تقدم ألا ترى أن الآيات المذكورة كلها اذا تلاها المتأمل وجد معانيها متصلة من غير تقدير للمحذوفات التي حذفت منها ثم اذا قدرت تلك المحذوفات سهل

تقديرها بديهة النظر والذي أذكره الآن ليس كذلك بل اذا أمله المتأمل وجده غير متصل المعنى واذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه (فمما جاء منه) قوله تعالى وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب فهذا الكلام اذا أمله المتأمل لم يجده متصل المعنى ولم يتبين له مجيء ذكر داود عليه السلام بعد قوله تعالى اصبر على ما يقولون واذا أراد أن يقدرها هنا محذوفا يوصل به المعنى عسر عليه (وتقديره يحتمل وجهين أحدهما) أنه قال اصبر على ما يقولون وخوفهم أمر معصية الله وعظمها في عيونهم بذكر قصة داود الذي كان يباهي الانبياء وقد آتاه الله ما آتاه من النبوة والملك العظيم ثم لما زل زلة قوبل بكذا وكذا فما الظن بكم أنتم مع كفركم (والوجه الآخر) أنه قال اصبر على ما يقولون واحفظ نفسك أن تزل في شيء مما كلفته من مصابرتهم واحتمال أذاهم واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة فلقي من توبيخ الله ما لقي فهذا الكلام كما تراه يحتاج الى تقدير حتى يتصل بعضه ببعض وهو من أغمض ما يأتي من المحذوفات وينبه به على مواضع أخرى غامضة (وأما ما ورد) من هذا الضرب في حذف الجمل التي ليست بمفيدة فنحو قوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا هذا الكلام قد حذف منه جملة دل عليها صدره وهو البشرى بالغلام وتقديرها لما جاء الغلام ونشأ وترعرع قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة (وعلى هذا النهج ورد) قوله تعالى قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي وقد حذف من هذا الكلام جملة الا أنها غير مفيدة وتقديرها فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحال

من عبادة العجل قال لأخيه هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعني (وكذلك) ورد قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام من سورة النمل قال أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون وفي هذا محذوف تقديره فلما جاءه قال نكروا لها عرشها الا ان تنكيره لم يكن الا بعد أن جيء به اليه وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام وآخره وكان ذلك دليلا عليه (ومما ورد على ذلك شعرا) قول أبي الطيب المتنبي

لا أبغض العيس لكني وقيت بها * قلبي من الهم أو جسمي من السقم

وهذا البيت فيه محذوف تقديره لا أبغض العيس لانضائي اياها في الاسفار ولكني وقيت بها كذا وكذا فالثاني دليل على حذف الاول وهذا موضع يحتاج في استخراجه واستخراج أمثاله الى فكرة وتدقيق نظر (ومما يتصل بهذا الضرب) حذف ما يجيء بعد أفعل كقولنا الله أكبر فان هذا يحتاج الى تمام أي أكبر من كل كبير أو أكبر من كل شيء يتوهم كبيرا أو ما يجري هذا المجرى ومثله يرد قولهم زيد أحسن وجها وأكرم خلقا تقديره أحسن وجها من غيره وأكرم خلقا من غيره أو ما يجري هذا المجرى من الكلام وعليه ورد قول البحتري

الله أعطاك المحبة في الورى * وحباك بالفضل الذي لا ينكر

ولأنت أملأ في العيون لديهم * وأجل قدرا في الصدور وأكبر

أي أنت أملأ في العيون من غيرك (وأما القسم الثاني) المشتمل على حذف المفردات فانه يتصرف على أربعة عشر ضربا (الاول) حذف الفاعل والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل كقول العرب أرسلت وهم يريدون جاء المطر ولا يذكرون السماء ومنه قول حاتم

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يريد النفس ولم يجر لها ذكر (وعلى هذا ورد) قوله تعالى كلا اذا بلغت التراقي وقيل من راق والضمير في بلغت للنفس ولم يجر لها ذكر وقد نص عثمان

ابن جني رحمه الله تعالى على عدم الجواز في حذف الفاعل وهذه الآية وهذا البيت الشعري وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف ما ذهب اليه الا أن حذف الفاعل لا يجوز على الاطلاق بل يجوز فيما هذا سبيله وذلك أنه لا يكون الا فيما دل الكلام عليه ألا ترى أن التي تبلغ التراقي انما هي النفس وذلك عند الموت فعلم حينئذ أن النفس هي المرادة وان كان الكلام خاليا عن ذكرها وكذلك قول حاتم حشرجت فان الحشرجة انما تكون عند الموت (وأما قول العرب) أرسلت وهم يريدون أرسلت السماء فان هذا بقوله نظرا الى الحال وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجيء المطر ولم ترد في شيء من أشعارهم ولا في كلامهم المنثور وانما يقولها بعضهم لبعض اذا جاء المطر فالفرق بينها وبين حشرجت وبين بلغت التراقي ظاهر وذاك أن حشرجت وبلغت التراقي يفهم منهما أن النفس التي حشرجت وأنها هي التي بلغت التراقي وأما أرسلت فلولا شاهد الحال والا لم يجز أن تكون دالة على مجيء المطر ولو قيل في معرض الاستسقاء انا خرجنا نسأل الله فلم نزل حتى أرسلت افهم من ذلك أن التي أرسلت هي السماء ولابد في الكلام من دليل على المحذوف والا كان لغوا لا يلتفت اليه (الضرب الثاني) حذف الفعل وجوابه (اعلم أن حذف الفعل ينقسم قسمين أحدهما) يظهر بدلالة المفعول عليه كقولهم في المثل أهلك والليل فنصب أهلك والليل يدل على محذوف ناصب تقديره الحق أهلك وبادر الليل وهذا مثل يضرب في التحذير (وعليه ورد) قوله تعالى فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ومما ورد منه في الاخبار النبوية أن جابرا تزوج فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتزوجت قال ثيبا فقال له فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك يريد فهلا تزوجت جارية فحذف الفعل لدلالة الكلام عليه (ومما ورد منه شعرا) قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته الكافية التي يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع بن بويه ومطلعها * فدى لك من يقصر عن مداكا * وسأذكر الموضع الذي حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الابيات بعضها ببعض وهي من محاسن ما يؤتى به في معنى الوداع ولم يأت لغيره مثلها وهي

اذا التوديع أعرض قال قلبي * عليك الصمت لا صاحبت فاكا
ولولا أن أكثر ما تمنى * معاودة لقلت ولا مناكا
قد استشفيت من داء بداء * وأقتل ما أعلك ما شفاكا

فأستر منك نجوانا وأخفي ... همومًا قد أطلت لها العراكا

إذا عاصيتها كانت شدادًا ... وإن طاوعتها كانت ركاكا

وكم دون الثوية من حزين ... يقول له قدومي ذا بذاكا

ومن عذب الرضاب إذا أنخنا ... يقبّل رحل تروك والوراكا

يحرّم أن يمس الطيب بعدي ... وقد علق العبير به وصاكا

يحدّث مقلتيه النوم عني ... فليت النوم حدّث عن نداكا

وما أرضى لمقلته بحلم ... إذا انتبهت توهّمه ابتشاكا

ولا إلا بأن يصغي وأحكي ... فليتك لا يتيّمه هواكا

فقوله ولا مناكا فيه محذوف تقديره ولا صاحبت مناكا وكذلك قوله ولا إلا بأن يصغي وأحكي فإن فيه محذوفًا تقديره ولا أرضى إلا بأن يصغي وأحكي (وأما القسم الآخر) فإنه لا يظهر فيه قسم الفعل لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام (فما جاء منه قوله تعالى) وعرضوا على ربك صفًا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة فقوله لقد جئتمونا يحتاج إلى إضمار فعل أي فقيل لهم لقد جئتمونا أو فقلنا لهم وقد استعمل هذا في القرآن الكريم في غير موضع كقوله تعالى ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا فقوله أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا يحتاج إلى تقدير الفعل المضمر وكذلك ورد قوله تعالى ووصينا الإنسان بوالديه حسنًا وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله وإن جاهداك لا بد من إضمار القول أي وقلنا له إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما (ومن هذا الضرب) إيقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما كقوله تعالى فأجمعوا أمركم وشركاءكم وهو لأمركم وحده وإنما المراد أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم لأنه يقال أجمعوا لمن أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه وقد قرأ أبي رضي الله عنه فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم وهذا دليل على ما أشرت إليه وكذلك هو مثبت في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (ومن حذف الفعل باب يسمى باب إقامة المصدر مقام الفعل) وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد كقوله تعالى فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب فقوله فضرب الرقاب أصله فاضربوا الرقاب ضربًا فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه

وفى ذلك اختصار مع اعطاء معنى التوكيد المصدرى (وأما حذف جواب الفعل) فانه لايكون فى الامر المحتوم كقوله تعالى فذرهم يخوضوا ويلعبوا فيجزم يخوضوا ويلعبوا لانهما جواب أمر فذرهم وحذف الجواب فى هذا لايدخل فى باب الايجاز لانا اذا قلنا ذرهم أى اتركهم لايحتاج ذلك الى جواب وكذلك مايجرى مجراه وانما يكون الجواب بالفاء فى ماض كقولنا قلت له اذهب فذهب وحينئذ يظهر الجواب المحذوف كقوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ألا ترى كيف حذف جواب الامر فى هذه الآية فان تقديره فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا اليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرا فذكر حاشيتى القصة أولها وآخرها لانهما المقصود من القصة بطولها أعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (ومن هذا الضرب أيضا) قوله تعالى قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب فجواب الامر من هذا الكلام محذوف تقديره فأرسله معهم ويدلنا على ذلك ماجاء بعده من قوله فلما ذهبوا به كما حذف أيضا فى قوله عز وجل وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة انا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان الآية فجواب الامر من هذا الموضع محذوف وتقديره فأرسلوه الى يوسف فأتاه فقال له يوسف أيها الصديق وكذلك قوله تعالى وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم قال ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه الآية ففى هذا الكلام حذف واختصار استغنى عنه بدلالة الحال عليه وتقديره فرجع الرسول الى الملك برسالة يوسف فدعا الملك بالنسوة وقال لهن ماخطبكن (وكذا ورد قوله تعالى) ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين وقد حذف جواب الامر ههنا وتقديره فأتوه به فلما كلمه وفى سورة يوسف عليه السلام محذوفات كثيرة من أولها الى آخرها فانظر أيها المتأمل الى هذه المحذوفات المذكورة ههنا

التي كأنها لم تحذف من هذا الكلام لظهور معناها وبيانه ودلالة الحال عليه وعلى نحو من ذلك ينبغي أن تكون محذوفات الكلام (الضرب الثالث) حذف المفعول به وذلك غامض بعدده أخص فات اللطائف فيه أكثروا عجب كقولنا فلان يحل ويعقد ويبرم وينقض ويضر وينفع والاصل في ذلك على اثبات المعنى المقصود في نفسك للشئ على الاطلاق وعلى هذا جاء قوله تعالى وانه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى ومن بديع ذلك قوله عز وجل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فان في هاتين الآيتين قد حذف المفعول به في أربعة أماكن اذ المعنى وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم وامرأتين تذودان مواشيهما وقالتا لا نسقي مواشينا فسقى لهما مواشيهما لان الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقي ومن الامرأتين ذود وأنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي فأما كون المسقي غنما أو ابلا أو غير ذلك فخارج عن الغرض وقد ورد في الشعر من هذا النوع قول البعيث بن حريث من أبيات الحماسة

دعاني يزيد بعد ما ساء ظنه • وعبس وقد كانا على حد منكب

وقد علما أن العشيرة كلها • سوى محضري من حاضرين وغيب

فالمفعول الثاني من علما محذوف لان قوله أن العشيرة في موضع مفعول علما الاول وتقدير الكلام قد علما أن العشيرة سوى محضري من حاضرين وغيب لاغناء عندهم أو سواء حضورهم وغيبتهم أو ما يجري هذا المجرى (ومن هذا الضرب أيضا) حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والارادة كقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم فمفعول شاء ههنا محذوف وتقديره ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (ومما جاء على مثال ذلك شعرا قول البحتري)

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم • كرما ولم تهدم مآثر خالد

الاصل في ذلك لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها فحذف ذلك من الاول استغناء بدلالته عليه في الثاني وقد تقدم أن من الواجب في حكم البلاغة

أن لا تنطق بالمحذوف ولا تظهره الى اللفظ ولو أظهرت لصرت الى كلام غث
ويجيء المشيئة بعد لو وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة الى شيء كثير
شائع بين البلغاء ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد حتى انهم لا يكادون
يبرزون المفعول الا في الشيء المستغرب كقوله تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولدا
لاصطفى مما يخلق ما يشاء (وعلى هذا الاسلوب) جاء قول الشاعر

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته * عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فلو كان على حد قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى لوجب أن يقول
ولو شئت لبكيت دما ولكنه ترك تلك الطريقة وعدل الى هذه لانه أليق في هذا
الموضع وسبب ذلك أنه كان بدعا عجيبا أن يشاء الانسان أن يبكي دما فلما كان
مفعول المشيئة مما يستعظم ويستغرب كان الاحسن أن يذكر ولا يضمر (الضرب
الرابع) وهو حذف المضاف والمضاف اليه واقامة كل واحد منهما مقام
الآخر وذلك باب عريض طويل شائع في كلام العرب وان كان أبو الحسن
الاخفش رحمه الله لا يرى القياس عليه (فأما حذف المضاف) فكقوله تعالى
حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فحذف المضاف
الى يأجوج ومأجوج وهو سدهما كما حذف المضاف الى القرية في قوله تعالى
واسئل القرية أي أهل القرية (ومن ذلك أيضا) قوله عز وجل ولكن البر
من اتقى أي خصلة من اتقى وان شئت كان تقديره ولكن ذا البر من اتقى والاول
أولى لان حذف المضاف ضرب من الاتساع والخبر أولى بذلك من المبتدا
لان الاتساع بحذف الاعجاز أولى منه بحذف الصدور وقد حذف المضاف
مكررا في قوله تعالى فقبضت قبضة من أثر الرسول أي من أثر حافر فرس الرسول
وهذا الضرب أكثر اتساعا من غيره (ومما جاء منه شعرا) قول بعضهم
من شعراء الحماسة

اذا لاقيت قومي فاسأليهم * كفى قوما بصاحبهم خبيرا

هل اعفوا عن أصول الحق فيهم * اذا عسرت واقتطع الصدورا

أراد أنه يقتطع ما في الصدور من الضغائن والاوغام أي يزيل ذلك باحسانه
من عفو وغيره فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (وأما حذف المضاف
اليه) فانه قليل الاستعمال فمما جاء منه قوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد

أى من قبل ذلك ومن بعده ودبما أدخل فى هذا الموضع ماليس منه كقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة قيل أراد ظهر الارض فحذف المضاف اليه وليس كذلك فان الهاء والالف قائمة مقام الارض ألا ترى ان قوله ظهرها يريد به الارض لانه ضمير راجع اليها وكذلك ورد قول جرير

اذا أخذت قيس عليك وخندف ● بأقطارها لم تدر من أين تسرح

وهذا لا يسمى ايجازا وانما هو تعريض بالضمير عن المضمر (الضرب الخامس) وهو حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام الآخر ولا يكون اطراده فى كل موضع وأكثر مجيء فى الشعر وانما كانت كثرته فى الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس فى اطراده (فمما جاء منه فى الشعر) قول البحترى من أبيات فى صفة ايوان كسرى فقال فى ذكر الصاور التى فى الايوان وذلك ان الفرس كانت تحارب الروم فصوروا صورة مدينة انطاكية فى الايوان وحرب الروم والفرس عليها فما ذكره فى ذلك قوله

واذا ما رأيت صورة انطا ● كية ارتعت بين روم وفرس

والمنايا مواثل وأنوشر ● وان يزجى الصفوف تحت الدرس

فى اخضرار من اللباس على أصـ ● ـفر يختال فى صبيغة ورس

فقوله على أصفر أى على فرس أصفر وهذا مفهوم من قرينة الحال لانه لما قال على أصفر علم بذلك أنه أراد فرسا أصفر والصفة تأتى فى الكلام على ضربين اما للتأكيد والتخصيص واما للمدح والذم وكلاهما من مقامات الاسهاب والتطويل لا من مقامات الايجاز والاختصار واذا كان الامر كذلك لم يلق الحذف به هذا مع ما يضاف اليه من الالتباس وضد البيان ألا ترى أنك اذا قلت مررت بطويل لم يبن من هذا اللفظ الممرور به انسان هو أم رمح أم ثوب أم غير ذلك واذا كان الامر على هذا فحذف الموصوف انما هو شئ قام الدليل عليه أو شهدت به الحال واذا استبهم كان حذفه غير لائق ومما يؤكد عندك ضعف حذفه انك تجد من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه وذلك أن تكون الصفة جملة نحو مررت برجل قام أبوه ولقيت غلاما وجهه حسن ألا ترى أنك لو قلت مررت بقام أبوه ولقيت وجهه حسن لم يجز (وقد ورد) حذف الموصوف

واقامة

وإقامة الصفة مقامه في غير موضع من القرآن الكريم كقوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة فإنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء وإنما يريد آية مبصرة فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه وقد تأملت حذف الموصوف في مواضع كثيرة فوجدت أكثر وقوعه في النداء وفي المصدر أما النداء فكقولهم يا أيها الظريف تقديره يا أيها الرجل الظريف وعليه ورد قوله تعالى يا أيها الساحر تقديره يا أيها الرجل الساحر وكذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا تقديره يا أيها القوم الذين آمنوا وأما المصدر فكقوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا تقديره ومن تاب وعمل عملا صالحا وقد أقيمت الصفة الشبيهة بالجملة مقام الموصوف المبتدا في قوله تعالى وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك أي قوم دون ذلك (وأما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها) فإنه أقل وجودا من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ولا يكاد يقع في الكلام الا نادرا لمكان استبهامه (فمن ذلك ما حكاه سيبويه رحمه الله) من قولهم سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل وإنما حذفت الصفة في هذا الموضع لما دل من الحال عليه وذلك أنه يحس في كلام القائل لذلك من التطريح والتطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل وأنت تحس هذا من نفسك اذا تأملته وهو أن يكون في مدح انسان والثناء عليه فتقول كان والله رجلا أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو ما جرى هذا المجرى من الصفات وكذلك تقول سألناه فوجدناه انسانا أي انسانا سمحا أو جوادا أو ما أشبهه فعلى هذا ونحوه تحذف الصفة فأما ان عريت عن الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فان حذفها لا يجوز وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ الا في صفة تقدمها ما يدل عليها أو تأخر عنها أو فهم ذلك من شيء خارج عنها أما الصفة التي تقدمها ما يدل عليها فقوله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا فحذف الصفة أي كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا ويدل على المحذوف قوله فأردت أن أعيبها فان عيبه اياها لم يخرجها عن كونها سفينة وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب فحذفت الصفة ههنا لأنه تقدمها ما يدل عليها وأما التي تأخر عنها ما يدل عليها فقول بعض شعراء الحماسة

كل امرئ ستئيم منه * العرس أو منها يئيم

فانه أراد كل امرئ متزوج اذ دل عليه ما بعده من قوله ستئيم منه أو منها ئيم اذ لا تئيم هي الا من زوج ولا يئيم هو الا من زوجة فجاء بعد الموصوف ما دل عليه ولولا ذلك لما صح معنى البيت اذ ليس كل امرئ يئيم من عرس ولا تئيم منه عرس الا اذا كان متزوجا وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شيء خارج عن الكلام فقول النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد فانه قد علم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال وهذا شيء لم يعلم من نفس اللفظ وانما علم من شيء خارج عنه

(الضرب السادس) وهو حذف الشرط وجوابه (فأما حذف الشرط) فنحو قوله تعالى يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون فالفاء في قوله تعالى فاعبدون جواب شرط محذوف لان المعنى ان أرضي واسعة فان لم تخلصوا لي العبادة في أرض فاخلصوها في غيرها ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص

(ومن هذا الضرب) قوله تعالى فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية أي فحلق فعليه فدية وكذلك قولهم الناس مجزيون بأعمالهم ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا أي ان فعل المرء خيرا يجزى خيرا وان فعل شرا يجزى شرا وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى ومن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر تقدير ذلك فأفطر فعدة من أيام أخر ولهذا ذهب داود الظاهري الى الاخذ بظاهر الآية ولم ينظر الى حذف الشرط فأوجب القضاء على المريض والمسافر سواء أفطر أو لم يفطر (ومن حذف الشرط) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون اعلم أن هذه الفاء التي في قول الشاعر فقد جئنا خراسانا وحقيقتها أنها في جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام كأنه قال ان صح ما قلتم ان خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص وكذلك هذه الآية يقول ان كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي قد تبين بطلان قولكم (وأما حذف جواب الشرط) فكقوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله

لايهدى القوم الظالمين فان جواب الشرط ههنا محذوف تقديره ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ويدل على المحذوف قوله تعالى ان الله لايهدى القوم الظالمين (الضرب السابع) وهو حذف القسم وجوابه فأما حذف القسم فنحو قولك لأفعلن أى والله لأفعلن أوغير ذلك من الاقسام المحلوف بها وأما حذف جوابه فكقوله تعالى والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر ألم تركيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد فجواب القسم ههنا محذوف تقديره ليعذبن أو نحوه ويدل على ذلك مابعده من قوله ألم تركيف فعل ربك بعاد الى قوله سوط عذاب (ومما ينتظم فى هذا السلك) قوله تعالى ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب فان معناه ق والقرآن المجيد لتبعثن والشاهد على ذلك مابعده من ذكر البعث فى قوله أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (وقد ورد هذا الضرب فى القرآن كثيرا) كقوله تعالى فى سورة النازعات والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة فجواب القسم ههنا محذوف تقديره لتبعثن أو لتحشرن ويدل على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامة فى قوله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة وكذلك الى آخر السورة (الضرب الثامن) وهو حذف لو وجوابها وذلك من ألطف ضروب الايجاز وأحسنها (فأما حذف لو) فكقوله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض تقدير ذلك اذ لو كان معه آلهة لذهب كل اله بما خلق (وكذلك) ورد قوله تعالى وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون تقديره اذ لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون وهذا من أحسن المحذوفات (ومما جاء من ذلك) شعرا قول بعضهم فى صدر الحماسة

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

اذا لقام بنصرى معشر خشن * عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا

فلو فى البيت الثانى محذوفة لانها فى البيت الاول قد استوفت جوابها بقوله لم تستبح ابلى ثم حذفها فى الثانى وتقدير حذفها اذ لو كنت منهم لقام بنصرى

معشر خشن أو اذا لو كانوا قومى لقام بنصرى معشر خشن (وأما حذف
جواب لو) فانه كثير شائع وذلك كقولك لو زرتنا لو ألممت بنا معناه
لأحسنا اليك أو لأكرمناك أو ما جرى هذا المجرى (ومما ورد منه فى القرآن
الكريم) قوله تعالى ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب فان
جواب لو ههنا محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة أو غير ذلك مما
جرى مجراه (ومما جاء على نحو من هذا) قوله عز وجل "ويقولون متى هذا الوعد
ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن
ظهورهم ولا هم ينصرون" تقديره لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه وهو وقت
صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ولا يقدرون على دفعها عن
أنفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء
والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم (ومما يجرى على هذا النهج)
قوله تعالى لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد فجواب لو فى هذا الموضع
محذوف كما حذف فى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أى لو أن لى بكم قوة
لدفعتكم أو منعتكم أو ما أشبهه وكذلك قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال
لكان هذا القرآن وهذا الضرب من المحذوفات أظهر الضروب المذكورة
وأوضحها للعلم الحاصل به لأن قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام لو أن لى
بكم قوة أو آوى الى ركن شديد يسارع الفهم الى أن الكلام يحتاج الى
جواب (ومما جاء منه شعرا) قول أبى تمام فى قصيدته البائية التى يمدح بها
المعتصم عند فتحه مدينة عمورية

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت • له العواقب بين السمر والقضب

فان هذا محذوف الجواب تقديره لو يعلم الكفر ذلك لأخذ أهبة الحذار أو غير
ذلك (واعلم) أن حذف هذا الجواب لا يسوغ فى أى موضع كان من الكلام
وانما يحذف ما دل عليه مكان المحذوف ألا ترى أنه قد ورد فى القرآن الكريم
غير محذوف كقوله تعالى ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا
انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون وهذا ليس كالذى تقدم من الآيات
لأن تلك علم مكان المحذوف منها وهذه الآية لو حذفت الجواب فيها لم يعلم
مكانه لأنه يحتمل وجوها منها أن يقال لما آمنوا أو لطلبوا ما وراء ذلك

وقد تقدّم القول في أول باب الايجاز أنه لابد من دلالة الكلام على المحذوف (الضرب التاسع) وهو حذف جواب لولا (فمن ذلك قوله تعالى) والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنت الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم فجواب لولا ههنا محذوف تقديره لما أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه (وكذلك ورد قوله تعالى) ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم تقديره ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعجل لكم العذاب أو فعل بكم كذا وكذا (الضرب العاشر) وهو حذف جواب لما وجواب أمّا (فأما حذف جواب لما) فكقوله تعالى فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين فان جواب لما ههنا محذوف وتقديره فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما أشبه ذلك مما اكتسبا بهذه المحنة من عظائم الوصف دنيا وآخرة وقوله انا كذلك نجزي المحسنين تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج والسرور بعد تلك الشدة العظيمة (وأما حذف جواب أمّا) فنحو قوله تعالى فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم (الضرب الحادي عشر) وهو حذف جواب اذا فمما جاء منه قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ألا ترى كيف حذف الجواب عن اذا في هذا الكلام وهو مدلول عليه بقوله الا كانوا عنها معرضين كأنه قال واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ثم قال ودأبهم الاعراض عن كل آية وموعظة (الضرب الثاني عشر) حذف المبتدا والخبر أما حذف المبتدا فلا يكون الا مفردا والاحسن هو حذف الخبر لان منه ما يأتي جملة

كقوله تعالى واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن وههنا قد حذف خبر المبتدا وهو جملة من مبتدا وخبر وتقديرها واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر (ومما ورد منه شعرا) قول أبي عبادة البحترى

كل عذر من كل ذنب ولكن * أعوز العذر من بياض العذار

وهذا انه حذف منه خبر المبتدا الا أنه مفرد غير جملة وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبول أو مسموع أو ما يجرى هذا المجرى (الضرب الثالث عشر) وهو حذف لا من الكلام وهي مرادة وذلك كقوله تعالى قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف يريد به لا تفتؤ أى لا تزال فحذفت لا من الكلام وهي مرادة (وعلى هذا) جاء قول امرئ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالى

أى لا أبرح قاعدا فحذفت لا في هذا الموضع وهي مرادة (ومما جاء منه) قول أبي محجن الثقفى لما نهاه سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه عن شرب الخمر وهو اذ ذاك في قتال الفرس بالقادسية

رأيت الخمر صالحة وفيها * مناقب تهلك الرجل الحليما
فلا والله أشربها حياتى * ولا أسقى بها أبدا نديما

يريد لا أشربها فحذف لا من الكلام وهي منه ومنه (الضرب الرابع عشر) وهو حذف الواو من الكلام واثباتها وأحسن حذفهما في المعطوف والمعطوف عليه واذا لم يذكر الحرف المعطوف به كان ذلك بلاغة وايجازا كقول أنس بن مالك رضى الله عنه كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينامون ثم يصلون ولا يتوضؤن أو قال ثم يصلون لا يتوضؤن فقوله لا يتوضؤن بحذف الواو أبلغ في تحقيق عدم الوضوء من قوله ولا يتوضؤن باثباتها كأنه جعل ذلك حالة لهم لازمة أى أنها داخلة في الجملة وليست جملة خارجة عن الاولى لان واو العطف تؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه واذا حذفت في مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جملة واحدة وقد جاء مثل ذلك في القرآن الكريم وذلك أنه يذكر جملا من القول كل واحدة منها مستقلة بنفسها ثم تسرد سردا بغير عاطف كقوله تعالى يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر تقدير هذا الكلام لا يألونكم خبالا وودّوا ما عنتّم وقد بدت البغضاء من أفواههم فلما حذفت الواو جاء الكلام أوجز وأحسن طلاوة وأبلغ تألفا ونظما وأمثاله في القرآن الكريم كثير (واعلم) أنه قد حذفت الواو وأثبتت في مواضع فأما اثباتها فنحو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم وأما حذفها فنحو قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو واثباتها في كل موضع وانما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين (وأنا أبين لك في ذلك رسما تتبعه فتقول اعلم) أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد الا يجوز اثبات الواو في خبره وحذفها كقولك ما رأيت رجلا الا وعليه ثياب وان شئت قلت الا عليه ثياب بغير واو فان كان الذي يقع على النكرة ناقصا فلا يكون الا بحذف الواو نحو قولك ما أظن درهما الا هو كافيك ولا يجوز الا وهو كافيك بالواو لأن الظن يحتاج الى شيئين فلا يعترض فيه بالواو لأنه يصير كالمكتفي من الأفعال باسم واحد وكذلك جواب ظننت وكان وان وأشباهها أخطأ أن تقول ان رجلا وهو قائم ونحو ذلك ويجوز هذا في ليس خاصة تقول ليس أحد الا وهو قائم لأن الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف نكرة ألا ترى أنك تقول ليس أحد وما من أحد فجاز فيها اثبات الواو ولم يجز في أظن لأنك لا تقول ما أظن أحدا فأما أصبح وأمسى ورأى فان الواو فيهن أسهل لأنهن تؤام في حال وكان وأظن وضوهما يبنين على النقص الا اذا كانت تامة وكذلك لا في التنزيه وغيرها نحو لا رجل وما من رجل فيجوز اثبات الواو فيها وحذفها (واعلم) أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيأ لا يجوز القياس عليه كقول بعضهم

كأن أباريقهم ظبي على شرف * مفدّم بسبا الكتان ملثوم

فقوله بسبا الكتان يريد بسبائب الكتان وكذلك قول الآخر

بدر بن جندل حاز لنو بها * فكأنما تذكى سنابكها الحبا

فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن وان كانت العرب قد استعملته فانه لا يجوز لنا أن نستعمله (وأما القسم الثاني من الايجاز) فهو ما لا يحذف منه شئ (وذلك ضربان أحدهما) ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير (والآخر) ما زاد معناه

على لفظه ويسمى الايجاز بالقصر (فأما الايجاز بالتقدير) فانه الذى يمكن التعبير عن معناه بمثل ألفاظه وفى عدتها (وأما الايجاز بالقصر فانه ينقسم قسمين أحدهما) مادل لفظه على محتملات متعددة وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها (والآخر) مايدل لفظه على محتملات متعددة ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها الابل يستحيل ذلك (ولنورد الآن الضرب الاول الذى هو الايجاز بالتقدير) فما جاء منه قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره كلا لما يقض ما أمره فقوله قتل الانسان دعاء عليه وقوله ما أكفره تعجب من افراطه فى كفران نعمة الله عليه ولا ترى أسلوبا أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ولا أخشن مساوا ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيه ولا أجمع للائمة على قصر متنه ثم انه أخذ فى صفة حاله من ابتداء حدوثه الى منتهى زمانه فقال من أى شئ خلقه ثم بين الشئ الذى خلق منه بقوله من نطفة خلقه فقدره أى هيأه لما يصلح له ثم السبيل يسره أى سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه أو السبيل الذى يختار سلوكه من طريق الخير والشر والاول أولى لانه تال لخلقته وتقديره ثم بعد ذلك يكون تيسير سبيله لما يختاره من طريق الخير والشر ثم أماته فأقبره أى جعله ذا قبر يوارى فيه ثم اذا شاء أنشره أى أحياه كلا ردع للانسان عما هو عليه لما يقض ما أمره أى لم يقض مع تطاول زمانه ما أمره الله به يعنى أن انسانا لم يخل من تقصير قط ألا ترى الى هذا الكلام الذى لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك لانك كنت تذهب بجزء من معناه والايجاز هو أن لا يمكنك أن تسقط شيأ من ألفاظه (والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرة) كقوله تعالى فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف فقوله فله ما سلف من جوامع الكلم ومعناه أن خطاياه الماضية قد غفرت له وتاب الله عليه فيها الا أن قوله فله ما سلف أبلغ أى أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه انما هو له وكذلك ورد قوله تعالى من كفر فعليه كفره فعليه كفره كلمة جامعة تغنى عن ذكر ضروب من العذاب لان من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئة وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون فهذه الآية من جوامع الآيات

الواردة فى القرآن الكريم وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له يا ابن أخى أعد فأعاد النبى صلى الله عليه وسلم قراءتها عليه فقال له ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر (ومن هذا الضرب) قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وهذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة التى دلت على تخويف وارهاب ترق له القلوب وتقشعر منه الجلود وهى مشتملة مع قصرها على حال الانسان منذ خلقه الى حين حشره وحشر غيره من الناس وتصوير ذلك الامر الفظيع فى أسهل لفظ وأقربه وما مررت عليها الا جددت لى موعظة وأحدثت عندى ايقاظا (ومن هذا الضرب) ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه لأبى سلمة عند موته فقال اللهم ارفع درجته فى المهتدين واخلفه فى عقبه فى الغابرين لنا وله يا رب العالمين وهذا دعاء جامع بين الايجاز وبين مناسبة الحال التى وقع فيها فأوله مفتتح بالمهم الذى يفتقر اليه المدعو له فى تلك الحال وهو رفع درجته فى الآخرة وثانيه مردف بالمهم الذى يؤثره المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده فى الدنيا وثالثه مختتم بالجمع بين الداعى والمدعو له وهذا من الايجاز البليغ الذى هو طباق ما قصد له وكلام النبى صلى الله عليه وسلم كله هكذا كما قال أوتيت جوامع الكلم وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فانه قال هذا يوم له ما بعده وهو شبيه بقوله تعالى له ما سلف (ولما جرح عمر بن الخطاب رضى الله عنه) الجراحة التى مات بها اجتمع اليه الناس فجاءه شاب من الانصار وقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله وقدم فى الاسلام ما علمت ووليت فعدلت ثم شهادة وهذا كلام سديد قد حوى المعنى المقصود وأتى به فى أوجز لفظ وأحسنه ومع ما فيه من الايجاز فانه مستغرب وسبب استغرابه أنه جعل الشهادة بشرى وأخرجها مخرج المسرة وتلطف فى ذلك فأبلغ ولو أراد الكاتب البليغ والخطيب المصقع أن يأتى بذلك

على هذا الوجه لأعزه (ومن هذا النمط) ما كتبه طاهر بن الحسين الى المأمون عند لقائه عيسى بن ماهان وهزمه اياه وقتله فكتب اليه كتابي الى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يديه وخاتمه في يدي وعسكره مصرف تحت أمري والسلام وهذا من الكتب المختصرة التي حوت الغرض المطوّل وما يكتب في هذا المقام مثله (ولما أرسل المهلب بن أبي صفرة) أبا الحسن المدائني الى الحجاج بن يوسف يخبره أخبار الازارقة كلمه كلاما موجزا كالذي نحن بصدد ذكره ههنا وذاك أن الحجاج سأله فقال كيف تركت المهلب فقال أدرك ما أمّل وأمن مما خاف فقال كيف هو لجنده قال والد رؤف قال كيف جنده له قال أولاد بررة قال كيف رضاهم عنه قال وسعهم بفضله وأغناهم بعدله قال كيف تصنعون اذا لقيتم العدو قال نلقاهم بجدنا ويلقونا بجدهم قال كذلك الجد اذا لقي الجد قال فأخبرني عن بني المهلب قال هم أحلاس القتال بالليل حماة السرج بالنهار قال أيهم أفضل قال هم كالحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها فقال الحجاج لجلسائه هذا والله هو الكلام الفصل الذي ليس بمصنوع (وقد ورد في الاخبار النبوية من هذا الضرب شئ كثير) وسأورد منه أمثلة يسيرة فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات وهذا الحديث من أجمع الاحاديث للمعاني الكثيرة وذاك أنه يشتمل على جل الاحكام الشرعية فان الحلال والحرام اما أن يكون الحكم فيهما بينا لا خلاف فيه بين العلماء واما أن يكون خافيا يتجاذبه وجوه التأويلات فكل منهم يذهب فيه مذهبا (وكذلك) يجاء قوله صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فان هذا الحديث أيضا من جوامع الاحاديث للاحكام الشرعية (ومن ذلك) قوله صلى الله عليه وسلم المضعف أمير الركب وقد ورد آخر هذا الحديث بلفظ آخر فقال صلى الله عليه وسلم سيروا بسير أضعفكم الا أن الاول أحسن لانه أبلغ معنى فان الامير واجب الحكم فهو يتبع واذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له في سيرهم ونزولهم وهذا المعنى لا يوجد في قوله سيروا بسير أضعفكم (وأحسن من هذا كله) ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في حديث مطوّل يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فقوله تعبد الله

كأنك تراه من جوامع الكلم لانه ينوب مناب كلام كثير كأنه قال تعبد الله مخلصا في نيتك واقفا عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع آخذا أهبة الحذر وأشباه ذلك لان العبد اذا خدم مولاه ناظرا اليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد اليه السبيل وما ينتهي اليه الطوق (ومما أطربني من ذلك) حديث الحديبية وهو أنه جاء بديل بن ورقاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له اني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ان قريشا قد نهكتهم الحرب فان شاؤا ماددناهم مدة ويدعوا بيني وبين الناس فان أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس والا كانوا قد جموا وان أبوا فوالذي نفسي بيده لاقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي هذه ولينفذن الله أمره وهذا الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي اليها وصف الواصف (وأما ما ورد من ذلك شعرا) فقول النابغة

فانك كالليل الذي هو مدركي * وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وتخصيصه الليل دون النهار مما يسئل عنه وكذلك قوله

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أي الرجال المهذب

(وعلى هذا الاسلوب) ورد قول الاعشى في اعتذاره الى أوس بن لام عن هجائه اياه

واني على ما كان مني لنادم * واني الى أوس بن لام لتائب

واني الى أوس ليقبل عذرتي * ويصفح عني ما حييت لراغب

فهب لي حياتي فالحياة لقائم * بشكرك فيها خير ما أنت واهب

سأمحو بمدح فيك اذ أنا صادق * كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

وهذا من المعاني الشريفة في الالفاظ الخفيفة وهو من قطانات الاعشى المشهورة (وعلى نحو منه) جاء قول الفرزدق

صحبناهم الشعث الجياد كأنها * قطا هيجته يوم ريح أجادله

الى كل حي قد خطبنا بناتهم * بأرعن جرار كثير صواهله

اذا ما التقينا انكحتنا رماحنا * من القوم ابكارا كراما عقائله

وانا لمتباعون تحت لوائنا * حمانا اذا ما عاذ بالسيف حامله

وهذا من محاسن ما جيء في هذا الباب (ومما يجري هذا المجرى) قول جرير

تمنى رجال من تميم منيتى * وما ذاد عن أحسابهم ذائدٌ مثلى
فلو شاء قومى كان حلمى فيهم * وكان على جهال أعدائهم مثلى

(وكذلك) ورد قوله متغزلا وهو من محاسن أقواله

سرت الهموم فبتن غير نيام * وأخو الهموم يروم كل مرام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الاقوام
ولقد أراك وأنت جامعة الهوى * أتنى بعهدك خير دار مقام
طرقتك صائدة القلوب فليس ذا * حين الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه * برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذى حدثتنا * لوصلت ذاك فكان غير رمام
ولقد أرانى والجديد الى بلى * فى موكب طرف الحديث كرام
لولا مراقبة العيون أريننا * حدق المها وسوالف الآرام
واذا مررن بميت بنظرة * نفذت نوافذها بغير سهام
هل تنفعنك ان قتلن مرقشا * أو ما فعلن بعروة بن حزام

وحلاوة هذا الكلام أحسن من ايجازه ولقد ادعو زغيره أن يأتى بمثله حتى أقر باعوازه (ومن باب الايجاز الذى يسمى التقدير) قول على بن جبلة

وما لامرئ حاولته عنك مهرب * ولو رفعته فى السماء المطالع
بلى هارب مايهتدى لمكانه * ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

فهذا هو الكلام الذى ألفاظه وفاق معانيه فانه قد اشتمل على مدح رجل بشمول ملكه وعموم سلطانه وأنه لا مهرب عنه لمن يحاوله وان صعد السماء ثم ذكر جميع المهارب فى المشارق والمغارب وأشار الى أنه يبلغ الظلام والضياء وذلك عمال تزد عبارته على المعنى المندرج تحته ولا قصرت عنه ومن هذا الضرب قول أبى نواس وهو من نادر ما يأتى فى هذا الموضع

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا * بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى * وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم * وانى على أمثال تلك لحابس
تدار علينا الراح فى عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها * مها تدريها بالقسى الفوارس

فللرّاح ما زرّت عليه جيوبها * وللماء ما دارت عليه القلانس

(وعلى التنبيه الى من اخبار ابن المزوع) قال سمعت الجاحظ يقول لا أعرف شعرا يفضل هذه الابيات التى لابى نواس ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال والله يا أبا عثمان ان هذا لهو الشعر ولو نقرته لطن فقلت له ويحك ما تفارق عمل الجرار والخزف ولعمري ان الجاحظ عرف فوصف وخبر فشكر والذى ذكره هو الحق

(وعلى هذا الاسلوب) جاء قول أبي تمام

انّ القوافى والمساعى لم تزل * مثل النظام اذا أصاب فريدا

هى جوهر نثر فان ألفته * بالشعر صار قلائدا وعقودا

فى كل معترك وكل مقامة * يأخذن منه ذمة وعهودا

فاذا القصائد لم تكن خفراءها * لم ترض منها مشهدا مشهودا

من أجل ذلك كانت العرب الاولى * يدعون هذا سوددا محدودا

وتند عندهم العلا الاعلا * جعلت لها مرر القريض قيودا

(وأما الضرب الثانى) وهو الايجاز بالقصر فان القرآن الكريم ملآن منه وقد تقدم القول أنه قسمان أحدهما مايدل على محتملات متعددة فمن ذلك قوله تعالى ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولاتخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأضل فرعون قومه وماهدى فقوله فغشيهم من اليم ماغشيهم من جوامع الكلم التى يستدل على قلتها بالمعانى الكثيرة أى غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة مالايعلم كنهه الا الله ولايحيط به غيره (ومن هذا الضرب) قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فجمع فى الآية جميع مكارم الاخلاق لان فى الامر بالمعروف صلة الرحم ومنع اللسان عن الغيبة وعن الكذب وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك وفى الاعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما (وقال بعض الاعراب) فى دعائه اللهم هب لى حقك وأرض عنى خلقك فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا هو البلاغة (ومن ذلك) قوله عز وجل أولئك لهم الأمن فانه دخل تحت الامن جميع المحبوبات وذلك أنه نفى به أن يخافوا شيأ من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة وغير ذلك من أصناف المكاره وأشباه هذا فى القرآن الكريم كثيرة فهو يكثر فى بعض

السرور ينقل في بعض قال النبي صلى الله عليه وسلم من شاء يرتع في الرياض الانافيّ فعليه بآل حم (ومن ذلك) قول النبي صلى الله عليه وسلم الخراج بالضمان وذلك أن رجلا اشترى عبدا فأقام عنده مدة ثم وجد به عيبا فخاصم البائع الى النبي صلى الله عليه وسلم فرده عليه فقال يا رسول الله انه استغل غلامي فقال الخراج بالضمان ومعنى قوله الخراج بالضمان أن الرجل اذا اشترى عبدا فاستغله ثم وجد به عيبا دلسه عليه البائع فله أن يرده ويسترجع الثمن جميعه ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان في مال المشترى وضمانه عليه واذا كان ضمانه عليه فخراجه له أى له ما تحصل من أجرة عمله (وأما ما ورد شعرا) فقول السموأل بن عاديا الغساني من جملة أبياته اللامية المشهورة وذلك قوله منها

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها • فليس الى حسن الثناء سبيل

فان هذا البيت قد اشتمل على مكارم الاخلاق جميعها من سماحة وشجاعة وعفة وتواضع وحلم وصبر وغير ذلك فان هذه الاخلاق كلها من ضيم النفس لانها تجد بحملها ضيما أى مشقة وعناء وقد تقدم القول أن الايجاز بالقصر يكون فيما تضمن لفظه محتملات كثيرة وهذا البيت من ذلك القبيل ولا أعلم أن شاعرا قديما ولا حديثا أتى بمثله وقد أخذه أبو تمام فأحسن في أخذه وهو

وظلمت نفسك طالبا انصافها • فعجبت من مظلومة لم تظلم

فطابق بين هذا المقابلة بين الضدين في الظلم والانصاف ثم قال فعجبت من مظلومة لم تظلم وهذا أحسن من الاول ومعنى قوله ظلمت نفسك طالبا انصافها أى أنك أكرهتها على مشاق الامور واذا فعلت ذلك فقد ظلمتها ثم انك مع ظلمك اياها قد أنصفتها لانك جلبت اليها أشياء حسنة تكسبها ذكرا جميلا ومجدا مؤثلا فأنت منصف لها في صورة ظالم وكذلك قوله فعجبت من مظلومة لم تظلم أى أنك ظلمتها وما ظلمتها لان ظلمك اياها أدى الى ما هو جميل حسن وهذا القدر في الامثلة كاف في هذا الباب (القسم الآخر من الضرب الثاني في الايجاز بالقصر) وهو الذى لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها وهو أعلى طبقات الايجاز مكانا وأعوزها امكانا واذا وجد في كلام بعض البلغاء فانما يوجد شاذا نادرا (فمن ذلك) ما ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى ولكم في القصاص حياة فان قوله تعالى القصاص حياة

لايمكن

التي يؤتى بها في الكلام قصد المبالغة ألا ترى أنه ضرب مفرد من بينها برأسه
لا يشاركه فيه غيره لأن من التأكيد ما يتعلق بالتقديم والتأخير كتقديم المفعول
بالاعتراض كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين المعطوف والمعطوف عليه
وأشباه ذلك وسيأتي الكلام عليه في بابه وهذا الضرب الذي هو الإطناب ليس
كذلك (ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه) فمنهم من ألحقه بالتطويل الذي هو
ضد الإيجاز وهو عنده قسم غيره فأخطأ من حيث لا يدري كأبي هلال
العسكري والغانمي حتى انه قال ان كتب الفتوح وما يجري مجراها مما يقرأ على
عوام الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنبا فيها وهذا القول فاسد لأنه ان
عني بذلك أنها تكون ذات معان متعددة قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة
من فتح أو غيره فذلك مسلم وان عني بذلك أنها تكون مكررة المعاني مطولة الالفاظ
قصد الافهام العامة فهذا غير مسلم وهو مما لا يذهب اليه من عنده أدنى
معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة ويكفي في بطلانه كتاب الله تعالى فانه لم يجعل
لخواص الناس فقط وانما جعل لعوامهم وخواصهم وأكثره لا بل
جميعه مفهوم الالفاظ للعوام الا كلمات معدودة وهي التي تسمى غريب القرآن
وقد تقدم الكلام على ذلك في المقالة الأولى المختصة بالالفاظ وعلى هذا فينبغي
أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوام الناس وخواصهم ذات ألفاظ سهلة
مفهومة وكذلك الاشعار والخطب ومن ذهب الى غير ذلك فانه بنجوة عن هذا
الفن وعلى هذا فان الاطناب لا يختص به عوام الناس وانما هو للخواص كما
هو للعوام وسأبين حقيقته في كتابي هذا وأحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة
التي خبط أرباب علم البيان من أجلها وقالوا أقوالا لا تعرب عن فائدة (والذي
عندي فيه) أنه اذا رجعنا الى الاسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسبا
لمسماه وهو في أصل اللغة مأخوذ من أطنب في الشيء اذا بالغ فيه ويقال أطنبت
الريح اذا اشتدت في هبوبها وأطنب في السير اذا اشتد فيه وعلى هذا فان
حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة في ايراد المعاني وهذا لا يختص
بنوع واحد من أنواع علم البيان وانما يوجد فيها جميعها اذ ما من نوع منها
الا ويمكن المبالغة فيه واذا كان الامر كذلك فينبغي أن يفرد هذا النوع من بينها
ولا يتحقق افراده الا بذكر حده الدال على حقيقته (والذي عندي فيه أن يقال)

هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فهذا حده الذي يميزه عن التطويل اذ التطويل
هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة وأما التكرير فانه دلالة اللفظ على المعنى
مرددا كقولك لمن تستدعيه أسرع أسرع فان المعنى مردد واللفظ واحد
وسيرد بيان ذلك مفصلا في بابه بعد باب الاطناب لاني ذكرت الايجاز ثم الاطناب
ثم التكرير وهي أبواب يتبع بعضها بعضا واذا كان التكرير هو ايراد المعنى
مرددا فمنه ما يأتي لفائدة ومنه ما يأتي لغير فائدة فأما الذي يأتي لفائدة فانه
جزء من الاطناب وهو أخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير يأتي لفائدة فهو
اطناب وليس كل اطناب تكريرا يأتي لفائدة وأما الذي يأتي من التكرير لغير
فائدة فانه جزء من التطويل وهو أخص منه فيقال حينئذ ان كل تكرير يأتي لغير
فائدة تطويل وليس كل تطويل تكريرا يأتي لغير فائدة وكنت قدمت القول
في باب الايجاز بان الايجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة عليه واذا
تقررت هذه الحدود الثلاثة المشار اليها فان مثال الايجاز والاطناب والتطويل
مثال مقصد يسلك اليه في ثلاثة طرق فالايجاز هو أقرب الطرق الثلاثة اليه
والاطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان في البعد اليه الا أن طريق
الاطناب تشتمل على منزه من المنازه لا يوجد في طريق التطويل وسيأتي بيان ذلك
بضرب الامثلة التي تسهل من معرفته (والاطناب يوجد) تارة في الجملة الواحدة
من الكلام ويوجد تارة في الجمل المتعددة والذي يوجد في الجمل المتعددة أبلغ
لاتساع المجال في ايراده (وعلى هذا فانه بجملته ينقسم قسمين القسم الاول)
الذي يوجد في الجملة الواحدة من الكلام (وهو يرد حقيقة ومجازا أما الحقيقة)
فمثل قولهم رأيته بعيني وقبضته بيدي ووطئته بقدمي وذقته بفمي وكل هذا
يظن الظان أنه زيادة لا حاجة اليها ويقول ان الرؤية لا تكون الا بالعين والقبض
لا يكون الا باليد والوطء لا يكون الا بالقدم والذوق لا يكون الا بالفم وليس الامر
كذلك بل هذا يقال في كل شيء يعظم مناله ويعز الوصول اليه فيؤكد
الامر فيه على هذا الوجه دلالة على نيله والحصول عليه كقول أبي عبادة البحتري

تأمل من خلال السجف وانظر * بعينك ما شربت ومن سقاني

تجد شمس الضحى تدنو بشمس * الي من الرحيق الخسرواني

ولما كان الحضور في هذا المجلس مما يعز وجوده وكان الساقي فيه على هذه

الصفة من الحسن قال انظر بعينك (وعلى هذا ورد) قوله تعالى ذلكم قولكم
بأفواهكم فان هذا القول لما كان فيه افتراء عظيم على الله تعالى على قائله ألا ترى
الى قوله تعالى فى قصة الافك اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس
لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم فصرح فى هذه الآية بما أشرت
اليه من تعظيم الامر المقول وفى مساق الآية المشار اليها جاء قوله تعالى
ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن
أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول
الحق وهو يهدى السبيل ألا ترى أن مساق الكلام أن الانسان يقول لزوجته
أنت على كظهر أمى ويقول لمملوكه يا بنى فضرب الله لذلك مثالا فقال كيف
تكون الزوجة أما وكيف يكون المملوك ابنا والجمع بين الزوجية والامومة
وبين العبودية والبنوة فى حالة واحدة كالجمع بين القلبين فى الجوف وهذا تعظيم
لما قالوه وانكار له ولما كان الكلام فى سياق الانكار والتعظيم أتى بذكر الجوف
والا فقد علم أن القلب لا يكون الا فى الجوف والتمثيل يصح بقوله ما جعل الله
لرجل من قلبين وهو تام لكن فى ذكر الجوف فائدة وهى ما أشرت اليها وفيها أيضا
زيادة تصوير للمعنى المقصود لانه اذا سمعه المخاطب به صور لنفسه جوفا يشتمل على
قلبين فكان ذلك أسرع الى انكاره (وعليه ورد) قوله تعالى فخر عليهم السقف
من فوقهم فكما أن القلب لا يكون الا فى الجوف فكذلك السقف لا يكون الا من
فوق وهذا المقام ترهيب وتخويف كما أن ذلك المقام انكار وتعظيم ألا ترى الى
هذه الآية بكمالها وهى قوله تعالى قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من
القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون
واذ كان لفظة فوقهم فائدة لا توجد مع اسقاطها من هذا الكلام وأنت تحس
هذا من نفسك فانك اذا تلوت هذه الآية تخيل اليك أن سقفا خر على أولئك
من فوقهم وحصل فى نفسك من الرعب ما لا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة
وفى القرآن الكريم من هذا النوع كثير كقوله تعالى فاذا نفخ فى الصور
نفخة واحدة وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة وقوله أفرأيتم اللات
والعزى ومناة الثالثة الاخرى وكل هذه الآيات انما أطنب فيها تأكيدا
لمعان اقتضتها فان النفخ فى الصور الذى تقوم به الاموات من القبور مهول

عظيم دل على القدرة الباهرة وكذلك حمل الارض والجبال فلما كانا بهذه
الصفة قيل فيهما نفخة واحدة ودكة واحدة أى ان هذا الامر المهول العظيم
سهل يسير على الله تعالى يفعل ويمضى الامر فيه بنفخة واحدة ودكة
واحدة ولا يحتاج فيه الى طول مدة ولا كلفة مشقة فجئ بذكر الواحدة لتأكيد
الاعلام بأن ذلك هين سهل على عظمه وهذه المواضع وأمثالها ترد فى القرآن
الكريم ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها وليس الامر كذلك
فان هذه الاسرار البلاغية لا يتنبه لها الا العارفون بها وكذا يرد
ما يرد منها فى كلام العرب (وههنا نكتة لا بد من الاشارة اليها) وذلك أنى نظرت
فى قوله تعالى نفخة واحدة ودكة واحدة وفى قوله تعالى ومناة الثالثة الاخرى
فوجدت ذلك غير مقيس على ما تقدم وسأبينه ببيان شاف فأقول ان قوله تعالى
ومناة الثالثة الاخرى انما جئ به لتوازن الفقر التى نظمت السورة كلها عليها
وهى والنجم اذا هوى ولو قيل أفرأيتم اللات والعزى ومناة ولم يقل الثالثة
الاخرى لكان الكلام عاريا عن الطلاوة والحسن وكذلك لو قيل ومناة الاخرى
من غير أن يقال الثالثة لانه نقص فى الفقرة الثانية عن الاولى وذلك قبيح
وقد تقدم الكلام عليه فى باب السجع لكن التأكيد فى هذه الآية جاء ضمنا
لتوازن الفقر وتبعا وأما نفخة واحدة ودكة واحدة فانما جئ بلفظ الواحدة
فيهما وقد علم أن النفخة هى واحدة والدكة هى واحدة لمكان نظم الكلام
لان السورة التى هى الحاقة جارية على هذا المنهاج فى توازنها السجعى ولو قيل
نفخة من غير واحدة ودكة من غير واحدة ثم قيل بعدهما فيومئذ وقعت الواقعة
لكان الكلام منثورا محتاجا الى تمام لكن التأكيد جاء فيهما ضمنا وتبعا
واذا تبين ذلك واتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات وبين قوله تعالى ما جعل
الله لرجل من قلبين فى جوفه ظاهر وذلك ان نفخة هى واحدة ومناة هى
الثالثة (وأما ما جاء منه على سبيل المجاز) فقوله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن
تعمى القلوب التى فى الصدور ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد تعورف وعلم أن
العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها
واستعماله فى القلب تشبيه ومثل فلما أريد اثبات ما هو خلاف المتعارف من
نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار احتاج هذا الامر الى زيادة

تصوير وتعريف استقر أن مكان العمى انما هو القلوب لا الابصار وهذا
موضع من علم البيان كثيرة محاسنه وافرة لطائفه والمجاز فيه أحسن من الحقيقة
لمكان زيادة التصوير في اثبات وصف الحقيقي للمجازي ونفيه عن الحقيقي
(وأما القسم الثاني المختص بالجمل) فانه يشتمل على ضروب أربعة (الاول)
منها أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة الا أن كل معنى يختص بخصيصة
ليست للآخر وذلك كقول أبي تمام

قطعت الى الزابين هباته • والتاث مأمور السحاب المسبل
من منة مشهورة وصنيعة • بكر واحسان أغر محجل

فقوله منة مشهورة وصنيعة بكر واحسان أغر محجل تداخلت معانيه اذ المنة
والصنيعة والاحسان متقارب بعضه من بعض وليس ذلك بتكرير لانه لو اقتصر
على قوله منة وصنيعة واحسان لجاز أن يكون تكريرا ولكنه وصف كل واحدة
من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير فقال منة مشهورة فوصفها
بالاشتهار لعظم شأنها وصنيعة بكر فوصفها بالبكارة أي أنها لم يؤت بمثلها من قبل
واحسان أغر محجل فوصفه بالغرة والتحجيل أي هو ذو محاسن متعددة فلما
وصف هذه المعاني المتداخلة التي تدل على شيء واحد بأوصاف متباينة صار
ذلك اطنابا ولم يكن تكريرا ولم أجد في ضروب الاطناب أحسن من هذا الموضع
ولا ألطف وقد استعمله أبو تمام في شعره كثيرا بخلاف غيره من الشعراء كقوله

زكي سجاياه تضيف ضيوفه • ويرجى مرجيه ويسئل سائله

فان غرضه من هذا القول انما هو ذكر الممدوح بالكرم وكثرة العطاء الا أنه
وصفه بصفات متعددة فجعل ضيوفه تضيف وراجيه يرجى وسائله يسئل وليس
هذا تكريرا لانه لا يلزم من كون ضيوفه تضيف أن يكون راجيه مرجوا
ولا أن يكون سائله مسؤلا لان ضيفه يستصحب ضيفا طمعا في كرم مضيفه
وسائله يسئل أي يعطي السائل عطاء كثيرا يصير به معطيا وراجيه يرجى أي
أنه اذا تعلق به رجاء راج فقد أيقن بالفلاح والنجاح فهو حقيق بأن يرجى لمكان
رجائه اياه وهذا أبلغ الاوصاف الثلاثة (الضرب الثاني) يسمى النفي
والاثبات وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفي ثم يذكر على سبيل الاثبات
أو بالعكس ولا بد أن يكون في أحدهما زيادة ليست في الآخر والا كان

تكريرا والغرض به تأكيد ذلك المعنى المقصود (فمما جاء منه) قوله تعالى
لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم
والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت
قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (واعلم) ان هذا الضرب من الاطناب فائدة
كبيرة وهو من أوكد وجوهه ألا ترى انه قال لا يستأذنك الذين يؤمنون
بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ثم قال انما يستأذنك الذين
لا يؤمنون بالله واليوم الآخر والمعنى في ذلك سواء الا أنه زاد في الثانية قوله
وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين
الآيتين حكم التكرير وهذا الموضع ينبغي أن يتأمل ويمعن النظر فيه
(وعليه ورد) قوله تعالى الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم
سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون
بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن
أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم
غافلون فقوله يعلمون بعد قوله لا يعلمون من الباب الذي نحن بصدد ذكره
ألا ترى أنه نفى العلم عن الناس عما خفي عنهم من تحقيق وعده ثم أثبت لهم العلم
بظاهر الحياة الدنيا فكأنهم علموا وما علموا اذ العلم بظاهر الامور ليس بعلم وانما
العلم هو ما كان بالباطن من الامور (الضرب الثالث) هو أن يذكر المعنى الواحد
تاما لا يحتاج الى زيادة ثم يضرب له مثال من التشبيه كقول أبي عبادة البحتري

ذات حسن لو استزادت من الحسـ ن اليه لما أصابت مزيدا
فهي كالشمس بهجة والقضيب الـ لدن قدا والريم طرفا وجيدا

ألا ترى أن الاول كاف في بلوغ الغاية في الحسن لانه لما قال لو استزادت لما
أصابت مزيدا دخل تحته كل شيء من الاشياء الحسنة الا أن للتشبيه مزية
أخرى تفيد السامع تصويرا وتخييلا لا يحصل له من الاول وهذا الضرب من
أحسن ما يجيء في باب الاطناب (وكذلك) ورد قوله

تردد في خلقي سودد * سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف ان جئته صارخا * وكالبحر ان جئته مستثيبا

فالبيت الثاني يدل على معنى الاول لان البحر للسماح والسيف للبأس المهيب الا أن

في الثاني زيادة التشبيه التي تفيد تخييلا وتصويرا (الضرب الرابع) أن يستوفي
معاني الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة وهذا أصعب الضروب
الاربعة طريقا وأضيقها بابا لانه يتفرع الى أساليب كثيرة من المعاني وأرباب
النظم والنثر يتفاوتون فيه وليس الخاطر الذي يقذف بالدرر في مثله الا معدوم
الوجود ومثاله ومثال الايجاز مثال مجمل ومفصل (وقد تقدم) القول بأن
الايجاز والاطناب والتطويل بمنزلة مقصد يسلك اليه ثلاثة طرق وقد أوردت
ههنا أمثلة لهذه الاساليب الثلاثة وجعلتها على هيئة المقصد الذي تسلك اليه
الطرق الثلاثة (فمن ذلك) ما ذكرته في وصف بستان ذات ثمار متعددة فاذا
أريد وصفه على حكم الايجاز قيل فيه من كل فاكهة زوجان وهذا كلام الله
تعالى وقد جمع جميع أنواع الفاكهة بأحسن لفظ وأخصره واذا أريد وصف
ذلك البستان على حكم الاطناب قيل فيه ما أذكره وهو فصل من كتاب أنشأته
وهو جنة علت أرضها أن تمسك ماء وغنيت بينبوعها أن تستجدي سماء وهي
ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ففيها
المشمش الذي يسبق غيره بقدومه ويقذف أيدي الجانين بنجومه فهو يسمو
بطيب الفرع والنجار ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار وله زمن
الربيع الذي هو أعدل الازمان وقد شبه بسن الصبا في الاسنان وفيها
التفاح الذي رق جلده وعظم قده وتورد خده وطابت أنفاسه فلا بان الوادي
ولا رنده واذا نظر اليه وجد منه حظ الشم والنظر ونسبته من سرر الغزلان
أولى من نسبته الى منابت الشجر وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة
وأكثرها ألوان زينة وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من
السفينة فقطفه يميل بكف قاطفه ويزري بالوصف لسان واصفه وفيها
الرمان الذي هو طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب ومن فضله أنه
لا نوى له فيرمى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه وفيها التين
الذي أقسم الله به تنويها بذكره واستتر آدم عليه السلام بورقه اذ كشفت
المعصية من ستره وخص بطول الاعناق فنازى بها من ميل فهو نشوة من
سكره وقد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما وقيل هذا كنيف ملئ شهدا
لا كنيف ملئ علما وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه وشكله ويشغل

بلذة منظره عن لذة أكله وهو الذي نفضل ذوات الافنان بعرجونه ولا تماثل
بينه وبين الحلواء هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وفيها غير ذلك
من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها
ولقد دخلتها فاستوفيت حدها ولم ألم صاحبها على قوله لن تبيد هذه أبدا (فهذا
الوصف) على هذه الصورة يسمى اطنابا لانه لم يعر عن فائدة وذلك الاول هو
الايجاز لانه اشتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهة (وأما التطويل)
فهو أن تعدد الاصناف المذكورة تعدادا من غير وصف لطيف ولا نعت رائق
فيقال مشمش وتفاح وعنب ورمان ونخل وكذا وكذا وانظر أيها المتأمل
الى ما أشرت اليه من هذه الاقسام الثلاثة في الايجاز والاطناب والتطويل
وقس عليها ما يأتي منها (وسأزيدك بيانا بمثال آخر فأقول) قد ورد في باب
الايجاز كتاب كتبه طاهر بن الحسين الى المأمون رحمه الله تعالى يخبره بهزيمة
عيسى بن ماهان وقتله اياه وهو كتابي الى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين
يدي وخاتمه في يدي وعسكره مصرف تحت أمري والسلام وهذا كتاب
جامع للمعنى شديد الاختصار واذا كتب ما هو في معناه على وجه الاطناب قيل
فيه ما أذكره وهو ما أنشأته مثالا في هذا الموضع ليعلم به الفرق بين الايجاز
والاطناب وهو أصدر كتابه هذا وقد نصر بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة
وانقلب باليد الملأى والعين القريرة وكان انتصاره بجد أمير المؤمنين لا بجد ناصله
والجد أغنى من الجيش وان كثرت أمداد خيله ورجله وجيء برأس عيسى
ابن ماهان وهو على جسد غير جسده وليس له قدم فيقال انه يسعى بقدمه
ولا يد فيقال انه يبطش بيده ولقد طال وطوله مؤذن بقصر شانه وحسدت
الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه وأحضر خاتمه وهو الخاتم
الذي كان الامر يجري على نقش أسطره وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح
بختمه فحال ورود المنية دون مصدره وكذلك البغي مرتعه وبيل
ومصرعه جليل وسهمه وان مضى فانه عند الضرب كليل وقد نطق الدال بأن
الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك ورأسه وهذا الفتح أساس
لما يستقبل بناؤه ولا يستقر البناء الاعلى أساسه والعساكر التي كانت على
أمير المؤمنين حربا صارت له سلما وأعطته البيعة علما بفضله وليس من تابع

تقليدا كي حوتابع علا وهم الآن مصرفون تحت الاوامر ممنحون بكشف
سرائر مطيعون باللواء الذى خصه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر
وكاسرت خلوات الفكر فى أثناء هذا القرطاس فكذلك سرت طلائع الرعب
قبل الطلائع فى قلوب الناس وليس فى البلاد ما يغلق بخشية الله بابا ولا يحسر
نقابا وعلى الله اتمام النعم التى افتتحها واجابة أمير المؤمنين الى مقترحاته التى
اقترحها والسلام وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين
من المعنى الا أنه فصل ذلك الاجمال (ولو كتب على وجه التطويل) الذى لا فائدة
فيه لقيل أصدر كتابه فى يوم كذا من شهر كذا والتقى عسكر أمير المؤمنين وعسكر
عدوه الباغى وتطاعن الفريقان وتزاحف الجمعان وحمى القتال واشتد النزال
وترادفت الكتائب وتلاحقت المقانب وقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه
وقطع ونزع الخاتم من يده وخلع وترك جسده طعاما للطيور والسباع
والذئاب والضباع وانجلت الوقعة عن غلب أمير المؤمنين ونصره وخذلان
عدوه وقهره والسلام فهذا الكتاب يشتمل على تطويل لا فائدة فيه لانه كرر
فيه معانى يتم الغرض بدونها وذكر ما لا حاجة اليه فى الاعلام بالواقعة فانظر الى
هذه الكتب الثلاثة وتأملها كما تأملت الذى تقدمها (وبعد ذلك انى أورد لك
كتابا تقليدا يوضح لك فائدة الاطناب أما الكتاب) فانه كتاب كتبته عن
الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الى ديوان الخلافة ببغداد
يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدى الكفار وذلك فى معارضة
كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى عنه وكان الفتح فى السابع والعشرين
من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة خلد الله سلطان الديوان العزيز
النبوى وجعل أيام دولته أترابا ومناقب مجده هضابا وزادها على مرور
الايام شبابا وأوسعها توسعة وأذهابا اذا أوسع غيرها تلاشيا وذهابا ومنحها
فى الدنيا والآخرة عطاء وفاقا لا عطاء حسابا ومثل جدودها فى عيون الاعداء
شبا أعجابا وأراهم منها وراءهم فى اليقظة ارهابا وارعابا وفى المنام اوصابا
تقود خيلا عرابا لو جمعت العصور فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها
فاخرا وفاز بسبق أوائلها وان جاء آخرا وليس ذلك الا لما طوقته بالدولة
الناصرية التى كسته حبرا وقلدته دررا ودونت له من المحامد سيرا وجعلت

في كل ناحية من وجهه شمسا وقمرا وقبض اقفالها من الخيام وليلها وصل يومه
في طاعتها بأمسه ولا يرى الا ومن نفسه في خدمتها رقيب على نفسه وطالما
سعى بين يديها بساع تقصر بأخباره أخبار الاقوام ويقال له فيها ما ضرك
ما صنعت بعد اليوم وقد سلفت منها آيات تتماثل في أشباهها وأضرابها
واستؤنفت اوالآن واحدة تدعى بأم كتابها وهي فتح البيت المقدس الذي
تفتحت له أبواب السماء وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء واشرق
الاسلام وطالما سعت الهمم في طلبه بالزاد والماء ومن أحسن ما أتى به أنه
آنس قبلته الثانية بقبلته الاولى وأطال منه كل ما قصرته يد الكفر وكانت هي
الطولى وبه صح لهذا البيت معنى اسمه واستقل الى الطهارة ونزاهتها من
الرجس ووصمه ولم يعزه الخادم حتى طوى ما حوله من البلاد المعدة والغائرة
وكان مركز الدائرتها فغادره وهو طائف من أطراف الدائرة ولما شارفه نظر
منه الى ظله من الظلال ورأى بلدا قد استقر على متن الجبل مثل الجبل
ويطيف به واد تستهزئ عمقه بريب الدهر وقد انعطف على جوانبه انعطاف
الحنوة على الظهر والمسالك اليه مع ذلك ذات تعاريج ومعارج وهي ضيقة
متوعرة يطلق عليها اسم الطرق ولا يطلق عليها اسم المناهج فلما رآه قال هذا
أمنية لمن يرى وعلم حينئذ أن كل الصيد في جوف الفرا الا أن لسان حاله
خاطبه وهو أفصح الخطاب وقال اما دية له فليس دونها من حجاب وكان قد برز
من السلاح في لباس رائع من المنعة وأخرج من السواد الاعظم ما تخدع
العيون والحرب خدعة وما يمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ولا يحمى بعوالي
الاسوار بل بعوالي الصعاد وفي يوم كذا وكذا نهب المسلمون في عقد داره
ونزلوا منه نزول الجار الى جانب جاره ثم ارتادوا وقفا للقتال وان لم يكن هنالك
موقف يقرب مناله ولا يتسع مجاله واتفق الرأي على لسان المنجنيق في خطبة
عقلية أبلغ خطابا وأدنى من المطلوب طلابا وانه اذا ضرب بعصاه الحجر
انبجست عيون أهله دماء كما انبجست عيون الحجر ماء هذا والعزائم تنظر الى هذا
الرأي نظر المستقبل وتصد عنه صدود المستعجل وتقول ما بارتياد السهل
تملك الصعاب ومن ابقى السيف صبر بها لنا عنه بلوغ الاسباب والحديد
لا يفلح الا بالحديد والركن الشديد لا يهدم الا بركن شديد فعند ذلك

الخادم أن يلقى البلد مواثباً الاسوار بها وأن يجعل للزحف جانباً وللمنجنيق
جانباً ونوى أن يبدى صفحة وجهه أمام الناس وتأسى برسول الله صلى الله
عليه وسلم فى الاتقاء به اذا اشتد البأس ولاشك أن قلوب الابرش بمنزلة قلوبها
وأن النفاذ لاسنة الرماح لا لكعوبها ولا يشتفى من الوغى الا من كان طرفه
أمام طرفه ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه ولما وقع
الزحف صورع البلد صراعاً بعد أن قورع قراعاً ثم هز هزة طوته بيمينها
ونشرته بشمالها وأذاقته العذاب الادنى دون العذاب الاكبر من نكالها
وبدون ذلك يكون عرك أديمه وعطف شكيمه ولم يكن قتاله بالسهام التى غاياتها
أن تصف أجنحة المطار وقتال بكارمها من فوق الاسوار بل بالسيوف التى
اذا جالدت بلداً أخذت بكظمه وتوغلت فى حجمه وأغنت بسرعة خطراتها
اليه عن المنجنيق وابطاء هدمه والسيف ليس بعروض من النفس التى تنال طائشة
عند لقائها جائشة عند استيفائها فالقلب يوصف بأنها تجيش اذا كانت
أعداداً والقوس لا تجيش الا اذا كانت غماداً وما يستوى وجوه الاقران
فى اقدامها واحجامها فمنها المظلم اذا رابها الروع باشراقها ومنها المشرق اذا
شابها الروع باظلامها وكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحظى بالباس
الاشراق وأتم ابداراً والبدور لا يكون تمامها فى المحاق فمنهم الامن عرض
نفسه ليوم العرض ومشى الى جنة عرضها السموات والارض حتى اتسع
المكر وضاق بأعداء الله المقر وحرقت أوعار الخنادق وصار الرجاء لمنعة
السور كالمناطق ولم يستشهد منهم الا عدد يسير لا تدخله لام التعريف وكانت
أجنحة الملائكة مطيفة بهم فأكرم بالمطاف به وبالمطيف وقد أسعد الله أولئك
بالشهادة التى هى الفوز الاكبر وقرنها باداناء مضاجعهم من الارض المقدسة
التى هى أرض المحشر فما يسرهم أن يعودوا الى الدنيا الا للاستزادة من
ثواب الجهاد وأيسر ذلك أن أرواحهم فى حواصل طير خضر تعلق من ثمار
الجنة الى يوم المعاد ولما رأى الكفار أن صليبهم قد صار خواراً وأن ربهم
قد انقلب خواراً أذعنت أيديهم باستسلامها وصانعت بالمال عن الرقاب
واسترقاقها وبالبلد عن النفوس وحمامها فأبى السيف أن يترك رقاباً تفدى
باذكائها ويحل من عنقها على مداومة وصالها وأذكر الخادم أن سلف هؤلاء

انتزع هذا البلد قسرا وقتل من كان به من المسلمين غدرا وذلك ثأر ذخره الله
للحق فعلى في الآخرة ثوابه وتحمل في الدنيا زينة أثوابه والمسلم
أخو المسلم يأخذ بدمه وان تطاولت أمداد السنين على قدمه وما بعد عهد
هذا الثأر من ثائره وما طيب خبره عند سامعه وحسن أثره عند ناظره ولما
تحقق العزم على ذلك أشار ذوو الرأي بقبول الفدية المبذولة والا يحمل العدو
على ما ليست نفسه عليه محمولة فان النقد اذا أخرج صار ذا أنياب وأظفار
واستضرى حتى يلحق بالسباع الضوار وهؤلاء اذا أراعهن القتل تجردوا
للقتال وركبوا الاهوال قصاة من الاهوال ومن يدع الى خطة رشد فلا يقبلها
ومن أنشطت له عقل الامور فلا يعقلها وعلى كل حال فان الفدية [illegible]
ارتغب وأموال يتقوى بها على العدو وخير من دماء تذهب هذا وبالبلد من
أسارى المسلمين من حياة أحدهم بحياة كل نفس ومن حرمته عند الله خير مما
طلعت عليه الشمس ولا يوازي فتحه عنوة أن يتعدى اليهم اضراره ولا شك
أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطاره فرأى الخادم عند ذلك أن الرأي
مشترك وأن له معتركا كما أن السيف له معترك وتقرر تسليم البلد وموع
أهله قد شخصت أحداقها وأذرحت آماقها ولم تطب أنفسهم بفراق قمامة حتى
كادت الهام تفارق أعناقها فعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم وتشيل
نعامتهم ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار واستنصروه فلم يجدوا منه
معونة الانتصار وكيف يرجى النصر من معبود تقرر شيعته بقتله أم كيف يدفع
عن غيره من كان هو مبتلى عنه وهذه عقول سخيفة نفذ فيها كيد شيطانها
وأخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها ولقد كان يوم التسليم عروس الفخار
زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار واشتق من اسمه معنى السلامة
للمسلمين والهلاك للكفار وزاده فخرا الى فخره أنه وافق اليوم المسفر عن ليلة
المعراج النبوي الذي كان في تلك الارض موعده ومن محترمها مصعده
وذلك هو الاسراء الذي ركب اليه ظهر البراق واستفتح له أبواب السبع
الطباق ولو رقى فيه الانبياء على اختلاف درجاتهم فظفر خير ملتق بخير لاق
وبركة ذلك اليوم سرت الى هذا فأطالت من شهرته وضمنته نصرة الدين الحنيف
الذى لله عناية بنصره وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه كما أرخ للنبي صلى الله عليه

ولم يدار جبريته وإذا أنصف واصفه قال إنه قيوم البدري في اقتراب النسب
وإنه الجبية التي لم يحفل عنها الأيام في صفر وإنما أبعلت عنها في رجب فما
أكثر العاثر فيه والمغبون والمسرور والمحزون فمن جد داركب ومن جد راجل
ومن عز قادم وذل راحل وأما الملاحدة الخادم في السعي له وأبصار العدا
ترامقه وألسنتهم تلقه وما منهم الآمن أكثر الشناعة أن ذلك السعي
للاستكثار من البلاد والله يعلم أنه لم يكن الا للاستكثار من موارد الجهاد
لا جرم أن صدق النية كان له عقبى الدار وتلك الأقوال الكاذبة كان لها عقبى
البوار ويوم هذا الفتح يفتقر قبله إلى أيام تجلو بياضه عن سوادها ويلقح
لها بطون المساعي حتى يكون هو نتيجة ميلادها ولما ظفر به الخادم لم يكن
لأهل الحجابة فيه قول يرد كذابه ولا يقبل صوابه والشهب الطالعة على
ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج على
أنهما وإن افترقا جما فإنهما يختلفان علما فعلم هذه يسأل عنه ثغر الأعناق
وعلم هذه يسأل عنه بطون الأوراق ولما دخل البلد وجد به أعلاه لأن
ضربت عليهم الذلة لا دفعوا المنايا مكاثرة وغالبوا السيوف مصابرة وهم
طوائف مختلفو الألسنة والألوان وإن قيل إنهم أناسي فإن صورهم صور الجان
ومنهم طائفة استشعرت يبس نفوسها ونفضت الشعر عن أوساط رؤسها
وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها ولما رأوا
طلعة الإسلام داخلة عليهم أعلنوا بالجؤار واصطرخوا جميعا كما يصطرخون
غدا في النار وزادهم غيظا إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة وقد صار
الناقوس أذانا وكلمة الكفر ايمانا وأقيمت الجمعة وهي أول جمعة حظي
الأقصى بشهودها وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها فمن بالدمعة
سروره الباردة ومن مجيل نظره في نعمة الله الواردة ومن شاكر الزمن الذي
أبقاه إلى يومه هذا الذي كل الأيام له حاسدة من كان مولده تقدم قبله أو بعده
فكأنه لم يولد وكانت هذه الجمعة في رابع شعبان وهو الشهر الذي جعله الله
طليعة لشهر الصيام وليلة نصفه هي الليلة المعروفة بإحياء قيامها إلى حين وفاة
شخص الظلام والتي يغفر فيها لأكثر من شعر غنم كلب من ذوي الذنوب
والآثام وجيء باللواء الأسود فركز من المنبر في أعلاه ونطق لسان حاله فقال

من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه فأنا مولاه ولم يكن لسان الخطيب
بأفصح من لسان أسانه غير أن هذا زهى ببلاغه وعظته وهذا زهى بعزة سلطانه
ولما ذكرت سمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الذى ملأ المسجد
بضجيجه وسبق الكرام الكاتبون برفعه الى السماء ووشيجه وكان اليوم
فصلا والموقف حفلا وذلك الدعاء فرض الانفلا ولا ينتهى الوصف الى
ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التى تستلب العجلان وتستجلب الاذهان
وتستنطق الالسنة بالتسبيح لله الذى فطر الانسان ومن جملة ذلك ما شوهد
فى حسنه من البيع والصوامع ذوات الابنية الروائع التى زوقت بالزخارف
ترويض الازهار ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحى اليها بالاسرار
وما منها الا ما يقال ان ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ولقد ألان
الله لهم الحجارة حتى تخيروا فى توسيعها بضروب الاختيار وجعلوها أعاجيب
للاسماع والابصار وقيل فيها انها روضات جنان لا أفنية ديار هذا الى غيره
مما وجد من معبودات القوم الموصفة بانها آلهة الصلب اللاتى من ذوات
النصب وأكثر ذلك وجد فى المسجد موضوعا وعلى قبته مرفوعا فأزيلت على
قرونها واستنت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طمس عيونها واستوطن
المؤمن مكان الكفور وبدلت الظلمات بالنور وقالت الصخرة الآن جمع بينى
وبين الحجر الاسود شاطئ الاسلام والجمع بين الاختين فى هذا الامر من
الحلال لا من الحرام وقال الاقصى سبحان الذى أسرى الى بجنده كما أسرى
بعبده وأعاد لى عهود الفتح الاول بهذا الفتح الذى أتى من بعده وعود الذاهب
ارجاء لدوام أحبابه وخلود الانسان لا يكون الا فى مآبه وهذا هو الخطب
الذى جدد للاسلام عهود ابن خطابه رضى الله عنه الآن مستنقذ الطريدة
أولى بها من صاحبها ولئن غصبتها يد غالبة فقد جاء الله باليد التى غصبتها من
غاصبها هذا ولم يتقدمها الخادم الا بانضاء سلاح أنفته الوقعة الاولى التى
استأصلت حماة البلاد واستباحت أغيالها بقتل الآساد فكانت لهذا الفتح
عنوانا ولتقرير أصوله بنيانا ولم ينج بها من طواغيت الكفر الا طاغية ترابلس
فات السبوق أسارته وبفؤاده قلق من أوجالها وفى عينه دهش من أهوالها
وقد قرن الله هذا الفتح ببشرى مونة وكفى المسلمين مؤنة الاهتمام أدوته فقر

من الوقعة ولم ينج بذلك الفرار واعتصم بذات جدار وقتله الخوف من وراء
الجدار ولا فرق بين قتيل خوف الفرار وبين قتيل الشفار وقد فر من
المكروه الى مثله لكنه انتقل من ميتة عز الى ميتة ذلة وكذلك آثار الخادم
فى أعداء الله فهم هلكى بسيفه فى مواقف الطراد فان فروا فخوفه على جنوب
الوساد وبعد هذه فهل يعترون فى أن دماءهم قد استجابت لارادة وأن سواء
لديه من أمكن منها فى دنوه ومن امتنع متهافى بعاده وكل ذلك مستحق من
الاستنصار بمثابة الديوان العزيز التى من شأنها أن تجعل الرؤيا حقا وأحاديث
الآمال صدقا وتقرب بعيدات الامور حتى تجعل الشرق غربا والغرب شرقا
فهذا الفتح منسوب اليها وان كان الخادم هو الساعى فى تسهيله والمجاهد
بنفسه وماله فى سبيله فعلى عطف دولتها ترقم أعلامه وفى أيامها تؤرخ أيامه
ولو أبيح للقلم الخيلاء فى مقام المقال كما أبيح لصاحبه فى مقام القتال لاختالت
مشيته فى هذا الكتاب واطال وأسهب فليس الاكثار ههنا من الاسهاب لكنه
منعه من ذلك أن يكون عن فخر بعمله فأبطله وأرسل خطابه الى الديوان العزيز
فاز بقبضه بالادب حين أرسله وقد ارتاد من يبلغ عنه مشاريح هذه الوقائع التى
اختصرها ويمثل صورها لمن غاب عنها كأنما تمثلت لمن حضرها ويكون مكانه
من النباهة كريما كمكانها وهى عرائس المساعى فاحسن الناس بيانا أولى
لابداع حسانها والسائر بها فلان وهو راوى أخبار نصرها التى صحبها
فى تجريح الرجال وعوالى اسنادها مأخوذة من طرق العوالى والايام والليالى
روافق الطعن برواية الايام والليالى وستتلو هذه الاخبار الصادقة بمشيئة الله
أخبار مثلها صادقة ومادامت السيوف ناطقة فى يد الخادم فالالسنة عنها
ناطقة والآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى (وأما التقليد) فانه
تقليد أنشأته لنصب الحسبة وهو (أما بعد) فقد جعل الله جزاء التمكين
فى أرضه أن يقام بحدود فرضه ونحن نسأله التوفيق لهذا الامر الذى ثقل
حمله وعدم أهله فقد جىء بنا فى زمن أصبح الناس فيه سدى وعاد الاسلام فيه
غريبا كما بدا وهو الزمن الذى كثرت فيه أشراط اليوم الآخر وغربت
فيه الامانة حتى لم يبق الا حثالة كحثالة التمر والشعير ومن أهم ما نقرر بناءه
ونقدم عناءه ونصلح به الزمن وأبناءه أن نمضى أحكام الشريعة المطهرة على

ما تؤثره في تعريف ما عرفته وتنكير ما نكرته ومداراة ذلك على التفارق أمر
الحسبة التي تتنزل منه بمنزلة السلك من العقد والكف من الزند وقد أخلصنا
النية في ارتياد من يقوم فيها ويكفيها ويصاقب لها ولا يصطفيها وهو أنت أيها
الشيخ الأجل فلان أحسن الله أثرك وصدق فيك النظر فتولها غير
موكول اليها بل معانا عليها واعلم أن الناس قد أماتوا سننا وأحيوا بدعا
وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعا وأظلمتهم من أقرهم على أمرهم ولم
يأخذهم بقوارع زبرهم فان السكوت عن البدعة رضا بمكانها وترك
النهي عنها كالامر باتيانها ولم يأت بنا الله تعالى الا ليسد الدين قائما على
أصوله صادعا بحكم الله نبيه وحكم رسوله ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال
الناس في أمر دينهم الذي هو عصمة مالهم وأمر معاشهم الذي يتميز به
حرامهم من حلالهم فابدأ أولا بالنظر في العقائد واهدهم الى سبيل الفرقة
الناجية الذي هو سبيل واحد وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا
مواطن الحق فأقاموا وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ومن عداهم شعب دانوا
أديانا وعبدوا من الاهواء أوثانا واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطانا ولو نشاء
لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم
فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا ولا تقبل منه صرفا
ولا عدلا وليكن قتله على رؤس الاشهاد ما بين حاضر وباد فما تكدرت
الشرائع بمثل مقالته ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته والمنتمي اليها يعرف
بنكره ويستدل عليه بلفظة كفره وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار
وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عند درايتها من الانوار وما تجده من كتبها
التي هي سموم ناقعة لا علوم نافعة وأفاعي ملففة لا أقوال مؤلفة
فلتستأصل شأفتها بالتمزيق وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ولا
يشغلك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها والكشف عن مكامن أسرارها
فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهارا وليتكل به اشهارا وليقل هذا جزاء
من استكبر استكبارا ولم يرج لله وقارا وأما من تحدث في القدر وقال فيه
بمخالفة نص الخبر فليس في شيء من ربقة الاسلام وان تمسك بمداومة الصلاة
والصيام قال النبي صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الامة والمراد

ذلك أنهم ما بين الله والعبد والشياء والطاقة فعلاج هذه الطائفة أن تجزى
بأن تجزى فيقابل جمعها بالتكسير واسمها بالتصغير والتنقل الى نقل الحدود
عن خفة التعزير ومن كان منها ذا مكانة تامة فليحط أو شهاد العادة
فليقط وكذلك يجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم أو قال بحدوث
القرآن القديم ومن ملحدى القرآن فرقة فرقت بين المعنى واللفظ وفرقة
قالت فيه بالشكل والنقط وكل هؤلاء قوم خبثت سرائرهم وعميت بصائرهم
وعلمت عند الله سرائرهم نخذهم بالتوبة التى تطهر أحلها وتجب ما قبلها
وليست التوبة عبارة عن ذكرى اللسان والقلب لاه فى قبضة الشيطان بل
هى عبارة عن الندم على ما فات واستئناف الاخلاص فيما هو آت وقد
جعل الله التائب من أحبابه ووصفه فى مواضع كثيرة من كتابه ومن فضله أن
الملائكة يستغفرون لذنبه ويشفعون له الى ربه فان أبت هذه الطوائف
الا اصرارا ولم يزدهم دعاؤك الا فرارا فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم
طبعا وألحقهم بالذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكره وكانوا لا يستطيعون سمعا
نقدهم عند ذلك بحد الجلاد فان لم ينجع نعقد ذوات الحد فان هذه أمراض
عى لا ترجى لها الافاقة ولا تبرئ منها الا الدماء المراقة وأما الفرقة المدعوة
بالرافضة التى هى لما رفضها الله رافضة فانهم أناس ليس لهم من الدين الا اسمه
ولا من الاسلام الا رسمه واذا نقب عن مذهبهم وجد على العصبية موضوعا
ولغير ما شرعه الله ورسوله مشروعا ذيواعن على رضى الله عنه فأساؤه
وأخروه اذ قدموه وهؤلاء وضعوا أحاديث نقلوها وأولوها على ما أولوها
فتبع الآخر منهم الاول على عمة وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وههنا
غير ما ذكرناه من عقائد محلولة ومذاهب غير منقولة ولا مقبولة وبالهدى
يتبين طريق الضلال وبالصحة يظهر أثر الاعتلال ولا عقيدة الا عقيدة
السنة والكتاب ولا دين الا دين الحجاز الماء والمحراب واذا فرغنا من الوصية
بالاصول التى هى للدين ملاك فلنتبعها بالفروع التى هى له مساك وأول ذلك
الصلاة وهى فى مبانى الاسلام الخمس أوكدهن وآخر ما وصى به رسول الله
صلى الله عليه وسلم عند مفارقة نفسه ومن فضلها أنها العمل الذى ينهى عن
الفحشاء والمنكر ولا عذر فى تركها لاحد من الناس فيقال انه يعذر فاجمع

الناس اليها واحملهم عليها ومرهم بالاجتماع لها في المساجد ونادفيهم بفضيلة
صلاة الجماعة على صلاة الواحد وراقبهم عند أوقات الاذان في الاسواق
التي هي معركة الشيطان نحن شغل يتمريكيه واهاعتها بالاقبال على
لهوه ولعبه فخذه بالآلة الزجرية التي تضع من قدره وتذيقه وبال أمره
ولا يتعلق عن ذي هيبة هيبته ولا عن ذي شيبة شيبته فانما أهلك الذين قبلكم
أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا
عليه الحد ومن مهمات الصلاة يوم الجمعة الذي هو في الايام بمنزلة الاعياد
في الاعوام وفيه الساعة المخصوصة بالدعاء المجاب التي ما صادفها عبد
الاظفر بالطلاب فمر الناس بابتداره في البواكر والفوز فيه بقربان البدنات
الاخيار فانه اليوم الذي لم تطلع الشمس على مثله وبه فضل هذا الدين على أهل
الكتاب من قبله فهو واسطة عقد الايام السبعة ولاشتماله على مجموع
فضلها سمي يوم الجمعة وفي الاعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح
في شهر رمضان والرغائب في أول جمعة من رجب وليلة النصف من شعبان
فلتمتلا المساجد في هذه المواسم التي تتكاثر فيها شهادات الاقلام في
كتب الطاعات ومحو الآثام ومن حضرها وليس همه الا أن يتربص بها طروقا
ويواعد اليه أخدانه رفثا أو فسوقا فهؤلاء هم الخلف الذين أضاعوا الصلاة
واتبعوا الشهوات فابعث عليهم قوما يلبسونهم سلبا ويوجعونهم ضربا
ويملأون عيونهم مهابة وقلوبهم رعبا فبيوت الله مطهرة من هذه الادناس ولم
تعمر لشياطين الانس وانما عمرت للناس فلا يحضرها الا راكع وساجد أو
ذاكر وحامد وههنا عظيمة عضيهة وفاحشة يفقهها من ليست نفسه بفقيهة
وهي الربا فانه قد كثر كله وتظاهر به فاعله وقال فساق الفقهاء بتأويله
وتوصلوا الى شبهة تحليله ولا يتسارع الى ذلك الا من أعمى الله قلبه ومحق
كسبه قال النبي صلى الله عليه وسلم لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم
فجملوها وباعوها وأكلوا أثمانها ونحن نأمرك أن تشمر في هذا الامر تشميرا
برهبة الباس ولا تدع ربا حتى تضعه وأول ربا تضعه ربا العباس فتأديب الكبير
قاض بتهذيب الصغير والاسوة بالرفيع خلاف الاسوة بالنظير وجل معاملة
الربا تجري في سوق الصرف الذي تختلف به النقود وتفترض فيه العقود

ويخاض فى نارتيره الى النار ذات الوقود وبه قوم أوسعوا غيون الموازين غمزا
وألسنتها همزا ولمزا وأصبح الدرهم والدينار عندهم بمنزلة الصنمين اللات
والعزى ولايرى منهم الامن الحرص مفاض على ثيابه وقد جمع بين المعرفة
بالحرام والهجوم على ارتكابه فمقل مثل هؤلاء متعديلا وتحولهم على مرور
الايام تحويلا واعلم أنك قد وليت من الكيل والميزان أمرين هلكت فيهما الامم
السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختبار والاختيار ولاتقل أحلاهما عثرة
فان الاقالة لاتنهى عن العثار وكل هؤلاء من سواد الناس عن لم يزك غرسه
ولا فقهت نفسه وايس همه الافرجه أوضرسه فخذهم بآلة التعزير التى هى
نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى ومن آثارها أنها تريح أرض الرأس
ربما وتفرج سماء فرجا وبهلك بصاحبه هديا ونهجا وقد كثر فى الاسواق
الخلابة والغبن وتلقى الركبان وبيع الحاضر للبادى وتنفيق السلعة باليمين
الكاذبة وكل هذه من المحظورات التى وردت الاخبار النبوية ببيانها والنهى
عن تورد مكانها فمن قارف شيأ منها جاهلا بتحريمه فقومه بالتعليم واهده الى
الصراط المستقيم ومن عرف ما اقترف فأذقه حر التأديب قبل أن يذاق
فداحر التعذيب واعلمه أن الارزاق بيد الله تعالى لاينقصها عجز القاعد
ولايزيدها حرص الكادح وقد ينقلب الجاهد فيها بصفقة الخاسر والوادع
بصفقة الرابح ومن سنة الله تعالى أن ينمى الحلال وان كان يسيرا ويمحق
الحرام وان كان كثيرا ومن الناس من آتاه الله مالا فبث فى الاسواق جنود
ذهبه وورقه واحتكر ما له الميزان من ذوات رطله ووسعه الكيل من ذوات
وسقه فاصبح فقراء بلاده فى ضيق من عدم الرزق ومدد الرزق فليمنع هؤلاء
أن يجعلوا رزق الله محتكرا ومعاش عباده محتجرا وليؤمروا بأن يتراحموا
ولايتزاحموا وأن يأخذ الغنى منهم بقدر الكفاف ويترك للفقير ما يعينه
على الاسعاف قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لاحكرة فى سوقنا لايعمد
رجال بايديهم فضول من اذهاب الى رزق من أرزاق الله تعالى ينزل بساحتنا
فيحتكرونه علينا ولكن أيما جالب جلب على عمود كبده فذلك ضيف عمر
فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله وأما التسعير فانه وان آثره
القاسطون وحكم به القاسطون وقيل ان فى ذلك لفقير تيسيرا العسير فليس

لاحد أن يكون يد الله في حفظ ما رفع وبذل ما منع فقف أنت حيث أوقفك
حكم الحق ودع ما بين لك من مصلحة الخلق ولا تكن ممن تبع الرأي والنظر
وترك الآية والخبر فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله وليست
مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ولو كان من
عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومما أمر الله به أن تمحو الصغيرة
كما تمحو الكبيرة فإن أم الذنوب كالقطر يصير بجمعه سيلا متدفقا وكان أوله
قطرا متفرقا وقد استمرأ الناس عوائدها وألفوا باستمرارها ولم ينظروا إلى ثقل
أوزارها فمن ذلك لبس الذهب والحرير الذي لم يبحه الأمين عبده عند الله
خلاقا وإن قيل إنه شعار الغني لم يزد صاحبه من الحسنات إلا إملاقا ولابس
عباءة مع التقوى أحسن في العيون شعارا وأعظم في الصدور وقارا ويلحق
بهذه المعصية صوغ الذهب والفضة آنية يمنع منها حق الصدقات وهو حق
يقاتل مانعه ويعصى في استعمالها أمر الله وهو حد من حدوده يعاقب
عاصيه ويثاب طائعه وكذلك يجري الحكم في الصور المرقومة في البيوت
والثياب وعلى الستور المعلقة على الأبواب واخراجها في ضروب أشكال
الحيوان للاعبة الصبيان وذلك مضاهاة لخلق الله في التقدير ولهذا يؤمر
صانعه بنفخ الروح فيما صوره من التصوير ومما يغلظ نكيره إطالة الذيول
للاجترار والمباهاة لما فيهما من عنجهية التيه والاستكبار ولن يخرق صاحبها
الأرض بإعجابه ولا يبلغ طول الجبال بإطالة ثيابه قال النبي صلى الله عليه
وسلم إن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء ومما هو أشد نكيرا أمر
الحمامات فإن الناس قد أصروا بها على الإجهار وترك الاستتار والتهاون
بأمر العورات التي أصاحبها اللعنة ولهم سوء الدار والنساء في هذا المقام
أشد منهم التكالب من الرجال وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن في فاحشة الابتذال
ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والإتراف وأهمل إنكارها
حتى سرت في الأوساط والأطراف وقد أحدثن الآن من الملابس ما لم يخطر
للشيطان في حساب وذلك من لباس الشهرة الذي لا يسترن منه إسبال مرط
ولا إدناء جلباب ومن جملتها أنهن يعتصبن بعصائب كأمثال الأسنمة ويخرجن
من جوارة أشكالها في الصور المعلمة وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم

بها فيما وردعته من الاخبار وجعل صاحبها معدودا من زمرة أصحاب النار
وعما حدث فيه عن السنن قراءة القرآن بضروب الألحان وتلك قراءة تخرج
حروفها من غير مخرج وتبدد ومعوجة وهو قرآن عربي غير ذي عوج وقد
أمر الله بترتيله وايراده على هيئة تنزيله فمن قرأه بالترجيع والترديد وزلزل
حروفه بالتمطيط والتمديد فقد ألحقه بدربات الاغاني وذهب بما فيه من
طلاوة الالفاظ والمعاني قال النبي صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن بلحون
العرب وأصواتها واياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين وسيجيء
بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة
قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم ويلحق بذلك اقتناء القينات المغنيات اللاتي
يلعبن بالعقول لعبهن بالاسماع ويقتنص الشيطان بغنائهن عن بث الجنود
والاشياع وقبيح النفس الامارة في ذلك أن تقول هؤلاء أما يحل نغمة سماعهن
كما يحل ما تحت قناعهن وقد علم أن لكل شيء تماما وقد ينقلب الحلال فيصير
حراما ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه قال النبي صلى الله عليه وسلم
لا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن
وثمنهن حرام وفي مثل هذا أنزلت ومن الناس من يشتري لهو الحديث
وكذلك يجري الحكم في المواشط اللاتي يجعلن الحسن موفورا والقبح
مستورا ويخدعن نظر الناظر حتى يجعله مسحورا فهن يبدين صدقا
من كذب وجدا من لعب وفعلهن هذا من الغش الذي نهى رسول الله
صلى الله عليه وسلم عنه وقال انه ليس منه وقد لعن الواصلة والمستوصلة
والواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة ومن غش المنكرات أيضا
خضاب الشيب الذي يخالف فيه الظاهر الباطن ويتخلق صاحبه بخلق
الكاذب الخائن وهب أنه أخفى لون شعره وهل يخفي اخلاق لباسه واذا
استشن ملائم المرء فلا يغنيه سواد عارضه ولا سواد رأسه وقد جعل الله الشيب
من نعمه المبشرة بطول الاعمار وسماه نورا للونه وهدايته ولا تستوي الظلمات
والانوار قال النبي صلى الله عليه وسلم الشيب أن يشتغل بتغيير صبغة
الكتاب ويدأب في محو سواد العقاب ببياض التراب فني بقية عمره مندوحة
لادكار ما عمله مذخوره وتبديل ما تقدم سطره وعما ولفت فيه السنة عقد

مجالس التعازى لحضور الناس واظهار شعار الاسود والازرق من اللباس
والتشبيه بالجاهلية فى النوح والندب ويجاوز دمع العين وخشوع القلب الى
الاعلان باسخاط الرب وقد تواطأ النساء على ضرب الخيام على القبور وجعل
الاعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور فصارت المآتم بينهم ولائم والمنادب
عندهم مآدب وربما نشأ من ذلك ما يغض طرفا ويجدع انفا ويوجب حدا
وقذفا وهكذا اهمل امر الاسلام فى تشبيه اهل الذمة باهله وما كانوا
ليشابهوه فى زى عزته ويخالفوه فى سلوك سبله ولابد من الغيار بان يشد
النصرانى عقدة زناره ويصفر اليهودى اعلى ازاره وليمنعوا من التظاهر
بطغيان النعمة وعلو الهمة ويؤمروا بالوقوف عند ما حكم عليهم من الاحكام
ويأخذوا فيه بالاستخفاء والاكتتام فخمورهم تستر وشعائر دينهم لا تظهر
وموتاهم تقبر بالحول قبل ان تقبر ذا لا يوقد خلف ميتهم مصباح ولا يتبع بندب
ولا صياح ومما عرف الناس منكره اثارة التحريش بين الحيوانات وهى ذوات
اكباد رطبة واخلاق صعبة وما منها الا ما يحل اكله ولا يحل قتله كالكبش
والجمل والديك والسمانى وما اشبهها وقد اكثر الناس من افتنانها والمواظبة
على اضرام شحنائها وربما نشأ من ذلك فتنة تؤول الى ضراب وشق ثياب
واسبدات شجاج واثارة عجاج وتحزب الى احزاب كثيرة وافواج ويتصل بهذه
المنكرات المذكورة اشياء اخرى تجرى مجراها فى التقديم وتتنزل منزلتها
فى التحريم فاحكم فيها بحكمك وامض فى شبهاتها بدليل علمك ورتب عاقى
التذكير والتحذير والتعريف والتنكير حتى يتقوم الاود وينفع الرشد
ويمكث فى الارض ما ينفع ويذهب الزبد ولكن علمك لله الذى يسمع ويرى وله
ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى واعلم ان الامر بالمعروف
عبادة يتعدى نفع صاحبها الى غيره وتتضعف خيرا المأمور بها الى غيره وهى
الجهاد الاكبر الذى تقاتل فيه عوامى النفوس وتضرب به رؤس الشهوات التى
هى امنع من معاقد الرؤس فتقتله بحبائله ويريحه يوسى بجراحة نصله ويمثل
هذا الجهاد يستنزل امداد النعم مضعفة كما يستنزل امداد النصر مرادفة فاقدم
عليه ذا عزم باتر وطرف ساهر وقدم ثابت صابر حتى تنال لما قاتل الشيطان
فائجا وتكون ممن دعا الى الله وعمل صالحا واعلم انك فى صنيعة كل يوم

يتدرك الملك والشيطان وكل منهما يقول يا أيها الانسان فان أجبت نداء الملك
كنت في زمرة من مهد جنبيه وخاف مقام ربه ورجع بك الى الله طيبا نشره
مضاعفا أجره وان أجبت نداء الشيطان كنت في زمرة من أغواه وقرنك بمن
أغفل الله قلبه واتبع هواه ثم نزل به الى الارض خبيثا مخبثا وأقبل به على
اخوانه من الشياطين محدثا وهذا آخر ما عهدناه اليك من العهد الذي طوقت
اليوم بكتابه وستناقش غدا على حسابه وكما جعلناه لك في الدنيا ذكرا فاجعله
لك في الآخرة ذخرا ان شاء الله تعالى والسلام (وهذا الذي ذكرته في هذين) من
الكتاب والتقليد يتضمن اطنابا مستوفي الاقسام ولولا خوف الاطالة التي
لا حاجة اليها لأوردت قصائد من الشعر أيضا حتى لا يخلو الموضع من ضرب
أمثلة من المنظوم والمنثور لكن في الذي ذكرته كفاية لمن يحمله على أشباهه
ونظائره (فان قيل) ان الاطناب في الكلام قد وضعتموا اسما لغير مسمى فان
الكلام لا يخلو من حالين اما أن لا يزيد لفظه على معناه وهو الايجاز أو يزيد
لفظه على معناه وهو التطويل وليس ههنا قسم ثالث فما الاطناب اذا (قلت)
في الجواب اعلم أن الايجاز هو ضد التطويل كما أن السواد ضد البياض غير أن
بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضدادا فالاطناب لا ايجاز هو ولا تطويل
كما أن الحمرة أو الخضرة ليست بياضا ولا سوادا وقد قدمنا القول ان الاطناب
يأتي في الكلام مؤكدا كالذي يأتي بزيادة التصوير للمعنى المقصود وأما حقيقة
واما مجازا والتطويل ليس كذلك فانه التعبير عن المعنى بما زائد عليه يفهم ذلك
المعنى بدونه فاذا حذفت تلك الزيادة بقي المعنى المعبر عنه على حاله لم يتغير منه شيء
وهذا بخلاف الاطناب فانه اذا حذف منه تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك
المعنى وزال ذلك التأكيد عنه وذهبت فائدة التصوير والتخييل التي تفيد السامع
ما لم يكن الا بها ألا ترى الى قوله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب
التي في الصدور وهذا لا يسمى ايجازا لانه أتى فيه بزيادة لفظ وهو ذكر الصدور
وقد علم أن القلوب لا تكون الا في الصدور ولا يسمى تطويلا لان التطويل
لا فائدة فيه أصلا وهذا فيه فائدة وهي ما أشرنا اليه وكذلك باقي أقسام
الاطناب التي نبهنا عليها وهذا لا نزاع فيه (النوع السابع عشر في التكرير) قد
تقدم الكلام في صدر كتابي هذا على تكرار الحروف وما ذلك مما يختلط بهذا

النوع الذي هو تكرار المعاني والالفاظ (واعلم) أن هذا النوع من مقاتل علم
البيان وهو دقيق المأخذ وحده هو دلالة اللفظ على المعنى مرددا وربما اشتبه
على أكثر الناس بالاطناب مرة وبالتطويل أخرى وقد تقدم الكلام على
الفرق بين هذه الانواع الثلاثة في باب الاطناب فلا حاجة الى اعادته ههنا وأما
التكرير فقد عرّفتك (وهو ينقسم قسمين أحدهما) يوجد في اللفظ والمعنى
(والآخر) يوجد في المعنى دون اللفظ فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك
لمن تستدعيه أسرع أسرع ومنه قول أبي الطيب المتنبي

ولم أر مثل جيراني ومثلي • لمثلي عند مثلهم مقام

وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك أطعني ولا تعصني فان الامر
بالطاعة نهي عن المعصية (وكل من هذين القسمين ينقسم الى مفيد وغير مفيد) ولا
أعني بالمفيد ههنا ما يعنيه النحاة فانه عندهم عبارة عن اللفظ المركب اما من الاسم
مع الاسم بشرط أن يكون للاول بالثاني علاقة معنى بسع مكافأ جهله واما من
الاسم مع الفعل التام المتصرف على هذا الشرط أيضا واما من حرف النداء
مع الاسم فهذا هو المفيد عند النحاة وأنا لم أقصد ذلك ههنا بل مقصودي من
المفيد أن يأتي لمعنى وغير المفيد أن يأتي لغير معنى (واعلم) أن المفيد من التكرير يأتي
في الكلام تأكيدا له وتشييدا من أمره وانما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء
الذي كررت فيه كلامك اما مبالغة في مدحه أو في ذمه أو غير ذلك ولا يأتي الا في
أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر والوسط عار منه لأن أحد الطرفين هو المقصود
بالمبالغة اما بمدح أو ذم أو غيرهما والوسط ليس من شرط المبالغة وغير المفيد
لا يأتي في الكلام الا عيا وخطلا من غير حاجة اليه (فأما الاول) وهو الذي يوجد
في اللفظ والمعنى (فانه ينقسم الى ضربين) مفيد وغير مفيد (فالاول المفيد وهو
فرعان الاول) اذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمقصود به
غرضان مختلفان كقوله تعالى واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون
أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر
الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون هذا تكرير في اللفظ والمعنى
وهو قوله يحق الحق وليحق الحق وانما جيء به ههنا لاختلاف المراد وذلك أن
الاول تمييز بين الارادتين والثاني بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة

على غيرها وأنه ما نصرهم وخذل أولئك الآلهة الغرض (ومن هذا الباب)
قوله تعالى قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول
المسلمين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له ديني
فاعبدوا ما شئتم من دونه فكرر قوله تعالى قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له
الدين وقوله قل الله أعبد مخلصا له ديني والمراد به غرضان مختلفان وذلك أن
الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة له والإخلاص في دينه والثاني
إخبار بأنه يخص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه ولدلالته على ذلك
قدم المعبود على فعل العبادة في الثاني وأخره في الأول لأن الكلام أولا واقع في
الفعل نفسه وإيجاده وثانيا فيمن يفعل الفعل من أجله ولذلك رتب عليه
فاعبدوا ما شئتم من دونه وعليه ورد قوله تعالى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين
يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وظاهر الأول والثاني أنهما
سواء في المعنى وليس كذلك لأن الثاني فيه تخصيص غير موجود في الأول
ألا ترى أنا إذا قلنا زيد الأفضل وقلنا الأفضل زيد كان في الثاني تخصيص
له بالفضل وهذا التخصيص لا يوجد في القول الأول الذي هو زيد الأفضل
ويجوز أن تبدل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدها فيقال زيد الأجمل أو زيد
الأنقص وإذا قلنا الأفضل زيد وجب تخصيصه بالفضل ولم يمكن تغييره عنه
وكذلك يجري الحكم في هذه الآية فإن الله تعالى قال إنما المؤمنون الذين آمنوا
بالله ورسوله ثم قال لم يذهبوا حتى يستأذنوه فوصفهم بالامتناع عن الذهاب
إلا بإذنه وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصفات كما قال تعالى في موضع آخر
إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فجاء بصفة غير تلك الصفة
ولما قال إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وجب تخصيصهم
بذلك الوصف دون غيره وهذا موضع حسن في تكرير المعاني (ومما يرد من
هذا الباب) قوله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون
ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين وقد
ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه وليس الأمر كذلك فإن معنى قوله
لا أعبد يعني في المستقبل من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم

من عبادة الهوى ولا أنا عابد ما عبدتم أى وما كنت عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه
يعنى أنه لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فى وقت ما فكيف يرجى ذلك منى
فى الاسلام ولا أنتم عابدون فى الماضى فى وقت ما ما أنا على عبادته الآن
(ومما يجرى هذا المجرى) قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فكرر الرحمن الرحيم مرتين والفائدة فى ذلك أن
الاول يتعلق بأمر الدنيا والثانى يتعلق بأمر الآخرة فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع
الى خلق العالمين فى كونه خلق كلا منهم على أكمل صفة وأعطاه جميع ما يحتاج
اليه حتى البقة والذباب وقد يرجع الى غير الخلق كادرار الارزاق وغيرهما وأما
ما يتعلق بأمر الآخرة فهو اشارة الى الرحمة الثانية فى يوم القيامة الذى هو يوم
الدين وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره فان رأيت
شيأ منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر الى سوابقه ولواحقه
لتنكشف لك الفائدة منه (ومما ورد فى القرآن الكريم مكررا) قوله تعالى كذبت
قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا
الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله
وأطيعون ليؤكده عندهم ويقرره فى نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة
فجعل علة الاول كونه أمينا فيما بينهم وجعل علة الثانى حسم طمعه عنهم وخلوه
من الاغراض فيما يدعوهم اليه (ومن هذا النحو) قوله تعالى كذبت قبلهم قوم
نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب
ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وانما كرر تكذيبهم ههنا لانه لم يأت به
على أسلوب واحد بل تنوع فيه بضروب من الصنعة فذكره أولا فى الجملة
الخبرية على وجه الابهام ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه بأن كل واحد من
الاحزاب كذب جميع الرسل لانهم اذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم وفى
تكرير التكذيب وايضاحه بعد ابهامه والتنوع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا
وبالاستثنائية ثانيا وما فى الاستثناء من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص
المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه وهذا باب من تكرير
اللفظ والمعنى حسن غامض وبه يعرف مواقع التكرير والفرق بينه وبين
غيره فافهمه ان شاء الله تعالى (الفرع الثانى من الضرب الاول) اذا كان

التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله
تعالى فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر والتكرير دلالة التعجب من تقديره
واصابته الغرض وهذا كما يقال قاتله الله ما أشجعه أو ما أشعره وعليه ورد قول
الشاعر • ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي • وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة
وكل هذا ايجاب لتقرير المعنى المراد واثباته (وعليه ورد الحديث النبوي)
وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني
أن ينكحوا ابنتهم عليا فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا أن يطلق علي ابنتي
وينكح ابنتهم فقوله لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن من التكرير الذي هو أشد
موقعا من الايجاز لانصباب العناية الى تأكيد القول في منع علي رضي الله عنه
من التزويج بابنة أبي جهل بن هشام وهذا مثل قوله تعالى أولى لك فأولى ثم أولى
لك فأولى ومن أجل ذلك نقول لا اله الا الله وحده لا شريك له لأن قولنا لا اله
الا الله مثل قولنا وحده لا شريك له وهما في المعنى سواء وانما كررنا القول
فيه لتقرير المعنى واثباته وذلك لأن من الناس من يخالف فيه كالنصارى
والثنوية والتكرير في مثل هذا المقام أبلغ من الايجاز وأحسن وأشد موقعا
(ومما جاء منه مثل هذا) قوله تعالى والله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه
في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به
من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله
لمبلسين فقوله من قبله بعد قوله من قبل فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بعد
وتطاول فاستحكم بأسهم وتمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم
بذلك (وعلى ذلك ورد) قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر
ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق فقوله لا يؤمنون بالله ولا
باليوم الآخر يقوم مقام قوله ولا يدينون دين الحق لأن من لا يؤمن بالله ولا
باليوم الآخر لا يدين دين الحق وانما كرر ههنا للحث على المأمور بقتالهم
والتسجيل عليهم بالذم ورجمهم بالعظائم ليكون ذلك أدعى لوجوب قتالهم
وحربهم وقد قلنا ان التكرير انما يأتي لما أهم من الامر الذي بصرف العناية
اليه يثبت ويتقرر (وكذلك ورد) قوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا
أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في أعناقهم

وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون فتكرير لفظة أولئك من هذا الباب الذي
أشرنا إليه لمكان شدة النكير وإغلاظ العذاب بسبب إنكارهم البعث (ومما
هذا ورد) قوله تعالى أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون
فإنه إنما تكررت لفظة هم للإيذان بتحقيق الخسار والاختصاص فيها وهم في الآخرة
الأخسرون لكن لما أريد تأكيد ذلك جيء بتكرير هذه اللفظة المشار إليها
وكذلك قوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وأمثال هذا في القرآن
كثير (وكذلك ورد) قوله تعالى في سورة القصص فأصبح في المدينة خائفا يترقب
فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين فلما أن
أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا
بالأمس فقوله تعالى فلما أن أراد أن يبطش بتكرير أن مرتين دليل على أن موسى
عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول بل
كان عنده إبطاء في بسط يده إليه فعبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى فلما أن أراد أن
يبطش (وجرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة) في هذه الآية فقال إن
أن الأولى زائدة ولو حذفت فقيل فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء ألا ترى إلى
قوله تعالى فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه وقد اتفق النحاة على أن أن الواردة
بعد لما وقبل الفعل زائدة فقلت له النحاة لا اهتداء لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة
ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة ولا شك أنهم وجدوا أن ترد بعد
لما وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى
بوجودها كالمعنى إذا أسقطت فقالوا إنها زائدة وليس الأمر كذلك بل إذا وردت
لما وورد الفعل بعدها بإسقاط أن دل ذلك على الفور وإذا لم تسقط لم يدل ذلك
على أن الفعل كان على الفور وإنما كان فيه تراخ وإبطاء (وبيان ذلك من وجهين
أحدهما) أني أقول فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدلة على المعاني فإذا وردت
لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأولى أن تحمل تلك
اللفظة على معنى فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل قيل
هذه زائدة دخولها في الكلام كخروجها منه ولما نظرت أنا في هذه الآية
وجدت لفظة أن الواردة بعد لما وقبل الفعل دالة على معنى وإذا كانت دالة على
معنى فكيف يسوغ أن يقال إنها زائدة (فإن قيل) إنها إذا كانت دالة على معنى

قصرنا أن تكون دالة على غير ما أشرت أنت اليه (قلت فى الجواب) اذا ثبت أنها دالة على معنى فالذى أشرت اليه معنى مناسب واقع فى موقعه واذا كان مناسبا واقعا فى موقعه فقد حصل المراد منه ودل الدليل حينئذ أنها ليست زائدة (الوجه الآخر) أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحا فى كلام الله تعالى وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة فى كلامه لا حاجة اليها والمعنى يتم بدونها وحينئذ لا يكون كلامه معجزا اذ من شرط الاعجاز عدم التطويل الذى لا حاجة اليه وان التطويل عيب فى الكلام فكيف يكون ما هو عيب فى الكلام من باب الاعجاز هذا محال (وأما قوله تعالى) فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فانه اذا نظر فى قصة يوسف عليه السلام مع اخوته منذ ألقوه فى الجب والى أن جاء البشير الى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم ابطاء بعيد وقد اختلف المفسرون فى طول تلك المدة ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بأن بعد لما قبل الفعل بل كانت تكون الآية فلما جاء البشير ألقاه على وجهه وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة لانها ليست من شأنهم (واعلم) أن من هذا النوع قسما يكون المعنى فيه مضافا الى نفسه مع اختلاف اللفظ وذلك يأتى فى الالفاظ المترادفة وقد ورد فى القرآن الكريم واستعمل فى فصيح الكلام فمنه قوله تعالى والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم والرجز هو العذاب وعليه ورد قول أبى تمام

نهوض بثقل العبء مضطلع به • وان عظمت فيه الخطوب وجلت

والثقل هو العبء والعبء هو الثقل (وكذلك) ورد قول البحترى

ويوم تثنت للوداع وسلمت • بعينين موصول بلحظهما السحر

توهمتها ألوى بأجفانها الكرى • كرى النوم أو مالت بأعطافها الخمر

فان الكرى هو النوم وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطى هذه الصناعة وظنوه مما لا فائدة فيه وليس كذلك بل الفائدة فيه هى التأكيد للمعنى المقصود والمبالغة فيه أما الآية فالمراد بقوله تعالى عذاب من رجز أى عذاب مضاعف من عذاب وأما بيت أبى تمام فانه تضمن المبالغة فى وصف الممدوح بحمله للاثقال وأما بيت البحترى فانه أراد أن يشبه طرفها الفتور بالنائم فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف اليه تأكيدا له وزيادة فى بيانه وهذا

الموضع لم ينبه عليه أحد سواى وربما أدخل فى التكرير من هذا النوع
ما ليس منه وهو موضع لم ينبه عليه أيضا أحد سواى (فمنه قوله تعالى) ثم ان
ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها
لغفور رحيم فلما تكررت ان ربك مرتين علم أن ذلك أدل على المغفرة وكذلك قوله
تعالى ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من
بعدها لغفور رحيم ومثل هذا قوله تعالى لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا
ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهذه الآيات
يظن أنها من باب التكرير وليست كذلك وقد أنعمت نظرى فيها فرأيتها
خارجة عن حكم التكرير وذلك أنه اذا طال الفصل من الكلام وكان أوله يفتقر
الى تمام لا يفهم الا به فالاولى فى باب الفصاحة أن يعاد لفظ الاول مرة ثانية
ليكون مقارنا لتمام الفصل كى لا يجىء الكلام منثورا لا سيما فى ان وأخواتها
فاذا وردت ان وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام فاعادة ان
أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة كالذى تقدم من هذه الآيات وعليه ورد
قول بعضهم من شعراء الحماسة

أصبرا وقيدا واشتياقا وغربة • ونأى حبيب ان ذا لعظيم
وان امرأ دامت مواثيق عهده • على مثل هذا انه لكريم

فانه لما طال الكلام بين اسم ان وخبرها أعيدت ان مرة ثانية لان تقدير
الكلام وان امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم لكن بين الاسم
والخبر مدى طويل فاذا لم تعد ان مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق
وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحاء اما طبعا واما علما (وكذلك يجرى الامر) اذا
كان خبر ان عاملا فى معمول يطول ذكره فان اعادة الخبر ثانية هو الاحسن وعلى
هذا جاء قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام اذ قال يوسف لابيه يا أبت
انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين فلما قال انى
رأيت ثم طال الفصل كان الاحسن أن يعيد لفظ الرؤية فيقول رأيتهم لى
ساجدين وكذلك جاءت الآية المذكورة ههنا قبل هذه وهى قوله تعالى
لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا فانه لما طال الفصل أعاد قوله فلا تحسبنهم بمفازة من
العذاب فاعلم ذلك وضع يدك عليه وكذلك الآية التى قبلها وهى قوله تعالى ثم ان

ربك للذين عملوا السوء بجهالة وكذلك الآية الاخرى وهى ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا (ومن باب التكرير فى اللفظ والمعنى) الدال على معنى واحد قوله عز وجل وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار فانه انما كرر نداء قومه ههنا لزيادة التنبيه لهم والايقاظ عن سنة الغفلة ولانهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم من الضلال وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعى بذلك أن لا يتهموه فان سرورهم سروره وغمهم غمه وأن ينزلوا على نصيحته لهم وهذا من التكرير الذى هو أبلغ من الايجاز وأشد موقعا من الاختصار فاعرفه ان شاء الله تعالى (وعلى نحو منه) جاء قوله تعالى فى سورة القمر فذوقوا عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فانه قد تكرر ذلك فى السورة كثيرا وفائدته أن يجددوا عند استماع كل نبإ من أنباء الاولين ادكارا وايقاظا وان يستأنفوا تنبها واستيقاظا اذا سمعوا الحث على ذلك والبعث اليه وأن تقرع لهم العصا مرات لئلا يغلبهم السهو وتستولى عليهم الغفلة وهكذا حكم التكرير فى قوله تعالى فى سورة الرحمن فبأى آلاء ربكما تكذبان وذلك عند كل نعمة عددها على عباده وأمثال هذا فى القرآن الكريم كثير (ومما ورد) من هذا النوع شعرا قول بعض شعراء الحماسة

الى معدن العز المؤثل والندى • هناك هناك الفضل والخلق الجزل

فقوله هناك هناك من التكرير الذى هو أبلغ من الايجاز لانه فى معرض مدح فهو يتردد فى نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الاوصاف المذكورة مشيرا اليها كأنه قال أدلكم على معدن كذا وكذا ومقره ومفاده (وكذلك) ورد قول المساور بن هند

جزى الله عنى غالبا من عشيرة • اذا حدثان الدهر نابت نوائبه

فكم دافعوا من كربة قد تلاحمت • على وموج قد علتنى غواربه

فصدر البيت الثانى وعجزه يدلان على معنى واحد لان تلاحم الكرب عليه كتعالى الموج من فوقه وانما سوغ ذلك لانه مقام مدح واطراء ألا ترى أنه يصف احسان هؤلاء القوم عنده حدثان دهره فى التكرير وفى قبالته لو كان القائل

هاجيا فان الهجاء في هذا كالمدح والتكرير انما يحسن في كلا الطرفين لا في
الوسط (واعلم) أنه اذا وردت ان المكسورة المخففة بعد ما كانت بمعناها سواء
ألا ترى الى قوله تعالى ان هم الا كالانعام فان وما بمعنى واحد واذا أوردت
من بعد ما كانت من باب التكرير كقولنا ما ان يكون كذا وكذا أي ما ما يكون
كذا وكذا واذا اوردت في الكلام فانما ترد في مثل ما أشرنا اليه من التكرير
فان استعملت في غير ما يكون منها الفائدة بتعيها تكريرها كان استعمالها لغوا
لا فائدة فيه وقد زعم قوم من مدعي هذه الصناعة أن أبا الطيب المتنبي أتى في هذا
البيت بتكرير لا حاجة به اليه وهو قوله

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وليس في هذا البيت من تكرير فانه كقولك الموصوف بكذا وكذا ابن الموصوف
كذا وكذا أي انه عريق النسب في هذا الوصف (وقد ورد) في الحديث النبوي
مثل ذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم في وصف يوسف الصديق عليه السلام
الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن
ابراهيم (ولقد فاوضني في هذا البيت المشار اليه) بعض علماء الادب وأخذ
يطعن فيه من جهة تكراره فوقفته على مواضع الصواب منه وعرّفته أنه كالخبر
النبوي من جهة المعنى سواء بسواء لكن لفظه ليس يرضي على هذا الوجه الذي
قد استعمل فيه فان الالفاظ اذا كانت حسانا في حال انفرادها فان استعمالها
في حال التركيب يزيدها حسنا على حسنها أو يذهب ذلك الحسن عنها وقد تقدم
الكلام على ذلك في المقالة الاولى من الصناعة اللفظية ولو تهيأ لابي الطيب
المتنبي أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب أو ما يجري مجراها لكان أحسن
وكذلك لفظة الهتن فان البيت يرضي في هذا الموضع على هذا الوجه ولفظة
العارض وان كانت قد وردت في القرآن وهي لفظة حسنة فالفرق بين ورودها
في القرآن الكريم وورودها في هذا البيت الشعري ظاهر وقد تقدم الكلام
على مثلها من آية وبيت لابي الطيب أيضا وهو في المقالة اللفظية عند الكلام على
الالفاظ المفردة فليؤخذ من هناك وكثيرا ما يقع الجهال في مثل هذه المواضع
وهم الذين قيل فيهم

وكذا كل أخي حذلقة * ما مشى في يابس الازلق

فترى أحدهم قد جمع نفسه وظن على جهله أنه عالم فيسرع في وصف كلام بالايجاز

قوله واعلم الخ فيه من الركاكة ما لا يخفى والمعنى واضح اه

وكلام بالتطويل أولى بالتكرير وإذا طولب بأن يبدي سببا لما ذكره لا يوجد
عنده من القول شيء إلا تحكما محضا صادرا عن جهل محض (الضرب الثاني
من التكرير في اللفظ والمعنى) وهو غير المفيد فمن ذلك قول مروان الأصغر

سقى الله نجدا والسلام على نجد • ويا حبذا نجد على النأي والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها • لعلي أرى نجدا وهيهات من نجد

وهذا من العي الضعيف فإنه كرر ذكر نجد في البيت الأول ثلاثا وفي البيت الثاني
ثلاثا ومراده في الأول الثناء على نجد وفي الثاني أنه تلفت إليها ناظرا من بغداد
وذلك مرمى بعيد وهذا المعنى لا يحتاج إلى مثل هذا التكرير أما البيت الأول
فيحمل على الجائز من التكرير لأنه مقام تشوق وتحرق وموجدة بفراق نجد
ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى
الوارد في البيتين معا من غير أن يأتي بهذا التكرير المتتابع ست مرات (وعلى
هذا الأسلوب) ورد قول أبي نواس

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا • ويوما له يوم الترحل خامس

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ويا عجبا له يأتي بمثل هذا البيت
السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن التي
تقدم ذكرها في باب الإيجاز وهي • ودار ندامى عطلوها وأدلجوا • (ومن هذا
الباب أيضا) ما أوردناه في صدر هذا النوع وهو قول أبي الطيب المتنبي

ولم أر مثل جيراني ومثلي • لمثلي عند مثلهم مقام

فهذا هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصا ألا ترى أنه يقول لم أر
مثل جيراني في سوء الجوار ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم إلا أنه قد كرر
هذا المعنى في البيت مرتين وعلى نحو من ذلك جاء قوله أيضا

وتقلقلت بالهم الذي قلقل الحشى • قلاقل عيس كلهن قلاقل

(وأما القسم الثاني من التكرير) وهو الذي يوجد في المعنى دون اللفظ (فذلك
ضربان) مفيد وغير مفيد (الضرب الأول المفيد وهو فرعان الأول) إذا كان
التكرير في المعنى يدل على معنيين مختلفين وهو موضع من التكرير مشكل لأنه
يسبق إلى الوهم أنه تكرير يدل على معنى واحد (فمما جاء منه) حديث حاطب بن
أبي بلتعة في غزوة الفتح وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر علي بن أبي طالب

والزبير والمقداد رضي الله عنهم فقال اذهبوا الى روضة خاخ فان بها ظعينة معها
كتاب فأتوني به قال علي رضي الله عنه فخرجنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا
الروضة واذا فيها الظعينة فأخذنا الكتاب من عقاصها وأتينا به رسول الله صلى
الله عليه وسلم واذا هو من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس من المشركين بمكة يخبرهم
ببعض شان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ما هذا يا حاطب فقال يا رسول
الله لا تعجل علي اني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من
معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أموالهم وأهليهم بمكة فأحببت اذ فاتني
ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا
ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه قد صدقكم فقوله ما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا
بالكفر بعد الاسلام من التكرير الحسن وبعض الجهال يظنه تكريرا لا فائدة فيه
فان الكفر والارتداد عن الدين سواء وكذلك الرضا بالكفر بعد الاسلام
وليس كذلك والذي يدل عليه اللفظ هو أني لم أفعل ذلك وأنا كافر أي باق على
الكفر ولا مرتدا أي اني كفرت بعد اسلامي ولا رضا بالكفر بعد الاسلام أي
ولا ايثارا لجانب الكفار على جانب المسلمين وهذا حسن في مكانه واقع في
موقعه وقد يحمل التكرير فيه على غير هذا الفرع الذي نحن بصدد ذكره
ههنا وهو الذي يكون التكرير فيه يدل على معنى واحد وسيأتي بيانه في الفرع
الثاني الذي يلي هذا الفرع الاول والذي يجوزه أن هذا المقام هو مقام اعتذار
وتنصل عما رمي به من تلك القارعة العظيمة التي هي نفاق وكفر فكرر المعنى
في اعتذاره قصد التأكيد والتقرير لما ينفي عنه ما رمي به (ومما ينتظم بهذا
السلك) أنه اذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر
عام كقوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر فان الامر بالمعروف داخل تحت الدعاء الى الخير لان الامر
بالمعروف خاص والخير عام فكل أمر بالمعروف خير وليس كل خير أمرا بالمعروف
وذاك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الامر بالمعروف ففائدة التكرير ههنا أنه
ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله كقوله تعالى حافظوا على الصلوات
والصلاة الوسطى وكقوله تعالى فيهما فاكهة ونخل ورمان وكقوله تعالى انا

عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها فان الجبال
داخلة في جملة الارض لكن لفظ الارض عام والجبال خاص وفائدته ههنا تعظيم
شأن الامانة المشار اليها وتفخيم أمرها (وقد ورد) هذا في القرآن الكريم كثيرا
ومما ورد منه شعرا قول   من أبيات الحماسة

وان الذي بيني وبين بني أبي * وبين بني عمي لمختلف جدا
اذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم * وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم * وان هم هووا غيي هويت لهم رشدا

فهذا من الخاص والعام فان كل لحم يؤكل للانسان فهو تضييع لغيبه وليس
كل تضييع الغيبة أكلا للحمه ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب وأما
تضييع الغيب فمنه الاغتياب ومنه التخلي عن النصرة والاعانة ومنه اهمال السعي
في كل ما يعود بالنفع كائنا ما كان وعلى هذا فان هذين البيتين من الخاص والعام
المشار اليه في الآية المقدم ذكرها وهو موضع يرد في الكلام البليغ ويظن أنه
لا فائدة فيه (الفرع الثاني) اذا كان التكرير في المعنى يدل على معنى واحد
لا غير وقد سبق مثال ذلك في أول هذا الباب كقولك أطعني ولا تعصني فان الامر
بالطاعة نهي عن المعصية والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب
والكلام في هذا الموضع كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى
اذا كان الغرض به شيئا واحدا ولا تجد شيئا من ذلك يأتي في الكلام الا لتأكيد
الغرض المقصود به كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم
عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم فانه انما
كرر العفو والصفح والمغفرة والجميع بمعنى واحد للزيادة في تحسين عفو الوالد
عن ولده والزوج عن زوجته وهذا وأمثاله يتفاوت في الغرض المقصود به وهو
موضع يكون التكرير فيه أوجز من لمحة الايجاز وأولى بالاستعمال (وقد
ورد) في القرآن الكريم كثيرا كقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام قال انما
أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون فان البث والحزن بمعنى واحد
وانما كرره ههنا لشدة الخطب النازل به وتكاثر سهامه النافذة في قلبه وهذا
المعنى كالذي قبله وكذلك ورد قوله تعالى تلك عشرة كاملة بعد ثلاثة وسبعة
تنوب مناب قوله ثلاثة وسبعة مرتين لان عشرة هي ثلاثة وسبعة ثم قال كاملة

وذلك توكيد ثالث والمراد به ايجاب صوم الايام السبعة عند الرجوع فى الطريق
على الفور لا عند الوصول الى البلد كما ذهب اليه بعض الفقهاء وبيانه أنى أقول
اذا صدر الامر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجردا من قرينة تخرجه
عن وضعه ولم يكن موقتا بوقت معين كان ذلك حثا له على المبادرة الى امتثال
الامر على الفور فانك اذا قلت لمن تأمره بالقيام قم قم قم فانما تريد بهذا اللفظ
المكرر أن يبادر الى القيام فى تلك الحال الحاضرة (فان قلت) الغرض بتكرير
الامر أن يتقرر فى نفس المأمور أنه مراد منه وليس الغرض الحث على المبادرة
الى امتثال الامر (قلت فى الجواب) ان المرة الواحدة كافية فى معرفة المأمور
أن الذى أمر به مراد منه والزيادة على المرة الواحدة لا تخلو اما أن تكون دالة
على مادلت عليه المرة الواحدة أو دالة على زيادة معنى لم تكن فى المرة الواحدة
فان كانت دالة على مادلت عليه المرة الواحدة كان ذلك تطويلا فى الكلام لا حاجة
اليه وقد ورد مثله فى القرآن الكريم كهذه الآية المشار اليها وغيرها من
الآيات والتطويل فى الكلام عيب فاحش عند البلغاء والفصحاء والقرآن معجز
ببلاغته وفصاحته فكيف يكون فيه تطويل لا حاجة اليه فينبغى أن تكون تلك
الزيادة دالة على معنى زائد على مادلت عليه المرة الواحدة واذا ثبت هذا فتلك
الزيادة هى الحث على المبادرة الى امتثال الامر فان سلمت لى ذلك والا فبين معنى
تلك الزيادة ببيان غير ما ذكرته أنا ولا أراك أن تستطيع ذلك (فان قلت) ان الواو
فى قوله تعالى وسبعة اذا رجعتم لولا أن تؤكد بقوله تلك عشرة لظن أنها وردت
بمعنى أو أى فثلاثة أيام فى الحج أو سبعة اذا رجعتم فلما قيل تلك عشرة زال هذا
الظن وتحققت الواو أنها عاطفة وليست بمعنى أو (قلت فى الجواب) هذا باطل
من أربعة أوجه الوجه الاول أن الواو العاطفة لا تجعل بمعنى أو أين وردت من
الكلام وانما تجعل بمعنى أو حال ضرورة ترجح جانبها على جانب جعلها عاطفة
لان الاصل فيها أن تكون عاطفة فاذا عدل بها عن أصلها احتاج الى ترجيح
ولا ترجيح ههنا الوجه الثانى بلاغى وذلك أن القرآن الكريم منتهى البلاغة
والفصاحة لمكان اعجازه فلو كان معنى الواو فى هذه الآية بمعنى أو لقيل فثلاثة
أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ولم يحتج الى هذا التطويل فى قوله فثلاثة أيام فى
الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة الوجه الثالث أن هذا الصوم حكم من

أحكام العبادات والعادات يجب فيها الاحتياط أن تؤدى على أكمل صورة لئلا
يدخلها النقص وإذا كان الأمر على ذلك فكيف يظن أن الواو في هذه الآية بمعنى
أو الوجه الرابع أن السبعة ليست مما له دلالة حتى يحصل في قبالها لأن
معنى الآية إذا كانت الواو فيها بمعنى أو إما أن تصوموا ثلاثة أيام في الحج أو
سبعة إذا رجعتم (فإن قلت) عدد التعبد لا يعقل معناه كغيره من العددات التي
لا يعقل معناها (قلت في الجواب) إن من التعبدات ما لا يعقل معناه كعدد
ركعات الصلوات وعدد الطواف والسعي وأشباه ذلك ولنا ما يعقل معناه
كهذه الآية فإنا نعقل التفاوت بين الصوم في الحضر والسفر ونعقل التفاوت
بين العدد الكثير والعدد القليل وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون صوم الأيام
السبعة عند الرجوع في الطريق أو عند الوصول إلى البلد فإن كان في الطريق
فإنه أشق من الصوم بمكة لأن الصوم في السفر أشق من الصوم في الحضر فكيف
يجعل صوم سبعة أيام في السفر في مقابلة صوم ثلاثة أيام بمكة وإن كان الصوم
عند الوصول إلى البلد فلا فرق بين الصوم بمكة والصوم عند الوصول إلى البلد
لأن كليهما صوم في المقام ببلد من البلاد لا تفاوت بينهما حتى يجعل صوم ثلاثة
أيام في مقابلة سبعة أيام على غير مثال ولا تساو وعلى كلا التقديرين لا يجوز أن
يكون الواو في سبعة إذا رجعتم بمعنى أو فتحقق إذاً أنها للعطف خاصة وإذا كانت
للعطف خاصة فتأكيدها بعشرة كاملة دليل على أن المراد وجوب صوم الأيام
السبعة في الطريق قبل الوصول إلى البلد (فإن قلت) إن الصوم بمكة أشق من
الصوم في الطريق لأن الواجب عليه الصوم بمكة في تعب ونصب بتشمير زمانه
في السعي والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك (قلت في الجواب) هذا لا يلزم
إذ الواجب عليه سعي واحد وطواف واحد لا غير وما عدا ذلك نافلة لا يلزم ونحن
في هذا المقام ناظرون إلى ما يجب لا إلى النافلة والذي يجب أداؤه بمكة يفرغ
منه في ساعة واحدة فكيف تحمل الزيادة على ذلك دليلا يورد في هذا المقام هذا
غير وارد وهكذا ورد قوله تعالى فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على
الكافرين غير يسير فقوله غير يسير بعد قوله عسير من هذا النوع المشار إليه وإلا
فقد علم أن العسير لا يكون يسيرا وأعاد ذكرهما على هذا الوجه لتعظيم شأن ذلك
اليوم في عسره وشدته على الكافرين وكذلك ورد قوله تعالى قد كانت لكم أسوة

حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده فان البغضاء والعداوة بمعنى واحد وانما حسن ايرادهما معا في معرض واحد لتأكيد البراءة بين ابراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده وللمبالغة في اظهار القطيعة والمصارمة وورد مثل ذلك في مثل هذا الموضع كالايجاز في موضعه وان ترى شيئا يرد في القرآن الكريم من هذا القبيل الا وهو لامر اقتضاه وان خفي عنك موضع السر فيه فاسأل عنه أهله العارفين به (ومما ورد منه شعرا) قول بعضهم في أبيات الحماسة

نزلت على آل المهلب شاتيا * بعيدا عن الاوطان في زمن المحل

فما زال بي اكرامهم وافتقادهم * واحسانهم حتى حسبتهم أهلي

فان الاكرام والافتقاد داخلان تحت الاحسان وانما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع والاعجاب لحقه وعلى هذا ورد قول الاعشى في قصيدته المشهورة التي يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم فقال منها

فآليت لا أرثي لها من كلالة * ولا من وجى حتى تلاقي محمدا

فان الوجى والكلالة معناهما سواء وانما حسن تكريره ههنا للاشعار ببعد المسافة (الضرب الثاني من القسم الثاني) في تكرير المعنى دون اللفظ وهو غير المفيد فمن ذلك قول أبي تمام

قسم الزمان ربوعها بين الصبا * وقبولها ودبورها أثلاثا

فان الصبا هي القبول وليس ذلك مثل التكرير في قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فيما يرجع الى تكرير اللفظ والمعنى ولا مثل التكرير في قوله تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف فيما يرجع الى تكرير المعنى دون اللفظ وقول ابي تمام الصبا والقبول لا يشتمل الا على معنى واحد لا غير وهذا الضرب من التكرير قد خبط فيه علماء البيان خبطا كثيرا والاكثر منهم أجازه فقالوا اذا كانت الالفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحدا فليس استعمال ذلك بمعيب وهذا القول فيه نظر والذي عندي فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقا اذا أتى لغير فائدة وأما الناظم فانه يعاب عليه في موضع دون موضع أما الموضع الذي يعاب استعماله فيه فهو صدور الابيات الشعرية

وماوالاها وأما الموضع الذي لا يعاب استعماله فيه فهو الاعجاز من الابيات لمكان القافية وانما جاز ذلك ولم يكن عيبا لانه قافية والشاعر مضطر اليها والمضطر يحل له ماحرم عليه كقول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي مطلعها ألا انعم صباحا أيها الطلل البالي ، وقال

وهل ينعمن الا سعيد مخلد • قليل الهموم لا يبيت بأوجال

واذا كان قليل الهموم فانه لا يبيت بأوجال وهذا تكرير للمعنى الا أنه ليس بعيب لانه قافية وكذلك ورد قول الحطيئة

قالت أمامة لا تجزع فقلت لها • ان العزاء وان الصبر قد غلبا

هلا التمست لنا ان كنت صادقة • مالا تعيش به في الناس أو نشبا

فالبيت الاول معيب لانه كرر العزاء والصبر ومعناهما واحد ولم يرد القافية لان القافية هي الباء وأما البيت الثاني فليس بمعيب لان التكرير جاء في النشب وهو قافية (ومما يجري هذا المجرى) قول المنخل اليشكري

ولقد دخلت على الفتا • ة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء ترفل • في الدمقس وفي الحرير

فان الدمقس والحرير سواء وقد ورد قافية فلا بأس به من أجل ذلك (فان قيل) ان الحرير هو الابريسم المنسوج بدليل قوله تعالى وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا فانه لم يرد خيوط ابريسم وانما أراد ثيابا من الابريسم وأما الدمقس فانه خيوط الابريسم محلولة بدليل قول امرئ القيس • وشحم كهداب الدمقس المفتل فانه لم يرد ابريسما منسوجا وانما أراد خيوط الابريسم (فالجواب عن ذلك) أنه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه لان المرأة لا ترفل في خيوط من الابريسم وانما ترفل في الاثواب منه وأما قول امرئ القيس كهداب الدمقس فانه لو كان الدمقس هو الخيوط المحلولة من الابريسم لما احتاج أن يقول كهداب فان الهداب جمع هدب ثم قال المفتل فدل بذلك على أن الدمقس يطلق على الابريسم سواء كان منسوجا أو غير منسوج وكذلك الحرير أيضا وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة ألا ترى أنه لما قال المنخل ترفل في الدمقس وفي الحرير فهم من ذلك أنه أراد أثوابا من الدمقس ومن الحرير لان الرفول لا يكون في خيوط من الابريسم وانما يكون في أثوابه (ومما يجري على هذا النهج) قول الآخر

من شعراء الحماسة

إني وإن كان ابن عمي غائبا • لمقاذف من خلفه وورائه

فإن خلفه ووراءه بمعنى واحد وإنما جاز تكرارهما لأنهما قافية (وعلى هذا)
ورد قول أبي تمام

دمن كأن البين أصبح طالبا • دمنا لدى آثارنا وحقودا

فإن الدمنة هي الحقد (وكذلك) قول أبي الطيب المتنبي

بحر تعوّد أن يذمّ لأهله • من دهره وطوارق الحدثان
فتركته وإذا أذمّ من الورى • راعاك واستثنى بني حمدان

فإن الدهر وطوارق الحدثان سواء وإنما جاز استعمال ذلك لأنه قافية (وأما
ما ورد في أثناء الأبيات الشعرية) فكقول عنترة

حييت من طلل تقادم عهده • أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فقوله أقوى وأقفر من العيب لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة إذ
الضرورة لا تكون إلا في القافية كما أريتك (وأما ما ورد من صدور الأبيات)
فكقول البحتري في قصيدته العينية

ألمّت وهل إلمامها بك نافع • وزارت خيالا والعيون هواجع

فإن قوله ألمّت وقوله زارت خيالا سواء ولا فرق إذا بين صدر البيت وعجزه
(فإن قيل) إنه أراد بالإلمام زيارة اليقظة ثم قال وزارت خيالا (فالجواب عن ذلك)
أنه لم يرد إلا زيارة المنام في الحالتين لأنه قال ألمّت وهل إلمامها بك نافع ولو كان
الإلمام في اليقظة لما قال وهل إلمامها بك نافع فإنه لا نفع أنفع من زيارة المحبوب في
اليقظة وهذا غير خاف لا يحتاج إلى السؤال عنه (فإن قيل) لم أجزت ذلك للناظم
وحظرته على الناثر (قلت في الجواب) أما الناثر فإنه إذا أسجع كلامه فالغالب
أن يأتي به مزدوجا في فقرتين من الفقر ويمكنه إبدال تلك الفقرتين بغيرهما فيسلم
منه وأما الشاعر فإنه يصوغ قصيدا ذا أبيات متعددة على قافية من القوافي
فإذا تكرر لديه شيء من الكلام في آخر بيت من الأبيات عسر إبداله من أجل
القافية وهذا غير خاف والسؤال عنه غير وارد وهذا الذي ذكرته إذا ورد في غير
القافية سمي إخلالا وقال ابن البحتري كان يخل كثيرا في شعره وهو لعمري
كذلك إلا أن حسن سبكه ورونق ديباجته يغفر له ذلك (ويروى عنه) أنه

كان اذا مثل بين يدي الفتح بن خاقان وزير المتوكل مادحا له اختال بين يديه
معجبا بنفسه فتقدم خطوات ثم تأخر وقال أي شي تسمعون فتقدم عليه ذلك بعض
حسدته وحمل الفتح بن خاقان عليه فقال له الفتح لو رماك بالحجارة لكان ذلك
مغفورا له فيا بقوله (النوع الثامن عشر في الاعتراض) وبعضهم يسميه الحشو
وحده كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقي الاول على حاله مثال
ذلك أن تقول زيد قائم فهذا كلام مفيد وهو مبتدأ وخبر فاذا أدخلنا فيه لفظا
مفردا قلنا زيد والله قائم ولو أزلنا القسم منه لبقي الاول على حاله واذا أدخلنا
في هذا الكلام لفظا مركبا قلنا زيد على ما به من المرض قائم فأدخلنا بين المبتدا
والخبر لفظا مركبا وهو قولنا على ما به من المرض فهذا هو الاعتراض وهذا حده
(واعلم) أن الجائز منه وغير الجائز انما يؤخذ من كتب العربية فانه يكون مستقصى
فيها كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين الصفة والموصوف وبين المعطوف
والمعطوف عليه وأشباه ذلك مما يحسن استعماله وكالاعتراض بين المضاف
والمضاف اليه وبين ان واسمها وبين حرف الجر ومجروره وأمثال ذلك مما يقبح
استعماله وليس هذا مكانه لان كتابنا هذا موضوع لان استكمل معرفة ذلك
وغيره مما أشرنا اليه في صدر الكتاب وليس المراد ههنا من الاعتراض الا ما يفرق
به بين الجيد والردي لا ما يعلم به الجائز وغير الجائز لان كتابي هذا
موضوع لذكر ما يتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وصفي الفصاحة
والبلاغة فالذي أذكره في باب الاعتراض انما هو ما اشتمل على شي من هذين
الوصفين المشار اليهما (واعلم أن الاعتراض ينقسم قسمين أحدهما) لا يأتي في
الكلام الا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد (والآخر) أن يأتي في الكلام لغير فائدة
فاما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه واما أن يؤثر في تأليفه نقصا وفي معناه
فسادا (فالقسم الاول) وهو الذي يأتي في الكلام لفائدة كقوله تعالى فلا أقسم
بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم في كتاب مكنون ففي هذا
الكلام اعتراضان أحدهما قوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك اعتراض بين
القسم الذي هو فلا أقسم بمواقع النجوم وبين جوابه الذي هو انه لقرآن كريم وفي
نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو قسم وبين صفته
التي هي عظيم وهو قوله لو تعلمون فذانك اعتراضان كما ترى وفائدة هذا الاعتراض

الاعتراض

بين القسم وجوابه انما هي تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع ألا ترى الى قوله
لو تعلمون اعتراضا بين الموصوف والصفة وذلك الامر بحيث لو علم وفي حقه من
التعظيم وهذا مثل قولنا ان هذا الامر لعظيم بحيث لو تعلم يا فلان عظمه لقدرته حق
قدره فان ذلك يكبر في نفس المخاطب ويظل متطلعا الى معرفة عظمه (وكذلك)
ورد قوله تعالى ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وتقديره ويجعلون لله
البنات ولهم ما يشتهون فاعترض بين المفعولين بسبحانه وهو مصدر يدل على
التنزيه فكانه قال ويجعلون لله البنات وهو منزه عن ذلك ولهم ما يشتهون وفائدة
هذا الاعتراض ههنا ظاهرة (وكذلك) ورد قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام
قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا
لنفسد في الارض وما كنا سارقين فقوله لقد علمتم اعتراض بين القسم وجوابه
وفائدته تقرير اثبات البراءة من الفساد والنزاهة من تهمة السرقة أي انكم
قد علمتم هذا منا ونحن مع علمكم به نقسم بالله على صدقه وقد ورد الاعتراض
في القرآن كثيرا وذلك في كل موضع يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة في المعنى
المقصود (ومن هذا القسم) قوله تعالى واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل
قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون فهذا الاعتراض بين اذا وجوابها لان
تقدير الكلام واذا بدلنا آية مكان آية قالوا انما أنت مفتر فاعترض بينهما بقوله
تعالى والله أعلم بما ينزل وهو مبتدأ وخبر وفائدته اعلام القائلين انه مفتر أن ذلك
من الله وليس منه وأنه أعلم بذلك منهم (ومن هذا الباب) قوله تعالى ووصينا
الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك
ألا ترى الى هذا الاعتراض الذي قد طبق مفصل البلاغة وفائدته أنه لما وصى
بالوالدين ذكر ما تكابده الام من المشاق في حمل الولد وفصاله ايجابا للتوصية بها
وتذكيرا بحقها وانما خصها بالذكر دون الاب لانها تتكلف من أمر الولد
ما لا يتكلفه ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أبر فقال أمك ثم
أمك ثم أمك ثم أباك (ومما جاء على هذا الاسلوب) قوله عز وجل واذ قتلتم نفسا
فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله
الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون فقوله والله مخرج ما كنتم تكتمون اعتراض بين
المعطوف والمعطوف عليه وفائدته أن يقرر في نفوس المخاطبين وقلوب السامعين

أن تدارأ بني اسرائيل في قتل تلك النفس لم يكن نافعا لهم في اخفائه وكتمانه لان
الله تعالى مظهر لذلك ولو جاء الكلام غير معترض فيه لكان واذ قتلتم نفسا
فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ولا يخفى على البليغ الفرق بين ذلك وبين
كونه معترضا فيه (ومما ورد من ذلك شعرا) قول امرئ القيس

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة * كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

تقديره كفاني قليل من المال فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله ولم أطلب
وفائدته تحقير المعيشة وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء وانما الذي يحتاج الى
الطلب هو المجد المؤثل (وكذلك) قول جرير

ولقد أراني والجديد الى بلى * في موكب طرف الحديث كرام

تقديره ولقد أراني في موكب طرف الحديث فاعترض بين المفعولين وانما جاء بهذا
الاعتراض تعزيا عما مضى من تلك اللذة وذلك النعيم الذي فاته من عشرة أولئك
الاحباب ولقد أعهدني في كذا وكذا من اللذة وذلك قد مضى وسلف وبلي جديده
وكذلك كل جديد فانه الى بلى والاعتراض اذا كان هكذا كسا الكلام لطفا ان
كان غزلا وكساه أبهة وجلالا ان كان مديحا أو ما يجري مجراه من أساليب
الكلام وان كان هجاء كساه تأكيدا واثباتا كقول كثير

لو أن الباخلين وأنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا

فقوله وأنت منهم من محمود الاعتراض ونادره وفائدته ههنا التصريح بما هو المراد
وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض لو أن الباخلين رأوك فاعترض بين اسم ان
وهو الباخلين وبين خبرها وهو رأوك بالمبتدا والخبر الذي هو وأنت منهم
(ومن محاسن ما جاء في هذا الباب) قول المضرب السعدي

فلو سألت سراة الحي سلمى * على أن قد تلون بي زماني
لخبرها ذوو أحساب قومي * وأعدائي فكل قد بلاني

وهذا اعتراض بين لو وجوابها وهو من فائق الاعتراض ونادره وتقديره فلو سألت
سراة الحي سلمى لخبرها ذوو أحساب قومي وأعدائي وفائدة قوله على أن قد تلون
بي زماني أي أنهم يخبرون عني على تلون الزمان بي بريد تنقل حالاته من خير وشر
وليس من عجمه الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولا أبان عنه (ومن ذلك)

أفاد وفيما لا يفيد وقد ذكرت من ذلك مثالا واحدا أو مثالين فما ورد منه قول
بعضهم فقد والشك بين لي عناء • بوشك فراقهم صرد يصيح
فان في هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره لك وهو الفصل بين قد والفعل
الذي هو بين وذلك قبيح لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الأفعال ألا تراها تعد
مع الفعل كالجزء منه ولذلك أدخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل كقوله
تعالى ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك وقوله تعالى ولقد علموا لمن اشتراه
وقول الشاعر ولقد أجمع رجلي بها • حذر الموت واني لفرور
الا ان فصل بين قد والفعل بالقسم فان ذلك لا بأس به نحو قولك قد والله كان ذلك
وقد فصل في هذا البيت أيضا بين المبتدا الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء
بقوله بين لي وفصل بين الفعل الذي هو بين وبين فاعله الذي هو صرد بخبر المبتدا
الذي هو عناء فجاء معنى البيت كما تراه كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها
بعضها الى مكان بعض (ومن هذا الضرب) قول الآخر
نظرت وشخصي مطلع الشمس ظله • الى الغرب حتى ظله الشمس قد عقل
أراد نظرت مطلع الشمس وشخصي ظله الى الغرب حتى عقل الشمس أي حاذاها
وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدا الذي هو شخصي وبين خبره
الجملة وهو قوله ظله الى الغرب وأغلظ من ذلك أنه فصل بين الفعل وفاعله
بالأجنبي وهذا وأمثاله مما يفسد المعاني ويورثها اختلالا (واعلم) أن الناثر في
استعمال ذلك أكثر ملامة من الناظم وذلك أن الناظم مضطر الى اقامة ميزان
الشعر وربما كان مجال الكلام عليه ضيقا فيلجئه طلب الوزن في مثل هذه
الورطات وأما الناثر فلا يضطر الى اقامة الميزان الشعري بل يكون مجال
الكلام عليه واسعا وإذا اعترض في كلامه اعتراضا يفسده توجه عليه
الانكار وحق عليه الذم (النوع التاسع عشر في الكناية والتعريض) وهذا النوع
مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبا وقد تكلم علماء البيان فيه فوجدتهم
قد خلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ولا حدوا كلا منهما بحد يفصله عن
صاحبه بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر وأدخلوا أحدهما في الآخر
فذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية فممن فعل ذلك
الغانمي وابن سنان الخفاجي والعسكري فأما ابن سنان فانه ذكر في كتابه قول

امرئ القيس

فصرنا الى الحسنى ورق كلامها • ورضت فذلت صعبة أى اذلال

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة وهو من الكناية لا التعريض ووجدت فى كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادى وكان مشارا اليه عندهم بفضيلة ومعرفة لاسيما فى الكتابة فوجدت فى كتابه ذلك بابا مقصورا على ذكر الكناية والتعريض وما قيل فيهما نظما ونثرا وهو محشو بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما وقد أورد ايضا فى بعضه أمثلة غثة باردة وسأذكر ما عندى فى الفرق بينهما وأميز أحدهما عن الآخر ليعرف كل منهما على انفراده فأقول أما الكناية فقد حدت بحد فقيل هى اللفظ الدال على الشئ على غير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه كاللمس والجماع فان الجماع اسم موضوع حقيقى واللمس كناية عنه وبينهما الوصف الجامع اذ الجماع لمس وزيادة فكان دالا عليه بالوضع المجازى وهذا الحد فاسد لانه يجوز أن يكون حدا للتشبيه فان التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى لجامع بين المشبه والمشبه به وصفة من الاوصاف ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد كان ذلك لفظا دالا على غير الوضع الحقيقى بوصف جامع بين زيد والاسد وذلك الوصف هو الشجاعة ومن ههنا وقع الغلط لمن أشرت اليه فى الذى ذكره فى حد الكناية وأما علماء أصول الفقه فانهم قالوا فى حد الكناية انها اللفظ المحتمل يريدون بذلك أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه وهذا فاسد أيضا فانه ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية دليل ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم اذا لم تستح فاصنع ما شئت فان هذا اللفظ يدل على المعنى وعلى خلافه وبيان ذلك أنه يقول فى أحد معنييه انك اذا لم يكن لك وازع يزعك عن الحياء فافعل ما شئت وأما معناه الآخر فانه يقول اذا لم تفعل فعلا يستحى منه فافعل ما شئت وهذا ليس من الكناية فى شئ فبطل اذا هذا الحد ومثال الفقيه فى قوله ان الكناية هى اللفظ المحتمل مثال من أراد أن يحد الانسان فأتى بحد الحيوان فعبر بالاعم عن الاخص فانه يقال كل انسان حيوان وليس كل حيوان انسانا وكذلك يقال ههنا فان كل كناية لفظ محتمل وليس كل لفظ محتمل كناية (والذى عندى فى ذلك) أن الكناية اذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز وجاز حملها على الجانبين معا ألا ترى أن اللمس فى قوله تعالى أو لامستم النساء

يجوز حمله على الحقيقة والمجاز وكل منهما يصح به المعنى ولا يختل ولهذا ذهب
الشافعي رحمه الله الى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد فاوجب الوضوء على
الرجل اذا لمس المرأة وذلك هو الحقيقة في اللمس وذهب غيره الى أن المراد
باللمس هو الجماع وذلك مجاز فيه وهو الكناية وكل موضع ترد فيه الكناية فانه
يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ويجوز حمله على كليهما معا وأما التشبيه فليس
كذلك ولا غيره من أقسام المجاز لانه لا يجوز حمله الا على جانب المجاز خاصة ولو حمل
على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ألا ترى أنا اذا قلنا زيد أسد لا يصح الا على
جانب المجاز خاصة وذلك أنا شبهنا زيدا بالاسد في شجاعته ولو حملناه على جانب
الحقيقة لاستحال المعنى لان زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الاربع والذنب والوبر
والانياب والمخالب واذا كان الامر كذلك فحد الكناية الجامع لها هو أنها كل
لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة
والمجاز والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره
يقال كنيت بكذا عن كذا فهي تدل على ما تكلمت به وعلى ما أردته من غيره
وعلى هذا فلا تخلو اما أن تكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز أو في لفظ
تجاذبه جانبا مجاز ومجاز أو في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة وليس لنا قسم
رابع ولا يصح أن تكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة لان ذلك هو اللفظ
المشترك واذا أطلق من غير قرينة تخصصه كان مبهما غير مفهوم واذا أضيف اليه
القرينة صار مختصا بشيء بعينه والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره وذلك مخالف
للفظ المشترك اذا أضيف اليه القرينة لانه يختص بشيء واحد بعينه لا يتعداه الى
غيره وكذلك لا يصح أن تكون الكناية في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز لان المجاز
لا بد له من حقيقة نقل عنها لانه فرع عليها وذلك اللفظ الدال على المجازين اما
أن يكون للحقيقة شركة في الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة فان كان لها شركة
في الدلالة فيكون اللفظ الواحد قد دل على ثلاثة أشياء أحدها الحقيقة وهذا
مخالف لأصل الوضع لان أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره وههنا
تكون قد تكلمت بشيء وأنت تريد شيئين غيره وان لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة
كان ذلك مخالفا للوضع أيضا لان أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره
فيكون الذي تكلمت به دالا على ما تكلمت به وعلى غيره واذا أخرجت الحقيقة

من أن يكون لها شركة في الدلالة لم يكن الذي تكلمت به دالا على ما تكلمت به
وهذا محال فصح حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز وهذا
الكلام في حقيقة الدليل على تحقيق أمر الكناية لم يكن لأحد فيه قول سابق
(واعلم) أن الكناية مشتقة من الستر يقال كنيت الشئ اذا سترته وأجرى هذا
الحكم في الالفاظ التي يستر فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى
المستور معا ألا ترى الى قوله تعالى أو لامستم النساء فانه ان حمل على الجماع
كان كناية لانه ستر الجماع بلفظ اللمس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد وان
حمل على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ولم يكن كناية وكلاهما
يتم به المعنى وقد تأولت الكناية بغير هذا وهي أنها مأخوذة من الكنية التي
يقال فيها أبو فلان فانا اذا نادينا رجلا اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا يا أبا محمد
كان ذلك مثل قولنا يا عبد الله فان شئنا ناديناه بهذا وان شئنا ناديناه بهذا وكلاهما
واقع عليه وكذلك يجري الحكم في الكناية فانا اذا شئنا حملناها على جانب المجاز
واذا شئنا حملناها على الحقيقة الا أنه لا بد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق
بالكناية ما ليس منها ألا ترى الى قوله تعالى ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة
ولي نعجة واحدة فكنى بذلك عن النساء والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ولولا
ذلك لقيل في مثل هذا الموضع ان أخي له تسع وتسعون كبشا ولي كبش واحد
وقيل هذه كناية عن النساء ومن أجل ذلك لم يلتفت الى تأويل من تأول قوله
تعالى وثيابك فطهر أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية لانه ليس بين الثياب
والقلب وصف جامع ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحا (فان قيل)
فما الدليل على اشتقاق الكناية من كنيت الشئ اذا سترته ومن الكنية (قلت)
في الجواب أما اشتقاقها من كنيت الشئ اذا سترته فان المستور فيها هو المجاز لان
الحقيقة تفهم أولا ويسارع الفهم اليها قبل المجاز لان دلالة اللفظ عليها دلالة
وضعية وأما المجاز فانه يفهم منه بعد فهم الحقيقة وانما يفهم بالنظر والفكرة
ولهذا يحتاج الى دليل لانه عدول عن ظاهر اللفظ فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى
وهو مستور بالحقيقة ألا ترى الى قوله تعالى أو لامستم النساء فان الفهم
يسارع فيه الى الحقيقة التي هي مصافحة الجسد الجسد وأما المجاز الذي هو
الجماع فانه يفهم بالنظر والفكر ويحتاج الذاهب اليه الى دليل لانه عدول عن

ظاهر اللفظ وأما اشتقاقها من الكنية فلأن محمدا في هذه الصورة المذكورة هو
حقيقة هذا الرجل أي الاسم الموضوع بإزائه أولا وأما أبو عبد الله فإنه طار
عليه بعد محمد لأنه لم يكن له إلا بعد أن صار له ولد اسمه عبد الله وكذلك الكناية
فإن الحقيقة إنما هو الاسم الموضوع بإزائها أولا في أصل الوضع وأما المجاز فإنه
طار عليها بعد ذلك لأنه فرع والفرع إنما يكون بعد الأصل وإنما يعمد إلى ذلك
الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الأصل على ما تقدم الكلام فيه وهذا القدر
كاف في الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار إليهما (فإن قيل)
إنك قد ذكرت أقسام المجاز في باب الاستعارة التي قدمت ذكرها في كتابك
هذا وحصرتها في أقسام ثلاثة وهي التوسع في الكلام والاستعارة والتشبيه
وتراك قد ذكرت الكناية في المجاز أيضا فهل هي قسم رابع لتلك الأقسام الثلاثة
أم هي من جملتها فإن كانت قسما رابعا فقد نقض الحصر الذي حصرته وإن كانت
من جملتها فقد أعدت ذكرها ههنا مرة ثانية وهذا المكرر لا حاجة إليه
(فالجواب عن ذلك) أني أقول أما الحصر الذي حصرته في باب الاستعارة فهو
ذاك ولا زيادة عليه وأما الكناية فإنها جزء من الاستعارة ولا تأتي إلا على حكم
الاستعارة خاصة لأن الاستعارة لا تكون إلا حيث يطوى ذكر المستعار له
وكذلك الكناية فإنها لا تكون إلا حيث يطوى ذكر المكني عنه ونسبتها إلى
الاستعارة نسبة خاص إلى عام فيقال كل كناية استعارة وليس كل استعارة
كناية ويفرق بينهما من وجه آخر وهو أن الاستعارة لفظها صريح والصريح
هو ما دل عليه ظاهر لفظه والكناية ضد الصريح لأنها عدول عن ظاهر اللفظ
وهذه ثلاثة فروق أحدها الخصوص والعموم والآخر الصريح والآخر
الحمل على جانب الحقيقة والمجاز وقد تقدم القول في باب الاستعارة أنها جزء
من المجاز وعلى ذلك فتكون نسبة الكناية إلى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص
الخاص وكان ينبغي أن نذكر الكناية عند ذكر الاستعارة في النوع الأول من هذه
الأنواع المذكورة في المقالة الثانية وإنما أفردتها بالذكر ههنا من أجل التعريض
لأن من العادة أن يذكرا جميعا في مكان واحد وقد يأتي في الكلام ما يجوز
أن يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة وذلك يختلف باختلاف النظر إليه
بمفرده والنظر إلى ما بعده كقول نصر بن سيار في أبياته المشهورة التي يحرض

بها في أمية عند خروج أبي مسلم

أرى خلل الرماد وميض جمر • ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالزندين تورى • وإن الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعري • أأيقاظ أمية أم نيام
فإن هبوا فذاك بقاء ملك • وإن رقدوا فإني لا ألام

فالبيت الأول لو ورد بمفرده كان كناية لأنه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر في خلل الرماد وأنه سيضطرم وأما المجاز فإنه أراد أن هالنا ابتداء شر كامن ومثله بوميض جمر من خلل الرماد وإذا نظرنا إلى الأبيات جملة اختص البيت الأول منها بالاستعارة دون الكناية وكثيرا ما يرد مثل ذلك ويشكل لتجاذبه بين الكناية والاستعارة على أنه لا يشكل إلا على غير العارف (وأما التعريض) فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا إنما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة اللمس على الجماع وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح كقولك للمرأة إنك لخلية وإني أعزب فإن هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازا والتعريض أخفى من الكناية لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي وإنما سمي التعريض تعريضا لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي من جانبه وعرض كل شيء جانبه (واعلم) أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز وإنما يفهم من جهة التلويح والإشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب وعلى هذا فإن بيت امرئ القيس الذي ذكره ابن سنان مثالا للكناية هو مثال للتعريض فإن غرض امرئ القيس من ذلك أن يذكر الجماع غير أنه لم يذكره بل ذكر كلاما آخر يفهم

مثلك اذا سئل أعطى أى أنت اذا سئلت أعطيت وسبب ورود هذه اللفظة فى هذا الموضع أنه يجعل من جماعة هذه أوصافهم تثبيتا للامر وتوكيدا ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ولم ترس فيه قدمه وهذا مثل قول القائل اذا كان فى مدح انسان أنت من القوم الكرام أى لك فى هذا الفعل سابقة وأنت حقيق به ولست دخيلا فيه وقد ورد هذا فى القرآن الكريم كقوله تعالى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير والفرق بين قوله ليس كمثله شئ وبين قوله ليس كالله شئ هو ما أشرت اليه وان كان الله سبحانه وتعالى لا مثل له حتى يكون لمثله مثل وانما ذكر ذلك على طريق المجاز قصد المبالغة وقد يأتى هذا الموضع بغير لفظة مثل وهى مقصودة كقولك للعربى العرب لا تخفر الذمم أى أنت لا تخفر الذمم وهذا أبلغ من قولك أنت لا تخفر الذمم لما أشرت اليه وعلى نحو من هذا جاء قول أبى الطيب المتنبى

ألست من القوم الذى من رماحهم • نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

(واذا فرغت) من ذكر الاصول التى قدمت ذكرها فانى أتبعها بضرب الامثلة نثرا ونظما حتى يزداد ما ذكرته وضوحا (فمن ذلك) ما ورد فى القرآن الكريم نحو قوله تعالى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فانه كنى عن الغيبة بأكل الانسان لحم انسان آخر مثله ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ثم جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله فأما جعل الغيبة كأكل الانسان لحم انسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا لان الغيبة انما هى ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم وتمزيق العرض مماثل لأكل الانسان لحم من يغتابه لان أكل اللحم تمزيق على الحقيقة وأما جعله كلحم الاخ فلما فى الغيبة من الكراهة لان العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الاخ فى كراهته ومن المعلوم أن لحم الانسان مستكره عند انسان آخر الا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة وأما جعله اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها وأما جعله ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل الى الغيبة والشهوة لها مع

العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل الى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها
لانك اذا نظرت الى كل واحدة من تلك الدلالات الاربع التى أشرنا اليها وجدتها
مناسبة لما قصدت له (وكذلك) ورد قوله تعالى وأورثكم أرضهم وديارهم
وأموالهم وأرضا لم تطؤها والارض التى لم يطؤها كناية عن مناكح النساء وذلك
من حسن الكناية ونادره (وكذلك) ورد قوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت
أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا فكنى بالماء عن العلم وبالاودية عن
القلوب وبالزبد عن الضلال (وهذه الآية) قد ذكرها أبو حامد الغزالى رحمه الله
فى كتابه الموسوم باحياء علوم الدين وفى كتابه الموسوم بالجواهر والاربعين وأشار
بها الى أن فى القرآن الكريم اشارات وايماآت لا تنكشف الا بعد الموت وهذا
يدل على أن الغزالى رحمه الله لم يعلم أن هذه الآية من باب الكنايات الذى لفظها
يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز (وقد رأيت جماعة) من أئمة الفقه
لا يحققون أمر الكناية واذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز وليس الامر كذلك
وبينهما وصف جامع كهذه الآية وما يجرى مجراها فانه يجوز حمل الماء على المطر
النازل من السماء وعلى العلم وكذلك يجوز حمل الاودية على مهابط الارض
وعلى القلوب وهكذا يجوز حمل الزبد على الغثاء الرابي الذى تقذفه السيول
وعلى الضلال وليس فى أقسام المجاز شئ يجوز حمله على الطرفين معا سوى الكناية
(ويحكى عن الفراء النحوى) أنه ذكر فى تفسيره آية وزعم أنها كناية وهى قوله
تعالى وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال
فقال ان الجبال كناية عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من
الآيات وهذه الآية من باب الاستعارة لا من باب الكناية لان الكناية
لا تكون الا فيما جاز حمله على جانبي المجاز والحقيقة والجبال ههنا لا يصح بها
المعنى الا اذا حملت على جانب المجاز خاصة لان مكرا أولئك لم يكن لتزول منه جبال
الارض فان ذلك محال (وأما ما ورد منها فى الاخبار النبوية) فقول النبى
صلى الله عليه وسلم انه كانت امرأة فيمن كان من قبلنا وكان لها ابن عم يحبها
فراودها على نفسها فامتنعت عليه حتى اذا أصابتها شدة فجاءت اليه تسأله
فراودها فمكنته من نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قالت له لا يحل لك
أن تفض الخاتم الا بحقه فقام عنها وتركها وهذه كناية واقعة فى موقعها

(ومن ذلك) أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم رويدك سوقك بالقوارير يريد
بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير وذلك أنه كان في بعض أسفاره وغلام أسود
اسمه أنجشة يحدو فقال له يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير وهذه كناية لطيفة
(وكذلك) ورد حديث الحديبية وذاك أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم
على الركية جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من أهل تهامة فقال
تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ
المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وهذه كناية عن النساء والصبيان
والعوذ جمع عائذ وهي الناقة التي وضعت وقوي ولدها وهذا يجوز حمله على
طريق الحقيقة كما يجوز حمله على طريق المجاز أي معهم الاموال من الابل وهي
كانت جل أموال العرب أي أنهم قد أحضروا أموالهم ليقاتلوا دونها والمجاز
حمل العوذ المطافيل على النساء والصبيان وعلى الاموال كان من باب الكناية
(ومن ذلك) ما ورد في اقامة الحد على الزاني وهو أن يشهد عليه برؤية الميل
في المكحلة وذلك كناية عن رؤية الفرج في الفرج (ومن لطيف الكناية) أن
امرأة جاءت الى عائشة رضي الله عنها فقالت لها أقيد جملي فقالت عائشة رضي
الله عنها لا أرادت المرأة أنها تصنع لزوجها شيأ يمنعه عن غيرها أي تربطه أن يأتي
غيرها فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة منها
(وكذلك) يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه جاء الى النبي صلى
الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت قال وما أهلكك قال حولت رحلي
البارحة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة
(ويروى) أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضي الله عنه فمكثت المرأة
عنده ثلاث ليال لم يدن منها وانما كان ملتفتا الى صلاته فدخل عليها عمرو بعد
ثلاث فقال كيف ترين بعلك فقالت نعم البعل الا أنه لم يفتش لنا كنفا ولا قرب
لنا مضجعا فقولها لم يفتش لنا كنفا ولا قرب لنا مضجعا من الكناية الغراء
الظاهرة (ومن ألطف ما يلقى في هذا) قول عبد الله بن سلام فانه رأى على
رجل ثوبا معصفرا فقال لو أن ثوبك في تنور أهلك أو تحت قدرهم كان خيرا
فذهب الرجل فأحرقه نظرا الى حقيقة قول عبد الله وظاهر مفهومه وانما أراد
المجاز منه وهو أنك لو صرفت ثمنه الى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيرا

والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين فالرجل فهم منه الظاهر الحقيق فمضى
فأحرق ثوبه ومراد عبد الله غيره (ومن هذا القسم ما ورد فى أمثال العرب)
كقولهم اياكم وخضراء الدمن وذلك كناية عن المرأة الحسناء فى منبت السوء فان
خضراء الدمن هى الشجرة تكون فى المزبلة حسنة وموضعها قبيح وكذلك قولهم
لبس له جلد النمر كناية عن العداوة وقد يقاس على هذا أن يقال لبس له جلد الاسد
ولبس له جلد الذئب ولبس له جلد الارقم لان هذا كله مثل قولهم لبس له جلد
النمر اذ العداوة مختلفة فى الجميع وكذلك قولهم قلب له ظهر المجن كناية عن تغيير
المودة (ومما ورد فى ذلك شعرا) قول أبى نواس

لا أذود الطير عن شجر • قد بلوت المر من ثمره

وهذه الحكاية وهو أنه كان لابى نواس صديقة تغشاه فقيل له انها تختلف الى آخر
من أهل الريب فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوما من الايام فرآها تدخل منزل ذلك
الرجل ثم ان ذلك الرجل جاءه وكان صديقا له فكلمه فصرف وجهه عنه ثم نظم
قصيدته المشهورة التى مطلعها • أيها المنتاب من عفره • وهذا البيت من
جملة أبياتها (وكذلك) ورد قوله أيضا

وناظرة الى من النقاب • تلاحظنى بطرف مستراب
كشفت قناعها فاذا عجوز • مموهة المفارق بالخضاب
فمازالت تجمشنى طويلا • وتأخذ فى أحاديث التصابى
تحاول أن يقوم أبو زياد • ودون قيامه شيب الغراب
أتت بجرابها تكتال فيه • فقامت وهى فارغة الجراب

فقوله أتت بجرابها تكتال فيه من باب الكناية اذ الجراب يجوز حمله على الحقيقة
والمجاز وكذلك الكيل أيضا (ومما جاء من هذا الباب) قول أبى تمام فى قصيدته
التى يستعطف بها مالك بن طوق على قومه ومطلعها • أرض مصردة وأرض تثجم

مالى رأيت ترابكم يبس الثرى • مالى أرى أطوادكم تتهدم

فيبس الثرى كناية عن تنكر ذات البين تقول يبس الثرى بينى وبين فلان اذا تنكر
الود الذى بينك وبينه وكذلك تهدم الاطواد فانه كناية عن خفة الحلوم وطيش
العقول ومن الكناية الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى يعاتب فيها
سيف الدولة بن حمدان التى مطلعها • واحر قلباه ممن قلبه شبم

قوله مالى رأيت الخ فى الديوان مالى رأيت ترابكم مبتلا • مالى رأيت حبالكم تتجذم

وشر ماتنصبه راحتى قنص • شهب البزاة سواء فيه والرخم

يشير بذلك الى أن سيف الدولة يستوى فى المنال منه هو وغيره وهو البازى وغيره الرخمة وان حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائزا وعلى هذا ورد قول الاقيشر الاسدى وكان عنينا لا يأتى النساء وكان كثيرا ما يصف ذلك من نفسه فجلس اليه يوما رجل من قيس فانشده الاقيشر

ولقد أروح بمشرف ذى ميعة • عسر المكرة ماؤه يتفصد

مرح يطير من المراح لعابه • ويكاد جلد إهابه يتقدد

ثم قال له أتبصر الشعر قال نعم قال فما وصفت قال فرسا قال أفكنت تركبه لو رأيته قال اى والله واثنى عطفه فكشف له عن ايره وقال هذا وصفت فقم فاركبه فوثب الرجل عن مكانه وقال قبحك الله من جليس سائر اليوم (وكذلك أيضا يحكى) أنه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك وكان جميل الوجه فاختلف الى عبد الصمد بن عبد الاعلى مؤدب الوليد بن يزيد فراوده عن نفسه فوثب من عنده ودخل على هشام مغضبا وهو يقول

انه والله لولا أنت لم • ينج منى سالما عبد الصمد

فقال هشام ولم ذلك قال

انه قد رام منى خطة • لم يرمها قبله منى أحد

قال ماهى قال

رام جهلا بى وجهلا بأبى • يدخل الافعى على خيس الاسد

قال فضحك هشام وقال لو فعلت به شيأ لم أنكره عليك (ومن ألطف ما سمعته فى هذا الباب) قول أبى نواس فى الهجاء

اذا ما كنت جار أبى حسين • فنم ويداك فى طرف السلاح

فان له نساء سارقات • اذا ما بتن أطراف الرماح

سرقن وقد نزلت عليه ايرى • فلم أظفر به حتى الصباح

فجاء وقد تخدش جانباه • يئن الى من ألم الجراح

فتعبيره عن العضو المشار اليه بأطراف الرماح تعبير فى غاية اللطافة والحسن (وقد أدخل فى باب الكناية) ما ليس منه كقول نصيب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله • ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وهذا

وهذا يروى عن الجاحظ وما أعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة فان الكناية هي ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز وههنا لا يصح ذلك ولا يستقيم لان الثناء للمعاتب لا يكون الا مجازا وهذا من باب التشبيه المضمر الاداة الخارج عن الكناية والمراد به أن في المعاتب من عطاياك ما يعرب عن الثناء لو سكت أصحابها عنه (وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية) فانه لا يحسن استعماله لانه عيب في الكلام فاحش وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه (فمما جاء منه) قول الشريف الرضي يرثي امرأة ان لم تكن نصلا فغمد نصال • وفي هذا من سوء الكناية ما لا خفاء به فان الوهم يسبق في هذا الموضع الى ما يقبح ذكره وهذا المعنى أخذه من قول الفرزدق فمسخه وشوه صورته فان الفرزدق رثى امرأته فقال

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح • عليه ولم أبعث اليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظة • لو ان المنايا أمهلته لياليا

وهذا حسن بديع في معناه وما كنى عن امرأة ماتت بجمع أحسن من هذه الكناية ولا أفخم شأنا فجاء الشريف الرضي فأخذ معناها وفعل به ما ترى وليس كل من تصرف في المعاني أحسن في تصريفها وأبقى هذه الرموز في تأليفها وقد عكس هذه القصة مع أبي الطيب المتنبي فاحسن فيما أساء فيه أبو الطيب طريق الكناية فاخطأ حيث قال

اني على شغفي بما في خمرها • لأعف عما في سراويلاتها

وهذه كناية عن النزاهة والعفة الا ان الفجور أحسن منها وقد أخذ الشريف الرضي هذا المعنى فأبرزه في أجمل صورة حيث قال

أحن الى ما تضمن الخمر والحلي • وأصدف عما في ضمان المآزر

وأمثال هذا كثير وفيما ذكرناه من هذين المثالين مقنع (وأما التعريض) فقد سبق الاعلام به وعرفنا الفرق بينه وبين الكناية (فمما جاء منه) قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون وغرض ابراهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم لانه قال فاسألوهم ان كانوا ينطقون وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام والقول فيه أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة

الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته على أسلوب
تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم والاستهزاء بهم وقد يقال فى هذا
غير ما أشرت اليه وهو أن كبير الاصنام غضب أن تعبد معه هذه الاصنام
الصغار فكسرها وغرض ابراهيم عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع
الله تعالى من هو دونه فان من دونه مخلوق من مخلوقاته فيه امالة القول الى
كبير الاصنام مثالا لما أراده (ومن هذا القسم) أيضا قوله تعالى فقال الملأ
الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا
بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فقوله ما نراك الا
بشرا مثلنا تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من
البشر لجعلها فيهم فقالوا هب أنك واحد من الملأ وموازيهم فى المنزلة فما جعلك
أحق منهم بها ألا ترى الى قولهم وما نرى لكم علينا من فضل وكان مروان
ابن الحكم واليا على المدينة من قبل معاوية فعزله فلما قدم عليه قال له عزلتك
لثلاث لو لم تكن الا واحدة منهن لاوجبت عزلك احداهن أنى أمرتك على عبد
الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفى منه والثانية كراهتك أمر
زياد والثالثة أن ابنتى رملة استعدتك على زوجها عمرو بن عثمان فلم تعدها
فقال له مروان أما عبد الله بن عامر فانى لا انتصر منه فى سلطانى ولكن اذا
تساوت الاقدام علم أين موضعه وأما كراهتى أمر زياد فان سائر بنى أمية كرهوه
وأما استعداء رملة على عمرو بن عثمان والله انه لتأتى على سنة وأكثر وعندى
بنت عثمان فما أكشف لها ثوبا يريد بذلك أن رملة بنت معاوية انما استعدت
لطلب الجماع فقال له معاوية يا ابن الوزغ لست هناك فقال له مروان
دون ذلك وهذا من التعريضات اللطيفة (ومثله فى اللطافة) ما روى عن عمر بن
الخطاب رضى الله عنه وذلك أنه كان يخطب يوم جمعة فدخل عثمان بن عفان
رضى الله عنه فقال عمر أية ساعة هذه فقال عثمان يا أمير المؤمنين انقلبت من
أمر السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت فقال عمر والوضوء أيضا
وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل فقوله أية ساعة
هذه تعريض بالانكار عليه لتأخره عن المجىء الى الصلاة وترك السبق اليها وهو
من التعريض المعرب عن الادب (ووقفت فى كتاب العقد) على حكاية تعريضية

حسنة الموقع وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة فقالت أشكو اليك قلة
الفأر في بيتي فقال ما أحسن ما ورّت عن حاجتها املأوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما
(ومن دقيق التعريض وغامضه) ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي صلى
الله عليه وسلم خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول والله انكم لتجبّنون
وتبخّلون وتجهّلون وانكم لمن ريحان الله وان آخر وطأة وطئها الله بوجّ اعلم
أن وجّا واد بالطائف والمراد به غزاة حنين وحنين واد قبل وجّ لان غزاة حنين آخر
غزاة أوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين وأما غزوتا الطائف
وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة أي قتال وانما كانتا مجرد
خروج الى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله
صلى الله عليه وسلم وان آخر وطأة وطئها الله بوجّ على ما قبله من الحديث هو
التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته لان غزوة حنين كانت في شوال سنة
ثمان ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت في ربيع الاول من سنة احدى عشرة
وبينهما سنتان ونصف فكأنه قال وانكم لمن ريحان الله أي من رزقه وأنا
مفارقكم عن قريب الا أنه صانع عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله وان
آخر وطأة وطئها الله بوجّ وكان ذلك تعريضا بما أراده وقصده من قرب وفاته
صلى الله عليه وسلم (ومما ورد من هذا الباب شعرا) قول الشميذر الحارثي

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما * دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وليس قصده ههنا الشعر بل قصده ما جرى لهم في هذا الموضع من الظهور عليهم
والغلبة الا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضا بما قصده أي لا تفخروا
بعد تلك الوقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان (ومن أحسن التعريضات)
ما كتبه عمرو بن مسعدة الكاتب الى المأمون في أمر بعض أصحابه وهو أما بعد
فقد استشفع بي فلان الى أمير المؤمنين ليتطوّل في الحاقه بنظرائه من الخاصة
فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدّي
طاعته فوقّع المأمون في ظهر كتابه قد عرفت تصريحك له وتعريضك لنفسك وقد
أجبناك اليهما (واعلم) أن هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا في غير
اللغة العربية ووجدتهما كثيرا في اللغة السريانية فان الانجيل الذي في أيدي
النصارى قد أتى منهما بالكثير (ومما وجدته من الكناية في لغة الفرس) أنه كان

ورجل من أساورة كسرى وخواصه فقيل ان الملك يختلف الى امرأتك فهجرها لذلك وترك فراشها فأخبرت كسرى فدعاه وقال له قد بلغني أن لك عينا عذبة وأنك لا تشرب منها فما سبب ذلك قال أيها الملك بلغني أن الاسد يردها فخفته فاستحسن كسرى منه هذا الكلام وأسنى عطاءه (النوع العشرون في المغالطات المعنوية) وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لما فيه من التورية وحقيقته أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض والنقيض أحسن موقعا وألطف مأخذا فالاول الذي يكون له مثل يقع في الالفاظ المشتركة (فمن ذلك) قول أبي الطيب المتنبي

يشلهمو بكل أقب نهد * لفارسه على الخيل الخيار
وكل أصم يعسل جانباه * على الكعبين منه دم ممار
يغادر كل ملتفت اليه * ولبته لثعلبه وجار

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف والوجار اسم بيته والثعلب أيضا هو طرف سنان الرمح فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار في طرف السنان وهذا نقل المعنى من مثل الى مثله (وعليه ورد) قول المتنبي أيضا

برغم شبيب فارق السيف كفه * وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه * رفيقك قيسي وأنت يماني

فان شبيبا الخارجي الذي خرج على كافور الاخشيدي وقصد دمشق وحاصرها وقتل على حصارها كان من قيس ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب وأخبار وذلك مشهورة والسيف يقال له يماني في نسبته الى اليمن ومراد المتنبي من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يمان وصاحبك قيسي ولهذا جانبه السيف وفارقه وهذه مغالطة حسنة وهي كالاولى الا أنها أدق وأغمض (وكذلك ورد قول بعضهم) من أبيات يهجو بها شاعرا قبيحا من جملتها قوله

وخلطتم بعض القرآن ببعضه * فجعلتم الشعراء في الانعام

ومعنى ذلك أن الشعراء اسم سورة من القرآن الكريم والانعام اسم سورة أيضا والشعراء جمع شاعر والانعام ما كان من الابل والبقر (وكذلك) ورد قول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل رضي الله عنه ثم انتقل

الى مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ثم انتقل الى مذهب الشافعي رضي الله عنه

من مبلغ عني الوجيه رسالة • وان كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل • وفارقته اذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا • ولكنما تهوى الذي منه حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر • الى مالك فافطن لما أنا قائل

ومالك هو مالك بن أنس صاحب المذهب رضي الله عنه ومالك هو خازن النار وهذه مغالطة لطيفة (ومن أحسن ما سمعته) في هذا الباب قول أبي العلاء بن سليمان في الابل

طلب العصا بالضرب قد دمّاها • تودّ أن الله قد أفناها
اذا أرادت رشدا أغواها • شحاله من رقه اياها

فالضرب لفظ مشترك يطلق على الضرب بالعصا وعلى الضرب في الارض وهو المسير فيها وكذلك دمّاها فانه لفظ مشترك يطلق على شيئين أحدهما يقال دمّاه اذا أسال دمه ودمّاه اذا جعله كالدمية وهي الصورة وهكذا لفظ الفناء فانه يطلق على عنب الثعلب وعلى اذهاب الشئ اذا لم يبق منه بقية يقال أفناه اذا أذهبه وأفناه اذا أطعمه الفناء وهو عنب الثعلب والرشد والغوى بينان يقال أغواه اذا أضله وأغواه اذا أطعمه الغوى ويقال طلب رشدا اذا طلب ذلك النبت وطلب رشدا اذا طلب الهداية وبعض الناس يظن هذه الابيات من باب الالغاز وليس كذلك لانه اشتمل على ألفاظ مشتركة وله معنى ظاهر يستخرج من دلالة اللفظ عليه والالغاز الذي يستخرج من طريق الحزر والحدس لا من دلالة اللفظ عليه وسأوضح ذلك ايضاحا جليا في النوع الحادي والعشرين وهو الذي يتلو هذا النوع فليؤخذ من هناك (ويروى) في الاخبار الواردة في غزاة بدر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال عن القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم من ماء فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء من ماء لينظر أي بطون العرب يقال لها ماء فسار النبي صلى الله عليه وسلم لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وهذا من المغالطة المثلية لانه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء ويجوز أن يكون المراد أنا خلقنا من ماء وقد جاء في شئ من ذلك

في الكلام المنثور (فمنه) ما كتبته في فصل من كتاب عند دخولي الى بلاد
الروم أصف فيه البرد والثلج فقلت ومن صفات هذا البرد أنه يعقد الدر
في حلقه والدمع في طرفه وربما تعدى الى قلب الخاطر فأجمده أن يجري بوصفه
فالشمس مأسورة والنار مقرورة والارض شهباء غير أنها حولية لم ترض
وسيلان الجبال أنهار غير أنها جامدة لم تخض ومكان المغالطة من هذا الكلام
في قولي والارض شهباء غير أنها حولية لم ترض فان الشهباء من الخيل يقال فيها
حولية أي انها حول ويقال انها مروضة أي ذللت للركوب وهذه الارض
مضى الثلج عليها حول فهي شهباء حولية وقولي لم ترض أي لم تطأ بعد (ومن
ذلك ما ذكرته في وصف كريم فقلت) وقد نزلت منه بعلي الصنع أحسني
الاخلاق واقمته فكأني لم أرع عن أحبتي بلوعة الفراق ولا كرامة للأهل
والوطن حتى أقول اني قد استبدلت به أهلا ووطنا وعهدي بالايام وهي من
الاحسان فاطمة فاستولدتها بجواره حسنا وهذه تورية لطيفة فان فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن رضي الله عنهما ولدها وفاطمة هي
اسم فاعلة من الفطام يقال فطمت فهي فاطمة كما يقال قطمت فهي قاطم والحسن
هو الشيء الحسن (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض
الاخوان فقلت وعهدي بقلبي وهو يتحلى من البيان بأسمائه وتبرز أنوار
المعاني من ظلماته وقد أصبحت يدي منه وهي حمالة الحطب وأصبح خاطري
أبا جهل بعد أن كان أبا لهب وهذا أحسن من الاول وأغلب عبارة فانظر
أيها المتأمل الى ما فيه من التورية اللطيفة ألا ترى أن الخاطر يحمد فيوصف
بأنه وقاد ملتهب ويذم فيوصف بأنه بليد وجاهل وأبو لهب وأبو جهل هما
الرجلان المعروفان وكذلك حمالة الحطب هي المرأة المعروفة واذا ذم القلم
قيل انه حطب وان صاحبه حاطب فلما نقلت أنا هذا الى المعنى الذي قصدته
جئت به على حكم المغالطة ووريت فيه تورية والمسلك الى مثل هذه المعاني
وتصحيح القصد فيها عسر جدا لا جرم أن الاجادة فيها قليلة (ومما يجري هذا
المجرى) ما ذكرته في وصف شخص بعالي الامور وهو من آثر صاحبه أنه
حاز قصب المكرمات ومفتاحها فاذا استنزل منقبة كان مناعها واذا استنزل
موهبة كان مناحها وأحسن أثرا من ذلك أنه أخذ بأعنة الصعاب وألان

بجماجها فاذا انتهدت حومة حرب كان منصورها واذا التقت مهجة خطب كان
سفاحها والمغالطة في هذا الكلام في ذكر المنصور والسفاح فانهما لقب
خليفتين من بني العباس والسفاح أول خلفائهم والمنصور أخوه الذي ولي
الخلافة من بعده وهما أيضا من النصر في حومة الحرب والسفح الذي هو
الاراقة والمهجة دم القلب فكأنه قال هو منصور في حومة الحرب ومريق لدم
القلوب وقد اجتمع في هذا الكلام المنصور والمنصور والسفاح والسفاح
وهذا من المغالطة المثلية لا من النقيضة ولا خفاء بما فيها من الحسن (ومن
ذلك) ما كتبته في كتاب الى بعض الاخوان فقلت وقد علمت أن ذلك الأنس
يعقبه بعقب ايحاشا وأن تلك النعمى لفانية تجعل الاكباد عطاشا فان من
شيمة الدهر أن يستبدل الصفو كدرا ويوسع أيام فرقته طولا وأيام قربه قصرا
وما أقول الا انه شمر بتلك المسرة المسروقة فأقام عليها حد القطع ورأى
العيش فيها خفضا فأزاله بعامل الرفع والمغالطة في هذا الكلام هي في ذكر
الخفض والرفع فان الخفض هو سعة العيش والخفض هو أحد العوامل النحوية
والرفع هو من قولك رفعت الشيء اذا أزلته والرفع هو أحد العوامل النحوية
أيضا وهذا من المغالطات المثلية (ومن ذلك) ما كتبته في فصل أصف فيه الحمى
وكنت اذ ذاك بمدينة سميساط وهو بلد من بلاد الارمن فقلت ومما أكره
في حال المرض بهذه الارض ان الحمى خيمت بها فاستوطنت ولم تقنع بأهلها حتى
سرت الى تربتها فترى وقد أخذتها النافض فاقشعرت ولم يشكل أمرها
الا انها حمى أرمنية مستعجمة اللسان وقد تشتبه الامراض وأهل بلادها
في الابان واذا كانت الحمى كافرة لم تزل للمسلم حربا وشكاتها الانمى شكاة
وانما تسمى طعنا وضربا ولهذا صارت الادوية في علاجها ليست بأدوية
وأصبحت أيام غبها في الناس غير مبتدأة بأيام تروية وليس موسمها في فصل
معلوم بل كل فصول العام من مواسمها ولو كانت نصيبين أو ميافارقين
بكتاب لترجمته ببعدها وتادمها والمغالطة ههنا في قولي وأصبحت أيام غبها
في الناس غير مبتدأة بأيام تروية والمراد بذلك أنها تقبل بغتة من غير تروّ أي
من غير تلبث ويوم النحر هو يوم عيد الاضحى وقبله يوم يسمى يوم التروية فالمغالطة
حصلت بين نحر الحمى للناس ونحر الضحايا الا أن يوم نحرها غير مبتدأ بيوم تروية

ولا خفاء بما في هذه المغالطة من الحسن والطلاوة (وأما القسم الآخر) وهو
النقيض فإنه أقل استعمالا من القسم الذي قبله لأنه لا يتهيأ استعماله كثيرا
فمن جملته ما ورد شعر لبعضهم وهو قوله

وما أشياء تشرى بمال * فإن نفقت فأكسد ما تكون

يقال نفقت السلعة إذا راجت وكان لها سوق ونفقت الدابة إذا ماتت
وموضع المناقضة ههنا في قوله إنها إذا نفقت كسدت فجاء بالشيء ونقيضه وجعل
هذا سببا لهذا وذلك من المغالطة الحسنة (ومن ذلك ما كتبته في جملة كتاب) إلى
ديوان الخلافة يتضمن فتوح بلد من بلاد الكفار فقلت في آخر الكتاب وقد
ازداد الخادم من يبلغ عنه مسارع هذه الوقائع التي اختصرها وعدل صورها
لمن غاب عنها كما مثلت لمن حضرها ويكون مكانه من النباهة كريما ككانها
وهي عرائس المساعي وأحسن الناس بيانا مؤهل لابداع حسانها والسائر بها
فلان وهو راوي أخبار نصرها التي صحتها في تجريح الرجال وعوالي اسنادها
مأخوذة من طرق العوال والليالي والأيام لها رواة فما الطعن براوية الأيام
والليال في هذا الفصل مغالطة نقيضية ومغالطة مثلية أما المغالطة المثلية
فهي في قولي وعوالي اسنادها مأخوذة من طرق العوال وقد تقدم الكلام
على هذا وما يجري مجراه في القسم الأول وأما المغالطة النقيضية فهي قولي
وهو راوي أخبار نصرها التي صحتها في تجريح الرجال وموضع المغالطة منه
أنه يقال في رواة الأخبار فلان عدل صحيح الرواية وفلان مجروح أي سقيم الرواية
غير موثوق به فأتيت بهذا المعنى على وجه النقيض فقلت صحة أخبار هذه الفتوح
في تجريح الرجال أي تجريحهم في الحرب وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به
وقد أوردت من هذه الأمثلة ما فيه كفاية ومقنع (فإن قيل) إن الضرب الأول
من هذا النوع هو التجنيس الذي لفظه واحد ومعناه مختلف كالمثال الذي مثله
في قول أبي الطيب المتنبي ثعلب ووبار فإن الثعلب هو الحيوان المعروف وهو
أيضا طرف السنان وكذلك باقي الأمثلة (قلت في الجواب) إن الفرق بين
هذين النوعين ظاهر وذاك أن التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرتين فهو
يستوي في الصورة ويختلف في المعنى كقول أبي تمام

بكل فتى ضرب يعرض للقنا * محيا محلى حليه الطعن والضرب

فالضرب الرجل الخفيف والضرب هو الضرب بالسيف في القتال فاللفظ لابد
من ذكره مرتين والمعنى فيه مختلف والمغالطة ليست كذلك بل يذكر فيها اللفظ
مرة واحدة ويدل به على مثله وليس بمذكور (النوع الحادي والعشرون
في الاحاجي) وهي الاغاليط من الكلام وتسمى الالغاز جمع لغز وهو الطريق
الذي يلتوي ويشكل على سالكه وقيل بجمع لغز بفتح اللام وهو ميلك
بالشيء عن وجهه وقد يسمى هذا النوع أيضا المعمى وهو يشتبه بالكناية تارة
وبالتعريض أخرى ويشتبه أيضا بالمغالطات المعنوية ووقع في ذلك عامة أرباب
هذا الفن (في ذلك) أن أبا الفرج الاصفهاني ذكر بيتي الاقيس الاسدي
في جملة الالغاز وهما

ولقد أروح بمشرف ذي ميعة * عسر المكرة ماؤه يتفصد
مرح يطير من المراح لعابه * ويكاد جلد إهابه يتقدد

وهذان البيتان من باب الكناية لانهما يحملان على الفرس وعلى العضو
المخصوص واذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز فكيف يعد من جملة الالغاز
وكذلك فعل الحريري في مقاماته فانه ذكر في الاحاجي التي جعلها على حكم
الفتاوى كناية ومغالطة معنوية وظن أنهما من الاحاجي الملغزة كقوله أيحل
للصائم أن يأكل نهارا والنهار من الاسماء المشتركة بين النهار الذي هو ضد الليل
وبين فرخ الحبارى فانه يسمى نهارا واذا كان من الاسماء المشتركة صار من باب
المغالطات المعنوية لا من باب الاحاجي والالغاز شيء منفصل عن ذلك كله ولو كان
من جملته لما قيل لغز واحجية وانما قيل كناية وتعريض أو مغالطة ولكن وجد
من الكلام ما يطلق عليه الكناية ومنه ما يطلق عليه التعريض ومنه ما يطلق عليه
المغالطة ومنه شيء آخر خارج عن ذلك يجعل لغزا واحجية (وكنت قدمت القول)
بأن الكناية هي اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز فهو يحمل
عليهما معا وأن التعريض هو ما يفهم من عرض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة
ولا مجازا وأن المغالطة هي التي تطلق ويراد بها شيآن أحدهما دلالة اللفظ على
معنيين بالاشتراك الوضعي والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه (وأما اللغز
والاحجية) فانهما شيء واحد وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة
اللفظ عليه حقيقة ولا مجازا ولا يفهم من عرضه لان قول القائل في الفرس

وصاحب لا أمل الدهر صحبته * يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
ما إن رأيت له شخصا فمذ وقعت * عيني عليه افترقنا فرقة الأبد

لا يدل على أنه الضرس لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز ولا من طريق المفهوم وإنما هو شيء يحدس ويحزر والخواطر تختلف في الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه (فإن قيل) إن اللغز يعرف من طريق المفهوم وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم (قلت في الجواب) إن الذي يعلم بالمفهوم إنما هو التعريض كقول القائل إني لفقير وإني لمحتاج فإن هذا القول لا يدل على المسألة والطلب لا حقيقة ولا مجازا وإنما فهم منه أن صاحبه متعرض للطلب وهذان البيتان ليسا كذلك فإنهما لا يشتملان على ما يفهم منه شيء إلا بالحدس والحزر لا غير وكذلك كل أغراض الألغاز (وإذا ثبت هذا فاعلم) أن هذا الباب الذي هو اللغز والأحجية والمعمى يتنوع أنواعا فمنه المصحف ومنه المعكوس ومنه ما ينقل إلى لغة من اللغات غير العربية كقول القائل أعمى إذا صحفته بالفارسية آجر وهذا اسمه اسم تركي وهو دنكر بالدال المهملة والنون وآخر بالفارسية دبكر بالدال المهملة والباء المعجمة باثنتين من تحت وإذا صحفت هذه الكلمة صارت دنكر بالنون فانقلبت الباء نونا بالتصحيف وهذا غير مفهوم إلا لبعض الناس دون بعض وإنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة ويحد الخاطر لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج في استخراجها إلى توقد الذهن والسلوك في معاريج خفية من الفكر وقد استعمله العرب في أشعارهم قليلا ثم جاء المحدثون فأكثروا منه وربما أتى منه بما يكون حسنا وعليه مسحة من البلاغة وذلك عندي بين بين فلا أعده من الأحاجي ولا أعده من فصيح الكلام فمما جاء منه قول بعضهم

قد سقيت آبالهم بالنار * والنار قد تشفي من الأوار

ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الإبل ذوو وجاهة وتقدم ولهم وسم معلوم فلما وردت إبلهم الماء عرفت بذلك الوسم فأفرج لها الناس حتى شربت وقد اتفق له أنه أتى في هذا البيت بالشيء وضده وجعل أحدهما سببا للآخر فصار غريبا عجيبا وذلك أنه قال سقيت بالنار وقال إن النار تشفي من الأوار وهو العطش وهذا من محاسن ما يأتي في هذا الباب (ومما يجري على هذا النهج) قول أبي نواس في شجر الكرم

لنا هجمة لا يدرك الذئب سخلها • ولا راعها إلا القصالة والنظر
اذا امضت ألوانها مال صفرها • الى الملق الا أن أوبارها خضر

(ومن هذا القبيل) قول بعضهم

سبع رواحل ما ينخن من الونا • شيم تساق بسبعة زهر
متواصلات لا الدؤوب يملها • باق تعاقبها على الدهر

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام الزمان ولياليه وهى الاسبوع فان الزمان عبارة عنه وذلك من الالغاز الواقعة فى موقعها (وعلى هذا الاسلوب) ورد قول أبى الطيب المتنبى فى السفن من جملة قصيدته التى مدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات وهى • الرأى قبل شجاعة الشجعان • فقال

وحشاه عادية بغير قوائم • عقم البطون حوالك الالوان
تأتى بما سبت الخيول كأنها • تحت الحسان مرابض الغزلان

وهذا حسن فى بابه ومن ذلك قول بعضهم فى حجر المحك

ومدرع من صنعة الليل برده • يفوّق طورا بالنضار ويلبس
اذا سألوه عن غوامض أشكال • أجاب بما أعيا الورى وهو أخرس

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا فأجاب عنه ببيتين على وزنه وقافيته وهما

سزالك جاور من العصر أسود • خفيف لطيف ناعم الجسم أطلس
أقيم بسوق الصرف حكما كأنه • من الزنج قاض بالخلوق مطلس

(وقد رأيت هذا الشاعر) وهو ساكن بجزيرة ابن عمر وليس عنده من أسباب الادب شىء سوى أنه قد أصلح لسانه بمعرفة يسير من علم النحو لا غير وهو مع ذلك يقول الشعر طبعا وكان يجيد فى الكثير منه (ومن الالغاز) ما يرد على حكم المسائل الفقهية كالذى أورده الحريرى فى مقاماته وكنت سئلت عن مسئلة منه وهى

ولى خالة وأنا خالها • ولى عمة وأنا عمها
فأما التى أنا عم لها • فان أبى أمه أمها
أبوها أخى وأخوها أبى • ولى خالة هكذا حكمها
فأين الفقيه الذى عنده • فنون الدراية أو علمها
يبين لنا نسبا خالصا • ويكشف للنفس ما همها

فلستم مسلمين ولا مشركين • شريعة أحمد ثانيها

(وهذه المسئلة كتبت الى) فتأملتها تأمل غير مطيع في الفكر ولم ألبث أن انكشف لي ما تحتها من اللغز وهو أن الخالة التي الرجل خالها تصور على هذه الصورة وذلك أن رجلا تزوج امرأتين اسم احداهما عائشة واسم الاخرى فاطمة فأولد عائشة بنتا وأولد فاطمة ابنا ثم زوج ابنه من أبي امرأته فاطمة فجاءت ببنت فتلك البنت هي خالة ابنه وهو خالها لانه أخو أمها وأما العمة التي هو عمها فصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخ من أمه فزوج ابنه من أم أخيه فجاءت ببنت فتلك البنت هي عمته لانها أخت أبيه وهو عمها لانه أخو أبيها وأما قوله ولي خالة وهكذا حكمها فهو أن تكون أمها أخته وأخته أمه كما قال أبوها أخي وأخوها أبي وصورتها أن رجلا له ولد ولولده أخت من أمه فتزوجها ابن أبي أمه فجاءت ببنت فأختها أمه وأمها أخته (وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى) قول بعضهم في الخلخال

ومضروب بلا جرم • مليح اللون معشوق
له قد الهلال على • مليح القد ممشوق
وأكثر ما يرى أبدا • على الامشاط في السوق

وبلغني أن بعض الناس سمع هذه الابيات فقال قد دخلت السوق مرارا فما رأيت على الامشاط شيأ وظن أنها الامشاط التي يرجل بها الشعر وأن السوق سوق البيع والشراء (واعلم) أنه قد يأتي من هذا النوع ما هو ضروب وألوان فمنه الحسن الذي أوردت شيأ منه كما تراه ومنه المتوسط الذي هو دونه في الدرجة فلا يوصف بحسن ولا قبح كقول بعضهم

راحت وكلهم وفي أكوارها • ألفان من مز الاثيل الواعد
ما ان رأيت ولا راكب هكذا • حملت حدائق كالظلام الراكد

وهذا يصف قوما وفدوا على ملك من الملوك فأعطاهم نخلا وكتب لهم بها كتابا والاثيل الموضع الذي كتب لهم اليه والمز العظام الرؤس من النخل والواعد الاقناء من الحمل فلما حملوا الكتب في أكوارهم فكأنهم حملوا النخل وهذا من متوسط الالغاز وقد جاء من ذلك ما هو بشع بارد فلا يستخرج الا بعمل الجبر والمقابلة أو بخطوط الرمل من القبض الداخل أو القبض الخارج والبياض

والجرة وغيرها ولئن كان مع ادقه فانه يدل على فرط الذكاء فانى لا أعده من اللغة
العربية فضلا عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة ولا فرق بينه وبين لغة
الفرس والروم وغيرهما من اللغات فى عدم الفهم (وأما ما ورد من الالغاز
نثرا) فقد ألغز الحريرى فى مقاماته ألغازا ضمنها ذكر الابرة والمرود وذكر الدينار
وهى أشهر كما يقال من قفانبك فلا حاجة الى ايرادها فى كتابى هذا وقد ورد
من الالغاز شئ فى كلام العرب المنثور غير انه قليل بالنسبة الى ما ورد فى أشعارها
وقد تأملت القرآن الكريم فلم أجد فيه شيأ منها ولا ينبغى أن يتضمن منها شيأ
لانه لا يستنبط بالحدس والحزر كما تستنبط الالغاز (وأما ما ورد للعرب) فيروى
عن امرئ القيس وزوجته عدة من الالغاز وذاك أنه سألها قبل أن يتزوجها
فقال ما اثنان وأربعة وثمانية فقالت أما الاثنان فثديا المرأة وأما الاربعة
فأخلاف الناقة وأما الثمانية فأطباء الكلبة ثم انه تزوجها وأرسل اليها هدية
على يد عبد له وهى حلة من عصب اليمن ونحى من عسل ونحى من سمن فنزل العبد
ببعض المياه ولبس الحلة فعلق طرفها بسمرة فانشق وفتح النحيين وأطعم أهل الماء
ثم قدم على المرأة وأهلها خلوف فسأل عن أبيها وأمها وأخيها ودفع اليها الهدية
فقالت له أعلم مولاك أن أبى ذهب يقرب بعيدا ويبعد قريبا وان أمى ذهبت
تشق النفس نفسين وأن أخى يرقب الشمس وأن سماءكم انشقت وأن
وعاءيكم نضبا فعاد العبد الى امرئ القيس وأخبره بما قالته له فقال
أما أبوها فانه ذهب يحالف قوما على قومه وأما أمها فانها ذهبت تقبل امرأة
وأما أخوها فانه فى سرح يرعاه الى أن تغرب الشمس وأما قولها ان سماءكم
انشقت فان الحلة انشقت وأما قولها ان وعاءيكم نضبا فان النحيين نقصا
ثم قال للعبد أصدقنى فقال له انى نزلت بماء من مياه العرب وفعلت كذا وكذا
فهذا وأمثاله قد ورد عنهم الا أنه يسير (وكذلك يروى عن شن بن أفصى) وكان
ألزم نفسه أن لا يتزوج الا امرأة تلائمه فصاحبه رجل فى بعض أسفاره فلما أخذ
منهما السير قال له شن أتحملنى أم أحملك فقال له الرجل يا جاهل هل يحمل
الراكب راكبا فأمسك عنه وسارا حتى أتيا على زرع فقال شن أترى هذا الزرع
قد أكل فقال له يا جاهل أما تراه فى سنبله فأمسك عنه ثم سارا فاستقبلتهما
جنازة فقال شن أترى صاحبها حيا فقال له الرجل ما رأيت أجهل منك أتراهم

حملوا الى القبر حيا ثم انهما وصلا الى قرية الرجل فصار به الى بيته وكانت له بنت
فأخذ يسايرها بحديث رفيقه فقالت ما نطق الا بالصواب ولا استفهم الا عما
يستفهم عن مثله أما قوله أتحملنى أم أحملك فانه أراد أتحدثنى أم أحدثك حتى
نقطع الطريق بالحديث وأما قوله أترى هذا الزرع قد أكل فانه أراد هل استلف
ربه ثمنه أم لا وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فانه أراد هل خلف له عقبا يحيا
بذكره أم لا فلما سمع كلام ابنته خرج الى الشاب وحدثه بتأويلها فخطبها فزوجه
اياها (وأدق من هذا كله وألطف) ما يحكى عن رجل من المناقذة أصحاب شيزر
وهو أقاربهم الذى استنقذه من أيدى الروم بالمكر والخديعة ولذلك قصة ظريفة
وليس هذا موضع ذكرها وكان قبل ملكه اياها فى خدمة محمود بن صالح صاحب
حلب وكان اذ ذاك يلقب بسديد الملك فنبا به مكانه وحدثت له حادثة أوجبت له
أن هرب ومضى الى مدينة طرابلس فى زمن بنى عمار أصحاب البلد فأرسل اليه
ابن صالح واستعطفه ليعود اليه فخافه ولم يعد فأحضر ابن صالح رجلا من أهل
حلب صديقا لابن منقذ بينه وبينه مودة أكيدة وأجلسه بين يديه وأمره
أن يكتب اليه كتابا عن نفسه يوثقه من جهة ابن صالح ليعود فما وسعه الا أن
يكتب وهو يعلم أن باطن الامر فى ذلك خلاف ظاهره وأنه متى عاد ابن منقذ الى
حلب هلك فأفكر وهو يكتب فى اشارة خفية لا تفهم ليضمنها فيه يحذره بها
ابن منقذ فأداه فكره أن كتب فى آخر الكتاب عند ختمه ان شاء الله تعالى
وشدد النون وكسرها ثم سلم الكتاب الى ابن صالح فوقف عليه وأرسله الى ابن منقذ
فلما صار فى يده وعلم ما فيه قال هذا كتاب صديقى وما يغشنى ولولا أن يعلم صفاء قلب
ابن صالح لى لما كتب الى ولا غرنى ثم عزم على العود وكان عنده ولده
فأخذ الكتاب وكرر نظره فيه ثم قال له يا أبت مكانك فان صديقك قد حذرك وقال
لا تعد فقال وكيف قال انه قد كتب ان شاء الله تعالى فى آخر الكتاب وشدد النون
وكسرها وضبطها ضبطا صحيحا لا يصدر مثله عن سهو ومعنى ذلك أنه يقول ان
الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وان شككت فى ذلك فأرسل الى حلب وهذا من
أعجب ما بلغنى من حدة الذهن وفطانة الخاطر ولولا أنه صاحب الحادثة المخوفة
لما تفطن الى مثل ذلك أبدا لانه ضرب من علم الغيب وانما الخوف دله على استنباط
ما استنبطه (ووجد لبعض الادباء لغز فى حمام) فمنه ما أجاد فيه كقوله وقد أظلتنا

سماء ذات نجوم لا استراق لها ولا رجوم وهي مركبة في فلك محدث استدارته
وسكنت ادارته

أعجب بها من أنجم * عند الصباح ظاهرة
لكنها ابدا * نجوم الظلام غائرة

وهي على القياس جنة نعيم مبنية على تلك جحيم لا خلود فيها ولا مقام
ولا تزاور بين أهلها ولا سلام أنهارها متدفقة ومياهها مترقرقة والاكواب
بها موضوعة والنمارق عنها منزوعة

يطيع بها المولى أوامر عبده * ويصبح طوعا في يديه مقاتله
ويرفع عنه التاج عند دخوله * ويسلب من قبل الجلوس غلائله

النعيم بها معدوم والخادم فيها مخدوم يشكر بها التستر من البرد ويكره
حرها اذا جاوز الحد هذا اللغز من فصيح الالغاز ولا يقال ان صاحبه في العمى
ضائع المكاز واذا انطرز غيره بلمعة من الوشي فهذا كله طراز (ومما سمعته) من
الالغاز الحسان التي تجري في المحاورات ما يحكى عن عمر بن هبيرة وشريك النميري
وذاك أن عمر بن هبيرة كان سائرا على برذون له والى جانبه شريك النميري على بغلة
فتقدمه شريك في المسير فصاح به عمر اغضض من لجامها فقال أصلح الله الامير
انها مكتوبة فتبسم عمر ثم قال له ويحك لم أرد هذا فقال له شريك ولا أنا أردته
وكان عمر أراد قول جرير

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فأجابه شريك بقول الآخر

لا تأمنن فزاريا نزلت به * على قلوصك واكتبها باسيار

وهذا من الالغاز اللطيفة وتضمن كل من هذين الرجلين اللغز ألطف وأحسن
(ومما يجري هذا المجرى) أن رجلا من تميم قال لشريك النميري ما في الجوارح
أحب الي من البازي فقال له شريك اذا كان يصيد القطا وكان التميمي أراد
قول جرير

أنا البازي المطل على نمير * أتيح من السماء لها انصبابا

وأراد شريك قول الطرماح

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا * ولو سلكت طرق المكارم ضلت

واعلم أن خواطر الناس تتفاضل كتفاضل الاشخاص ومن ههنا قيل سبحان خالق
أبي موسى وعمرو بن العاص (النوع الثاني والعشرون في المبادي والافتتاحات)

هذا النوع هو أحد الاركان الخمسة البلاغية المشار اليها في الفصل التاسع
من مقدمة الكتاب وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر
أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام ان كان فتحا ففتحا وان كان
هناء فهناء أو كان عزاء فعزاء وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني
وفائدته أن يعرف من مبدإ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع والقاعدة التي بني
عليها أساسه أنه يجب على الشاعر اذا نظم قصيدا أن ينظر فان كانت مديحا صرفا
لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أولا يفتتحها بغزل
بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها كقول القائل

ان حارت الالباب كيف تقول • في ذا المقام فعذرها مقبول
سامح بفضلك مادحيك فما لهم • أبدا الى ما تستحق سبيل
ان كان لا يرضيك الا محسن • فالمحسنون اذا اليك قليل

فان هذا الشاعر ارتجل المديح من أول القصيد فأتى به كما ترى حسنا لائقا وأما
اذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل أو هزيمة جيش أو غير ذلك فانه
لا ينبغي أن يبتدئ فيها بغزل وان فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره
عن الغاية أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه (فان قيل) انك قلت يجب
على الشاعر كذا وكذا فلم ذلك (قلت في الجواب) ان الغزل رقة محضة والالفاظ
التي تنظم في الحوادث المشار اليها من فحل الكلام ومتين القول وهي ضد الغزل
وأيضا فان الاسماع تكون متطلعة الى ما يقال في تلك الحوادث والابتداء
بالحوادث في ذكرها لا الابتداء بالغزل اذ الأهم واجب التقديم ومن أدب هذا
النوع أن لا يذكر الشاعر في افتتاح قصيدة بالمديح ما يتطير منه وهذا يرجع الى
أدب النفس لا الى أدب الدرس فينبغي أن يحترز منه في مواضعه كوصف الديار
بالدثور والمنازل بالعفاء وغير ذلك من تشتت الآلاف وذم الزمان لا سيما
اذا كان في التهاني فانه يكون أشد قبحا وانما يستعمل ذلك في الخطوب النازلة
والنوائب الحادثة ومتى كان الكلام في المديح مفتتحا بشيء من ذلك تطير منه
سامعه وانما خصت الابتداآت بالاختيار لانها أول ما يطرق السمع من الكلام
فاذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه
ويكفيك من هذا الباب الابتداآت الواردة في القرآن كالتحميدات المفتتح

بأوائل السور وكذلك الابتداآت بالنداء كقوله تعالى فى مفتتح سورة النساء
يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وكقوله تعالى فى أول
سورة الحج يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم فان هذا الابتداء
مما يوقظ السامعين للاصغاء اليه وكذلك الابتداآت بالحروف كقوله تعالى
الم وطس وحم وغير ذلك فان هذا أيضا مما يبعث على الاستماع اليه لانه يقرع
السمع شئ غريب ليس له بمثله عادة فيكون ذلك سببا للتطلع نحوه والاصغاء اليه
(ومن قبيح الابتداآت) قول ذى الرمة * ما بال عينك منها الماء ينسكب * لان
مقابلة الممدوح بهذا الخطاب لاخفاء بقبحه وكراهته (ولما أنشد الاخطل)
عبد الملك بن مروان قصيدته التى أولها * خف القطين فراحوا منك أو بكروا
قال له عند ذلك لا بل منك وتطير من قوله فغيره اذو الرمة وقال
خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا * ومن شاء أن يذكر الديار والاطلال فى شعره
فليتأدب بأدب القطامى على جفاء طبعه وبعده عن فطانة الادب فانه قال
انا محيوك فاسلم أيها الطلل * فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له
بالسلامة وقد قيل ان امرأ القيس كان يجيد الابتداء كقوله
ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى * وكقوله * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
(ومما يكره من الابتداآت) قول أبى تمام * تجرع أسى قد أقفر الجرع الفرد
وانما أتى أبا تمام فى مثل هذا المكروه تتبعه للتجنيس بين تجرع والجرع وهذا
دأب الرجل فانه كثيرا ما يقع فى مثل ذلك وكذلك استقبح قول البحترى
فؤاد ملاه الحزن حتى تصدعا * فان ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها
السمع وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح وما أعلم كيف يخفى هذا على
مثل البحترى وهو من حذاق الشعراء (وحكى) أنه لما فرغ المعتصم من بناء
قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم
فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم فاستأذن اسحق بن ابراهيم الموصلى فى
الانشاد فأذن له فأنشد شعرا حسنا أجاد فيه الا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها
فقال يا دار غيرك البلى ومحاك * يا ليت شعرى ما الذى أبلاك
فتطير المعتصم بذلك وتغامز الناس على اسحق بن ابراهيم كيف ذهب عليه مثل
ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك ثم أقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد

منهم اشناس الى ذلك المجلس وخرج المعتصم الى سر من رأى وخرب القصر فاذا
أراد الشاعر أن يذكر دارا في مديحه فليذكر كما ذكر أشجع السلمي حيث قال

قصر عليه تحية وسلام * خلعت عليه جمالها الايام

وما أجدر هذا البيت بفتح شعر اسحق بن ابراهيم الذي أنشده للمعتصم فانه
لو ذكر هذا أو ما يجري مجراه لكان حسنا لائقا (ومثل) بعضهم عن أحذق
الشعراء فقال من أجاد الابتداء والمطلع ألا ترى الى قصيدة أبي نواس التي أولها

يا دار ما فعلت بك الايام * لم يبق فيك بشاشة تستام

فانها من أشرف شعره وأعلاه منزلة وهي مع ذلك مستكرهة الابتداء لانها
في مدح الخليفة الامين وافتتاح المديح بذكر الديار ودثورها مما يتطير منه لاسيما
في مشافهة الخلفاء والملوك ولهذا يختار في ذكر الاماكن والمنازل ما رق لفظه
وحسن النطق به كالعذيب والغوير ورامة وبارق والعقيق وأشباه ذلك
ويختار أيضا أسماء النساء في الغزل نحو سعاد وأميم ونوز وما يجري هذا المجرى
وقد عيب على الاخطل في تغزله بقذور وهو اسم امرأة فانه مستقبح في الذكر وقد
عيب على غيره التغزل باسم تماضر فانه وان لم يكن مستقبحا في معناه فانه ثقيل
على اللسان كما قال البحتري

ان للبين منة لا تؤدى * ويدا في تماضر بيضاء

فتغزله بهذا الاسم عابه ورقة الغزل ويثقل من خفته وأمثال هذه الاشياء يجب
مراعاتها والتحرز منها (وقد استثنى من ذلك) ما كان اسم موضع تضمن وقعة
من الوقائع فان ذكره لا يكره وان كان في اسمه كراهة كما ذكر أبو تمام في شعره
مواضع مكروهة الاسماء للضرورة لذكر الوقائع التي كانت بها كذكر المشان
وعقرقس وأمثالهما وكذلك ذكر أبو الطيب المتنبي حزبط وشمشاط وما جرى
مجراهما وهذا لا عيب في ذكره لمكان الضرورة التي تدعو اليه وهكذا يتبع
الشاعر والكاتب أيضا في ذكر ما لابد من ذكره وان قبح ومهما أمكنه من
التورية في هذا المقام فليسلكها وما لا يمكنه فانه معذور فيه (واعلم) أنه ليس
من شرط الابتداء أن لا يكون مما يتطير منه فقط فان من الابتداآت
ما يستقبح وان لم يتطير منه كقول أبي تمام * قدك اتئب أربيت في الغلواء
وكقوله * تقي جماحي لست طوع مؤنبي * وكقول أبي الطيب المتنبي

أقل فعالى بله أكثره مجد * وكقوله * كفى أراني ويك لومك ألوما * والعجب أن هذين الشاعرين المفلقين يتفقان بمثل ذلك ولهما من الابتداآت الحسنة ما أذكره (أما أبو تمام) فإنه افتتح قصيدته التي مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عمورية فقال

السيف أصدق إنباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب

وهذه الابيات لها قصة وذلك أنه لما حصر المعتصم مدينة عمورية زعم أهل الصناعة أنها لا تفتح في ذلك الوقت وأفاضوا في هذا حتى شاع وصار أحدوثة بين الناس فلما فتحت بنى أبو تمام مطلع قصيدته على هذا المعنى وجعل السيف أصدق من الكتب التي خبرت بامتناع البلد واعتصامها ولذلك قال فيها

والعلم في شهب الأرماح لامعة * بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما * صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة * ليست بنبع اذا عدت ولا غرب

وهذا من أحسن ما أتى في هذا الباب وكذلك قوله في أول قصيدة يمدحه بها أيضا ويذكر فيها خروج بابك الخرمي عليه وظفره به وهي من أمهات شعره فقال

الحق أبلج والسيوف عوار * فحذار من أسد العرين حذار

وكذلك قوله متغزلا

عسى وطن يدنو بهم ولعلما * وان تعتب الايام فيهم فربما

وهذا من الاغزال الحلوة الرائقة وهو من محاسن أبي تمام المعروفة وكذلك قوله في أول مرثية

أصم بك الناعي وان كان أسمعا * وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

(وأما أبو الطيب) فإنه أكثر من الابتداآت الحسنة في شعره كقوله في قصيدة يمدح بها كافورا وكان قد جرت بينه وبين ابن سيده نزغة فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود فقال

حسم الصلح ما اشتهته الاعادي * وأذاعته ألسن الحساد

وهذا من بديع الابتداء ونادره وكذلك ورد قوله في سيف الدولة وكان ابن الشمشقيق حلف ليلقينه كفاحا فلما التقيا لم يطق ذلك وولى هاربا فافتتح أبو

الطيب قصيدته يهنئ الامير فقال

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم • ماذا يزيدك في اقدامك القسم

وفي اليمين على ما أنت واعده • ما دل أنك في الميعاد متهم

(وكذلك) قوله وقد فارق سيف الدولة وسار الى مصر يجمع بين ذكر فراقه اياه ولقائه كافورا في أول بيت من القصيدة فقال

فراق ومن فارقت غير مذمم • وأم ومن يممت خير ميمم

(ومن البديع النادر في هذا الباب) قوله متغزلا في مطلع قصيدته القافية وهي

أتراها لكثرة العشاق • تحسب الدمع خلقة في المآقي

وله مواضع أخر كثيرة لا حاجة الى ذكرها (ومن محاسن الابتداآت) التي دلت على المعنى من أول بيت في القصيدة ما قرأته في كتاب الروضة لأبي العباس المبرد فيه ذكر غزوة غزاها الرشيد هرون رحمه الله في بلاد الروم وأن نقفور ملك الروم خضع له وبذل الجزية فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نقض نقفور العهد فلم يجسر أحد على اعلام الرشيد لمكان هيبته في صدور الناس وبذل يحيى بن خالد للشعراء الاموال على أن يقولوا أشعارا في اعلامه فكلهم أشفق من لقائه بمثل ذلك الا شاعرا من أهل جدة يكنى أبا محمد وكان شاعرا مفلقا فنظم قصيدا وأنشدها الرشيد أولها

نقض الذي أعطيته نقفور • فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فانه • فتح أتاك به الاله كبير

نقفور انك حين تغدر ان نأى • عنك الامام لجاهل مغرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت • هبلتك أمك ما ظننت غرور

فلما أنهى الابيات قال الرشيد أوقد فعل ثم غزاه في بقية الثلج وفتح مدينة هرقلة (وقرأت في كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني) ما رواه من شعر سديف في تحريض الخليفة السفاح رحمه الله على بني أمية فقال قدم سديف من مكة الى الحيرة والسفاح بها وافق قدومه جلوس السفاح للناس وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسي تكرمة لهم فلما دخل عليه سديف حمد الله وأنشده أبياتا من الشعر فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك وقال لآخر الى جانبه قتلنا والله العبد فلما أنهى الابيات أمر بهم السفاح فأخرجوا

من بين يديه وقتلوا عن آخرهم وكتب الى عماله بالبلاد بأمرهم بقتل من وجدوه منهم ومن الابيات

أصبح الدين ثابت الآساس * بالبهاليل من بني العباس
أنت مهدي هاشم وهداها * كم أناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا * واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله * بدار الهوان والاتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم * وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم * عنك بالسيف شأفة الارجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيد * وقتيلا بجانب المهراس
ولقد ساءني وساء سوائي * قربهم من منابر وكراسي

وهذه الابيات من فاخر الشعر ونادره امتثالا وابتداء وتحريضا وتأليبا ولو وصفتها من الاوصاف بما شاء الله وشاء الاسهاب والاطناب لما بلغت مقدار ما لها من الحسن (ومن لطيف الابتداآت) ما ذكره مهيار وهو

أما وهواها عذرة وتنصلا * لقد نقل الواشي اليها فأمحلا
سعى جهده لكن تجاوز حده * وكثر فارتابت ولو شاء قللا

فانه أبرز الاعتذار في هيئة الغزل وأخرجه في معرض النسيب وكان وشى به الى الممدوح فافتتح قصيدته بهذا المعنى فأحسن (ومما جاء على نحو من ذلك) قول بعض المتأخرين من العراقيين

وراءك أقوال الوشاة الفواجر * ودونك أحوال الغرام المخامر
ولولا ولوع منك بالصد ما سعوا * ولولا الهوى لم أنتدب للمعاذر

فسلك في هذا القول مسلك مهيار الا أنه زاد عليه زيادة حسنة وهي المعاتبة على الاصغاء الى أقوال الوشاة والاستماع منهم وذلك من أغرب ما قيل في هذا المعنى (ومن الحذاقة في هذا الباب) أن تجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب وانما خصصت الكتب السلطانية دون غيرها لان التحاميد لا تصدر في غيرها فانها تكون قد تضمنت أمورا لائقة بالتحميد كفتح مقفل أو هزيمة جيش أو ما جرى هذا المجرى (ووجدت أبا اسحق الصابي) على تقدمه في فن الكتابة قد أخل بهذا الركن الذي هو من أوكد أركان الكتابة فاذا أتى

بتحميدة فى كتاب من هذه الكتب لاتكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب وانما تكون فى واد والكتاب فى واد الاماقل من كتبه (فمما تالف فيه مطلع ومثناه) انه كتب كتابا يتضمن فتح بغداد وهزيمة الاتراك عنها وكان ذلك فتحا عظيما فابتدأ بالتحميدة فقال الحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين الوحيد الفريد العلى المجيد الذى لايوصف الا بسلب الصفات ولاينعت الا برفع النعوت الازلى بلا ابتداء الابدى بلا انتهاء القديم لامنذ أمد محدود الدائم لاالى أجل معدود الفاعل لامن مادة استمدها ولا بآلة استعملها الذى لاتدركه الاعين بلحاظها ولاتحده الالسن بألفاظها ولاتخلقه العصور بمرورها ولاتهرمه الدهور بكرورها ولاتضارعه الاجسام بأقطارها ولاتجانسه الصور بأعراضها ولاتجاريه أقدام النظراء والاشكال ولاتزاحمه مناكب القرناء والامثال بل هو الصمد الذى لاكفؤ له والفذ الذى لاتوأم معه والحى الذى لاتخترمه المنون والقيوم الذى لاتشغله الشؤن والقدير الذى لاتؤده المعضلات والخبير الذى لاتعميه المشكلات وهذه التحميدة لاتناسب الكتاب الذى افتتح بها ولكنها تصلح أن توضع فى صدر مصنف من مصنفات أصول الدين ككتاب الشامل للجوينى أو كتاب الاقتصاد أو مايجرى مجراهما وأما أن توضع فى صدر كتاب فتح فلا وهو وان أساء فى هذا الموضع فقد أحسن فى مواضع أخر وذلك أنه كتب كتابا عن الخليفة الطائع رحمه الله تعالى الى الاطراف عند عوده الى كرسى ملكه وزوال مانزل به وبأبيه المطيع رحمه الله من فادحة الاتراك فقال الحمد لله ناظم الشمل بعد شتاته وواصل الحبل بعد بتاته وجابر الوهن اذا ألم وكاشف الخطب اذا أظلم والقاضى للمسلمين بعاينة نشرهم وبشد أزرهم ويصلح ذات بينهم ويحفظ الالفة عليهم وان شابت ذلك فى الاحيان شوائب من الحدثان فلن تتجاوز بهم الحد الذى يوقظ غافلهم وينبه ذاهلهم ثم انهم عائدون الى فضل ماأولاهم الله وعوّدهم ووثق لهم ووعدهم من اعزاز سربهم واعذاب شربهم واعزاز جانبهم واذلال مجانبهم واظهارديتهم على الدين كله ولوكره المشركون وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب وان كانت المعانى فيها مكررة كالذى أنكرته عليه وعلى غيره من الكتاب وقدمت القول فيه فى باب السجع فليؤخذ من هناك (ومن المبادى التى قد ائتلفت وصارت مزدوجة) أن يقال

في اوائل التقليدات ان أحق الخدم بأن ترعى خدمة كذا وكذا وان أحق من
قلد الاعمال من اجتمع فيه كذا وكذا فان هذا ليس من المبادي المستحسنة ومن
استعمله أولا فقد ضعفت فكرته عن اقتراح ما يحسن استعماله من المبادي
والذي تبعه في ذلك انما مقلد ليس عنده قوة على أن يختار لنفسه واما جاهل
لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والردي. وأهل زماننا هذا من الكتاب
قد قصروا مبادي تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها وان أتوا بتحميدة من
التحاميد كانت مباينة لمعنى التقليد الذي وضعت في صدره وكذلك قد كان
الكتاب يستعملون في التقليدات مبدأ واحدا لا يتجاوزونه الى غيره وهو هذا
ما عهد فلان الى فلان والتحميد خير ما افتتح به التقليدات وكتب الفتوح وما
يجري مجراهما وقد أنكرت ذلك على مستعمله في مفتتح تقليد أنشأته بولاية وال
فقلت كانت التقليدات تفتتح بكلام ليس بذي شان ولا يوضع في ميزان ولا يجتنى
من أفنان وغاية ما يقال هذا ما عهد فلان الى فلان وتلك فاتحة لم تكن جديدة
فتخلق بتطاول الايام ولا حسنة النظم فيضاهي بناؤها من ذوات النظام وهذا
التقليد مفتتح بحمد الله الذي تكفل لحامده بالزيادة وبدأ النعمة ثم قرنها من فضله
بالاعادة وهو الذي بلغنا من مآرب الدنيا منتهى الارادة وسلم الينا مقاده فذلل
لنا بها كل مقادة ووسد الامر منا الى أهله فاستوطأت الرعايا منه على وسادة
ونرجو أن يجمع لنا بين سعادة الاولى والاخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك
السعادة ثم نصلي على نبيه محمد الذي ميزه الله على الانبياء بشرف السيادة وجعل
انشقاق القمر له من آيات النبوة وانشقاق الايوان من آيات الولادة وعلى آله
وأصحابه الذين شادوا الدين من بعده فأحسنوا في الاشادة وبسطت عليهم
الدنيا كما بسطت على الذين من قبلهم فلم يتحولوا عن خلق الزهادة أما بعد كذا
وكذا ثم أنهيت التقليد الى آخره (ومن الحذاقة في هذا الباب) أن يجعل الدعاء في
أول الكتاب من السلطانيات والاخوانيات وغيرهما مضمنا من المعنى ما بني عليه
ذلك الكتاب وهذا شيء انفردت بابتداعه وتراه كثيرا فيما أنشأته من المكاتبات
فاني توخيته فيها وقصدته (فمن ذلك) ما كتبته في الهناء بفتح وهو هذا الكتاب
مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامي الفلاني جدد الله له في كل يوم فتحا وبدل
عرش كل ذي سلطان لديه صرحا وجعل كل موقف من مواقف جوده وبأسه

يوم فخار ويوم أنعمى وكتب له على لسان الاسلام ولسان الايام شاهدا
ومدحا واسكنه بعد العمر الطويل دارا لا يظعن أهلها ولا يفنى ثم أخذت بعد
ذلك فى انشاء الكتاب المتضمن ما يقتضيه معانى ذلك الفتح (ومن ذلك) ما ذكرته
فى الهناء بمولود وهو جدد الله مسرات المجلس السامى الفلانى ووصل صبوح
هنائه بغبوقه وامده بسلالة المبشر بطروقه وأبقاه حتى يستضى بنوره
ويرى من فوقه ويريه أبكار المعانى حتى تعلق أعطافها بعاتقه ويجعله كزرع
أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ثم أخذت فى اتمام الكتاب
بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى فتأمل ما أوردته ههنا من هذين
المثالين وانسج على منوالهما فيما تقصده من المعانى التى تبنى عليها كتبك فان
ذلك من دقائق هذه الصناعة (وأما فواتح الكتب التى أنشأتها) فمنها
ما اخترعته اختراعا ولم أسبق اليه وهى عدة كثيرة وقد أوردت ههنا بعضها (ومن
ذلك) مفتتح كتاب الى ديوان الخلافة وهو نشأت سحابة من سماء الديوان العزيز
النبوى جعل الله الخلود لدولته أوطانا والسعود لها أركانا ونصب أيامها فى
أيام الدهر أعيانا وصورها فى وجهه عينا وفى عينه انسانا ومدها على الناس
عدلا واحسانا وجمع الامم على دين طاعتها وان تفرقوا أديانا وأنارها من معجزات
سلطانه ما لم ينزل به لغيرها سلطانا فارتاح الظامى لالتقائها وبسط يده لاستسقائها
وقال رحمة مرسلة لا تخشى رعودها ولا تخلف وعودها ومن شأنها ان يبقى
الصنائع التى يبقى آثارها لا الخمائل التى تذوى أزهارها والمعبر عن الكتاب ونائله
بالسحاب ووابله فان صدر لحن يد كيد الديوان العزيز فقد وقع التشبيه موقع
الصواب وصدق حينئذ قول القائل ان البحر عنصر السحاب لكن فرق بين
ما يجود بمائه وما يجود بنعمائه وبين ما يسم الارض الماحلة وبين ما يسمى
الاقدار الخاملة وما زالت كتب الديوان العزيز تضرب بها الامثال وتصرف
نحوها الآمال ويرى الحسد فيها حسنا وان عد فى غيرها من سيئ الاعمال
وهذا فصل من أول الكتاب (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى
بعض الاخوان وأرسلته اليه من الموصل الى أرض الشمال من بلاد الروم وهو
طلع كوكب من أفق المجلس السامى لا خلت سيادته من عدو وحاسد ولا شيت
بتوأم يخرج بها عن حكم الواحد ولا عدمت صحبة الجدود المستقلة فى

الزمن الراقد ولا أوحشت الدنيا من ذكره الخالد الذي هو عمر خالد ولا زال
مرفوعا الى المحل الذي يعلم به أن الدهر للناس ناقد والكواكب تختلف مطالعها
في الشمال والجنوب فمنها ما يطلع دائما في أحدهما وهو في الآخر دائم الغروب
وكتاب المجلس كوكب لم ير بهذه الارض مطلعه وان علم من السماء أين موضعه
ولما ظهر الآن للخادم سجد له حامدا وخر له ساجدا وقال قد عبدت الكواكب
من قبلي فلا عجب أن أكون لهذا الكوكب عابدا وها أنا قد أصبحت بالعكوف
على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب لا ابن أبي كبشة الشعرى
وهذا مطلع غريب والسياقة التالية لمطلعه أغرب ومن أغرب ما فيها قولي وها أنا
قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرى وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب
لا ابن أبي كبشة الشعرى والمراد بذلك أن ابن كبشة كان رجلا في الجاهلية
يعبد الشعرى فخالف بذلك دين قومه ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم
قالت قريش هذا قد خالف ديننا وهو ابن أبي كبشة أي انه قد خالفنا كما خالف
أبو كبشة قومه في عبادة الشعرى فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتابي هذا فجاء
كما تراه مبتدعا غريبا (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته
الى بعض الاخوان بالشام وهو طلعت من الغرب شمس فقيل قد آذنت أشراط
الساعة بالاقتراب ولم يعلم أن تلك الانوار انما هي أنوار الكتاب لم تألف
الابصار من قبله أن تطلع الشمس من الغرب وليس ذلك الا كتاب المجلس لا سلبه
الله مزية هذا الوصف الكريم وآتاه من الفضل ما يقال معه وفوق كل ذي علم
عليم وأحيا النفوس من كلماته بروح كلمه كما شفى غليلها من أقلامه بسقيا
الكليم ولما ورد عن الخادم صار ليله نهارا وأصبح الناس في الحديث به
أطوارا والمنصف منهم يقول قد جرت الشمس الى مستقرها والشمس لا تجد
قرارا وهذا الكتاب في الحسن والغرابة كالذي قبله (ومن جملة الكتب المشار
اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض الاخوان وهو تأوب زور من جانب المجلس
السامي أدنى الله داره وجعل كلماته التامة جاره وأشهد أعمال التقوى ليله
وأعمال المكارم نهاره ووهبه من أعوام العمر طواله ومن أعوام العيش
قصاره ولا أقدر السابقين الى المعالي أن يجبروا معه ولا أن يشقوا غباره
وليس ذلك الزور الا سطورا في قرطاس ولا فرق بين الكتاب وبين مرسله في

ملاطفة الايناس واقه لا يسفر عني هذا الزائر وتقر عيني برؤيته حتى لا ازال
بدقرير الناظر ومع هذا فاني عاتب لتأخره وههنا مظنة العتاب ومن تأخر عنه
كتاب صديقه فلا بد أن يخطره خاطر الارتياب والظنين بالمودة لا يرى
الا ظنينا وقد قيل انها وديعة وقل لا ما تعيد على الودائع أمينا وهذا فصل من
أول الكتاب (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى بعض
الاخوان وهو سمحت روضة من جانب المجلس السامي جعل الله المعالي له رداء
ونهايات المساعي له ابتداء وفدا بمن يقصر عن درجته حتى تكون الاكارم له
فداء وهدى الحامد لافعاله واهدى البقاء لايامه حتى يجتمع له الامران هدى
واهداء وآتاه من السيادة ما يجعل أعداءه أصادق ومن السعادة ما يجعل
أصدقاءه أعداء فاستنشق الخادم رياها وتلقى بالتحية محياها واستمتع
بازهارها التي أنبتها سقيا الاقلام لا سقي الغمام وقال هذا ربيع الارواح لا ربيع
الاجسام ولو رام الاحاطة بوصفها لكانت الاقوال المطولة فيها مختصرة
ولكنه اكتفى بأن رفعها على رأسه حتى يمثل أن الجنة في شجرة ومن
أوصافها انها جاءت زائرة ومن شأن الروض أن يرتاد وحلت محاسنها التي
هي في غيرها من حظ البصر وفيها من حظ السمع والبصر والفؤاد ولما سرح
فيها نظره وجد شرقه حمامة تغرد في أكنافها وتردد النجي لبعد ألفها اذا
رددته الحمائم لقرب الافها وهذا قول له عند اخوان الصفاء علامة واذا مثل كتاب
الحبيب روضة فهل يمثل شوق محبه الا حمامة وأي فرق بين هذه وبين أخواتها
من ذوات الاطواق لولا أنها تغني شجوها على صفحات القلوب وتلك تغنيه
على عذبات الاوراق وهذا فصل من الكتاب وهو قريب عجيب وفيه معنيان
مبتدعان وأعجبهما وأغربهما قولي حتى يمثل أن الجنة في شجرة وهذا مستخرج
من الحديث النبوي (ومن جملة الكتب المشار اليها) مفتتح كتاب كتبته الى
بعض الاخوان وهو تفرغت نفحة من تلقاء المجلس السامي رعى الله عهده
وسقاه وصان وده ووفاه ويسر لي لقاءه العاجل لقاه فعطرت الطريق التي سارتها
والريح التي جاورتها وأنت فأنشقتها [illegible] وضممت عليها ودى وجعلتها
ردعا لجيبي ولطيمة لردني ومصافا لمقلتي وعلمت أنها ليست بنفحة طيب ولكنها
كتاب حبيب فان مناشق الارواح غير مناشق الاجسام ولا يستوي عرف

الطيب وعرف الاقلام ثم مددت يدي الى الكتاب بعد أن صافحت يد موصله كما
صافحت عبقة مندله وقلت أهلا بمن أدنى من الحبيب مزارا وأهدى لعيني قرة
وأقلبي قرارا وهذا في الغرابة كأخواته التي تقدمت ولم أستقص ما اخترعته
من هذا الباب في مطالع الكتب (وأما ما أتيت فيه بالحسن) من المعاني ولكنه
غير مخترع (فمن ذلك) مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين ارسلان بن مسعود
صاحب الموصل الى الملك الافضل علي بن يوسف يتضمن تعزية وتهنئة أما
التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وأما التهنئة فبوراثة
الملك من بعده وهو لا يعلم القلم أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنئة لكنه
جمعهما جمعا فأتى بهما على حكم التثنية وفي مثل هذا الخطاب يظل القلم حائرا
وقد وقف موقف السخط والرضا فسخط أولا ثم رضي آخرا وهذا البيت
الناصري يتداول درجات العلى فما تمضي الاوالية ترجع وشموسه وأقماره
تتناقل مطالع السعود فما يغيب منها غائب الا وآخر يطلع والناس ان
فجعوا بماجد ردفه من بعده ماجد وان قيل ان الماضي كان واحدا قيل
بل الآتي هو الواحد وهذا فصل من أول الكتاب ثم كتبت في هذا المعنى
كتابين آخرين وفي الذي أوردته من هذا الفصل مقنع (ومن هذا الاسلوب)
ما كتبته الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه وكانت الكتب قد انقطعت بيني
وبينه زمانا وهو لقاء كتب الاحباب كلقاء الاحباب وقد تأتي بعد يأس
منها فيشتبه بها دمع السرور بدمع الاكتئاب ومن أحسنها كتاب المجلس
السامي الفلاني جعل الله الليالي له صحبا والمعالي له عقبا ورفع مجده فوق
كل ماجد حتى تكون حسناتهم لدى حسناته ذنبا ولا زال اسمه في الافواه
عذبا وذكره في الالسنة رطبا وودّه لكل أنسان انسانا ولكل قلب قلبا ثم
انتهيت الى آخر الكتاب على هذا النسق وانما ذكرت ههنا مبدأه لانه الغرض
المقصود في هذا الموضع (ومن ذلك) ما كتبته الى بعض الاخوان جوابا عن كتابه
وهو البشرى تعطى للكتاب كما تعطى لمرسله وكل منهما يوفى حق قدره وينزل في
منزله وكذلك فعل الخادم بكتاب المجلس السامي الفلاني لا زال مجده أنيسا وذكره
للفرقدين جليسا وسعيه على المكارم حبيسا ومجده جديد الملابس اذا كان
المجد لبيسا وههنا ذكرت في هذا الكتاب كما ذكرته من الذي قبله فاني لم أذكر الا

مبدأه الذي هو الغرض (ومما ينتظم في هذا السلك) ما كتبته في صدر كتاب يتضمن
تعزية وهو لو لم يلبس فتى ثوب الحداد لهجر مداده ونفى عنه سواده وبعد من
قريته وعاد الى طينته وحرم على نفسه أن يمتطي يدا أو يجري الى مدى لكنه
أحد فندب وبكى فسكب وسار هذا الكتاب من دموعه وضمنه ما حملته أحناء
ضلوعه وانما استعار ذلك من صاحبه الذي أعداه وأبدى اليه من حزنه
ما أبداه وهو نائب عنه في تعزية سيدنا أحسن الله صبره ويسر أمره وأرضى عنه
دهره ثم انهيت الكتاب الى آخره (ومن محاسن هذا الباب) أن يفتتح الكتاب
بآية من القرآن الكريم أو بخبر من الاخبار النبوية أو ببيت من الشعر يبنى
الكتاب عليه (فمن ذلك) ما كتبته في ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح وهو

ومن طلب الفتح الجليل فانما • مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم وجعلنا السيف وسيلة الى استفتاح
الملك العقيم ورأينا المجد لا تنصب الاعلى النصب والراحة الكبرى لاتنال
الاعلى جسر من التعب وكأنا هذا وقد استولينا على مملكة فلانة وهي المملكة
التي تمسي الآمال دونها صرعى واذ قيس اليها غيرها من الممالك كانت أصلا
وكان غيرها فرعا وهذا فصل من أول الكتاب (ومن ذلك) ما كتبته في مفتتح
تقليد بالحسبة وهو ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص
دون العموم ولا يختص به الا ذوو الاوامر المطاعة وذوو العلوم وقد جمع
الله لنا هذين الوصفين كليهما وجعلنا من المستخلفين عليهما فلنبدأ أولا
بحمده الذي هو سبب للمزيد ثم لنأخذ في القيام بأمره الذي هو على كل
نفس منه رقيب عتيد ولا ريب أن اصلاح العباد يسري الى الارض حتى
تزكو بطونها وتنام عيونها وتشترك في بركات السماء أماكنها وسكونها
والامر بذلك حل ان لم تزعه الا كف تقل على الرقاب واذا انتشرت أطراف
البلاد فانما تفتقر الى مساعد من مستنيب ومستناب وقد اخترنا للمدينة فلانية
رجلا لم نأل في اختياره جهدا وقدمنا فيه خيرة الله التي اذا صدقت نيتها صادفت
رشدا وهو أنت أيها الشيخ فلان فابسط يدك بقوة الى أخذ هذا الكتاب وكن
لحسنة من حسناتنا التي يرجح بها ميزان الثواب وحقق نظرنا فيك فانه من نور

الله الذي ليس دونه حجاب فتأمل كيف فعلت في هذه الآية التي بنيت التقليد
عليها وهو من محاسن المبادي والافتتاحات (وكذلك فعلت في موضع آخر)
وهو مفتتح كتاب كتبته الى شخص كانت له اشارة الى مخدومه في حاجة عرضت
وهو ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا وهذا
القول تتبع آثاره وتحمل عليه أنظاره وأولى الناس بسيدنا من شاركه في لحمة
أدبه وان لم يشاركه في لحمة نسبه فان المناقب أقارب والمآثر أواصر

وليس يعرف لي فضلي ولا أدبي • الا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

ونتيجة هذه المقدمة بعث خاطره الكريم على عوارف افضاله واستمداد صنيعة
جاهه التي هي أكرم من صنيعة ماله ولا تجارة أربح من هذه التجارة والساعي
فيها شريك في المكسب بريء من الخسارة (وأما الاخبار النبوية) فيسلك بها هذا
المسلك بان يذكر الخبر في صدر الكتاب ثم يبنى عليه ولنذكر منها ولو مثالا واحدا
وهو توقيع كتبته لولد رجل من أصحاب السلطان توفي والده ونقل ما كان
باسمه اليه فقلت قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن
مات وترك مالا فلورثته ومن ترك دينا أو كلا فعلي وعلي وهذا خلق
من الاخلاق النبوية لا مزيد على حسنه وأساليب المكارم بأسرها موضوعة
في ضمنه ونحن نرجو أن نمشي على اثره فننزل منزلة رديفه أو أن نتشبه به
فنبلغ مبلغ مده أو نصيفه وقد أرانا الله ذلك في قوم صحبونا فاصطفناهم بسوابغ
الانعام وأسعدناهم بصحبة الليالي والايام وتكفلنا أيتامهم من بعدهم حتى
ودوا أن يكونوا هم الايتام وهذا فلان بن فلان رحمه الله ممن كان له في خدمة
الدولة قدم صدق وأولية سبق وحفظ كتاب المحافظة عليها فقيل له في تلاوته
اقرأ وارق ثم أنهيت التوقيع الى آخره فتأمل مفتتح هذا التوقيع فانه تضمن
نص الخبر من غير تغيير وقد ضمنته بعض خبر آخر من الاخبار النبوية وهو
قوله اقرأ وارق قال النبي صلى الله عليه وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق
ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرأها (وقد مثلت لك)
ههنا أمثالا يقتدى بها فاحذ حذوها وامض على نهجها والله الموفق للصواب
(النوع الثالث والعشرون في التخلص والاقتضاب) وهذا النوع أيضا كالذي
قبله في أنه أحد الاركان الخمسة التي تقدمت الاشارة اليها في الفصل التاسع

التخلص والاقتضاب

من مقدمة الكتاب وينبغي لك أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف اليه بل همتك فانه مهم عظيم من مهمات البلاغة (أما التخلص) فهو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه اذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الاول سببا اليه فيكون بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ افراغا وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعا الوزن والقافية فلا تواتيه الالفاظ على حسب ارادته وأما الناثر فانه مطلق العنان يمضي حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر (وأما الاقتضاب) فانه ضد التخلص وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالاول وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين وأما المحدثون فانهم تصرفوا في التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة (فمن ذلك) قول أبي تمام

يقول في قومس صحبي وقد أخذت • منا السرى وخطا المهرية القود

أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا • فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وهذان البيتان من بديع ما يأتي في هذا الباب ونادره وكذلك قوله أيضا في وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكر الربيع وما وصفه به من الاوصاف فقال

خلق أطل من الربيع كأنه • خلق الامام وهديه المتيسر

في الارض من عدل الامام وجوده • ومن النبات الغض سرج تزهر

تمسي الرياض وما يروض جوده • أبدا على مر الزمان يذكر

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها وكذلك قوله في قصيدته الفائية التي أولها • أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا • فقال فيها

غيد أجادولي الحسن منتها • فصاغها بيديه روضة أنفا

يضحي العذول على تأنيبه كلفا • بعذر من كان مشغوفا بها كلفا

ودع فؤادك توديع الفراق فما • أراه من سفر التوديع منصرفا

تجاهدا الشوق طورا ثم تجذبه • جهاده للقوافي في أبي دلفا

وهذا أحسن من الذي قبله وأدخل في باب الصنعة وكذلك جاء قوله

زعمت هواك عفا الغداة كما عفت • منها طلول باللوى ورسوم

قوله تبقى في الديوان تترى وقوله تمسي الرياض في الديوان تمسي الرياض وما يروض جوده أبدا على طول البلاد يذكر

لا والذي هو عالم أن النوى * أجل وأن أبا الحسين كريم

ما حلت عن سنن الوداد ولا غدت * نفسي على الف سواه تحوم

وهذا خروج من غزل الى مدح أغزل منه (ومن البديع في هذا الباب) قول أبي نواس من جملة قصيدته المشهورة التي أولها * أجارة بيتنا أبوك غيور
فقال عند الخروج الى ذكر الممدوح

تقول التي من بيتها خف مركبي * عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب * بلى ان أسباب الغنى لكثير

فقلت لها واستعجلتها بوادر * جرت فجرى في جريهن عبير

ذريني أكثر حاسديك برحلة * الى بلد فيه الخصيب أمير

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته الدالية التي أولها * عواذل ذات الخال فيّ حواسد *

وأورد نفسي والمهند في يدي * موارد لا يصدرن من لا يجالد

ولكن اذا لم يحمل القلب كفه * فكيف اذا لم يحمل الكف ساعد

خليليّ اني لا أرى غير شاعر * فكم منهم الدعوى ومني القصائد

فلا تعجبا ان السيوف كثيرة * ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ألا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح في هذه الأبيات كأنه أفرغ في قالب واحد ثم ان أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة في بيت واحد وهو من بدائعه المشهورة (وكذلك) قوله أيضا وهو من أحسن ما أتى به من التخلصات وهو في قصيدته التي أولها * سرب محاسنه حرمت ذواتها * فقال في أثنائها

ومطالب فيها الهلاك أتيتها * ثبت الجنان كأنني لم آتها

ومقانب بمقانب غادرتها * أقوات وحش كن من أقواتها

أقبلتها غرر الجياد كأنما * أيدي بني عمران في جبهاتها

الثابتين فروسة كجلودها * في ظهرها والطعن في لباتها

فكأنها نتجت قياما تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها

تلك النفوس الغالبات على العلا * والمجد يغلبها على شهواتها

سقيت منابتها التي سقت الورى * بيدي أبي أيوب خير نباتها

> قوله أجار في الديوان مير وقوله ما حلت في الديوان ما زلت وقوله كيف اذا لم يحمل الخ في الديوان على حالة لم يحمل الكف ساعد

فانظر الى هذين التخلصين البديعين فالاول خرج به الى مدح قوم الممدوح
والثاني خرج به الى نفس الممدوح وكلاهما قد اغرب فيه كل الاغراب
وعلى هذا ياتي قوله

اذا ملت لم أزل مصالا لنائل • وان قلت لم أزل مقالا لعالم

والا فاتى الفراق وعاقنى • عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

والشعراء متفاوتون في هذا الباب وقد قصر عنه الشاعر الحاذق المشهور
بالاجادة في ايراد الالفاظ واختيار المعاني كالبحتري فان مكانه من الشعر لا يجهل
وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها وكالقناة
لينا متنها خشنا سنانها وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الاطراب وعنقاؤهم
في الاغراب ومع هذا فانه لم يوفق في التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه
اقتضابا ولقد تتبعت شعره فلم أجد له من ذلك شيأ مرضيا الا اليسير كقوله في
قافية الباء من قصيدة

وكأني اذا الحوادث أطلعن شهابا بغرة ابن شهاب

وكقوله في قافية الدال من قصيدة

قصدت نصران العراق ركابنا • فظللن ازجيها لحلة ماجد

آليت لا القين جدا صاعدا • في مطلب حتى تناخ بصاعد

وكقوله في قصيدته التي أولها • حلفت اهالها يوم المدرق • فانه تشوق فيها
الى العراق من الشام ووصف العراق ومنازله ورياضه فأحسن في ذلك
كله ثم خرج الى مدح الفتح بن خاقان بسياقة اخذ بعضها برقاب بعض
فقال

رباع من الفتح بن خاقان لم تزل • غنى لعديم او فكاكا لموثق

ثم اخذ في مدحه بعد ذلك بضروب من المعاني وكذلك ورد قوله في قصيدته التي
أولها • ميلوا الى الدار من ليلى نحييها • فانه وصف البركة فأبدع في أوصافها ثم
خرج منها الى مدح الخليفة المتوكل فقال

كأنها حين لجت في تدفقها • يد الخليفة لما سال واديها

واحسن ما وجدته له وهو مما الطف فيه كل التلطف قوله في قصيدته التي يمدح
بها ابن بسطام ومطلعها • نصيب عينك من سح وتسجام • فقال عند تخلصه الى

المديح هل الشباب ملمّ بي فراجعة • أيامه لي في أعقاب أيام

لو أنه بابل عمرو يجاذبه • إذا طلبته عند ابن بسطام

وهذا من الملائح في هذا الباب وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة إلى كثرة شعره
وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي إن كتاب الله خال من التخلص وهذا
القول فاسد لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة
تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه وفي القرآن الكريم
مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى
أمر ونهي ووعد ووعيد ومن محكم إلى متشابه ومن صفة لنبي مرسل وملك
منزل إلى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان أخذ بعضها برقاب
بعض (فما جاء من التخلص في القرآن الكريم) قوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم
إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل
يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك
يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا
رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت
فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين
رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين
واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنه كان من الضالين ولا تخزني يوم
يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأزلفت الجنة
للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل
ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون
قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين
وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون
من المؤمنين هذا كلام يسكر العقول ويسحر الألباب وفيه كفاية لطالب البلاغة
فإنه متى أنعم فيه نظره وتدبر أسبابه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك غنى عن تصفح
الكتب المؤلفة في هذا الفن ألا ترى ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه السلام كلامه
مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ثم أنحى على
آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليد آبائهم

الاقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم أراد
الخروج من ذلك الى ذكر الاله الذى لا تجب العبادة الا له ولا ينبغى الرجوع
والانابة الا اليه فصور المسئلة فى نفسه دونهم بقوله فانهم عدو لى على معنى انى
فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرت
عبادة من الخير كله فى يده وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا
ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى لهم الى القبول لقوله
وأبعث على الاستماع منه ولو قال فانهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة فتخلص عند
تصويره المسئلة فى نفسه الى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات العظام من
تعظيم شأنه وتعديد نعمه من لدن خلقه وأنشأه الى حين وفاته مع ما يرجى فى الآخرة
من رحمته ليعلم من ذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة واجب على الخلق
الخضوع له والاستكانة لعظمته ثم خرج من ذلك الى ما يلائمه ويناسبه فدعا الله
بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الاوابين لان الطالب من مولاه اذا قدم
قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للاجابة وأنجح لحصول
الطلبة ثم أدرج فى ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ومجازاة الله تعالى من
آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار فجمع بين الترغيب فى طاعته
والترهيب من معصيته ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند
معاينة الجزاء وهو سؤال موبخ لهم مستهزئ بهم وذكر ما يدفعون اليه عند ذلك
من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى العودة ليؤمنوا فانظر أيها
المتأمل الى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على
ضروب من المعانى فيخلص من كل واحد منها الى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنه
افرغ فى قالب واحد فخرج من ذكر الاصنام وتبريه وقومه عن عبادتهم اياها
مع ما هى فيه من التعرى عن صفات الالهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر
ولا تسمع الى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الالهية فعظم شأنه وعدد نعمه
ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح الا له ثم خرج من هذا الى دعائه اياه وخضوعه له
ثم خرج منه الى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه فتدبر هذه التخلصات اللطيفة
المودعة فى أثناء هذا الكلام وفى القرآن مواضع كثيرة من التخلصات كالذى ورد
فى سورة الاعراف فانه ذكر فيها قصص الانبياء والامم الخالية من آدم الى نوح

عليهما السلام وكذلك الى قصة موسى عليه السلام حتى انتهى الى آخرها الذى
هو واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب
لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك
تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك قال عذابى
أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة
والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه
مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل
لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت
عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم
المفلحون هذا تخلص من التخلصات الحسان فان الله تعالى ذكر الانبياء والقرون
الماضية الى عهد موسى عليه السلام فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه
وسلامه ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض الا ترى أنه قال موسى عليه
السلام واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة فأجيب بقوله تعالى قال
عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين من حالهم كذا
وكذا ومن صفتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون الرسول النبى الامى ثم وصفه
صلوات الله عليه بصفاته الى آخر الكلام وبالله العجب كيف يزعم الغانمى أن
القرآن خال من التخلص ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فانها قصة برأسها
وهى متضمنة شرح حاله مع اخوته من أول أمره الى آخره وفيها عدة تخلصات
فى الخروج من معنى الى معنى وكذلك الى آخرها ولو أخذت فى ذكر ما فى القرآن
الكريم من هذا النوع لاطلت ومن أنعم نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة (وقد
جاءنى من التخلصات فى الكلام المنثور أشياء كثيرة) وسأذكر ههنا نبذة يسيرة منها
(فمن ذلك) ما أوردته فى كتاب الى بعض الاخوان أصف فيه الربيع ثم خرجت من
ذلك الى ذكر الاشواق فقلت وكأن هذه الاوصاف فى شأنها بديعة فكذلك شوقى
فى شأنه بديع غير أنه لحره فصل مصيف وهذا فصل ربيع فأنا أملى أحاديثه العجيبة
على النوى وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستقص حديث من قتله
الهوى (ومن هذا الاسلوب) ما كتبته فى كتاب الى بعض الاخوان أيضا وأرسلته

اليه من بلاد الروم وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه ثم خرجت من
ذلك الى ذكر الشوق فقلت ومما أشكوه من برد ما أتى الهرو لا يلبس الا في شهر
ناجر وهو قائم مقام الظل الذي يتبرد به من لفح الهواجر ولفرط شدته لم أجد
ما يخففه فضلا عما يذهبه فان النار المعدة له تطلب من الدفء أيضا ما أطلبه
لكني وجدت نار أشواقي أشد حرا فاصطليت بجمرها التي لا تذكى بزناد ولا تؤول
الى رماد ولا يدفع البرد الوارد على الجسد بأشد من حر الفؤاد غير أني كنت في
ذلك كمن ستر خلة بخلة واستشفى من علة بعلة وأقل ما أعاني ما شفاك ها
طفلة يصطلي نار الاشواق وقد قنع من أخيه بالاوراق فضن عليه بالاوراق
(ومما يقدم في هذا العقد) ما ذكرته في مفتتح كتاب يتضمن عناية ببعض المتظلمين
فاستطردت فيه المعنى الى ذكر المكتوب اليه وهو هدايا المكارم أنفس من هدايا
الاموال وأبقى على تعاقب الايام والليالي وقد حمل هذا الكتاب منها هدية تورث
حداوة كسب مجدا وهي غير ثوابا وخير مردا ولا يسير بها الا مصية طبعت
على الكرم وخلقت من عنصر الديم كسجية مولانا أعلاه الله علو السماء بتقريبه
الارض على السماء وتصده شمس النهار ونجوم الظلماء ولا زالت أياديه مخجلة
صوب الغمام معدية على نوب الايام مغنية بشرف فضلها على شرف الاخوال
والاعمام وتلك الهدية هي تجريد الشفاعة في أمر فلان ومن اعيان المرء عنيه
في حاجة أخيه وان لم يمسه بشيء من أسباب أواخيه فان المؤمنين اخوة وان
تباينت مناسبهم وتفاوتت مراتبهم ومن صفتهم أن يسعى بذمتهم أدناهم
وغيرهم من عناه من الامر ما عناهم ثم مضيت على هذا النهج الى آخر الكتاب
(ومن ذلك) ما كتبته من كتاب الى صديق استحدثت مودته وهو من أهل العراق
وكنت اجتمعت به بالموصل ثم سار عنى فكتبت اليه أستدنيه رطبا فقلت هذه
المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذي ترى كيف زينت الاوراق وتسجيع سجع
ذوات الاطواق وتهتف وهي معنية بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق وأبرح
الشوق ما كان عن فراق غير بعيد وودا تجددت حلته واللذة مقترنة بكل شيء
جديد وأرجو أن لا يبلى قدم الايام لهذه الجدة لباسا وأن يعاذ من نظرة
الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا باسا وقد قيل ان الاوداد طعما كان لها
وعما وان ذا اللب يصادق نفسا قبل أن يصادق جسما واني لا أجد لاوقه

سيدنا حلاوة استلذ دوامها ولا يمل استطعامها وقد أذكرني الآن بحلاوة
الرطب الذي هو من أرضها وغير بعيد لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها بعضا
الا أن هذه الحلاوة تنال بالافواه وتلك تنال بالاسماع وفرق بين ما يغترس
بالارض وما يغترس بالقلب في شرف الثمار فلا يتطرق سيدنا على في هذا التمثيل
وربما كان ذلك تعريضا ينوب مناب التطفيل وهذا من التخلصات البديعة
فانظر أيها المتوصل كيف سيقت الكلام الى استهداء الرطب وجعلت بعضه
آخذا برقاب بعض حتى كأنه أفرغ في قالب واحد وكذلك فليكن التخلص
من معنى الى معنى وهذا القدر من الامثلة كاف للمتعلم (ومما استطرف من هذا
النوع في الشعر) قول ابن الزمكرم الموصلي وهو

وليل كوجه البرقعيدي مظلم * وبرد أغانيه وطول قرونه
سريت ونومي فيه نوم مشرد * كعقل سليمان بن فهد ودينه
على أولق فيه التفات كأنه * أبو جابر في خبطه وجنونه
الى أن بدا ضوء الصباح كأنه * سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وهذه الابيات لها حكاية وذلك أن هذا الممدوح وهو شرف الدولة قرواش ملك
العرب وكان صاحب الموصل فاتفق أنه كان جالسا مع ندمائه في ليلة من ليالي
الشتاء وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر وكان البرقعيدي مغنيا وسليمان
ابن فهد وزيرا وأبو جابر حاجبا فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن يهجو
المذكورين ويمدحه فأنشده هذه الابيات ارتجالا وهي غريبة في بابها لم
يسمع مثلها ولم يرض فيها بصناعة التخلص وحدها حتى رقي في معانيه المقصودة
الى أعلى منزلة فابتدأ البيت الاول بهجو البرقعيدي فجاء في ضمن مراده
ذكر أوصاف ليل الشتاء وهي الظلمة والبرد والطول ثم ان هذه
الاوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له وكذلك البيت الثاني
والثالث ثم خرج الى المديح بألطف وجه وأدق صنعة وهذا يسمى الاستطراد وما
سمعت في هذا الباب بأحسن من هذه الابيات (ومما يجري على هذا الاسلوب)
ما ورد لابن الحجاج البغدادي وهي أبيات لطيفة جدا

ألا يا ماء دجلة لست تدري * بأني حاسد لك طول عمري
ولو أني استطعت سكرت سكرا * عليك فلم تكن يا ماء تجري

فقال الماء ما هذا التجني ● بما استوجبته يا ليت شعري

فقلت لأنك في كل يوم ● تمر على أبي الفضل بن بشر

تراه ولا أراه وذاك شيء ● يضيق عن احتماله فيه صبري

وما أعرف معنى في هذا المقصد ألطف ولا أرق ولا أعذب ولا أحلى من هذا اللفظ ويكفي ابن الحجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الابيات ولا تظن أن هذا شيء انفرد به المحدثون لما عندهم من الرقة واللطافة وفات من تقدمهم لما عندهم من قشف العيش وغلظ الطبع بل قد تقدم أولئك الى هذا الاسلوب وان أتوا منه وأحسن ترمنه المحدثون وأي حسن من محاسن البلاغة والفصاحة لم يسبقوا اليه وكيف لا وهم أهله ومنهم علم وعنهم أخذ (فمن ذلك) ما جاء للفرزدق وهو

وركب كأن الريح تطلب عندها ● لها ترة من جذبها بالعصائب

سروا يخبطون الليل وهي تلفهم ● الى شعب الاكوار من كل جانب

اذا آنسوا نارا يقولون ليتها ● وقد خصرت أيديهم نار غالب

فانظر الى هذا الاستطراد ما أخلاه وأنعمه (واعلم) أنه قد يقصد الشاعر التخلص فيأتي به قبيحا كما فعل أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي أولها

ملث القطر أعطشها ربوعا ● فقال عند الخروج من الغزل الى المديح

غدا بك كل خلو مستهاما ● وأصبح كل مستور خليعا

أحبك أو يقولوا جر نمل ● ثبيرا وابن ابراهيم ريعا

وهذا تخلص كما تراه بارد ليس عليه من مسحة الجمال شيء وهنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص فينبغي لسالك هذه الطريق أن ينظر الى ما يصوغه فان واتاه التخلص حسنا كما ينبغي والا فليدعه ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا كما فعل أبو الطيب وله نظائر وأشباه وقد استعمل ذلك في موضع آخر في قصيدته التي أولها أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا فقال

عل الأمير يرى ذلي فيشفع لي ● الى التي تركتني في الهوى مثلا

والاضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره وما ألقاه في هذه الهوة الا أبو نواس فانه قال

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد ● هواك لعل الفضل يجمع بيننا

على أن أبا نواس أخذ ذلك من قيس بن ذريح لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى به

قيس ولذلك حكاية وهو أنه هام بلبنى فى كل واد وجن بها ورق له الناس ورحمه فسعى له ابن ابى عتيق الى أن طلقها من زوجها وأعادها الى قيس فزوجه اياها فقال عند ذلك

جزى الرحمن أفضل ما يجازى * على الاحسان خيرا من صديق
وقد جربت اخوانى جميعا * فما ألفيت كابن أبى عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدع * ورأى حرت فيه عن طريق
وأطفى لوعة كانت بقلبى * أغصتنى حرارتها بريق

وبين هذا الكلام وبين كلام أبى نواس بون بعيد وقد حكى عن ابن أبى عتيق أنه قال ياحبيبى أمسك عن هذا المديح فما يسمعه أحد الا ظننى قوادا (وأما الاقتضاب) فهو الذى أشرنا اليه فى صدر هذا النوع وهو قطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره بلا علاقة تكون بينه وبينه (فمن ذلك) ما يقرب من التخلص وهو فصل الخطاب والذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه أما بعد لان المتكلم يفتتح كلامه فى كل أمر ذى شأن بذكر الله وتحميده فاذا أراد أن يخرج الى الغرض المسوق اليه فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله أما بعد (ومن الفصل الذى هو أحسن من الوصل لفظة هذا) وهى علاقة وكيدة بين الخروج من كلام الى كلام آخر غيره كقوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب ألا ترى الى ما ذكر قبل هذا ذكر من ذكر من الانبياء عليهم السلام وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها فقال هذا ذكر ثم قال وان للمتقين لحسن مآب ثم لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال هذا وان للطاغين لشر مآب وذلك من فصل الخطاب الذى هو ألطف موقعا من التخلص وقد وردت لفظة هذا فى الشعر الا أن ورودها فيه قليل بالنسبة الى الكلام المنثور (فمن ذلك) قول الشاعر المعروف بالخباز البلدى فى قصيدة أولها * العيش غض والزمان غرير

انى ليعجبنى الزنامى مصرة * ويروق لى بالجاشرية زير
وأكاد من فرح السرور اذا بدا * ضوء الصباح من الستور أطير

وإذا رأيت الجوّ في أفضية * للغيم في جنباته تكسير
مفروشة صدر البزاة كأنه * فيروزج قد زانه بلور
نادت بي اللذات ويحك فابتدر * فرص المنى يا أيها المغرور
مل بي الى جور البقاع فانني * أهوى سقاة الكاس حين تجور
هذا وكم لي بالجنينة سكرة * أنا من بقايا شربها مخمور
باكرتها وغصونها مفروزة * والماء بين مروجها مذعور
في سنة أثار النديم وقينة * والكاس والمزمار والطنبور

هذه الابيات حسنة وشروحها من شدق هذا الرجل الطباز عجيب ولو بيات في شعر أبي نواس (انت ديوانه) والاقتضاب الوارد في الشعر كثير لا يحصى والتخلص بالنسبة اليه قطرة من بحر ولا يكاد يوجد التخلص في شعر الشاعر المجيد الا قليلا بالنسبة الى المقتضب من شعره (في الاقتضاب) قول أبي نواس في قصيدته الفريدة التي أولها * يا كثير النوح في الدمن * وهذه القصيدة هي عين شعره والاحسنة العيون وهي تنزل منه منزلة الالف لا منزلة النون الا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضابا بينا وهو يصف الخمر فقال فاسقني كأسا على عذل * كرهت مسموعه أذني

من كميت اللون صافية * خير ما سلسلت في بدني
ما استقرت في فؤاد فتى * فدرى ما لوعة الحزن

حتى قال تضحك الدنيا الى ملك * قام بالآثار والسنن
سن للناس الندى فندوا * فكأن البخل لم يكن

فأكثر مدائح أبي نواس مقتضبة هكذا والتخلص غير ممكن في كل الاحوال وهو من مستصعبات علم البيان (ومن هذا الباب) الذي نحن بصدد ذكره قول البحتري في قصيدته المشهورة بالجودة التي مدح بها الفتح بن خاقان وذكر لقاءه الاسد وقتله اياه وأولها * أجدك ما ينفك يسري لزينبا * وهي من أمهات شعره ومع ذلك لم يوفق فيها التخلص من الغزل الى المديح فانه بينما هو في تغزله وهو يقول

عهدتك ان منيت منيت موعدا * جهاما وان أبرقت أبرقت خلبا
وكنت أرى أن الصدود الذي مضى * دلال فما ان كان الا تجنبا
فوا أسفا حتى متى أسأل مانعا * وآمن خوانا وأعتب مذنبا

حتى قال في اثر ذلك

أقول لركب معتفين تدرعوا • على عجل قطعا من الليل غيهبا

ردوا نائل الفتح بن خاقان انه • أعم ندى فيكم وأيسر مطلبا

فخرج الى المديح بغير وصلة ولا سبب وكذلك قوله في قصيدته المشهورة بالجودة التي مدح بها الفتح بن خاقان أيضا وذكر نجاته عند انخساف الجسر به وقد أغرب فيها كل الاغراب وأحسن كل الاحسان وأولها متى لاح برق أو بدا طلل قفر فبينا هو في غزلها حتى قال

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدى • اذا بقي الفتح بن خاقان والقطر

فخرج الى المديح مقتضبا له لا متعلقا به وأمثال هذا في شعره كثير • (النوع الرابع والعشرون في التناسب بين المعاني) • وينقسم الى ثلاثة أقسام (القسم الاول في المطابقة) وهذا النوع يسمى البديع أيضا وهو في المعاني ضد التجنيس في الالفاظ لان التجنيس هو أن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده كالسواد والبياض والليل والنهار وخالفهم في ذلك قدامة بن جعفر الكاتب فقال المطابقة ايراد لفظتين متساويين في البناء والصيغة مختلفين في المعنى وهذا الذي ذكره هو التجنيس بعينه غير أن الاسماء لا مشاحة فيها الا اذا كانت مشتقة ولننظر نحن في ذلك وهو أن نكشف عن أصل المطابقة في وضع اللغة وقد وجدنا الطباق في اللغة من طابق البعير في سيره اذا وضع رجله موضع يده وهذا يؤيد ما ذكره قدامة لان اليد غير الرجل لا ضدها والموضع الذي يقعان فيه واحد وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما واحد فقدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا حيث كان الاسم مشتقا مما سمي به وذلك مناسب وواقع في موقعه الا أنه جعل التجنيس اسما آخر وهو المطابقة ولا بأس به الا ان كان مثله بالضدين كالسواد والبياض فانه يكون قد خالف الاصل الذي أصله بالمثال الذي مثله واما غيره من أرباب هذه الصناعة فانهم سموا هذا الضرب من الكلام مطابقا لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه هذا الظاهر لنا من هذا القول الا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن ولنرجع الى ذكر هذا القسم من التأليف وايضاح

التناسب بين المعاني

حقيقته فنقول الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة لأنه لا يخلو
الحال فيه من وجهين إما أن يقابل الشيء بضده أو يقابل بما ليس بضده وليس لنا
وجه ثالث (فأما الأول) وهو مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض وما جرى
مجراهما فإنه ينقسم قسمين أحدهما مقابلة في اللفظ والمعنى والآخر مقابلة في
المعنى دون اللفظ (أما المقابلة في اللفظ والمعنى) فكقوله تعالى فليضحكوا قليلا
وليبكوا كثيرا فقابل بين الضحك والبكاء والقليل والكثير وكذلك قوله تعالى
لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وهذا من أحسن ما يجيء في هذا
الباب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير المال عين ساهرة لعين نائمة (ومن
الحسن المطبوع الذي ليس بمتكلف) قول علي رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه
إن الحق ثقيل مريء والباطل خفيف وبيء وأنت رجل إن صدقت سخطت وإن
كذبت رضيت فقابل الحق بالباطل والثقيل المريء بالخفيف الوبيء والصدق
بالكذب والسخط بالرضا وهذه خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار
وكذلك ورد له رضي الله عنه لما قال الخوارج لا حكم إلا لله تعالى هذه كلمة حق
أريد بها باطل (وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضي الله عنه) وقد أحضره
بين يديه ليقتله فقال له ما اسمك قال سعيد بن جبير فقال بل أنت شقي بن كسير وقد
كان الحجاج من الفصحاء المعدودين وفي كلامه هذا مطابقة حسنة فإنه نقل
الاسمين إلى ضدهما فقال في سعيد شقي وفي جبير كسير وهذا النوع من الكلام
لم يختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات (ومما وجدته في لغة الفرس) أنه
لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره حركنا بسكونه وأول كتاب الفصول لابقراط
في الطب قوله العمر قصير والصناعة طويلة وهذا الكتاب على لغة اليونان
(ومن كلامي في هذا الباب) ما كتبته في صدر مكتوب إلى بعض الإخوان وهو
صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر وصبر مليم وجزع عاذر وخاطر
أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر (وكذلك) كتبت إلى بعض الإخوان أيضا
فقلت صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه وطرف مستوحش لفراقه
فهذا مروع بكآبة إظلامه وهذا ممتنع ببهجة إشراقه غير أن لقاء القلوب لقاء
عنيت بمثله خواطر الأفكار وتتناجى به من وراء الأستار وذلك أخو الطيف
الملم في المنام الذي يؤذن بالتقاء الأرواح على التقاء الأجسام (ومن هذا النوع)

ما ذكرته في كتاب أصف المسير من دمشق الى الموصل على طريق المناظر
فقلت من جملته ثم نزلت أرض الخابور فتربت الارواح وشرقت الجسوم
وحصل الاعدام من المسار والاثراء من الهموم وما ابقى النفس بالعود والقدرة
مفلسة واويت الى ظل الآمال والآمال مشمسة (ومن ذلك) ما ذكرته في جملة
كتاب الى بعض الاخوان وعرضت فيه بذكر جماعة من أهل الادب فقلت وهم
مسؤلون أن لا يغضوني في نادي فضلهم الذي هو منبع الآمال وملتقط اللآل
فوجوه ألفاظه مشرقة بأيدي الاقلام المسودة وقلوب معانيه مستنبطة
بنار الخواطر المتوقدة والواغل اليه يسكر من خمرته التي تنبه العقول من
اغفائها ولا يشربها أحد غير أكفائها وهذه الفصول المذكورة لا خفاء بما
تضمنته من محاسن المقابلة (ومما ورد) من هذا النوع شعرا قول جرير

وأعور من نبهان أما نهاره * فأعمى وأما ليله فبصير

وهكذا ورد قول الفرزدق

قبح الاله بني كليب انهم * لا يغدرون ولا يفون بجار
يستيقظون الى نهيق حمارهم * وتنام أعينهم عن الاوتار

فقابل بين الغدر والوفاء وبين التيقظ والنوم وفي البيت الاول معنى يسأل عنه
وكذلك ورد قول بعضهم

فلا الجود يفني المال والجد مقبل * ولا البخل يبقي المال والجد مدبر

وقد أكثر أبو تمام من هذا في شعره فأحسن في موضع وأساء في موضع فمن احسانه
قوله ما ان ترى الاحساب بيضا وضحا * الا بحيث ترى المنايا سودا
وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا

سوف على أولى الزمان وانما * خلق المناسب ما يكون جديدا

وعلى هذا النهج ورد قوله

اذا كانت النعمى سلوبا من امرئ * غدت من خليجي كفه وهو منبع
وان عثرت بيض الليالي وسودها * بوحدته أيامها وهي مجمع
ويوم يظل العز يحفظ وسطه * بسمر العوالي والنفوس تضيع
مصيف من الهيجاء ومن حاجم الوغى * ولكنه من وابل الدم مربع

(ومن هذا الاسلوب) قوله أيضا

تقرب الشقة القصوى اذا أخذت * سلاحها وهو الارقال والرمل
اذا تظلمت من أرض فصلت بها * كانت هي العز الا أنها ذلل
لمرضيانك ما أرغمت آنفها * والهاديانك وهي الشرد الضلل

وعلى هذا المحور ورد قوله

وناضرة الصباحين اسبكرت * طلاع المرط والدرع الندى
تشكى الاين من نصف سريع * اذا قامت ومن نصف بطى

وقد جاء لابي نواس ذلك فقال

أقلني قد ندمت على الذنوب * وبالاقرار عدت من الجحود
أنا استوجبت عفوك من قريب * كما استوجبت سخطك من بعيد

فقابل بين الاضداد من الجحود والاقرار والعفو والسخط والقرب والبعد وعلى نحو من ذلك ورد قول علي بن جبلة في أبي دلف العجلي وهو

أيم المهير ونكاح الايم * يومان يوم أبؤس وأنعم * وجمع مجد وندى مقسم

وكذلك قوله أيضا

هو الامل المبسوط والاجل الذى * يمر على ايامه الدهر أو يحلو
ولا تحسن الايام تفعل فعله * وان كان في تصريفها النقض والفعل
نعش واحدا أما الثراء فظلم * مباح وأما الجار فهو حمى بسل

وعما جاء من هذا القسم قول البحترى

أحسن الله في ثوابك عن ثغر مضاع أحسنت فيه البلاء
كان مستضعفا فعز ومحرو * ما فأجدى ومظلما فأضاء

ومن أحسن ما ورد له في هذا الباب قوله

أشكو اليك أناملا ما تنطوى * بخلا وأملا فانقضها اليد
أرضيهم قولا ولا يرضونني * فعلا وتلك قضية لا تقصد
فأذمهم مما يذم وربما * ساعفتهم فحمدت ما لا يحمد

وعلى هذا النهج ورد قوله

ونوقى منك الاساءة جاهدا * والعدل أن أتوقع الاحسانا
وكابرتك اني مسيء راضيا * فكذاك فاخش خشونتي غضبانا

(وأما أبو الطيب المتنبي) فانه استعمل هذا النوع قليلا في شعره فمن ذلك قوله

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا * كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا
وكذلك قوله الى رب مال كلما شت شمله * تجمع فى تشتيته للعلا شمل
(ومما) استعذبته من قوله فى هذا الباب

كأن سواد الليل يعشق مقلتى * فبينهما فى كل هجر لنا وصل

(ومما) جاء من هذا الباب

لما اعتنقنا للوداع وأعربت * عبراتنا عنا بدمع ناطق
فرقن بين محاجر ومحاجر * وجمعن بين بنفسج وشقائق

وهذا تحته معنى يسئل عنه غير المقابلة وذهب بعض أهل العلم الى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة لان من العادة ان يشبه العارض بالبنفسج وهذا قول غير سائغ لان العارض انما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره فاذا اخضر وظهرت خضرته فى ابتداء سن الشباب شبه بالبنفسج لانه يكون بين الاخضر والاسود وليس فى الشعر ما يدل على أن المودع كان شابا قد طر عارضه والذى يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فرقت خمارها ولطمت خدها فجمعت بين أثر اللطم وهو شبيه بالبنفسج وبين لون الخد وهو شبيه الشقائق وفرقت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق ولها وجدة على الوداع هذا هو معنى البيت لا ما ذهب اليه هذا الرجل (وأما المقابلة فى المعنى دون اللفظ فى الاضداد فما جاء منه قول المقنع الكندى) من شعراء الحماسة

لهم جل مالى ان تتابع لى غنى * وان قل مالى لم أكلفهم رفدا

فقوله تتابع لى غنى يعنى قوله كثر مالى فهو اذا مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ لان حقيقة الاضداد اللفظية انما هى فى المفردات من الالفاظ نحو قام وقعد وحل وعقد وقل وكثر فان القيام ضد القعود والحل ضد العقد والقليل ضد الكثير فاذا ترك المفرد من الالفاظ وتوصل الى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ كقول هذا الشاعر تتابع لى غنى فى معنى كثر مالى وهذه مقابلة معنوية لا لفظية فاعرف ذلك (وأما مقابلة الشئ بما ليس بضده فهى ضربان) أحدهما أن لا يكون مثلا والآخر أن يكون مثلا (فالضرب الاول) يتفرع الى فرعين (الاول) ما كان بين المقابل والمقابل نوع مناسبة وتقارب كقول قريط بن أنيف

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة * ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فقابل الظلم بالمغفرة وليس ضدها وإنما هو ضد العدل إلا أنه لما كانت المغفرة
قريبة من العدل حسنت المقابلة بينها وبين الظلم وعلى هذا جاء قوله تعالى أشداء
على الكفار رحماء بينهم فإن الرحمة ليست ضد الشدة وإنما ضد الشدة اللين
إلا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة وكذلك
ورد قوله تعالى إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا
أمرنا من قبل فإن المصيبة سيئة لأن كل مصيبة سيئة وليس كل سيئة مصيبة
فالتقابل ههنا من جهة العام والخاص (الفرع الثاني) ما كان بين المقابل
والمقابل به بعد وذلك مما لا يحسن استعماله كقول أم النحيف وهو سعد بن قرط
وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها فقالت من أبيات تذمه فيها

تربص بها الأيام عل صروفها * سترمي بها في جاحم متسعر
فكم من كريم قد مناه إلهه * بمذمومة الأخلاق واسعة الحر

فقولها بمذمومة الأخلاق واسعة الحر من المقابلة البعيدة بل الأولى
أن كانت قالت بضيقة الأخلاق واسعة الحر حتى تصح المقابلة وهذا مما يدل على
أن العربي غير مهتد إلى استعمال ذلك بصنعته وإنما يجيء له منه ما يجيء بطبعه
لا بتكلفه وإذا أخطأ فإنه لا يعلم الخطأ ولا يشعر به والدليل على ذلك أنه لو أبدلت
لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن وحصلت المقابلة وإنما يعذر من يعذر
في ترك المقابلة في مثل هذا المقام إذا كان الوزن لا يواتيه (وأما المحدثون
من الشعراء) فإنهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه لا جرم أنهم أشد
ملاءمة من العرب (فمن ذلك) قول أبي الطيب المتنبي

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها * سرور محب أو مساءة مجرم

فإن المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم وليست متوسطة
أيضا حتى يقرب الحال فيها وإنما هي بعيدة فإنه ليس كل من أجرم إليك كان
مبغضا لك (ومما يتصل بهذا الضرب) ضرب من الكلام يسمى المؤاخاة بين
المعاني والمؤاخاة بين المباني وكان ينبغي أن تعقد له بابا مفردا لكنا آثرنا ذكره ههنا
لأنه يقرب من التقابل من وجه وهو مناسبة (أما المؤاخاة بين المعاني) فهو أن يذكر
المعنى مع أخيه لا مع الأجنبي مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما

يقرب منه ويلتئم به فان ذكره مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة وان كان جائزا (فمن ذلك) قول الكميت

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة * وان تكامل فيها الدل والشنب

فان الدل يذكر مع الغنج وما أشبهه والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا وهو مظنة الغلط لانه يحتاج الى ثاقب فكرة وحذق بحيث توضع المعاني مع أخواتها لا مع الاجنبي منها (وقرأت في كتاب الاغاني لابي الفرج) انه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت أم هل ظعائن البيت فعقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصي قال خطأ انك تباعدت في القول أين الدل من الشنب ألا قلت كما قال ذو الرمة

لمياء في شفتيها حوة لعس * وفي اللثات وفي أنيابها شنب

ورأيت أبا نواس يقع في ذلك كثيرا كقوله في وصف الديك

له اعتدال وانتصاب قد * وجلده يشبه وشي البرد

كأنها الهداب في الفرند * محدودب الظهر كريم الجد

فانه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد وهذا لا يناسب هذا لان الظهر من جملة الخلق والجد من النسب وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه أيضا وكذلك أخطأ أبو نواس في قوله

وقد حلفت يمينا * مبرورة لا تكذب * برب زمزم والحوض والصفا والمحصب

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب وانما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما يجري مجراهما وأما زمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وما يجري مجراهما (وعلى هذا الاسلوب) ورد قوله أيضا

أحسن من منزل بذي قار * منزل خمارة وخمار

وشم ريحانة ونرجسة * أحسن من أينق بأكوار

فالبيت الثاني لا مقارنة بين صدره وعجزه وأين شم الريحان من الاينق بالاكوار وكان ينبغي له أن يقول شم الريحان أحسن من شم الشيح والقيصوم وركوب القينات الرود أحسن من ركوب الاينق بالاكوار وكل هذا لا يتفطن لوضعه في مواضعه في كل الاوقات وقد كان يغلب علي السهو في بعض الاحوال حتى أسلك هذه الطريق في وضع المعاني مع غير أنسابها وأقاربها ثم اني كنت

أتأمل ما صنعته بعد حين فأصلح ما سهوت عنه (وأما المراعاة بين المباني) فإنه يتعلق بمباني الألفاظ (فمن ذلك) قول أبي تمام في وصف الرماح

مثقفات سلبن العرب سمرتها • والروم زرقتها والعاشق القضفا

وهذا البيت من أبيات أبي تمام الأفراد غير أن فيه نظرا وهو قوله العرب والروم ثم قال العاشق ولو صح أن يقول العشاق لكان أحسن إذ كانت الأوصاف تجري على واحد وكذلك قوله سمرتها وزرقتها ثم قال القضفا وكان ينبغي أن يقول قضفها أو دقتها (وعلى هذا) ورد قول مسلم بن الوليد

نقضت بك الأحلاس نقض إقامة • واسترجعت نزاعها الأمصار

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة • يثني عليها السهل والأوعار

والأحسن أن يقال السهل والوعر أو السهول والأوعار ليكون البناء اللفظي واحدا أي أن يكون اللفظتان واردتين على صيغة الجمع أو الإفراد ولا يكون أحدهما مجموعا والآخر مفردا وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر

صفراء مجدها مرازبها • جلت عن النظراء والمثل

فجمع وأفرد في معنى واحد وهو أنه قال النظراء مجموعا ثم قال المثل مفردا وكان الأحسن أن يقول النظير والمثل أو النظراء والأمثال وعلى ذلك ورد قوله أيضا والإنكار يتوجه فيه أكثر من الأول وهو

ألا يا ابن الذين فنوا فماتوا • أما والله ما ماتوا لتبقى

وما لك فاعلم فيهما مقام • إذا استكملت آجالا ورزقا

وموضع الإنكار ههنا أنه قال آجالا ورزقا وكان ينبغي أن يقول أرزاقا وأن يقول أجلا ورزقا وقد زاده إنكارا أنه جمع الأجل فقال آجالا والإنسان ليس له إلا أجل واحد ولو قال أجلا وأرزاقا لما عيب لأن الأجل واحد والأرزاق كثيرة لاختلاف ضروبها وأجناسها وإذا أنصفنا في هذا الموضع وجدنا الناثر مطالبا به دون الناظم لمكان إمكانه من التصرف (وقد كنت) أرى هذا الضرب من الكلام واجبا في الاستعمال وأنه لا يحسن العدول عنه حتى مر بي في القرآن الكريم ما يخالفه كقوله تعالى في سورة النحل أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ولو كان الأحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمائل أو أفرد الشمال كما أفرد

في معنى هذا وبل أحدهما بالآخر ولم يقابل اللفظة بنفسه وكذلك جاء قوله
تعالى ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم
تستهزئون فذكر الاستهزاء الذي هو في معنى الخوض واللعب وقابل به الخوض
واللعب ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة لقال أبالله وآياته ورسوله كنتم
تخوضون وتلعبون (فإن قيل) إنك قد احتججت بالقرآن الكريم فيما ذكرته
ونرى قد ورد في القرآن الكريم ما ينقضه كقوله تعالى والذين كسبوا السيئات
جزاء سيئة بمثلها ولم يقل جزاء سيئة سيئة مثلها (الجواب عن ذلك) أني أقول
أردت أن تنقض علي ما ذكرته فلم تنقضه ولكنك شيدته والذي ذكرته دليل لي
لا لك ألا ترى أنه لا فرق بين قوله تعالى جزاء سيئة بمثلها وبين قوله جزاء سيئة
سيئة مثلها إذ المعنى واحد لا يختلف ولو جاء موضع السيئة لفظة أخرى
في معناها كالأذى والسوء أو ما يجري مجراهما لصح لك ما ذهبت إليه
وقد ذهب بعض المتصدرين في علم البيان أنه إذا ذكرت اللفظة في أول كلام يحتاج
إلى تمام وإن لم يكن جوابا كالذي تقدم فينبغي أن تعاد بعينها في آخره ومتى
عدل عن ذلك كان معيبا ثم مثل ذلك بقول أبي تمام وقول أبي الطيب المتنبي
فقال إن أبا تمام أخطأ في قوله

بسط الرجاء لنا برغم نوائب * كثرت بهن مصارع الآمال

حيث ذكر الرجاء في صدر البيت فكان ينبغي أن يعيد ذكره أيضا في عجزه أو كان
ذكر الآمال في صدر البيت وعجزه وكذلك أخطأ أبو الطيب المتنبي في قوله

إني لأعلم واللبيب خبير * أن الحياة وإن حرصت غرور

فإنه قال إني لأعلم واللبيب خبير وكان ينبغي أن يقول إني لأعلم واللبيب عليم
ليكون ذلك تقابلا صحيحا وهذا الذي ذكره هذا الرجل ليس بشيء بل المعتمد عليه
في هذا الباب أنه إذا كانت اللفظة في معنى أختها جاز استعمالها في المقابلة
بينهما والدليل على ذلك ما قدمناه من آيات القرآن الكريم وكفى به دليلا
وهذه الرموز التي هي أسرار الكلام لا يتفطن لاستعمالها إلا أحد رجلين إما فقيه
في علم البيان قد مارسه وإما مشتوق اللسان في الفصاحة قد خلق عارفا بلطائفها
مستغنيا عن مطالعة صحائفها وهذا لا يكون إلا عربي الفطرة يقول ما يقوله طبعا
على أنه لا يستمر في جميع أقواله ما لم تكن معرفته الفطرية معززة بمعرفته الأدبية

(الفرع الثاني في مقابلة الجملة بالجملة) اعلم أنه اذا كانت الجملة من الكلام مستقبلة قوبلت بمستقبلة وان كانت ماضية قوبلت بماضية وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة والمستقبلة بالماضية اذا كانت احداهما في معنى الاخرى (فمن ذلك) قوله تعالى قل ان ضللت فانما أضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي الي ربي فان هذا تقابل من جهة المعنى ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال وان اهتديت فانما اهتدي لها وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها أعني أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لانها الامارة بالسوء وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه اياها وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند ذلك الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به (ومن هذا الضرب) قوله تعالى ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا فانه لم يراع التقابل في قوله ليسكنوا فيه ومبصرا لان القياس يقتضي أن يكون والنهار لتبصروا فيه وانما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ وهذا النظم المطبوع غير المتكلف لان معنى قوله مبصرا لتبصروا فيه طرق التقلب في الحاجات (واعلم) أن في تقابل المعاني بابا عجيب الامر يحتاج الى فضل تأمل وزيادة نظر وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور وبالاعجاز من الابيات الشعرية (فمما جاء من ذلك) قوله تعالى في ذم المنافقين واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وقوله تعالى واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ألا ترى كيف فصل الآية الاخرى بيعلمون والآية التي قبلها يشعرون وانما فعل ذلك لان أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج الى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي الى الفتنة والفساد في الارض فأمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصا عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال فيه يشعرون وأيضا فانه لما ذكر السفه في الآية الاخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقا فقال لا يعلمون وآيات

القرآن جميعها فصلت هكذا كقوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح
الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وكقوله له ما في السموات وما في الارض
وان الله لهو الغني الحميد وكقوله ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري
في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف
رحيم فانه انما فصلت الآية الاولى بلطيف خبير لان ذلك في موضع الرحمة لخلقه
بانزال الغيث وغيره وأما الآية الثانية فانما فصلت بغني حميد لانه قال له
ما في السموات وما في الارض لا لحاجة بل هو غني عنها جواد بها لانه ليس
كل غني نافعا بغناه الا اذا كان جوادا منعما واذا جاد وأنعم حمده المنعم عليه
واستحق عليه الحمد فذكر الحميد ليدل على أنه الغني النافع بغناه خلقه وأما
الآية الثالثة فانها فصلت برؤف رحيم لانه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من
تسخير ما في الارض لهم واجراء الفلك في البحر لهم وتسييرهم في ذلك الهول
العظيم وخلقه السماء فوقهم وامساكها اياها عن الوقوع حسن أن يفصل ذلك
بقوله رؤف رحيم أي ان هذا الفعل فعل رؤف بكم رحيم لكم (واعلم)
أيها المتأمل لكتابنا هذا أنه قلما توجد هذه الملاءمة والمناسبة في كلام ناظم
أو ناثر ومن الآيات ما يشكل فاصلته فيحتاج الى فكرة وتأمل كقوله تعالى
والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم
أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من
الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين
والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم
ورحمته وأن الله تواب حكيم فانه قد وردت الفاصلة في غير هذا الموضع
بتواب رحيم ويظن الظان أن هذا كذلك ويقول ان التوبة مع الرحمة
لا مع الحكمة وليس كما يظن بل الفاصلة بتواب حكيم أولى من تواب رحيم لان
الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التي أمر بها وأراد بذلك ستر هذه
الفاحشة على عباده وذلك حكمة منه ففصلت الآية الواردة في آخر الآيات
بتواب حكيم فجمع فيها بين التوبة المرجوة من صاحب المعصية وبين
الحكمة في سترها على تلك الصورة وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر منه
نفعا ولا أعظم فائدة (ومما جاء من هذا الباب) قول أبي الطيب المتنبي

وقفت وما في الموت شك لواقف • كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة • ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقد أوخذ على ذلك وقيل لو جعل آخر البيت الاول آخر البيت الثاني وآخر البيت الثاني آخر البيت الاول لكان أولى ولذلك حكاية وهي أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التي أولها • على قدر أهل العزم تأتي العزائم • فلما بلغ الى هذين البيتين قال قد انتقد عليهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله

كأني لم أركب جوادا للذة • ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل • لخيلي كري كرة بعد اجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس وكان ينبغي لك أن تقول

وقفت وما في الموت شك لواقف • ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة • كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي ان صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا هو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك لان البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله وانما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة بسباء الخمر للاضياف بالشجاعة في منازلة الاعداء وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الاول أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤما ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية قلت ووجهك وضاح وثغرك باسم لاجمع بين الاضداد

(القسم الثاني في صحة التقسيم وفساده) ولسنا نريد بذلك ههنا ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب اليه المتكلمون فان ذلك يقتضي أشياء مستحيلة كقولهم الجواهر لا تخلو اما أن تكون مجتمعة أو مفترقة أو لا مجتمعة ولا مفترقة أو مجتمعة ومفترقة معا أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الاقسام جميعها وان كان من جملتها ما يستحيل وجوده وانما نريد بالتقسيم ههنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره فتارة يكون التقسيم بلفظة اما وتارة بلفظة بين كقولنا بين كذا وكذا وتارة منهم كقولنا منهم كذا ومنهم كذا وتارة بأن يذكر العدد المراد أولا ثم يقسم كقولنا

فانشعب القوم شعبا أربعة فشعبة ذهبت يمينا وشعبة ذهبت شمالا وشعبة وقفت
بمكانها وشعبة رجعت الى ورائها (فمما جاء من هذا القسم) قوله تعالى ثم أورثنا
الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرات وهذه قسمة صحيحة فانه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة فاما عاص
ظالم لنفسه واما مطيع مبادر الى الخيرات واما مقتصد بينهما (ومن ذلك)
أيضا قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب
المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون وهذه الآية منطبقة المعنى
على الآية التي قبلها فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم وأصحاب الميمنة
هم المقتصدون والسابقون هم السابقون بالخيرات (وعلى نحو من ذلك) جاء قوله
تعالى هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا فان الناس عند رؤية البرق بين خائف
وطامع وليس لهما قسم ثالث (فان قيل) ان استيفاء الاقسام ليس شرطا وترك
بعض الاقسام لا يقدح في الكلام وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى
لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون فذكر أصحاب
الجنة دون أصحاب النار (فالجواب عن ذلك) انى أقول هذا لا ينتقض على
ما ذكرته فان استيفاء الاقسام يلزم فيما استبهم الاجمال فيه ألا ترى الى قوله
تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فانه حيث قال فمنهم لزم
استيفاء الاقسام الثلاثة ولو اقتصر على قسمين منها لم يجز وأما هذه الآية
التي هي لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة فانه انما خص أصحاب الجنة
بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فوز لهم ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضا
ما لأصحاب الجنة وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى فانه انما يطرقه الى المستبهم
وغير المستبهم فاعرفه وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يعجبون بقول
بعض الاعراب ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات وهو قولهم النعم ثلاثة نعمة
في حال كونها ونعمة ترجى مستقبلة ونعمة تأتى غير محتسبة فأبقى الله عليك
ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترتجيه وتفضل عليك بما لم تحتسبه وهذا القول
فاسد فان في أقسام النعم التي قسمها نقصا لا بد منه وزيادة لا حاجة اليها
فأما النقص فاغفال النعمة الماضية وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة
ونعمة تأتى غير محتسبة لأن النعمة التي تأتى غير محتسبة داخلة في قسم النعمة

المستقبلة وذلك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين أحدهما يرجى حصوله والآخر لا يحتسب فقوله ونعمة تأتي غير محتسبة يوهم أن هذا القسم غير المستقبل وهو داخل فيه وعلى هذا فكان ينبغي له أن يقول النعم ثلاث نعمة ماضية ونعمة في حال كونها ونعمة تأتي مستقبلة فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبقى عليك النعمة التي أنت فيها ووفر حظك من النعمة التي تستقبلها الاتراه لو قال ذلك لكان قد طبق به مفصل الصواب وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى في قوله

جمعت لنا فرق الأماني منكم • بأبرّ من روح الحياة وأوصل

فصنيعة في يومها وصنيعة • قد أحولت وصنيعة لم تحول

كالمزن من ماضي الرباب ومقبل • متنظّر ومخيّم متهلّل

(ووقف أعرابي) على مجلس الحسن البصري رضي الله عنه فقال رحم الله عبدا أعطى من سعة أو آسى من كفاف أو آثر من قلة فقال الحسن البصري ما ترك لأحد عذرا (وقد عاب) أبو هلال العسكري على جميل قوله

لو كان في قلبي كقدر قلامة • حبا وصلتك أو أتتك رسائلي

فقال أبو هلال ان اتيان الرسائل داخل في جملة الوصل وليس الامر كما وقع له فان جميلا انما أراد بقوله وصلتك أي أتيتك زائرا وقاصدا أو كنت راسلتك مراسلة والوصل لا يخرج عن هذين الوصفين اما زيارة واما رسالة (ومن أعجب ما وجدته في هذا الباب) ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي وهو قول العباس بن الاحنف

وصالكم هجر وحبكم قلى • وعطفكم صد وسلمكم حرب

ثم قال الغانمي هذا والله أصح من تقسيمات اقليدس ويا لله العجب أين التقسيم من هذا البيت هذا والله في واد والتقسيم في واد ألا ترى أنه لم يذكر شيئا تحصره القسمة وانما ذم أحبابه في صنيعهم به فذكر بعض أحوالهم معه ولو قال أيضا

ولينكم عنف وقربكم نوى • واعطاؤكم منع وصدقكم كذب

لكان هذا جائزا وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة والاولى أن يضاف هذا البيت الذي ذكره الغانمي الى باب المقابلة فانه أولى به لانه قابل الوصل بالهجر والعطف بالصد والسلم بالحرب (ومن فساد التقسيم)

قول البحتري في قصيدته التي مطلعها « ذاك وادي الأراك فاحبس قليلا » فقال

قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا ... أو معينا أو عاذرا أو عذولا

فإن المشوق يكون حزينا والمسعد يكون معينا وكذلك يكون المسعد عاذرا وكثيرا ما يقع البحتري في مثل ذلك وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي وهو

فانظر فإن الناس فيك ثلاثة ... مستعظم أو حاسد أو جاهل

فإن المستعظم يكون حاسدا والحاسد يكون مستعظما (ومن شرط التقسيم) أن لا تتداخل أقسامه بعضها في بعض (ومن هذا الأسلوب) ما ورد في أبيات الحماسة وهو

وكنت امرأ إما ائتمنتك خاليا ... فخنت وإما قلت قولا بلا علم

فأنت من الأمر الذي قد أتيته ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

فإن الخيانة من الإثم وهذا تقسيم فاسد (ومما جاء من ذلك نثرا) قول بعضهم في ذكر منهزمين فمن جريح متضرج بدمائه وهارب لا يلتفت إلى ورائه فإن الجريح قد يكون هاربا والهارب قد يكون جريحا ولو قال فمن بين قتيل ومأسور وناج لصح له التقسيم أو لو قال فمن بين قتيل ومأسور لصح له التقسيم أيضا لعدم التناسب بينهما وقد أحسن البحتري في هذا المعنى حيث قال

غادرتهم أيدي المنية صبحا ... بالقنا بين ركع وسجود

فهم فرقتان بين قتيل ... قنصت نفسه بحد الحديد

أو أسير غدا له السجن لحدا ... فهو حي في حالة الملحود

فرقة للسيوف ينفذ فيها لـــــم قصدا ... وفرقة للقيود

(ومن فساد التقسيم) قول أبي تمام

ومواقف بين حكم الذل منقطع ... صاليه أو بحبال الموت متصل

فإنه جعل صالي هذا الموقف إما ذليلا عنه وإما هالكا فيه وههنا قسم ثالث وهو أن لا يكون ذليلا ولا هالكا بل يكون مقدما فيه ناجيا وفي هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه فإن أبا تمام قصد الفارق في وصف هذا الموقف فقال إن الناس فيه أحد رجلين إما ذليل عن مورده وإما هالك فيه أي أنه لا ينجو منه أحد يرده وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه (القسم الثالث في ترتيب التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد) اعلم أن صحة الترتيب في ذلك أن يذكر في الكلام معان مختلفة

فاذا عمد اليها الا كر لتفسير قدم المقدم وأخر المؤخر وهو الاحسن الا انه قد ورد
في القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يراع فيه تقديم المقدم ولا تأخير
المؤخر كقوله تعالى أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض
ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لآية
لكل عبد منيب ولو قدم تفسير المقدم في هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل
ان نشأ نسقط عليهم كسفا من السماء أو نخسف بهم الارض وكذلك ورد قوله
تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم
بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم
فقدم المؤخر وأخر المقدم والقسمان قد وردا جميعا في القرآن الكريم
(فمما روعي فيه تقديم المقدم وتأخير المؤخر) قوله تعالى وما نؤخره الا لأجل
معدود يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد فأما الذين شقوا
ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء
ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت
السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ (ومن ذلك) قوله تعالى
وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة (وكذلك)
قوله تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ولتبتغوا من
فضله فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون على
سبب النهار وهو التعيش (ومن ذلك) ما كتبته في كتاب تعزية وهو فصل منه
فقلت ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل وآمت المكارم
كما آمت الحلائل وعمت لوعة خطبه فما تشتكي ثكلى الا الى ثاكل وما أقول
فيمن عدمت الارض منه حياها والمحامد محياها فلو نطق الجماد بلسان أو
تصور المعنى لعيان لأعربت تلك عن ظمأ صعيدها وبرزت هذه حاسرة حول
فقيدها (ومن ذلك) ما كتبته في فصل من كتاب الى بعض الاخوان فقلت
ومازالت أيادي سيدنا متنوعة في زيادة جودها وكتبها فهذه متطولة بترقية
ورودها وهذه آخذة بسنة اغبابها وأحسن ما في الاولى أنها تأتي متطلبة
بفواضل الاكثار وفي الثانية أنها تأتي متحلية بفضائل الاختصار فاختصار
هذه في فوائد أقلامها كتطويل تلك في فوائد انعامها وقد أصبحت

مرا المرى مستغرقة بانشاء القول المبتكر في شكر الفضل المأول وجواب البيان المخمص وما جعل الله لها من سلطان البلاغة ما يستقل بأداء حقوق تثقل على الرقاب ومقابلة بلاغات تثقل على الألباب (ومما جاء من ذلك) شعرا قول ابراهيم بن العباس

لنا ابل كوم يضيق بها الفضا • ويفترّ عنها أرضها وسماؤها

فمن دونها أن تستباح دماؤنا • ومن دوننا أن تستباح دماؤها

حمى وقرى فالموت دون مرامها • وأيسر خطب يوم حق فناؤها

وهذه الابيات من نادر ما يجيء في هذا الباب معنى وترتيب تفسير ومما جاء منه أيضا قول أبي تمام

وما هو الا الوحي أو حد مرهف • تميل ظباه أخدعي كل مائل

فهذا دواء الداء من كل عالم • وهذا دواء الداء من كل جاهل

وكذلك قوله أيضا

وكان لهم غيثا وعلما لمعدم • ليأمله أو باحث ينتابه

وهذا من بديع ما يأتي في هذا الباب ومما ورد منه قول علي بن جبلة

فتى وقف الايام بالسخط والرضا • على بذل عرف أو على حد منصل

ومن الحسن في هذا الباب قول أبي نواس

يرجو ويخشى حالتيك الورى • كأنك الجنة والنار

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين وهو القاضي الارجاني

يوم المقيم بك حول كامل • بتعاقب الفصلان فيه اذا أتى

ما بين حر جوى وماء مدامع • ان حن صاف وان بكى وجدا شتا

ومما أخذ على الفرزدق في هذا الباب قوله

لقد جئت قوما لو لجأت اليهم • طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

لألفيت فيهم معطيا أو مطاعنا • وراءك شزرا بالوشيج المقوم

لانه أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب وذلك انه أتى بتفسير ما هو أول في البيت الاول ثانيا في البيت الثاني والاولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتبا بتفسير ما هو أول في البيت الاول بما هو ثان في البيت الثاني واعلم أن الناظم لا ينكر عليه مثل هذا ما ينكر على الناثر لان الناظم بضرورة الوزن والقافية

الى

الى ترك الأولى (وأما فساد التفسير) فانه أقبح من فساد ترتيبه وذلك أن يؤتى
بكلام ثم يفسر تفسيرا لا يناسبه وهو عيب لا تسامح فيه بحال وذلك كقول بعضهم

فيا أيها الحيران في ظلمة الدجى • ومن خاف أن يلقاه بغي من العدا
تعال اليه تلق من نور وجهه • ضياء ومن كفيه بحرا من الندى

وكان يجب لهذا الشاعر أن يقول بازاء بغي العدا ما يناسبه من النصرة والاعانة
أو ما يجري مجراهما ليكون ذلك تفسيرا له كما جعل بازاء الظلمة الضياء وفسرها به
فأما أن يجعل بازاء ما يتخوف منه بحرا من الندى فان ذلك غير لائق (النوع
الخامس والعشرون في الاقتصاد والتفريط والافراط) اعلم أن هذه المعاني
الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والافراط توجد في كل شيء من علم وصناعة
وخلق ولا بد لنا من ذكر حقيقتها في أصل اللغة حتى يتبين نقلها الى هذا النوع
من الكلام فأما الاقتصاد في الشيء فهو من القصد الذي هو الوقوف على
الوسط الذي لا يميل الى أحد الطرفين قال الله تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم
مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فالظلم لنفس والسبق بالخيرات طرفان والاقتصاد
وسط بينهما وقال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك
قواما فالاسراف والاقتار طرفان والقوام وسط بينهما وقال الشاعر

عليك بالقصد فيما أنت فاعله • ان التخلق يأتي دونه الخلق

وأما التفريط فهو التقصير والتضييع ولهذا قال الله تعالى ما فرطنا في الكتاب
من شيء أي ما أهملنا ولا ضيعنا وأما الافراط فهو الاسراف وتجاوز الحد
يقال أفرط في الشيء اذا أسرف وتجاوز الحد والتفريط والافراط هما الطرفان
البعيدان والاقتصاد هو الوسط المعتدل وقد نقلت هذه المعاني الثلاثة الى هذا
النوع من علم البيان وأما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمر في العبارة
على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته وأما التفريط والافراط فهما ضدان
أحدهما أن يكون المعنى المضمر في العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه
والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته والتفريط في ايراد المعاني الخطابية قبيح
لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه والافراط يجوز استعماله فمنه الحسن
ومنه دون ذلك (فأما ما هو من التفريط) قول الأعشى

وما مزبد من خليج الفرا • ت جون غواربه تلتطم

بأجود منه بماعونه * اذا ما سماؤهم لم تغم

فانه مدح ملكا بالجود بماعونه والماعون كل ما يستعار من قدوم أو قصعة أو قدر أو ما أشبه ذلك وليس للملوك فى بذله مدح ولا لأوساط الناس أيضا وفى مدح السوقة به قولان ومدح الملوك به عيب وذم فاحش وهذا من أقبح التفريط ومما يجرى هذا المجرى قول الفرزدق

ألا ليتنا كنا بعيرين لا نرد * على حاضر الا نشل ونقذف

كلانا به عر يخاف قرافه * على الناس مطلى المساعر أخشف

هذا رجل ذهب عقله حين تمم هذين البيتين فان مراده منهما التغزل بمحبوبه وقد قصر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجربين لا يقربهما أحد ولا يقربان أحدا الا طردهما وهذا من الأمانى السخيفة وله فى غير هذه الأمنية مذمومات كثيرة ومما أشبه هذا يقول القائل

يارب ان قدرته لمقبل * غيرى فللأقداح أو للأكؤس

واذا حكمت لنابعين مراقب * فى الدهر فلتك من عيون النرجس

فانظر كم بين هاتين الامنيتين (ومما أخذ على أبى نواس) فى قصيدته الميمية الموصوفة التى مدح بها الأمين محمد بن الرشيد وهو قوله

أصبحت يا ابن زبيدة ابنة جعفر * أملا لعقد حباله استحكام

فان ذكر أم الخليفة فى مثل هذا الموضع قبيح وكذلك قوله فى موضع آخر

وليس كجدتيه أم موسى * اذا نسبت ولا كالخيزران

وهذا القول من الحديث لا فائدة فيه فان شرف الأنساب انما هو الى الرجال لا الى النساء وياليت شعرى أما سمع أبو نواس قول قتيلة بنت النضر فى النبى صلى الله عليه وسلم

أمحمد ولانت نجل كريمة * من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما * من الفتى وهو المغيظ المحنق

فانها ذكرت الأم بغير اسم الأم وأبرزت هذا الكلام فى هذا اللباس الأنيق وكذلك فليكن المادح اذا مدح وأبو نواس مع لطافة طبعه وذكائه وما كان يوصف به من الفطنة قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع ظهوره وليس لقائل أن يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه هرون عليهما

أجد لما بينه بسرى زينبا • فقال

شهدت لقد أنصفته حين تنبري • له مصلتا عضبا من البيض مقضبا

فلم أر ضرغامين أصدق منكما • عراكا إذا الهيابة النكس كذبا

قوله إذا الهيابة النكس تفريط في المدح بل كان الأولى أن يقول إذا البطل كذب والأبى مقحم إقدام المقدم في الموضع الذي يهزمه الجبان والا كما قال أبو تمام

فتى كلما ارتاد الشجاع من الردى • مفرا غداة المأزق ارتاد مصرعا

وعلى أسلوب البحتري ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة

وإني لقوال لعافي مرحبا • ولطالب المعروف إنك واجده

وإني لمبسوط الكف بالندى • إذا شنجت كف البخيل وساعده

وهذا معيب من جهة أنه لا فضل في بسط يده عند قبض يد البخيل وإنما الفضيلة في بسطها عند قبض الكرام أيديهم ومن هذا الباب قول أبي تمام

يقظ وهو أكثر الناس إغضا • ء على نائل له مسروق

فإنه أراد أن يمدح فذم وما هو أقبح من ذلك قوله أيضا

يتقي الحرب منه حين تغلي • مراجلها بشيطان رجيم

وقد استمر ذلك في شعره حتى أفحش كقوله

أنت دلو وذو السماح أبو مو • سى قليب وأنت دلو القليب

ومراده من ذلك أنه جعله سببا للعطاء المشار إليه كما أن الدلو سبب في استخراج الماء من القليب ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب إلى حد يذهب أبو تمام حوله هذه الذهبة ويلقيه في هذا المثال السخيف على أنه لم يقنع بهذه السقطة القبيحة في شعره بل أوردها في مواضع أخرى منه فمن ذلك قوله

مازال يهذي بالمكارم والعلا • حتى ظننا أنه محموم

فإنه أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا فقال مازال يهذي وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرين

ويلحقه عند المكارم هزة • كما انتفض المحموم من أم ملدم

وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله وإن كان المعنى المقصود به حسنا وكم من متأول معنى كريما فأساء في التعبير عنه حتى صار مذموما كهذا وأمثاله ومن أحسن ما قيل في مثل هذا الموضع قول ابن الرومي

من التفريط في شيء في خطاب الكاف قول النابغة

وإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(وكذلك قوله أيضا)

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وعليه جاء قول بعض المتأخرين أيضا فقال أبو نواس

إليك أبا المنصور عذبت ناقتي * زيارة خل وامتحان كريم

لأعلم ما يأتي وإن كنت عالما * بأنك مهما تأت غير ملوم

وكذلك ورد قول السلامي

إليك طوى عرض البسيطة جاعل * قصارى المطايا أن يلوح لها القصر

وبشرت آمالي بملك هو الورى * ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

وعليه ورد قول البحتري

ولقد أتيتك طالبا فبسطت من * أملي وأطلب جود كفك مطلبي

وحسن خطاب الشعراء الممدوحين أنفسهم بالكاف وذلك محظور على الكتاب فإنه ليس من الأدب عندهم أن يخاطب الأدنى الأعلى بالكاف وإنما يخاطبه مخاطبة الغائب لا مخاطبة الحاضر على أن هذا الباب بجملته موكل النظر فيه إلى فطانة الخطيب والشاعر وليس مما يوقف فيه على المسموع خاصة (ومن ألطف ما وجدته) أنك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر بأن تقول افعل كذا وكذا وتخرجه مخرج الاستفهام وهذا الأسلوب حسن جدا وعليه مسحة من جمال بل عليه الجمال كله (فما جاء منه) قول البحتري في قصيدة أولها أيودي لو يهوى العذول ويعشق * فقال منها

فهل أنت يا ابن الراشدين مختمي * بياقوتة تبهى علي وتشرق

وهذا من الأدب الحسن في خطاب الخليفة فإنه لم يخاطبه بأن قال ختمني بياقوتة على سبيل الأمر بل خاطبه على سبيل الاستفهام وقد أعجبني هذا المذهب وحسن عندي وقد حذا حذو البحتري شاعر من شعراء عصرنا فقال في مدح الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد من قصيدة على قافية الدال فقال من أبيات يصف بها قصيدة

أمة ولينا يا ابن الخلائف من فتى * لديك بوصفي غادة الشعر رودة

وهذا يصف طول قامته لكنه من الاوصاف المنكرة التي خرجت بها المغالاة
عن حيز الاستحسان وكذلك ورد قول أبي نواس

وأخفت أهل الشرك حتى انه * لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا أشد افراطا من قول النابغة ويروى أن العتابي لقي أبا نواس فقال له أما
استحييت الله حيث تقول وأنشده البيت فقال له وأنت ما راقبت الله حيث قلت

ما زلت في غمرات الموت مطرحا * يضيق عني وسيع الرأي من حيلي
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي * حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

فقال له العتابي قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ولكنك قد أعددت
لكل ناصح جوابا وقد أراد أبو نواس هذا المعنى في قالب آخر فقال

كفت منادمة الدماء سيوفه * فلقلما تحتازها الاجفان
حتى الذي في الرحم لم يك صورة * لفؤاده من خوفه خفقان

ومما يجيء في هذا الباب ما يجري هذا المجرى وقد استعمل أبو الطيب المتنبي هذا
القسم في شعره كثيرا فاحسن في مواضع منه فمن ذلك قوله

عجاجا تعثر العقبان فيه * كأن الجو وعث أو خبار

ثم أعاد هذا المعنى في موضع آخر فقال

عقدت سنابكها عليها عثيرا * لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

وهذا أكثر غلوا من الاول ومن ذلك قوله أيضا

كأنما تتلقاهم لتسلكهم * فالطعن يفتح في الاجواف ما يسع

وعلى هذا ورد قول قيس بن الخطيم

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها

لكن أبو الطيب أكثر غلوا في هذا المعنى وقيس بن الخطيم أحسن لانه قريب
من الممكن فان الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء واما أن يجعل المطعون مسلكا
يلا كما قال أبو الطيب فان ذلك مستحيل ولا يقال فيه بعيد (وأما الاقتصاد)
فهو وسط بين المنزلتين والامثلة به كثيرة لا تحصى اذ كل ما خرج عن الطرفين من
الافراط والتفريط فهو اقتصاد ومن أحسنه أن يجعل الافراط مثلا ثم يستثنى
فيه بلو أو يكاد وما يجري مجراهما فمن ذلك قوله تعالى يكاد البرق يخطف أبصارهم
وكذلك قوله عز وجل وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وقد

ورد هذا في القرآن الكريم كثيرا ومما ورد منه شعرا قول الفرزدق

يكاد يمسكه عرفان راحته • ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وكذلك ورد قول البحتري

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما • في وسعه لسعى اليك المنبر

وهذا هو المذهب المتوسط (النوع السادس والعشرون في الاشتقاق) اعلم أن جماعة علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس وليس الامر كذلك بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام وذاك أن التجنيس في أصل الوضع من قولهم جانس الشئ الشئ اذا ماثله وشابهه ولما كانت الحال كذلك ووجدنا من الالفاظ ما يتماثل ويتشابه في صيغته وبنائه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس وكذلك لما وجدنا من المعاني ما يتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس أيضا فالتجنيس اذن ينقسم قسمين أحدهما تجنيس في اللفظ والآخر تجنيس في المعنى فأما الذي يتعلق باللفظ فانه لم ينقل عن بابه ولا غير اسمه وقد تقدم ذكره في باب الصناعة اللفظية وأما الذي يتعلق بالمعنى فانه نقل عن بابه في التجنيس وسمي الاشتقاق اي أحد المعنيين مشتق من الآخر (وهو على ضربين) صغير وكبير فالصغير أن تأخذ أصلا من الاصول فتجمع بين معانيه وان اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب س ل م فانك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم اللديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلا بالسلامة والاصل في ذلك أن يضع واضع اللغة اسما أولا لمسمى أول ثم يجد مسمى آخر ومسميات شبيهة بالمسمى الاول فيضع لها اسما كالاسم الاول كقوله ضرير اسم للأعمى والضر ضد النفع والضراء الشدة من الامر والضر بالضم الهزال وسوء الحال والضرر الضيق والضرة احدى الزوجتين فان هذه المسميات كلها تدل على الاذى والشر وأسماؤها متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء الا أنا الآن لا نعلم ما هو الاول منها حتى نحكم على الثاني أنه مشتق منه لكن نعلم في السليم اللديغ أنه مشتق من السلامة لانه ضدها قيل من أجل التفاؤل بالسلامة وعلى هذا جاء غيره من الاصول كقولنا هشم لك هاشم وحارب محارب وسالم مسالم وأصاب الارض صيب فهذه الالفاظ كلها الفاظها واحدة ومعناها واحد أما هاشم فانه لم يسم بهذا الاسم الا لانه هشم الثريد في عام محل فسمي

بذلك وأما محارب فانه اسم فاعل من حارب فهو محارب وأما سالم عن السلامة
وهو اسم فاعل من سلم وأما الصيب فهو المطر الذي يشتد صوبه أي وقعه على
الارض ولا يقاس على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم أسلم سالمها الله وغفار
غفر الله لها وعصية عصت الله فان أسلم وغفار وعصية أسماء قبائل ولم تسم أسلم
من المسالمة ولا غفار من المغفرة ولا عصية من تصغير عصا وهذا هو التجنيس
وليس بالاشتقاق والنظر في مثل ذلك يحتاج الى فكرة وتدبر كي لا يختلط التجنيس
بالاشتقاق ومما جاء من ذلك شعرا قول البحتري * أعاتي سلي بكاظمة اسلي
وكذلك قول الآخر

ومازال معقولا عقال من الندى * ومازال محبوسا عن الخير حابس

وربما ظن أن هذا البيت وما يجري مجراه تجنيس حيث قيل فيه معقول وعقال
ومحبوس وحابس وليس الامر كذلك وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيرا
على من لم يتقن معرفته وقد تقدم القول أن حقيقة التجنيس في اتفاق اللفظ
واختلاف المعنى وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللفظ فيهما واحد والمعنى
أيضا واحد فهذا مشتق من هذا أي فنشتق منه وكذلك ورد قول عنترة

اقدم على القبائل أن قومي * لهم حدد اذا لبس الحديد

فان حددا وحديد لفظهما واحد ومعناهما واحد (وأما الاشتقاق الكبير) فهو
أن تأخذ أصلا من الاصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك
التراكيب وما تصرف منها وان تباعد شيء من ذلك عنها رد بلطف الصنعة
والتأويل اليها ولنضرب لذلك مثالا فنقول ان لفظة قمر من الثلاثي لها
ست تراكيب وهي قرم قمر رقم رمق مقر مرق فهذه التراكيب
الست يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدة فالقرم شدة شهوة اللحم وقرم
الرجل اذا غلب من يقاهره والرقم الداهية وهي الشدة التي تلحق الانسان من
دهره وعيش مرمق أي ضيق وذلك نوع من الشدة أيضا والمقر شبه الصبر يقال
امقر الشيء اذا أمر وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة ومرق السهم اذا نفذ من
الرمية وذلك لشدة مضائه وقوته (واعلم) أنه اذا سقط من تراكيب الكلمة شيء
جاز ذلك في الاشتقاق لان الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة بل
من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها

أدت الى معنى واحد يجمعها فقال ما ذكرناه من تركيب الثلاثي لفظة و س ق
فانها خمس تراكيب وهي وسق وقس سوق قسو قوس وسقط
من جملة التراكيب قسم واحد وهو سقو وجميع الخمسة المذكورة تدل
على القوة والشدة أيضا فالوسق من قولهم استوسق الامر أي اجتمع وقوي
والوقس ابتداء الجرب وفي ذلك شدة على من يصيبه وبلاء والسوق متابعة
السير في حذاعنا وشدة على السائق والمسوق والقسوة شدة القلب وغلظه
والقوس معروفة وفيها نوع من الشدة والقوة لنزعها السهم واخراجه الى ذلك
المرمى المتباعد (واعلم) أنا لا ندعي أن هذا يطرد في جميع اللغة بل قد جاء شيء منها
كذلك وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها لان الكلمة الواحدة تنقلب على
ضروب من التقاليب وهي مع ذلك دالة على معنى واحد وهذا من أعجب
الاسرار التي توجد في لغة العرب وأغربها فاعرفه الا أن الاستعمال في النظم
والنثر انما يقع في الاشتقاق الصغير دون الكبير وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير
تكثر الالفاظ الواردة عليه والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد في اللغة الا قليلا
وأيضا فان الحسن اللفظي الذي هو الفصاحة انما يقع في الاشتقاق الصغير ولا يقع
في الاشتقاق الكبير ألا ترى الى هذين الأصلين الواردين ههنا وهما قرم
ووسق اذا نظرنا الى تراكيبهما وأردنا أن نسبكهما في الاستعمال لم يأت منهما
مثل ما يأتي في الاشتقاق الصغير حسنا ورونقا لان ذاك لفظه لفظ تجنيس ومعناه
معنى اشتقاق والاشتقاق الكبير ليس كذلك (النوع السابع والعشرون
في التضمين) وهذا النوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة وبين
معيب عند قوم وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ولكل من هذين
القسمين مقام (فأما الحسن) الذي يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يضمن
الآيات والاخبار النبوية وذلك يرد على وجهين أحدهما تضمين كلي والآخر
تضمين جزئي فأما التضمين الكلي فهو أن تذكر الآية والخبر بجملتهما
وأما التضمين الجزئي فهو أن تدرج بعض الآية والخبر في ضمن كلام فيكون
جزأ منه كالذي أوردته في حل الآيات والاخبار في الفصل العاشر من مقدمة
الكتاب وقد قيل انه لا يجوز أن تدرج آيات القرآن الكريم في ضمن الكلام
من غير تبيين كي لا يشتبه وهذا القول لا أقول به فان القرآن الكريم أبين من

التضمين

أن يحتاج الى بيان وكيف يخفى وهو المعجز الذى لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله فان كانت المقاوضة فى التفرقة بينه وبين غيره من الكلام اذا أدرج فيه مع جاهل لا يعرف الفرق فذاك لا كلام معه وان كان الكلام مع عالم بذلك فذاك لا يخفى عليه القرآن الكريم من غيره ومذهبى فى هذا هو ما تقدم ذكره فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب وهو أحسن الوجهين عندى وذاك أنه لا تؤخذ الآية بكمالها بل يؤخذ جزء منها ويجعل أول الكلام أو آخره هذا اذا لم يقصد به التضمين فأما اذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكمالها وتدرج درجا وهذا ينكره من لم يذق ما ذقته من طعم البلاغة ولا رأى ما رأيته (وأما المعيب عند قوم) فهو تضمين الاسناد وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور على أن يكون الاول منهما مسندا الى الثانى فلا يقوم الاول بنفسه ولا يتم معناه الا بالثانى وهذا هو المعدود من عيوب الشعر وهو عندى غير معيب لانه ان كان سبب عيبه أن يعلق البيت الاول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيبا اذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق احداهما بالاخرى لان الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى فالفرق بينهما يقع فى الوزن لا غير والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون فهذه الفقر الثلاث الاخيرة مرتبط بعضها ببعض فلا تفهم كل واحدة منهن الا بالتى تليها وهذا كالابيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ولو كان عيبا لما ورد فى كتاب الله عز وجل وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضا فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم فالآيتان الاوليان لا تفهم احداهما الا بالاخرى وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فهذه ثلاث آيات لا تفهم الاولى ولا الثانية الا بالثالثة الا ترى أن الاولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر الى جواب والجواب هو

في الثالثة وعما ورد من ذلك شعرا قول بعضهم

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كنه

أن من يعرف شيأ * يدعي أكثر منه

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولا تم معناه إلا بالبيت الثاني وقد استعملته العرب كثيرا وورد في شعر فحول شعرائهم فمن ذلك قول امرئ القيس

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي * بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وكذلك ورد قول الفرزدق

وما أحد من الأقوام عدوا * عروق الأكرمين إلى التراب

بمحتفلين أن فضلتونا * عليهم في القديم ولا غضاب

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة

لعمري لرهط المرء خير بقية * عليه وإن عالوا به كل مركب

من الجانب الأقصى وإن كان ذا غنى * جزيل ولم يخبرك مثل مجرب

(الضرب الثاني من التضمين) وهو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاما وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل منه كما قال جحظة

قم فاسقنيها يا غلام وغنني * ذهب الذين يعاش في أكنافهم

ألا ترى أنه لو لم يقل في هذا البيت ذهب الذين يعاش في أكنافهم لكان المعنى تاما لا يحتاج إلى شيء آخر فإن قوله قم فاسقنيها يا غلام وغنني فيه كفاية إذ لا حاجة له إلى تعيين الغناء لأن في ذلك زيادة على المعنى المفهوم لا على الغرض المقصود وقد ورد هذا في عدة مواضع من شعر أبي نواس في الخمريات كقوله في مخاطبة بعض خلطائه على مجلس الشراب

فقلت هل لك في الصهباء تأخذها * من كف ذات سوالف بيض مقتبل

حمرية كشعاع الشمس صافية * تطير بالكأس من لألائها شعل

فقال هات وغنينا على طرب * ودع هريرة إن الركب مرتحل

وكذلك قوله أيضا

وفتى خاطب اللذات سالو كلامه * مقبل مهمل وجانبه وعر

خلت له منها الخمر لوجهه * وأمكن منه ما يحيط به الازر
فمت اليه والكرى كحل عينه * فقبلته والصب ليس له صبر
الى أن تجلى نومه عن جفونه * وقال كسبت الذنب قلت لى العذر
فاعرض مزورا كأن بوجهه * تفقأ رمان وقد برد الصدر
مازلت أرقيه والثم خده * الى أن تفنى راضيا وبه سكر
ألا فاسلمى يا دارمى على البلى * ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وقد استعمل هذا الضرب كثيرا الخطيب عبد الرحمن بن نباتة رحمه الله فى ذلك قوله فى بعض خطبه وهو فيا أيها الغفلة المطرقون أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ما لكم منه لا تشفقون فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون وكذلك قوله فى ذكر يوم القيامة وهو يوم تنفد والخلائق على الله بهما فحاسبهم على ما أحاط به علما وينفذ فى كل عامل بعمله حكما وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ألا ترى الى براعة هذا التضمين الذى كأنه قد رصع فى هذا الموضع رصعا وعلى نحو من ذلك جاء قوله فى ذكر يوم القيامة وهو هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا وتكون الاعمال المشوبة بالنفاق سرابا يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ومما ينتظم بهذا السلك قوله فى خطبة أخرى وهو أحكم الله الذى أنطقهم وأبادهم الذى خلقهم وسيجددهم كما أخلقهم ويجمعهم كما فرقهم يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا (ومن هذا الباب) قوله أيضا هنالك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب ويجمع من وجب له الثواب ومن حق عليه العقاب فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب وأمثال هذه التضمينات فى خطبه كثيرة وهى من محاسن ما يجئ فى هذا النوع

(النوع الثامن والعشرون فى الارصاد) وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أى أعدها فى نفسه فاذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به فى قافيته وذلك من محمود الصنعة فان خير الكلام ما دل بعضه على بعض وفى الاقتصار بذلك قول ابن نباتة السعدى .

الارصاد

خذها اذا أنشدت فى القوم من طرب • صدورها عرفت منها قوافيها

ينمى لها الراكب العجلان حاجته • ويصبح الحاسد الغضبان يطريها

فمن هذا الباب قول النابغة

فداء لامرئ سارت اليه • بعذرة ربها عمى وخالى

ولو كفى اليمين بغتك خونا • لافردت اليمين عن الشمال

ألا ترى أنه يعلم اذا عرفت القافية فى البيت الاول أن فى البيت الثانى ذكر الشمال وكذلك جاء قول البحترى

أحلت دمى من غير جرم وحرمت • بلا سبب يوم اللقاء كلامى

فليس الذى حللته بمحلل • وليس الذى حرمته بحرام

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الاول وصدر البيت الثانى أن عجزه هو ما قاله البحترى (وقد جاء الارصاد فى الكلام المنثور كما جاء فى الشعر) فمن ذلك قوله تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون فاذا وقف السامع على قوله تعالى لقضى بينهم فيما فيه عرف أن بعده يختلفون لما تقدم من الدلالة عليه (ومن ذلك أيضا) قوله عز وجل فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وعلى نحو منه جاء قوله تعالى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت فاذا وقف السامع على قوله عز وجل وان أوهن البيوت يعلم أن بعده بيت العنكبوت (ورأيت أبا هلال العسكرى) قد سمى هذا النوع التوشيح وليس كذلك بل تسميته بالارصاد أولى وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به وأما التوشيح فانه نوع آخر من علم البيان وسيأتى ذكره بعد هذا النوع ان شاء الله تعالى (واعلم) أنه قد اختلف جماعة من أرباب هذه الصناعة فى تسمية أنواع علم البيان حتى ان أحدهم يضع لنوع واحد منه اسمين اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الامر كذلك بل هما نوع واحد فمن غلط فى ذلك الغانمى فانه ذكر بابا من أبواب علم البيان وسماه التبليغ وقال هو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ثم يأتى بها لحاجة الشعر اليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى

في البارد كقول امرئ القيس

كأن عيون الوحش حول خبائنا • وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

فإنه أتى بالتشبيه تاماً قبل القافية ثم لما جاء بها أبلغ الأمد الأقصى في المبالغة ثم إن
الحاتمي ذكر هذا الباب باباً آخر وسماه الاتباع فقال هو أن يأتي الشاعر بالبيت
معلق القافية على آخر أجزائه ولا يكاد يفعل ذلك إلا حذاق الشعراء وذلك أن
الشاعر إذا كان بارعاً جاء بقدرته وذكائه وفطنته إلى البيت وقد تم معناه
واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لا عار بها ووزنه يحملها ألفاظاً مذكورة كقول
ذي الرمة

قف العيس في أطلال مية فاسأل • رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

هذا كلام الحاتمي بعينه والبابان المذكوران سواء لا فرق بينهما بحال والدليل على
ذلك أن بيت امرئ القيس تم معناه قبل أن يؤتى بقافيته وكذلك بيت ذي الرمة
ألا ترى أن امرأ القيس لما قال كأن عيون الوحش حول خبائنا
وأرحلنا الجزع أتى بالتشبيه قبل القافية ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة وهو
قوله لم يثقب وكذلك ذو الرمة فإنه لما قال • قف العيس في أطلال مية فاسأل
رسوماً كأخلاق الرداء أتى بالتشبيه أيضاً قبل أن يأتي بالقافية ولما احتاج إليها جاء
بزيادة حسنة وهي قوله المسلسل واعلم أن أبا هلال العسكري قد سمى هذين
القسمين بعينهما الإيغال وقال هو أن يستوفي الشاعر معنى الكلام قبل البلوغ إلى
مقطعه ثم يأتي بالمقطع فيزيد فيه معنى آخر وأصل الإيغال من أوغل في الأمر إذا
أبعد الذهاب فيه ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذي الرمة قف العيس في أطلال مية
فاسأل البيت وهذا أقرب أمراً من الحاتمي لأنه ذكره في باب واحد وسماه باسم
واحد ولم يذكره في باب آخر كما فعل الحاتمي وليس الأخذ على الحاتمي في ذلك
مناقشة على الأسماء وإنما المناقشة على أن ينتصب لإيراد علم البيان وتفصيل
أبوابه ويكون أحد الأبواب التي ذكرها داخلاً في الآخر فيذهب عليه ويخفى عنه
وهو أشهر من فلق الصباح (وههنا ما هو أغرب من ذلك) وذلك أنه قد سلك قوم
في منثور الكلام ومنظومه طرقاً خارجة عن موضوع علم البيان وهي بمعزل عنه
لأنها في وادٍ وعلم البيان في وادٍ فمن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات فإنه
ذكر الرسالة التي هي كلمة معجمة وكلمة مهملة والرسالة التي حرف من حروف

ألفاظها معجم والآخر غير معجم ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول الآبيات الذى يليه وكل هذا وان تضمن مشقة من الصناعة فانه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة لان الفصاحة هى ظهور الالفاظ مع حسنها على ما أشرت اليه فى مقدمة كتابى هذا وكذلك البلاغة فانها الانتهاء فى محاسن الالفاظ والمعانى من قولنا بلغت المكان اذا انتهيت اليه وهذا الكلام المصوغ عما أتى به الحريرى فى رسالته وأورده ذلك الشاعر فى شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة وانما ألفاظه ومعانيه غثة باردة وسبب ذلك أنها استكره استكراها ووضع فى غير مواضعها وكذلك ألفاظه فانها تجئ مستكرهة أيضاً غير ملائمة لاخواتها وعلم البيان انما هو الفصاحة والبلاغة فى الالفاظ والمعانى فاذا خرج عنه شئ من هذه الاوضاع المشار اليها لا يكون معدوداً منه ولا داخلاً فى بابه ولو كان ذلك مما يوصف بحسن فى ألفاظه ومعانيه لورد فى كتاب الله عز وجل الذى هو معدن الفصاحة والبلاغة أو ورد فى كلام العرب الفصحاء ولم نره فى شئ من أشعارهم ولا خطبهم ولقد رأيت رجلاً أديباً من أهل المغرب وقد تغالى فى شئ عجيب وذلك أنه شجر شجرة ونظم اشعاراً وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الاساليب اتباعاً لشعب تلك الشجرة وأغصانها فتارة تقرأ كذا وتارة تقرأ كذا وتارة يكون جزء منه ههنا وتارة ههنا وتارة يقرأ مقلوباً وكل ذلك الشعر وان كان له معنى يفهم الا أنه ضرب من الهذيان والاولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة والمغالبة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة (ورأيت أبا محمد) بن عبد الله ابن سنان الخفاجى قد ذكر باباً من الابواب فى كتابه فقال ينبغى أن لا تستعمل فى الكلام المنظوم والمنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ولا الالفاظ التى تختص بها بعض المهن والعلوم لان الانسان اذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة ثم مثل ذلك بقول أبى تمام

مودة ذهب أثمارها شبه • وهمة جوهر معروفها عرض

وبقوله أيضاً

خرقاء يلعب بالعقول حبابها • كتلاعب الافعال بالاسماء

وهذا الذى أنكره ابن سنان هو عين المعروف فى هذه الصناعة

ان الذى تكرهون منه • هو الذى يشتهيه قلبى

ومما يبين فساد ما ذهب اليه قوله أما قوله انه يجب على الانسان اذا خاض في علم
أو تكلم في صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة فهذا
لم اليه ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل
صناعة لانها موضوعة على الخوض في كل معنى وهذا لا ضابط له يضبطه
ولا حاصر يحصره فاذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور في صوغ معنى من
المعاني وأداه ذلك الى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي أو غير ذلك فليس
له أن يتركه ويحيد عنه لانه من مقتضيات ذلك المعنى الذي قصده ألا ترى
الى قول أبي تمام في الاعتذار

فان يك جرم عن أو تك هفوة * على خطأ مني فعذري على عمد

قال هذا من أحسن ما يجيء في باب الاعتذار عن الذنب وكان ينبغي له على ما ذكره
ابن سنان أن يترك ذلك ولا يستعمله حيث فيه لفظتا الخطا والعمد اللتان هما
من أخص ألفاظ الفقهاء وكذلك قول أبي الطيب المتنبي

ولقيت كل الفاضلين كأنما * رد الاله نفوسهم والاعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما * وأتى فذلك اذ أتيت مؤخرا

وهذا من المعاني البديعة وما كان ينبغي لأبي الطيب أن يأتي في مثل هذا الموضع
بلفظة فذلك التي هي من ألفاظ الحساب بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذي
لا يتم الا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب اليه وهذا محض الخطا
وعين الغلط وأما ما أنكره على أبي تمام في قوله

مودة ذهب أثمارها شبه * وهمة جوهر معروفها عرض

قال هذا البيت ليس منكرا لما استعمل فيه من لفظتي الجوهر والعرض اللتين
هما من خصائص ألفاظ المتكلمين بل لانه في نفسه ركيك لتضمنه لفظة الشبه
فانها لفظة عامية ركيكة وهي التي أضعفت البيت بجملته ورب قليل أفسد كثيرا
وأما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما ولا ركاكة عليهما وأما البيت الآخر
وهو

خرقاء يلعب بالعقول حبابها * كتلاعب الافعال بالاسماء

فليس بمنكر وهل يشك في أن التشبيه الذي تضمنه واقع في موقعه ألا ترى أن
الفعل ينقل الاسم من حال الى حال وكذلك يفعل الخمر بالعقول في تنقل حالاتها
فالذي أنكره ابن سنان من ذلك وقد جاء لبعض المتأخرين من هذا الاسلوب

ما لا يبالغ في حسنه وهو قوله

عوامل زرق أعربت لغة الردى • بجسم له خفض ورأس له نصب

فإنه لما حصل له المشابهة في الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ما ذكره من الخفض والنصب وعلى ما ذكره ابن سنان فإن ذلك غير جائز وهو من مستحسنات المعاني هذا من أعجب الأشياء وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم

وفتى من مازن • ساد أهل البصره

أمه معرفة • وأبوه نكره

ومما يشبه في حسن هذا المعنى ولطافته وكذلك ورد من هذا النوع في شعر بعض العراقيين يهجو طبيبا وهو

قال حمار الطبيب توما • لو أنصفوني لكنت أركب

لأنني جاهل بسيط • وراكبي جاهل مركب

وهذا من المعنى الذي أغرب في الملاحة وجمع بين خفة الحضرية ووقار الفصاحة وقد تقدم القول في صدر كتابي هذا أنه يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلق بكل علم وكل صناعة ويخوض في كل فن من الفنون لأنه مكلف بأن يخوض في كل معنى من المعاني فاضمم يدك على ما ذكرته ونصصت عليه واترك ما سواه فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بأمه وتقليده وهذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضي كان حسنا وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحا كما جاء في كلام أبي العلاء بن سليمان المعري وهو قوله في رسالة كتبها إلى بعض إخوانه حرس الله سعادته ما أذعنت الياء للطاء وتلك سعادة بغير انتهاء وهذا من الفقه البارد لكن قد جاء في الشعر ما هو حسن فائق كقوله

ودون كم خفض الحياة فإنما • تصبو المطايا في الفلاة على القطع

والخفض والنصب من الإعراب النحوي والخفض رفاهية العيش والقطع من منصوبات النحو والقطع قطع الشيء يقال قطعته إذا أبنته (النوع التاسع والعشرون في التوشيح) وهو أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض وإذا أضاف إلى ذلك ما بني عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضا شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت

التوشيح

كالوشاح وكذلك يجري الامر في الفقرتين من الكلام المنثور فان كل فقرة
منهما تصاغ من صيغتين وهذا لا يكاد يستعمل الا قليلا وليس من الحسن في شيء
واستعماله في الشعر أحسن منه في الكلام المنثور فمن ذلك قول بعضهم

اسلم ودمت على الحوادث مارسا * ركنا ثبير أو هضاب حراء
ونل المراد ممكنا منه على * رغم الدهور وفز بطول بقاء

وهذا من الجيد الذي يأتي في هذا النوع الا أن أثر التكلف عليه باد ظاهر واذا
نظر الى هذين البيتين وجدا وهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر وذلك أن
يقال

اسلم ودمت على الحوا * دث مارسا ركنا ثبير
ونل المراد ممكنا * منه على رغم الدهور

وقد استعمل ذلك الحريري في مقاماته فمن قوله

يا خاطب الدنيا الدنية انها * شرك الردى وقرارة الاكدار
دار متى ما أضحكت في يومها * أبكت غدا بعدا لها من دار
واذا أظل سحابها لم ينتقع * منه صدى لجهامه الغرار

(واعلم) أن هذا النوع لا يستعمل الا استكراها عند تعاطي التمكن من صناعة النظم
وحسنه منوط بما فيه من الصناعة لا بما فيه من البراعة ألا ترى أنه لو نظم عليه
قصيد من أوله الى آخره يتضمن غزلا ومديحا على ما جرت به عادة القصائد أليس
أنه كان يجيء باردا غثا لا يسلم منه على محك النظر عشر والعشر كثير وما كان على
هذه الصورة من الكلام فانما يستعمل أحيانا على الطبع لا على التكلف وهو
وأمثاله لا يحسن الا اذا كان يسيرا كالرقم في الثوب أو الشية في الجلد (النوع
الثلاثون في السرقات الشعرية) ولربما اعترض معترض في هذا الموضع فقال
قد تقدم نثر الشعر في أول الكتاب وهو أخذ الناثر من الناظم ولا فرق بينه وبين
أخذ الناظم من الناظم فلم يكن الى ذكر السرقات الشعرية اذن حاجة ولو أنعم هذا
المعترض نظره لظهر له الفرق وعلم أن نثر الشعر لم يتعرض فيه الى وجوه المآخذ
وكيفية التوصل الى مداخل السرقات وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلا
(واعلم) أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك في أخذ المعاني اذ
لا يستغني الآخر عن الاستعارة من الاول لكن لا ينبغي لك أن تجعل في سبيل القط
على المعنى المسروق فتنادي على نفسك بالسرقة فكثيرا ما رأينا من يجعل في ذلك فعثر

وتعاطى فيه البديهة فقير والاصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والاختفاء
بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب وأظرف من عنقاء مغرب في الاغراب
وقد ذهب طائفة من العلماء الى أنه ليس لقائل أن يقول ان لاحد من المتأخرين
معنى مبتدعا فان قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية وأنه لم يبق معنى من
المعانى الا وقد طرق مرارا وهذا القول وان دخل في حيز الامكان الا أنه
لا يلتفت اليه لان الشعر من الامور المتناقلة والذى نقلته الاخبار وتواردت
عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الابيات فيما يعن لها من الحاجات
ولم يزل الحال على هذه الصورة الى عهد امرئ القيس وهو قبل الاسلام بمائة سنة
زائدة فلما قصد القصائد وهو أول من قصد ولو لم يكن له معنى اختص به سوى
أنه أول من قصد القصائد لكان في ذلك كفاية وأى فضيلة أكبر من هذه
الفضيلة ثم تتابع المقصدون واشتهر من القصائد السبع التى علقت على
البيت واتسع للشعراء هذا الباب في التقصيد وكثرت المعانى المقولة بسببه ولم
يزل الامر يتسع ويزيد ويونق بالمعانى الغريبة واستمر ذلك الى عهد الدولة العباسية
وما بعدها الى الدولة الحمدانية فعظم الشعر وكثرت أساليبه وتشعبت طرقه وكان
ختامه على الثلاثة المتأخرين وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد
ابن عبيد البحترى وأبو الطيب المتنبي فاذا قيل ان المعانى المبتدعة سبق اليها
ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته والصحيح أن باب الابتداع للمعانى
مفتوح الى يوم القيامة ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له
الا أن من المعانى ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لاول
قبل آخر لان الخواطر تأتى به من غير حاجة الى اتباع الآخر الاول كقولهم
في الغزل عفت الديار وما عفت * آثارهن من القلوب
وكقولهم ان الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وان الواشى لو علم بزار الطيف
لساءه وكقولهم في المديح ان عطاءه كالبحر وكالسحاب وانه لا يمنع عطاء اليوم
عطاء غد وانه يجود ابتداء من غير مسئلة وأشباه ذلك وكقولهم في المراثى
ان هذا الرزء أول حادث وانه استوى فيه الاباعد والاقارب وان الذاهب
لم يكن واحدا وانما كان قبيلة وان بعد هذا الذاهب لا يعتد للمنية ذنب وأشباه
ذلك وكذلك يجرى الامر في غير ما أشرت اليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر

عليها من غير كلفة وتستوى فى ايرادها ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم
السرقة من الاول وانما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص كقول أبى تمام

لا تنكروا ضربى له من دونه * مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

فان هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام وكان لابتداعه سبب والحكاية فيه
مشهورة وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التى مطلعها
ما فى وقوفك ساعة من باس * انتهى الى قوله

اقدام عمرو فى سماحة حاتم * فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

فقال الحكيم الكندى وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب
فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه اياه بعمرو وحاتم واياس
وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فانه
يكون سارقا له وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة وولديه

وأنت الشمس تبهر كل عين * فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يحيى * بضوئهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الاعادى * ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه * له يائى حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبى الطيب وهو الذى ابتدعه أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة
التصغير فانها زيادة نقص وما ينبغى أن يقال ان ابن الرومى ابتدع هذا المعنى
الذى هو

يشكى المحب وباقى الدهر شاكيه * كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

فان علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومى وليس كذلك ولكنه
مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم يلدغ ويصى ويضرب ذلك لمن يتعدى
بالاذى ثم يشكو وانما ابن الرومى قد ابتدع معانى أخر غير ما ذكرته وليس الغرض
أن يؤتى على جميع ما ابتدعه ولا غيره من المعانى المبتدعة بل الغرض أن يبين
المعنى المبتدع من غيره والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئا
من ألفاظ الاول فى معنى من المعانى ولو لفظة واحدة فان ذلك من أدل الدليل
على سرقته (واعلم) أن علماء البيان قد تكلموا فى السرقات الشعرية فأكثروا

وكنت ألفت فيه كتابا وقسمته ثلاثة أقسام نسخا وسلخا ومسخا أما النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب وأما السلخ فهو أخذ بعض المعنى مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ وأما المسخ فهو احالة المعنى الى مادونه مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قردة (وههنا قسمان آخران) أغفلت ذكرهما فى الكتاب الذى ألفته (فأحدهما) أخذ المعنى مع الزيادة عليه (والآخر) عكس المعنى الى ضده وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ وكل قسم من هذه الاقسام يتنوع ويتفرع وتتفرع به القسمة الى مسالك دقيقة وقد استوفيت مافاتنى من ذلك فى هذا الكتاب والله الموفق للصواب ومن المعلوم أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ الاشعار الكثيرة التى لا يحصرها عدد فمن رام الاخذ بنواصيها والاشتمال على قواصيها بأن يتصفح الاشعار تصفحا ويقتنع بتأملها ناظرا فانه لا يظفر منها الا بالحواشى والاطراف وكنت سافرت الى الشام فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ودخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط فى قصيدة له أولها * خذا من صبا نجد أمانا لقلبه * ويزعمون أنه من المعانى الغريبة وهو

أغار اذا آنست فى الحى أنة * حذارا عليه أن تكون لحبه

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبى فى قوله

لو قلت للدنف المشوق فديته * مما به لأغرته بفدائه

وقول أبى الطيب أدق معنى وان كان قول ابن الخياط أرق لفظا ثم انى وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبى وسافرت الى الديار المصرية فى سنة ست وتسعين فوجدت أهلها يلهجون ببيت من الشعر يعزونه الى شاعر من أهل اليمن يقال له عمارة وكان حديث عهد بزماننا هذا فى آخر الدولة العلوية بمصر وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن وهو

فهل درى البيت أنى بعد فرقته * ما سرت من حرم الا الى حرم

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من شعر أبى تمام فى قوله مادحا لبعض الخلفاء فى حجة حجها وذلك بيت من جملة أبيات حسنة

يا من رأى سرما يسرى إلى حرم * طوبى لمستلم يأتى وملتزم

نزوات فى نفسى يا قلة الصبر ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين درست
أشعارهم ولا هما ممن لم يعرف ولا اشتهر أمره بل هما كما يقال أشهر من الشمس
والقمر وشعرهما دائر فى أيدى الناس بخلاف غيرهما فكيف خفى على أهل مصر
ودمشق مثل ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما وعلمت حينئذ أن سبب
ذلك عدم الحفظ للأشعار والاقتناع بالنظر فى دواوينهما وأنا أنصبت نفسى
للخوض فى علم البيان ورمت أن أكون معدودا من علمائه علمت أن هذه الدرجة
لا تنال إلا بنقل ما فى الكتب إلى الصدور والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور

ليس بعلم ما حوى القمطر * ما العلم إلا ما حواه الصدر

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع وأنفدت شطرا من العمر فى المحفوظ
منه والمسموع فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله وكيف ينتهى إلى إحصاء قول
لم تحص أسماء قائله فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب
مقاصده ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر
القديم إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل
واللطيف فمتى وجدت ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل وقد اكتفيت فى هذا بشعر
أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد وأبى الطيب المتنبى وهؤلاء الثلاثة
هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته
وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال
السائرة وحكمة الحكماء أما أبو تمام فإنه رب معان وصيقل ألباب وأذهان
وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر فهو غير مدافع عن مقام الإغراب
الذى برز فيه على الأضراب ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ولم أقل
ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه
وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام وكان قوله فى البلاغة
ما قالت حذام فخذ منى فى ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذى علم عليم وأما
أبو عبادة البحترى فإنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى
ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق فبينا يكون فى شظف نجد إذ
تشبث بريف العراق وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه

فقال

فقال أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري وأنا أرى انه أنصف في حكمه
وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه فان أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من
الصخرة الصماء في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بذلك بعد المرام مع
قربه الى الافهام وما أقول الا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية ورقى في ديباجة
لفظه الى الدرجة العالية وأما أبو الطيب المتنبي فانه أراد أن يسلك مسلك أبي
تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه لكنه حظي في شعره
بالحكم والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولا
لست فيه متأثما ولا منه متلثما وذلك أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه
أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها
حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقه في ذلك تضل
بسالكه وتقوم بعذر تاركه ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة
ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى اليه عيانه ومع هذا فاني رأيت الناس عادلين
فيه عن سنن التوسط فاما مفرط في وصفه واما مفرط وهو وان انفرد بطريق
صار أبا عذره فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره وعلى الحقيقة فانه خاتم
الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء ولقد صدق في قوله
من أبيات يمدح بها سيف الدولة

لا تطلبن كريما بعد رؤيته ۞ ان الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره ۞ قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى وعين المعرفة التي ما ضل
صاحبها وما غوى وجدته أقساما خمسة خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره
وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره وخمس من متوسط الشعر وخمس
دون ذلك وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها
ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها فانها هي التي ألبسته لباس الملام
وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام ولسائل ههنا أن يسأل ويقول لم عدلت
الى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم فأقول اني لم أعدل اليهم اتفاقا وانما عدلت
اليهم نظرا واجتهادا وذلك أني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى
لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك الا وعرضته على نظري فلم أجد

أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد ولم أجد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبي عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا فاخترت حينئذ دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ ولما حفظتها ألغيت ما سواها مع ما بقي على خاطري من غيرها (وقد أوردت) في هذا الموضع من السرقات الشعرية ما لم يورده غيري ونبهت على غوامض منها وكنت قدمت القول أني قسمتها إلى خمسة أقسام منها الثلاثة الأول وهي النسخ والسلخ والمسخ ومنها القسمان الآخران وها أنا أبين ما ينقسم إليه هذه الأقسام من تشعبها وتفريعها فأقول (أما النسخ) فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعا أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب وعلى ذلك فإنه ضربان (الأول) يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس

وقوفا بها صحبي علي مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وكقول طرفة وقوفا بها صحبي علي مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا في شعرهما (فمنه) ما ورد فيه مورد امرئ القيس وطرفة في مخالفتهما في لفظة واحدة كقول الفرزدق

أتعدل أحسابا لئاما حماتها * بأحسابنا إني إلى الله راجع

وكقول جرير

أتعدل أحسابا كراما حماتها * بأحسابكم إني إلى الله راجع

(ومنه) ما تساويا فيه لفظا بلفظ كقول الفرزدق

وغر قد وسقت مشمرات * طوالع لا تطيق لها جوابا

بكل ثنية وبكل ثغر * غرائبهن تنتسب انتسابا

بلغن الشمس حين تكون شرقا * ومسقط رأسها من حيث غابا

وكذلك قال جرير من غير أن يزيد وقد حكي أن امرأة من عقيل يقال لها ليلى كان يتحدث إليها الشباب فدخل الفرزدق إليها وجعل يحادثها وأقبل فتى من قومها كانت تألفه فدخل إليها فأقبلت عليه وتركت الفرزدق فغاظه ذلك فقال للفتى أتصارعني فقال ذلك إليك فقام إليه فلم يلبث أن أخذه الفرزدق فصرعه وجلس على صدره فضرط فوثب الفتى عنه وقال يا أبا فراس هذا مقام

العائذ بك والله ما أردت ما جرى فقال ويحك والله ما بي أنك سرقت ولكن
كأني بابن الاتان يعني جريرا وقد بلغه شعري فقال يهجوني

جلست الى ابلي لتهتدي بقربها • فخانك دبر لا يزال يخون
فلو كنت ذا حزم شددت وكاءه • كما شد جربان الدلاص قيون

قال فوالله ما مضى الا أيام حتى بلغ جريرا الخبر فقال فيه هذين البيتين وهذا من
أقرب ما يكون في مثل هذا الموضع وأعجبه ويقال ان الفرزدق وجريرا كانا
ينطقان في بعض الاحوال عن ضمير واحد وهذا عندي مستبعد فان ظاهر
الامر يدل على خلافه والباطن لا يعلمه الا الله تعالى والا فاذا رأينا شاعرا متقدم
الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده علمنا بشهادة الحال أنه
أخذه منه وهب أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة فكيف
تتفق الالسنة أيضا في صوغها الالفاظ (ومما كنت أستحسنه) من شعر أبي
نواس قوله من قصيدته التي أولها دع عنك لومي فان اللوم اغراء

دارت على فتية ذل الزمان لهم • فما يصيبهم الا بما شاؤا

وهذا من عالي الشعر ثم وقفت في كتاب الاغاني لابي الفرج على هذا البيت
في أصوات معبد وهو

لهفي على فتية ذل الزمان لهم • فما أصابهم الا بما شاؤا

وما أعلم كيف هذا (الضرب الثاني من النسخ) وهو الذي يؤخذ فيه المعنى وأكثر
اللفظ كقول بعض المتقدمين يمدح معبدا صاحب الغناء

أجاد طويس والسريجي بعده • وما قصبات السبق الا لمعبد

ثم قال أبو تمام

محاسن أصناف المغنين جمة • وما قصبات السبق الا لمعبد

وهذه قصيدة أولها • غدت تستجير الدمع خوف نوى غد • وقال

وقائع أصل النصر فيها وفرعه • اذا عدد الاحسان أو لم يعدد
فمهما تكن من وقعة بعد لا تكن • سوى حسن مما فعلت مردد

محاسن أصناف المغنين جمة • البيت (وأما السلخ) فانه ينقسم الى اثني عشر ضربا
وهذا تقسيم أوجبته القسمة واذا تأملته علمت أنه لم يبق شئ خارج عنه (فالاول)
أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو اياه وهذا

من أدق السرقات مذهبا وأحسنها صورة ولا يأتي الا قليلا (فمن ذلك) قول بعض شعراء الحماسة

لقد زادني حبا لنفسي أنني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره الا أنه شبيه به فقال

واذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني فاضل

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذلك المعنى عسر غامض وهو غير متبين الا لمن أعرق في ممارسة الاشعار وغاص في استخراج المعاني وبيانه أن الاول يقول ان بغض الذي هو غير طائل اياي مما زاد نفسي حبا الي أي جملها في عيني وحسنها عندي كون الذي هو غير طائل مبغضي والمتنبي يقول ان ذم الناقص اياي شاهد بفضلي فذم الناقص اياه كبغض الذي هو غير طائل ذلك الرجل وشهادة ذم الناقص اياه بفضله كتحسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك الرجل عنده (ومن هذا الضرب) ما هو أظهر مما ذكرته وأبين كقول أبي تمام

وعته القنا بعدما كان حقبة * رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

أخذ البحتري هذا المعنى واستخرج منه ما يشابهه كقوله في قصيدة يفخر فيها بقومه

شيخان قد ثقل السلاح عليهما * وعداهما رأي السميع المبصر

ركبا القنا من بعدما حملا القنا * في عسكر متحامل في عسكر

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الارض ثم سار فيها فرعته أي أهزلته فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها والبحتري نقل هذا الى وصف الرجل بعلو السن والهرم فقال انه كان يحمل الرمح في القتال ثم صار يركب عليه أي يتوكأ منه على عصا كما يفعل الشيخ الكبير وكذلك ورد قول الرجلين أيضا فقال أبو تمام

لا أظلم النأي قد كانت خلائقها * من قبل وشك النوى عندي نوى قذفا

أخذه البحتري فقال

أعاتك ما كان الشباب مقربي * اليك فألحى الشيب اذ هو مبعدي

وهذا أوضح من الذي تقدمه وأكثر بيانا (الضرب الثاني من السلخ) أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد يأتي الا قليلا (فمنه) قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا * من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال رغيبة • ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة • تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائماً مقام الانتصار وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف وهذا الضرب فى سرقات المعانى من أشكلها وأدقها وأغربها وأبعدها مذهباً ولا يتفطن له ويستخرجه من الأشعار إلا بعض الخواطر دون بعض وقد يجىء منه ما هو ظاهر لا يبلغ فى الدقة مبلغ هذه الأبيات المشار إليها كقول ابن المقفع فى باب الرثاء من كتاب الحماسة

فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا • أمنا على كل الرزايا من الجزع

وجاء بعده من أخذ هذا المعنى فقال

وقد عزى ربيعة أن يوماً • عليها مثل يومك لا يعود

وهذا من البديع النادر وههنا ما هو أشد ظهوراً من هذين البيتين فى هذا الضرب من السرقات الشعرية وذلك يأتى فى الألفاظ المترادفة التى يقوم بعضها مقام بعض وذلك لا اعتداد به لإمكانه ووضوحه لكن قد يجىء منه ما هو صفة من صفات الترادف لا الاسم نفسه فيكون حسناً كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحاهم • سواء ذو العمامة والخمار

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى فقال

ومن فى كفه منهم قناة • كمن فى كفه منهم خضاب

(الضرب الثالث من السلخ) وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق فمن ذلك قول البحترى فى غلام

فوق ضعف الصغير إن وكل الأمـ • ـر إليه ودون كيد الكبار

سبقه أبو نواس فقال

لم يخف من كبير ما يراد به • من الأمور ولا أزرى من الصغر

وكذلك قوله أيضاً

كل عيد له انقضاء وكل • كل يوم من جوده فى عيد

أخذه من على بن جبلة

للعيد يوم من الايام منتظر • والناس في كل يوم منك في عيد

وكذلك قوله جاد حتى أفنى السؤال فلما • باد منا السؤال جاد ابتداء

أخذه من علي بن جبلة

أعطيت حتى لم تدع لسائلا • وبدأت اذ قطع العفاة سؤالها

وقد افتضح البحتري في هذا المأخذ غاية الافتضاح هذا على بسطة باعه في الشعر وغناه عن مثلها (وقد سلك هذه الطريق فحول الشعراء) ولم يستنكفوا من سلوكها فمن فعل ذلك أبو تمام فانه قال

قد قلصت شفتاه من حفيظته • فخيل من شدة التعبيس مبتسما

سبقه عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن فقال

واذا شئت أن ترى الموت في صو • رة ليث في لبدتي رئبال

فالقه غير أنما لبدتاه • أبيض صارم وأسمر عسال

تلق ليثا قد قلصت شفتاه • فترى ضاحكا لعبس الصيال

وكذلك قال أبو تمام

فلم أمدحك تفخيما بشعري • ولكني مدحت بك المديحا

أخذه من حسان بن ثابت في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال

ما ان مدحت محمدا بمقالتي • لكن مدحت مقالتي بمحمد

ولا شك أن أبا بكر رضي الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضي الله عنه فقال له عمر استخلف غيري فقال أبو بكر رضي الله عنه ما حبوناك بها وانما حبوناها بك وهكذا فعل ابن الرومي فيما جاء له قوله

جرحته العيون فاقتص منها • بجوى في القلوب دامي الندوب

سبقه أبو تمام فقال

ادميت باللحظات وجنته • فاقتص ناظره من القلب

وكذلك قول ابن الرومي

وكلت مجدك في اقتضائك حاجتي • وكفى به متقاضيا ووكيلا

سبقه أبو تمام فقال

واذا المجد كان عوني على المر • ء تقاضيته بترك التقاضي

وكذلك قال ابن الرومي

أنزر من بيت منها وهو

ما ناب عنكم من الاقدام أكرمه * في الروع اذ غابت الانصار والشيع

وليس في السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة فانه لم يكتف الشاعر فيها بأن
يسرق المعنى حتى نادى على نفسه أنه قد سرقه (الضرب الرابع من السلخ)
وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة
من ذلك قول أبي نواس

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم * أشهى المطي الي ما لم يركب

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة * لبست وحبة لؤلؤ لم تثقب

فقال مسلم بن الوليد في عكس ذلك

ان المطية لا يلذ ركوبها * حتى تذلل بالزمام وتركبا

والحب ليس بنافع أربابه * حتى يفصل في النظام ويثقبا

ومن هذا الباب قول ابن جعفر

ولما بدا لي أنها لا تريدني * وأن هواها ليس عني بمنجلي

تمنيت أن تهوى سواي لعلها * تذوق صبابات الهوى فترق لي

وقال غيره ولقد سرني صدودك عني * في طلابيك وامتناعك مني

حذرا أن أكون مفتاح غيري * واذا ما خلوت كنت التمني

أما ابن جعفر فانه تأدب وألقى عن منكبه رداء الغيرة وأما الآخر فجاء بالضد
من ذلك وتغالى به غاية الغلو وكذلك ورد قول أبي الشيص

أجد الملامة في هواك لذيذة * شغفا بذكرك فليلمني اللوم

أخذ أبو الطيب المتنبي هذا المعنى وعكسه فقال

أأحبه وأحب فيه ملامة * ان الملامة فيه من أعدائه

وهذا من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة
وقد توشحت في شيء من شعري بجانب من ذلك قولي

لولا الكرام وما سنوه من كرم * لم يدر قائل شعر كيف يمتدح

أخذته من قول أبي تمام

ولولا خلال سنها الشعر ما درى * بناة العلى من أين تؤتى المكارم

(الضرب الخامس من السلخ) وهو أن يؤخذ بعض المعنى فمن ذلك قول أمية

ابن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان

عطاؤك زين لامرئ ان حبوته • ببذل وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرئ بذل وجهه • اليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال

تدعى عطاياه وفرا وهي ان شهرت • كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا

ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا • حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

فأمية بن أبي الصلت أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاءه غير شين وأما أبو تمام فانه أتى بالمعنى الاول لا غير (ومن هذا الضرب) قول علي بن جبلة

وآتى ما لم يحوه متقدم • وان نال منه آخر فهو تابع

فقال أبو الطيب المتنبي

ترفع عن عون المكارم قدره • فما يفعل الفعلات الا عذاريا

فعلي بن جبلة اشتمل ما قاله على معنيين أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدمه وان نال منه الآخر شيأ فانما هو مقتد به وتابع له وأما أبو الطيب المتنبي فانه لم يأت الا بالمعنى الواحد وهو أنه يفعل ما لا يفعله غيره غير أنه أبرزه في صورة حسنة ومن ذلك قول أبي تمام

كأن برب المجد يعلم أنه • لم يبتدأ عرف اذا لم يتمم

فقال البحتري

ومثلك ان أبدى الفعال أعاده • وان صنع المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال ان الممدوح يرب صنيعه أي يستديمه ويعلم أنه اذا لم يستدمه فما ابتدأ. والبحتري قال انه يستديم صنيعه لا غير وذلك بعض ما ذكره أبو تمام وكذلك قال البحتري

ادفع بأمثال أبي غالب • عادية العدم أو استعفف

أخذه عن تقدمه حيث قال

انج الفضل أو تخل عن الدنيا فهاتان غاية الهمم

فالبحتري أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه وكذلك ورد قول ابن الرومي

نزلتم على حام المعالي اذا ارتقى • اليها أناس غيركم بالسلالم

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

فوق السماء وفوق ما طلبوا • فاذا أرادوا غاية نزلوا

وهذا بعض المعنى الذى تضمنه قول ابن الرومى لانه قال انكم نزلتم على هام المعالى وان غيركم يرقى اليها رقيا وأما المتنبى فانه قال انكم اذا أردتم غاية نزلتم وأما قوله فوق السماء فانه يغنى عنه قول ابن الرومى نزلتم على هام المعالى اذ المعالى فوق كل شئ لانها مختصة بالعلو مطلقا (الضرب السادس من السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر فمما جاء منه قول الاخنس ابن شهاب

اذا قصرت أسيافنا كان وصلها • خطانا الى أعدائنا فنضارب

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه وهو قوله

ان قصر الرمح لم يمش الخطا عددا • أو عرّد السيف لم يهمم بتعريد

وكذلك ورد قول جرير فى وصف أبيات من شعره

غرائب آلاف اذا حان وردها • أخذن طريقا للقصائد معلما

أخذه أبو تمام فزاد عليه اذ قال فى وصف قصيدة وقرن ذلك بالممدوح

غرائب لاقت فى فنائك أنسها • من المجد فهى الآن غير غرائب

وكذلك ورد قول ولد مسلمة بن عبد الملك

أذل الحياة وكره الممات • وكلا أراه طعاما وبيلا

فان لم يكن غير احداهما • فسيرا الى الموت سيرا جميلا

أخذه أبو تمام فقال

مثل الموت بين عينيه والذل وكلا رآه خطبا عظيما

ثم سارت به الحمية قدما • فأمات العدا ومات كريما

فزاد عليه بقوله • فأمات العدا ومات كريما • ويروى أنه نظر عبد الله بن على رضى الله عنه عند قتال المروانية الى فتى عليه أبهة الشرف وهو يبلى فى القتال بلاء حسنا فناداه يا فتى لك الامان ولو كنت مروان بن محمد فقال الا أكنه فلست بدونه قال فلك الامان ولو كنت من كنت فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين وكذلك ورد قول أبى تمام

يصدّ عن الدنيا اذا عنّ سودد • ولو برزت فى زىّ عذراء ناهد

أخذه من قول المعذل بن غيلان

ولست بنظار الى جانب العلا • اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

الا أنه زاد زيادة حسنة بقوله • ولو برزت فى زى عذراء ناهد • ومما يجرى هذا المجرى قول البحترى   خل عنا فانما أنت فينا • واو عمرو أو كالحديث المعاد

أخذه من قول أبى نواس

قل لمن يدعى سليما سفاها • لست منها ولا قلامة ظفر

انما أنت ملصق مثل واو • ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

الا أن البحترى زاد على أبى نواس فى قوله أو كالحديث المعاد وكذا ورد قول البحترى أيضا

ركبوا الفرات الى الفرات وأملوا • جذلان يبدع فى السماح ويغرب

أخذه من مسلم بن الوليد فى قوله

ركبت اليه البحر فى موج نائله • فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر

الا أن البحترى زاد عليه بقوله جذلان يبدع فى السماح ويغرب وكذلك ورد قول أبى نواس   وليس لله بمستنكر • أن يجمع العالم فى واحد

وهذا البيت قد لهج به الناس لهجا كثيرا ومنهم من ظنه مبتدعا لأبى نواس ويحكى عن أبى تمام أنه دخل على ابن أبى دواد فقال له أحسبك عاتبا يا أبا تمام فقال انما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا فقال من أين هذه يا أبا تمام قال من قول الحاذق أبى نواس وأنشده البيت وهذه الحكاية عندى موضوعة لان أبا تمام كان عارفا بالشعر حتى انه قال لم أنظم شعرا حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال وما كان يخفى عنه أن هذا المعنى ليس لأبى نواس وانما هو مأخوذ من قول جرير

اذا غضبت عليك بنو تميم • حسبت الناس كلهم غضابا

الا أن أبا نواس زاده زيادة حسنة وذاك أن جريرا جعل الناس كلهم بنى تميم وأبا نواس جعل العالم كله فى واحد وذلك أبلغ • ومما نظم فى هذا السلك قول الفرزدق   علام تلفتين وأنت تحتى • وخير الناس كلهم أمامى

متى تأتى الرصافة تستريحى • من الانساع والدبر الدوامى

أخذه أبو نواس فسار أملك به وأحسن فيه غاية الاحسان فقال

واذا المطى بنا بلغن محمدا • فظهورهن على الرجال حرام

فالفرزدق قال تبرئهن من الانساع والدبر الدوامي وليست استراحتها إعفاء
من معاودة أتعابها مرة أخرى وأما أبو نواس فانه حرم ظهورهن على الرجال
أى أنها تعفى من السفر اعفاء مستمرا ولا شك أن أبا نواس لم ينتبه لهذه الزيادة
الا من فعل العرب فى السائبة والبحيرة وعلى هذا الاسلوب ورد قول المتنبى

وملمومة زرد ثوبها * ولكنه بالقنا مخمل

أخذه من أبى نواس فى قوله

أمام خميس أرجوان كأنه * قميص محوك من قنا وجياد

فزاد أبو الطيب زيادة صار بها أحق من أبى نواس بهذا المعنى وكذلك قال
أبو الطيب المتنبى

وان جاد قبلك قوم مضوا * فانك فى الكرم الاول

وأخذته أنا وزدت عليه فقلت

أنت فى الجود أول وقضى الله بأن لا يرى لك الدهر ثانى

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة الى غيره (الضرب السابع من
السلخ) وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى وهذا هو
المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة فمن ذلك قول أبى تمام

جذلان من ظفر حران ان رجعت * مخضوبة منكم أظفاره بدم

أخذه البحترى فقال

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها * تذكرت القربى ففاضت دموعها

ومن هذا الاسلوب قولهما أيضا فقال أبو تمام

ان الكرام كثير فى البلاد وان * قلوا كما غيرهم قل وان كثروا

وقال البحترى قل الكرام فصار يكثر فذهم * ولقد يقل الشئ حتى يكثر
وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس

يدل على ما فى الضمير من الفتى * تقلب عينيه الى شخص من يهوى

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال

واذا خامر الهوى قلب صب * فعليه لكل عين دليل

ومما ينتظم فى هذا السلك قول أبى الطيب المتنبى

اذا ما ازددت من بعد التناهى * فقد وقع انتقاصى فى ازدياد

أخذه ابن نباتة السعدي فقال

إذا كان نقصان الفتى من تمامه * فكل صحيح في الأنام عليل

وكذلك ورد قول أبي العلاء بن سليمان في مرثية

وما كلفة البدر المنير قديمة * ولكنه في وجهه أثر اللطم

أخذه الشاعر المعروف بالقيسراني فقال

وأهوى التي أهوى لها البدر ساجدا * ألست ترى في وجهه أثر الترب

وكذلك قول ابن الرومي

إذا شنئت عين امرئ شيب نفسه * فعين سواه بالشناءة أجدر

أخذه من تأخر زمانه عنه فقال

إذا كان شيء بغيضا إلي * فكيف يكون إليها حبيبا

ومما ينخرط في هذا السلك قول بعضهم

مخصرة الأوساط زانت عقودها * بأحسن مما زينتها عقودها

أخذه أبو تمام فقال

كأن عليها كل عقد ملاحة * وحسنا وإن أضحت وأمست بلا عقد

ثم أخذه البحتري فقال

إذا أطفأ الياقوت إشراق وجهها * فإن عناء ما توخت عقودها

وأمثال هذا كثيرة وفيما أوردناه مقنع (الضرب الثامن من السلخ) وهو أن
يؤخذ المعنى ويسبك سبكا أوجز وذلك من أحسن السرقات لما فيه من الدلالة
على بسطة الناظم في القول وسعة باعه في البلاغة فمن ذلك قول بشار

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه سلم الخاسر وكان تلميذه فقال

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

فبين البيتين [illegible] في التأليف ومن هذا الأسلوب قول أبي تمام

برزت في طلب المعالي واحدا * فيها تسير مغورا ومنجدا

عجبا بأنك سالم في وحشة * في غاية ما زلت فيها مفردا

أخذه ابن الرومي فقال

غربته الخلائق الزهر في النا * س وما أوحشته بالتغريب

وكذلك ورد قول أبي نواس

وكأن بالدهر عينا غير غافلة * من جود كفك تأسو كل ما جرحا

أخذه ابن الرومي فقال

الدهر يفسد ما استطاع وأحمد * يتتبع الافساد بالاصلاح

وعلى هذا ورد قول ابن الرومي

كأني أستدني بك ابن حنية * اذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

أخذه بعض شعراء الشأم وهو ابن قسيم الحموي فقال

فهو كالسهم كلما زدته منـك دنوا بالنزع زادك بعدا

ولقيت جماعة من الادباء بالشام وجدتهم يزعمون أن ابن قسيم هو الذي ابتدع هذا المعنى وليس كذلك وانما هو لابن الرومي وهما يجري هذا المجرى قول أبي العتاهية وانى لمعذور على فرط حبها * لان لها وجها يدل على عذري

أخذه أبو تمام فقال

له وجه اذا أبصر * ته ناجاك عن عذري

فأوجز في هذا المعنى غاية الايجاز ومما يجري على هذا النهج قول أبي تمام

كانت مساءلة الركبان تخبرني * عن أحمد بن سعيد أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت * أذني بأحسن مما قد رأى بصري

أخذه أبو الطيب المتنبي فأوجز حيث قال

وأستكبر الاخبار قبل لقائه * فلما التقينا صغر الخبر الخبر

وكذلك قولهما في موضع آخر فقال أبو تمام

كم صارما عضبا أناف على قفا * منهم لأعباء الوغى حمال

سبق المشيب اليه حتى ابتزه * وطن النهى من مفرق وقذال

أخذه أبو الطيب فزاد وأحسن حيث قال

يسابق القتل فيهم كل حادثة * فما يصيبهم موت ولا هرم

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء

أمن خوف فقر تعجلته * وأخرت انفاق ما تجمع

فصرت الفقير وأنت الغنى * وما كنت تعدو الذي تصنع

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

قوله كم صارما الخ في الديوان كم صارم عضب أناف على فتى منهم لأعباء الوغى حمال

ومن ينفق الساعات في جمع ماله • مخافة فقر فالذي فعل الفقر

(الضرب التاسع من السلخ) وهو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا أو خاصا فيجعل عاما وهو من السرقات التي يسامح صاحبها فمن ذلك قول الأخطل

لا تنه عن خلق وتأتي مثله • عار عليك إذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال

أألوم من بخلت يداه وأغتدي • للبخل تربا ساء ذاك صنيعا

وهذا من العام الذي جعل خاصا ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقا وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا في بابه وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الأخلاق وأما جعل الخاص عاما فكقول أبي تمام ولو حاردت شول عذرت لقاحها • ولكن منعت الدر والضرع حافل

أخذه أبو الطيب المتنبي فجعله عاما فقال

وما يؤلم الحرمان من كف حارم • كما يؤلم الحرمان من كف رازق

(الضرب العاشر من السلخ) وهو زيادة البيان مع المساواة في المعنى وذلك أن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه فمما جاء منه قول أبي تمام

هو الصنع إن يعجل فخير وإن يرث • فللريث في بعض المواطن أسرع

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له وذلك قوله

ومن الخير بطء سيبك عني • أسرع السحب في المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق وما أحسن ما أتى بهذا المعنى في المثال المناسب له وكذلك قولهما في موضع آخر فقال أبو تمام

قد قلصت شفتاه من حفيظته • فخيل من شدة التعبيس مبتسما

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال

وجاهل مده في جهله ضحكي • حتى أتته يد فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة • فلا تظنن أن الليث مبتسم

ومما ينخرط في هذا السلك قول أبي تمام

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل • حتى يجاورها الزمان بحال

أخذه أبو عبادة البحتري فقال

وقد زادها إفراط حسن جوارها • لأخلاق أصفار من المجد خيب

قوله وما يؤلم مع قوله كما يؤلم في الديوان يوجع بدلهما اه

تغدو المنايا هدىً في سلبه • وتنصرو بين الفوارس والرجل

وهذا أشرف من بيتي أبي تمام اللذين هما

لا غرو ان فننان من عيدانه • لقيا حماما للبرية آكلا

ان الاشاء اذا أصاب مشذب • منه اتمهل ذرا وأث أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب

ألست من القوم الذي من رماحهم • نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل

تسليهم علياؤهم عن مصابهم • ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من بيتي أبي تمام اللذين هما

شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ • أو أن تذكر ناسيا أو غافلا

الا مواعظ قادها لك سمحة • اسجاح لبك سامعا أو قائلا

(واعلم) أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطبا من التفضيل بين المعنيين
المتضادين وقد ذهب قوم الى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين واحتجوا على ذلك
بأن قالوا المفاضلة بين الكلامين لا تكون الا باشتراكهما في المعنى فان اعتبار
التأليف في نظم الالفاظ لا يكون الا باعتبار المعاني المندرجة تحتها فاذا لم يكن
بين الكلامين اشتراك في المعنى حتى يعلم مواقع النظم في قوة ذلك المعنى أو ضعفه
واتساق ذلك اللفظ أو اضطرابه والا فكل كلام له تأليف يخصه بحسب المعنى
المندرج تحته وهذا مثل قولنا العسل أحلى من الخل فانه ليس في الخل حلاوة
حتى نقيس حلاوة العسل عليها وهذا القول فاسد فانه لو كان ما ذهب اليه هؤلاء
من منع المفاضلة حقا لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه
وقبيحه وهذا محال وانما خفي عليهم ذلك لانهم لم ينظروا الى الاصل الذي تقع
المفاضلة فيه سواء اتفقت المعاني أو اختلفت ومن ههنا وقع لهم الغلط وبيان
ذلك فاقول من المعلوم أن الكلام لا يختص بجزئية من الحسن حتى تتصف ألفاظه
ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة فثبت بهذا أن النظر انما هو في هذين
الوصفين اللذين هما الاصل في المفاضلة بين الالفاظ والمعاني على اتفاقهما
واختلافهما فمتى وجدا في أحد الكلامين دون الآخر أو كانا أخص به
من الآخر حكم له بالفضل (وقرأت في كتاب الاغاني) لابي الفرج في تفضيل
الشعراء أشياء تتضمن خبطا كثيرا وهو مروي عن علماء العربية لكن عذرتهم

في ذلك فان معرفة الفصاحة والبلاغة شيء خلاف معرفة النحو والاعراب (فمما
وقفت عليه) انه سئل ابو عمرو بن العلاء عن الاخطل فقال لو ادرك يوما واحدا
من الجاهلية ما قدمت عليه احدا وهذا تفضيل بالاعصار لا بالاشعار وفيه ما فيه
ولو ان ابا عمرو عندي بالمكان الذي تبسط لساني في هذا الموضع (وسئل جرير)
عن نفسه وعن الفرزدق والاخطل فقال اما الفرزدق ففي يده نبعة من الشعر
وهو قابض عليها واما الاخطل فاشدنا اجتراء وارمانا للفرائص واما انا فمدينة
الشعر وهذا القول في التفضيل قول اقناعي لا يحصل منه على تحقيق لكنه اقرب
حالا مما روى عن ابي عمرو بن العلاء (وسئل الاخطل) عن اشعر الناس فقال الذي
اذا مدح رفع واذا هجا وضع فقيل فمن ذلك قال الاعشى قيل ثم من قال طرفة
وهذا قول فيه بعض التحقيق اذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان اشعر
الناس لان المعاني الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها (وسئل الشريف الرضي)
عن ابي تمام وعن البحتري وعن ابي الطيب فقال اما ابو تمام فخطيب منبر واما
البحتري فواصف جؤذر واما المتنبي فقائل عسكر وهذا كلام حسن واقع في
موقعه فانه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفصيل (ويروى عن بشار) انه وصف
نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره فقيل له ولم ذاك فقال لاني نظمت اثني عشر
الف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد فيكون لي حينئذ اثنا عشر
الف بيت وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له لان باقلا الذي يضرب
به المثل في العي لو نظم قصيدا لما خلا من بيت واحد جيد ومن الذي ينظم قصيدا
واحدا من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد لكن كان الاولى ببشار ان قال لي
اثنا عشر الف قصيدة ليس واحدة منهن الا وجيدها اكثر من رديئها وليس
في واحدة منهن ما يسقط فانه لو قال ذلك وكان محقا لاستحق التقدم على الشعراء
ومع هذا فقد وصل الي ما في ايدي الناس من شعره مقصدا ومقطعا فما وجدته
تلك الغاية التي ادعاها لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة الى رديئه وتندر له الابيات
اليسيرة (وبلغني) عن الاصمعي وابي عبيد وغيرهما انهم قالوا هو اشعر الشعراء
المحدثين قاطبة وهم عندي معذورون لانهم ما وقفوا على معاني ابي تمام ولا على
معاني ابي الطيب ولا وقفوا على ديباجة ابي عبادة البحتري وهذا الموضع
لا يستفتى فيه علماء العربية وانما يستفتى فيه كاتب بليغ او شاعر مفلق فان اهل

كل علم أعلم به وكما لا يسأل الفقيه عن مسئلة حسابية فكذلك لا يسأل الحاسب
عن مسئلة فقهية وكما لا يسأل أيضا النحوى عن مسئلة طبية فكذلك لا يسأل
الطبيب عن مسئلة نحوية ولا يعلم كل علم الا صاحبه الذى قلب ظهره لبطنه
وبطنه لظهره على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب الى الناس قاطبة
وما من أحد الا ويحب أن يتكلم فيه حتى انى رأيت أجلاف العامة ممن لم يخط
بيده ورأيت أغتام الاجناس ممن لا ينطق بالكلمة صحيحة كلهم يخوض فى فن
الكتابة والشعر ويأتون فيه بكل مضحكة وهم يظنون أنهم عالمون به ولا لوم عليهم
فانه بلغنى عن ابن الاعرابى وكان من مشاهير العلماء أنه عرض عليه أرجوزة أبى
تمام اللامية التى مطلعها * وعاذل عذلته فى عذله * وقيل له هذه لفلان من شعراء
العرب فاستحسنها غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الخسروانى ثم استكتبها
فلما أنهاها قيل له هذه لابى تمام فقال من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ثم ألقى
الورقة من يده وقال يا غلام خرق خرق فاذا كان ابن الاعرابى مع علمه وفضله
لا يدرى أى طرفيه أطول فى هذا الفن ولا يعلم أين يضع يده فيه ويبلغ به الجهل الى
أن يقف مع التقليد الشنيع الذى هذا غايته فما الذى يقول غيره وما الذى يتكلم
فيه سواه (والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء) أن الفرزدق وجريرا والاخطل
أشعر العرب أولا وآخرا ومن وقف على الاشعار ووقف على دواوين هؤلاء
الثلاثة علم ما أشرت اليه ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرئ القيس وزهير
والنابغة والاعشى فان كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به حتى قيل فى
وصفهم امرؤ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب والاعشى اذا
شرب وأما الفرزدق وجرير والاخطل فانهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى
المختلفة وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام وأبو عبادة البحترى
وأبو الطيب المتنبى فان هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء أما أبو
تمام وأبو الطيب فربا المعانى وأما أبو عبادة فرب الالفاظ فى ديباجتها وسبكها
(وبلغنى) أن أبا عبادة البحترى سأل والده أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما
أشعر فقال جرير أشعر قال ولم ذلك قال لان حوكه شبيه بحوكك قال ثكلتك أمك
أوفى الحكم عصبية قال يا أبت نحن أشعر قال الفرزدق قال ولم ذاك قال لان
أهاجى جرير كلها تدور على أربعة أشياء هى القين والزنا وضرب الرومى بالسيف

والنفى

والنفي من المسجد ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك وأما الفرزدق فانه يهجو جريرا
بأشياء مختلفة ففي كل قصيدة يرميه بسهام غير السهام التي يرميه بها في القصيدة
الاخرى وأنا أستكذب راوي هذه الحكاية ولا أصدقه فان البحتري عندي ألبّ
من ذلك وهو عارف بأسرار الكلام خبير بأوساطه وأطرافه وجيده ورديئه
وكيف يدعي على جرير أنه لم يهج الفرزدق الا بتلك المعاني الاربعة التي ذكرها
وهو القائل

لما وضعت على الفرزدق ميسمي * وعلى البعيث جدعت أنف الاخطل

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد (ولقد تأملت كتاب النقائض)
فوجدت جريرا أرب تغزل ومديح وهجاء وافتخار وقد حكى كل معنى من هذه
المعاني ألفاظا لائقة به ويكفيه من ذلك قوله

وعاو عوى من غير شيء رميته * بقافية انفاذها تقطر الدما
واني لقوال لكل غريبة * ورود اذا الساري بليل ترنما
خروج بأفواه الرواة كأنها * قرا هندواني اذا هز صمما
غرائب آلاف اذا حان وردها * أخذن طريقا للقصائد معلما

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الابيات لتقدم بها الشعراء وسأذكر من هجائه
الفرزدق ما ليس فيه شيء من تلك المعاني الاربعة التي أشار البحتري اليها
فمن ذلك قوله

وقد زعموا أن الفرزدق حية * وما قتل الحيات من أحد قبلي
ألم ترني لا أتبل رميتي * فمن أرم لا تخطئ مقاتله نبلي
رأيتك لا تحمي عقالا ولم ترد * قتالا فلا قيت شرا من القتل

وقوله
أبلغ هديتي الفرزدق انها * عبء تزاد على حمير مثقل
اني انصببت من السماء عليكم * حتى اختطفتك يا فرزدق من عل

وقوله
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا * فابشر بطول سلامة يا مربع
ورأيت نبلك يا فرزدق قصرت * ورأيت قوسك ليس فيها منزع
ان الفرزدق قد تبين لؤمه * حيث التقت حشاؤه والاخدع

وقوله
أحارث خذ من شئت منا ومنهم * ودعنا نقس مجدا تعد فضائله

لبئست ملاحي والفرزدق لعنة • عليه وشاما كرح وملاحه
ولست بذي عز ولا ذي أرومة • وما أعط من ضيم فإنك قابله

وقوله

لا يحتقين عليك أن تحاشما • لو يسعون من المؤورة طاروا
مدنسون بنو الايهات أسرهم • ويقتلون ونسل الآثار

وقوله

بني مالك إن الفرزدق لم يزل • يلقي المخازي من لدن أن يفعا
مددت له الغايات حتى تركته • قعود القوافي ذا علوب موقعا

وقوله

ألا إنما كان الفرزدق ثعلبا • ضغا وهو في أشداق ليث ضبارم

وقوله

مهلا فرزدق إن قومك فيهم • خور القلوب وخفة الأحلام
الظاعنون على العمى بجميعهم • والنازلون بشر دار مقام

وقوله

إذا سمرت يوما نساء مجاشع • بدت سوأة مما تجن البراقع
مناتين من عبد الهجير كأنما • تموت في أعفاجهن الضفادع
رأت مثلا مثل الفرزدق قصرت • عن العلو لا يأبى عن العلو بارع
[illegible] • بأحسابكم إني إلى الله راجع
إذا قيل أي الناس شر قبيلة • وأعظم عارا قيل تلك مجاشع

وقوله

على الأخيطل في حبالي بعدما • عثر الفرزدق لا لعا للعاثر
لقي الفرزدق ما لقيت وقبله • طاح التعيس بغير عرض وافر
وإذا وجدوا ابن يعصر الحمزة • مرست بواني عليهم ومرائري

ولجرير مواضع كثيرة في هجاء الفرزدق غير هذه ولولا خوف الإطالة لاستقصيتها جميعها ولوسلك إلى البحتري ما زعم من أن جريرا ليس له في هجاء الفرزدق إلا تلك المعاني الأربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقر لجرير بالفضيلة وذلك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذي إذا أخذ معنى واحدا تصرف فيه بوجوه التصرفات وأخرجه في ضروب الأساليب وكذلك فعل جرير فإنه أبرز من هجاء الفرزدق بالقين كل غريبة وتصرف فيه تصرفا مختلف الأنحاء فمن ذلك قوله

ألهى أباك عن المكارم والعلا • لي الكتائف وارتفاع المرجل

وقوله

وجد الكتيف ذخيرة في قبره • والكلبتين جعن والمنشار
يبكي صداه إذا تهدع مرجل • أو إن تثلم برمة أعشار

قال الفرزدق رمى أكيارنا * فقالت وكيف ترمى الأكيار

وقوله

اذا آباؤنا وأبوك عدوا * أبان المقرفات من العراب

فأورثك العلاة وأورثوني * رباط الخيل أفنية القباب

يسب أبي الفرزدق فاعاره * قدوم غير ثابتة النصاب

(فانظر) أيها الواقف على كتابي هذا الى هذه الاساليب التي تصرف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالقين فقال أولا ان أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون ثم قال ثانيا انه يبكي عليه ويندبه بعد الموت المرجل والبرمة الاعشار التي يصلحها ثم قال ثالثا ان أباك أورثك آلة القيون وأورثني أبي رباط الخيل وقد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الاساليب التي ذكرتها ولا حاجة الى التطويل بذلك ههنا وهذا القدر فيه كفاية وحيث انتهى بنا القول الى ههنا فلنرجع الى النوع الذي نحن بصدد ذكره وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد فما جاء منه قول النابغة

اذا ما غزا بالجيش حلق فوقه * عصائب طير تهتدي بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله * اذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا وأوردوه بضروب من العبارات فقال أبو نواس

تتأيا الطير غزوته * ثقة بالشبع من جزره

وقال أبو مسلم بن الوليد

قد عودوا الطير عادات وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال أبو تمام

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى * بعقبان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها * من الجيش الا أنها لم تقاتل

(وقد ذكر) في هذا المعنى غير هؤلاء الا أنهم جاؤا بشيء واحد لا تفاضل بينهم فيه الا من جهة حسن السبك أو من جهة الايجاز في اللفظ ولم أر أحدا أغرب في هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده اليها الا مسلم ابن الوليد فقال

أشربت أرواح العدا وقلوبها * خوفا فأنفسها اليك تطير

لو حاكمتك فطالبتك بذحلها * شهدت عليك ثعالب ونسور

(وهذا) من المليح البديع الذي فضل به مسلم غيره في هذا المعنى * وكذلك فعل أبو الطيب المتنبي فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذه الطريق التي سلكها من تقدمه إلا أنه خرج بها إلى غير المقصد الذي قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الإحسان بجملته وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره (فمما جاء منه) قوله

تفدّى أتم الطير عمراً سلاحه * نسور الملا أحداثها والقشاعم

وما ضرها خلق بغير مخالب * وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أورد هذا المعنى في موضع آخر من شعره فقال

سحاب من العقبان يزحف تحتها * سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى يدخل في طرق الإغراب والإعجاب وقال في موضع آخر

وذي لجب لا ذو الجناح أمامه * بناج ولا الوحش المثار بسالم

تمر عليه الشمس وهي ضعيفة * تطالعه من بين ريش القشاعم

إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة * تدور فوق البيض مثل الدراهم

(وهذا) من إغراب أبي الطيب المشهور ولو لم يكن له من الإحسان في شعره إلا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم (ومما ينتظم بهذا النوع) ما تواردا عليه أبو عبادة البحتري * وأبو الطيب المتنبي في وصف الأسد وقصيدتاهما مشهورتان فأول إحداهما * أجدك ما ينفك يسري لزينب * وأول الأخرى

في الخد إن عزم الخليط رحيلا * أما البحتري فإنه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة في أبياته الرائية التي أولها

أفاطم لو شهدت ببطن خبت * وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

وهذه الأبيات من النمط العالي الذي لم يأت أحد بمثلها وكل الشعراء لم تسم مراتبهم إلى استخراج معنى ليس مذكوراً فيها ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحتري وأبي الطيب فيما أورداه من المعاني في هذا المقصد المشار إليه فما جاء للبحتري من قصيدته

وما تنقم الحساد إلا أصالة * لديك وعزماً أريحياً مهذبا

وقد جربوا بالأمس منك عزيمة * فضلت بها السيف الحسام المجربا

غداة لقيت الليث والليث مخدر * يحدد ناباً للقاء ومخلبا

إذا شاء غادى عانة أو غدا على * عقائل سرب أو تقنص ربربا

شهدت لقد أنصفته حين تنبري • له مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما • عراكا اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغي هزبرا وأغلب • من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة • رآك لها أمضى جنانا وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا • وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا • ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى • ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

ومما لأبي الطيب المتنبي في قصيدته

أمعفر الليث الهزبر بسوطه • لمن ادخرت الصارم المصقولا
ورد اذا ورد البحيرة شاربا • ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس • في غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه الا ظنتا • تحت الدجى نار الفريق حلولا
في وحدة الرهبان الا أنه • لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه • فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرته الى يأفوخه • حتى يصير لرأسه اكليلا
قصرت مخافته الخطى فكأنما • ركب الكمي جواده مشكولا
ألقى فريسته وبربر دونها • وقربت قربا خاله تطفيلا
فتشابه القربان في اقدامه • وتخالفا في بذلك المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما • متنا أزل وساعدا مفتولا
مازال يجمع نفسه في زوره • حتى حسبت العرض منه الطولا
وكأنما غرته عين فادنى • لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك • في عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف • من حتفه من خاف مما قيلا
خذلته قوته وقد كافحته • فاستنصر التسليم والتجديلا
سمع ابن عمته به وبحاله • فنجا يهرول أمس منك مهولا
وأمر مما فر منه فراره • وكقتله أن لا يموت قتيلا
تلف الذي اتخذ الجراءة خلة • وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

قوله أمعفر الليث الهزبر الخ في خلال الأبيات المذكورة أبيات أخر كثيرة ١٨

(وسأحكم) بين هاتين القصيدتين والذي يشهد به الحق وتنفيه العصبية
ان كرات معاني أبي الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ألا ترى أن البحتري
قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح في تشبيهه بالأسد مرة وتفضيل
عليه أخرى ولم يأت بشيء سوى ذلك وأما أبو الطيب فانه أتى بذلك في بيت واحد
وهو قوله أمعفر الليث الهزبر بسوطه * لمن ادخرت الصارم المصقولا
ثم انه تفنن في ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ووصف أحواله في انفراده
في جنسه وفي هيئة مشيه واختياله ووصف خلق نجله مع شجاعته وشبه الممدوح
به في الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ثم انه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية
التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح وأخرج ذلك في أحسن مخرج
وأبرزه في أشرف معنى وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف
بديهة النظر ما أشرت اليه والبحتري وان كان أفضل من المتنبي في صوغ الألفاظ
وطلاوة السبك فالمتنبي أفضل منه في الغوص على المعاني ومما يدلك على ذلك
أنه لم يعرض لما ذكره في أبياته الرائية لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني
واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه
البحتري من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا ولما كان الأمر
كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزا
(واعلم) أن من أبين البيان في المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان
منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان كتوارد البحتري والمتنبي ههنا
على وصف الأسد وهذا أبين في المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه
هذا في بيت من الشعر أو بيتين ويصوغه الآخر في مثل ذلك فان بعد المدى
يظهر ما في السوابق من الجواهر وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر فاذا
شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر الى قصيدتيهما في مراثي النساء
التي مفتتح احداهما بأخت خير أخ يا بنت خير أب * كناية بهما عن أكرم العرب
وهي لأبي الطيب ومفتتح الأخرى

غروب دمع من الأجفان تنهمل * وحرقة بغليل الحزن تشتعل

وهي للبحتري فان أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به في معاني قصيدته والبحتري أتى
بما أكثره غث بارد والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل (ومن

الواجب) أنه اذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا في غرض من الاغراض أن لا يخرج منه كالذي سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة فان من حذاقة الصنعة أن يذكر ما يليق بالمرأة دون الرجل وهذا الموضع لم يأت فيه أحدهما بشيء على الحق الا أبو الطيب وحده وأما غيره من مفلقي الشعراء قديما وحديثا فانهم قصروا عنه وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها

نعد المشرفية والعوالي • وتقتلنا المنون بلا قتال

وكفى بهما شاهدا على ما ذكرته من انفراده بالابداع فيما أتى به والفتيا عندي بينه وبين البحتري أن أبا الطيب أنفذ في المضيق وأعرف باستخراج المعنى الدقيق وأما البحتري فانه أعرف بصوغ الالفاظ وحوك ديباجتها وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين في اتفاقهما في المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه لانهما مع الاتفاق في المعنى يتبين قولاهما ويظهران لظاهر رأيه لبديهة النظر ويتسارع اليه فهم من ليس بثاقب الفهم وأما اختلافهما في المعنى فانه يحتاج في الحكم بينهما فيه الى كلام طويل يعز فهمه ولا يتفطن له الا بعض الناس دون بعض بل لا يتفطن له الا الواحد من الناس ولي في هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم بين المعنيين المختلفين وتكلمت عليه كلاما طويلا عريضا وأقمت الدليل على ما نصصت عليه وما منعني من ايرادها في كتابي هذا الا أنها صنفت لي بعد تصنيفه وشياعه في أيدي الناس وتثاقل النسخ به وعلى هذا الاسلوب توارد البحتري والشريف الرضي على ذكر الذئب في قصيدة للبحتري دالية أولها • سلام عليكم لا وفاء ولا عهد • ومقطوعة للشريف الرضي أولها

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى • أتيح له بالليل عاري الاشاجع

وقد أجاد البحتري في وصف حاله مع الذئب والشريف أجاد في وصف الذئب نفسه (وأما المسخ) فهو قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة والقسمة تقتضي أن يقرن اليه ضده وهو قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة (فالاول) كقول أبي تمام

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل • ولكن يرى أن العيوب مقاتل

وقول أبي الطيب المتنبي

يرى أن ما ما بان منك لضارب • بأقتل مما بان منك لعائب

ثم وردان لم يشق المعنى فقد شوه الصورة ومثاله في ذلك كمن أودع الوشي شملا وأعطى الورد جعلا وهذا من أرذل السرقات وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان

نحن نعزيك ومنك الهدى • مستخرج والصبر مستقبل

نقول بالعقل وأنت الذي • نأوي إليه وبه نعقل

إذا عفا عنك وأودى بنا الدهر فذاك الحسن الجميل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال

إن يكن صبر ذي الرزية فضلا • تكن الأفضل الأعز الأجلا

أنت يا فوق أن تعزى عن الأحباب فوق الذي يعزيك عقلا

وبألفاظك اهتدى فإذا عزاك قال الذي له قلت قبلا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمسخ (وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة فهذا لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحا وتهذيبا (فمن ذلك) قول أبي الطيب المتنبي

لو كان ما تعطيهم من قبل أن • تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

وقول ابن نباتة السعدي

لم يبق جودك لي شيئا أؤمله • تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

وعلى هذا التصور ورد قول أبي نواس في أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها

جن على جن وإن كانوا بشر • كأنما خيطوا عليها بالإبر

ثم جاء المتنبي فقال

فكأنها نتجت قياما تحتهم • وكأنهم ولدوا على صهواتها

وبين القولين كما بين السماء والأرض فإنه يقال ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة وكذلك يقال ههنا أيضا فإن بعد ما في قول أبي نواس من النزول والضعف فكذلك في قول أبي الطيب من العلو والقوة وربما ظن بعض الجهال أن قول الشماخ

إذا بلغتني وحملت رحلي • عرابة فاشرقي بدم الوتين

وقول أبي نواس

وإذا

واذا المطي بنا بلغن محمدا • فظهورهن على الرجال حرام

من هذا القبيل الذي هو قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة وليس كذلك فان قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة هو أن يؤخذ المعنى الواحد فيكسى عبارتين احداهما قبيحة والاخرى حسنة فالحسن والقبح انما يرجع الى التعبير لا الى المعنى نفسه وقول أبي نواس هو عكس قول الشماخ وقد تقدم مثل ذلك فيما مضى من ضروب السرقات الا ترى الى قول أبي الطيب المتنبي وقول الشريف الرضي فقال أبو الطيب

اني على شغفي بما في خمرها • لأعف عما في سراويلاتها

وقول الشريف الرضي

أحن الى ما تضمن الخمر والحلى • وأصدف عما في ضمان المآزر

فالمعنى واحد والعبارة مختلفة في الحسن والقبح وهذه السرقات وهي ستة عشر نوعا لا يكاد يخرج عنها شيء واذا أنصف الناظر في الذي أتيت به هاهنا علم اني قد ذكرت ما لم يذكره غيري وانا أسأل الله التوفيق لأن أكون لفضله شكورا وان لا أكون عنه الا صبورا (واذ فرغت من تصنيف هذا الكتاب) وسردت القول في تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقائقهما وحقائقهما ينبغي أن أختمه بذكر فضلهما فأقول (اعلم) ان هذا الفن هو أشرف الفضائل وأعلاها درجة ولولا ذلك لما تفخر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة مواقف فقال تارة أنا أفصح من نطق بالضاد وقال تارة أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث في قومه وبعثت الى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأوتيت جوامع الكلم وما سمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشيء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة فلم يقل انه أفقه الناس ولا أعلم الناس بالحساب ولا بالطب ولا بغير ذلك كما قال أنا أفصح من نطق بالضاد وأيضا فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة لما اتصل الاعجاز بها دون غيرها فان كتاب الله تعالى نزل عليها ولم ينزل بشيء من مسائل الفقه ولا من مسائل الحساب ولا من مسائل الطب ولا غير ذلك من العلوم ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت في الدرجة العالية والمنزلة التي هي أشرف من العلوم لأسباب من جملتها ان الاعجاز

لم يتصل بالمنظوم وانما اتصل بالمنثور الا ترى أن أسباب النظم أكثر ولهذا نجد
المجيدين منهم أكثر من المجيدين من الكتاب بل لا نسبة لهؤلاء الى هؤلاء ولو شئت
أن تحصى أرباب الكتابة من أول الدولة الاسلامية الى الآن لما وجدت منهم
من يستحق اسم الكاتب عشرة واذا أحصيت الشعراء في تلك المدة وجدتهم
عددا كثيرا حتى انه كان يجتمع منهم في العصر الواحد جماعة كثيرة كل منهم شاعر
مفلق وهذا لا تجده في الكتاب بل ربما ندر الفرد الواحد في الزمن الطويل وليس
ذلك الا لوعورة المسلك من الأمر وبعد مناله والكاتب هو أحد دعامتي الدولة
فان كل دولة لا تقوم الا على دعامتين من السيف والقلم وربما لا يفتقر الملك في
ملكه الى السيف الا مرة أو مرتين وأما القلم فانه يفتقر اليه على الايام وكثيرا
ما يستغنى به عن السيف واذا سئل عن الملوك الذين غبرت أيامهم لا يوجد منهم من
حسن اسمه من بعده الا من حظى بكاتب خطب عنه ونظم أمر دولته وجمل
ذكرها الى ابتناء الناس رغبة في فصل خطابه واستجادة البداءة كلامه فيكون
ذلك ذكرها في عمارة ما دونه قلمه ورقمه أساطيره وليس الكاتب بكاتب حتى
يضطر عدو الدولة أن يروى أخبار مناقبها في حفله ويصبح ولسانه حامد لماعيها
ويقابله مابه من غله ولقد أحسن أبو تمام في هذا المعنى حيث قال

سأجهد حتى أبلغ الشعر شأوه * وان كان طوعا لي ولست بجاهد
فان أنا لم يحمدك عني صاغرا * عدوك فاعلم أنني غير حامد

وهذا الذي ذكرته حق وصدق لا ينكره الا جاهل به وأنا أسأل الله الزيادة من فضله
وان لم أكن أهلا له فانه هو من أهله (ووقفت على كلام لأبي اسحق الصابي)
في الفرق بين الكتابة والشعر وهو جواب لسائل سأله فقال ان طريق الاحسان
في منثور الكلام يخالف طريق الاحسان في منظومه لأن الترسل هو
ما وضح معناه وأعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه وأفخر الشعر ما غمض
فلم يعطك غرضه الا بعد مماطلة منه ثم قال بعد ذلك ولقائل أن يسأل فيقول من
أية جهة صار الاحسن في معنى الشعر الغموض وفي معاني الترسل الوضوح
فالجواب أن الشعر بنى على حدود مقررة وأوزان مقدرة وفصلت أبياته فكان كل
بيت منها قائما بذاته وغير محتاج الى غيره الا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب
فلما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلاهما

قليل احتيج الى أن يكون الفصل فى المعنى فاعتمد أن يأتلف ويدق والترسل مبنى
على مخالفة هذه الطريق اذ كان كلاما واحدا لا يتجزى ولا ينفصل الا فصولا طوالا
وهو موضوع وضع ما يهذ هذا ويمر به على أسماع شتى من خاصة ورعية وذوى
أفهام ذكية وأفهام غبية فاذا كان متسلسلا ساغ فيه وقرب بجميع ما يستصعب
فى الاول يكره فى الثانى حتى ان التضمين عيب فى الشعر وهو فضيلة فى الترسل
ثم قال بعد ذلك والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء انما أغراضهم التى
يرقون اليها وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب
بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء وأما المترسلون فانما يترسلون فى
أمر سداد ثغر واصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو
مجادلة لملة أو دعاء الى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية
أو ما شاكل ذلك هذا ما انتهى اليه كلام أبى اسحق فى الفرق بين الترسل والشعر
ولقد عجبت من مثل ذلك الرجل الموصوف بذلاقة اللسان وبلاغة البيان كيف
يصدر عنه مثل هذا القول الناكب عن الصواب الذى هو فى باب ونص التنازع فى
باب الوهم عذرا وسأذكر ما عندى فى ذلك لا لارادة الطعن عليه بل تحقيقا لمحل
النزاع فأقول أما قوله ان الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه فان
هذه دعوى لا مستند لها بل الاحسن فى الامرين معا انما هو الوضوح والبيان
على ان اطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لا يدل على الغرض الصحيح بل
صواب القول فى هذا أن يقال كل كلام من منثور ومنظوم فينبغى أن تكون
مفردات ألفاظه مفهومة لانها ان لم تكن مفهومة لا تكون فصيحة لكن اذا
صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال فى فهم معانيها فمن المركب منها
ما يفهمه الخاصة والعامة ومنه ما لا يفهمه الا الخاصة وتتفاوت درجات فهمه
ويكفى من ذلك كتاب الله تعالى فانه أفصح الكلام وقد خوطب به الناس كافة من
خاص وعام ومع هذا فمنه ما يتسارع الفهم الى معانيه ومنه ما يغمض فيعز فهمه
والالفاظ المفردة ينبغى أن تكون مفهومة سواء كان الكلام نظما أو نثرا واذا
تركبت فلا يلزم فيها ذلك وقد تقدم فى كتابى هذا أدلة كثيرة على هذا فتؤخذ من
مواضعها وأما الجواب الذى أجاب به فى الدلالة على غموض الشعر ووضوح
الكلام المنثور فليس ذلك بجواب وهب أن الشعر كان كل بيت منه قائما بذاته فلم

كان مع ذلك غامضا وجب أن الكلام المنثور كان واحدا لا يتجزى ثم كان مع ذلك
واضحا ثم لو ملت اليه هذا فماذا يقول في الكلام المسجوع الذي كل فقرة منه
بمنزلة بيت من شعر وأما قوله في الفرق بين الشاعر والكاتب ان الشاعر من شأنه
وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب
والاجتداء والمديح والهجاء وأن الكاتب من شأنه الافاضة في سداد ثغر أو
اصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لملة أو دعاء
الى الفة أو نهي عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية فان هذا تحكم محض
لا يستند الى شبهة فضلا عن بينة وأي فرق بين الشاعر والكاتب في هذا المقام
فكما يصف الشاعر الديار والآثار ويحن الى الاهواء والاوطار فكذلك يكتب
الكاتب في الاشتياق الى الاوطان ومنازل الاحباب والاخوان ويحن الى
الاهواء والاوطار ولهذا كانت الكتب الاخوانيات بمنزلة الغزل والنسيب من
الشعر وكما يكتب الكاتب في اصلاح فساد أو سداد ثغر أو دعاء الى الفة أو نهي
عن فرقة أو تهنئة أو تعزية فكذلك الشاعر فان شذ عن اصابتي قصائد الشعراء
في أمثال هذه المعاني فكيف خفي عنه قصيدة أبي تمام في استعطاف مالك بن
طوق على قومه التي مطلعها * لو أن دهرا رد رجع جواب * أم كيف أخل بالنظر
في ديوان أبي الطيب المتنبي وهما في زمن واحد فتأمل قصيدته في الاصلاح بين
كافور الاخشيدي وبين مولاه الذي مطلعها * حسم الصلح ما اشتهته الاعادي
وكذلك لا شك أنه لم يقف على قصيدة أبي عبادة البحتري في غزو البحر التي مطلعها
ألم تر تغليس الربيع المبكر * ولو أخذت في تعداد قصائد الشعراء في الاغراض
التي أشار اليها وخص بها الكاتب لاطلت وذكرت الكثير الذي يحتاج الى أوراق
كثيرة وكل هذه الفروق التي نص عليها وعددها ليست بشيء ولا فرق بين الكتابة
والشعر فيها (والذي عندي في الفرق بينهما هو من ثلاثة أوجه الاول) من جهة
نظم أحدهما ونثر الآخر وهذا فرق ظاهر (الثاني) أن من الالفاظ ما يعاب
استعماله نثرا ولا يعاب نظما وذلك شيء استخرجته ونبهت عليه في القسم الاول
المختص باللفظة المفردة في المقالة الاولى من هذا الكتاب وما أعيد ههنا منه شيئا
فأقول قد ورد في شعر أبي تمام قوله

هي العرمس الوجناء وابن ملمة * وجأش على ما يحدث الدهر خافض

وكذلك ورد في شعر أبي الطيب المتنبي كقوله

ومهمه جبته على قدمي • تعجز عنه العرامس الذلل

فلفظة المهمه والعرامس لا يعاب استعمالها في الشعر ولو استعملا في كتاب أو خطبة كان استعمالهما معيبا وكذلك ما يشاكلهما ويناسبهما من الالفاظ وكل ذلك قد ضبطته بضوابط وحددته بحدود فصلته من غيره من الالفاظ فليؤخذ من المقالة الاولى ولولا خوف التكرار لاعدته ههنا (الثالث) أن الشاعر اذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج الى الاطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلثمائة أو أكثر من ذلك فانه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه بل يجيد في جزء قليل والكثير من ذلك رديء غير مرضي والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل في الكتاب الواحد اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة وهو مجيد في ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لانا رأيناه وسمعناه وقلناه (وعلى هذا) فاني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله الى آخره شعرا وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر اللهم صل على سيدنا محمد النبي الامي وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

• (قال منهي تصحيح دار الطباعه • بحل الله بالكمال طباعه) •

لله المثل الاعلى ولنبيه من الصفة الاعلى وآله الذين انتهى اليهم الكمال وصحابته الذين بلغوا غاية الجلال وبعد فقد تم طبع هذا الكتاب الباهر الذي حوى حسنه المثل السائر على جملة البيان والمعاني مشيدا بجواهر التركيب والمباني

اذا امتحنت محاسنه أتتك • غرائب جمة من كل باب

بالمطبعة العامرة التي ببولاق مصر القاهرة ذات الشهرة العالية والمناقب الزاهية البالغة كمال الشرف بنسبتها للدائرة السنية لا زالت محاسنها بهية

في ظل صاحب السعادة الاكرم الخديو الاعظم حامي حمى الامصار مفيض العدل في الاقطار محيي رفات المكارم ناشر لواء العلوم فوق العالم عزيز مصر ووحيد العصر سعادة أفندينا المحروس بعناية ربه العلي اسمعيل بن ابراهيم ابن محمد علي حفظ الله سبحانه دولته كما حفظ رعيته وأدام مجده وخلد مجده وحرس أشباله الكرام وجعلهم غرة في جبين الايام ملحوظة دار الطباعة المذكورة بنظر ناظرها المشمر عن ساعد الجد والاجتهاد في تدبير نضارتها من لا تزال عليه اخلاقه بالطف تثنى حضرة حسين بك حسني والملتزم لهذا الطبع الظريف والوضع اللطيف من بطبعه أحيا الدارس من كتب الأوائل وكاد حاله اتقان ماله مماثل ففازت ببهجة التكثير حتى ومات النهاية الغني والفقير المتحلي بالعلوم والمعارف حضرة محمد دباشا عارف أفاض الله عليه سجال التهاني ومنحه غيوث الاماني ثم ان التصحيح بعد التنقيح كان بمعرفة الفقير الى الله سبحانه محمد الصباغ أسبغت عليه النعم أتم اسباغ فجاء بحمد الله على أتم نظام يفوق بحسنه بدور التمام واذ بلغ بدره الكمال أنشأ مؤرخا له لسان الحال

راق الشراب ورقت نغمة الامل • وطاب أنسي وعن لاحي لم أسل
وبت أجني طلا بدر يميس به • غصن على كثب يهتز عن كسل
في روضة رقصت فيها الغصون وقد • غنى الهزار وطابت نشوة الثمل
غناء قد وردت فيها الظباء على • نهر اللجين فصاغت معدن العسل
ورصفت من عقيق خاتما وحمت • بالنرجس الورد عن جان من الخول
ان شمتها اهتمت من عقد على رقة • من سحرها أو جيد صيغ من خضل
كأنما شاهدت عيناك أسطر ذي • كنز نثاره من صائب الجمل
سفر به رائد السحر الحلال على • لب المشوق أتى بالنفث والعسل
حوى من القول ما ساغت مناهله • وجل معنى وعن عيب الملال خلي
وحاز من رقة الطبع البهي سنا • منه ترى أنجم الزهراء في خجل
واذ تناهى بجميل الطبع أرخ لي • بدر الكمال زها في دارة المثل

٤٠ ٢٠٦ ١٢٢ ١٣ ٩٠ ٢١٠ ٦٠١

سنة ١٢٨٤